سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۶.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱۲ 978-964-8981-56-8
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: BP ۹۸/ض۷ن ۹ ۱۳۹۵
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الثانی عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. - ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

[redacted]

شابک: ۸ - ۵۶ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

سُورَةُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي
صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فٰاعِلُونَ ﴿٤﴾
وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاّٰ عَلىٰ
أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرٰآءَ ذٰلِكَ فَأُولٰـٓئِكَ
هُمُ ٱلْعٰادُونَ ﴿٧﴾ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ وَ
عَهْدِهِمْ رٰاعُونَ ﴿٨﴾ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ
يُحٰافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ﴿١١﴾

◄ اللّغة

أَفْلَحَ: الفلح الشقّ قيل الحديد بالحديد يفلح أي يشقّ، و الفلاح بفتح الفاء الظّفر و إدراك بغيةٍ.

خٰاشِعُونَ: خاشعة فاعل من الخشوع و هو الخضوع والتذلّل.

لِفُرُوجِهِمْ: الفروج بضمّ الفاء و الرّاء جمع فرج بفتح الفاء و سكن الرّاء و الجيم و هو بمعنى الفتق و الشقّ.

أَيْمَانُهُمْ: بفتح الألف جمع يمين.
مَلُومِينَ: جميع مَلُوم، و هو مفعول من لام يلوم و اللَّوم الذَّم.
ٱبْتَغَىٰ: الإبتغاء الطَّلب.

◄ الإعراب

إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ في موضع نصب يحافظون على المعنىٰ و قيل هو حال أي حفظوها في كلّ حال إلاّ في هذه الحال هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الجملة حال مقدّرة إمّا من الفاعل أو المفعول.

◄ التّفسير

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

قلنا في شرح اللّغات الفلاح الظَّفر و إدراك بغيةٍ، و ذلك ضربان، دنيّوي و أخرَّوي.

فالدنيوي الظَّفر بالسّعادات التّي تطيب بها حياة الدّنيا و هو البقاء و الغنى و العزّ، و فلاحٌ أخرَوي و ذلك أربعة أشياء، بقاءٌ بل فناء، و غنىً بلا فقرٍ، و عزٌّ بلا ذلٍّ، و علمٌ بلا جهلٍ و لذلك قيل لا عيش إلاّ عيش الأخرة، و كلمة، قد، للتّحقيق و المؤمنون جمع مؤمن و الإيمان عبارة عن الإعتقاد بالقلب و الإقرار باللّسان و العمل بالجوارح و الأركان على مذهب الحقّ و من النّاس من يقول أنّه عبارة عن الإعتقاد فقط، و المؤمن يقال لمن إتَّصف بالإيمان كما أنّ المسلم يقال لمن إتَّصف بالإسلام أعني الشّهادتين و قد حكم اللّه تعالى في الآية بأنّ الفلاح مختصّ بالمؤمن و لذلك لم يقل قد أفلح النّاس، أو قد أفلح المسلمون، و قد مرَّ الكلام في الفرق بين الإسلام و الإيمان غير مرّةٍ فيما مضى مع أنّه يكفينا:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَ لَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ**[1].

١- الحُجرات = ١۴

قيل معنى أفلح، فار أي فازوا بثواب اللّه الّذين صدَّقوا باللّه بوحدانيّته و صدَّقوا رسله و قيل معناه قد سعدوا، قال لبيد:

فأعقلي أن كنت لمّا تعقلي ولقد أفلح من كان عقل

و قيل معنى أفلح، أي بقيت أعمالهم الصّالحة و منه قولهم، حيّ على الفلاح، أي بقاء أعمال الخير و معنى قد تقريب الماضي من الحال فدَّل على أنّ فلاحهم قد حصل بما هم عليه في الحال.

هذا و قد نقل بعض المفسّرين من العامّة عن الحاكم في صحيحه عن الرّسول ﷺ أنّه قال لقد أنزلت علّي عشر أيات من أقامهنّ دخل الجنّة ثمّ قرأ قد أفلح المؤمنون إلى عشر أيات، قال و مناسبتها لأخر السُّورة قبلها ظاهرة لأنّه تعالى خاطب المؤمنين بقوله: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا** و فيها لعلّكم تفلحون و ذلك على سبيل التَّرجية فناسب ذلك قوله: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** إخباراً بحصول ما كانوا رجوه من الفلاح إنتهى.

أقول ما ذكره و نقله عن الحاكم لا بأس به و هو كلذلك فأنّ من أقام هذه الأيات دخل الجنّة و أمّا قوله في وجه المناسبة و أنّ قوله تعالى: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** إلى قوله: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** على سبيل التَّرجية فناسب ذلك قوله: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** إخباراً بحصول ما كانوا رجوه من الفلاح فليس بشئٍ و لعلَّه تخيَّل أنّ لكمة، لعلَّ، في قوله: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**، للتَّرجي و لم يعلم أنّ التَّرجي بالنّسبة إلى علاّم الغيوب لا معنى له و أنّما هو كذلك بالنّسبة إلينا فهذه الكلمة من اللّه تعالى، بمعنى، كى، فقوله: **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** أي لكي تفلحون أي أنّ إقامة هذه الأيات توجب الفلاح قطعاً و إن شئت قلت لا نعني بالفلاح إلاّ هذه و على هذا فكأنّه قيل و كيف يحصل الفلاح فقال تعالى هو يحصل بكذا وكذا ثمّ أنّ اللّه تعالى وصف المؤمنين الّذين يحصل لهم بالفلاح بأمورٍ لابدّ من حصولها حتّى يتّرتب عليه الفلاح الّذي ذكره في صدر الآية.

أحدها: قوله **اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**

الصّلاة على ما قال أكثر أهل اللّغة هي الدّعاء و التّبريك و التّمجيد يقال صلّيت عليه أي دعوت له و زكّيت و إلى هذا المعنى أشير بقوله تعالى مخاطباً للنّبى:

وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا اَلَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ**(٢).

فصلوات اللّه و صلوات الرّسول للمسلمين في التّحقيق تزكية إيّاهم و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوٰاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ**(٣).

و الصَّلوة من الملائكة في حقّ المسلمين هي الدّعاء و الإستغفار كما هي كذلك من النّاس:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ وَ مَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى اَلنَّبِيِّ**(٤).

فالصّلاة التّي هي العبادة المخصوصة أصلها الدّعاء و سمّيت هذه العبادة بها كتسمية الشّئ بإسم بعض ما يتّضمنه و قيل أنّها من العبادات التّي لم تنفك شريعة منها و أن إختلفت صورها بحسب شرع فشرع و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَلصَّلوٰةَ كٰانَتْ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ كِتٰابًا مَوْقُوتًا**(٥).

و قال تعالى حكايةً عن عيسى إبن مريم: **وَ أَوْصٰنِي بِالصَّلوٰةِ وَ اَلزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا**(٦).

و قال بعض المحقّقين أصل الصّلاة من الصَّلاء قال و معنى صلّى الرّجل أنّه أزال عن نفسه بهذه العبادة الصَّلاء الّذي هو نار اللّه الموقدة أقول و أنّما قال ذلك لأنّ أصل الصَّلي لإيقاد النّار يقال صلي بالنّار بكذا أي بلي بها، و صلّيت الشّاة شوّيتها وهي مصلّية و منه:

١- التّوبة = ١٠٣
٢- الأحزاب = ٥٦
٣- البَقَرة = ١٥٧
٤- الأحزاب = ٥٦
٥- النّساء = ١٠٣
٦- مريم = ٣١

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ**.

قال اللّه تعالى: **تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ يَصْلَىٰ سَعِيرًا**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**(٣).

قال اللّه تعالى: **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**(٤).

و هكذا إذا عرفت الصّلاة بحسب اللُّغة فإعلم أنّ موضع العبادة أيضاً يسمّى بالصّلاة و لذلك سمّيت الكنائس صلوات كقوله تعالى: **لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ**(٥).

و أنّما خصّ المؤمنين بذلك لأنّ المؤمن ينتفع بالصّلاة و هو الّذي يقوم بالأمر و النّهي ثمّ أنّ الصّلاة من أعظم الواجبات و أشرفها و أفضلها و أوّل ما يحاسب العبد به يوم القيامة فأن قبلت قبل ما سواها و أن ردّت ردّ ما سواها، و قيل هي أوّل الواجبات في الشّريعة المقدّسة و كفى في فضلها أنّها لا تسقط بحالٍ لا في سفرٍ و لا في حضرٍ و لا في صحّةٍ و لا في مرض حتّى الغريق و المطار فلا يتركها بل يؤتى بها كيف ما تيَسر و كذا لا تسقط عن الشّيخ الكبير ولو كان همّاً بخلاف غيرها من المفروضات فأنّه قد يسقط في بعض الأحوال كالصّوم بالنّسبة إلى الشّيخ الفاني و المريض و المسافر و الحجّ و الزّكوة و أمثالها من الواجبات المشروطة و قد يستفاد من بعض الأخبار وجوبها علىٰ فاقد الطّهارة أيضاً.

و في قوله: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**، إشارة بل دلالة علىٰ عدم وجوبها علىٰ غير المكلّف من الصّغير و المجنون لعدم إتّصافهما بالإيمان نعم هما في حكم المؤمنين، و أعلم أنّ وجوبها من ضروريّات الّدين و هي من أفضل الأعمال.

١- الغاشية = ٤ ٢- الانشقاق = ١٢

٣- النساء = ١٠ ٤- المدثر = ٢٦

٥- الحجّ = ٤٠

ففي صحيحة معاوية بن وهب أنّه سأل أبا عبد اللّه من أفضل ما يتّقرب به العباد إلى ربّهم فقال عليه السلام لا أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من الصّلاة إنتهى.

كيف و قد روي أنها عمود الدّين و أنّه أوّل ما ينظر فيه من عمل إبن آدم.

و روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لو كان على باب دار أحدكم نهر فإغتسل منه كلّ يوم خمس مرّات أكان يبقى علىٰ جسده من الدّرن شئ قلنا لا قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأنّ مثل الصّلاة كمثل النّهر الجاري كلّما صلّى صلوةً كفّرت ما بينهما من الذّنوب إنتهى.

و الأخبار في فضل الصّلوة كثيرة جدّاً و لا نحتاج إلى ذكرها في المقام بعد أن ذكر اللّه تعالى الصّلوة و فضلها في كثير من الأيات و هو ظاهر و أمّا الخشوع فيها، فقد قلنا في شرح اللّغات أنّ الفلاح هو القول بالأماني و الظّفر بالمطلوب و هو هنا الخلاص من العذاب المقيم و الخلود في النّعيم الدّائم، و دخول، قد، على الماضي أفاد القطع بذلك أي أنّ الفلاح يحصل بذلك قطعاً و هذه من البشارات المؤكّدة و فيها حثّهم و ترغيبهم على الإتّصاف بتلك الصّفات لينالوا تلك السّعادة، و الخشوع بضّم الخاء و الشّين المراد به خشية القلب و قد ينسب إلى الجوارح بأن يلزم كلّ جاريةٍ بما أمر به في الصّلاة من النَّظر و وضع اليدين و الرِّجلين كما هو مفصّلٌ في الأخبار الواردة من أهل البيت عليهم السّلام.

روي الشّيخ في الحسن عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال إذا إستقبلت القبلة بوجهك فلا تقلّب قلبك عن القبلة فتفسد صلواتك فأنّ اللّه قال لنبيّه:

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه(۱).

و أخشع بصرك و لا ترفعه إلى السّماء و ليكن حذاء وجهك في موضع سجودك إنتهى.

۱– البقرة = ۱۴۴

و في الفقيه إذا دخلت في صلواتك فعليك بالتَّخشع و الإقبال على صلواتك فأنّ اللّه تعالى يقول: **اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** و يقول و أنّها لكبيرة إلاّ على الخاشعين و إستقبل القبلة بوجهك ثمّ قال عليه السلام و أخشع ببصرك و لا ترفعها إلى السّماء و ليكن نظرك إلى موضع سجودك و أشغل قلبك بصلواتك فأنّه لا يقبل من صلواتك إلاّ ما أقبلت عليه منها بقلبك حتّى أنه ربّما قبل من صلوة العبد ربعها أو ثلثها أو نصفها و لكّن اللّه عزّ و جّل يتّمها للمؤمنين بالنّوافل و ليكن قيامك للصّلوة قيام العبد الذّليل بين يدي الملك الجّليل و أعلم أنّك بين يدى من يراك و لا تراه و صلّ صلوة مودّعٍ كأنّك لا تصّلي بعدها و لا تعبث بلحيتك و لا برأسك و لا بيديك و لا تتثائَب و لا تتمّطى و لا تكّفر فإنّما يفعل ذلك المجوس و لا تلّثم و لا تحتقن و تفرَّج كما يتَّفرج البعير و لا تقَّع على قدميك و لا تفرش ذراعيك و لا تفرقع أصابعك فأنّ ذلك كلّه نقصاً في الصّلوة و لا تقم الى الصّلوة متكاسلاً و لا متناعساً ولا متثاقلاً فأنّها من خلال النّفاق فأنّ اللّه نهى المؤمنين أن يقوموا للصّلٰوة و هم سكارى يعني سكر النَّوم و قال للمنافقين و إذا قاموا الى الصّلوة قاموا كسالى يراؤن النّاس ولا يذكرون اللّه إلاّ قليلاً و هذا معنىٰ الخشوع في الصّلٰوة إنتهى.

و روي عن النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه رآى رجُلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما أنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: لا تجتمع الرَّغبة و الرَّهبة في قلبٍ إلاّ و جبت له الجَّنة فإذا صلَّيت فأقبل بقلبك على اللّه عزّ وجّل فأنّه ليس من عبدٍ مؤمن يقبل على اللّه إلاّ أقبل اللّه بقلوب المؤمنين إليه و أيَّده مع مودَّتهم إيّاه بالحسنة إنتهى.

و عن الصّادق عليه السلام قال عليه السلام: كان علّي بن الحُسين إذا قام في الصّلوة تغّير لونه فإذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يوفض عرقاً إنتهى.

و عنه عليه السلام قال كان أبي يقول كان علّي بن الحسين إذا قام في الصّلاة كأنّه ساق شجرة لا يتّحرك منه شئ إلاّ ما حرّكت الرّيح منه إنتهى.

و روي أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام إذا قام في الصّلاة أزيلت عنه النّصال المثبتة في بدنه الشّريف ولم يخش لذلك و ذلك لشّدة إقباله على اللّه في تلك الحال إنتهى و الأخبار في الباب كثيرة[١].

و حيث إنّجر الكلام إلى هذا المقام فلا بأس بذكر ما ينبغي مراعاته في الصّلاة فنقول:

قال بعض المحقّقين إعلم أنّ الصّلاة معجون سماوي و تركيبٌ إلهيٌ ركّبت من أجزاء كثيرة مختلفة متفاوتة في الفضل و الإهتمام بها فبعضها بمنزلة الرُّوح و بعضها بمثابة الأعضاء الرّئيسية و بعضها بمنزلة سائر الأعضاء إذا عرفت هذا فإعلم أنّ صلاتك قربةً و تحفةً تَتَّقرب بها إلى حضرة الملوك كوصيفة يهديها طالب القرب و الجاه من السّلاطين إليهم و هذه التُّحفة تعرض على اللّه ثمّ ترّد اليك في يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها أو تقبيحها فَمن أدّاها على النّحو المأمور به بأعمالها الواجبة و المندوبة و شرائطها الظّاهرة و الباطنة مع الإخلاص و حضور القلب كان كمن أهدى عبداً صحيحاً سوّياً شابّاً جميلاً عقلاً كاملاً إلى ملك الملوك ومن إقتصر على أعمالها الظّاهرة و غفل عن الحضور و التَّوجه و القربة و الإخلاص كان كمن أهدى عبداً ميتاً بلا روح إلى ملك من الملوك و قد ورد أمّ كلّ صلاةٍ لا يتّم الإنسان ركوعها و سجودها فهي الخصم الأوّل على صاحبها يوم العرض الأكبر تقول ضيَّعك اللّه كما ضيَّعتني إلى أن قال فتقول المعاني للباطنة التّي هي روح الصّلاة و حقيقتها سبعة:

الأوّل: الإخلاص و القربة و خلُّوها عن شوائب الرّياء.

١- أيات الأحكام للجزائري ص ٣٢

الثّاني: حضور القلب و هو أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له و متكلّمٌ به حتّىٰ يكون العلم مقروناً بما يفعله و ما يقوله من غير جريان الفكر في غيرهما فمهما إنصرف الفكر عن غير ما هو فيه و كان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلةٍ عنه فقد حصل حضور القلب ثمّ حضور القلب قد يعبّر عنه بالإقبال على الصّلاة و التّوجه و قد يعبّر عنه بالخشوع بالقلب فأنّ الخشوع في الصّلاة خشوعان، خشوعٌ بالقلب و هو أنّ يتّفرغ لجمع الهمّة لها و الإعراض عمّا سواها بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود.

و خشوعٌ بالجوارح و أن يغُضّ بصره و لا يلتفت و لا يعبث و لا يتّثائب و لا يتّمطىٰ و لا يفرقع أصابعه و بالجملة لا يتّحرك لغير الصّلاة و لا يفعل شيئاً من المكروهات و ربّما عبّر عن ذلك بالخضوع.

الثّالث: التّفهم معنى الكلام و هو أمرٌ وراء حضور القلب فربّما يكون القلب حاضراً مع اللّفظ و لا يكون حاضراً مع معناه فالمراد بالتّفهم هو إشتغال القلب على العلم بمعنى اللّفظ و هذا مقام يتفاوت فيه النّاس قطعاً.

الرّابع: التّعظيم و هو أمرٌ ثراء حضور القلب و التّفهم إذا الرّجل ربّما يخاطب غيره و هو حاضر القلب فيه و متّفهمٌ لمعناه و لا يكون معظماً له.

الخامس: الهيبة و هي زائدة على التّعظيم لأنّها عبارة عن خوفٍ منشأه التّعظيم لأنّ من لا يخاف لا يسمّىٰ هائباً ثمّ كلّ خوفٍ لا يسمّىٰ مهابة بل الهيبة خوف مصدره الإجلال.

السّادس: الرّجاء و لا ريب في كونه زائداً عمّا ذكروا لعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب اللّه كما أنّه خائف بتقصيره عقابه.

السّابع: الحياء و مستنده إستشعار تقصيرٍ و توّهم ذنبٍ و هو زائد على التّعظيم و الخوف و الرّجاء و غيرها وفي أخبار موسى عليه السلام يا موسى إذا ذكرتني فأذكرني و أنت تبغض أعضائك و كن عند ذكري خاشعاً مطّمئناً و إذا ذكرتني

فأجعل لسانك من وراء قلبك و إذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذّليل و ناجني بقلبٍ وجلٍ و لسانٍ صادقٍ.

و في بعض الأحاديث القدسيّة ليس كلّ مصّلٍ أتّقبل صلاته أنّما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتّكبر على عبادي و الأحاديث في الباب كثيرة جدّاً و فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب.

الأمر الثّانى: ممّا يدخل تحت الفلاح قوله تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ.**

هذا هو الوصف الثّاني للمؤمنين الذّين حكم اللّه لهم بالفلاح، و هو الإعراض عن اللّغو قيل اللّغو من الكلام ما لا يعتّد به و هو الّذي يورد لا عن روّيةٍ و فكرٍ فيجري مجرى اللّغا و هو صوت العصافير و نحوها من الطّيور و قد يسمّى كلّ كلام قبيح لغواً:

قال اللّه تعالى: **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لا كِذَّابًا**(۱).

قال اللّه تعالى: **وَ إِذا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ**(۲).

قال اللّه تعالى: **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لا تَأْثِيمًا**(۳).

قال اللّه تعالى: **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلامًا**(۴).

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا**(۵).

و غيرها من الأيات و الإعراض عن اللّغو تركه و لوضوح المعنى و دلالة الأيات على قبحه و لا نحتاج إلى بسط الكلام فيه و ذكر الأخبار الواردة في الباب فأنّ كلّ عاقلٍ يعلم معنى اللّغو و يحكم عقله بقبحه فضلاً عن الشّرع و من المعلوم أنّ القبح العقلي ملازمٌ للقبح الشّرعي فيجب الإجتناب منه.

۱- النّبأ = ۳۵
۲- القصص = ۵۵
۳- الواقعة = ۲۵
۴- مَريم = ۶۳
۵- الفرقان = ۷۲

الثّالث: قوله تعالىٰ **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ**

هذا هو الوصف الثّالث للمؤمنين و المعنى الذّين يؤدّون الزّكوة عن أموالهم إذا وجبت، الزّكاة في الأصل النُّمو الحاصل عن بركة اللّه تعالى و يعتبر ذلك بالأمور الدُّنيوية و الأخرويّة يقال زكا الزَّرع يزكو إذا حصل منه نمّوٌ و بركة هذا في اللُّغة و أمّا في الإصطلاح عند المتّشرعة فهي تطلق على القدر المخرج بأمر الشّارع من المال الذّي بيّن تعلّقها فيه و قد تطلق على ما يشمل الصَّدقة المندوبة و لا إشكال في أصل وجوبها بل هي من ضروريّات الإسلام ولذلك يحكم بإرتداد من أنكرها في الدّين وكفى في فضلها و شرفها ذكرها عقيب الصّلاة في أكثر الموارد وكيف كان فهي واجبة كتاباً و سنّةً و إجماعاً و عقلاً:

قال اللّه تعالى: **وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَ ٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى ٱلدِّينِ**(٣).

قال اللّه تعالى: **مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَ أَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَ ٱلزَّكَوٰةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا**(٥) و غيرها من الأيات.

و أمّا الأخبار فهي أيضاً كثيرة نشير إلىٰ شطرٍ منها تيّمناً وتبّركاً بها.

١- البَقَرة = ٤٣
٢- البقرة = ٨٣
٣- التّوبة = ١١
٤- التّوبة = ١٨
٥- مَريم = ٥٥

مارواه الشّيخ بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: صلاةٌ مكتوبة خيرٌ من عشرين حجّةً و حجّةٌ خير من بيت مملؤٌ ذهباً ينفق في برٍ حتّى ينفد ولا أفلح من ضيَّع عشرين بيتاً من ذهب بخمسة و عشرين درهماً قال قلت ما معنى خمسة و عشرين قال عليه السلام: من منع الزّكوة وقفت صلاته حتّى يزّكى إنتهىٰ.

و روى في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: من منع قيراطاً من الزّكوة فليس بمؤمنٍ و لا مسلمٍ و هو قول اللّه عزّ وجلّ ربّ أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت إنتهى.

و في روايته الأخرى عنه عليه السلام قال: من منع قيراطاً من الزّكٰوة فليمت أن شاء يهودّياً و أن شاء نصرانياً إنتهى.

و قد ورد أنّ النّبي قد أخرج خمسة نفر من المسجد قال صلى الله عليه وآله وسلم: أخرجوا من مسجدنا لا تصّلوا فيه و أنتم لا تزّكون إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: دمان في الإسلام حلال لا يقضي فيهما أحد حتّى يبعث اللّه قائمنا أهل البيت فإذا بعثه اللّه عزّ وجلّ حكم فيهما بحكم اللّه لا يريد عليهما بيّنة الزّاني المحصن يرجمه و مانع الزّكوة يضرب عنقه إنتهى.

و روي في الكافي عن محمّد بن مسلم قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ سيطّوقون ما بخلوا به يوم القيامة الآية فقال عليه السلام: يا محمّد ما من أحدٍ منع من زكوة ماله شيئاً إلاّ جعل اللّه عزّ وجلّ ذلك يوم القيامة ثعباناً من نارٍ مطّوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب ثمّ قال عليه السلام هو قول اللّه عزّ وجلّ سيطّوقون الآية ما بخلوا به من الزّكوة إنتهى.

و في الموّثق عن أيّوب بن راشد قال سمعت أبا عبد اللّـه عليه السلام يقول: مانع الزّكوة يطّوق بحيّةٍ قرعاء تأكل من دماغه و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ: سَيُطَوَّقُونَ مٰا بَخِلُوا به.

و إذا كان الأمر على هذا المنوال فمعنى الآية لا خفاء فيه وقد مرَّ الكلام في الزّكوة و و جوبها و ما يتّعلق بها في سورة البقرة و غيرها.

الرّابع: قوله تعالىٰ **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ**

هذا هو الوصف الرّابع الثّابت للمؤمنين الذّين فازوا بالفلاح ثمّ إستثنى منه فقال:

إِلَّا عَلىٰٓ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرٰآءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْعٰادُونَ

الظّاهر أنّ الجار أعني قوله: لفروجهم متعلّق، يحافظون، و التّقدير و الذين هم حافظون لفروجهم، قدّم الجار للإهتمام و المبالغة في صونها و عدم كشفها للزّناء أو ما يشمل النّظر إليها.

روي في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّـه عليه السلام في قوله قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، قال عليه السلام: كلّ شيءٍ في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّناء إلاّ هذه الآية فأنّها من النَّظر إنتهىٰ.

أقول و على هذا فمعنى قوله: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ،** يحفظونها عن النَّظر إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم و هو النّكاح بالملك أي بملك يمين فأنّهم غير ملومين في النَّظر فمن إبتغى أي طلب غير ما ذكرناه فأولئك هم العادون.

إعلم أنّ الفرج بفتح الفاء و سكون الرّاء و الجيم في الأصل الشّق بين الشّيئين كفرجة الحائط و الفرج يطلق على ما بين الرّحلين في الذّكر و الأنثى و كنّىٰ به عن

السّوأة و كثر حتّى صار كالصّريح فيه، و قال في المجمع الفرج من الإنسان كفلس، قبله و دبره لأنّ كلّ واحدٍ منهما منفرج و كثر إستعماله في العرف في القبل و الجمع فروج كفلوس، و الفرج الثّغر و موضع المخافة إنتهى.

و نقل الطّبرسي عن اللّيث أنّ الفرج إسم يجمع سوأت الرّجال و النّساء و المراد بالفروج هاهنا فروج الرّجال بدلالة قوله: **عَلَىٰٓ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ** إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف و المعنى أنّهم **لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ** في كافّة الأحوال إلاّ في حال تزّوجهم أو تسّريهم، أو تعلّق على، بمحذوف يدلّ عليه قوله: **غَيْرُ مَلُومِينَ** كأنّه قيل يلامون إلاّ علىٰ أزواجهم أي يلامون على كلّ مباشرٍ إلاّ على ما أطلق لهم فأنّهم غير ملومين عليه، فأن قلت هلاّ قيل من ملكت، قلت لأنّه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء و هم الأناث إنتهى.

و قال البيضاوي في قوله: **لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ،** أي لا يبذلونها إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، زوجاتهم أو سرّياتهم إلى أن قال و أنّما قال، ما ملكت، إجراءً للماليك مجرى غير العقلاء إذ الملك أصلٌ شائع فيه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول دلّت الآية على حفظ الفرج إلاّ على الأزواج أعني بها الزّوجة أو ما ملكت أيمانهم و هو ملك يمين ويعبّر عنه بالأمة، ثمّ أنّ الزّوجة على قسمين، دائمة ومنقطعة و على هذا فالفروج تحلّ بثلاثة وجوه:

نكاح بميراث، و نكاحٌ بلا ميراث و نكاحٌ بملك يمين، و المراد بالأوّل الدّائم و بالثّاني المنقطع و قد ثبت عندنا إباحة الفروج بالمتعة و أمّا عند العامّة فالنّكاح منحصرٌ بالدّائم و قد حكموا بتّحريم المتعة و لا دليل لهم عليه الأقوال عمر بن الخطّاب حيث قال متعتان محللّتان من زمن النّبي أنا أحرّمهما و أعاقب عليهما.

و للبحث فيه مقام أخر، و أمّا الأمة فيجوز وطئها لسيّدها و يجوز له تحليلها للغير أيضاً.

إذا عرفت هذا فنقول قوله: **إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ** يَشمُل الزّوجة الدّائمة و المنقطعة و قول بعض المفسّرين المتعة حدّها حدّ الإماء فمراده أنّها في حكم الإماء في عدم حصرها في الأربع و عدم الإحتياج إلى المحلّل في الثّلاث و عدم التّحريم في التّاسعة.

قال الشّيخ في التّبيان ثمّ إستثنى من الحافظين لفروجهم من لا يحفظ فرجه عن زوجته أو ما تملك يمينه من الإماء على ما أباحه اللّه له لأنّ الفروج ينبغي أن يكون على وجهٍ أباحه اللّه تعالى و ملك اليمين في الآية المراد به الإماء لأنّ الذّكور من المماليك لا خلاف في وجوب حفظ الفرج منهم ومن ملك الأيمان لا يجمع بين الأختين في الوطئ و لا بين الأمّ و البنت وكلّ ما لم يجز الجمع بينهم في العقد فلا يجوز الجمع بينهم في الوطئ بملك اليمين و لا يخرج من الآية وطئ التّمتع بها لأنّها زوجة عندنا و أن خالف حكمها حكم الزّوجات في أحكام كثيرة كما أنّ حكم الزّوجات مختلف في نفسه و ذكره تعالى هذه الأوصاف و مدحه عليها يكفي و يغني عن الأمر بها لما فيها من التّرغيب كالتّرغيب في الأمر و أنّها مرادة كما أنّ المأمور به مرادٌ و كلّها واجبٌ إنتهىٰ.

قال بعض المفسّرين أنّما قيل للجارية ملك يمين ولم يقل في الدّار، ملك يمين، لأنّ ملك الجارية أخصّ من ملك الدّار أذله نقض بنية الدّار و ليس له نقض بنية الجارية، وله عارية الدّار ولى له عارية الجارية حتّى توطأ بالعارية، فلذلك خصّ الملك في الأمة و أنّما قال: **عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**، مع تحريم وطئها على وجوه كتحريم وطئ الزّوجة والأَمَة في حال الحيض و وطئ الجارية إذا كان لها زوج أو كانت في حدّة زوج، و تحريم وطئ المظاهرة قبل الكفّارة، لأنّ المراد بذلك على ما يصحّ و يجوز ممّا بنيّة اللّه و بيّنة

رسوله في غير هذا الموضع و حذف لأنّه معلوم و هي من الأمور العارضة في هذه الوجوه أيضاً فأنّ من وطئ الزّوجة أو الأمة في الأحوال التّي حرم عليه وطئها فأنّه لا يلزمه اللّوم من حيث كانت زوجة أو ملك يمين و أنّما يستّحق اللَّوم من وجهٍ أخر و اللَّوم و الذَّم واحد إنتهىٰ.

فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ

أي ومن طلب سوى ذلك من الزّوجة و ملك اليمين فهو عاد و العادون هم الذّين يتَّعدون الحلال إلى الحرام أعاذنا اللّه منه.

الخامس: وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ

قرأ إبن كثير لأمانتهم على التّوحيد و الباقون بصيغة الجمع، هذا هو الوصف الخامس الّذي ذكره اللّه من أوصاف المؤمن أشار اللّه تعالى في هذه الآيةإلى وصفين.

أحدهما: حفظ الأمانة.

ثانيهما: رعاية العهد:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَ ٱلرَّسُولَ وَ تَخُونُوٓا أَمَانَاتِكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**(٤).

و قال تعالىٰ في العَهد: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**(٦).

١- النّساء = ٥٨
٢- الأنفال = ٢٧
٣- الأحزاب = ٧٢
٤- البقرة = ٢٨٣
٥- النّحل = ٩١
٦- البَقرة = ٢٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**[١].
قال اللّه تعالىٰ: **فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ**[٢].
قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ**[٣] و غيرها من الأيات.

و قد ظهر لك ممّا ذكرناه من الأيات أنّ ردّ الأمانة إلى صاحبها و رعاية العهد ممّا صرَّح به الكتاب و لا نحتاج بعد ذلك إلى ذكر الأخبار الواردة في الباب و مع ذلك نشير إلى شطرٍ منها.

من كتاب المحاسن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: أدُّوا الأمانة ولو إلى قاتل الحسين عليه السلام إنتهى.

و قال عليه السلام: إتّقوا اللّه و عليكم بأداء الأمانة إلىٰ من إئتمنكم فلو أنّ قاتل عليٍ عليه السلام إئتمنني على الأمانة لأدّيتها إليه إنتهى.

و عن عبد اللّه بن سنان قال دخلت على أبي عبد اللّه عليه السلام و قد صلّىٰ العصر و هو جالس مستقبل القبلة في المسجد فقلت يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ بعض السّلاطين يأمننا على الأموال يستودعناها و ليس يدفع إليكم خمسكم أفنؤديها إليهم قال عليه السلام: و ربّ هذه القبلة (ثلاث مرّات) لو أنّ إبن ملجم قاتل أبي فأني أطلبه يتّستر لأنّه قتل أبي، إئتمنني علىٰ الأمانة لأدّيتها إليه إنتهى.

و عن الكاظم عليه السلام قال: أنّ أهل الأرض لمرحومون ما تحابُّوا و أدّوا الأمانة و عملوا بالحقّ إنتهى.

و سئل أبو عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ما الّذي عرض عليهنّ وما الّذي حمل الإنسان و ما كان هذا فقال عليه السلام: عرض عليهنّ الأمانة بين النّاس و ذلك حين خلق الخلق إنتهى.

١- البقرة = ١٧٧
٢- التّوبة = ٤
٣- البقرة = ٤٠

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لي منّا من خان بالأمانة إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ما بعث اللّه نبيّاً قطّ إلاّ بصدق الحديث و أداء الأمانة إنتهى.

و قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم و صومهم و كثرة الحجّ و المعروف و طنطنتهم باللّيل أنظروا إلى صدق الحديث و أداء الأمانة إنتهى(١).

و ممّا جاء في الوفاء بالوعد و العهد ما رواه في البحار بأسناده عن أبي مالك قال قلت لعلّي بن الحسين عليه السلام أخبرني بجميع شرائع الدّين، قال عليه السلام قول الحقّ و الحكم بالعدل و الوفاء بالعهد إنتهى.

و بأسناده عن الحسين بن مصعب قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول ثلاثة لا عذر لأحدٍ فيها أداء الأمانة إلى البرّ و الفاجر و الوفاء بالعهد للبّر و الفاجر و برّ الوالدين بَّرين كانا أو فاجرين إنتهى.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال ثلاث لم يجعل اللّه لأحدٍ من النّاس فيهنّ رخصة و ساق الحديث كما مرّ.

وبأسناده عن الرّضا عليه السلام عن أباءه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من عامل النّاس فلم يظلمهم و حدَّثهم فلم يكذبهم و وعدهم فلم يخلفهم فهو ممّن كملت مرّوته و ظهرت عدالته و حرمت غيبته إنتهى.

و بأسناده عن الصّادق عليه السلام عن أباءه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أقربكم منّي غداً في الموقف أصدقكم للحديث و أداء الأمانة و أوفاكم بالعهد و أحسنكم خلقاً و أقربكم من النّاس إنتهى(٢).

و الأحاديث كثيرة هناك و فيما نقلناه كفاية لأولي الدّراية.

١- مشكاة الأنوار = ص ٥١ و ٥٢ و ٥٣

٢- بحار الأنوار كتاب العشرة ص ١٤٣ باب لزُوم الوفاء بالوَعد والعَهد

و من عجائب ما نقلوه في الوفاء بالعهد و الوعد هو قضيّة الطّائي و شريك نديم النّعمان إبن المنذر و تلخيص معناها على ما ذكره في المستطرق هو أنّ النّعمان قد جعل له يومين، يوم بؤسٍ من صادفه فيه قتله و أرداه و يوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه و أغناه و كان هذا الطّائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته و فقره فأخرجته الفاقة من محلّ إستقراره ليرتاد شيئاً لصبيته و صغاره فبينما هو كذلك إذ صادفه النُّعمان في يوم بؤسه فلمّا رآه الطّائي علم أنّه مقتول و دمه مطلول فقال حيّا اللّه الملك أنّ لي صبية صغاراً و أهلاً جياعاً و قد أرقت ماء وجهي في حصول شيئ من البلغة لهم و قد أقدمني سوء الحظّ على الملك في هذا اليوم العبوس و قد قربت من مقّر الصّبية و الأهل و هم على شفا تلفٍ من الطّوى ولن يتفاوت في قتلي بين أوّل النّهار و أخره فأن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت و أوصي بهم أهل المرّوة من الحيّ لئلا يهلكوا ضياعاً ثمّ أعود إلى الملك و أسلّم نفسي لنفاد أمره فلمّا سمع النّعمان صورة مقاله و فهم حقيقة حاله و رأى تلّهفه على ضياع أطفاله رقّ له غير أنّه قال له لا أذن لك حتّى يضمنك رجل معنا فأن لم ترجع قتلناه وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النُّعمان معه فإلتفت الطّائي إلى شريك و قال له ياشريك بن عدي:

مـــامن المـــوت إنـــهزامُ ... مـــــن لأطـــفال صـــفافٍ
عـــدموا طـــعم الطّـــعام ... بـــين جـــوعٍ و إنـــتظارٍ
و إنـــــتقادٍ و ســــــقامٍ ... يأخـــــاكـــــلّ كـــريمٍ
أنت مـــــن قـــومٍ كـــرامٍ ... يـــاأخا النُّـــعمان جـد لي
بـــــضمانٍ و إلتـــزامٍ ... و لك اللّـــــه بأنّـــــي

راجعٌ قبل الظّلام

فقال شريك بن عدي أصلح اللّه الملك عليّ ضمانه فمرّ الطّائي مسرعاً و صار النّعمان يقول لشريك إنّ صدر النّهار قد ولّى ولم يرجع و شريك يقول ليس للملك علّي سبيل حتّى يأتي المساء فلمّا قرب المساء قال النّعمان لشريك

قد جاء وقتكم قم فتأهّب للقتل فقال شريك هذا شخصٌ قد لاح مقبلاً و رجو أن يكون الطّائي فأن لم يكن فأمر الملك ممتثل قال فبينما هم كذلك و إذاً بالطّائي قد إشتدّ عدوه في سيره مسرعاً حتّى وصل فقال خشيت أن ينقضي النّهار قبل وصولي ثمّ وقف الطّائي قائماً و قال أيّها الملك مر يأمرك فأطرق النّعمان ثمّ رفع رأسه و قال و اللّه ما رأيت أعجب منكما أمّا أنت ياطائي فما تركت لأحدٍ في الوفاء مقاماً يقوم فيه و لا ذكراً يفتخر به و أمّا أنتَ يا شريك فما تركت لكريمٍ سماحة يذكر بها الكرماء فلا أكون أنا ألام الثّلاثة ألا و أنّي قد رفعت يوم بؤسي من النّاس و نقضت عادتي كرامةً لوفاء الطّائي بعهده و وعده و كرم الشّريك فقال الطّائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي … فعددت قولهم من الإضلال
أنّي إمرؤٌ منّي الوفاء سجيّةٌ … و فعال كلّ معذّبٍ مفضالٍ

فقال النّعمان ما حملك على الوفاء و فيه إتلاف نفسك فقال ديني فمن لا وفاء فيه لا دين له فأحسن إليه النّعمان و وصله بما أغناه و عاده مكرماً إلىٰ أهله و أناله ما تمنّاه إنتهى.

ما ذكرناه ملخّصاً فأنظروا إلىٰ أثار الوفاء بالوعد و العهد في الدُّنيا و إذا كان الأمر في الدّنيا كذلك فما ظنّك بالأخرة التّي هي خير و أبقى.

السّادس: ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ

قرأ حمزة و الكسائي على صلاتهم على التّوحيد لأنّ الصّلاة إسم جنسٍ يقع على القليل و الكثير و كذلك في أمانتهم، و قرأ الباقون صلواتهم على الجمع و عليها المصاحف فعلاً فمن جمع جعله بمنزلة الإسم لإختلاف أنواعها لقوله تعالىٰ: **حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ**، وقال أبو علّي الجمع أقوىٰ لأنّه صار إسماً شائعاً شرعيّاً و على هذا فالمعنى الذّين هم على صلواتهم من الواجبات و المندوبات يحافظون و هذا هو الوصف السّادس للمؤمنين فأن المؤمن يحفظ صلاته عن

الأفة قطعاً بقدر الإمكان لأنّ المراد بالمحافظة عليها شدّة الإعتناء بها بأن يداوم عليها و لا يتركها و أن يأتي بمقدّماتها و أفعالها علىٰ الوجه الكامل أو الأكمل و أن يحافظ على أداءها في أوقاتها فيأتي بها علىٰ الحدود التّي أمر بها الشّارع.

قال الصّادق عليه السلام: لها أربعة ألاف حدٍّ.

و عن الرّضا عليه السلام: لها أربعة ألاف باب.

و قد روي أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل المسجد و فيه أناس من أصحابه فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أتدرون ما قال ربّكم قالوا اللّه و رسوله أعلم قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ ربّكم يقول أنّ هذه الصّلوات الخمس المفروضات من صلاهنّ بوقتهنّ و حافظ عليهنّ لقيني يوم القيامة و له عندي عهداً أدخله الجنّة و من لم يصلهنّ لوقتّهن ولم يحافظ عليهّن فذلك إليّ أن شئت عذّبته و أن شئت غفرت له إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: أنّ العبد إذا صلّى الصّلوة في وقتها و حافظ عليها إرتفعت بيضاء تقيّة تقول حفظتني حفظك اللّه و أن لم يصلّها لوقتها ولم يحافظ عليها إرتفعت سوداء مظلمة وتقول ضيّعتني ضيّعك اللّه إنتهى.

و عن أبي بصير قال، سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أنّ أوّل ما يحاسب به العبد الصّلوة فأن قبلت قبل ما سواها و أن الصّلوة إذا إرتفعت في وقتها رجعت الى صاحبها و هي بيضاء مشرقة تقول حفظتني حفظك اللّه و إذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت الى صاحبها و هي سوداء مظلمة تقول ضيّعتني ضيّعك اللّه إنتهى[1]. و الأحاديث كثيرة في الباب جدّاً.

١- آيات الأحكام للجزائري ص ٢٨

أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ، ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ

ثمّ أخبر اللّه عمَّن إجتمعت فيه هذه الخصال المذكورة فقال: **أُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ**، أي أولئك الّذين يؤول أمرهم الى النَّعيم في الجنّة و يملكون ما يعطيهم اللّه كما يؤول أمر الوارث و في التّعبير بالأرث نكتةٌ لطيفة لا بأس بالإشارة اليها و هي أنّ الوراثة و الأرث إنتقال قنيةٍ الى الإنسان عن غيره من غير عقدٍ و لا ما يجري مجرى العقد و سمّي بذلك المنتقل عن الميت الى الحيّ فيقال للقنية الموروثة ميراث وارث، التراث أصله وارث فقلّبت الواو ألفاً و تاءً فصار تراث قال اللّه تعالى: **وَ تَأْكُلُونَ ٱلتُّرٰاثَ أَكْلًا لَمًّا**(١).

إذا عرفت الإرث و الوراثة فأعلم أنّ اللّه تعالى جعل الفردوس و هو الجنّة بمنزلة الإرث لهؤلاء المذكورين في الآية فكما أنّ الإرث حقّ الوارث فكذلك تكون الجنّة حقّاً لهم بسبب أعمالهم و إتّصافهم بالصّفات المذكورة من الخشوع في الصّلوة و الإعراض عن اللّغو و الإداء للزّكوة و هكذا و قد أشار اللّه تعالى بهذا اللّفظ و ما شابهه في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبٰادِنٰا مَنْ كٰانَ تَقِيًّا**(٣).

و في قوله: **هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ** إشارة الىٰ أنّ هذه النّعمة العظمى لا تزول عنهم أبداً و ذلك أنّ نعم الأخرة ليست لها زوال و دثور بخلاف نعم الدُّنيا فأنّها لا بقاء لها و الى هذا المعنى أشار بقوله: **هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**، هنيئاً لأرباب النَّعيم نعيمهم.

■

١- الفجر = ١٩
٢- الزّخرف = ٧٢
٣- مَريم = ٦٣

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلٰالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾
ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا
ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
ٱلْمُضْغَةَ عِظٰامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظٰامَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبٰارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ
ٱلْخٰالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا
فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰآئِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ ٱلْخَلْقِ
غٰافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً بِقَدَرٍ
فَأَسْكَنّٰاهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنّٰا عَلٰى ذَهٰابٍ بِهِ
لَقٰادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنٰا لَكُمْ بِهِ جَنّٰاتٍ مِنْ
نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ لَكُمْ فِيهٰا فَوٰاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهٰا
تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰآءَ
تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَ إِنَّ لَكُمْ
فِى ٱلْأَنْعٰامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّٰا فِى بُطُونِهٰا وَ
لَكُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَ
عَلَيْهٰا وَ عَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَ لَقَدْ
أَرْسَلْنٰا نُوحًا إِلٰى قَوْمِهِ فَقٰالَ يٰا قَوْمِ ٱعْبُدُوا
ٱللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلٰا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾
فَقٰالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مٰا هٰذٰآ إِلّٰا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شٰآءَ
ٱللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلٰآئِكَةً مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذٰا فِيٓ آبٰآئِنَا

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا
بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ
بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ ٱلتَّنُّورُ
فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِي
فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا
ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ
﴿٢٨﴾ وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَ أَنْتَ
خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَ إِنْ
كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

◀ اللّغة

شُلاٰلَةٍ: السلالّة بضمّ

السّين صفوة الشّيئ الّتي تجري قبل ثفله و كدره لأنّها متقدّمة على ثفله كتقديم السلف و الأجر على الأخرة و قد تسمّى النُّطفة أيضاً سلالة و الولد أيضاً سلالة و سليلة و الجمع سلالات و قال في المفردات سلَّ الشّيئ نزعه كسلّ السّيف من الغمد و سلّ الشّيئ من البيت على سبيل السرّقة.

طِينٍ: بكسر الطّاء التّراب و الماء المختلط و قد يسمّى بذلك و أن زال عنه قوّة الماء.

نُطْفَةً: بضمّ النّون و سكون الطّاء و فتح الفاء الماء الصّافي و يعبّر بها عن ماء الرّجل.

عَلَقَةً: بفتح العين و اللاّم و القاف، العلق الدَّم الجامد و منه العلقة قال تعالى: **خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**(١).

مُضْغَةً: بضمّ الميم و سكون الضّاد و فتح الغين، القَطعة من اللّحم قدر ما يمضغ و لم ينضج و جعل إسماً للحالة الّتي ينتهي اليها الجنين بعد العلقة.

طَرَآئِقَ: واحدها طريقة و المراد بها السّموات و الباقي واضح.

◀ الإعراب

مِنْ سُلَالَةٍ يتعلّق بخلقنا و مِنْ طِينٍ يتعلّق بمحذوفٍ لأنّه صفة لسلالة فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ خلقنا بمعنى صيَّرنا فلذلك نصب مفعولين أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ بدل أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة لأنّه نكرة و إن أضيف به متعلّق بذهاب و، علىٰ، متعلّقة بقادرون، شَجَرَةً معطوف على جنّات سَيْنَآءَ بكسر السّين و الهَمزَة على هذا أصل و ليست للتّأنيث و قد يقرأ بفتح السّين و على هذا فالهَمزة للتّأنيث إذ ليس في الكلام، فعلال، بالفتح تَنْبُتُ بضمّ التّاء و كسر الباء و فيه وجهان:

أحدهما: هو متعدٍّ و المفعول محذوف تقديره تنبت ثمرها أو جناها و الباء على هذا حال من المحذوف أي و فيه الدُّهن.

الوجه الثّاني: هو من لازم يقال نبت البقل و أنبتت بمعنى فعلى هذا الباء حال و قيل هي مفعول أي تنبت بَسبب الدُّهن، و يقرأ بضمّ التّاء و فتح الباء و هو معلوم، و يقرأ بفتح التّاء و ضمّ الباء و هو كالوجه الثّاني المذكور.

صِبْغٍ معطوف على الدُّهن و قرئ في الشّاذ بالنّصب عطفاً على موضع، بالدُّهن بِأَعْيُنِنَا في موضع الحال أي محفوظة.

١- العلق = ٢

◄ التّفسير

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ طِينٍ

قال قتادة و غيره و رواه عن سليمان و إبن عبّاس أنّ المراد بالإنسان في الآية هو آدم لأنّه النّسل من الطّين، و أيضاً عن إبن عبّاس أنّ الإنسان إبن آدم و سلالة من طين من صفوة الماء يعني المني و هو إسم جنس و الطّين يراد به آدم، و قال الزّمخشري خلق جوهر الإنسان أوّلاً طيناً ثمّ جعل جوهره بعد ذلك نطفة فجعل الإنسان جنساً بإعتبار حاليته لا بإعتبار كلّ مردودٍ منه، و من الأولى، لإبتداء الغاية و، من، الثّانية للبيان كقوله من الأوثان، إنتهى.

و الحقّ أنّها لا تكون للبيان إلاّ على تقدير أن تكون السلالّة هي الطِّين و أمّا إذا قلنا أنّه ما السُّل من الطّين فتكون لإبتداء الغاية.

أقول لا نحتاج الى هذه التّكلفات الّتي إرتكبوها في المقام في تعيين المراد بالإنسان و ذلك لأنّ الانسان يطلق على جميع أفراده آدم و من دونه و المعنىٰ إنّا خلقنا الإنسان أي جعلنا مادّة خلقه من طينٍ سواء أريد به آدم أبو البشر أو غيره فإنّ اللاّم للجنس أي جنس الإنسان كذلك و لأجل هذه الدّقيقة قال تعالى: **خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ** و لم يقل أوجدنا أو جعلنا الإنسان و ذلك لأنّ الخلق ناظرٌ الى المّادة أي جسده العنصري و اليه الإشارة بقوله:

مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ(١).

و قال في مَوضع آخر: **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ**(٢).

و من المعلوم أنّ هذا الخلق عبارة عمّا ذكرناه و أمّا الرُّوح المنفوخ فيه فهو من عالم المجرّدات و لا يعلم كيّفية خلقه إلاّ خالقه و هو الّذي يصير الإنسان به إنساناً حقيقةً و كيف كان لا شكّ أنّ مادّة خلق الجسد هي التُّراب و هو واضح.

١- طٰه = ۵۵ ٢- الحج = ۵

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ

قيل المعنى جعلنا الإنسان و هو من ولد من نسل آدم، نطفة و هي القطرة من الماء أي ماء المني الّتي يخلق اللّه منها الحيوان على مجرى العادة في التّناسل فيخلق اللّه من نطفة الإنسان إنساناً و من نطفة كلّ حيوان ما هو من جنسه و معنى، **مَكِينٍ**، أي مكينٌ لذاك بأن هيأ لإستقراره فيه الى بلوغ أمده الّذي جعل له، و قال بعض المفسّرين، القرار، مكان الإستقرار و المراد هنا الرّحم، و المكين، المتمكّن، وصف القرار به لتمكّنه في نفسه بحيث لا يعرض له إختلال أو لتمكّن من يحلّ فيه، فوصف بذلك على سبيل المجاز كقوله طريقٌ سائر، لكونه يسار فيه.

ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ

الظّاهر أنّ المراد بالخلق هو الجعل أي جعلنا النطّفة علقة و هكذا أي صيّرناه كذلك، العلقة، بفتح العين و اللاّم و القاف هي القطعة من الدّم إذا كانت جامدة، و المُضغة، بضمّ الميم و سكون الضّاد و فتح الغين هي القطعة من اللّحم و المعنى إنّا جعلنا العلقة الّتي هي القطعة من الدّم لحماً، ثمّ أخبر أنّه جعل المضغة عظاماً، و قرأ إبن عامر و غيره، عظماً، فمن قرأ بصيغة الجمع كما عليها المصاحف أراد ما في الإنسان من إقطاع العظم و من، أفرد، و قال عظماً، أراد به الجنس والمآل واحد ثمّ بيّن اللّه تعالى أنّه يكسوا تلك العظام لحماً، ينشأه فوقها كما تكسى الكسوة و قوله: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**، يعني ينفخ الرّوح فيه، و قيل نبات الأسنان و الشّعر و إعطاء العقل و الفهم، و قيل خلقاً آخر معناه ذكراً أو أنثى قاله الشّيخ في التبيّان.

و أمّا قوله: **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** قيل معنى تبارك إستحقّ التّعظيم بأنّه قديم لم يزل و لا يزال و هو مأخوذ من البروك و هو الثبوت و قوله أحسن الخالقين قيل فيه دلالة على أنّ الإنسان قد يخلق حقيقة لانّه لو لم يوصف بخالق إلاّ اللّه لما كان لقوله: **أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** معنى إنتهى.

أقول ما ذكره هذا القائل لا يرجع الى محصّلٍ بل الحقّ أنّ الأمر صار مشتبهاً عليه ولم يعلم أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و هكذا ما يخلق العبد و أن كان ظاهراً مستنداً اليه إلاّ أنّه في الواقع يستند الى اللّه الّذي خلق الخلق نعم هو واسطة في الخلق فقوله إنّ الإنسان قد يخلق حقيقةً لا معنى له و قوله: **أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** لا يدلّ على كثرة الخالق حقيقةً بل يدلّ على كثرته مجازاً فأنّ الخالق الحقيقي ليس إلاّ اللّه تعالى فهو من قبيل قوله: **أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ، وأكرم الاكرمين**، و كيف كان ففي هذه الأيات أشار اللّه تعالى الى مراتب خلق الإنسان و تطوّراته في عالم الرَّحم و أنّ الإنسان كان في أوّل الأمر نطفة ثمّ صار علقة ثمّ صار مضغة و هكذا الى أن صار إنساناً فقوله: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا اٰخَرَ** إشارة الى خروج الموجود في الرَّحم من عالم الحيوانيّة و دخوله في عالم الإنسانيّة ببركة الرُّوح الّتي قال اللّه تعالى فيها: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**(١) و يُستفاد من هذا الكلام أنّ الإنسان قبل تعلّق الرُّوح به كان من سنخ الحيوان لأنّ الحيوان أيضاً في مراتب الخلقة الى قوله: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا اٰخَرَ** يكون شريكاً مع الإنسان في طيّ المراتب من النُّطفة و المضغة و لا فرق بينهما من هذه الجهات حتّى في الرُّوح الحيواني و إنّما يفترق منه في الرُّوح الإنساني الّتي قد يعبّر عنها بالنَّفس النّاطقة القدسيّة حيث أنّ الحيوان فاقدٌ لها و استفدنا من هذه الآية أنّ الإنسان في الحقيقة هو الرُّوح الإنساني وإلاّ فهو مع قطع النَّظر عنها حيوان و لأجل ذلك لم يؤمر الملائكة بالسّجود لآدم قبل تعلّق الرُّوح بجسده

١- الحجر= ٢٩

لأنّ الملك لا يسجد ولا يخضع للحيوان، وإنّي أعتقد إعتقاداً جازماً أنّ قوله تعالىٰ: **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** بعد قوله: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** إشارة الى ما ذكرناه ولولا تعلّق الرُّوح بالبدن العنصري لم يقل ما قال و الدّليل على ما ذكرناه أنّه تعالى لم يقل في خلق الحيوان فتبارك اللّه أحسن الخالقين و بعبارةٍ أخرى أنّه تعالى وصف نفسه بأنّه أحسن الخالقين في إنشائه خلقاً آخر لا في جعل النُّطفة علقة و العلقة مضغة و هكذا من المراتب الموجودة في خلق الحيوان و كيف لا يكون أحسن الخالقين و هو جعل المخلوق الّذي كان أصله تراباً نطفة في صلب الرّجل ثمّ صيَّرها علقة ثمّ مضغة الى أن جعله إنساناً له عقلٌ و فهمٌ مبايناً للخلق الأوّل مباينة ما أبعدها حيث جعله سميعاً بصيراً و جعل قلبه عرش الرّحمن و مهبط الوحي و الإلهام كما في الأنبياء و الأوصياء و أودع في باطنه ما لا يحيط به وصف الواصفين و لا شرح الشّارحين فلو عرف قدره صار أعلى و أفضل من الملائكة المقرّبين و قال مخاطباً **إيّاه عبدي أطعني حتّى أجعلك مثلي**، و قال: **لا يسعني أرضي ولا سمائي و لكن يسعني قلب عبدي المومن أنا عند قلوب المنكسرة** و هكذا و من المعلوم أنّ جميع هذه المقامات من بركات الرُّوح الّتي نفخت فيه و جعلته خلقاً آخر فحقّ للّه تعالى أن يقول فتبارك اللّه أحسن الخالقين في خلق الإنسان الّذي هو من أعجب المخلوقات لا في غيره ممّا خلق فأعرف قدرك أيّها الإنسان و لا تكن من الغافلين والحمد للّه ربّ العالمين.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و إنّما قال أنشأناه لأنّه جعل إنشاء الرُّوح فيه و إتمام خلقه إنشاءٌ له قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النِّظام في أنّ الإنسان هو الرُّوح لا البدن فأنّه سبحانه بيَّن أنّ الإنسان هو المركّب من هذه الصِّفات و فيها دلالة أيضاً على بطلان قول الفلاسفة الّذين يقولون أنّ الإنسان شئ لا ينقسم و أنّه ليس بجسمٍ إنتهى كلامه.

و فيه ما لا يخفي على النّاقد البصير و ذلك لأنّ قوله و إتمام خلقه إنشاءٌ له، لا معنى له و ذلك لأنّ إتمام الخلق معناه إتمام خلق الجسد العنصري المادّي الحيواني و إنشائه إيجاده خلقاً غير خلق الأوّل فالإنشاء بعد الخلق ولذلك أتى بكلمة، ثمّ، الّتي تفيد التّراخي و قال: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** فكيف يكون إتمام خلقه إنشاءٌ له و يستفاد من كلمة، ثمّ، تأخير الإنشاء عن الخلق و هذا ظاهر و أمّا قوله في الآية دلالة على بطلان قول النّظام في أنّ الإنسان هو الرُّوح لا البدن، ففيه أنّ القول بأن الإنسان هو الرُّوح لا البدن لا يختصّ بالنِّظام و ذلك لأنّه أحد الأقوال في المسئلة و أقواها كما ستعرف القول فيه و قوله فأنّه سبحانه بيَّن أنّ الإنسان هو المُركب من هذه الصِّفات، من عجائب الأقوال و ذلك لأنّ اللّه تعالى لم يقل ذلك ولم يبيّن أنّ الإنسان هو المرَّكب من هذه الصِّفات، و أين بيَّن هذا بل الظّاهر من الآية أنّ الإنسان هو الرُّوح إذ بعد تعلّق الرُّوح الإنساني به صار إنساناً و أمّا قبله فكان حيواناً فالإنسان هو الرُّوح لا غيرها في الحقيقة نعم يطلق الإنسان على المرَّكب في العرف ولا كلام لنا فيه.

و أمّا قوله في الآية دلالة على بطلان قول الفلاسفة الّذين يقولون أنّ الإنسان شئ لا ينقسم و أنّه ليس بجسمٍ، ففيه أمّا أوّلاً إنّا لم نسمع الى الآن هذا الكلام إلاّ منه ولنا أن نسئل عنه من الّذي منّ الفلاسفة قال بهذه المقالة و كان على الرّازي أن يسمّيه فأنّ هذا القول شطط من الكلام.

ثانياً: على فرض التّسليم فهو قول من ذهب الى أنّ الإنسان هو الرُّوح فقط و لا شكّ أنّ الرُّوح ليس بجسم و أمّا القائلون بأنّ الإنسان هو الجسم أو المركّب منه و من الرُّوح فلا يقولون أنّه ليس بجسمٍ فكيف نسب القول الى الفلاسفة هذا كلّه مضافاً الى انّ الرُّوح لم تعرف بكنهها حتّى يقال أنّها تنقسم أو لا تنقسم و محصّل الكلام أنّ قوله تعالى: **ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** أقوى دليل على ما ذكرناه و للبحث فيه مقام آخر.

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّ الإنسان بعد هذا الخلق و والأحياء يموت عند إنقضاء الأجل و هذا ممّا لاشكّ فيه عقلاً و نقلاً بل حسّاً، أمّا العقل فلأنّ الموجود على قسمين، وإن شئت قلت على ضربين:

أحدهما: أن يكون الوجود من ذاته و بذاته و لذاته و هو منحصرٌ بوجود الواجب تعالى و هذا الوجود غير قابل للزّوال و الفناء و لا يقدر أحد على سلب الوجود منه لأنّه تعالى لم يأخذه من غيره حتّى يمكن للغير أخذه فهو تعالى موجود بذاته أزلاً و أبداً فهو الباقي بعد فناء كل شئ كما كان موجوداً قبل وجود كلّ شئ غيره و لا بحث لنا فيه فعلاً فأنّ المدّعي ثابت بلاكلام.

ثانيهما: أن يكون الوجود من غيره لا من قبل نفسه و ذلك الموجود عبارة عن جميع ما سوى اللّه تعالى و الوجه فيه ظاهر، و الآية السّابقة صرّحت بذلك في حقّ الإنسان و حكم الأمثال واحد يعني جميع الخلق من الملائكة و الإنسان و الحيوان و غيرها داخل في هذا القسم، فاللّه تعالى هو المعطي و المفيض لإعطاء الوجود و إفاضته على الممكنات و لازم ذلك هو أن يكون الوجود في الخلق مستعاراً مرتبطاً بإرادة المعطي و مشيئته و نعبّر عنه بالأجل فالموت حقّ لكّل موجودٍ مخلوق لا محيص له عنه أبداً فلابدّ يوماً أن ترّد الودائع، إذا عرفت هذا فنقول، الموت حقٌّ و حتمٌ على رقاب الخلق بمعنى أنّ بقاء المخلوق من المحالات العقليّة كيف لا، و ذاته يقتضي الفناء و الدثور و يأبى عن البقاء و الدّوام كما أنّ الخالق بالعكس و إلى هذا المعنى أشير بقولهم الممكن من ذاته أن يكون ايساً و من علّته أن يكون أليساً، أي موجوداً كما قال تعالى: **ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ** و يمكن أن يستدلّ على إثبات المدَّعى و هو الموت للإنسان بالآية السّابقة أيضاً و تقريب الإستدلال أنّ الإنسان خلق من تراب و هو جماد ثمّ

صار نطفة و هي علقة و هي مضغة، وهي مرتبة النّباتية ثمّ صار حيًّا فهي مرتبة الحيوانيّة ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فهي مرتبة الإنسانيّة فهذا الموجود أعني به الإنسان مات عن الجماديّة فصار نباتاً ثمّ مات عن النّباتية فصار حيواناً ثمّ مات عن الحيوانيّة فصار إنساناً، ثمّ مات بعد ذلك كما مات قبل ذلك كما قيل بالفارسية:

أز جمادى مردم و نامى شدم   و از نما مردم ز حيوان سر زدم
مردم از حيوانى و آدم شدم   پس چه ترسم كى ز مردن كم شدم

و أمّا النّقل فلا نحتاج إلى إثباته به بعد صراحة الآيات:

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهٰا فٰانٍ، وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْـجَلاٰلِ وَ اَلْإِكْرٰامِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أَيْنَمٰا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ اَلْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُـرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ نَفْسٍ ذٰائِقَةُ اَلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنٰا تُرْجَعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ اَلْفِرٰارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ اَلْمَوْتِ أَوِ اَلْقَتْلِ**[٤]

و الآيات كثيرة.

و أمّا حسّاً، فهو واضح فإنّا نرى أنّ الأحياء يموتون واحداً بعد واحدٍ و حكم الأمثال واحدٍ.

جزء ١٨ **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ تُبْعَثُونَ**

في هذه الآية أخبر اللّه تعالى عن الحياة بعد الموت للحساب و هو أيضاً حقّ لا نشكّ فيه و الأيات مصرّحة به و قد تكلّمنا فيه سابقاً و سنتكلّم في إثباته و كيفيّته و علّته فيما يأتي بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه تعالى.

١- الرّحمٰن = ٢٧ / ٢٦
٢- النّساء = ٧٨
٣- العنكبوت = ٥٧
٤- الأحزاب = ١٦

قال اللّٰه تعالىٰ: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتًا فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ**[١].

قال اللّٰه تعالىٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذيٓ أَحْياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يُحْييكُمْ**[٢].

قال اللّٰه تعالىٰ: **قُلِ ٱللّٰهُ يُحْييكُمْ ثُمَّ يُميتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلٰى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ**[٣] والأيات كثيرة.

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰآئِقَ وَ ما كُنّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غٰافِلينَ

لمّا ذكر اللّٰه تعالى إبتداء خلق الإنسان و إنتهاء أمره إلى يوم البعث ذكّره بنعمه التّي أنعم اللّٰه بها عليه فقال: **وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰآئِقَ**، إتّفق المفسّرون علىٰ أنّ المراد بها السّموات خلقها اللّٰه فوق الخلائق و سمّاها طرائق لأنّ كلّ طبقةٍ طريقة.

و قال الجبائي لأنّها طرائق للملائكة وقيل الطّرائق السّماوات الطّباق و قيل ما بين كلّ سماء و سماء مسيرة خمس مائة عام و كذلك ما بين السّماء و الأرض و قيل غير ذلك و الأقوال المذكورة لا دليل عليها و أنّما قالوا ما قالوا من عند أنفسهم، نعم المراد بها السّموات بلا كلام و أمّا أنّها طرائق للملائكة أو بين كلّ سماء و سماء مسيرة خمس مائة عام و أمثال ذلك فلا دليل عليه قال في لسان العرب.

قال الزّجاج أراد السّموات السّبع و أنّما سميّت بذلك لتراكبها أي ركب بعضه فوق بعض و هذا هو المراد من قوله تعالىٰ: **ٱلَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ طِباقًا**[٤] أي طبقة فوق طبقة و قال بعض أهل اللّغة كلّ سماء طريقة و على هذا فالسّموات طرائق و قوله: **وَ ما كُنّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غٰافِلينَ**، معناه واضح و قيل معناه أنّه تعالى حافظ السّموات من السّقوط و حافظ عباده بما يصلحهم أي هم بمراى منّا ندّبرهم كما نشاء.

١- البقرة = ٢٨
٢- الحجّ = ٦٦
٣- الجاثية = ٢٦
٤- الملك = ٣

أقول ما ذكره لا بأس به، و الحقّ أن يقال أنّ الغفلة عن الخلق توجب إنقطاع الفيض من مبدأ الفيّاض و هو يوجب فناء الخلق بالكليّة لأنّ الممكن كما يحتاج في حدوثه إلى المؤثّر يحتاج إليه في بقاءه أيضاً و البقاء لا يكون إلاّ بإتّصال الفيض إذ لا بقاء للمعلول مع قطع النّظر عن علّته لأنّه رشحٌ من رشحات العلّة و إن شئت قلت باقٍ ببقائها فكيف يعقل بقاء المعلول مع إنقطاع الفيض هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الغفلة من شئون الممكن و أمّا الواجب فلا يعقل فيه الغفلة النّاشئة عن السّهو و النّسيان لتنزّهه عن هذه الأوصاف.

و قال بعض المفسّرين معناه ما كنّا غافلين أن ينزل عليهم ممّا يحييهم من المطر.

و قال الأخر ما كنّا غافلين عن أفعالهم و ما يستحقّون بها من الثّواب و العقاب.

و قال بعضهم ما كنّا غافلين بل كنّا حافظين للسّماء من أن تسقط عليهم فتهلكهم و الأقوال كثيرة و ما ذكرناه أكمل و أجمع و مع ذلك أنسب بسياق الآية فأنّ الآية أبيةٌ عمّا ذكروه من الإحتمالات و المستخرجات الظنيّة التّي لا تساعده العقول السّليمة و اللّه أعلم ألا ترى أنّ اللّه تعالى يقول ما كنّا عن الخلق غافلين و لم يقل حافظين أي كنّا حافظين لهم، و الفرق بين الحفظ و الغفلة ممّا لا يخفي.

وَ أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَادِرُونَ

جزء ١٨

أراد بالماء جنسه فيشمل الغيث أيضاً و قوله بقدر معناه بقدر الحاجة فأنّ الزّيادة على الحاجة توجب الفساد و نقصها يوجب هلاك الخلق و خير الأمور أوسطها ألا ترى أنّ الطّوفان في عهد نوح النّبي حدث من زيادة المطر فأفسد كلّ من في الأرض إلاّ من ركب السّفينة، كما أنّ قطع المطر أو نقصه يوجب القحط و في هذا الكلام إشارة إلى نكتةٍ تجب مراعاتها في جميع الأمور و هي الإجتناب

عن الإفراط و التَّفريط، و قوله: **فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ**، أي أسكنّا الماء فيها و أثبتناه في العيون و الأودية فأحيينا به الأرض بعد موتها و أنبتنا فيها ما يحتاج النّاس إليه و من المعلوم أنّ منزل الماء من السّماء يقدر على ذهابه و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ إِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُون** و فيه إيماء إلىٰ أنّ القادر على الإنعام و الإعطاء قادر على زواله و قطعه أيضاً فأنّ القدرة نسبتها إلى الفعل و التّرك على السَّوية فالقادر كما يقدر على الفعل يقدر على التّرك و هذا معنى قولهم في القدرة، إن شاء فعل و إن لم يشا لم يفعل،

قال اللّه تعالى: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ**[2].

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ**[3].

قال اللّه تعالى: **وَ نَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُبَٰرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّٰتٍ وَ حَبَّ ٱلْحَصِيدِ**[4] والأيات كثيرة.

و الأمر أوضح من أن يخفي على أحدٍ، و يدلّ على قوله تعالىٰ: **وَ إِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُون** قوله تعالىٰ في قصّة الطُّوفان، **قِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَ يَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى**[5] هذا كلّه مضافاً إلىٰ أنّه لو لم يقدر على ذهاب الماء لم يقدر على إنزاله أيضاً، فإذا ثبت الإنزال ثبت الإذهاب ثمّ أشار اللّه تعالى إلى ما يترتّب على إنزال الماء من السّماء على الأرض من الثّمرات.

١- الملك = ٣٠
٢- العنكبوت = ٦٣
٣- الزّمر = ٢١
٤- ق = ٩
٥- هُود = ٤٤

فَأَنْشَأْنٰا لَكُمْ بِهِ جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ لَكُمْ فِيهٰا فَوٰاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى نعمة الماء ذكر ما ينشأ عنه فقال فأنشأنا لكم به أي بالماء و الباء للسّبب، جنّات، و هي البساتين، من نخيلٍ و أعنابٍ، ثمّ وصفهما بقوله: **لَكُمْ فِيهٰا فَوٰاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ**، و ذلك لأنّ ثمرهما جامع بين أمرين، أنّه فاكهة يتفكّه بها، و طعامٌ تؤكل رطباً و يابساً.

قال الطّبري ذكر النّخيل و الأعناب لأنّهما ثمرة المجاز بالطّائف و المدينة و غيرهما و الضّمير في، ولكم فيها، عائد على الجنّات و هو أعمّ لسائر الثّمرات.

وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنٰاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ

الواو في قوله: **وَ شَجَرَةً**، للعطف أي أنشأنا لكم به جنّات من نخيلٍ و أعنابٍ و شجرة تخرج من طور سيناء و المراد بها شجرة الزّيتون فأنّ دهن الزَّيتون صالح للإستصباح و الإصطباغ جميعاً و هي أي شجرة الزّيتون كثيرة بالشّام، و سيناء، إسم الجبل كما تقول جبل أحد من إضافة العام إلى الخاصّ.

و قال مجاهد معنى، سيناء، مبارك و قال قتادة معناه الحسن، و قيل سيناء، إسم حجارةٍ.

و قال إبن عبّاس طور سيناء إسم الجبل الّذي نودي منه موسى و هو كثير الشَّجر و قيل يحتمل أن يكون سيناء فيعالاً من السَّنة و هو الإرتفاع، قيل خصّ الشّجرة بالتّي تخرج من طور سيناء مع أنّها توجد في كثير من البلاد، لما في ذلك من العبرة بأنّه لا يتعاهدها إنسان بالسَّقي ولا يراعيها أحد من العباد و مع ذلك تخرج الثّمرة التّي يكون فيها الدُّهن الّذي تعظم الفائدة و تكثر المنفعة به و فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى قادر على كلّ شيءٍ فأنّ إخراج الشّجرة من الجَبل الّذي ليس فيه ماءٌ و لا تراب من أدَلّ الدّلائل على قدرته تعالى و بعبارةٍ أخرى قدرته

لا تنحصر بإنشاء جنّات في الأرض بسبب الماء بل هو قادر على إنشاء شجرةٍ من الجبل بغير ماء مع أنّ فيها منافع كثيرة فهو تعالى على كلّ شئٍ قدير و قوله: **وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ**، الصِّبغ، بكسر الصّاد الأدام، كالخّل و الزّيت لأنّ الخبز يغمس فيه و يلّون به قاله في المنجد.

و قال في المجمع الصِّبغ بكسر الصّاد ما يصطبغ به من الإدام أي يغمز فيه من الخبز و يؤكل و يختصّ لكلّ إدامٍ مائع كالخّل و نحوه و الجمع أصباغ إنتهى.

فقوله تعالى في الزّيتون أنّه صبغٌ للأكلين، معناه أنّه إدامٌ لهم أي و جعلناه ممّا يتّأدم به الإنسان و يصطبغون به من الزّيت و الزّيتون و الإصطباغ أن يغمز فيه ثمّ يخرجه و يأكله و منافع الزّيتون كثيرة.

وَ إِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقة فوائد المطر النّازل من السّماء على الأرض بيّن في هذه الآية منافع الأنعام و ما يترتّب عليها من الفوائد الّتي لا تحصى من أكل لحومها و الرُّكوب عليها و الحرث بها و الإنتفاع بجلودها و أوبارها و بيعها و شراءها و أنواع التَّصرف فيها و شرب ألبانها و غير ذلك ممّا أدرج اللّه في قوله: **مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ** ثمّ أنّ الأنعام قد يراد بها الإبل و تطلق على البقر و الغنم أيضاً قيل سمّي بذلك لما فيه من الخير والنِّعمة و كلمة، من، في قوله، ممّا و منها، للتّبعيض و المعنى نسقيكم من بعض ما في بطونها و تأكلون من بعضها أو من بعض ما في بطونها و لا يبعد أن يكون قوله نسقيكم إشارة إلى ألبانها بدليل قوله تعالى:

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ(١).

١- النّحل = ۶۶

و قال في منافع الأنعام: **وَ اَللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ اَلْأَنْعٰامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهٰا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقٰامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوٰافِهٰا وَ أَوْبٰارِهٰا وَ أَشْعٰارِهٰا أَثٰاثاً وَ مَتٰاعاً إِلىٰ حِينٍ**[1].

وَ عَلَيْهٰا وَ عَلَى اَلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ

الضّمير في عليها، يرجع على الأنعام و المعنى أنّكم تحملون عليها الأثقال في أسفاركم و مثل ذلك على الفلك و هي السُّفن و لا يخفى عليك أنّ الرّكوب و حمل الأثقال في الأسفار و غيرها تختّص به بعض الأنعام لا جميعها و لذلك قرنها بالفلك لأنّها سفائن البّر كما أنّ الفلك سفائن البحر.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى أوّلاً بدأ الإنسان و تطوّره في تلك الأطوار و ما إمتنّ به عليه ممّا جعله سبباً لحياتهم و إدراك مقاصدهم ذكر أمثالاً لكفّار قريش من الأمم السّابقة المنكرة لإرسال اللّه رسلاً المكذّبة بما جائتهم به الأنبياء عن اللّه تعالى فإبتدأ قصّة نوح أوّلاً لأنّه أبو البشر الثّاني كما ذكر أوّلاً آدم و هو أبو البشر الأوّل في قوله: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ طِينٍ** فقال تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً** الخ، و هو النّبي المشهور قيل في نسبه هو نوح إبن لامك بن متوشخ بن أخنوخ و هو إدريس النّبي قيل سمّي نوحاً لأنّه كان ينوح على نفسه خمس مائة عام و نحّى نفسه عمّا كان فيه قومه من الضّلالة قيل هو أوّل نبيّ بعد إدريس و كان نجّاراً و ولد في العام الّذي مات فيه آدم و بعث في الألف الثّانية و هو إبن أربع مائة و قيل بعث و هو إبن خمسين سنة و في الحديث عاش نوح ألفي سنة و خمس مائة سنة منها ثمان مائة و خمسون قبل أن يبعث و ألف سنة إلاّ

١- النّحل = ٨٠

خمسين عاماً في قومه يدعوهم و سبع مائة بعد نزوله من السّفينة و هو الّذي و مصَّر الأمصار و أسكن ولده في البلدان قيل كان بين نوح النّبي و بين آدم عشرة أباء كلهم أنبياء و أوصياء و إنّما خفي ذكرهم في القرآن ولم يسمّوا كما سمّي من إستعلن من الأنبياء لأنّ قابيل أتى إلى هبة اللّه بعد موت آدم فقال له أنّ أبي قد خصّك من العلم بما لا أخصّ أنا و هو العلم الّذي دعا به أخوك هابيل فتقبّل اللّه قربانه و أنّما قتلته لكيلا يكون له عقب يفتخرون على عقبي و أنّك أن أظهرت من العلم الّذي خصّك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل فلبث هبة اللّه و العقب منه مستخفين بما عندهم من العلم و الإيمان حتّى بعث اللّه نوحاً عليه‌السلام.

روى إبن أبي عمير عن إبن سنان عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال عليه‌السلام بقى نوح في قومه ثلاث مائة سنة يدعوهم إلى اللّه فلم يجيبوه فهمّ أن يدعو فوافاه عند طلوع الشّمس أثنى عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء و هم العظماء من الملائكة فقال لهم نوح ما أنتم فقالوا نحن أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الدّنيا و ساق الحديث إلى أن قال فأسألك أن لا تدعو على قومك قال نوح أجلتهمّ ثلاث مائة سنة فلمّا أتى عليهم ستّ مائة سنة ولم يؤمنوا همَّ أن يدعو فوافاه أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الثّانية فقال نوح من أنتم قالوا نحن أثنا عشر ألف قبيل من قبائل ملائكة السّماء الثّانية و ساق الحديث إلى أن قال نسألك أن لا تدعو على قومك فقال نوح قد أجلتهمّ ثلاث مائة سنة فلمّا أتي عليهم تسع مائة سنة و لم يؤمنوا همَّ أن يدعو عليهم فأنزل اللّه عزّ وجلّ: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ[1] إلى أخر الحديث.

١- هود = ٣۶

و نحن ذكرنا قصّة نوح و دعاءه على قومه و كيفيّة الطُّوفان في سورة الأعراف و غيرها فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.

فقوله تعالىٰ: **فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ** معناه أفلا تخافون عقوبته إذا عبدتم غيره.

فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَآئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ

فقال الملاء أي كبراء النّاس و عظمائهم و هم الّذين كانوا أعصى النّاس و أبعدهم لقبول الخبر، ماهذا، أي نوح، إلاّ بشر مثلكم أي مساويكم في البشرية وليس له إختصاص بالرّسالة و لكنّه يريد أن يتّفضل عليكم بالرّئاسة و لو شاء اللّه، أن يرسل إليكم رسولاً، لأنزل ملائكة، و هذا القول منهم مشعرٌ بأنّهم كانوا مقّرين بالملائكة و هذه شنشنة قريش و دأبها في إستبعاد و إرسال اللّه البشر و الإشارة في هذا تحتمل أن تكون لنوح عليه السلام و أن تكون إلى ما كلّمهم به من الأمر بعبادة اللّه و رفض أصنامهم، و أن تكون إلى ما أتى به من أنّه رسول اللّه و هو بشر و أعجب بضلال هؤلاء القوم إستبعادهم رسالة البشر و إعتقادهم بألهيّة الحجر و المدر، و قولهم: **مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا** إلى أخر كلامهم.

الظّاهر أنّهم كانوا مباهتين و إلاّ فنبّوة إدريس و آدم لم تكن المدّة بينها و بينهم متطاولة بحيث تنسى فدافعوا الحقّ بما أمكنهم دفاعه و لهذا نسبوه إلى الجنون كما قال اللّه:

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ

و معلومٌ أنّه لم تكن به جنّة إلاّ أنّ المنكر المعاند يقول ما يشاء وقوله فتّربصوا أي إنتظروا حاله حتّى يجلي أمره و عاقبة خبره.

و قال بعض المفسّرين يحتمل أن يكونوا أرادوا كأنّه في طمعه فيما يدعو إليه مجنون، أي أنّه يطمع الرّئاسة عليكم و هو دليل على جنونه وكيف كان أنهم كذّبوا نوحاً أشّد التّكذيب ولم يؤمنوا به حتّىٰ طلب النُّصرة من اللّه تعالىٰ كما قال:

قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ

دعا ربّه تعالى أن ينصره و يظفره عليهم بسبب ما كذّبوه و المعنى أبدلني من غمّ تكذيبهم سلوة النّصر عليهم أو أنصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب و هو ما كذّبوه فيه حين قال لهم أنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ ٱلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

قد مرَّ الكلام في معنىٰ الوحي غير مرّةٍ و الفلك، بضّم الفاء السّفينة، أوحى اللّه تعالى إلى نوح أن أصنع الفلك بأعيننا قيل أي بأعين أوليائنا من الملائكة و المؤمنين، و قيل بحيث نراها كما يراه الرّائي من عبادنا بعينه ليتّذكر أنّه يصنعها و اللّه عزّ وجلّ يراه، و قيل المراد بالوحي هنا الإعلام أي إعلامنا إيّاك كيفيّة فعلها.

و قوله: **فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا** أي إذا جاء وقت إهلاكنا لهم، و قوله: **وَ فَارَ ٱلتَّنُّورُ**، روي أنّ اللّه تعالى جعل علامة وقت الإهلاك فوران التّنور بالماء فقال تعالى له إذا جاء ذلك الوقت، فأسلك فيها، يعني في السّفينة، و المعنى أحمل فيها أو أدخل فيها، من كلّ زوجين إثنين، أي من كلّ زوجين من الحيوان إثنين ذكراً و أنثى و الزّوج واحد له قرين من جنسه، و أهلك، أي أحمل أهلك معهم يعني مع الّذين أمنوا معك، إلاّ من سبق عليه القول، بالإهلاك منهم، ولا تخاطبني في الّذين ظلموا، أي لا تسألني في الظّالمين أنفسهم بالإشراك معي، أنّهم مغرقون، هالكون.

أقول قد تقدّم الكلام على أكثر تفسير ألفاظ هذه الآية في سورة هود و في قوله: وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ نهاه أن يخاطبه في قومه بدعاء نجاة أو غيره وبيّن علّة النّهي بأنّه تعالى قد حكم عليهم بالإغراق.

روي في البحار عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال كانت شريعة نوح أن يعبد اللّه بالتّوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد وهي الفطرة التّي فطر النّاس عليها و أخذ ميثاقه على نوح و النّبيين أن يعبدوا اللّـه و لا يشركوا به شيئاً و أمره بالصّلاة و الأمر و النّهي والحلال و الحرام و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرض مواريث فهذه شريعته فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم سِّراً و علانية فلمّا أبوا و عتوا قال ربّ أنّي مغلوب فإنتصر فأوحى اللّه إليه أن لن يؤمن من قومك إلاّ من قد أمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون الحديث.

و عن المفضل قال كنت مع أبي عبد اللّه بالكوفة أيّام قدم على أبي العبّاس فلمّا إنتهينا إلى الكناسة فنظر عن يساره ثـمّ قـال يـا مفضلّ هاهنا صلب عمّي زيد رحمه الله ثمّ مضى حتّى أتى طاق الزّياتين وهو أخر السّراجين فقال لي أنزل فأنّ هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأوّل الذّي كان خطّه آدم و أنا أكره أن أدخله راكباً فقلت له فمن غيَّره عن خطّته فقال أمّا أوّل ذلك فالطُّوفان في زمن نوح ثمّ غيَّره بعد أصحاب كسرى و النّعمان بن منذر ثمّ غيَّره زياد بن أبي سفيان فقلت له جعلت فداك و كانت الكوفة و مسجدها من زمن نوح فقال نعم يا مفضّل و كان منزل نوح و قومه في قريةٍ على منزلٍ من الفرات ممّا يلي غربي الكوفة فـقال عليه السلام و كـان نـوح رجـلاً نـجّاراً فجعله اللّه نبيّاً و إنتجبه و نوح أوّل من عمل سفينة تجري على ظهر الماء و أنّ نوحاً لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم

إلى الهدى فيهزؤن به و يسخرون منه فلمّا رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال ربّ لا تذر علىٰ الأرض إلى قوله كفّاراً فأوحى اللّه إليه يا نوح أصنع الفلك و أوسعها بأعيننا و وحينا فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده يأتي بالخشب من بعد حتّى فرغ منها قال مفضّل ثمّ إنقطع حديث أبي عبد اللّه عند ذلك فقام فصلّى الظّهر ثمّ العصر ثمّ إنصرف من المسجد فإلتفت عن يساره و أشار بيده إلى موضع دار الدّارسين و هو في موضع دار إبن حكيم و ذلك فرات اليوم فقال يا مفضل هاهنا نصبت أصنام قوم نوح يغوث و يعوق و نسراً ثمّ مضى حتّى ركب دابّته فقلت جعلت فداك في كم عمل سفينة نوح حتّى فرغ منها قال في الدّورين فقلت و كم الدّوران قال ثمانون سنة قلت فأنّ العامّة تقول عملها في خمس مائة عامٍ قال فقال عليه السلام كلاّ و اللّه يقول و وحينا إنتهى.

و عن المفضّل قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام أرأيت قول اللّه عزّ وجلّ، حتّى فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ ٱلتَّنُّورُ، ما هذه التّنور و أنّى كان موضعه وكيف كان فقال كان التّنور حيث وصفت لك فقلت فكان بدو الخروج الماء من ذلك التّنور فقال عليه السلام: نعم أنّ اللّه أحبّ أن يرى قوم نوح الآية ثمّ أنّ اللّه بعد أرسل عليهم مطراً يفيض فيضاً و فاض الفرات فيضاً أيضاً و العيون كلّهن فيضاً فغرقهم اللّه و أنجى نوحاً و من معه في السّفينة الحديث [١] و هناك أخبار غير ما ذكرناه إن شئت فراجعها.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ

١- بحار الأنوار ج ٥ ص ٩٢ ط

أي إذا إستقررت أنت و من معك على الفلك و علوتم عليه و تمكّنتم منه فقل شكراً للّه، الحمد للّه الّذي نجّانا و خلّصنا من القوم الظّالمين، على نفوسهم بسبب إنكارهم التّوحيد و النبّوة.

وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكًا وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ

قيل المنزل المبارك هو السّفينة وقيل ذلك حين خرج من السّفينة و قيل كان فيها سبعة أنفس و نوح ثامنهم من المؤمنين و قيل ستّة و قيل ثمانين، و قيل هلك كلّ ما كان على وجه الأرض إلاّ من نجا مع نوح فيها و قال الحسن كان طول السّفينة ألفاً و مائتي ذراع و عرضها ستة مائة ذراع و اللّه أعلم.

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ

يعني أخبرناك من قصّة نوح و غيرها لأيات و علامات للعقلاء الّذين يعتبرون بها و يستدّلون على توحيد اللّه و صفاته و أن كنّا لمبتلين، أي مختبرين عبادنا بها، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار.**

■

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا اٰخَرِينَ ﴿٣١﴾
فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَ قَالَ ٱلْمَلَأُ
مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْاٰخِرَةِ
وَ أَتْرَفْنٰهُمْ فِى ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا مَا هٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ
إِذًا لَخٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ
كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظٰمًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا
حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرٰى عَلَى
ٱللّٰهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَيُصْبِحُنَّ نٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ
ٱلظّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
اٰخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا
يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا
جَآءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ
بَعْضًا وَ جَعَلْنٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

◀ اللّغة

أَنْشَأْنٰا: أي إخترعنا و الإنشاء و الإختراع واحد.

قَرْنًا: القرن بفتح القاف و سكون الرّاء قيل هو أهل العصر لمقارنة بعضهم لبعضٍ و منه القرينشة و هي الدّلالة التّي تقارن الكلام.

اَلْمَلَأُ: بفتح الميم و هو وجوه النّاس و أشرافهم.

أَتْرَفْنٰاهُمْ: الإتراف التّنعم بضروب الملاذ و قيل أنّ التّنعيم قد يكون بنعيم العيش و قد يكون بنعيم الملبس و الإتراف هو الأوّل.

هَيْهٰاتَ: بفتح التّاء و كسرها إسم فعلٍ بمعنى بعد أي بعيدٌ هذا.

اَلصَّيْحَةُ: الصَّوت الشّديد الّذي يفزع منها.

غُثٰاءً: بضّم الغين الغثن الّذي يجئ بها السَّيل على رأس الماء من قصب و حشيش و غير ذلك و قيل الغثاء البالي من الشَّجر أعني ورقة.

تَتْرٰا: قرأ أبو عمرو و إبن كثير بالتَّنوين و الباقون بغير تنوين و المواترة المتابعة و قيل هي المواصلة يقال واترت بين الخبرين أي تابعت بينهما.

◀ الإعراب

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذٰا مِتُّمْ إلى آخرها، في إعراب هذه الآية وجوه:

أحدها: أنّ إسم (أنّ) الأولى محذوف أقيم مقامه المُضاف إليه تقديره أنّ إخراجكم، وإذا هو الخبر وإنّكم مخرجون تكرير.

الثّانی: أنّ إسم أنّ الكاف و الميم و إذا شَرط و جوابها مَحذوف و تَقديره، أنّكم، إذا متُّم، يحدث أنّكم مخرجون، و عليه فأنَّكم، الثّانية و ما عملت فيه فاعل جواب، إذا، و الجملة كلّها خبر، أنّ، الأولى.

الثّالث: أنّ خبر الأولى محذوف لدلالة الخبر الثّانية عليه و العامل فی، إذاً محذوف هَيْهٰاتَ هو إسم للفعل و هو خبر واقع موقع، بعد، و في فاعله وجهان:

أحدهما: هو مضمر تقديره، بعد التَّصديق لما توعدون، أو الصَّحة أو الوقوع ونحو ذلك.

الثّاني: فاعله، ما، و اللاّم زائدة أي بعد ما توعدون من البعث، و هيهات على الوجه الأوّل لا موضع لها و فيها عدّة قرآئات، الفتح بلا تنوين، على أنّه مفرد، و بالتَّنوين على إرادة الكثير، و بالكسر بلا تنوين و بتنوين على أنّه جمع تأنيث، و الضَّم بالوجهين مشبه بقبل و بعد و يقرأ، هيهاه بالهاء وقفاً و وصلاً و يقرأ، أيهاه بأبدال الهمزة من الهاء الأولى عَمَّا قَلِيلٍ قيل ما زائدة و قيل هي بمعنى شيئ، أو زمن تَتْرَا التّاء بدل من الواو لأنّه من المواترة و هي المتابعة و ذلك من قولهم جاءوا على وتيرةٍ واحدة أي طريقةٍ واحدةٍ و هو نصب على الحال أي متتابعتين و الحقّ أنّه مصدر في موضع الحال و قيل هو صفة لمصدر محذوف أي إرسالاً متواتراً، و في ألفها ثلاثة أوجه:

أحدها: هي للإلحاق.

الثّاني: هي بدل من التّنوين.

الثّالث: هي للتّأنيث مثل سكرى ولذلك لا تنون على قول من منع الصّرف.

◀ التّفسير

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ

أي ثمّ أنشأنا و إخترعنا من بعد قوم نوح وإهلاكهم بالطُّوفان، قرناً أخرين، إختلف المفسّرون في هذا القوم فقال بعضهم المراد منهم قوم صالح النّبي و قال الأخرون هو قوم هود لأنّه المرسل بعد نوح و هو قول الأكثرين قالوا ذكر هذه القصّة عقيب قصّة نوح يظهر منه أنّ هؤلاء قوم هود و الرّسول هو هود و هو الّذي أرسل بعد نوح.

و قال أبو سليمان الدّمشقي والطَّبري هم قوم ثمود و الرّسول الّذي أرسل إليهم هو صالح النّبي عليه السلام هلكوا بالصّيحة و في أخر القصّة، أخذتهم بالصّيحة و

لم يأت أنّ قوم هود هلكوا بالصّيحة و قصّة قوم هود جائت في سورة الأعراف و في هود و في الشّعراء بأثر قصّة قوم نوح حيث قال تعالى: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**(١).

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ

ذكرنا أنّهم إختلفوا في تعيين المراد من القوم الّذين أرسل اللّه إليهم الرّسول و قلنا أنّ أكثر المفسّرين على أنّ المراد بالقوم هو قوم عاد و نبيّهم هودٌ عليه السّلام فعلى هذا المراد بالرّسول في الآية هو هود النّبي فقوله تعالى: **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ** أي في قوم عاد، رسولاً، هو هود النّبي و قوله: **مِنْهُمْ**، معناه أنّه عليه السلام كان من قوم عاد بعث إلى قومه و قال لهم أعبدوا اللّه، الّذي لا إله إلاّ هو، ما لكم من إلهٍ غيره، فأنّ ما سواه مخلوق له كائناً ما كان، أفلا تتّقون، أي أفلا تجتنبون من عبادة الأصنام و الأوثان.

روى المجلسي قدس سره في البحار بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنّه قال عليه السلام: لمّا حضرت نوحاً الوفاة دعا الشّيعة فقال لهم أعلموا أنّه ستكون بعدي غيبة تظهر فيها الطّواغيت و أنّ اللّه عزّ وجلّ يفرّج منكم بالقائم من ولدي إسمه هود وله سمت و سكينة و وقار يشبهني في خلقي و خلقي و سيهلك اللّه أعداءكم عند ظهوره بالرّيح فلم يزالوا يتّرقبون هوداً و ينتظرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد فقست قلوب كثيرٍ منهم فأظهر اللّه تعالى نبيّه هوداً عند اليأس منهم و تناهى البلاء بهم و أهلك الأعداء بالرّيح العقيم الّتي وصفها اللّه تعالى ذكره فقال: مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ(٢) ثمّ وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن أظهر صالح إنتهى.

١- الاعراف = ٦٩ ٢- الذاريات = ٤٣

أقول يظهر من هذا الحديث أنّ المراد بالقوم في الآية هو قوم عاد و بالرّسول هود عليه السلام كما عليه أكثر المفسّرين و اللّه أعلم و كيف كان لا شكّ أنّ القوم كذّبوا رسولهم الذّي أرسله اللّه إليهم كما كان هو دأبهم و ديدنهم بالنّسبة إلى جميع الأنبياء فأنّا لم نجد رسولاً من آدم إلى خاتم الرُّسل لم يكذّبه قومه و السِّر فيه أنّ الأديان على خلاف مسلك القوم فأنّ النّاس في كلّ عهدٍ و زمانٍ كانوا يتّبعون الشّهوات و الأهواء و الرّسول كان يمنعهم عنها و يدعوهم إلى اللّه و إتّباع أمره و نهيه ألا ترى أنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كان في قومه مشهوراً بالأمين فلمّا بعث إليهم دعاهم إلى ترك الأوثان و متابعة الحقّ كذّبوه وإتّهموه بالجنون و السِّحر وقد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْاٰخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ

قلنا في شرح اللّغات أنّ الملاء هم الأشراف و الرّؤوساء من كلّ قومٍ و أنّما خصّهم اللّه تعالى بالذّكر مع أنّ غيرهم من أحاد النّاس أيضاً كذّبوه ولم يكن التّكذيب مختّصاً بالأشراف، لأنّ العوام و أن شئت قلت غير الأشراف و الأعيان، لا رأي لهم في هذه الأمور أو لا يقبل منهم و أنّما هم أتباع الرّؤوساء و الأشراف في دينهم و دنياهم و هذا هو السِّر في تغيير عمر بن الخطّاب سنّة رسول اللّه و تقسيمه بيت المال على التّفاضل بعد أبىبكر و ذلك لأنّه علم بأنّ أشراف القوم إذا تبعوه و سكتوا عمّا لا يصّح السّكوت عنه لم يقدر أحد على مخالفته و لمّا وصلت الخلافة إلى أميرالمؤمنين و قسّم بيت المال على سنّة رسول اللّه و خالف عمر فيه، خالفه الزُّبير و طلحة و غيرهما من المترفين ونكثوا بيعته و نظائره كثيرة.

بل نقول هذا هو الأصل في تسلّط الظّالمين و حاصل الكلام أنّ الذّنب ثابت على الأشراف أوّلاً و على غيرهم ثانياً و هو واضح قال اللّه تعالى: **وَ قَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا**(١) و هذه الآية صريحة فيما ذكرناه ثمّ وصف اللّه هؤلاء الأشراف بأنّهم كفروا و كذّبوا بلقاء الأخرة الظّاهر أنّ المراد بالكفر هو كفران النّعمة لأنّ الدّين من أفضل النّعم و أنّما قلنا ذلك لأنّهم كانوا كافرين قبل الرّسول أيضاً لا أنّهم كفروا بعد مجيئ الرَّسول نعم كفروا و أنكروا رسالته و كذّبوه و يحتمل أن يكون المراد أنّ الكفر ثبت لهم بعد الإنكار و كيف كان كفروا بالرّسول و كذّبوه في البعث و الحساب يوم القيامة و أنّما قال تعالى ذلك لأنّ الرَّسول يدعو النّاس إلى الأخرة و لا يدعوهم إلى الدّنيا ولو دعاهم إليها لم يكذّبوه ولم يكفروا به ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنّ السَّبب و العلّة في كفرهم و تكذيبهم حبّ الدّنيا و ما فيها و كونهم من المترفين فيها و لم يعلموا أنّ الدّنيا و ما فيها من النِّعم و اللّذات فانية داثرة لا بقاء لها و الدّار الأخرة باقية مضافاً إلى أنّ كثرة النِّعم فيها ينبغي أن تكون موجبة للشّكر و الحمد لا للطّغيان و الكفران و يستفاد من هذه الآية أنّ النِّعم الدُّنيوية قد تكون باعثة على الكفران بدل الشّكر و هو كذلك بالنّسبة إلى بعض الأشخاص و قد تكون باعثة على إزدياد الشّكر بالنسّبة إلى بعضٍ أخر و قوله تعالى حكايةٍ عنهم **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** إلى أخر الآية معناه واضح و الظّاهر أنّ الأمر كذلك فأنّ الأنبياء كانوا من البشر و لم يكن بينهم و بين غيرهم فرق من هذه الجهة أي من جهة الأكل و الشّرب و النَّوم وغير ذلك فهم كانوا صادقين في قولهم هذا و لا ذمّ عليهم في كلامهم هذا و أنّما الذّم ثابتٌ لهم من حيث أنّهم خلطوا الأمر و لم يفرقوا بين الإنسان و البشر و لم يعلموا أنّ كلّ إنسانٍ بشرٌ و ليس كلّ بشرٍ إنسان و توضيحه إجمالاً.

١- الأحزاب = ٦٧

هو أنّ الإنسان له جنبتان، ملكيّة، و ملكوتيّة، و إن شئت قلت له روحٌ و بدن فالرُّوح من عالم الملكوت و البدن العنصري من عالم الملك و ما حكاه اللّه تعالى عنهم في الآية من أنّ الأنبياء بشرٌ مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه و يشرب ممّا تشربون أنّما هو من شئون الجسم العمصري الحيواني فأنّ الحيوان أيضاً كذلك يأكل ممّا نأكل و يشرب ممّا نشرب منه و لا فرق بيننا و بين الحيوان من جهة الأكل و الشُّرب و النّوم و أمثال ذلك فلازم ما ذكروه عدم الفرق بين الإنسان و الحيوان و هم لا يقولون به و ملخّص الكلام أنّ المقايسة بين أفراد الإنسان أنّما هي في صفات النّفس و الرّوح من المعرفة و العدالة و العلم و الأمانة و الصّداقة و غيرها لا في صفات الحيوانيّة من الأكل و الشُّرب و أمثال ذلك فما ذكروه دليل على جهلهم و حماقتهم و أنّهم لم يعرفوا الإنسان و لا سيّما الإنسان الكامل الذّي هو المثل الأعلى لخالقه و لا تعجب منهم و من أمثالهم و ذلك الجهل والعناد و حبّ الدّنيا لا ثمرة لها إلاّ هذا و لذلك قالوا

وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ

أي إذا ثبت أنّ الأنبياء مثلكم لا تطيعوهم لأنّ حكم الأمثال واحد و لا يعقل أن يكون الإنسان مطيعاً لمثله من جميع الجهات فأنّ الإطاعة في هذه الصُّورة توجب الخسران و هذا حقّ لا مرية فيه و ذلك لأنّ النّبي لو كان مثل أحاد النّاس من جميع الجهات فلا مزّية له على غيره و العقل لا يحكم بالإنقياد له لعدم الفرق بين المطيع و المطاع على الفرض و نحن أيضاً نقول بهذه المقالة فأنّ هذا الكلام مطابق للعقل قطعاً و أنّما الكلام في الأصل الذّي بنوا عليه هذا الفرع و هو قولهم ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم، فأنّ هذا غير ثابت بل هو مردودٌ مطرود عقلاً كما أوضحناه فأنّ المثلين على ما ثبت في العلوم العقليّة يشتركان في جميع اللّوازم و الصّفات بحيث يلزم من تعّقل أحدهما تعّقل الأخر و فيما نحن فيه ليس الأمر كذلك فأنّ النّبي معصومٌ عن الذّنب و مع ذلك هو أعلم النّاس و أشجعهم و أسخاهم و

أعدلهم و أقربهم إلى اللّه و بالجملة جميع الصّفات الكماليّة فيه موجوده و هو يقدر على المعجزة و غيرها من خوارق العادات و ليس من هذه الأوصاف في غير النّبي صفة واحدة فضلاً عن الجميع فأين المثلّية بيننا و بينه.

و إذا إنتفت المثليّة إنتفى ما فرَّعوا عليها و هو قوله: **وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**، إذ المفروض أنّ الأنبياء و إن كانوا من البشر و كانوا من هذه الجهة أي في البشريّة مثل سائر الأفراد إلاّ أنّهم كانوا من جهة الإنسانيّة و الإتّصاف بالملكات النّفسانية غير سائر الأفراد و الذّي يحكم العقل بعدم متابعته و أنّ متابعته توجب الخسران هو التّساوي في جميع الجهات و عدم وجود المرّجح في البين و قد ثبت خلاف ذلك عقلاً بل نقول يجب عقلاً و شرعاً متابعة الأفضل و لأجل ذلك صار القائل بهذه المقالة و هي قوله ما هذا إلاّ بشر مثلكم، مذموماً في الآية فالذّم تعلّق بخطأهم في التّطبيق أي تطبيقهم المثليّة في حقّ الأنبياء فتّأمل.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَابًا وَ عِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

الهَمزَة في، أَيَعِدُكُمْ للإستفهام و المعنى أيعدكم هذا النّبي و هو هود عليه السلام أنّكم إذا متم، و فارقتم الحياة **وَ كُنْتُمْ تُرَابًا**، أي صرتم تراباً في القبر بعد الموت و عظاماً و لم يبق منكم إلاّ العظام البالية، أنّكم مخرجون، من القبور يوم البعث هيهات هيهات أي بعيدٌ هذا الوعد و هو الحياة بعد الموت، ففي هذا الكلام إنكارٌ للبعث و أنّه لا يكون قطعاً فالنّبي الّذي وعدكم بهذا كاذبٌ في قوله و من كان كذلك لا يطاع فكأنّهم إستّدلوا بذلك على عدم متابعة النّبي لأنّهم أثبتوا أوّلاً أنّ النّبي مثل غيره فلا فضل له عليه و فرّعوا على هذا الأصل أنّ متابعته توجب الخسران لعدم التّرجيح و إستّدلوا على مدّعاهم بأنّه يعدكم ما لا يقبله العقل و هو الحياة بعد الموت و هذا دليل على عدم صلاحيّته و أنّه كاذب في قوله و من

كان كذلك فلا يطاع و لم يعلموا أنّ النّبي صادق في قوله و لا يكذب أبداً و أمّا الحياة بعد الموت فهي من المسلّمات و لا إشكال فيها عقلاً لأنّ الخالق الذّي خلق الإنسان من تراب أوّلاً يقدر على خلقه منه ثانياً، لعموم قدرته إذ لو لم يقدر على إيجاده ثانياً فهو عاجزٌ ضعيفٌ و هو تعالى منّزهٌ عن العجز و الضّعف هذا مضافاً إلى أنّه خلقه أوّلاً فكيف لا يقدر على إيجاده ثانياً و المفروض أنّ الخلق الثّاني مثل الخلق الأوّل و قد ثبت عقلاً أنّ حكم الأمثال واحد و سيأتي البحث في المعاد إن شاء اللّه.

تنبيهٌ:

فيه بحثان:

أحدهما: أنّ قوله تعالى: **أَنَّكُمْ**، كرّر في الآية فما وجه التّكرير، و فيه أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه سيبويه و هو أنّ، أنّكم، الثّانية بدل من الأولى و فيها معنى التّأكيد و خبر، أنّكم، الأولى محذوف لدلالة خبر الثّانية عليه تقديره أنّكم تبعثون إذا متم، و هذا الخبر المحذوف هو العامل في، إذا.

الثّاني: ما ذهب إليه الفرّاء و المبّرد و الجرحي و هو، أنّكم، الثّانية كرّرت للتّأكيد لمّا طال الكلام و حسن التّكرار في الباب و على هذا يكون، مخرجون، خبر، أنّكم، الأولى و العامل في إذا، هذا الخبر وكان المبّرد يأبى البدل الذّي قال به سيبويه، لكونه من غير مستقبلٍ إذ لم يذكر خبر، إنّ، الأولى.

الثّالث: ما ذهب إليه صاحب الكشّاف و هو أنّ أنّكم مخرجون، مبتدأ و قوله: **إِذَا مِتُّمْ**، خبر على معنى إخراجكم إذا متم ثمّ أخبر بالجملة عن، أنّكم، إنتهى.

الرّابع: ما ذهب إليه الأخفش و هو، أنّكم مخرجون، مقدّر بمصدرٍ مرفوع بفعلٍ محذوف تقديره يحدث إخراجكم و في المقام أقوال كثيرة و الأصل فيها ما ذكرناه.

البحث الثّاني: في قوله: **هَيْهَاتَ**، هَيهات بفتح التّاء فيهما و هي لغة الحجاز، و قرأها هارون عن أبي عمر و بفتحها منّونتين، و قرأ أبو حياة بضّمهما من غير

تنوين و عنه و عن الأعمر بالضّم و التّنوين و قرأ بعضهم بضّمها من غير تنوين و هذه الكلمة أعني بها هيهات قد تلاعبت بها العرب تلاعباً كبيراً بالحذف و الإبدال و التّنوين و غيره و قد ذكروا فيها أربعين لغة، و قيل واحد هيهات، هيهة و لا تستعمل هذه الكلمة غالباً إلاّ مكرّرة و جاءت غير مكرّرة في الشّاذ و هيهات إسم فعلٍ لا يتعدّى برفع الفاعل ظاهراً أو مضمراً و هنا جاء التّركيب هيهات هيهات لما توعدون لم يظهر الفاعل فوجب أن يعتقد إضمار تقديره و هو إخراجكم، واللاّم في لِما للبيان، هذا.

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

كلمة، إن، نافية بمعنى ليس أي ليست الحياة إلاّ واحدة و هي حياتنا في الدّنيا نموت فيها و نحيا، أي يموت منّا قومٌ و يحيا قومٌ و لسنا نبعث يوم القيامة، و قيل معناه يموت فيها بعض و يولد بعض ينقرض قرنٌ و يأتي قرنٌ أخر و هذا أوفق بسياق الكلام من القول الأوّل و كيف كان أنّهم أنكروا البعث و زعموا أنّ الحياة ليست إلاّ هذه الحياة الفانية.

و من المعلوم المسلّم عند العقلاء أنّ مجرد الإنكار لا يكفي في إثبات المدّعى فقولهم: **وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** يدلّ على عنادهم و جهلهم إذ العقل السّليم لا يحكم بإستحالة الحياة بعد الموت بل يؤيّدها بضميمة الأدلّة العقليّة و النّقلية كما ستعرف القول فيه إن شاء اللّه.

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ

إن، نافية أيضاً أي ليس هو إلاّ رجلٌ إفترى و المراد بالرّجل هود النّبي عليه السلام و تعبيرهم عنه بالرّجل دون النّبي لأنّهم لم يعتقدوا نبوّته ظاهراً و لذلك رموه بالكذب و قالوا إفترى على اللّه كذباً فيما وعدكم من الحياة بعد الموت ثمّ الحساب يوم القيامة و أنّما قاله من عند نفسه و إذا كان الأمر على هذا المنوال فما نحن له بمؤمنين أي لا نؤمن بنبوّته و هذا الكلام منهم أيضاً باطل و ذلك لأنّهم لم

يقيموا دليلاً على مدّعاهم و من أين ثبت لهم كذبه و إفتراءه نعوذ باللّه منه و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ الكافر المعاند للحقّ يقول ما يشاء و أن كان قوله على خلاف إعتقاده ألا ترى أنّ مشركي مكّة إتبعوا أبائهم و أمثالهم و قالوا في رسول اللّه ما قالوا فلّما أيس هود النّبي منهم و رأىٰ إصرارهم على الكفر دعا عليهم و طلب عقوبتهم على تكذيبهم و طلب النّصر من اللّه تعالى.

قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ

إستنصر من اللّه على قومه بسبب تكذيبهم إيّاه ثمّ قال لهم كما حكى اللّه عنه.

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ

أي من زمنٍ قليلٍ و، ما، توكيد للقلّة و قليل صفة لزمن محذوف و في معناه قريب، قيل أي بعد الموت تصيرون نادمين، و قيل عمّا قليل أي وقت نزول العذاب في الدّنيا تظور علاماته و ندامتهم على ترك قبول ما جاءهم به رسولهم حيث لا ينفع الرّجوع واللاّم في ليصبّحن قيل لام القسم و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ إنكار الحقّ يوجب النّدامة قبل الموت أو بعده:

قال اللّه تعالىٰ: **فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**(١).

و قال تعالى في قصّة صالح النّبي بعد عقرهم النّاقة:

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ(٢).

و قال تعالىٰ: **وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**(٣).

و قال تعالىٰ: **إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**(٤) و غيرها من الأيات.

١- المائدة = ٥٢
٢- الشّعراء = ١٥٧
٣- يُونس = ٥٤
٤- الحُجرات = ٦

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ

قال الزّمخشري صيحة جبرئيل عليه السلام صاح عليهم فدمّرهم بالحقّ أي بالوجوب لأنّهم قد إستوجبوا الهلاك، أو بالعدل من اللّه من قولهم فلان يقض بالحقّ إذا كان عادلاً في قضاياه شبّههم بالغثاء في ديارهم و هو حميل السّيل ممّا بلى و أسوَّد من العيدان و الورق و منه قوله تعالى: **فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَىٰ** إنتهى.

و عن إبن عبّاس الصيّحة الرّجفة و قيل هي نفس العذاب و قيل العذاب المصطلم قال الشّاعر:

صاح الزّمان بآل زيد صيحةً   خرُّوا لدهشتها على الأذقان

و قال المفضل، قوله بالحقّ أي بما لا مدفع له كقوله: **وَ جَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ** (١) إنتهىٰ.

و قوله: **فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** أي بعد لهم من رحمة اللّه.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ

أي أنشأنا و إخترعنا بعد قوم نوح و هود قروناً آخرين، أي أمماً آخرين قال إبن عبّاس هم بنو إسرائيل، و قيل قصّة لوط و شعيب و أيوب و يونس عليهم السّلام.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ

قيل هذا وعيدٌ لهؤلاء المشركين و المعنى أنّ كلّ أمّةٍ من الأمم لها أجل و مدّة و وقتٌ مقدّر قدره اللّه لها بحكمته و مصلحته فإذا بلغته لا تؤّخر عنه و لا تقدّم عليه بل تهلك عنده و الأجل هو الوقت المضروب لحدوث أمرٍ من الأمور قيل ليس الأجل الوقت المعلوم أنّه يحدث فيه أمرٌ من الأمور لأنّ التأّجيل فعلٌ يكون به الوقت أجلاً لأمرٍ و ما في المعلوم ليس بفعلٍ و الأجل المحتوم لا يتأخر و لا يتّقدم و الأجل المشروط بحسب الشّرط و المعنى في الأجل المذكور في الآية هو الأجل المحتوم و قد تقدّم الكلام في هذه الآية في سورة الحجر آية ٥.

١- ق = ١٩

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ**[٢].

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَآءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ

قرأ إبن كثير و أبو عمرو، تترا، بالتنّوين و الباقون بغير تنوين و عليه المصاحف فعلاً و لعلّه هو الأشهر.

و أمّا في الوقف فلا خلاف أنّه بألف فمن نوّن لم يمل في الوقف و من لم ينوّن فمنهم من يميل و منهم من لا يميل و المواترة المتابعة و قيل هي المواصلة يقال واترت بين الخبرين أي تابعت بينهما قال إبن عبّاس و مجاهد و إبن زيد معنى، تترا، أي متواترين يتبع بعضهم بعضاً و هي، فعلى، من المواترة فمن صرّفها جعل الألف للإلحاق و من لم يصرفها جعلها للتأنيث و أصل تترى، و ترى، من و ترت فقلبت الواو تاءً لكراهتهم الواو أوّلاً و أصله في المعنى الإتصال فمنه الوتر الفرد عن الجمع المتّصل و منه الوتر لإتّصاله بمكانه من القوس و على أي حالٍ فهو منصوب على الحاليّة أي أرسلنا رسلنا متواترين واحداً بعد واحدٍ و أنّما أضاف الرسّل اليه تعالى فقال: **أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا** و أضاف رسولاً الى ضمير الأمّة فقال: **رَسُولُهَا**، أي رسول الأمّة، لأنّ الإضافة تكون بالملابسة و الرّسول يلابس المرسل و المرسل اليه.

فالأوّل: كانت الإضافة لتشريف الرّسل.

الثّاني: كانت الإضافة الى الأمّة حيث كذّبته و لم ينجح فيهم إرساله اليهم فناسب الإضافة اليهم.

١- المنافقون = ١١ ٢- النّحل = ٦١

أن قلت أنّ اللّه تعالى كان عالماً بأنّ الأمّة لا تصدّق الرسّل بل تكذّبهم فلم أرسل الرسّل اليهم واحداً بعد واحدٍ كما قال: **فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا**.

قلت أرسلهم اليهم إتماماً للحجّة ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيى من حيَّ عنها، و لئلا يكون للنّاس على اللّه حجّة يوم القيامة ألا ترى أنّ الطّبيب بعد تشخيص الدّاء وظيفته تعيين الدّواء و أمّا المريض فهو مختار في شرب الدّواء و عدمه و اللّه تعالى هو الطّبيب بالنّسبة الى عباده و الدّين بمنزلة الدّواء كما أنّ الكفر بمنزلة المرض فالعبد مريضٌ روحاً و هو يحتاج الى الدّواء و اللّه تعالى على قاعدة اللُّطف يهدي العبد و يرشده بواسطة أنبياءه و رسله.

و أمّا قوله: **جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ** معانه يتحدّثون بهم على وجه المثل في الشرّ وهو جمع، أحدوثة، قال بعضهم احاديث جمع حديث إلاّ أنّه جمع شاذّ و جمع أحدوثة و هو جمع قياسّي.

و قال الزّمخشري، الأحاديث تكون إسم جمع للحديث و منه أحاديث رسول اللّه إنتهى.

و إعترض عليه بعض النُّحاة و قال أنّ، أفاعيل ليس من أبنية إسم الجمع إلاّ على وجه الشّاذ و الصّحيح أنّه جمع تكسير لا إسم جمع.

أقول إن قلنا أنّه جمع حديث فالمعنى إنّا جعلنا الرسّل يتحدّثون النّاس بما هو نافعٌ لهم في الدُّنيا و الأخرة.

و أن قلنا أنّه جمع أحدوثة فلا يقال هذا إلاّ في الشرّ و أمّا في الخبر فلا، و في المقام إحتمال آخر و هو أن يكون جمع حديث و المعنى أنّه لم يسبق منهم عينٌ و لا أثر إلاّ الحديث منهم و أمّا قوله: **فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** أي فبعداً من رحمة اللّه و رسوله لهؤلاء الكفّار الّذين لا يصدّقون الرسّل و لا يقرّون بواحدنيّة اللّه و لا بالبعث و النشّور و العقاب و نحن نقول آمين ربّ العالمين.

■

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ هٰرُونَ بِـاٰيٰاتِنٰا وَ
سُلْطٰانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَ كٰانُوا قَوْمًا عٰالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقٰالُوٓا
أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنٰا وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ
﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمٰا فَكٰانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَ
لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَ جَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُۥٓ اٰيَةً وَ اٰوَيْنٰاهُمٰآ إِلٰى
رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يٰٓ أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ
كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبٰاتِ وَ ٱعْمَلُوا صٰالِحًا إِنِّى بِمٰا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَ إِنَّ هٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وٰاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتّٰى حِينٍ
﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمٰا نُمِدُّهُمْ بِهِۦ مِنْ مٰالٍ وَ بَنِينَ
﴿٥٥﴾ نُسٰارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرٰاتِ بَلْ لٰا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ
﴿٥٧﴾ وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِاٰيٰاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَ
ٱلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لٰا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَ ٱلَّذِينَ
يُؤْتُونَ مٰآ اٰتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلٰى
رَبِّهِمْ رٰاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولٰٓئِكَ يُسٰارِعُونَ فِى
ٱلْخَيْرٰاتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَ لٰا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلّٰا وُسْعَهٰا وَ لَدَيْنٰا كِتٰابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا
وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ
﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ
يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا
تُنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾
مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

◀ اللّغة

مَلَإِيْهِ: الملاء أشراف القوم و زعمائهم.

آوَيْنَاهُمَآ: أوىٰ إليه يأوى، أواه غيره يؤويه إيواءً أي جعله مأوىٰ له.

رَبْوَةٍ: بفتح الرّاء و الواو و سكون الباء المكان المرتفع و يجوز ضمّ الرّاء و فتحها و كسرها و بالفتح قرأ عاصم و إبن عامر و الباقون بالضّم و قيل الرّبوة الّتي أويا إليها هي الرّملة.

مَعِينٍ: فعيل من معن يمعن و هو الماعون و هو الشّئ القليل، و قيل معناه، وفدهم، و قيل زكاتهم يقال أمعن في كذا إذا لم يترك منه إلاّ القليل.

زُبُرًا: الزُّبر بضّم الزّاء و الباء الكتب و هو جمع زبور كرسول و رسل و قرأ إبن عامر بفتح الباء فمعناها جماعات.

غَمْرَتِهِمْ: أي جهلهم و ضلالتهم و قيل في حيرتهم و قيل في غفلتهم.

حِينٍ: أي حين العذاب أو وقت الموت.

وَجِلَةٌ: الوجل الخوف من عقاب اللّه.

مُتْرَفِيهِمْ: المترف المتّقلب في لين العيش و نعومته.

يَجْـَٔرُونَ: الجوأر رفع الصّوت و قيل هو الصّراخ بالتّوبة و قيل الضجّة.

تَنْكِصُونَ: النّكص الرّجوع إلىٰ القهقري وهو المشي على الأعقاب إلى خلف.

تَهْجُرُونَ: الهجر الكلام المرفوض لأنّه لا خير فيه، و قرأ نافع تـهجرون بـضم التّاء و هو الكلام السيئ.

◀ الإعراب

هٰرُونَ بدل من أخاه وَإِنَّ هٰذِهِۦٓ يقرأ بفتح الهَمَزة و فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: تقديره، و لأنّ، واللاّم المقدّرة تتعلّق بقوله: **فَٱتَّقُونِ** أي فإتّقون لأن هذه، و موضع أن، نصب أو جرّ، و المشهور فـي القـراءة كسر الهَـمَزة و عـليه المصاحف.

الوَجه الثّاني: أنّه معطوف على ما قبله تقديره أنّي بما تعملون عـليم و بأنّ هذه.

الثّالث: أنّ في الكلام حذفاً أي و أعلموا أنّ هذه، و يقرأ بتخفيف النّون و هي مخفّفة من الثّقيلة و يقرأ بالكسر على الإستئناف زُبُرًا مفعول ثانٍ لتَقطعوا و قـيل هو حال من الفاعل أَنَّمَا نُمِدُّهُم ما بـمعنى الّـذي و خـبر، أنّ نُسَارِعُ لهـم و العـائد محذوف تقديره و نسارع لهم به أو فيه مَآ ءَاتَوا ما، بمعنى الذّي و العائد محذوف أي يعطون ما يعطون عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ حال من الفاعل فـي تَـنْكِصُونَ و قـوله تـعالىٰ: مُسْتَكْبِرِينَ حال أخرى و الهاء في بِهِۦ للقرآن و قيل للنّبي و قيل للبيت سَٰمِرًا حال أى تسمرون حول البيت و الباقي واضح.

◀ التّفسير

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ هَٰرُونَ بِأيَٰتِنَا وَ سُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ

كلمة، ثمّ، تفيد التّأخير و المعنى أنّ موسى و هارون بعثا بعد الأنبياء الذّين مرّ ذكرهم و هو كذلك و في قوله: **أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ** إشارة إلى أنّهما كانا من الرُّسل بمقتضى العطف و عليه إجماع الأمّة إلاّ أنّ هارون مات قبل موسى و لو

كان حيّاً بعده كان من المرسلين و قوله: **بِاٰيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ** فالمراد بالأيات.

قال إبن عبّاس هي التّبع و هي التسع العصا و اليد و الجراد و القمّل و الضّفادع و الدَّم و البحر و السّنن و نقص من الثّمرات و المراد بالسُّلطان هو العصا و اليد و هما اللّتان إقترن بهما التَّحدي و يدخل في عموم اللّفظ سائر أياتها كالبحر و المرسلات السّت و أمّا غير ذلك ممّا جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصّة ببني إسرائيل، و قال الحسن، **بِاٰيَاتِنَا** أي بدينا، **وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ**، هو المعجزة، و يجوز أن يراد بالآيات نفس المعجزات و بسلطانٍ مبين كيفيّة دلالتها لأنّها و إن شاركت أيات الأنبياء من حيث أنّها أية إلاّ أنّها قد فارقتها في قوّة دلالتها على قول موسى عليه‌السلام و قيل المراد بالسّلطان المبين العصا لأنّها كانت أمّ آيات موسى و أولاها و قد تعلَّقت بها معجزات شتّى من إنقلابها حيّة و تلَّقفها ما أفكته السّحرة و إنفلاق البحر و إنفجار العيون من الحجر بالضّرب بها و كونها حارساً و شمعة و شجرة خضراء مثمرة و هكذا و يجوز أن يراد بسلطانٍ مبين الأيات أنفسها و الكلّ داخل تحت اللّفظ و ذلك لأنّ الأدلّة و الحجج ظاهرة لكلّ نبي من الأنبياء و هذه هي التّي عبّر عنها بسلطانٍ مبين و لذلك سمّي الحجّة سلطاناً و ذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب لكن أكثر تسَّلطه على أهل العلم و الحكمة من المؤمنين قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا**(١) و أصل السَّلاطة التَّمكن من القهر يقال سلَّطته فتَّسلط و منه سمّي السُّلطان سلطاناً.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ

أي أرسلنا موسى و هارون **إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَإِيْهِ**، أي عظماء قومه و أشرافهم، و أنّما قال ذلك مع أنّ موسى و هارون أرسلا إلى جميع القوم أشرافهم

١- الاسراء = ٣٣

و عوامهم لأنّ القوم في كلّ زمانٍ يتّبعون الأشراف و الأعيان في جميع أمورهم إمّا لأنّه لا رأي لهم واقعاً و إمّا لعدم الإعتناء بأرائهم و لو كانت حقّاً و كيف كان فقد أخبر اللّه تعالى أنّهم أعني بهم فرعون و ملائه إستكبروا كما هو دأب الأعيان و الأشراف و سائر النّاس صاروا تابعين لهم كما هو شأن العوام و السِّر في إستكبار الأعيان و الأشراف عن الحقّ و إعراضهم عنه واضح لا خفاء فيه.

و قوله: **وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**، معناه كانوا قاهرين على النّاس بالبغي و التّطاول عليهم و لهذا كانت صفة ذمٍّ، و العالي القاهر القادر الّذي مقدوره فوق مقدور غيره بعظمه يقال علا فلان إذا ترّفع و طغىٰ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ**(٣).

أي من علا علىٰ صاحبه و قهره بالحجّة، و أنّما وصف اللّه فرعون و قومه بذلك لأنّ فرعون قال أنّا ربّكم الأعلىٰ، و هم تبعوه على ذلك و لا علُّو أقبح و أشنع من إدّعاء الألوهيّة فأنّ هذا أعلى مرتبة العلوّ و كانّ قوله: **كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ** بمنزلة العلّة لإستكبارهم فكأنّه قيل لم إستكبروا فقال تعالى لعلوّهم و تجاوزهم عن حدّهم و لا نعني بالإستكبار إلاّ هذا نعم مراتب الإستكبار مختلفة متفاوتة بالشّدة و الضّعف و هذا الّذي ذكر في الآية أعلى مراتبه.

فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ

إستدلّوا على إستكبارهم و تمّردهم بوجهين:

أحدهما: أنّ موسى و هارون كانا من جنس البشر و البشر لا يؤمن لبشرٍ مثله لعدم التّرجيح بينهما و صورة القياس، أنّ موسى بشرٌ مثلنا و كلّ بشرٍ لا يؤمن به

١- النّمل = ٣١ ٢- القصص = ٤
٣- طه = ٦٤

ينتج أنّ موسى لا يؤمن به، و قد تقدّم الكلام في هذا الباب في قصّة هود و قلنا أنّ الأنبياء من البشر من حيث الجسم و البدن العنصري و أمّا من جميع الجهات فلا فأنّ فضل الإنسان على إنسانٍ أخر ليس بجسمه و بدنه و ما فيه من القوى الحيوانيّة من الأكل و الشُّرب و النّوم و غيرها بالفضل ثابت لأجل الرُّوح و القوى التّابعة لها من العلم و الحلم و السّخاوة و الشجاعة و المعرفة و غيرها و لا شكّ أنّ الأنبياء من هذه الجهات لم يكونوا مثل غيرهم فالمثليّة بقولٍ مطلق منتفيّة فالقياس مخدوش من حيث الصُّغرى و بعبارةٍ أخرى صغرى القياس كاذبة فالنتيجة باطلة هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الإيمان بالنّبي هو الإيمان باللّه واقعاً و النّبي يدعو إلى اللّه لا إلى نفسه و أنّما هو واسطة بين الخالق و المخلوق فقولهم نؤمن لبشر مثلنا لا معنى له فأنّ اللّه تعالى ليس كمثله شئ فمعنى الإيمان بالنّبي في الحقيقة يرجع إلىٰ الإيمان باللّه نعم الإيمان بأنّه مخبرٌ عن اللّه تعالى ممّا لا كلام فيه.

الوجه الثّاني: ممّا إستدلّوا به على كفرهم هو قولهم: **وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ**، و فيه إشارة إلى أنّ بني إسرائيل كانوا لفرعون و قومه مطيعين طاعة العبد لمولاه و منشأ هذا القول هو إستكبارهم و علوّهم كما أنّ منشأ القول الأوّل جهلهم و حماقتهم و عدم معرفتهم بمقام الإنسان و هذا الدّليل أيضاً باطل لأنّ متابعة المظلوم للظالم أمرٌ قهرّي لا يدلّ على إستحقاق الظّالم و أنّه يليق أن يكون متبوعاً و ذلك لأنّ المظلوم مجبورٌ مقهور على متابعة الظّالم حفظاً لدينه و دنياه قال اللّه تعالى: **وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى اَلتَّهْلُكَةِ**(١) و لا سيّما إذا كان الحاكم فرعون و أمثاله ممّن يدّعي الألوهيّة و يقتل من خالفه و على هذا فقولهم: **وَ قَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ**، كلامٌ باطل لا يصدر من عاقلٍ و ذلك لأنّ خضوع القوم لم يكن عن إختياره و إذا كان كذلك فلا يدلّ على إنحطاط درجتهم و مقامهم هذا كلّه

١- البقرة = ١٩٥

مضافاً إلى أنّ خضوع القوم لا ربط له بخضوع موسى و هارون و هو ممّا لا يخفى على المتأمل.

فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ

أخبر اللّه تعالى أنّ فرعون و قومه كذّبوا موسى و هارون و لم يؤمنوا بنبّوتهما فكانوا من المهلكين الفاء في قوله: **فَكَانُوا**، للتّفريع و المعنى أنّ هلاكهم كان بسبب تكذيبهم و قد مرّ الكلام في كيفيّة هلاكهم فيما مضى مفصّلاً.

وَ لَقَدْ اٰتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

الكتاب هو التّوراة التّي أنزلت على موسى و فيها ما يحتاجون إليه في أمور دينهم و دنياهم و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** معناه لكي يهتدوا إلى طريق الحقّ من معرفة اللّه و خلع الأنداد و العمل بما فيها من الأحكام.

وَ جَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ اٰيَةً وَ اٰوَيْنَاهُمَآ إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ

إبن مريم هو عيسى روح اللّه، و أمّه، مريم بنت عمران و أنّما نسبه إلى أمّه لأنّه عليه السلام لم يكن له أبّ عن البشر و لعلّ هذا هو السّر في كونه أية إذ لم يولد أحد مثل عيسى كما أنّ أمّه أيضاً أية إذ لم تلد إمرأة من غير زوج من البشر و لأجل هذا جعلها اللّه تعالى أية، أي علامة القدرة و أنّ اللّه على كلّ شئٍ قدير و أنّما قال أية و لم يقل أيتين مع أنّ كلّ واحدٍ منهما أية بالإستقلال كما أشرنا إليه، لأنّ التّقدير جعلنا قصّتهما أية هكذا قيل و يحتمل أن يكون حذف من الأوّل أية لدلالة الثّاني على الحذف و التّقدير و جعلنا إبن مريم أية و أمّه أية، و يحتمل أن يكون المراد بالآية جنسها وكيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و عدم الشكّ في كونهما أية حقيقةً.

و قوله: **وَ اٰوَيْنٰاهُمٰآ إِلىٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ**، قال في المُفردات أوىٰ يأوي أوّياً و مأوى و المأوى إسم للمكان الّذي يأوي إليه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ سَاٰوِيٓ إِلىٰ جَبَلٍ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **اٰوىٰٓ إِلَيْهِ أَخٰاهُ**[٣].

و منه جنّة المأوىٰ و قوله: **وَ مَأْوٰيهُ جَهَنَّمُ**، فقوله: **وَ اٰوَيْنٰاهُمٰآ** معناه جَعَلنا مكانهما إلى ربوةٍ وإختلفوا في معناها، فقيل هي الرَّملة و قيل هي الغوطة بدمشق و قيل هي مصر، و قيل هي بيت المقدّس و قال أبو عبيدة يقال فلان في ربوةٍ من قومه أي في عزّ و شرف و عدد و قال إبن عبّاس وإبن المسّيب هي الغوطة بدمشق و صفتها أنّها ذات قرارٍ و معين على الكمال.

و قال قتادة و كعب هي بيت المقدّس و زعم أنّ في التّوراة أنّ بيت المقدّس أقرب الأرض إلى السّماء و أنّه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً و قال إبن زيد و وهب الرَّبوة بأرض مصر و سبب هذا الإيواء أنّ ملك مصر عزم على قتل عيسى ففرّت به أمّه إلى هذه الأماكن التّي ذكرها المفسّرون.

و قرأ الجمهور رُبوة بضّم الرّاء و هي لغة قريش و قرأ الحسن و عاصم و إبن عامر بفتح الرّاء و عليه المصاحف فعلاً و قرأ أبو إسحاق بكسر الرّاء، و معنى قوله: **ذٰاتِ قَرٰارٍ وَ مَعِينٍ** أي مستوية يمكن القرار فيها للحرث و الغراسة و المقصود أنّها من البقاع الطّيبة و عن قتادة ذات ثمارٍ و ماءٍ يعني أنّها لأجل الثّمار يستّقر فيها ساكنوها.

و حاصل الكلام أنّ اللّه تعالى جعل عيسى و أمّه في مكانٍ صالحٍ و أمّا أنّ هذا المكان أين كان فقد علمت إختلاف المفسّرين فيه و قد تقدّم الكلام في سورة

١- الكهف = ١٠   ٢- هود = ٤٤
٣- يوسف = ٧٠

مريم فلا نعيد الكلام بذكره ثانياً و حيث إنّجر الكلام إلى قصّة مريم و إبنها روح اللّه و أشار اللّه تعالى في الآية و قال و أويناهما إلى ربوةٍ ذات قرار و معين لا بأس بالإشارة إلى بعض ما ورد في الباب من طريق أهل البيت الّذين هم أدرى بما في البيت تيّمناً و تبّركاً به فنقول:

روي الصّدوقﷺ بأسناده عن يحيى إبن عبد اللّه قال كنّا بالحيرة فركبت مع أبي عبد اللّه عليه السلام فلمّا صرنا حيال قرية فوق الماصر قال عليه السلام: هي هي حين قرب من الشّط و صار على شفير الفرات ثمّ نزل فصلّى ركعتين ثمّ قال عليه السلام: أتدري أين ولد عيسى عليه السلام قلت لا قال عليه السلام في هذا الموضع الّذي أنا فيه جالس ثمّ قال عليه السلام أتدري أين كانت النّخلة قلت لا فمدّ يده خلفه فقال في هذا المكان ثمّ قال عليه السلام أتدري ما القرار و ما الماء المعين قلت لا قال عليه السلام هو هذا الفرات ثمّ قال أتدري ما الرّبوة قلت لا فأشار بيده عن يمينه فقال هو هذا الجبل أي النّجف قال عليه السلام أنّ مريم ظهر حملها وكانت في وادٍ فيه خمس مائة بكر يتّعبدون و قال حملته تسع ساعات فلمّا ضربها الطّلق خرجت من المحراب إلىٰ بيت ديرٍ لهم فلمّا فاجاءها المخاض إلى جذع النّخلة فوضعته فحملته فذهبت به إلى قومها فلمّا رأوها فزعوا فإختلف فيه بنو إسرائيل فقال بعضهم هو إبن اللّه و قال بعضهم هو عبد اللّه ونبيّه و قالت اليهود بل هو إبن الألهنة (ألشّر) و يقال للنّخلة الّتي أنزلت على مريم العجوة إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ: وَ اٰوَيْنٰاهُمٰآ إِلىٰ رَبْوَةٍ ذاٰتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ قال عليه السلام الرّبوة نجف الكوفة و المعين الفرات إنتهى.

و عن أبي الحسن موسىٰ عليه السلام في مسائله التّي سأل النّصراني عنها فقال له أبو إبراهيم عليه السلام و النّهر الذّي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه قال لا قال عليه السلام هو الفرات الخبر إنتهى[1] **و الأخبار كثيرة.**

يَآ أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَ ٱعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

قيل هذا خطاب لعيسى عليه السلام حكاه اللّه تعالى و ذلك لما جرى ذكره كأنّه قال يا عيسى كلوا من الطّيبات، وقيل هو خطاب للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة خاطبه بلفظ الجمع كما يقال للرّجل الواحد أيّها القوم كفّوا عنّا، و قال قوم لمّا ذكر بعض الأنبياء كأنّه قال و قلنا لهم يا أيّها الرُّسل كلوا من الطّيبات ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين نداء الرُّسل و خطابهم بمعنى نداء كلّ واحدٍ و خطابه في زمانه إذ لم يجتمعوا في زمانٍ واحد فينادون يخاطبون فيه و أنّما أتى بصورة الجمع ليعتقد السّامع أن امرأ نودي له جميع الرُّسل و صوابه حقيق أن يعمل عليه، و قيل ليفهم بذلك أنّ هذه طريقة كلّ رسولٍ كما تقول تخاطب تاجراً يا تجّار إتّقوا الرّباء.

و قال الطّبري الخطاب لعيسى و روي أنّه كان يأكل من غزل أمّه و المشهور من بقل البريّة.

و قال الزّمخشري و يجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى و مريم إلى الرّبوة فذكر على سبيل الحكاية أي أويناهما و قلنا لهما هذا الذّي أعلمناهما أنّ الرُّسل كلّهم خوطبوا بهذا و كلا ممّا رزقناكما و أعملا صالحاً إقتداءً بالرُّسل إنتهى.

١- بحار الأنوار ج ٥ ص ٣٨٢ باب ولادة عيسىٰ

و الأقوال كثيرة ثمّ أنّ المراد بالطيّبات الحلال لذيذاً كان أو غير لذيذ و قيل المراد بها ما يستطاب و يستلّذ من المأكل و الفواكه و يشهد له ذات قرار و معين و قدَّم الأكل من الطّيبات على العمل الصّالح دلالةً على أنه لا يكون صالحاً الاّ مسبوقاً بأكل الحلال و قوله: **إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** قيل أنّه تحذيرٌ في الظّاهر و المراد إتباعهم هذا ما قالوه في تفسير الآية.

أقول أمّا قوله: **يَآ أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ** بصيغة الجمع ففيه وجوه:

الأوّل: أنّه تعالى ذكر في الأيات السّابقة قصّة نوح و هود و موسى و عيسى فقال: **يَآ أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ** والتّقدير قلنا لهم ذلك.

الثّاني: أنّه حكمٌ كلّي خاطب به جميع الأنبياء من الأولّين وا لأخرين.

الثّالث: الإعلام بأنّ أكل الطيّبات ممّا لا منع فيه في حقّ الرُّسل فلا ينافي مقام النبوّة ردّاً على من زعم أنّ النّبي لا يأكل منها كما نرى في زماننا هذا أنّ أكثر العوام يعتقدون أنّ العلماء الذّين هم ورثة الأنبياء ينبغي لهم أن يجتنبوا منها فإذا كان أكل الطّيبات ممّا لا منع فيه في الأنبياء فهو في حقّ غيرهم أولىٰ بعدم المنع و عليه فهذا حكمٌ كلّي يشمل جميع العباد بالأوّلوية و أنّما خصّهم بالذّكر لأنّ الأمّة تقتدي بإمامها هذا و أمّا قوله: **وَ ٱعْمَلُوا صَالِحًا** إلى أخر الآية فالمعنى واضح لا خفاء فيه فأنّ العمل الصّالح مطلوبٌ محسوبٌ و أنّ اللّه أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

وَ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

قرأ الكوفيّون و إنّ بسكر الهَمَزة و التّشديد على الإستئناف و قرأ أبو عمرو و الحرميان بفتح الهَمَزة و التّشديد أي، و لأنّ، و قرأ إبن عامر بالفتح و التّخفيف و هي المخّففة من الثّقيلة و يدلّ على أنّ النّداء للرُّسل نودي كلّ واحدٍ منهم في زمانه قوله: **وَ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ**.

أقول فعلى قول إبن عامر موضع، إن، نصب لأنّ تقديره، و لأنّ، أي لهذه فإتّقون و على قول الكوفّيين موضعه الجرّ بالعطف على **بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**

فمن كسر الهمزة إستأنف الكلام، و معنى الأمّة هاهنا الملّة سمّاها بذلك للإجماع عليها بأمر اللّه.

و قال بعضهم معناه أي دينكم واحد، و قيل معناه جماعتكم واحدة في الشّريعة الّتي نصبها اللّه لكم.

و قال الجبائي، أنّ هذه أمّتكم أمّة واحدة، في أنّهم عبيد اللّه و خلقه و تدبيره.

أقول قوله: **وَ إِنَّ هٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً**، فيه إشارة إلى أنّ جميع الأمم واحدة في كونهم متشرّعين في شريعة اللّه و ذلك لأنّ كلّ نبيٍّ من الأنبياء يدعو قومه و أمّته إلى التّوحيد و العمل بأحكام اللّه تعالى و لا فرقٍ بين الأنبياء في الدَّعوة إلى اللّه.

و إن شئت قلت لا فرق بينهم في دعوتهم في الأصول و هو التّوحيد و النّبوة و المعاد و حاصل الكلام أنّ الأمم من هذه الجهة واحدة لا إختلاف فيهم و أنّما الإختلاف في الأحكام الفرعيّة الّتي وضعت في كلّ زمانٍ بما يناسبه فأن جعل الأحكام الفرعيّة ليس على وُتيرةٍ واحدة في جميع الأزمنة و هو واضح و بالجملة إختلاف الأحكام في المذاهب و الأديان كمّاً و كيفاً لا يدلّ على الإختلاف في أصول الدِّين و الآية ناظرة إلى الوحدة في الأصول.

و قوله: **وَ أَنَا رَبُّكُمْ**، معناه أنّا ربّ الجميع و خالق الكلّ، فإتّقون، الفاء للتّفريع أي إذا كان الأمر على هذا المنوال فإتّقونِ، بكسر النّون و الأصل فإتّقوني، بفعل الواجبات و ترك المحرّمات قربةً إلى اللّه.

فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن إفتراق الأمم و إختلافهم و تقطيعهم الزُّبر و هي الكتب السّماوية فالمعنى تفرّقوا كتباً دانوا بها و كفروا بما سواها كاليهود دانو بالتّوراة و كفروا بالإنجيل و القرآن و النّصارى دانوا بالإنجيل و كفروا بالقرآن و كلّ حزبٍ أي كلّ طائفة بما لديهم فرحون يزعمون أنّه الحقّ و ما سواه

الباطل، هذا على قراءة المشهور في، زُبُراً بضّم الزّاء و الباء جمع زبور كرسول و رسل.

و أمّا على قراءة إبن عامر و هي فتح الباء فمعناه جماعات لأنّه على هذا جمع زبرة و المعنى أنّهم تفرّقوا و إختلفوا من حيث الجماعات و كيف كان فالأمر سهل بعد و ضوح المعنى و أنّ التقطّع وقع بين الأمم بكلا المعنيين بل نقول ما من أمّةٍ من الأمم إلاّ و فيها إختلاف كثير و تشتّتٌ عظيم مع أبناء أمّته فضلاً عن سائر الأمم ألا ترى أنّ الأمّة الإسلاميّة تحزّبت و تفرّقت الى ثلاث و سبعين فرقة كلّ فرقةٍ تلعن أختها و قس على هذا غيرها فقوله تعالى: **إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً**[1] لم يعمل بها كما لم يعمل بأكثر أحكام اللّه و لذلك صار الإسلام غريباً و ينادي بأعلى صوته هل من ناصرٍ ينصرني، و لكن لم يسمع و لا يسمع هذا النداء و لا ينتج هذا إلاّ وهن الإسلام و المسلمين قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**بَدَأ الإسلام غَريباً وسَيعُود غَريباً**».

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ هذه الآية ناصةٌ فيما ذكرناه ولتفصيل الكلام فيها محّل آخر.

فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ

الفاء في قولهم: **فَذَرْهُمْ** للتفريع أي إذا كان حال الأمم على ما أشرنا إليه من الإختلاف والتّقطيع و أنّ كلّ حزبٍ و طائفة منهم **بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** فذرهم أي دعهم فيما خاضوا فيه من الإختلاف و الإعراض عن الحقّ و حيرتهم و ضلالتهم في دينهم، حتّى حين، أي وقت الموت و قيل حين العذاب و إنّما قال تعالى ذلك لأنّ المعاند للحقّ أو لاء له إلاّ الإعراض عنه و لذلك ترى في كثير من الآيات أمر اللّه أنبيائه بترك هؤلاء المعاندين المعرضين عن الحّق.

١– الانبياء = ٩٢

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ اَلَّذي يُوعَدُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ اَللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ، اَلَّذينَ هُمْ في خَوْضٍ يَلْعَبُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتّى يَخُوضُوا في حَديثٍ غَيْرِه**(٤) و الآيات كثيرة.

و السِّر في ذلك أنّ الجَّهل إذا خلط مع العناد فهو داءٌ لا دواء له و إذا كان النَّبي لا يقدر إصلاحهم و إرشادهم و يؤمر من قبل اللّه بتركهم و الإعراض عنهم فما ظنَّك بغير النَّبي، و الغَمرَة بفتح الغين و الرّاء سكون الميم الشدّة و قيل هي الحيرة و قيل هي الضّلالة و الكُّل ممّا لا بأس به.

قال الزّمخشري الغمرة الماء الّذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم و عمايتهم أو شبّهوا باللاّعبين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل و أمّا الخطاب في قوله: **فَذَرْهُمْ**، فهو للنَّبي صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك لأنّ اللّه تعالى لمّا ذكر من ذكر الأمم و قال أمرهم من الإهلاك حين كذّبوا الرّسل كان ذلك مثالاً لقريش فخاطب رسوله في شأنهم بقوله: **فَذَرْهُمْ في غَمْرَتِهِمْ حَتّىٰ حينٍ** و هذا في الحقيقة وعيدٌ لهم حيث تقطّعوا في أمر رسول اللّه فقال بعضهم هو شاعر و قال بعضهم هو مجنون و هكذا كما تقطّع من قبلهم من الأمم في أنبيائهم من التكذيب و الإستهزاء و حكم الأمثال واحد و لمّا كان القوم في نعمةٍ عظيمة في الدُّنيا من الجاه و المال و العشيرة و غير ذلك ظنُّوا أنّ تلك النِّعم كالثّواب المعجّل لهم في أديانهم و أرائهم فبيّن سبحانه أنّ الأمر بخلاف ذلك فقال:

١- الزُّخرف = ٨٣؛ المعارج = ٤٢
٢- الأنعام = ٩١
٣- الطّور = ١١/١٢
٤- الانعام = ٦٨

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ

أصل المدّ الجّر منه المدّة للوقت الممّتد و أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، و المدَّ في المكروه قال:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ، وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدًّا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**(٦) و غيرها من الأيات.

و المعنى أيحسبون أي يظنّون أنّ الّذي نمدّهم به هو من أجل مالهم و بنيهم بل أنّما ذلك لما فيه من المصلحة، و قيل في الآية حذفٌ و تقدير الكلام أيحسبون أنّ الّذي نمدّهم من المال و البنين حقٌّ لهم أو لكرامتهم عندنا، لا يكون كذلك بل نفعل ذلك لأجل المصلحة و هي إستدراجهم إلى المعاصي و إستجرارهم إلى زيادة الإثم جزاءً بما كانوا فيه من العناد و الإنكار و خوضهم في المعاصي و المناهي و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(٧).

نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ

١- الطّور = ٢٢
٢- الشّعراء = ١٣٣/١٣٤
٣- البقرة = ١٥
٤- الأعراف = ٢٠٣
٥- مَريَم = ٧٥
٦- مَريم = ٧٩
٧- أل عمران = ١٧٨

قيل المسارعة تقديم العمل في أوقاته التّي تدعو الحكمة إلى و قوعه فيه و هي سرعة العمل و مثله المبادرة و أنّما بني على فاعلة لأنّ الفعل كأنّه يسابق فعلاً أخر و الخيرات هي المنافع التّي يعظم شأنها و نقيضها الشّرور و الشّعور العلم الّذي يدّق معلومه و فهمه على صاحبه دقّة الشَّعر و قيل هو العلم من جهة المشاعر و هي الحوّاس و لهذا لا يوصف اللّه تعالى به، و قيل نسارع لهم في الخيرات أي نقدّم لهم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم و محبّتنا إيّاهم كلاّ ليس الأمر كذلك بل نفعله إبتلاءً في التَّعبد لهم.

قال بعض المفسّرين أنّ قوله نسارع لهم في الخيرات، خبر، أنّ، في قوله: **أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ**، و ماء في قوله: **أَنَّمَا**، مصدريّة أو بمعنى، الذّي، أو كافّة، فعلى هذا يصير المعنى أيحسبون أنّ الّذي نمدّهم به من مالٍ و بنينٍ نسارع لهم في الخيرات و على هذا فالرّابط لهذه الجملة ضمير محذوف لفهم المعنى تقديره نسارع لهم به في الخيرات و حسن حذفه إستطالة الكلام مع أمن اللّبس.

أقول الحقّ أنّ قوله: **نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ**، إبتداء كلامٍ إذ لا يجوز أن يكون الإنكار وقع لظّنهم أنّ ذلك مسارعة لهم في الخيرات لأنّه تعالى قد سارع لهم في الخيرات بما فعل بهم من الأموال و البنين لما لهم في ذلك من اللّطف و المصلحة و الغرض في ذلك أن يعرفوا اللّه و يؤدّوا حقوقه، **بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ**، أي و هم لا يشعرون بذلك و لا يفهم.

ونه لتفريطهم في ذلك قاله في التّبيان.

و قال الرّازي أنّ هذا الإمداد ليس إلاّ إستدراجاً لهم في المعاصي و إستجراراً لهم في زيادة الإثم و هم يحسبونه مسارعة في الخيرات و، بل، للإستدراك لقوله: **أَيَحْسَبُونَ**، يعني هم أشباه البهائم لا فطنة لهم و لا شعور حتّى يتفكّروا في ذلك أهو إستدراج أم مسارعة في الخير إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي أخذه من تفسير الكشّاف و أنت إذا تأملّت في الآية حقّ التّأمل لعلمت أنّ ما ذكره الزّمخشري و تبعه الرّازي و غيره من مفسّري العامّة لا

يساعد الكلام إذ لو كان الأمر كما ذكروه كان حقّ الكلام أن يقال، مسارعة، بالميم لا نسارع بالنُّون و حيث قال نسارع يفهم منه أنّه أوّل الكلام على ما نقلناه عن التّبيان و اللّه أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ

قال في المفردات الخشية خوفٌ يشوبه تعظيم و أكثر ما يكون عن علمٍ بما يخشى منه و لذلك خصّ العلماء بها في قوله تعالى:

إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(١).

و الإشفاق عناية مختلطة بخوفٍ لأنّ المشفق يحبّ المشفق عليه و يخاف ما يلحقه و منه قوله تعالى:

وَ هُمْ مِنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ(٢).

و قيل الخشية ظنّ لحوق المضّرة و مثلها المخافة و نقيضها الأمنة فالخشية إنزعاج النّفس بتّوهم المضّرة و الظنّ كذلك يزعج للنّفس فسمّي بإسمه على طريق البلاغة والخشية من اللّه خشية من عقابه و سخطه على معاصيه، و قوله: **مِنْ خَشْيَةِ** متعلّقٌ بمشفقون و التّقدير أنّهم مشفقون من خشية ربّهم إذا عرفت هذا فنقول.

لمّا فرغ من ذكر الكفرة و توّعدهم عقب ذلك بذكر المؤمنين و وعدهم و ذكرهم بابلغ صفاتهم فأنّ الإشفاق أبلغ التّوقع و الخوف و منهم من حمل الخشية على العذاب و عليه فالمعنى و الّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون، من، في من خشيته، لبيان الجنس أي جنس الإشفاق و لا شكّ أنّ المؤمن كذلك فلا يخشى إلاّ من اللّه تعالى كما قال:

فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٣).

١- فاطر = ٢٨ ٢- الأنبياء = ٤٩
٣- التّوبة = ١٣

و قال تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ ٱللّٰهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ**[١].

و قد قَسَّم العرفاء الإشفاق على ثلاث درجات:

الدَّرَجة الأُولىٰ: الإشفاق على النّفس.

الثّانية: الإشفاق على الوقت أن يشوبه تفّرق.

الثّالثة: الإشفاق الّذي يصون سعيه عن العجب و يكفّ صاحبه من مخاصمة الخلق و يحمل المشفق على حفظ الجدّ بأن يرى سعيه توفيقاً من اللّه و عطاءً منه لا من نفسه فيعرض له الإعجاب و يتّطاول به على الخلق فيكون سعيه وبالاً عليه إلى أخر ما ذكروه في المقام.

وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِأٰيٰاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

قيل المراد بالأيات القرآن و العبر و المصنوعات الّتي للّه و غير ذلك ممّا فيه نظرٌ.

أقول الظّاهر من الأيات هو الأيات التّشريعية كالأيات الدّالة على التّوحيد و النّبوة و المعاد و الأحكام من الصّلاة و الصَّوم و غيرها.

و أمّا الأيات التّكوينية فأنّها تابعة للأيات التَّشريعية من جهة الإعتقاد و الإيمان و ذلك لأنّ من عرف اللّه حقّ المعرفة عرف أنّ ما سواه كائناً ما كان مخلوقٌ له و المخلوق أية للخالق تكويناً.

كما قيل:

وفي كلّ شيءٍ له أيةُ تدلّ علىٰ أنّه واحدُ

و من المعلوم أنّ المؤمن الّذي أمن باللّه أمن بجميع ذلك.

وَ ٱلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاٰ يُشْرِكُونَ

١- النّور = ٥٢

أي لا يشركون بعبادة اللّه غيره من الأصنام و الأوثان و ذلك لأنّ خصال الإيمان لا تتّم إلاّ بترك الإشراك دون ما يقول أهل الجاهليّة أنا نؤمن باللّه.

وَ ٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ اٰتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ راٰجِعُونَ

هذا وصف أخر لهم و هو أنّهم يعطون ما أعطوا من الزّكٰوة و الصّدقة و ينفقونه في طاعة اللّه و قلوبهم و جلة أي خائفة من عذاب اللّه لتفريط يقع منهم، **أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ راٰجِعُونَ**، أي يخافون من رجوعهم إلى اللّه يوم القيامة أي يخافون ذلك لأنّهم لا يأمنون التّفريط.

أُولٰٓئِكَ يُسٰارِعُونَ فِى ٱلْخَيْراٰتِ وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ

أولئك إشارة إلى المؤمنين الّذين ذكر اللّه أوصافهم في الأيات السّابقة و المعنى أولئك الّذين مرَّ ذكرهم و أوصافهم هم الّذين يسارعون أي يبادرون إلى الطّاعات و يجتهدون في السَّبق إليها رغبةً إلى الثّواب و خوفاً من العقاب لعلمهم بما لهم بها من حسن الجزاء و قوله و هم لها سابقون قيل معناه سبقت لهم السّعادة.

و قيل هم سابقون، إلى الجنّة من أجل تلك الخيرات و قيل هم إلى الخيرات سابقون و قد ثبت أنّ السّابق إلى الخير مقّرب عند اللّه لقوله: **وَ ٱلسّٰابِقُونَ ٱلسّٰابِقُونَ، أُولٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ**(١).

قال بعض المفسّرين ترتيب هذه الصّفات في نهاية الحسن لأنّ الأولى دلّت على حصول الخوف الشّديد الموجب للإحتراز.

الثّانية: على تحصيل الإيمان باللّه.

الثّالثة: على ترك الرّياء في الطّاعة.

الرّابعة: علىٰ أنّ المستجمع لهذه الصّفات الثّلاثة يأتي بالطّاعات مع خوفٍ من التّقصير و هو نهاية مقامات الصّديقين.

١- الواقعة = ١٠/١١

قال الزّمخشري يسارعون في الخيرات يحتمل معنيين:
أحدهما: أن يراد يرغبون في الطّاعات أشدّ الرّغبة فيبادرونها.
الثّاني: أنّهم يتّعجلون في الدّنيا المنافع و وجوه الإكرام كما قال: **فَآتَيٰهُمُ ٱللّٰهُ ثَوابَ ٱلدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ ٱلْاٰخِرَةِ. وَ اٰتَيْناهُ فِى ٱلدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِى ٱلْاٰخِرَةِ لَمِنَ ٱلصّالِحِينَ** لأنّهم إذا سورع بها لهم فقد سارعوا في نيلها و تعجّلوها و هذا الوجه أحسن طباقاً للأية المتّقدمة لأنّ فيه إثبات ما نفي عن الكفّار للمؤمنين إنتهىٰ.
أقول الخير ما يرغب فيه الكلّ و هو على ضربين:
خيرٌ مطلق و هو أن يكون مرغوباً فيه بكلّ حالٍ و عند كلّ أحدٍ كما وصف عليه السّلام به الجنّة فقال لا خير بخير بعده النّار و لا شرّ بشرٍ بعده الجنَّة و ذلك لأنّ السرّ ضدّ الخير فكلّ فعلٍ أو قولٍ يوجب دخول الجنَّة فهو خير و كلّ قولٍ و فعلٍ يوجب دخول النّار فهو شرّ.
الثّاني: خيرٌ مقيّدٌ و شرّ كذلك و هو أن يكون خيراً لواحدٍ و شرّاً لأخر كالمال الذّي ربّما يكون خيراً لزيد مثلاً و شّراً لعمرو إذا عرفت الخير بقسميه فقوله تعالىٰ: **يُسٰارِعُونَ فِى ٱلْخَيْراٰتِ** يشمل المطلق و المقيّد و في قوله: **يُسٰارِعُونَ** إشارة إلى أنّ المؤمن ينبغي له أن يغتنم الفرص و ذلك لقوله ﷺ: **إغتَنمُوا الفُرَص فأنّها تَمُّر مَرّ السّحاب** فالوجه في السُّرعة إلى الخير لأجل عدم فوت الفرصة لأنّ في التّأخير أفات هذا أوّلاً.
و ثانياً السُّرعة في الخيرات كاشفة عن الإيمان فأنّ المرء يحشر مع ما أحبَّه في الدُّنيا و قوله: **وَ هُمْ لَهٰا سٰابِقُونَ** فالظّاهر أنّ الضّمير في، لها يرجع إلىٰ الخيرات أي و هم يسبقون الخيرات و قيل معنى الكلام هم سابقون النّاس و عليه فالمفعول و هو النّاس محذوفٌ و قيل اللاّم في، لها للتّعليل أي لأجل الخيرات سابقون النّاس إلىٰ رضا اللّه.
و قال الزّمخشري لها سابقون، أي فاعلون السّبق لأجلها أو سابقون النّاس لأجلها.

و قال إبن عبّاس و المعنى سبقت لهم السّادة في الأزل فـهم لهـا و رجـحّة الطّبري بأنّ اللاّم متّمكنة في المعنىٰ، و قيل الضّمير في، لها، عائد إلى الجنّة و قيل على الأمم و قيل غير ذلك ممّا لا فائدة في ذكره بعد وضوح المعنى و أنّ السّبق إلى الخيرات ممدوح على كلّ حالٍ.

وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ

الوسع بضّم الواو و سكون العين و السّين الطّاقة و القدرة و المعنى لا نكلّف نفساً إلاّ على قدر طاقتها و قوّتها و قدرتها.

و قال بعضهم الوسع دون الطّاقة، و قيل الوسع الحال التّي يتّسع بها السّبيل إلى الفعل و التّكليف يحتمل ما فيه المشّقة بالأمر و النّهي و الإعلام و هو مأخوذٌ من الكلّفة في الفعل و اللّه تعالى مكلّفٌ عباده تعريضاً لهم للنّفع الّذى لا يحسن الإبتلاء بمثله و هو الثّواب قال بعض المفسّرين فـي الآيـة دلالة عـلىٰ بـطلان مذهب المجبّرة في تكليف ما لا يطاق لأنّه لو كلَّف ما لا يطيقه العبد لكان قـد كلَّفه ما ليس في وسعه و الآية تمنع من ذلك قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول ما ذكره حقّ لا مرية فيه فأنّ التّكليف فوق الطّاقة ظلمٌ على العبد عقلاً و ما ربّك بظّلام للعبيد و قد تكلّمنا في هذا الباب عند قوله: **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** فيما مضى مفصّلاً في سورة البقرة أية ٢٨٦ و ذلك لأنّ الحكم ممّا إستقلّ به العقل و لا يحتاج إلىٰ دليلٍ أخر و الذّي نقول في المقام هو أنّه تعالىٰ لمّا ذكر في الأيات السّابقة أوصاف المؤمنين من الخشية و الإيمان بالأيات و الإجتناب من الشِّرك و الإنفاق و المسارعة في الخيرات قال في هذه الآية و لا نكلّف نفساً إلاّ وسعها، إيماءً إلىٰ أنّ هذا الّذي وصف به الصّالحين غير خارج من حدّ الوسع و الطّاقة و كذلك كلّ ما كلَّفه عباده و ما عملوه من الأعمال ليس فوق طاقتهم بل هو ثابت لدينا في كتاب و هو اللّوح المحفوظ أو صحيفة الأعمال ثمّ وصف الكتاب

بأنّه ينطق بالحقّ فهم لا يظلمون و يحتمل أن يراد بقوله هذا أنّ اللّه لا يكلّف إلاّ الوسع فأن لم يبلغ المكّلف أن يكون على صفة هؤلاء الذّين مرَّ أوصافهم من المؤمنين السّابقين بعد أن يستفرغ وسعه و يبذل طاقته فلا عليه شيء و لدينا كتاب فيه عمل السّابق و المقتصد و لا نظلم أحداً من حقّه.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذاٰ وَ لَهُمْ أَعْمٰالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهٰا عٰامِلُونَ

بل، للإستدراك و المعنى بل قلوب الكفّار و المنافقين في غمرةٍ أي غفلةٍ أي أنّهم وقعوا في ضلالٍ قد غمرهم كما يغمر الماء من هذا أي من هذا العمل الّذي وصف به المؤمنون أو من الكتاب الّذي لدينا أو من القرآن و لهم أعمال من دون ذلك أي من دون الغمرة و الضّلال المحيط بهم و بعبارةٍ أخرى أنّهم ضالُّون معرضون عن الحقّ و هم مع ذلك يسعون في الفساد و هم لها أي لهذه الأعمال السيّئة عاملون.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ الضّمير في قوله: **بَلْ قُلُوبُهُمْ**، يعود إلى المؤمنين المشفقين في غمرةٍ من هذا، وصف لهم بالحيرة كأنّه قال و هم مع ذلك الخوف و الوجل كالمتحيّرين في أعمالهم أهي مقبولة أم مردودة و لهم أعمال من دون ذلك أي من النّوافل و وجوه البّر سوى ما هم عليه و يريد بالأعمال الأوّل الفرائض و بالثّاني النّوافل إنتهىٰ.

أقول هذا الّذي ذكره بعيدٌ عن مساق الآية غاية البعد مضافاً إلى أنّه ينافي الإستدراك و أنّ المذكور في الآية من أنّ قلوبهم في غمرةٍ ليس من شأن المؤمن الموصوف بالصّفات المذكورة.

حَتّٰىٓ إِذٰآ أَخَذْنٰا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذٰابِ إِذٰا هُمْ يَجْـَٔرُونَ

قيل المترف المتقلّب في لين العيش و نعومته و قوله يجئرون معناه يضّجون لشّدة العذاب.

و قال إبن عبّاس يستغيثون و قال مجاهد كان ذلك بالسّيوف يوم بدر و الجؤار رفع الصَّوت كما يجأر الثّور، و قيل معنى يجأرون يصرخون بالتّوبة فيقول اللّه لهم.

لَا تَجْـَٔرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ

أي يقول اللّه لهم يوم القيامة لا تضجُّون و لا تصرخون أنّكم ممّا لا تنصرون، الظّاهر أنّ المراد باليوم يوم القيامة و بالعذاب عذاب الأخرة و المعنىٰ أنّهم أي الكفّار و قيل المترفون يضجُّون لشّدة العذاب يوم القيامة فيقال لهم لا تجئروا أي لا تصرخوا و لا تضجُّوا من العذاب أنّكم ممّا لا تنصرون، أي لا ناصر لكم اليوم.

و قال بعض المفسّرين المراد بالعذاب قتلهم يوم بدر و قيل المراد به القحط سبع سنين و الجوع حين دعا عليهم رسول اللّه فقال اللّهم أشّدد و طأتك علىٰ مضر و إجعلها عليهم سنين كسني يوسف فإبتلاهم اللّه بالقحط حتّى أكلوا الجيف و الكلاب و العظام المحترقة و القد و الأولاد و علىٰ هذا فالمعنى لا تصرخوا و لا تضجّوا بالتّوبة أنّكم منّا لا تنصرون بقبول التّوبة و لا لكم دافعٌ من العذاب فالجؤار غير نافع لكم، و قال إبن جريح، المعذّبون قتلى بدر و الذّين يجئرون أهل مكّة لأنّهم ناحوا و إستغاثوا و القائل لهم إمّا حقيقة تقول لهم الملائكة و إمّا مجازاً أي لسان الحال يقول ذلك ثمّ يقول اللّه تعالى لهم.

قَدْ كَانَتْ اٰيَاتِي تُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلٰىَ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ

النّكص الرّجوع إلى القهقري و هو المشي على الأعقاب إلى خلف و هو أقبح مشية يمشي و لا يرى ما وراءه فهو النّكوص.

و قال مجاهد معنى ينكصون أي يستأخرون، و قيل يدبرون و المقصود أنّكم أعرضتم و تركتم الأيات وراء ظهوركم فلم تعملوا بها و من كان كذلك فلا

يلومَنَّ إلاّ نفسه لأنّ الإعراض عن الحقّ و الإقبال إلى الباطل سببٌ للعذاب و إذا وجد السَّبب وجد المسَّبب قهراً و في الآية دلالة على أنّ الأعمال أسباب الجزاء أن خيراً فخيراً و إن شّراً فشّراً و أنّ اللّه ليس بظّلام للعبيد.

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ

مستكبرين نصب على الحال و الضّمير في، به، عائد على الحرم و المسجد و إن لم يتقدّم له ذكر و سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالإستكبار بالبيت و قيل أنّه عائد على الرَّسول و يؤيّده أنّ في قوله: **تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ**، دلالة عليه فأنّ التّالي هو الّرسول، وقيل ضمن مستكبرين معنى مكذّبين فعدّى بالباء و قيل الباء للسَّبب أي يحدث لهم بسبب سماعه إستكبار و عتّوّ و قيل تتعلّق، بسامر، أي تسمرون بذكر القرآن و الطّعن فيه و ذلك أنّهم كانوا يجتمعون حول البيت بالّليل يسمرون و كانت عامّة سمرهم ذكر القرآن و تسميته سمراً و شعراً و سبّ من أتى به.

قال الرّاغب في المفردات قيل للحديث باللّيل السُّمر و سمر فلان إذا تحدَّث ليلاً و قيل معنى، سامراً، سمّاراً فوضع الواحد موضع الجمع كما يقال قوموا قائماً أي قياماً، و قيل السّامر اللّيل المظلم، ثمّ أنّ الجمهور قرأوا سامراً، و قرأ إبن مسعود وإبن عبّاس و غيرهم سُمراً، بضّم السّين شدّ الميم مفتوحة جمع سامر، و أمّا قوله: **تَهْجُرُونَ** فهو بفتح التّاء و ضمّ الجيم و الهجر التَّرك.

قال إبن عبّاس معناه تهجرون الحقّ و ذكر اللّه و تقطعونه من الهجر، و قال إبن زيد و أبو حاتم هو من هجر المريض إذا هدى أي يقولون اللّغو من القول و قرأ إبن عبّاس و إبن محيص و نافع و حميد، بضّم التّاء و كسر الجيم مضارع، أهجر، أي يقولون الهجر بضّم الهاء و هو الفحش.

و قال إبن جنّي لو قيل أنّ المعنىٰ أنّكم مبالغون في المجاهرة حتّى أنّكم كنتم سمرٌ باللّيل لكان وجهاً و اللّه أعلم.

■

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جٰآءَهُمْ مٰا لَمْ يَأْتِ
اٰبٰآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ
جٰآءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَ لَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوٰآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمٰوٰاتُ
وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا
فَخَرٰاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرّٰازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَ
إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلٰى صِراٰطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَ إِنَّ
ٱلَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ عَنِ ٱلصِّراٰطِ لَنٰاكِبُونَ
﴿٧٤﴾ وَ لَوْ رَحِمْنٰاهُمْ وَ كَشَفْنٰا مٰا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ
لَلَجُّوا فِي طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَ لَقَدْ أَخَذْنٰاهُمْ
بِالْعَذٰابِ فَمَا ٱسْتَكٰانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا يَتَضَرَّعُونَ
﴿٧٦﴾ حَتّٰىٓ إِذٰا فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا ذٰا عَذٰابٍ
شَدِيدٍ إِذٰا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْشَأَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مٰا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ
لَهُ ٱخْتِلٰافُ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ أَفَلٰا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾
بَلْ قٰالُوا مِثْلَ مٰا قٰالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قٰالُوٓا أَءِذٰا
مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرٰابًا وَ عِظٰامًا أَئِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾
لَقَدْ وُعِدْنٰا نَحْنُ وَ اٰبٰآؤُنٰا هٰذٰا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذٰآ

إِلَّآ أَسٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَ
مَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ
ٱلسَّبْعِ وَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ
﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنٰهُم بِٱلْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

◀ اللّغة

خَرْجًا: الخرج بفتح الخاء و سكون الرّاء و الجيم الأجر على العمل.

لَنٰاكِبُونَ: النّكب العدول عن الحقّ.

لَلَجُّوا: اللّجاج التّمادي و العناد في تعاطي الفعل المزجور عنه و منه لجّة الصّوت بفتح اللاّم أي تردّده و لجّة البحر بضمّ اللاّم تردّد أبراجه.

فَمَا ٱسْتَكٰانُوا: الإستكانة الذّلة و قيل معناها التّضرع.

مُبْلِسُونَ: الإبلاس الحُزن المُفرض من شدّة البأس يقال أبلس فلان إذا سكت و إذا إنقطعت حجّته.

ذَرَأَكُمْ: الذّر الخلق و الإيجاد.

يُجِيرُ: بضمّ الياء مضارع أجار و الأجارة الإعادة.

◀ الإعراب

عَنِ ٱلصِّرٰاطِ يتّعلق بناكبون و الإعراب في الباقي واضح لا يحتاج الى البحث.

◀ التّفسير

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ

الإستفهام للتّوبيخ ذكر اللّه تعالى في هذه الآية توبيخهم على إعراضهم عن إتّباع الحقّ و التّصديق بالقرآن و أنّه كلام اللّه المنزل على رسوله و عدم تدبرهم فيه و ذلك لأنّهم لو كانوا يتدبّرون فيه حقّ التّدبر لعلموا أنّه المعجز الّذي لا يمكن لهم و لغيرهم الإتيان بمثله و لكنّهم لعدم تدّبرهم قالوا فيه ما قالوا من أنّه سحر أو شعر أو أساطير الأوّلين و لم يعلموا أنّه من أعظم الدّلائل الباقية على غابر الدّهر و قوله: **أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** معناه أنّ ما جاءهم جاء آباءهم الأوّلين و هو إرسال الرّسل و إنزال الكتب السّماوية و المقصود أنّ ما جاءهم من القرآن و الرّسول جاء آباءهم أيضاً و قد عرفوا ذلك بالتّواتر و علموا نجاة من آمن بالرّسول و إستئصال من كذّب.

قال بعض المفسّرين المراد بآباءهم، إسماعيل و أعقابه من عدنان و قحطان و روي لا تسبُّوا مضر و لا ربيعة و لا الحرث بن كعب و الأسد بن خزيمة و لا تميم بن مرّو و لا قسّاً، و ذكر أنّهم كانوا مسلمين و أنّ تبّعاً كان مسلماً و كان على شرطة سليمان بن داوود، و قيل قوله: **أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** معناه أم جاءهم الا من ما لم يأت آباءهم حين خافوا اللّه و آمنوا به و بكتبه و رسله و أطاعوه.

أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

المراد بالرّسول هنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و المعنىٰ أم لم يعرفوا محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم و صحّة نسبه و أمانته و صدقه و عقله و سائر صفاته و أنّه خير فتيان قريش و الإستفهام هنا للإنكار أي بلى قد عرفوه كما عرفوا آبناءهم ولكنّه جاءهم بما خالف شهواتهم و أهواءهم ولم يوافق ما نشأوا عليه من إتّباع الباطل و حيث

أنّهم لم يجدوا له مرَدّاً و لا مدفعاً لأنّه الحقّ و الصّراط المستقيم فأخلدوا الى البهت و عولوا على الكذب من النّسبة الىٰ الجنون و السِّحر و الشِّعر كما قال تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جٰآءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ

و المعنى يقولون هؤلاء المنكرين لرسالته صلّى الله عليه وآله وسلّم به أي بالرّسول جنّة و المعنى أنّه مجنون لا يعبأ بقوله ثمّ إستدرك تعالى و قال: **بَلْ جٰآءَهُمْ بِالْحَقِّ**، أي أنّه رسول اللّه حقّاً و أكثر هؤلاء الكفّار للحقّ كارهون، أي يكرهونه بمجيئه بما ينافي عادتهم و أنّما قال أكثرهم ولم يقل كلّهم أو جميعهم لأنّ كلّ هؤلاء القوم لم يكونوا للحقّ كارهين هذا إذا قلنا أنّ الضّمير في أكثرهم، عائد علىٰ المنكرين في عهد رسول اللّه و يحتمل عوده الى النّاس أي أكثر النّاس كذلك في كلّ عهدٍ و زمان و هذا ممّا لا شكّ فيه إذ لا يعقل بل لا يمكن أن يكون جميع النّاس يكرهون الحقّ إذ لو كان الكره ثابتاً لآحاد النّاس بالنسّبة الى الحقّ لزم أن يكون جميع النّاس أتباع الشّيطان و لا يوجد في العالم موحّدٌ تابع للحقّ و هو كما ترى غير معقول و على هذا فالحكم أكثريٌ و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أعلم أنّ مفسّري العامّة حملوا قوله تعالى: **وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كٰارِهُونَ** علىٰ المنكرين في عهد الرّسول من أقرباءه و غيرهم قال صاحب الكشّاف ما هذا لفظه.

فأن قلت قوله: **وَ أَكْثَرُهُمْ** فيه أنّ أقلّهم كانوا لا يكرهون الحقّ.

قلت كان فيهم من يترك الإيمان به أنفةً و إستنكافاً من توبيخ قومه و أن يقولوا صبأ و ترك دين آباءه لا كراهةً للحقّ كما يحكى عن أبي طالب.

فأن قلت زعم بعض النّاس أنّ أبا طالب صحّ إسلامه.

قلت يا سبحان اللّه كأنّ أبا طالب كان اخمل (أضَل) أعمام رسول اللّه حتّى يشتهر إسلام حمزة و العبّاس و يخفى إسلام أبي طالب إنتهى موضع الحاجة من

كلامه و تبعه على ذلك غير واحدٍ من مفسّريهم الّذين فسّروا القرآن بآراءهم فقالوا فيه ما قالوا، قال الرّازي في المقام.

فأن قيل قوله: وَ أَكْثَرُهُمْ فيه دليل علىٰ أنّ أقلّهم لا يكرهون الحقّ.

قلنا كان فيهم من يترك الإيمان أنفةً من توبيخ قومه و أن يقولوا ترك دين آباءه لا كراهةً للحقّ كما حكي عن أبي طالب إنتهى كلامه.

أنا أقول، أمّا أوّلا: لا دليل على أنّ المراد بأكثرهم، هو أكثر قريش بل الحقّ أنّ هذا حكمٌ كلّي يشمل جميع النّاس في كلّ عهدٍ و زمان فأنّ أكثر النّاس للحقّ كارهون و لازم ذلك أنّ أقلّهم ليس كذلك إذا ما من عامٍ إلاّ و قد خصّ.

ثانياً: على فرض أن يكون المراد بالضّمير، قريشاً، و أنّ المعنى أكثر قريش كانوا كذلك لا أقلّهم بدلالة المفهوم فمعنى الكلام أنّ بعضهم لم يكونوا للحقّ كارهين و هذا ممّا لا إشكال فيه و الآية ساكتة عن تعيين المصاديق و لا يستفاد منها أنّ الكاره للحّق من هو كما أنّها ساكتة عن تعيين من لا يكره الحقّ و اللّه تعالى حكم في الآية بأنّ أكثر النّاس، أو أكثر قريش للحقّ كارهون و مفهومها أنّ الأقلّ ليس كذلك أي ليس يكره الحقّ و أمّا أنّ فيهم من يترك الإيمان به أنفةً و إستنكافاً من توبيخ قومه و أن يقولوا ترك دين آباءه لا كراهةً للحقّ كما يحكى عن أبي طالب، فالآية لا دلالة لها عليه و أنّما هو من مستخرجات الزّمخشري و ملفّقاته الّتي لا طائل تحتها و أن شئت قلت ليس هو إلاّ من التّفسير بالرّأي و على فرض أن يكون فيهم كذلك من أين ثبت له أن يكون أبو طالب منهم أليس في الأقلّ غير أبي طالب و ما ذنب أبي طالب إلاّ أنّه عليه السّلام كان حامياً لرسول اللّه في مدّة عمره أهذا جزاء أبي طالب عند الزّمخشري و أتباعه و العجب من الرّازي مع أنّه كان يدّعي التّوغل في العلوم العقّلية كيف قلّد الزّمخشري في هذا المقام و غير هذا المقام في كتابه و أخذ منه ما أخذ من غير تدّبرٍ و تفكّرٍ، لنعم ما قيل:

إذا كان الغراب دليل قومٍ   سيهديهم سبيل الهالكين

نعم كان لأبي طالب عندهم ذنبان:

أحدهما: أنّه كان حامياً للنّبي.

ثانيهما: أنّه كان أباً لعليّ إبن أبي طالب عليه السلام و الذّنب الثّاني أعظم من الأوّل لقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **يا علّي لا يُحبّك إلاّ مؤمن و لا يبغضك إلاّ منافق، و من أبغَض علّياً أبغض أباه** مع أنّ اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**، و أمّا نحن فنقول لو لم يكن أبو طالب مؤمناً و مات على الكفر لم يكن في الإسلام مؤمناً أصلاً و كان يجب على الزّمخشري و أتباعه أن يبيّنوا معنى الإيمان حتّىٰ نفهمه و نتعقّله و للبحث فيه مقام آخر، والعجب من ذلك كلّه أنّهم يقولون أنّ الزّبير و طلحة تابا و ماتا على الإيمان في قصّة الجمل و لا يقولون بإيمان أبي طالب ولو حين الموت مع أنّ أبا طالبٍ كان حامياً لرسول اللّه بشهادة التّواريخ و السّير و أنهما أعني الزّبير و طلحة فعلا ما فعلا من القبائح و الظّلم على أهل البصرة و سلا سيف البغي على من قال رسول اللّه في حقّه **يا علّي حَربك حَربي و سِلمك سِلمي**.

فنقول للزّمخشري وغيره ممّن إعتقد بكفر أبي طالب و أنّه مات على كفره، كيف سمعتم توبة طلحة و الزّبير حين الموت و ما سمعتم توبة أبي طالب و إيمانه و المفروض أنّكم لم تكونوا هناك **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام وكيف نرجوا التكلّم بالحقّ ممّن يقول بأنّ معاوية بن أبي سفيان خال المؤمنين لمكان أمّ حبيبة و أمّا محمّد إبن ابى‌بكر ليس كذلك لأنّه شيعة عليّ إبن أبي طالب، و هذا مع إتّفاقهم على أنّ عائشة كانت أفضل من امّ حبيبة فأعتبروا يا أولي الأبصار.

وَ لَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ

الظّاهر أنّ المراد بالحقّ في الآية هو الحقّ المقابل للباطل.

و قال قتادة، هو اللّه تعالى فعلى الأوّل و هو قول جمهور المفسّرين معناه أنّ

الحقّ لو إتَّبع أهوائهم و أميالهم النَّفسانيّة لفسدت السّموات الى آخر الكلام و الوجه فيه أنّ الحقّ يدعوا الى الأفعال الحسنة و الأهواء تدعوا الى الأعمال القبيحة فلو إتّبع الحقّ داعي الهوى لدعاه الى قبائح الأعمال و الى ماهيّة الفساد ولو جرى الأمر على ذلك لفسدت السّموات و الأرض و من فيهنّ قالوا في وجه فساد العالم بذلك أنّه يوجب بطلان الأدلّة و أنّه لا يؤمن وقوع الظُّلم الّذي لا ينصف منه و تختلط الأمور أقبح الإختلاط و لا يوثق بوعدٍ و لا وعيدٍ و لا يؤمن إنقلاب عدل الحكيم و هذا معنى عجيب إنتهى ما قاله في التّبيان.

علىٰ الثّاني: و هو أن يكون المراد بالحقّ هو اللّه تعالى فالمعنى لو إتّبع الحقّ أعني اللّه أهواء هؤلاء الكفّار و فعل ما يريدونه لفسدت السّموات و الأرض.

في المقام قول ثالث: و هو أنّ المراد بالحقّ التّوحيد و المعنى لو إتّبع التّوحيد أهوائهم في الإشراك معه معبوداً سواه لفسدت الأرض و السّموات ألخ.

أقول الظّاهر بقرينة السّياق أنّ المراد بالحقّ في الآية هو الحقّ الّذي ذكر في الآية السّابقة حيث قال تعالى: **وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** و على هذا فاللاّم فيه للعهد الذِّكرى و المعنى لو إتّبع الحقّ الّذي جاء به الرّسول من الإسلام و التّوحيد و الأحكام أهوائهم لأنقلب شركاً وإلحاداً و ذلك لأنّ الأهواء لا توافق الحقّ الّذي يكون مخالفاً لها ولذلك قال رسول اللّه: «**حُفَّت الجَنّة بِالمَكاره وحُفَّت النّار بالشّهوات**» و أمّا قوله: **لَفَسَدَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَ ٱلْأَرْضُ** فالوجه فيه أنّ السّموات و الأرض و ما فيهّن من الموجودات كلّها على الحقّ أعني به العدل و متابعة الحقّ لأهوائهم توجب فساده و أن يصير باطلاً.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**(٢).

١- إبراهيم = ١٩ ٢- النّحل = ٣

قال اللّه تعالى: **مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى**(١) والأيات كثيرة.

و إذا كان خلق الموجودات على الحقّ أي على وجه الأحسن فلو كان الحقّ تابعاً لأهوائهم و آرائهم الفاسدة الباطلة يصير الحقّ باطلاً و لا نعني بالبطلان إلاّ الفساد و توضيحه إجمالاً هو أنّ اللّه خلق ما خلق من الموجودات السّموية و الأرضية على طبق المصلحة الّتي لا يعلمها إلاّ هو و هذه المصلحة يعَّبر عنها بالحقّ فمعنى متابعة الحقّ أهواء النّاس هو متابعة مصلحة الإيجاد أميالهم و أهوائهم و إذا كانت المصالح تابعة لأهواء النّاس لزم منها فساد الخلق جميعاً.

قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه إذ لو إتَّبع الحقّ أهوائهم فتركوا و ما يهوونه من الإعتقادات و العمل فعبدوا الأصنام و أتخذوا الأرباب و نفوا الرّسالة و المعاد و أقترفوا ما أرادوه من الفحشاء و المنكر و الفساد جاز أن يتَّبعهم الحقّ في غير ذلك من الخليقة و النَّظام الّذي يجري فيها بالحقّ إذ ليس بين الحقّ و الحقّ فرق فأعطى كلّ عنهم ما يشتهيه من جريان النَّظام و فيه فساد السّموات و الأرض و من بينهنّ و إختلال النَّظام و إنتفاض القوانين الكليّة الجارية في الكون فمن البين أنّ الهوى لا يقف على حدّ و لا يستقر على قرار إنتهى موضع الحاجة من كلامه ﷺ.

و قال البيضاوي عند قوله: **لَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ** بأن كان في الواقع آلهة شتّى لفسدت السّموات و الأرض و من فيهنّ كما سبق تقريره في قوله: **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**(٢) و قيل لو إتّبع الحقّ أهوائهم و أنقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلا يبقى ولو إتَّبع الحقّ الّذي جاء به محمّد ﷺ أهوائهم و أنقلب الحقّ شركاً لجاء اللّه بالقيامة و أهلك العالم من فرط غضبه ولو إتَّبع اللّه أهوائهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشِّرك و المعاصي لخرج عن الألوهيّة

١- الرّوم = ٨ ٢- الانبياء = ٢٢

ولم يقدر أن يمسك السّموات و الأرض و هو على أصل المعتزلة إنتهى كلامه هذا ما قيل أو يقال في تفسير الكلام و اللّه أعلم بحقيقة كلامه.

و أمّا قوله: **بَلْ أَتَيْنٰاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** قيل الذّكر البيان للحقّ و قيل الذّكر الشّرف و المعنى بل أتينا هولاء الكفّار ببيان الحقّ و هو القرآن أو أتيناهم بشرفهم لأنّ متابعة الحقّ شرفٌ لهم في الدّنيا و الآخرة فهم عن شرفهم و ذكرهم معرضون، ولم يعلموا أنّ سعادة الدّارين في متابعة الحقّ و الإعراض عن الباطل لا متابعة الباطل و الإعراض عن الحقّ و هو واضح.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرٰاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرّٰازِقِينَ

الإستفهام للتّوبيخ و الخرج الأجر على العمل و المعنىٰ أتسئلهم خرجاً و جزاءً على العمل و هو النّبوة فخراج ربّك أي أجره خيرٌ لك و هو خير الرّازقين، و في هذه الآية إشارة الىٰ أنّ النّبي لا يسئل من الأمّة أجراً و إنّما أجره على اللّه و قد أشار اللّه تعالى الى هذا المعنى في كثير من الآيات.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبٰى**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٰى لِلْعٰالَمِينَ**(٤).

فهذه الأيات تنادي بأعلى صوتها أنّ النّبي أجره على اللّه كما أنّ رزقه على اللّه فهو لا يسأل النّاس و مع ذلك يرشدهم إلى ما هو خيرٌ لهم في الدّنيا و الأخرة.

و قال الزّمخشري معنى الكلام أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق و الكثير من عطاء الخالق خير فقد ألزمهم الحجّة في هذه الأيات و قطع معاذيرهم و حللهم بأنّ الّذي أرسل إليهم رجل معروف أمره و حاله خليقٌ بأن

١- الشّورىٰ = ٢٣
٢- يٰس = ٢١
٣- هُود = ٥١
٤- الأنعام = ٩٠

يجتبى مثله للرّسالة من بين ظهرانيهم ولم يجعل ذلك سلّماً إلى النّيل من دنياهم و إستعطاء أحوالهم ولم يدعهم إلاّ إلى الإسلام الّذي هو الصّراط المستقيم إلى أخر ما قال.

أنا أقول أنّ النّبي لم يسألهم خرجاً أي مالاً و متاعاً من الأمّة بل أعطى الأمّة خير الدّنيا و الأخرة لو كانوا يعلمون و لمّا زيّف طريقة الكفّار أتبع ذلك ببيان صحّة ما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال تعالى:

وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

والصّراط المستقيم الإسلام على قول العامّة و الولاية على قول الخاصّة و ذلك لأنّ الطّريق المستقيم الّذي لا عوج فيه ليس إلاّ طريق أهل البيت، و الأخبار الواردة في الباب عن طريق أهل البيت متظافرة أو متواترة وكيف كأن لا شكّ أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يدعو الأمّة إلى صراطٍ مستقيمٍ و للبحث فيه مقام أخر.

وَ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ

أي عادلون عن دين الحقّ، و قيل معناه عادلون في الأخرة عن طريق الجنّة يأخذهم يمنةً و يسرةً إلى النّار و لعلّ الوجه فيه أن من أنكر المعاد ناكبٌ عن هذا الصّراط لأنّه لا يسلكه إلاّ من كان راجياً للثّواب خائفاً من العقاب والمفروض أنّ هؤلاء غير مصدّقين بالجزاء لإنكارهم الأخرة فهم مائلون عنه ثمّ قال تعالىٰ:

وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن خبث ذاتهم و سوء سريرتهم و شقاوتهم و عنادهم للحقّ فقال ولو رحمناهم، أي لو رحمنا هؤلاء الكفّار المعاندين، **وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ**، أي رفعنا عنهم العذاب **لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**، أي يتردّدون و ليس ذلك إلاّ لشّدة لجاجهم و عنادهم للحقّ.

و قال بعض المفسّرين معنى الآية أنّهم لو ردّوا إلى الدّنيا لعادوا أيضاً لشّدة

لجاجهم فيما هم عليه من البعد عن الحقّ وكيف كان ففي الآية أخبار بأنّ المعاند يكون كذلك.

وَ لَقَدْ أَخَذْنٰاهُمْ بِالْعَذٰابِ فَمَا ٱسْتَكٰانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مٰا يَتَضَرَّعُونَ

هذه الآية بمنزلة الدّليل و البرهان على ما أخبر به اللّه تعالى في الآية السّابقة فقال ولقد أخذناهم بالعذاب و هو الجدب و ضيق الرّزق و القتل بالسّيف، **فَمَا ٱسْتَكٰانُوا لِرَبِّهِمْ**، أي لم يذلّوا عند هذه الشّدائد و لم يتّضرعوا إلى اللّه فيطلبوا كشف البلاء منه تعالى عنهم بالإستكانة و هي طلب السّكون خوفاً من السّطوة يقال إستكان الرّجل إستكانةً إذا ذّل عند الشّدة، و ما يتضرّعون إلى اللّه ليدفع البلاء عنهم و أنّما قلنا هذه الآية بمنزلة الدّليل علىٰ صدق المدّعى في الآية السّابقة لأنّ من لم يستكن ولم يتّضرع إلى ربّه عند الشّدة و المحنة فهو عند الرّخاء أيضاً كذلك بطريق أولى و حاصل الكلام أنّهم لا يؤمنون باللّه و لايوم الأخر في الشّدة و الرّخاء فهم ممّن قال اللّه في حقّهم:

سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰٓ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ(١).

و حقّ الكلام في حقّهم أن يقال ذرهم في خوضهم يلعبون.

حَتّٰىٓ إِذٰا فَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بٰابًا ذٰا عَذٰابٍ شَدِيدٍ إِذٰا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ

الفتح فرج الباب بطريق يمكن السّلوك فيه فكأنّه فتح اللّه عليهم باباً أتاهم منه العذاب الشّديد.

قال المفسّرون العذاب الأوّل كان يوم بدر حيث قتل فيه صناديدهم فما وجد منهم بعد ذلك إستكانة ولا تضّرع حتّىٰ فتحنا عليهم باب الجوع الذّي هو أشّد من القتل و الأسر و هذا هو العذاب الثّاني إذا هم فيه مبلسون حائرون فأنّ

١- البَقَرة = ٦ و ٧

الإبلاس الحيرة لليأس من الرّحمة و من ذلك سمّي إبليس به و الحاصل أنّهم أبلسوا من رحمة اللّه و خضعت رقابهم بعد رؤية العذاب و شدّته قيل أنّ رسول اللّه دعا عليهم فقال اللّهم سنين كسني يوسف فجاعوا حتّىٰ أكلوا الجيف.

وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مٰا تَشْكُرُونَ

لمّا بيَّن اللّه تعالى في الأيات السّابقة إعراض الكفّار عن سماع الأدّلة و رؤية العبر و التّأمل فيها خاطب المؤمنين بل الظّاهر جميع أهل العالم بأسرهم وقال في مقام الإمتنان هو الّذي أنشأ لكم الآية تنبيهاً على من لم يعمل هذه الأعضاء في ما خلقه اللّه تعالى و تدَّبر ما أودعه فيها من الدّلائل على وحدانيّته و باهر قدرته فهو كعادم هذه الاعضاء و هو في الحقيقة ممّن قال اللّه في حقّهم: **فَمٰآ أَغْنٰى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَآ أَبْصٰارُهُمْ وَ لَآ أَفْـِٔدَتُهُمْ مِنْ شَىْءٍ**[١] و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ هذه الأعضاء لها خاصيّتان في الإنسان و خاصيّة واحدة في الحيوان، ففي الإنسان الإدراك، و العبر، و في الحيوان، مجّرد الإدراك و ذلك لأنّ الحيوان يدرك بالسّمع و البصر فيسمع و يرى إلاّ أنّه لا يعلم لم يسمع و يرى و أمّا الإنسان فليس كذلك لمكان العقل فيه فينبغي أن يعلم أنّ السَّمع ليس لمجّرد الإستماع و البصر لمجّرد الرّؤية بل السَّمع للإستماع ثمّ ترتّب الأثر عليه و هكذا البصر للرّؤية ثمّ العبرة ممّا يرى و حاصل الكلام هو أنّ هذه الأعضاء في الإنسان للإدراك أوّلاً و التَّفقه أعني به ترَّتب الأثار ثانياً و لا شكّ أنّ أثر الإستماع التفكّر في المسموع كما أنّ أثر الرّؤية التّأمل و التَّعمق في المرّئي و الإعتبار به و هذا هو الفرق بين السَّمع و البصر و سائر الأعضاء في الإنسان و الحيوان فإذا سمع الإنسان و لا يتفكّر فيه أو رأى و لا يعتبر به فما الفرق بينه و بين الحيوان بل هو

١- الاحقاف = ٢٦

أضَّل و أخسّ من الحيوان و ذلك لأنّ الحيوان فاقدٌ للعقل فلا يمكن له التعقّل بخلاف الإنسان فأنّ اللّه تعالى جعل فيه العقل و أقدره على التعقّل و التفكّر و فضَّله بذلك على الحيوان و العقل يحكم بأنّ القادر التّارك أخسّ وأدون من التّارك الّذي لا يقدر على الفعل ألا ترى أنّ الإنسان القادر على الإعطاء أخس من غير القادر عليه و بالجملة أنّ اللّه تبارك و تعالى خلق الإنسان و فضَّله و شرَّفه على أبناء جنسه بالعقل الّذي يتَّميز به الخير من الشّر و جعل له الأعضاء التّي هي في الحقيقة بمنزلة الأعوان و الأسباب للتَّعقل في مدركاتها فمن لا يتعقّل فيما يسمع و يدرك بالآلات و القوى المدركة فهو كالفاقد لها فلا فرق بينه و بين أبناء جنسه بل هو أخسَّ و أضَّل من حيث أنّه لم يعمل بوظيفته من الحيوان الذّي عمل بها و لذلك ترى اللّه في كثير من الأيات ذمّ الإنسان علىٰ هذه الرويّة الرديّة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصَارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لَآ أَبْصَارُهُمْ وَ لَآ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ**[٤].

و الأيات كثيرة فأنّها تدُّل علىٰ أنّ الفرض الأصلي من جعل هذه الأعضاء في الإنسان هو التَّفقه و التعمّق و التدبُّر في الحقائق و الأثار و هذا هو المراد بالشّكر في المقام لا قول القائل شكراً للّه فقط فقوله: **قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**، إشارة إلىٰ أنّ

١- الأعراف = ١٧٩
٢- السّجدة = ٩؛ الملك = ٢٣
٣- النّحل = ٧٨
٤- الأحقاف = ٢٦

الشّاكر قليل و الغافل الكافر بالنِّعمة كثير ثمّ قال تعالى:

وَ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

الذَّرء الخلق و المعنى أنّ الّذي أنشأ لكم السَّمع و الأبصار هو الّذي خلقكم في الأرض و إليه تحشرون و ذلك لأنّ كلّ شيئ يرجع إلى أصله قال تعالى: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** و أنّما أشار إلىٰ الحشر بعد قوله في الآية السّابقة هو الّذي أنشأ لكم السَّمع و الأبصار لنكتة و هي أنّ الذّي يقدر على إيجاد السّمع و الأبصار و الأفئدة فيكم يقدر على الإحياء بعد الموت فأنّ حكم الأمثال واحد و لا فرق بين الإحياء أوّلاً و ثانياً لأنّ الملاك فيه القدرة في المحيي و القابليّة فيما تعلّق به الإحياء و أن شئت قلت تأثير العلّة في المعلول يتّوقف علىٰ وجود المقتضى و رفع المانع و هو موجود و ستتكلّم في الحشر و النّشر في موضعه.

قال بعض المفسّرين فمن أنشأ هذه الحوّاس و أنشأت هي له و أحيا و أمات و تصَّرف في إختلاف اللّيل و النّهار هو قادر على البعث و خصّ هذه الأعضاء بالذّكر لأنّه يتعلّق بها منافع الدّين و الدّنيا من إعمال السَّمع و البصر في أيات اللّه و الإستدلال بفكر القلب على وحدانيّة اللّه و صفاته ولمّا كان خلقها من أتّم النِّعم على العبد قال قليلاً ما تشكرون ثمّ أردف كلامه بقوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ** أي خلقكم و بثكم فيها إشعاراً بأنّ المخلوق كائناً ما كان تحت قدرة خالقه و لا يمكن له الفرار من حكومته فيفعل به ما يشاء و يتصرّف فيها ما يشاء و هو لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و لذلك قال:

وَ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ ٱخْتِلَافُ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أي هو القادر الذّي يقدر على الإحياء و الإماتة و على إختلاف اللّيل و النّهار أفلا تعقلون فيه و المراد بالإختلاف هنا التّعاقب أي يحلف هذا و الهَمَزة في قوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** للتّوبيخ أي أفلا تعقلون فتوّحدونه و تنفون عنه الشّركاء و

الأنداد و أنّه تعالى مستحقّ لأن يعبد لا غيره و أنّما ذكر اللّيل و النّهار وإختلافهما بعد قوله: **يُحْيِ وَ يُمِيتُ** لنكتة دقيقة و هي أنّ إختلاف اللّيل و النّهار على سبيل التّعاقب في الحقيقة نوعٌ من الإحياء و الإماتة بمعنى أنّ اللّه تعالى يميت النّهار و يحيي اللّيل و بالعكس و أن شئت قلت الإحياء و الإماتة على ضربين:

أحدهما: أن يكونا عقليّين.

ثانيهما: أن يكونا حسيّين فقوله: **يُحْيِ وَ يُمِيتُ** من الأوّل و قوله: **وَ لَهُ ٱخْتِلَافُ ٱللَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ** من الثّاني و على هذا فالمعنى أن كنتم لا تعقلون الإحياء و الإماتة في الإنسان مثلاً لأنّه يحتاج إلى التعقّل و التدبُّر و لستم من اهله فالاختلاف اللّيل و النّهار ليس كذلك أي لا يحتاج إلى التدبُّر لكونه من المحسوسات و أنتم تشاهدونه فمن يقدر على ذلك يقدر على ذلك فأنّ حكم الأمثال واحد فمن أنكر البعث أنكر حسّه و هو كما ترى.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية عن الكفّار ممّن عاصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّهم لم يؤمنوا باللّه ولم يصدّقوا رسوله بل قالوا مثل ما قال الكفّار قبلهم من إنكار البعث و النّشور و الحساب و الجنّة و النّار و غير ذلك ممّا أخبرهم اللّه بواسطة نبيّه فكلمة، بل، للاضراب و في الآية إيماء إلى أنّهم كانوا مقلّدين لأبائهم في الكفر و فيه دليل على أنّه أي الإنكار منهم لم يكن إلاّ لعنادهم و لجاجهم و لو كان لهم عقلٌ و نظر في هذه الأيات التّي رأوها لم ينكروا البعث قيل و الضّمير لأهل مكّة.

قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ

أي كيف نصير أحياء بعد أن صرنا تراباً و عظاماً.

قال بعض المفسّرين أنّما دخلت عليهم الشّبهة في إنكار البعث لأنّهم لم يشاهدوا ميتاً عاش و لا جرت به العادة و شاهدوا النّشأة الأولى من ميلاد من لم

يكن موجوداً و لو فكروا في أنّ النّشأة الأولى أعظم منه لعلموا أنّ من أنكره فقد جهل جهلاً عظيماً لأنّ من قدر على إختراع الأجسام لا من شئ قدر على إعادتها إلى الصّفة التّي كانت عليها مع وجودها إنتهى.

أقول هذا التّقليد ليس مختّصاً بالمشركين بل سرى إلى المسلمين أيضاً ألا ترى أنّ أكثر المسلمين يقلّدون أبائهم و أمثالهم في مذاهبهم و ليس لهم دليل على صحّة مذهبهم إلاّ المتابعة و التّقليد فإذا سئلوا عنه لا جواب لهم إلاّ أن قالوا أنّا وجدنا أباؤنا على ذلك و هذا أساس الشّقاوة و الضّلال نعوذ باللّه منه.

لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ ءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ

أي أنّ المنكرين قالوا لقد وعدنا بهذا الوعد، و هو الحياة بعد الموت للحساب نحن و أباؤنا من قبل أي كما وعدنا نحن بالبعث وعدوا به أيضاً في سالف الزّمان بواسطة الأنبياء، إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين كلمة، إن، نافية بمعنىٰ ليس أي ما وعدنا من البعث ليس إلاّ أساطير الأوّلين فأنّا لم نر لذلك صحّة و لا لهذا الوعد صدقاً و ما سطره الأوّلون لا حقيقة له، و الأساطير هي الأحاديث المسطورة في الكتب ممّا لا أصل له واحدها، أسطورة و إلى هذا المعنى أشار شاعرهم حيث قال:

حياةٌ ثمّ موتُ ثمّ حسرُ حيث خرافةٍ يا أمّ عمرو

و سنتكلّم في المعاد في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ:

قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَآ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

أي قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار المعاندين المنكرين للبعث و النّشور لمن الأرض و من فيها من الموجودات و أنّما أتى بكلمة، من، تغليباً للعقلاء على غيرهم و ذلك لأنّ الكلام في البعث و النّشور للحساب و هو مختّص بالإنسان و كلمة، من، في قوله: **لِمَنِ**، إستفهاميّة توبيخيّة و ذلك لأنّ الأرض و من فيها للّه

تعالى و أتى بكلمة، إن، الشرطيّة و قال: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** للدلالة علىٰ أنّ الخطاب للعقلاء و العلماء بذلك و المعنى **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** أنّ الأرض و من فيها للّه تعالى فلم تنكرون البعث ألم تعلموا أنّ المالك يتصرّف في ملكه ما يشاء و كيف يشاء و أنّ الّذي خلق الأرض و من فيها أوّلاً قادرٌ على كلّ شيءٍ و أنّ الإحياء ثانياً ليس بأصعب منه أوّلاً.

قال بعض المفسّرين لمّا إتّخذوا دون اللّه ألهة و نسبوا إليه الولد نبَّههم علىٰ فرط جهلهم بكونهم يقرّون بأنّه تعالى له الأرض و من فيها و أنّه ربّ العالم العلوي و أنّه مالك كلّ شيءٍ و هم مع ذلك ينسبون له الولد و يتّخذون له شركاء إنتهى.

و أنت ترى أنّ البحث في البعث و النَّشر و إنكارهم ذلك لا فيما ذكره هذا القائل و هو ظاهر:

قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَآ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

أي إن كنتم تعلمون أنّ الأرض و من فيها للّه تعالى كما هو كذلك أفلا تذكّرون أي أفلا تتفكّرون في مالكها و تتذكّرون قدرته و أنّه لا يعجزه شئ عن إعادتكم بعد الموت مرّةً ثانية كما أنشأكم أوّل مرّةٍ ثمّ أنّه تعالى بعد الإقرار منهم بأنّ الأرض و من فيها للّه تعالى أشار بمثل هذا السّؤال بالنّسبة إلىٰ السّموات فقال:

قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ ٱلسَّبْعِ وَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

أي قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار المنكرين للبعث من ربّ السّموات السّبع، أي مالكها و المتصرّف فيها بأيّ نحوٍ شاء و من ربّ العرش العظيم، أي خالقها و المتصرّف فيها سيقولون في الجواب، أنّها للّه تعالى، قل لهم أفلا تتّقون، أي أفلا

تخافون عقابه على جحد توحيده و المقصود من هاتين الأيتين أنّ اللّه الّذي خلق الأرض و من فيها و السّموات و العرش و بالجملة خلق الخلق بأقسامها و أصنافها قادرٌ على كلّ شيْ‌ءٍ و هو الّذي ينبغي أن يعبد لا غيره.

إن قلت أليس بين قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** و قوله: **سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ**، تعارضٌ و ذلك لأنّ قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** معناه عدم علمهم و قوله: **سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ** معناه أنّهم كانوا عالمين بأنّ اللّه تعالى هو ربّ السّموات و الأرض إذ لو لم يكونوا عالمين فلا معنى لقوله سيقولون للّه و إذا ثبت التّعارض فكيف الدَّفع.

قلت لا تعارض بين الكلامين أصلاً و ذلك لأنّ قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** لا يدلّ على عدم علمهم و بعبارةٍ أخرى لم يحكم اللّه بعدم علمهم بذلك و قد يقال مثل ذلك في الإحتجاج على وجه التّأكيد لعلمهم و ختم كلّ سؤالٍ بما يناسبه بل في هذا الكلام توبيخٌ لهم و هو أنّكم مع علمكم بأنّ اللّه هو المالك المتصرّف في السّموات و الأرض كيف تنكرون قدرته و تحكمون بعجزه عن الإحياء ثانياً أليس هذا من النّفاق و العناد، فأنّ من ملك الأرض و السّماء و من فيها حقيق أن لا يشرك به بعض خلقه ممّن في الأرض و ختم ما بعدها بالتّقوى و هي أبلغ من التّذكر و مع ذلك فيها و عيدٌ شديدٌ.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنّٰى تُسْحَرُونَ

ثمّ قال تعالى قل يا محمّد من بيده ملكوت كلّ شيْ‌ء، قيل ملكوت عظم الملك و وزنه، فعلوت و هو من صفات المبالغة نحو جبروت.

و قال مجاهد ملكوت كلّ شيْ‌ءٍ خزائن كلّ شيء و المعنى أنّه قادر على كلّ شيْ‌ءٍ إذا صحَّ أن يكون مقدوراً له.

و قال الرّاغب في المفردات الملكوت مختّص بملك اللّه تعالى و هو مصدر ملك أدخلت فيه التّاء نحو رحموت و رهبوت، و قيل ملكوت الأشياء حقائقها و بواطنها و لا يمكن الوصول إليها إلاّ بأذن اللّه تعالى كما قال:

وَ كَذٰلِكَ نُرِيَ إِبْرٰاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ(١).

فقوله: نُرِيَ، يدلّ على المدّعى:

و قال تعالى: فَسُبْحٰانَ ٱلَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢).

و قيل يمكن الوصول إلىٰ ملكوت الأشياء بدليل قوله تعالىٰ:

أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ(٣).

أقول للوصول إلى ملكوت الأشياء مراتب مختلفة نقصاً و كمالاً و به يجمع بين الأقوال و هو ظاهر و كيف كان لا شكّ أنّ ملكوت الأشياء بيده تعالى لأنّه خلق الأشياء و الخالق أعرف بما خلق من غيره ظاهراً و باطناً و إذا كان الملك و الملكوت بيده تعالى فهو العالم بكلّ شئ و القادر على كلّ شئ.

و أمّا قوله: وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ، الإجارة الإعاذة و من إستجار باللّه أعاذه و من أعاذه اللّه لم يصل إليه أحد فقوله: أنّه يجير معناه أنّه تعالىٰ يعيذ بالمنع من السُّوء لما يشاء، و قوله: وَ لاٰ يُجٰارُ عَلَيْهِ، معناه لا يمكن منع من أراده بسوءٍ منه، و قيل معناه هو يجير من العذاب و لا يجار عليه منه و إلى هذا المعنى أشار بقوله: أَعُوذُبِاللّٰه مِنَ ٱلشَّيْطٰانِ ٱلرَّجِيمِ و حاصل الكلام أنّ الخلق يستجير به تعالى و هو لا يستجير بغيره و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ جميع ما سواه محتاجون إليه و هو غير محتاج إلى غيره و الإحتياج يوجب الإستجارة به تعالى كما قيل:

أزمّـة الأمـور طـرّاً بـيده　　　و الكلّ مستَّمدةُ من مدده

فمعنى الآية قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار من بيده ملكوت كلّ شئٍ ثمّ من يُير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون، أي من يتصّف بهذين الوصفين العظيمين إن كنتم

١- الأنعام = ٧٥　　٢- يس = ٨٣
٣- الأعراف = ١٨٥

عالمين به، سيقولون في جوابك، للّه قل أي قل لهم فأنّى تسحرون، أي كيف تعمهون من هذا و تصدّون عنه من قولهم سحرت أعيننا عن ذلك فلم نبصره.

و قيل معناه، فأنّى تخدعون و قيل فأنّى تصرفون، و المعاني متقاربة و الألفاظ مختلفة، و الحقّ أنّ السّحر هنا مستعارٌ و هو تشبيه لما يقع منهم من التّخليط و وضع الأفعال و الأقوال في غير مواضعها بما يقع من المسحور عبَّر عنهم بذلك.

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّه أتى هؤلاء الكفّار بالحقّ الواضح الذّي لا خفاء فيه من توحيد اللّه و صفاته و أنّه يبعث الخلق بعد موتهم ثمّ يجازيهم على طاعاتهم بالثّواب و على معاصيهم بالعقاب و أنّ الكفّار كاذبون فيما يخبرون بخلافه و يقولون لا بعث و لا نشور و لا حساب و لا كتاب فالآية تدّل على أنّهم كذّبوا الحقّ أي أنكروه و السِّر فيه أنّ الحقّ مرٌّ و أمرّ منه العمل به، أمّا أنّه مرٌّ فلكونه على خلاف الأميال و المشتهيات النفسانيّة و الوساوس الشيطانيّة و أمّا أنّ العمل بالحقّ أمرّ من قبوله لأنّ العمل أصعب و أشّد، و أمّا الباطل فليس كذلك ألا ترى أنّ المسلمين لم يقبلوا الحقّ من اللّه و رسوله في مسألة الولاية و الإمامة:

حيث قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم في غدير خمّ: **من كُنتُ مَولاه فهذا علّيٌ مَولاه.**

و قوله: **أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبّي بعدي.**

و قوله: **علّيٌ مع الحقّ و الحقّ مع علّي يدور معه حيثما دار.**

و غير ذلك من النصّوص و أنّما لم يقبلوا علياً لأنّه كان على الحقّ و مع الحقّ و الحقّ معه فلو كان على الباطل و عمل على طبق أميالهم و أهوائهم لم يخالفوه كما لم يخالفوا أبا بكر و عمر و عثمان بل و معاوية و يزيد و هلمّ جرّا.

فأن قلت ليس كذلك لأنّهم قتلوا عثمان بن عفّان أيضاً.

قلت أنّما قتلوه لأنّه خالفهم في تقسيم الأموال و سلّط عليهم من كان لا يرحمهم ولم يقتلوه لأنّه كان فيهم عاملاً بالحقّ، و أمّا أميرالمؤمنين فقد خالفوه و حاربوه لكونه على الحقّ فعثمان قتل بظلمه و جوره و عليّ قتل لعدله و بينهما بونٌ بعيد و ليس هذا إلاّ أنّ الحقّ مرٌّ و هو واضح.

■

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ
إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍۭ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ
عَلٰى بَعْضٍ سُبْحٰانَ ٱللَّهِ عَمّٰا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾
عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ فَتَعٰالٰى عَمّٰا يُشْرِكُونَ
﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمّٰا تُرِيَنِّى مٰا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ
فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَ إِنّٰا
عَلٰىٓ أَنْ نُرِيَكَ مٰا نَعِدُهُمْ لَقٰادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ
بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمٰا
يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزٰاتِ
ٱلشَّيٰاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ
﴿٩٨﴾ حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ
ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صٰالِحًا فِيمٰا تَرَكْتُ
كَلّٰآ إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰآئِلُهٰا وَ مِنْ وَرٰآئِهِمْ بَرْزَخٌ
إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذٰا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَلَآ أَنْسٰابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لٰا يَتَسٰآءَلُونَ
﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ
﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنّٰارُ وَ هُمْ فِيهٰا كٰالِحُونَ
﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ اٰيٰاتِي تُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهٰا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا
وَ كُنّٰا قَوْمًا ضٰآلِّينَ ﴿١٠٦﴾

◀ اللّغة

هَمَزٰاتِ ٱلشَّيٰاطِينِ: أي نزعاتهم و وساوسهم، و الهَمَز شدّة الدَّفع.

كَلاّٰ: كلمة ردع و زجرٍ أي حقّاً.

بَرْزَخٌ: البرزخ الحاجز و هاهنا هو الحاجز من الموت و البعث.

نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ: قيل الصُّور جمع صورة أي إذا نفخ فيها الأرواح و قيل هو قرنٌ ينفخ فيه إسرافيل بالصَّوت العظيم الهائل.

أَنْسٰابَ: الأنساب جمع نسب و هو إضافة قرابة في الولادة.

ثَقُلَتْ: الثّقل ضدّ الخفّة.

مَوٰازِينُهُ: جميع ميزان و هو ما يوزن به الشّئ.

تَلْفَحُ: قيل لفح و نفح بمعنى واحد غير أنّ اللَّفح أعظم من النَّفح و أشّد تأثيراً.

كٰالِحُونَ: الكلوح تقلّص الشّفتين عن الأسنان حتّى تبدوا الأسنان.

◀ الإعراب

يَوْمَئِذٍ العامل فيه هو العامل في بينهم، و هو المحذوف و لا يجوز أن يعمل فيه، أنساب، لأنّ إسم لا، إذا بني لم يعمل و الإعراب في الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ التّفسير

مَا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ

الإتّخاذ إفتعال من الأخذ والمعنىٰ ما إتَّخذ اللّه لنفسه من ولدٍ و كلمة، ما، نافية بمعنى ليس و هكذا، ما، في، ما كان معه من إلٰهٍ، أي ليس مع اللّه إلهاً أخر إذاً لذهب كلّ إلٰهٍ بما خلق و لعلى بعضهم على بعض و فيه إلزام لمن يعبد الأصنام و المعنى لانفرد كلّ إلٰهٍ بما خلق لأنّه لا يرضى أن يضاف خلقه إلى غيره، **سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ**، أي أنّه تعالى منّزهٌ عمّا يصفونه هؤلاء الجهّال من إتّخاذ الولد و الشَّريك.

قال صاحب الكشّاف في قوله: **لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ**، لإنفرد كلّ واحدٍ من الألهة بخلقه الّذي خلقه و إستبدّ به و لرأيتم ملك كلّ واحدٍ منهم متميّزاً من ملك الأخرين و لغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدُّنيا ممالكهم متمايزة و هم متغالبون و حين لم تروا أثر التّمايز و التّغالب فأعلموا أنّه إلهٌ واحد بيده ملكوت كلّ شيءٍ.

فأن قلت إذاً لا تدّخل إلاّ على كلامٍ هو جزاءٌ و جواب فكيف وقع، لذهب، جزاءً و جواباً و لم يتّقدمه شرط و لا سؤال سائل.

قلت الشّرط محذوف تقديره ولو كان معه ألهةٍ، و أنّما حذف لدلالة قوله: **وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ** إنتهى كلامه.

و به قال الرّازي في تفسيره فكأنّه أخذه من الزّمخشري لأنّه ذكر ألفاظه طابق النَّعل بالنَّعل و لم يأت بشيءٍ جديد و أمّا غيره من مفسّرى العامّة فحاله معلومٌ و هكذا الخاصّة فأنّهم أيضاً لمّ يفسّروا الآية كما هو حقّها و لم يتجاوزوا عن شرح ألفاظها و أنّما أخذ بعضهم من بعضٍ و حيث أنّ الآية من أعظم الأيات من حيث الدّلالة على التّوحيد و نفي الشّريك و الولد له تعالى فلا بأس بالإشارة إلى بعض الأسرار المودّعة فيها.

فنقول في الآية أبحاث:

الأوّل: أنّه تعالى قال **مَا ٱتَّخَذَ ٱللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ**، و فيه إشارة إلى نفي الولد.

الثّاني: قوله **وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ**، و فيه إشارة إلى نفي الشّريك.

الثّالث: قوله **إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ**، و فيه إشارة إلى برهانٍ قاطعٍ على التّوحيد.

الرّابع: قوله **وَ لَعَلاٰ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ**، و فيه إشارة إلى نفي العلّو.

الخامس: قوله **سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ عَمّٰا يَصِفُونَ**، و فيه إشارة إلى تنزّهه عن النقائص و عمّا لا يليق به.

أمّا البحث في المقام الأوّل: و هو نفي الولد قال الرّاغب في المفردات، الولد

المولود يقال للواحد و الجمع و الصّغير و الكبير و يقال للمتّبني ولد قال أبو الحسن الولد الإبن و الإبنة إذا عرفت معنى الولد فاللّه تعالى ليس له ولد ولم يتّخذ ولداً أيضاً أمّا أنّه ليس له ولد فلوجهين:

أحدهما: أنّ الولد جسمٌ لا محالة و الجسم لا يولد إلاّ من الجسم و اللّه تعالى منزّهٌ عن الجسم لأنّه واجب الوجود و الجسم لا يكون واجب لأنّ الجسم مركّب من الأجزاء و كلّ مركّب محتاج إلى أجزاءه و كلّ محتاج ممكن الوجود فيلزم أن يكون الواجب ممكناً و قد فرضناه واجباً و هذا خلفٌ و إذا ثبت أنّه ليس بجسم فقد ثبت المطلوب.

ثانيهما: لو كان له ولد فهو لا محالة يكون مولوداً لغيره فأنّ حكم الأمثال واحد و إذا كان مولوداً لغيره فلا يكون واجب الوجود ثمّ نتقل الكلام إلى والده و هكذا و يتسلسل و التّسلسل باطل كلّ ما وجد بالغير لابدّ من أن ينتهي إلى الوجود بالذّات و هو الّذي لا يلد و لا يولد و هو المطلوب.

فثبت و تحقّق أنّ اللّه تعالى ليس له ولد هذا كلّه بالنّسبة إلى نفي الولد النّاشئ منه، و أمّا إتّخاذ الولد كما هو مورد البحث في الآية فهو أيضاً غير معقول و ذلك لأنّ السّبب في الإتّخاذ إن كان الإحتياج فيلزم أن يكون الواجب ممكناً إذ كلّ محتاج ممكن وقد فرضناه واجباً، و إن كان الأنس فهو أيضاً غير معقول لأنّه أي الأنس من لوازم الجسم و أمّا الموجود المجّرد فلا يأنس بغيره مضافاً إلى أنّه أيضاً داخل في الإحتياج هذا كلّه مضافاً إلى أنّه تعالى لو إتّخذ إبناً لنفسه فلامحالة يكون الإبن حادثاً لأنّ ما سواه حادث مخلوق له و كلّ حادثٍ ممكن و كيف يعقل أن يكون الحادث إبناً للواجب إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ إثبات الولد له غير معقول كما أنّ إتّخاذ الولد له تعالى غير معقول فالقول بأنّ المسيح إبن اللّه و عزير إبن اللّه أشبه شئ بكلام المجانين و الآية فى الحقيقة ردٌّ على اليهود و النّصارى و كلّ من قالَ أو يقول بهذه المقالة التّي مثل قول بعضهم أنّ الملائكة بنات اللّه و أمثال ذلك من الأقاويل الفاسدة.

البحث الثّاني: قوله **وَ مٰا كٰانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ** و يمكن أن يستدلّ عليه عقلا بوجهين:

الأوّل: أنّه لو كان معه إله فلا محالة يكون موجوداً إذ المعدوم لا حكم له و إذا كان موجوداً فلا يخلو أمّا أن يكون واجباً أو ممكناً لأنّ الموجود لا يخلو من هذين القسمين و ذلك لأنّ الموجود أن كان موجوداً من نفسه و لنفسه و بنفسه فهو واجبٌ و أن كان وجوده من غيره فهو ممكنٌ ثمّ أنّ ما فرضناه شريكاً له تعالى لا يمكن أن يكون ممكناً لأنّ الممكن لا يكون شريكاً للواجب و هذا ممّا لا شكّ فيه لأنّ الممكن وجوده من غيره فهو مخلوق لغيره و الواجب وجوده من نفسه فلا يكون مخلوقاً لغيره و كيف يعقل أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، و لا يمكن أن يكون واجباً أيضاً و ذلك لأنّ الواجبين وجودهما يخلو لها من الإختلاف في الذّات و الصّفات و الإتّحاد كذلك لا سبيل الى الثّاني لإستحالة إجتماع المثلين مضافاً إلى أنّ الإتّحاد من جميع الجهات ينافي الاثنيه، لا سبيل إلى الأوّل أيضاً لأنّ الإختلاف ذاتاً وصفةً يوجب عدم صدق الواجب عليها لأنّ مفهوم الوجوب لا ينتزع من الموجودين المتخالفين بما هما متخالفان عقلاً و ثانياً على فرض التّسليم نقول إشتراك المفهوم بينهما يستدعي ما به الإفتراق إذ المفروض من أنّهما أثنان و قد ثبت أنّ ما به الإشتراك يستلزم ما به الإفتراق قضاءً لحقّ الاثنينيّه و هذا يوجب التّركيب في الواجبين ضرورة أنّ ما به الإشتراك غير ما به الإمتياز و لا نعني بالمّركب العقلي إلاّ هذا و إذ ثبت التّركيب ثبت الإمكان لأنّ كلّ مرّكبٌ محتاج إلى أجزاءه و كلّ محتاج ممكن فيلزم إمكان الواجبين و هذا خلاف الفرض و ملخّص الكلام أنّه لو كان معه إله غيره كانا متحدّي الذّات و الصّفات من جميع الجهات فلا تصدق الأثنينيّه و أن كان غير ذلك أي كانا متخالفين فثبت و تحقّق أنّه ليس معه إلٰه و هو المطلوب.

البحث الثّالث: قوله **إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمٰا خَلَقَ** أي إذا كان معه ألهٌ غيره إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق و إستبدّ به و ذلك لأنّ الإله الأخر أن لم يستبدّ بما خلق فلا

محالة يكون تابعاً للأخر و كلّ تابع لغيره محتاج إليه و كلّ محتاج ممكن فلا يكون واجباً و هو كما ترى و أن إستبدّ بما خلق فهو أيضاً غير معقول لأنّه يوجب إختلال النّظام إذ لا يعقل فيهما وحدة الإرادة في جميع الأمور و هو واضح.

البَحث الرّابع: قوله **وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**، أي و لعلى أي غلب بعض الألهة علىٰ غيره كما ترون حال ملوك الدّنيا ممالكهم متميّزة و هم متفاوتون هكذا قيل في تفسير الكلام و يظهر منه أنّ المفسّرين أرادوا من العلّو الغلبة و لا بأس به و ذلك لأنّ التّغالب مأخوذ من مفهوم العلوّ بل لا يوجد العلوّ إلاّ لمن أراد الغلبة على غيره وكيف كان فالمقصود من الكلام هي نفي الألهة مع اللّه تعالى و أنّه لو كان فيهما ألهة إلاّ اللّه لفسدتا، و في الكلام إحتمال أخر و هو أنّه لو كان معه تعالى ألهة لا يعقل أن يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة من حيث العلم و القدرة و المشيّة و غير ذلك كما هو مقتضى الكثرة و إذا كان كذلك فلا محالة يكون بعضهم أعلى مرتبةً و شأناً و صفةً من غيره و هذا البعض الّذي أعلى من غيره هو الإله الّذي يستّحق أن يعبد لأنّ غيره ضعيف و كلّ ضعيفٍ محتاج إلى الأقوى منه و كلّ محتاج ممكن فما سواه ممكنٌ و كلّ ممكن مخلوق فثبت و تحقّق أنّ مع فرض الألهة يرجع الأمر إلى إلهٍ واحدٍ و هو المطلوب.

البحث الخامس: في قوله **سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**، سُبحان بضّم السّين أصله مصدر نحو غفران و قال بعض أهل اللّغة هو بمعنىٰ الأمر فقوله: **سُبْحَانَ ٱللَّهِ** أي سبّحوا اللّه عمّا يصفون أي يصفون هؤلاء الكفّار من إتّخاذه الولد و الشّريك و بالجملة كلّ ما لايليق به ففي قوله: **سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** براءة من اللّه و تنّزهٌ منه فالبراءة من الكفّار و التّنزه عمّا لا يليق به ثمّ وصف اللّه نفسه بالعلم فقال:

عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

أي أنّه تعالى عالم الغيب و الشّهادة فلا يخفى عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء فهو أجّل و أعلى ممّا يشركون هؤلاء الكفّار و يظهر من الآية أنّ العالم

بالغيب و الشّهادة منحصرٌ به في عالم الوجود و هو كذلك إذ لا يعلم الغيب إلاّ هو فكأنّه تعالى إستدلّ بعلمه بالغيب و الشّهود على نفي الشّريك حيث فرّع عدم الشّريك عليه فيرجع الكلام إلى أنّ الإله المستّحق للعبوديّة هو الّذي يكون عالماً كذلك فمن لم يكن كذلك لا يكون إلٰهاً لأنّه جاهل و الجهل نقص و النّقص من شئون الممكن المخلوق و إذ ثبت أنّ العلم بالغيب و الشّهادة منحصرٌ به فهو المعبود لا غيره.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ

لمّا ذكر اللّه تعالى ما عليه الكفّار من إدّعاء الولد و الشّريك له و كان اللّه تعالى قد أعلم نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ينتقم منهم ولم يبيّن إذ ذاك في حياته أم بعد موته أمره أن يدعو بهذا الدّعاء أي أن ترينّى ما تعدهم واقعاً بهم في الدّنيا و في الأخرة فلا تجعلني معهم كما قال:

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ

أي لا تجعلني في جملة من يشملهم العذاب بظلمهم و تقديره أن أنزلت بهم النّقمة فأجعلني خارجاً عنهم.

قال الزّمخشري في هذا المقام ما هذا لفظه:

أي أن كان لابدّ من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيّا أو في الأخرة فلا تجعلني قريناً لهم و لا تعذّبني بعذابهم عن الحسن أخبره اللّه أنّ له في أمّته نقمة و لم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدّعاء فأن قلت كيف يجوز أن يجعل اللّه نبيّه المعصوم مع الظّالمين حتّى يطلب أن لا يجعله معهم.

قلت يجوز أن يسأل العبد ربّه ما علم أنّه يفعله و أن يستعيذ به ممّا علم أنّه لا يفعله إظهاراً للعبوديّة و تواضعاً لربّه و إثباتاً و إستغفاراً منه إذا قام من مجلسه سبعين مرّة أو مائة مرّة لذلك و ما أحسن قول الحسن في قول أبىبكر الصّديق رضي اللّه عنهما و ليتّكم و لست بخيركم، كان يعلم أنّه خيرهم و لكنّ المؤمن يهضم نفسه إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته.

أقول ما ذكره في تفسير ألفاظ الآية لا كلام لنا فيه و ذلك لأنّ العبد كائناً من كان يخضع لربّه و يرجو منه ما لا يرجو من غيره فأن العبد و ما في يده كان لمولاه و أنّما الكلام في قياسه الّذي يضحك به الثّكلى و هو قياس أبوبكر برسول اللّه في قوله وليّتكم و لست بخيركم.

و نقله عن الحسن أنّه كان يهضم نفسه بهذا الكلام و أنّه كان يعلم أنّه خيرهم، ألم يعلم الزّمخشري أنّ أبا بكر لم يكن خير هم، فأن لم يكن عالماً به واقعاً فهو من أجهل النّاس بالسِّير و أحوال الصّحابة و أن كان عالماً و مع ذلك قال بهذه المقالة فهو من المعاندين، و كيف كان أبو بكر خيرهم و قد عبد الأصنام أكثر من أربعين سنة من عمره من علّي بن أبي طالب الّذي لم يعبد صنماً قطّ و هو أوّل من أمن باللّه و رسوله في الإسلام بالإجماع مضافاً إلى كثرة علمه و زهده و جهاده في سبيل اللّه و غير ذلك من فضائله التّي لا تحصى.

و من المعلوم أنّ أبا بكر كان بمعزلٍ عن جميع الفضائل بل هو كغيره من الأعراب و قد صدق في قوله: ولّيتكم و لست بخيركم، فأنّه أصدق كلام قالته العرب بل نقول لم يتكلّم أبوبكر في عمره بكلامٍ أصدق من هذا الكلام و حمل كلامه على الخضوع و هضم النَّفس كما فعله الزّمخشري تبعاً للحسن فهو من حمل الكلام على ما لا يرضى به صاحبه و ظنّي أنّ أبا بكر لا يرضى به و في قوله: ولّيتكم، بصيغة المجهول دليلٌ على ما ذكرناه أي أنّهم ولّوني لا أنّي طلبت الولاية و الإمارة عليكم و هذا كلامٌ صدق و إقرارٌ بعدم صلاحيّته للخلافة فلا يحتاج إلى التّأويل و حمله على هضم النّفس كما فعله الزّمخشري و أتباعه و قولهم أنّ الرّسول كان معصوماً فلا يحمل كلامه على الظّاهر لأنّ المعصوم لا يكون داخلاً فيهم قطعاً، كلامٌ لا طائل تحته بل هو عارٍ عن التّحصيل و ذلك لأنّ العصمة في النّبي و الوّصي من قبل اللّه تعالى لقوله: **وَ ٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ** و من يعطي العصمة يقدر على سلبها عن العبد فقوله ربّ فلا تجعلني مع القوم

الظّالمين، معناه لا تسلب منّي العصمة فأنّ غير المعصوم يكون ظالماً قهراً فهذا دعاءٌ معقول لا يحتاج إلى التّأويل أصلاً.

وَ إِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ

هذا في الحقيقة جواب عن سؤال الرّسول حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم قل ربّ إمّا ترينّي ما يوعدون، من العذاب في الدّنيا فقال تعالى إنّا قادرون على ذلك و لكن لا نفعله و نؤخّره إلى يوم القيامة لما في تأخيره من المصلحة و قال أكثر المفسّرين أنّ اللّه تعالى أراه يوم بدر و يوم فتح مكّة و كيف كان لا شكّ أنّ اللّه قادرٌ عليه إمّا في الدّنيا و إمّا في الأخرة ثمّ بعد ذلك أمر اللّه رسوله بحسن الأخلاق و الّتي هي أحسن فقال:

ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ

أمر اللّه رسوله أن يدفع السَّيئة من إساءة الكفّار إليه بالتّي هي أحسن منها و هي شهادة أن لا إله إلاّ اللّه، و السَّيئة قيل هي الشِّرك فالمعنى إدفع الشِّرك من الكفّار بالتّوحيد و قال بعض المفسّرين معنى الكلام أنّهم إذا ذكروا المنكر من القول و هو الشّرك فأدفعه بذكر الحجّة و البرهان على التّوحيد في مقابلته و قيل إدفعه بذكر الموعظة التّي تصرف منه إلى ضدّه من الحقّ على وجه التَّلطف في الدُّعاء إليه و الحثّ عليه كقول القائل هذا لا يجوز، و هذا خطاء و عدولٌ عن الحسن و أحسن منه أن يوصل بذكر الحجّة و الموعظة الحسنة.

و قال الحسن **بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** الإغضاء والصّفح، و قيل هو خطاب للنّبي و المراد به الأمّة و المعنى إدفع الأفعال السّيئة بالأفعال الحسنة، و قوله: **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**، قيل أي بما يستّحقون من الجزاء في الوقت الذّي يصلح الأخذ بالعقوبة إذ لا نقضي الأجل المضروب بالإمهال قاله الشّيخ في التّبيان.

و قيل أنّها أية موادعة و المعنى نحن أعلم بما يذكرون و يصفونك ممّا أنت بخلافه هذا ما قالوا في تفسير الآية و الّذي يختلج بالبال في تفسيرها هو أنّ

الكفّار كانوا بين منكرٍ و مشبّهٍ، بمعنى أنّ بعضهم كانوا من المنكرين له تعالى و بعض أخر كانوا من المشبّهين الواصفين للّه تعالى بما لا يليق به فأمر اللّه نبيّه بالمداراة معهم و دفع السّيئات من الأقوال الصّادرة منهم بالتّي هي أحسن من لين الكلام و حسن الخطاب ثمّ قال: **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**، أي بما يصفون اللّه من النّقائص و ما لا يليق به من الشّرك و التّشبيه و إتّخاذ الولد و غيرها من القبائح و لو كان المراد بقوله: **مَا يَصِفُونَ** ما يستّحقون من الجزاء لقال اللّه تعالى نحن أعلم بما يجزون مثلاً هذا مضافاً إلى أنّ حمل اللّفظ على غير معناه الموضوع له من غير داعٍ يدعو إليه لا معنى له.

وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ

أي من نزغاتهم و وساوسهم و معنى أعوذ باللّه أعتصم به من شرّهم في كلّ ما يخاف من شرّه و المعاذة هي التّي يستدفع بها الشّر و امّا الهمزات دفعهم بالإغواء إلى المعاصي و الهَمز شدّة الدَّفع، و قيل الهمز من الشّيطان عبارة عن حثّه على العصيان و الإغراء به كما يهمز الرّائض الدّابة لتسرع و قال إبن زيد همز الشّيطان الجنون، ثمّ أنّ الظّاهر من الآية أنّ اللّه تعالى أمره بالإستعاذة في جميع الأوقات فلا وجه لتخصيصها عند تلاوة القرآن فقط و هذه الآية و أن كانت بظاهرها خطاباً للنّبي إلاّ أنّ المراد بها الأمّة و يحتمل أن يكون المراد جميع النّاس و ذلك لأنّ الأنبياء أيضاً محتاجون إلى الإستعاذة لغيرهم فأنّ شرّ الشّيطان لا يدفع إلاّ بها.

وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ

و الأصل ربّي و يحضروني فحذفت الياء و بقيت الكسرة للدّلالة على المحذوف و الواو للعطف أي و قل و أعوذ بك من هؤلاء الشّياطين أن يحضروني فيوسون لي و يغروني عن الحقّ ثمّ أخبر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفّار و قال:

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَ مِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

قال صاحب الكشّاف، حتّى، يتّعلق بيصفون، أي لا يزالون على سوء الذّكر الى هذا الوقت و الآية فاصلة بينهما على وجه الإعتراض و التّأكيد للاعضاء عنهم مستعيناً باللّه على الشّيطان أن يستزلّه و يغريه على الإنتصار منهم أو على قوله: **إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ** إنتهى.

أقول على هذا فالمعنى أنّهم أي الكفّار كانوا كذلك الى وقت الموت و إذا جاء أحدهم الموت قال ربِّ إرجعون على لفظ الجمع ففي قولهم: **رَبِّ**، إستعانة باللّه و في قولهم: **ٱرْجِعُونِ** رجوعٌ منهم الى مسألة الملائكة بالرُّجوع الى اللّه و قيل أنّه جرى على تعظيم الذّكر في خطاب الواحد بلفظ الجمع لعظم القدر:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ**[٢].

و ما جرى مجراه هكذا قيل.

أنا أقول ما ذكروه في وجه الإتيان بصيغة الجمع لا نفهم معناه.

أمّا الوجه الأوّل: و هو أنّه إستعان باللّه أوّلاً، و طلب الرَّجعة من الملائكة ثانياً و لذا أتى بصيغة الجمع فهو بعيد عن مساق الآية و إجنبيٌّ عن بلاغة الكلام.

أمّا أوّلاً: فلا معنى للعدول عن اللّه و طلب الرَّجعة من الملائكة.

ثانياً: أنّ الّذي يقدر على المطلوب هو اللّه لا الملائكة.

ثالثاً: الجواب و هو قوله: **كَلَّآ**، من اللّه تعالى و على هذا فيصير معنى الكلام على خلاف ما يستفاد من ألفاظها.

أمّا الوجه الثّاني: و هو أنّ المراد بها التَّعظيم فهو أيضاً غير معقول فأنّ الكافر لا يعظّم اللّه فانّ التعظيم بعد المعرفة مضافاً الى أنّ المقام ليس مقام التَّعظيم و هو

١- الحجر = ٩ ٢- الحجر = ٢٦

ظاهرٌ لمن تأمّل في الآية و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية الظّاهر أنّ الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و ربِّ إستغاثة معترضة بحذف حرف النّداء و المعنى قال و هو يستغيث بربّه، إرجعون، إنتهى.

و لقائلٍ أن يقول إذا كان يستغاث به تعالى عند الموت فطلب الرَّجعة أيضاً منه أولى من طلبها من الملائكة و المفروض أن الملك لا يقدر على شيئ إلاّ بإذن اللّه تعالى و على هذا فما وجه العدول منه تعالى الى خلقه في طلب الرَّجعة و أحسن الأقوال في حلّ المشكل هو قول الخليل حيث سأل من قوله: **رَبِّ ٱرْجِعُونِ** ففكر ثمّ قال سألتموني عن شيئٍ لا أحسنه و لا أعرف معناه و اللّه أعلم لأنّه جمع فأستحسن النّاس منه ذلك و نحن أيضاً نقول بمقالة الخليل و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

و أمّا قوله: **لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** أي من أعمال الخير في الدُّيا، و قيل فيما تركت من المال و كيف كان في الكلام إشعار بل دلالة على التَّحسر و النَّدم على ما فاته في الدُّنيا و أنّه كان قادراً على الخيرات و الحسنات و لم يعمل بها إلاّ أنّ الحسرة عند الموت لا فائدة فيها كما قال اللّه تعالى في جوابه.

كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَ مِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

كلاّ، كلمة ردعٍ و زجرٍ أي حقّاً أنّها كلمة، فالكناية عن الكلمة و التّقدير إنّ الكلمة الّتي قالوها و هي، **رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ** كلمة هو قائلها بلسانه دُون قلبه، إمّا لعدم إمكان الرُّجوع الىٰ الدُّنيا للعمل وإمّا لأنّه لو رجع الى الدُّنيا أيضاً لا يعمل صالحاً و قوله: **وَ مِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** إشارة الى وجود العالم البرزخ بعد الموت الى يوم يقوم للحساب و أنّما سمّي به لكونه برزخاً بين الموت و الحساب يوم القيامة فالبرزخ حاجزٌ بين الموت و البعث و قيل هو الحاجز بين الموت والرّجوع الى الدّنيا، و قيل هو الحاجز بين الدّنيا و الآخرة و قيل هو الإمهال، و قيل كلّ فصلٍ بين شيئين برزخٌ، قال بعضهم في الآية دلالة على أنّ أحداً لا يموت حتّى يعرف إضطراراً منزلته

عند اللّه و أنّه من أهل الثّواب أو العقاب و فيها دلالة أيضاً على أنّهم في حال التّكليف يقدرون على الطّاعة بخلاف ما تقول المجبرة قاله في التّبيان و معنى من ورائهم، أي أمامهم و قدّامهم قال الشّاعر:

أيرجوا بنو مروان سمعي و طاعتي ـ و قومي تميمٌ و الفلاة و رائيا

أي قدّامي و إمامي، قال صاحب الكشّاف و ليس المعنى أنّهم يرجعون يوم البعث و إنّما هو إقناطٌ كلّي لما علم أنّه لارجعة يوم البعث إلاّ إلى الآخرة إنتهى.

أقول أصل البرزخ ممّا لاشكّ فيه عند المسلمين و ذلك لدلالة القرآن علىٰ وجوه:

قال اللّه تعالىٰ: **مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ**[1].

و قال تعالىٰ: **وَ مِنْ وَرٰآئِهِمْ بَرْزَخٌ** بل و لو لم يكن في القرآن في إثبات البرزخ إلاّ هذه الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها لكفى مضافاً الى أنّ الإخبار به متضافرة أو متواترة إلاّ أنّ الكلام في أنّ البرزخ ما هو و ما المراد به في الكتاب و السُّنة فنقول في تفسير علّي بن إبراهيم في المقام، قال البرزخ هو أمرٌ بين أمرين و هو الثّواب و العقاب بين الدّنيا و الآخرة.

و هو قول الصّادق عليه السلام: «**والله ما أخاف عليكم إلاّ البرزَخ**» و امّا إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم إنتهى.

و فيه أيضاً عند قوله تعالىٰ: **وَ مِنْ وَرٰآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**.

فقال الصّادق عليه السلام: البرزخ القبر و هو الثّواب و العقاب بين الدّنيا و الآخرة و الدّليل على ذلك قول العالم و اللّه ما نخاف عليكم إلاّ البرزخ إنتهى.

و عن الكافي بأسناده عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام إنّي سمعتك و أنت تقول كلّ شيعتنا في الجنّة على ما كان فيهم قال عليه السلام: صدقتك كلّهم و اللّه في الجنّة.

۱- الرّحمٰن = ۲۰

قلت جعلت فداك أنّ الذّنوب كثيرة كبار فقال عليه السلام: أمّا في القيامة فكلّكم في الجنّة بشفاعة النبيّ المطاع أو وصّي النّبي و لكنّي و اللّه أتّخوف عليكم في البرزخ.

قلت و ما البرزخ فقال عليه السلام: القبر منذ حين موته الى يوم القيامة إنتهى.

إذا عرفت هذا و علمت أنّ المراد بالبرزخ هو عالم القبر من حين الموت الى يوم القيامة.

فأعلم أنّ الآية و أن كان موردها الكفّار إلاّ أنّ الحكم أعني به سؤال الرّجعة ليس مختّصاً بهم بل هو حكمٌ عامّ يشمل جميع الأموات مسلماً كان الميّت أو كافراً و ذلك لأنّ خصوصيّة الموارد لا تنافي عموم الحكم فكما أنّ الكافر يسأل الرّجعة يسألها بعض المسلمين أيضاً فأنّ القبر أمّا روضة من رياض الجّنة أو حفرةٌ من حفر النّيران.

و السّائل هو الثّانيّ دون الأوّل و قد ورد في أخبار أهل البيت أنّ مانع الزّكوة يسأل الرّجعة، ففي وصية النّبي لعلّي عليه السلام: **يا علّي تارك الزّكوة يسأل الرّجعة الى الدّنيا و ذلك قول اللّه عزّ وجّل: حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ.**

و عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام: **يقول من منع الزّكوة سأل الرّجعة عند الموت و هو قول اللّه تعالى: رَبِّ ٱرْجِعُونِ** و الأخبار بهذه المضامين كثيرة.

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَآءَلُونَ

قال في المفردات النَّفخ نفخ الرّيح في الشّئ، و قال في معنى الصُّور، و هو مثل قرنٍ ينفخ فيه فيجعل اللّه سبحانه ذلك سبباً لعود الصُّور و الأرواح إلى أجسامها.

و روي فى الخبر أنّ الصُّور فيه صورة النّاس كلّهم إنتهى.

أقول و ذلك لأنّ الصُّور جمع صورة قال أهل اللّغة الصُّور جمع الصُّورة ينفخ فيها روحها فتحيا.

قال في المجمع روي علّي بن إبراهيم بأسناده عن فاختة عن علّي بن الحسين عليه السلام حيث سأل عن النّفختين كم بينهما قال عليه السلام: ما شاء اللّه فقيل له أخبرني يا بن رسول اللّه كيف ينفخ فيه فقال عليه السلام: أمّا النَّفخة الأوّلى فأنّ اللّه يأمر إسرافيل فيهبط الى الدُّنيا و معه الصُّور و للصُّور رأسٌ واحد و له طرفان و بين طرف كلّ رأسٍ منهما ما بين السَّماء و الأرض قال عليه السلام فإذا رأى الملائكة إسرافيل و قد هبط الى الأرض و معه الصُّور قالوا قد أذن اللّه في موت أهل الأرض و في موت أهل السّماء قال عليه السلام فيهبط إسرافيل بحضرة بيت المقدّس و يستقبل الكعبة ينفخ نفخةً فيخرج الصَّوت من الطَّرف الّذي يلي الأرض فلا يبقى في الأرض روحٌ الا صعق و مات و يخرج الصَّوت من الطَّرف الّذي يلي السَّماء فلا يبقى في السَّموات روحٌ إلاّ صعق و مات إلاّ إسرافيل فيقول اللّه لأسرافيل يا إسرافيل مت فيموت إسرافيل فيمكثون في ذلك ما شاء اللّه ثمّ يأمر السَّموات فتمور موراً و يأمر الجبال فتسير سيراً و هو قوله: «يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا، وَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا، و تبدّل الأرض غير الأرض» يعني بأرضٍ لم يكتسب عليها الذُّنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أوّل مرّة و يعيد عرشه على الماء كما كان أوّل مرّة مستقّلاً بعظمته و قدرته قال عليه السلام: فعند ذلك ينادي الجبّار لمن الملك اليوم فلا يجيبه مجيب فعند ذلك يقول مجيباً لنفسه للّه الواحد القهّار أنا قهرت الخلائق كلّهم و أمتهم لا إله إلاّ أنا وحدي لا شريك لي و لا وزير و أنا خلقت خلقي و أنا أمتّهم بمشيّتي و أنا أحييهم

بقدرتي فينفخ الجبّار نفخة في الصُّور فيخرج الصَّوت من أحد الطَّرفين الّذي يلي السَّموات فلا يبقى في السَّموات أحدٌ إلاّ حييّ و قام كما كان و يعودون حملة العرش و تحضر الجنّة و النّار و تحشر الخلائق للحساب فرأيت علّي بن الحسين يبكي عند ذلك بكاءً شديداً إنتهى مجمع البحرين.

نفخ، إذا عرفت الصُّور و كيفيته فلنرجع الى تفسير الآية و نقول أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه نفخ الصُّور فلا أنساب بينهم يومئذٍ و لا يتسألون نفى اللّه تعالى الأنساب بينهم يومئذٍ أوّلاً و السؤال ثانياً، أمّا نفي الأنساب فلأنّهم لا يتواصلون هناك بالأنساب و لا يحنون اليها لشغل كلّ إنسان بنفسه، و قيل معناه لا أنساب بينهم يتعاطفون بها و أن كانت المعرفة حاصلة بأنسابهم بدليل قوله تعالى: **يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ، وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ**[1] فأثبت أنّهم يعرفون أقاربهم و أنّ هربهم منهم لإشتغالهم بنفوسهم و النَّسب هو إضافة الى قرابة في الولادة، و قال إبن عبّاس عند النَّفخة الأوّلى يموت النّاس فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت و هم أموات و قال إبن مسعود و غيره هو عند قيام النّاس من القبور فلهول المطلع إشتغل كلّ إمرؤٍ بنفسه فإنقطعت الوسائل و إرتفع التَّفاخر و التَّعاون بالأنساب، و قيل فلا أنساب بينهم أي لا تواصل بينهم حين إفتراقهم الى ما أعدّ لهم من ثواب و عقاب و أنّما التَّواصل بالأعمال، و أمّا قوله: **وَ لَا يَتَسَآءَلُونَ** أي بعضهم عن بعض و ذلك لأنّ التَّسائل فرع المعرفة فإذا إنتفت الأنساب إنتفت المسألة قهراً و قيل أنّ إنتفاء التّسائل عند النَّفخة الأولى و أمّا في الثّانية فيقع التَّسائل و اللّه أعلم بما أراد من كلامه و لا علم لنا و لا لغيرنا بكيفيّة القضّية نعم يستفاد من الآية انّ الهول شديدٌ و الخطر عظيم أعاذنا اللّه تعالى من تبعاته.

١- عَبس = ٣٤ الى ٣٦

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ

مَوازِين، بفتح الميم جميع ميزان بكسرها، و الأصل فيه موزان قلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها و المراد به ذو الكفّتين و قيل المراد به العدل روي أنّ جبرئيل أنزل بالميزان فدفعه إلى نوح و قال من قومك يزنوا به.

قال في المفردات الميزان معرفة قدر الشّئ يقال وزنته وزناً و المتعارف في الوزن عند العامّة ما يقدّر بالقسط:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ**(٢).

إشارة إلى مراعاة المعدلة في جميع ما يتّحراه الإنسان من الأفعال و الأقوال إنتهى.

أقول يظهر من كلماتهم أنّ الميزان مفعالٌ أي ألة للوزن فهو إسم لكلّ ما يوزن به الشّئ سواءٌ كان محسوساً أم معقولاً فقوله تعالى: **وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ** و قوله: **وَ أَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ** إشارة إلى الميزان المحسوس الذّي له كفّتان،

و قوله تعالىٰ: **وَ وَضَعَ ٱلْمِيزٰانَ**(٣).

و قوله: **وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْمِيزٰانَ**(٤).

إشارة إلى المعقول و توضيحه إجمالاً:

هو أنّ الموزون قد يكون من الأجسام كالحنطة و الشّعير و أمثالهما و قد يكون من الأفعال و الأعمال التّي هي من الأعراض و من المعلوم أنّ الميزان في كلّ شئٍ بحسبه فأن كان الموزون محسوساً كالأجسام يكون الميزان محسوساً له لسان و كفّتان، و أن كان الموزون من الأعراض و الصّفات فالميزان أيضاً كذلك

١- الاسراء = ٣٥
٢- الرحمن = ٩
٣- الرحمن = ٧
٤- الحديد = ٢٦

أي يكون معقولاً لا وجود له إلاّ في العقل و هكذا الكلام في الثِّقل و الخِّفة فأنّهما تارةً يقالان في الأجسام الثّقيلة والخفيفة فيقال الحديد أثقل من الخشب و تارةً في الأعراض و الصّفات فيقال زيد أثقل علماً من عمر و مثلاً فأنّ الثّقل و الخفّة في كلّ شئ بحسبه إذا عرفت هذا.

فقوله تعالىٰ: **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** معناه من ثقلت حسناته أي كَثُرت كمّاً وكيفاً ومن خفَّت موازينه معناه قلَّت حسناته و قيل المراد بثقل الطّاعة عظمها و سلامتها من الإحباط و قوله من خفَّت موازينه بأن يكون أحبطت طاعاته لكثرة معاصيه و من لا يقول بالإحباط قال معناه، من لم يكن معه شئ من الطّاعات و أنّما معه المعاصي فأنّ الميزان إذا لم يكن فيه شئ يوصف بالخفّة كما يوصف بها إذا كان فيه شئ يسير و في مقابلته ما هو أضعافه و من كان كذلك فأولئك الذّين خسروا أنفسهم لأنّهم أهلكوها بالمعاصي التّي إستّحقوا بها العقاب الدّائم و هم في جهنّم مؤبّدون خالدون.

و في عيون أخبار الرّضا عليه السلام في باب قوله عليه السلام: لأخيه زيد بن موسى حين إفتخر على من في مجلسه بأسناده إلى محمّد إبراهيم بن محمّد الثّقفي قال سمعت الرّضا عليه السلام يقول من أحبَّ عاصياً فهو عاصٍ و من أحبَّ مطيعاً فهو مطيع و من أعان ظالماً فهو ظالم و من خذل ظالماً فهو عادل أنّه ليس بين اللّه و بين أحدٍ قرابة و لا ينال أحد ولاية اللّه إلاّ بالطّاعة و لقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لبني عبد المطلّب أئتوني بأعمالكم لا بأحسابكم و أنسابكم قال اللّه تبارك و تعالى: فَإِذا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلآ أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَسآءَلُونَ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ إنتهىٰ.

و في تفسير علّي بن إبراهيم قال الصّادق عليه السلام: لا يتقدم يوم القيامة أحد إلاّ بالأعمال و الدّليل على ذلك قول رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم أيّها النّاس أنّ العرَّبية ليست بأبٍ و جدٍّ و أنّما هو لسانٌ ناطق فمن تكلّم به فهو عرّبي ألا أنّكم ولد آدم و آدم من ترابٍ و أكرمكم عند اللّه أتقاكم و الدّليل على ذلك قول اللّه تعالى: فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَآءَلُونَ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ قال بالأعمال الحسنة فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ، قال من تلك الأعمال الحسنة فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ

قيل لفح و نفح بمعنى واحد غير أنّ اللَّفح أعظم من النَّفح و أشدَّ تأثيراً و هو ضربٌ من السُّموم للوجه و النَّفح ضربُ الرّيح للوجه و الكلوح تقلّص الشَّفتين عن الأسنان حتّى تبدوا الأسنان و قيل خصّ الوجه باللَّفح لأنّه أشرف ما في الإنسان و الإنسان أحفظ له من الأفات من غيره من الأعضاء فإذا لفح الأشرف فما دونه ملفوح و لمّا ذكر إصابة النّار للوجه ذكر الكلوح المختّص ببعض أعضاء الوجه.

و في التّرمذي تتقلّص شفته العلياء حتّى تبلغ وسط رأسه و تسترخي شفته السفّلى حتّى تضرب سرّته قال هذا حديث صحيح إنتهى.

و قال في المجمع، كالحون، هو من الكلوح هو الّذي قصرت شفتاه عن أسنانه كما تقَّلص رؤوس الغنم إذا شيطت بالنّار و قيل كالحون، عابسون، و الكلوح تكثّرٌ في عبوس و منه كلح الرَّجل كلوحاً و كلاحاً و ما أقبح كلحته يراد به الغمّ قاله الجوهري إنتهى.

و قال في المنجد كلح، كلوحاً و كلاحاً وجهه عبس و تكثّر فهو كالح إنتهى.

و معنى الآية أنّ الذّين خفّت موازينه تلفح و جوههم النّار و هم فيها أي في نار جهنّم كالحون، أي عابسون و هو كناية عن شدّة العذاب أعاذنا اللّه منه.

أَلَمْ تَكُنْ اٰيَاتِي تُتْلٰى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهٰا تُكَذِّبُونَ

الهمزة للإستفهام الإنكاري و المعنى أنّ أياتي تتلى عليكم إلاّ إنّكم كذّبتم بها و لّما سمعوا هذا التّقرير أذعنوا و أقّروا على أنفسهم بالتّقصير و التّكذيب فقالوا كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله:

قٰالُوا رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا وَ كُنّٰا قَوْمًا ضٰآلّينَ

لمّا قيل لهم ألم تكن أياتي تتلى عليكم، قالوا: **رَبَّنٰا غَلَبَتْ عَلَيْنٰا شِقْوَتُنٰا** و الشّقاوة سوء العاقبة، و قيل الشّقوة الهوى و قضاء اللّذات لأنّ ذلك يؤدّي إلى الشّقوة أطلق إسم المسبب على السّبب، و قيل الشّقوة المضّرة اللاّحقة في العاقبة و السّعادة المنفعة اللاّحقة في العاقبة و في قوله: **وَ كُنّٰا قَوْمًا ضٰآلّينَ**، دلالة على أنّهم ضّلوا عن الحقّ بحسب إقرارهم و إعترافهم.

■

رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخْسَؤُا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ
فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ
ٱرْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ
تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا
أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي
ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾
أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا
تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَ مَنْ يَدْعُ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَ قُلْ
رَبِّ ٱغْفِرْ وَ ٱرْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

◀ اللّغة

عُدْنَا: العود الرّجوع.

ٱخْسَؤُا: أي ذلُّوا فيها و إنزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال خساء الكلب طرده و خسأت فلاناً فهو خاسئ إذا أبعدته بمكروهٍ فهذه الكلمة تدلّ على المهانة و المذلّة.

فَرِيقٌ: الفريق الجماعة.

سِخْرِيًّا: بالكسر و الضّم مصدر، سخر كالسُّخر إلاّ أنّ في ياء النّسب زيادة في قوّة العقل كما قيل الخصوصيّة في الخصوص و عن الكسائي و الفّراء أنّ المكسور من الهزء و المضموم من السُّخرة و العبوديّة و عن المصباح أنّ الكسر لغة فيه.

ٱلْعَآدِّينَ: بتشديد الدّال جمع عاد من عدَّ الشّئ إذا أحصاه و حسبه.

عَبَثًا: العبث بفتحتين اللّعب و ما لا فائدة فيه و كلّ ما ليس فيه غرضٌ صحيحٌ.

بُرْهَانَ: البرهان الحجّة و الدّليل.

◀ الإعراب

رَبَّنَآ منادىٰ مضاف و التّقدير يا ربّنا و أخرجنا، فعل أمرٍ معناه الدّعاء فَإِنْ عُدْنَا عدنا فعل ماضٍ في محلّ جزم فعل الشّرط قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا جملة إخسئوا، مقول القول و هو فعل أمرٍ فَرِيقٌ إسم كان، و من عبادي، صفة الفريق و جملة، يقولون، خبر كان و ربّنا منادىٰ مضاف سِخْرِيًّا مفعول ثانٍ أَنَّهُمْ يقرأ بالفتح على أنّ الجملة في موضع مفعول ثانٍ لأنّ جزى يتّعدى إلى أثنين و قد يقرأ بالكسر على الإستئناف كَمْ لَبِثْتُمْ و كم، ظرف للبثتم أي كم سنة أو نحوها و عَدَدَ بدل من، كم، و سنين، بدل منه إِلَّا قَلِيلًا اي زمناً قليلاً أو لبثاً قليلاً و جواب، لو، محذوف أي لو كنتم تعلمون مقدار لبثكم من الطّول لما أجبتم بهذه المدّة عَبَثًا مصدر في موضع الحال أو مفعول لأجله لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِۦ صفة لألة و الجواب فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ بالكسر على الإستئناف.

◀ التّفسير

رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ

قلنا في شرح اللّغات أنّ ربّنا، منادىٰ مضاف و التّقدير يا ربّنا أخرجنا منها، أي

من نار جهنّم فإن عدنا، أي فإن رجعنا إلى ما كنّا فيه من الكفر و التّكذيب، فإنّا ظالمون، أي مستّحقون للعذاب ففي الحقيقة أنّهم تدَّرجوا من الإقرار إلى الرَّغبة و التّصريح و ذلك أنّهم أقرُّوا و الإقرار بالذَّنب إعتذارٌ.

و ذكر الطّبري بأسناده عن أبي الدّرداء أنّه قال يرسل أو يصبّ على أهل النّار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بالضّريع الذّي لا يسمن ولا يغني من جوع فلا يغني عنهم ذلك شيئاً فيستغيثون فيغاثون بطعامٍ ذي غصّةٍ فإذا أكلوه نشب في حلوقهم فيذكرون أنّهم كانوا في الدّنيا يحدرون الغصّة بالماء فيستغيثون فيرفع إليهم الحميم في كلاليب الحديد فإذا إنتهى إلى وجوههم شوى وجوههم فإذا شربوه قطَّع أمعائهم قال فينادون مالكاً ليقض علينا ربّك فيتركهم ألف سنة ثمّ يجيبهم أنّكم ماكثون قال فينا دون خزنة جهنّم إدعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فأدعوا و ما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال قال فيقولون ما نجد أحداً خيراً لنا من ربّنا، فينادون ربّهم، ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمُون قال فيقول اللّه: **قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ** قال فعند ذلك يئسوا من كلّ خيرٍ فيدعون بالويل و الشّهيق و الثّبور إنتهى ماذكره.

و كيف كان لا شكّ في شدّة العذاب فأنّ قولهم: **رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا** دليل عليها و لا شكّ أيضاً في ردّ قولهم بدليل قوله تعالى: **ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ**، أي ذلّوا فيها و إنزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت يقال خسأت الكلب و خسأ هو بنفسه يكون متعدّياً و لازماً ولا تكلّمون أي في رفع العذاب أو تخفيفه.

قال بعضهم هو أخر كلام يتكلّمون به ثمّ لا كلام بعد ذلك إلاّ الشّهيق و الزّفير و العواء كعواء الكلاب.

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ٱرْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ

هذه الآية في الحقيقة بمنزلة التّعليل لحلول العذاب عليهم و ذلك لأنّ الكفّار لمّا قالوا غلبت علينا شقوتنا الآية ثمّ قالوا أخرجنا منها الآية و قال لهم اللّه تعالى: **ٱخْسَؤُا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ**، في رفع العذاب عنكم علَّل ذلك بقوله: **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي** يعني المؤمنين في دار الدّنيا يقولون ربّنا أمنّا فإغفر لنا و أنت خير الرّاحمين، أي كانوا يدعون اللّه بهذه الدَّعوات عبادةً للّه و طلباً لما عنده من الثّواب.

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ

أي كنتم تستهزؤون بهم و تسخرون منهم، حتّى أنسوكم ذكري، أي لتّشاغلكم بالسّخرية نسيتم ذكري **وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ**.

أقول يستفاد من الآية أنّ سبب العذاب كان كفرهم باللّه و إنكارهم الرُّسل و تكذيب الأيات أوّلاً و السّخرية و الإستهزاء للمؤمنين ثانياً و من المعلوم أنّ ضمّ السخريّة إلى الكفر يوجب شدّة العذاب لأنّ كثرة السَّبب توجب كثرة المسَّبب و شدّته بل الحقّ أنّ إستهزاء المؤمن في عبادته و طاعته للّه تعالى أشنع و أقبح من الكفر لأنّ الإستهزاء في هذا المقام يرجع إلى إستهزاء اللّه تعالى و سخريّته إذ المفروض أنّ الكافر لام المؤمن على إيمانه باللّه فالكافر المستهزئ له عقابان، عقابٌ على كفره و إنكاره و عقابٌ على إستهزاءه و سخريّته و من كان كذلك و مع ذلك يقول ربّنا أخرجنا منها الأية، فجديرٌ بأن يقال في جوابه **ٱخْسَؤُا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ**.

و قال بعض المفسّرين أنّ ذلك على وجه الغضب لهم فذكر ذلك ليدلّ على هذا المعنى لأنّ من لا يكلّم إهانةً له و غضباً فقد بلغ به الغاية في الإذلال، و الوجه الأخر في معنى الآية و لا تكلّمون في رفع العذاب عنكم فأنّي لا ارفعه عنكم و هو على صيغة النّهي و ليس بنهي إنتهى.

أقول ما ذكروه في معنى الآية لا مشاحة فيه فأنّ المعنى واضح لا خفاء فيه أصلاً.

إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ

أي إنّي جزيت الذّين كنتم إتّخذتموهم سخريّاً و كنتم منهم تضحكون في دار الدّنيا و هم صبروا على سخريّتكم و إستهزاؤكم فإن هذا جزاء من صبر على الإيمان و شماتة الأعداء ثمّ حكم اللّه تعالى بأنّهم هم الفائزون و في هذه الآية إشارة إلى أنّ الجزاء في مقابلة العمل بما يستحقّ المكلّف عليه من ثواب أو عقاب كما يقال،: **النّاس مَجزّيُون بأعمالهم إن خَيراً فَخيراً و إن شرّاً فَشرّاً**، و الصَّبر حبس النّفس عمّا تنازع عليه ممّا لا يحسن أو ليس بأولى.

قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ

اللّبث هو المكث و هو حصول الشّئ على الحال أكثر من وقتٍ واحدٍ و اللاّبث هو الكائن على الصّفة على مرور الأو قات، و العدد عقدٌ يظهر به مقدار المعدود يقال عدَّه يعدّه عدّاً و عدداً فهو عادّ.

قيل هذا السّؤال منهم على وجه التّوبيخ لإنكارهم البعث و النّشور فيقول اللّه لهم إذا بعثهم من القبور، كم لبثتم في الأرض عدد سنين، أي في الحياة الدُّنيا.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ

أي فسئل الّذين كانوا يعدُّون و يحسبون.

قال الطّبري إنّ اللّه تعالى قال لهؤلاء الأشقياء من أهل النّار و هم في النّار كم لبثتم في الأرض عدد سنين و أنّهم أجابوا اللّه فقالوا لبثنا يوماً أو بعض يومٍ فنسي الأشقياء لعظيم ما هم فيه من البلاء و العذاب مدّة مكثهم التّي كانت في الدّنيا و قصر عندهم مدّة مكثهم الّذي كان فيها لما حلّ بهم من نقمة اللّه حتّى حسبوا أنّهم لم يكونوا مكثوا فيها إلاّ يوما أو بعض يومٍ و لعلَّ بعضهم كان قد مكث فيها الزّمان

الطّويل و السّنين الكثيرة و ساق الكلام إلى أن قال فتأويل الكلام قال اللّه كم لبثتم في الدّنيا من عدد سنين قالوا مجيبين له لبثنا فيها يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين لأنّا لا ندري قد نسينا ذلك و إختلف أهل التّأويل في المعنى بالعادّين.

فقال بعضهم هم الملائكة الّذين يحفظون أعمال بني آدم و يحصون عليهم ساعاتهم، و قيل **فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ** أي فإسأل أهل الحساب إنتهى.

أقول يظهر من كلام الطّبري أنّ هذا السّؤال و الجواب كان لأهل النّار من الأشقياء و تبعه على ذلك غيره من المفسّرين.

قال الزّمخشري إستقصروا مدة لبثهم في الدّنيا بالإضافة الى خلودهم ولما هم فيه من عذابها ألخ، و هذا الكلام كما ترى ظاهرٌ فيما ذكرناه و نقلناه عن الطّبرسي لأنّ الخلود في العذاب لا يكون إلاّ في النّار.

أقول الظّاهر من الآية أنّ السّؤال كان عن مدّة لبثهم في القبور لا في الدّنيا.

و قوله تعالىٰ: **كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ** لا دلالة فيه علىٰ ما ذكروه وذلك لأنّ اللّبث في القبر هو اللّبث في الأرض و عليه فالمراد (كم لبثتم في قبوركم) و إذا كان كذلك فالسّؤال متّوجهٌ الى المنكرين للبعث بعد بعثهم من القبور قبل خلودهم في النّار.

و قال بعضهم أنّ المراد مجموع اللّبث في الدّنيا و البرزخ و الحقّ ما ذكرناه واللّه أعلم.

و قوله: **لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** فالظّاهر أنّ المراد باليوم هو الواحد من أيّام الدّنيا وإنّما استقلوا اللّبث في الأرضً حينما قايسوه بالبقاء الأبدي الّذي يلوح لهم يوم القيامة، و قيل فيه أخبارٌ عن قصر المدّة و قلته لما مضى السُّرعة حصولهم فيما توعّدهم اللّه فيقول اللّه في الجواب:

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

كلمة إِنْ نافية أي ما كان لبثكم في الدّنيا أو في البرزخ **إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ففي الكلام تصديق لهم في قولهم: **لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**

قال المُفسّرين المعنىٰ أنّ الأمر كما قلتم أنّكم ما مكثتم إلاّ قليلاً فليتكم كنتم تعلمون في الدّنيا أنّكم لا تلبثون في قبوركم أو في حياتكم في الدّنيا إلاّ قليلاً ثمّ تبعثون حتّىٰ لا تنكروا البعث ولم تبتلوا بهذا العذاب الخالد إنتهى كلامه.

و قيل معنى الكلام ما كان لبثكم إلاّ قليل القدر في جنب ما تعّذبون فيه هذا إذا كان المراد اللّبث في الدّنيا و إن كان في القبور فالمعنى أنّ كلّ آتٍ قريب و لكنّكم كذّبتم به إذ كنتم لا تعلمون أي لم ترغبوا في العلم و الهدى.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْهُوَ أَقْرَبُ**[١].

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ

قوله: **عَبَثًا**، منصوبٌ على الحاليّة أي عابثين أو على أنّه مفعول من أجله أي ما خلقناكم للعبث و إنّما للتّكليف و العبادة، قال في المجمع العبث بالتّحريك اللّعب يقال عبث يعبث من باب علم عبثاً بالتّحريك أي لعب و عمل بما لا فائدة فيه كمن ينزف الماء من البحر الى البحر و هو عابث.

و قال الرّاغب في المفردات يقال لما ليس له غرضٌ صحيحٌ عبث، و قوله: ، **أَفَحَسِبْتُمْ**، الحسبة فعل ما يحتسب به عند اللّه تعالى و مصدره الحسبان و هو أن يحكم لأحد النّقيضين من غير أن يخطر الأخر بباله فيحسبه و يعقد عليه الأصبع.

أقول لعلّ الفرق بين الظنّ و الحسبان أنّ الظنّ يقال لما يخطر النّقيضان بباله فيغلب أحدهما على الأخر و أمّا الحسبان يقال لما يخطر أحد النّقيضين بباله دون الأخر فهو أضعف من الظنّ و إن شئت قلت الحسبان مرتبة الضّعيفة من الظنّ و حيث أنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً أي لا ينبغي الإعتماد عليه فالحسبان أولى بعدم الإعتماد و الهمَزة في قوله: **أَفَحَسِبْتُمْ**، للإنكار أو للتّقريع و التّوبيخ و الخطاب لمنكر البعث أينما وجد و المعنى ليس الأمر كذلك فأنّ اللّه تعالى أجّل

١- النّحل = ٧٧

شأناً و أعظم قدراً من أن يفعل عبثاً أي فعل لغواً لا فائدة فيه و يدلّ عليه العقل و النّقل.

أمّا العقل فلوجوهٍ:

أحدها: أنّ اللّه تعالى حكيم و الحكيم لا يفعل عبثاً فهو تعالى لا يفعل عبثاً، إمّا كونه حكيماً فلأنّ الحكمة إصابة الحقّ بالعلم والعقل و هي من اللّه تعالى معرفة الأشياء و إيجادها على غاية الأحكام، و أمّا أنّ الحكيم لا يفعل عبثاً فالوجه فيه أنّه منافٍ لحكمته و هي إصابة الحقّ بالعلم و العقل و العبث لا يكون حقّاً فثبت أنّ اللّه تعالى لا يفعل عبثاً و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ فعل العبث منشأه الجهل بعواقب الأمور أو الحماقة و السّفاهة فأنّ فعل العاقل معلل بالغرض العقلائي و اللّه تعالى منّزهٌ عن الجهل و غيره من النّواقص.

أمّا النّقل فمنه هذه الآية فأنّها صريحة في المدّعى، و قال اللّه تعالى: **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ**[1] وجه الدّلالة أنّ من ذمَّ العابث كيف يفعل عبثاً إذا عرفت هذا فنقول:

يستفاد من الآية أنّه لو لم يكن البعث للحساب يوم القيامة للزم أن يكون الخالق عابثاً في خلقه في دار الدّنيا و ذلك لأنّ اللّه تعالى أنكر على المنكرين و قال أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً أي ما خلقناكم عبثاً و حسبتم أي ظَّننتم أنّكم إلينا لا ترجعون، أي أنّكم ترجعون إلينا قطعاً فيلزم من البعث و الرّجوع إلىٰ اللّه أن لا يكون الخالق عابثاً و هو المطلوب.

و إن شئت قُلت قد ثَبَت عقلاً ونقلاً أنّ اللّه تعالىٰ لَم يخلق الخلق عَبثاً وإذا كان كذلك فالبعث مسلّمٌ لا كلام فيه.

إن قلت أيّة ملازمة بين البعث و عدم العبث.

١- الشّعراء = ١٢٨

قلت الملازمة قطعيّة إذ لو لم يكن البعث للثّواب و العقاب لا فائدة في الخلق و ما لا فائدة فيه عبث قطعاً فأنّ الإنسان لم يخلق للأكل و الشُّرب و النَّوم و غير ذلك ممّا هو مشتركٌ بين الإنسان و الحيوان قال اللّه تعالى: **وَ مٰا خَلَقْتُ اَلْـجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**[١] أي ليعرفون انّ الغرض الأصلي و المقصد العقلي من خلقهم هو المعرفة و لا نعني بها إلاّ التّوحيد و النّبوة و الإقرار بجميع ما جاء به النّبي من قبل اللّه تعالى المعبّر عنه بالدِّين و العقل يحكم بلزوم ما يترتّب عليه من الثّواب للمطيع و العقاب للعاصي و حيث أنّ الدّنيا دار مجاز و الأخرة دار قرار فالثّواب و العقاب في الأخرة فلو لم يكن بعد الموت حياة فلا ثواب و لا عقاب و لا نعني بالعبث إلاّ هذا و في قوله: **وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنٰا لاٰ تُرْجَعُونَ** إشارة إلىٰ القاعدة العقلّية المشهورة و هي كلّ شيءٍ يرجع إلى أصله قال اللّه تعالى: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ** و هو واضح.

فَتَعٰالَى اَللّٰهُ اَلْمَلِكُ اَلْحَقُّ لآٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ رَبُّ اَلْعَرْشِ اَلْكَرِيمِ

الفاء للتّفريغ و التّعالي مشتّقٌ من العُلو و هو ضدّ السُّفلى و معناه الإرتفاع و منه العلى و هو الرَّفيع القدر و إذا وصف اللّه تعالى به فمعناه أنّه تعالى يعلو أن يحيط به الوصف أي وصف الواصفين بل علم العارفين و على ذلك يقال تعالى اللّه عمّا يشركون، و تخصيص لفظ التّفاعل لمبالغة ذلك منه لا على سبيل التّكلف كما يكون من البشر، و قيل معناه، علا معنى صفته فوق كلّ صفةٍ لغيره فهو تعظيمٌ له تعالى بأن كلّ شئ سواه يصغر مقداره عن معنىٰ صفته، و الملك الحقّ هو الذّي يحقّ له الملك فكلّ ملكٍ غيره فملكه مستعار له و أنّما يملك ما ملّكه اللّه فكأنّه لا يعتدّ بملكه في ملك ربّه هكذا قيل في معنى الكلام و أنت ترى أنّ ما ذكره يناسب معنى الملكيّة أي أنّه تعالى مالك الأشياء حقيقةً و غيره ليس كذلك و بعبارةٍ أخرى هو المالك حقّاً و هو حقّ لا كلام فيه إلاّ أنّ البحث

١- الذاريات = ۵۶

ليس في المالك و الملك بل البحث في الملك لأنه تعالى لم يقل فتعالى اللّه المالك الحقّ بل قال فتعالى اللّه الملك الحقّ إذا عرفت هذا فنقول المَلِك بفتح الميم و كسر اللاّم هو المتصرّف بالأمر و النّهي في الجمهور و ذلك يختصّ بسياسة النّاطقين و لهذا يقال ملك النّاس و لا يقال ملك الأشياء كما يقال مالك الأشياء فقوله تعالى: **ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَق** معناه أنّه تعالى هو المتَّصرف بالأمر و النّهي بما يشاء و كيف يشاء وإلى هذا المعنى أشار من قال أنّ الملك إسمٌ لكلّ من يملك السياسة ثمّ أنّ الملك على ضربين، حقيقي و مجازي، و إن شئت قلت حقٌّ و باطلٌ، فالملك الحقّ هو الّذي لا سبيل للبطلان إليه و الباطل بخلافه فكلّ ملك غيره باطلٌ في ملكه كما قيل ألا كلّ شئ ما خلا اللّه باطلٌ و لذلك لا يقال هو الملك الحقّ، فالملك الحقّ هو اللّه تعالى لأنّ ملكه لا يزول فهو مالك الملوك حقّاً، و أمّا قوله: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ** فهو كالبرهان على كونه ملك الحقّ فكأنّه قيل أيّ دليل دَّل على أنّه الملك الحقّ فقال في الجواب لأنّه لا إله إلاّ هو، و الملك الحقّ لا يكون إلاّ اللّه الخالق المتصرّف في جميع الأمور و هو ربّ العرش الكريم و قد تكلّمنا في معنى العرش فيما مضى و لذلك أردف كلامه بقوله:

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ

الواو إستئنافيّة و من، شرطيّة مبتدأ و يدع فعل شرطٍ مجذومٌ بحذف حرف العلّة و الآية تدلّ على أنّه لا شريك له تعالى و معنى الكلام أنّ من دعا مع اللّه إلهاً سواه لا يكون له برهان على دعواه لأنّه باطل و قد أثبتنا ذلك غير مرّةٍ و قلنا أنّ كلّ موجودٍ غيره تعالى ممكن الوجود و كلّ ممكن في نفسه عاطلٌ باطلٌ فكيف يكون حقّاً و ما لا يكون حقّاً فلا برهان عليه فمن إتّخذ شريكاً له تعالى كافر و أنّ اللّه لا يفلح الكافر أبداً.

وَ قُلْ رَبِّ ٱغْفِرْ وَ ٱرْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ

أي قل يا محمّد **رَبِّ ٱغْفِرْ**، أي أغفر الذّنوب **وَ ٱرْحَمْ** أي أنعم على خلقك **وَ أَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ** أي أنت أفضل من رحم وأكثرهم نعمةً و أوسعهم فضلاً و أنظر إلى بلاغة الكلام فأنّ هذه السّورة إفتتحت بالإيمان لقوله تعالى: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ**(١) و إختتمت بالكفر قال اللّه تعالى: **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ ٱلْكافِرُونَ**(٢) ثمّ أمرنا بالدُّعاء فقال: «قُل ربِّ إغفر وإرحَم وأنتَ خير الرّاحمين» و فيه إشارة إلى أنّ العبد محتاج إلى ذلك لأنّه أمّا قاصرٌ في عبوديّته أو مقصّر و على التّقديرين يحتاج المغفرة و الرَّحمة و حيث لا غافر للذّنب إلاّ هو أمر نبيّه ظاهراً و جميع الأمّة واقعاً بهذا الدُّعاء.

قيل في هذه الآية و أمثالها ممّا لا يناسب شأن النّبي لمكان عصمته و أنّه لا يذنب حتّى يحتاج إلى المغفرة فالمراد بها الأمّة و كان الخطاب للنّبي.

أقول هذا ممّا لا إشكال فيه و الأحسن هو حمل الكلام على ظاهره و حمل الذّنب على ذنب العبوديّة و إن شئت قلت على الذَّنب الّذي يكون عن قصور لا عن تقصيرٍ حتّى ينافي العصمة و ذلك لأنّ العبد كائناً ما كان لا يقدر على معرفة اللّه تعالى حقّ المعرفة و إذا كان كذلك فلا يقدر على أداء حقّ العبوديّة و هذا هو الذّنب الإمكاني الّذي هو موجود في جميع الخلق حتّىٰ الأنبياء و لنعم ما قيل بالفارسيّة:

بنده همان به كه ز تقصير خويش   عــــذر بــدرگاه خــدا آورد
و رنـــه ســزاوار خــداونــد يش   كس‌نــتوانــد كــه بـجا آورد

و الحمد للّه ربّ العالمين و صلّى اللّه على محمّد وأله الطّاهرين.

■

١- المؤمنون = ١   ٢- المؤمنون = ١١٧

سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنٰاهٰا وَ فَرَضْنٰاهٰا وَ أَنْزَلْنٰا فِيهٰآ
آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ اَلزّٰانِيَةُ وَ
اَلزّٰانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وٰاحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ
لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اَللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ
عَذٰابَهُمٰا طٰائِفَةٌ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اَلزّٰانِي لاٰ
يَنْكِحُ إِلاّٰ زٰانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ اَلزّٰانِيَةُ لاٰ
يَنْكِحُهٰآ إِلاّٰ زٰانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى
اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَ اَلَّذِينَ يَرْمُونَ اَلْمُحْصَنٰاتِ
ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدٰاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمٰانِينَ
جَلْدَةً وَ لاٰ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهٰادَةً أَبَداً وَ أُولٰئِكَ
هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ اَلَّذِينَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ
ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَ
اَلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شُهَدٰاءُ إِلاّٰ أَنْفُسُهُمْ فَشَهٰادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ
شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ اَلصّٰادِقِينَ ﴿٦﴾ وَ

ٱلْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ إِنْ كٰانَ مِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذٰابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَ ٱلْخٰامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللّٰهِ عَلَيْهٰآ إِنْ كٰانَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ ﴿٩﴾ وَ لَوْلاٰ فَضْلُ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ ٱللّٰهَ تَوّٰابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

◀ اللّغة

سُورَةٌ: بضّم السّين و سكون الواو و فتح الرّاء المنزلة الشّريفة و المقام الرّفيع فسميّت السُّورة من القرآن بذلك لهذه العلّة.

فَرَضْنٰاهٰا: الفرض التّقدير في اللّغة.

ٱلزّٰانِيَةُ وَ ٱلزّٰانِي: الزّناء بالمَد و القصر قال الفّراء المقصور من زنىٰ، و الممدود من زانىٰ يقال زاناها مزأناةً و زناء، و هو في الأصل الفجور يقال زنىٰ بها إذا فجر و في العرف وطئ المرأة من غير عقدٍ شرّعي و التّاء في الزّانية قيل للمبالغة و قيل للتّأنيث إذ لا تطلق الزّانية إلاّ على المرأة التّي زنىٰ بها.

فَاجْلِدُوا: الجلد الضّرب يقال جلده أي ضرب جلده نحو بطنه و ظهره. رَأْفَةٌ: يقال رأف رأفة و معناها الرّحمة.

يَرْمُونَ: الرّمي القذف.

يَدْرَؤُا: الدّرء الدَّفع.

◀ الإعراب

سُورَةٌ بالرّفع خبر لمبتدأ محذوف أي هذه سورة و لا يكون مبتدأ لأنّها نكرة

ٱلزّٰانِيَةُ وَ ٱلزّٰانِي في رفعه وجهان:

أحدهما: هو المبتدأ و الخبر محذوف.

الثّاني: الخبر فأجلدوا و مِائَةَ وثَمَانِينَ ينتصبان إنتصاب المصادر وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ الرَّمي القذف وفي موضعه من حيث الإعراب وجهان:

أحدهما: الرَّفع و الأخر النَّصب أمّا الرّفع فعلى الإبتداء و الخبر محذوفٌ و قيل الخبر فأجلدوا و أمّا النَّصب فهو بفعلٍ دلَّ عليه فأجلدوا وَ أُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ حال أو جملة مستأنفة إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا هو إستثناء من الجمل التّي قبلها عند جماعة و من الجملة التّي تليها عند أخرين و موضع المستثنى نصب على أصل الباب و قيل موضعه الجرّ على البدل من الضّمير في لهم، و قيل موضعه الرّفع بالإبتداء و الخبر فَإِنَّ ٱللَّهَ و في الخبر ضمير محذوف أي غفورٌ لهم إِلَّا أَنْفُسُهُمْ هو نعتٌ لشهداء أو بدلٌ منه فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ المَصْدر مضاف إلى الفاعل و هو خبر مبتدأ محذوف أي فالواجب شهادة أحدهم، و قيل هو مبتدأ و الخبر محذوف اى فعليهم شهادة احدهم بالنصب على المصدر اى ان شهد احدهم اربع (باللّه) يتعلّق بشهادات عند البصريين و بشهادة عند الكوّفيين وَ ٱلْخَامِسَةُ مبتدأ أي و الشّهادة الخامسة و الخبر أَنَّ لَعْنَةَ ٱللَّهِ و أن تشهد، هو فاعل يدرؤ و باللّه، يتعلّق بشهادات وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ جواب لولا محذوف تقديره لهلكتم و لخرجتم.

◄ التّفسير

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

أي هذه سورةٌ أنزلناها عليك و فرضناها، الفرض من الفريضة أي فرض فيهما الحلال و الحرام و هو أي الفرض مأخوذ من فرض القوس و هو الحزّ الذّي فيه الوتر، و الفرض أيضاً نزول القرآن قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ**(١) أي أنزل هكذا قيل، ثمّ أنّ إبن كثير و أبو عمرو و من تابعهما قرأوا

١- القصص = ٨٥

بالتّشديد و هو عليه من باب التّفعيل و المعنى فصلناها و بيّناها بفرائض مختلفة و قيل معنى التّشديد حدّدنا فيها الحلال و الحرام و قيل معناه، جعلناها عليكم و على من بعدكم إلى قيام السّاعة.

و قلنا في شرح اللّغات أنّ السُّورة بضّم السّين، المنزلة الشّريفة كما قال الشّاعر:

ألم تر أنّ اللّه أعطاك سورةً ترىٰ كلّ ملكٍ دونها يتذبذب

فسميّت السُّورة من القرآن بذلك لهذه العلّة و الفرض في اللّغة التّقدير و يطلق على الواجب أيضاً و الفرق بينه و بين الواجب أنّ الفرض واجب بجعل الجاعل و الواجب قد يكون واجباً بغيره كوجوب شكر المنعم.، و قوله: **أَنْزَلْنَا فِيهَآ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ** و المراد بالأيات، الدّلالات الواضحات على ما يحتاج إلى علمه ممّا قد بيّنه اللّه في هذه السُّورة من الأحكام و قوله: **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**، معناه لكي تذّكرون، إذ التَّرجي لا معنى له في حقّه تعالى كما بيّناه و أوضحناه غير مرّةٍ و قلنا أنّه لا يخفى عليه شئ و التَّرجي لا يكون إلاّ من الجاهل بعواقب الأمور.

ٱلزَّانِيَةُ وَ ٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمٰا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لاٰ تَأْخُذْكُمْ بِهِمٰا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذٰابَهُمٰا طٰآئِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

هذه الآية إحدى الأيات التّي أشار اللّه تعالى إليها بقوله: **وَ أَنْزَلْنَا فِيهَآ آيٰاتٍ بَيِّنٰاتٍ**، قيل في وجه تقدّم الزّانية على الزّاني في الآية هو الإهتمام بشأنها لأنّ الزّناء فيهنّ أشنع و الشّهرة أكثر من حيث الحيل و لأنّ الغالب أنّها تعرض بنفسها و تدعو الرّجال إليها و قدَّم الزّاني في أية النّكاح لأنّها مسوقة لذكر النّكاح و الرّجل هو الأصل فيه و في الآية مسائل:

الأُولىٰ: الموجب للحدّ في الزّنا هو إيلاج الإنسان المكلّف المختار ذكره في فرج إمرأةٍ محرّمةٍ تحريماً أصليّاً من غير عقدٍ و لا ملكٍ و لا شبهةٍ و يتّحقق ذلك

بغيبوبة الحشفة من مقطوعها أو قدر الحشفة من مقطوعها قبلاً أو دبراً و إعتبار هذه القيود لا شبهة فيه عند الأصحاب و يشهد له مع كونه المتبادر من إطلاق الآية الأخبار فخرج بقيد الإيلاج و هو الدّخول عدم الإيلاج و بقيد المكّلف من لم يبلغ الحلم و بقيد المختار المضطّر و المكره و بقيد الذّكر غيره كالإصبع مثلاً و بقيد المحرّمة الأصليّة المحرّمة العارضيّة غير الأصليّة كما إذا كان التّحريم بسبب الصّوم في شهر الصّيام و خرج بقولهم من غير عقدٍ و لا ملكٍ ما إذا كانت المرأة معقودة عليها أو مملوكة و خرج بقوله و لا شبهة الوطئ بالشُّبهة كما إذا ظَّن أنّها إمرأته مثلاً و قولهم قبلاً أو دبراً يدلّ على أنّ الزّناء يتَّحقق بالإيلاج في القبل و الدُّبر فقط فإذا تحقّق الزّناء مع هذه الشّرائط وجب عليهما الحدّ على ما يأتي الكلام فيه.

الثّانية: أنّ الآية دلَّت بصريحها على جلد المائة خاصّة و باطلاقها على شمول الكافر و المسلم و المملوك و الحرّ و المحصن و غيره و كون المزّني بها من المحارم أم لا و لكن هذا الإطلاق مقيّدٌ بأشياء دلّ عليها الدّليل.

فمنها ما في صحيحة عبد اللّه بن سنان قال: قال أبو عبد اللّه **الرَّجم في القرآن للشّيخ و الشّيخة فأنّهما قضيا الشّهوة** إلى غير ذلك من الأخبار الدالّة على أنّه لا بدّ من تقييد الحكم بغير المحصن و المحصنة فأنّ الحكم فيهما إمّا بالرَّجم خاصّة مطلقاً أو هو مع جلد المائة مطلقاً و أنّ الجمع أنما هو في الشّيخ و الشّيخة و أمّا الشّاب و الشّابة فالرَّجم خاصّة و الحاصل أنّه لا خلاف عندنا أنّ الحكم في الآية مختصّ بغير المحصن و أمّا في صورة الإحصان فالحكم الرَّجم فإذا كانا محصنين أو كان أحدهما محصناً فعلى المحصن الرَّجم بلا خلاف و هذا أي حكم الرّجم للمحصن ممّا لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في جلد المائة مع الرّجم و عدمه فقال الشّيخ و من تبعه بالجلد أوّلاً و الرَّجم ثانياً في الشّيخ و الشّيخة و الشّاب و الشّابة و أكثر الأصحاب على أنّ الجمع مختصّ بالشّيخ و

الشّيخة و أمّا الشّاب و الشّابة فالرَّجم فقط دون جلد و هذا هو المشهور عند الأكثر و كيف كان لا شكّ عندهم بأنّ الآية أعني بها قوله: **مِائَةَ جَلْدَةٍ** لا تشمل المحصن بل هي خاصّة بغير الإحصان فأنّ الحكم في المحصن الرّجم بالإجماع المرّكب عند فقهاء الشّيعة و أنّما الخلاف في ضمّ الجلد و عدمه و لتوضيح المقال لابدّ لنا من بيان الإحصان فنقول:

قال الرّاغب في المفردات يقال حصان للعفيفة و لذات حرمة و الحصان في الجملة المحصنة إمّا بعفتّها أو تزَّوجها أو بمانع من شرفها و حريّتها.

و قال في المجمع أصل الإحصان المنع و أحصن الرّجل إذا تزَّوج فهو محصن بالكسر على القياس و محصن بالفتح على غير قياسٍ و حصنت المرأة بالضّم حصناً أي عفّت إنتهى هذا في اللّغة. و أمّا في الشّريعة فالمراد بالإحصان.

مارواه الشّيخ في الصّحيح من إسماعيل بن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له ما المحصن رحمك اللّه قال عليه السلام: من كان له فرج يغدوا عليه و يروح إنتهى.

و في صحيحة حريز قال سألت أبا عبد اللّه عن المحصن قال عليه السلام الذّي يزني و عنده ما يغنيه إنتهى.

و في موثقة إسحاق بن عمّار قال: سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الرّجل إذا هو زنى و عنده السّرية و الأمة يطأها تحصنه الأمة تكون عنده فقال: نعم أنّما ذاك لأنّه يغنيه عن الزّنا ثمّ قال فأن كانت إمرأة عنده متعة تحصنه قال عليه السلام: لا أنّما هو الدّائم عنده و من ذلك يعلم إحصان المرأة إنتهى.

و قال الشّيخ و جماعة و المرأة ليس عليها جز و لا تعزيب على المشهور خلافاً لإبن أبي عقيل، و أمّا العبد و الأمة فأنّهما يجلدان نصف الحدّ و إن كانا متزوّجين لقوله فعليهنَّ نصف ما على المحصنات من العذاب و للإجماع و الأخبار.

و أمّا إذا كان المزنّي بها إحدى المحارم كأمّه و أخته أو كان الزّاني بالمسلمة كافراً فأنّ الحكم في هذه الامور القتل و أن لم يكن محصناً و قيل يجب أن يجلدوا أوّلاً ثمّ يقتل جمعاً بين دلالة الآية و الرّوايات و فيه تأمّل و أمّا حدّ المريض فأنّه يضرب بالضَّغث المشتمل على العدد، و الزّناء في الأوقات الشّريفة كشهر رمضان أو الأمكنة المشّرفة فأنّه يحدّ بالحدّ المقّرر ثمّ يزاد عقوبةً بنظر الحاكم للشّرع إذا علمت ما تلوناه عليك فقد دريت أنّ الحكم في الآية مخصوص بغير ما ذكرناه و إستثنيناه.

الثّالثة: قوله تعالىٰ **وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ** الرّأفة الرَّحمة و قوله: **فِي دِينِ ٱللَّهِ** أي في طاعته و إقامة حدوده و حفظ دينه.

فقد روي الشّيخ بأسناده عن أميرالمؤمنين عليه السلام في قول اللّه: وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ قال عليه السلام: في إقامة الحدُود إنتهىٰ.

و حاصل المعنى أنّه لا يجوز لكم ترك إقامة الحدود للرّأفة و الرَّحمة ففيها دلالة على عدم جواز الشّفاعة في حدود اللّه كما تدلّ عليه الأخبار و يحتمل أن يكون المراد ما يشمل شدّة الجلد فالمعنى لا يجوز الرّأفة به و التّخفيف عنه بل يجب أن يضرب الزّاني ضرباً موجعاً شديداً مجّرداً من الثّياب على جميع جسده ما عدا الوجه و المذاكير.

ففي موثّقة إسحاق قال سألت أبا إبراهيم عليه السلام عن الزّاني كيف يجلد قال أشّد الجلد قلت من فوق الثّياب قال عليه السلام لا بل مجرّداً إنتهى.

و موثّقة سماعة عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: حَدّ الزّاني كأشّد ما كيون من الحدود إنتهى.

و في موثّقة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: يضرب الرّجل قائماً والمرأة قاعدة و يضرب على كلّ عضوٍ و يترك الوجه و المذاكير إنتهى.

و في روايةٍ أخرى يفرق على الجسد كلّه و يتّقي الفرج و الوجه و يضرب بين الضَّربين و إستثناء الوجه و المذاكير لا ينافي النّهي عن الرّأفة لأنّ المراد بها ما لم يكن مظنّة للإهلاك أو إفساد عضُو و الضّرب على هذه يحصل منه ذلك غالباً إنتهى.

أقول و من ثمّ ورد في الأخبار أنّه إذا كان الحدّ في البَّرد يؤخّر إلى إرتفاع النّهار و عكسه في الصّيف و تؤخّر الحامل إلى أن تضع حملها والمريض يؤخّر إلى البرء و نحو ذلك ممّن يمكن فيه حصول الفساد.

و في قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ**، دلالة علىٰ سلب الايمان بترك الحدّ كمّا أو كيفاً و لعلّ المراد به الكامل.

الرّابعة: في قوله **وَ لْيَشْهَدْ عَذاٰبَهُمٰا طَآئِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** والشّهُود الحضور أي يحضر إقامة الحدّ و إعتبر حضور الطّائفة لأجل الشّهرة و شيوع الأمر ليكون ذلك أشهر و أردع عن مخالفة حدود و اللّه و التّقييد بالمؤمنين لأنّهم المنتفعون و المتلّقون لأخذ الأحكام و قبولها أو لئّلا يمتنع الكفّار من الدّخول في الإسلام و من ثمّ يكره إقامة الحدّ في أرض العدّو ثمّ أنّ المراد بالطّائفة الجماعة و أقلّها الواحد ففي غوالي اللّيالي عن الباقر عليه السلام **أنّ أقلّ الطّائفة الحاضرة في الحَدّ هي الواحد** و به قال أهل اللّغة و في القاموس الطّائفة الواحد فصاعداً الى الألف و أقلّها رجلان أو رجل بمعنى النّفس و به قال الشّيخ في النّهاية و العلاّمة و ذهب في الخلاف أنّ الأقلّ عشرة و قال إبن إدريس أنّه ثلاثة لشهادة العرف بذلك و هو قويٌّ لإمكان حمل الأخبار على حال الضّرورة و عدم التّمكن و نسب الى إبن عبّاس أنّه أربعة و قيل إثنان لأنّه أقلّ الجمع.

ثمّ الأمر بإحضار الجماعة حال إقامة الحدّ الوجوب تشهد له ظواهر الأخبار و اليه ذهب جماعة من الأصحاب و قيل بالإستحباب و عليه أكثر العّامة، ثمّ أنّ هذا الحكم مختّص بالجلد دون الرّجم و قيل به في الرَّجم أيضاً و تفصيل الكلام

في نقل الأقوال في الفقه و هل النّهي و هو قوله: **وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ** للتّحريم أو الكراهة و جهان من حيث ظاهر النّهي و من اصالة عدم التّحريم قيل لا يعد تخصيصه بمن أقرَّ على نفسه دون من قامت عليه البيّنة و هل يفرق بين ما حصلت التَّوبة منها و غيره ظاهر الأخبار و الفتوى ذلك لأنّ ما تاب عنه فاعله سقط عنه بناءً على وجوب قبول التَّوبة كما يقتضيه ظاهر الأيات و كثير من الرّوايات.

تنبيهٌ:

المشهور عند الفقهاء أنّ الخطاب بذلك أي إقامة الحدود لأئـمة الشّرع و إدّعى بعضهم على ذلك إجماع الأمّة و من ثمّ إحتّج بذلك بعض المخالفين على وجوب نصب الإمام على الرَّعية نظراً الى أنّ ما لا يتّم الواجب إلاّ به فهو واجب.

و في رواية حفص بن قياش قال سألتُ أبا عبد الله عليه السلام من يقيم الحدود السّلطان أو القاضي فقال عليه السلام: إقامة الحدود الى من اليه الحكم و هو الإمام ومن نصبه بالخصوص إنتهى.

أقول الظّاهر أنّ المنصوب من قبل الإمام حكمه حكم الإمام يعني أنّه يقيم الحدود لأنّ الإمام عليه السلام جعله حاكماً لقول الصّادق عليه السلام في مقبولة عمر بن حنظلة ينظر الى من كان منكم ممّن روى حديثاً ونظر في حلالنا و حرامنا و عرف أحكامنا فليرضوا به حاكماً فأنّي قد جعلته عليكم حاكماً الحديث.

و مقتضى جعله حاكماً العموم الشّامل للحدود و غيرها.

و عن الدُّروس أنّ الحدود و التّعزيزات الى الإمام و نائبه و لو عموماً فيجوز حال الغيبة للموصوف بما ثبت في القضاء إقامتها مع المكنة إنتهى.

أقول ما ذكره في الدُّروس من أنّه تجب إقامتها مع المكنة حقٌّ لا مرية فيه سواء كان المنصوب من قبل الإمام عامّاً أو خّاصاً و أمّا في صورة عدمها فلا لأنّ

القدرة شرطٌ في التّكليف و للبحث فيه مقام آخر فأنّ إجراء الحدود موقوف على وجود الشّرائط أعني بها وجود المقتضي و رفع الموانع و هو في عصر الغيبة مشكل.

ٱلزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ ٱلزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

قال في المفردات أصل النّكاح للعقد ثمّ أستعير للجماع و محالٌ أن يكون في الأصل للجماع ثمّ أستعير للعقد لأنّ أسماء الجماع كلّها كنايات الأستقباحه ذكره لاستقاح تعاطيه و محالٌ أن يستعير من لا يقصد فحشا إسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه إنتهى.

ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى الآية.

فمنهم من قال أنّها نزلت على سبب و ذلك أنّه إستأذن رجل من المسلمين النّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج إمرأة من أصحاب الرّايات كانت تسامح فأنزل اللّه الأية.

و روي ذلك عن أبي عبد اللّه بن عمر و إبن عبّاس و قال حرَّم اللّه نكاحنّ على المؤمنين فلا يتّزوج بهنّ إلاّ زان أو مشرك.

و قيل النّكاح ها هنا المراد به الجماع و المعنى الإشتراك في الزّناء يعني أنّهما يكونان جميعاً زانيين و قد ضعَّف الطّبري ذلك و قال لا فائدة في ذلك فمن قال بالأوّل، قال الآية و أن كان ظاهرها الخبر فالمراد به النّهي و قال سعيد بن المسيب كان ذلك حكم كلّ زانٍ أو زانيةٍ ثمّ نسخ بقوله تعالى: **وَ أَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ ٱلصَّالِحِينَ**(١).

و به قال أكثر الفقهاء و عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ **أنّ الآية نزلت في أصحاب الرّايات فأمّا غيرهُنّ فأنّه يجوز أن يتّزوجها و أن كان الأفضل غيرها** و يمنعها من الفجور و في ذلك خلاف بين الفقهاء ذكره في التّبيان.

١- النّور = ٣٢

و قال صاحب الكشّاف الفاسق الخبيث الّذي من شأنه الزّنـاء و التّـقحب لا يرغب في نكاح الصّوالح من النّساء و اللاّتي على خلاف صفته و أنّما يرغب في فاسقةٍ خبيثةٍ من شكله أو في مشركة و الفـاسقة الخـبيثة المسـافحة كـلذلك لا يرغب في نكاحها الصّلحاء من الرّجال و ينفرّون عنها و أنّما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين و نكاح المؤمن الممدوح عند اللّه، الزّانية و رغبته فيها و إنخراطه بذلك في سلك فسقة التيمّين بالزّنا محرّم عليه محظور لما فيه من التّشبه بالفسّاق و حضور موقع التّهمة و التّسبب لسوء القالة فيه و الغيبة و أنواع المفاسد و مجالسة الخطائين كم فيها من التّعرض لإقتراف الأثـام فكـيف بمزاوجة الزّواني و القحاب و قد نبّه على ذلك بقوله: **وَ أَنْكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنْكُمْ وَ ٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَآئِكُمْ**(١) و ساق الكلام الى أن قال و قيل المراد بالنّكاح الوطئ و ليس بقولٍ لأمرين:

أحدهما: أنّ هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلاّ في معنى العقد.

الثّاني: فساد المعنى و إداءه الى قولك الزّاني لا يزني إلاّ بـزانـية و الزّانـية لا يزني بها إلاّ زانٍ و قيل نكاح الزّانية كان محرماً في صدر الإسلام ثمّ نسخ و الناسخ قوله: **وَ أَنْكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ** ثمّ أطال الكلام بما لا فائدة في نقله.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

ظاهر الآية و خاصّته بالنّظر الى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أنّ الّذي تشمل عليه حكمٌ تشريعي تحريمي و أن كان صدرها وارداً في صورة الخبر فأنّ المراد النّهي تأكيداً للطّلب و هو شائع و المحصّل من معناها بتفسيرٍ من السنّة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنّ الزّاني إذا إشتهر منه الزّناء و أقيم عليه الحدّ و لم تتّبين منه التّوبة يحرم عليه نكاح غير الزّانية و المشركة و الزّانية إذا إشتهر مـنها الزّناء و أقيم عليها الحدّ و لم تتّبين منها التّوبة يحرم أن ينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك

١- النّور = ٣٢

فالآية محكمة باقية على أحكامها من غير نسخ و لا تأويلٍ و تقييدها بإقامة الحدّ و تبيّن التّوبة يمكن أن يستفاد من السّياق فأنّ وقوع الحكم بتحريم النّكاح بعد الأمر بإقامة الحدّ يلوح أنّ المراد به الزّاني و الزّانية المجلودان و كذا إطلاق الزّاني و الزّانية على من إبتلى بذلك ثمّ تاب توبةً نصوحاً و تبيّن منه ذلك بعيدٌ من دأب القرآن و أدبه إنتهى كلامه رفع مقامه.

ثمّ شرع في نقل أقوال المُفسّرين وقال فيها ما قال.

و قال الطّبرسي ﷺ في تفسير هذه الآية أختلف في تفسيره على وجوهٍ.

أحدها: أنّ المراد بالنّكاح العقد و نزلت الآية على سببٍ الى آخر ما نقلناه عن التّبيان.

ثانيها: أنّ النّكاح هنا الجماع و المعنى أنّهما إشتركا في الزّنا فهي مثله فيكون قوله: **اَلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ** في أنّه خرج مخرج الأغلب.

ثالثها: أنّ هذا الحكم كان في زانٍ و زانية ثمّ نسخ بقوله: **وَ أَنْكِحُوا اَلْأَيَامَى مِنْكُمْ**.

رابعها: أنّ المراد به العقد وذلك الحكم ثابت فيمن زنا بإمرأةٍ فأنّه لا يجوز أن يتّزوج بها و روي ذلك عن جماعةٍ من الصّحابة و ساق الكلام الى أن قال في آخر كلامه و حقيقة النّكاح في اللُّغة الوطئ إنتهى.

و قد أطال الرّازي في تفسيره البحث في هذه الآية بما لا نحتاج الى نقلها و من أراد الوقوف على ما ذكره فعليه بكتابه و الّذي نفهم من الآيـة و اللّـه أعـلم بكلامه، هو أنّ الآية ليست بصدد بيان حكم من الأحكام الشّرعية و هو حـرمة النّكاح في الزّاني و الزّانية و ذلك لأنّ نكاح الزّاني للزانيّة لا إشكال فيه و أيـضاً ليست بصدد بيان و قوع هذا القسم من النّكاح و عدم و قوعه بل الآية مشعرة بأنّ الزّاني في الأغلب لا ينكح إلاّ زانية و الزانيّة فـي الأغـلب لا يـنكحها إلاّ زانٍ أو مشرك كما هو مقتضى قانون السّنخية و أنّما قلنا ذلك لأنّ الزّاني قد ينكح العفيفة

الصّالحة و الزّانية قد ينكحها العفيف الصّالح و لا إشكال فيه شرعاً فهذه الآية كقوله تعالىٰ:

ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ ٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ ٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ ٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ[1].

و سيأتي الكلام فيها و قانون السّنخية ممّا لا ينكر فليس في الآية حكمٌ حتّى يقال بأنّه باقٍ الى الآن أو لا و بعبارةٍ أخرى أنّ اللّه تعالى لم يحكم فيها بعدم جواز نكاح الزّاني للعفيفة الصّالحة و الزّانية للعفيف الصّالح بل أشار فيها الىٰ السّيرة المستّمرة و هذا ظاهر و لا يختّص هذه السيّرة بالنّكاح و لا بالإنسان بل هي جارية في الحيوان أيضاً و قوله في آخر الأية: **وَ حُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ليس المراد به حرمة التّشريع قطعاً بالإتّفاق إذ لم يقل أحد بحرمة النّكاح في المقام إلاّ من لا يعتنى بقوله و العجب من الرّازي حيث أنّه بعد نقله القول ببقاء الحكم الى الآن فيحرم على الزّاني و الزّانية التّزوج بالعفيفة و العفيف و بالعكس قال هذا مذهب أبي بكر و عمر و علّي و إبن مسعود و عائشة و لم يعلم أنّ أهل البيت أدرى بما في البيت و مذهب أهل البيت بخلافه و أمّا أبو بكر و عمر و غيرهما فهو أعلم بهما و لا بحث لنا معهم في المقام و اللّه أعلم.

وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ، إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

قيل هذه الآية نزلت في عائشة و قال الضّحاك في نساء المؤمنين و هو الأولى لأنّه أعمّ فائدة مضافاً الىٰ أنّ سبب النّزول لا يوجب تخصيصها به فالحكم عامٌّ ثمّ أنّ المراد بالمحصنات هنا العفائف من النّساء و في حكمهنّ الرّجال بدلالة الأخبار و الإجماع و لعلّ تخصيصهنّ بالذّكر بإعتبار سبب النّزول أو بإعتبار

١- النّور = ٢٦

الجري على الغالب فدلّت الآية على أنّه يشترط في المقذوف الّذي يجب الحّد بقذفه الإحصان و المراد بالإحصان هنا الجمع لأمور أربعة:

التّكليف، الحرّية، الإسلام و العفّة من الزّنا.

أي عدم التّجاهر بذلك فمن حصلت فيه الصّفات المذكورة وجب بقذفه الحّد و من فقدها أو بعضها فلا حّد بقذفه و لكن يجب التعزير للأخبار و إطلاق كلمات الأصحاب يقتضي أنّ المتّجاهر بالفسق كذلك في لزوم التعزير و لعّل وجهه عموم الأدلّة و قبح القذف مطلقاً بخلاف مواجهة المتظاهر به بغيره من أنواع الأذى كما عرفت و يظهر عن صحصحة بن سوهان و مرفوعة بن بزيع رجحان القذف فلا يكون القاذف له مستّحقاً للتعزير و هو المستفاد أيضاً من عموم رواية البرقي و الى ذلك قال الشّهيدان و هو الأقوى و إليه ذهب كثير من العّامة و أمّا إعتبار الأربعة الشّهداء و أن وقع مطلقاً إلاّ أنّ الرّوايات المتظافرة دلّت على إعتبار الإجتماع في وقت الإداء بل في وقت التّحمل كما قيل و أن يشاهدوا الميل في المكحلة و أن يكونوا عدولاً و إليه يذهب الأصحاب و كثير من العّامة و ذهب الشّافعي الى أنّه لا يشترط الإجتماع في الإداء فلو كانوا متّفرقين جاز و يقوم مقام الأربعة في دفع الحّد عنه ثلاثة رجال و إمرأتان بل رجلان و أربع نساء ففي حكم الأربعة في إسقاط الحّد عنه الإقرار و لو مرّة واحدة و أن لم يثبت على المقّر إلاّ بالتّكرار أربعاً و يجوز أن يكون الزّوج أحدهم و قد يظهر من تعّلق الرّمي بالمحصنات إنّ هذا الحقّ للمقذوف لأنّه هو الّذي يطالب بذلك و اليه العفو قبل ثبوته عند الحاكم و لو مات قبل الإستيفاء و كان هذا الحقّ للوارث ولو تعّدد المقذوف تعّدد الحّد و لو كان القاذف واحداً إلاّ إذا كان قد قذفهم جميعاً بكلمة كقوله أنتم زناة ثمّ أنّهم أتوا به مجتمعين لا متّفرقين فأنّ عليه في هذه الصّورة حدّاً واحداً و أمّا قوله تعالى: **وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا** فهو مطلق في جميع الأحوال سواء كان قبل الجلد أم بعده و ذلك لأنّه مصّرٌ قد فعل شيئاً نهاه اللّه عنه و أن كان صادقاً في نفس الأمر و من كان كذلك فهو فاسق إذا لم يأت

بالأربعة شهود كما قال اللّه تعالى: **وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ** فهو من قبيل العلّة لعدم الشّهادة.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إستثنى من عدم قبول الشّهادة و أن شئت قلت من الفاسقين، التّائب بعد الشّهادة فأنّ التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له فيدُّل الإستثناء على قبول الشّهادة منه بعد التَّوبة كما هو مذهب أصحابنا و به قال الشّافعي و أكثر التّابعين.

و قال أبو حنيفة، لا تقبل شهادته أبداً إلاّ أن يشهد قبل إقامة الحَّد عليه أو قبل تمامه بناءً على أنّ الواو في قوله: **وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ** للإستئناف و الإستثناء من الفاسقين و هذا القول ضعيف لأنّه لم يقم على إختصاص الإستثناء بالجملة الأخيرة دليل تّام و جواز الرّجوع الى الكُّل مجمعٌ عليه بين أهل الأصول و الإختلاف في كونه حقيقة أو مجازاً مضافاً الى أنّ الإستثناء من العِّلة و هي الفسق إستثناءٌ من المعلول أيضاً فأنّ المعلول و هو عدم قبول الشّهادة رشحٌ من رشحات العِّلة فالإستثناء من الجميع و هو المطلوب و في قوله تعالىٰ: **وَ أَصْلَحُوا** بعد قوله: **تَابُوا**، إشارة الى الصّلاح بعد التَّوبة بمعنىٰ أنّ التّائب بعد إقامة الحَّد عليه ينبغي أن يكون صالحاً من حيث الأعمال الدالّة على صدق ثبوته فأنّه تقبل شهادته حينئذٍ و يدلّ عليه الأخبار.

فقد روى الشّيخ في الصّحيح عن إبن سنان قال سئلت أبا عبد اللّه عن المحدود إذ تاب تقبل شهادته فقال عليه السلام أن تاب و توبته أن يرجع فيما قال و يكذب نفسه عند الإمام و عند المسلمين فإذا فعل ذلك فعلى الإمام أن يقبل شهادته بعد ذلك إنتهى.

و عن أبي الصّباح قال: سئلت أبا عبد اللّه عن القاذف بعد ما يقام عليه الحَّد فما توبته قال عليه السلام يكذب نفسه قلت أرأيت أن يكذب نفسه و تاب تقبل شهادته قال عليه السلام نعم إنتهى.

ثمّ أنّ ظاهر الأخبار أنّ القاذف يكذّب نفسه و أن كان صادقاً في نفسه كما أنّ الشُّهود أو واحداً منهم أنكروا ما رأوه كالميل في المكحلة لأجل بعض الدّواعي كالتَّهديد و التَّطميع و أمثال ذلك و من المعلوم أنّ الكذب في هذه الحال من الكذب القبيح و من ثمّ كان المشهور بين الأصحاب، لزوم التَّورية دفعاً لهذا المحذور و قيل لا يحتاج إليها لأنّه كاذبٌ شرعاً كما يظهر من الآية و تفصيل الكلام في الفقه و أمّا كيفيّة الجلد فقد ورد في الأخبار في كيفية جلد القاذف أنّه يضرب جسده كلّه فوق الثّياب و في خبرٍ آخر لا ينزع من ثيابه إلاّ الرّداء.

أن قلت لا شكّ أنّ القتل أشّد من الزّنا فكيف يكفي في القتل شاهدان و في الزّنا، أربعة:

قلت روي في العلل بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قيل له لما جعل في الزّنا أربعة من الشّهود و في القتل شاهدان فقال عليه السلام أنّ اللّه عزّ و جّل أحَلّ لكم المتعة و علم أنّها ستنكر عليكم فجعل الأربعة شهود إحتياطاً لكم و قلَّ ما يجتّمع أربعة شهادة بأمرٍ واحد إنتهى.

و في حديثٍ أخر لأنّ القتل فعلٌ واحد والزّنا فعلان فمن ثمّ لا يجوز إلاّ شهود أربعة إنتهى.

أقول هذا الحكم يدلّ على بطلان القياس في الأحكام الشّرعية، و أمّا قوله: **فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** فمعناه واضح فأنّ اللّه تعالى هو الّذي يقَبل التَّوبة من عباده و هو الّذي يغفر الذّنوب جميعاً و قد دَّلت عليه الأيات و الأخبار.

وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدٰآءُ إِلآَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهٰادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهٰادٰاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصّٰادِقِينَ

إعلم أنّ هذه الآية و ما بعدها نزلت في اللّعان و هو لغة الطَّرد و الإبعاد و شرعاً مباهلة خاصّة بين الزّوجين لنفي حدٍّ أو ولدٍ، فقوله: **وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوٰاجَهُمْ**، معناه رمى زوجته بالزّنا تلاعناً و كيفيّة الملاعنة أن يبدأ الرّجل

فيحلف أربع مراتب باللّه الّذي لا إله إلاّ هو أنّه صادق فيما رمى زوجته به و يحتاج أن يقول أشهد باللّه أنّي صادق لأنّ شهادته أربع مرّات تقوم مقام أربعة شهود في دفع الحدّ عنه ثمّ يشهد الخامسة أن لعنة اللّه عليه أن كان من الكاذبين كما يأتي و الحاصل أنّ الآية تضّمنت وجوب النّطق بالشّهادة و أن يبدأ الرّجل بالتّلفظ على التّرتيب المذكور و ان يعنيها بالذّكر و الإشارة وأن ينطق باللّفظ العرّبي مع القدرة و قد دلّ على ذلك روايات.

ما روي في الكافي في الحسن عن عبد الرّحمن بن الحجّاج قال: أنّ عبّاد البصري سأل أبا عبد اللّه و أنا حاضر كيف يلاعن الرّجل المرأة فقال أبو عبد اللّهعليه السلام: أنّ رجلاً من المسلمين أتى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول اللّه أنّى رأيت لو أنّ رجلاً دخل منزله فوجد مع إمرأته رجلاً يجامعها ما كان يصنع قالعليه السلام: فأعرض عنه رسول اللّه و أنصرف ذلك الرّجل و كان ذلك الرّجل هو إبتلى بذلك من إمرأته قال فانزل الوحي من عند اللّه عزّ وجلّ بالحكم فيهما فأرسل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم الى ذلك الرّجل فدعاه فقال أنت الّذي رأيت مع إمرأتك رجلاً فقال له نعم فقال صلى الله عليه وآله وسلم إنطلق فأتني بإمرأتك فأنّ اللّه قد أنزل الحكم فيها قال فأحضرها زوجها فأوقفهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال للزّوج إشهد أربع شهادات باللّه أنّك من الصّادقين فيما رميتها به قال فشهد ثمّ قال له إتّق اللّه فأنّ لعنة اللّه شديدة ثمّ قال إشهد الخامسة أنّ لعنة اللّه عليك إن كنت من الكاذبين قال فشهد ثمّ أمر به فنحى ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم للمرأة إشهدي أربع شهادات باللّه أنّه لمن الكاذّبين فيما رماك به قال فشهدت ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم لها إمسكي فوعظها و قال لها إتّق اللّه إنّ غضب اللّه شديد ثمّ قال لها إشهدي الخامسة أنّ غضب اللّه عليه إن كان

زوجك لمن الصّادقين فيما رماك به قال فشهدت ففرّق بينهما و قال صلّى الله عليه و آله و سلّم لا تجتمعا بنكاح أبداً بعد ما تلاعنتما إنتهى.

فدلّت الرّواية على أنّ المراد بهذه الشّهادة أن تكون بمعنى القسم و أنّ المراد بالأربع تكرارها و قرأ بالنّصب أي يكرّر أربع مرّات و بالّرفع على أنّه خبر شهادة أو هي أربع و في المقام أحكام لابدّ من التّنبيه عليها، الأوّل، إنّ للعان سببين.

أحدهما: نفي الولد المولود على فراشه في الزّمن الممكن إلحاقه به من زوجته الموطئة بالعقد الدّائم.

الثّاني: قذف الزّوجة بالزّناء مع إدّعاء المشاهدة و عدم البيّنة و ظاهر الآية و صريح الرّوايات دالّ على ذلك و ظاهر الصّدوق قدّس سرّه في الفقيه و هو المنقول عنه في المقنع حصره في الأوّل و هو ضعيف و يدلّ على إعتبار المشاهدة حسنة.

الحلبي و حسنة محمّد بن مسلم عنه عليه السلام أنّه قال: **لا يلاعنها حتّى يقول رأيت بين رجليها رجلاً يزني أو رأيتك تفعلي كذا و كذا** و على هذا ينحصر لعان الأعمى بالأوّل.

و قال بعض المحقّقين فيه تأمّل و ذلك لأنّ قوله تعالى في الأية: **إِلَّآ أَنْفُسُهُمْ** شاملٌ لما إذا حصل العلم بغير الرّؤية كما هو المعتبر في مطلق الشّهادة و الإمكان حمل الرّوايتين و نحوهما على التّمثيل بما أفاد العلم فالقول بجواز اللّعان مع دعوى العلم و أن لم يكن طريقة المشاهدة البصرية قوّيٌ إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول ما ذكره المشهور هو المتبع لأنّ الشّهادة من الشّهود و هو الحضور فلا تصدق على العلم الحاصل من غير الرّؤية و قوله كما هو المعتبر في مطلق الشّهادة، أوّل الكلام أليس للشّاهد بأن يشهد في الزّناء أنّه رأى كالميل في المكحلة فلو كان العلم كافياً في الشّهادة لم يحتج الى هذا القيد فالحقّ أنّ الرّؤية البصرية معتبرة في تحقّق الشّهادة و للبحث فيه مقام آخر ثمّ إنّ (إلاّ) في قوله: **شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنْفُسُهُمْ**، قيل أنّها للإستثناء المتّصل، و قيل أنّها للمبالغة في نفي

الشّاهد أي ليس لهم على ما إدّعوه شهداء رأساً فأنّ النُّفوس مدعيّة لا شاهدة و مقتضاها أنّه لا يشرع اللّعان مع وجود الشّاهد مطلقاً و لذلك إختلف أصحابنا في إشتراط ذلك في صحّة اللّعان فقال بعضهم هو شرط فلا يشرع اللّعان مع وجود البيّنة كما يقتضيه ظاهر الآية و قال آخرون بجوازه في هذه الحال و أجابوا عن الآية بأنّ دلالتها من حيث مفهوم الوصف و ليس بحجّةٍ و لو سلّم يجوز أنّه خرج مخرج الغالب من عدم القدوم على ذلك مع وجودها و لتركه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الإستفعال في الرّواية المذكورة و هو دليلٌ على الجواز مع وجود النيّنه.

الثّالث: ظاهر الحصر يقتضي قبول شهادة الأربعة أحدهم الزَّوج و يدلّ عليه ما رواه الشّيخ بأسناده عن أبي عبد الله عليه السلام **عن أربعة شهدوا على إمرأةٍ بالزّنا أحدهم زوجها قال عليه السلام تجوز شهادتهم لها إنتهى.**

و به قال أكثر الأصحاب و هو المشهور بينهم، و قال بعضهم لا تقبل بل يلاعن الزّوج و يجلد الباقون لرواية زرارة و الحقّ أنّ الكلّ مشترك في ضعف السّند فالعمل بظاهر القرآن أولى كما سيأتي في قوله:

ٱللَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ(١).

الرابع: في الآية اشعار بكون المرأة مدخولاً بها و عليه دَلّت الرّوايات الكثيرة المتَّضمنة أنّه لا يكون لعان إلاّ مع المدخول به و به قال الأكثر و قيل بعدم الإشتراط و إختاره إبن إدريس لإطلاق الآية.

الخامس: يظهر من الآية إشتراط كون الملاعن بالغاً عاقلاً مختاراً و لا يشترط كونه حرّاً و لا مسلماً لإطلاق الآية و دلالة الأخبار عليه و هكذا يظهر منها كون الملاعنة بالغة عاقلة لأنّ العذاب و دراه فرع التّكليف و هو مقطوعٌ به وقد يلوح من قوله: أن تشهد إشتراط السّلامة من الصّمم و الخرس و عليه دلّت

١- النّساء = ١٥

الرّوايات و إطلاق الآية يدلّ على تناولها الزّوجة المملوكة أيضاً و قيل لا يقع بين الحرّ و المملوكة، و قيل يقع بينهما بنفي الولد دون القذف.

السادس: مقتضى الآية و الأخبار الواردة أنّه بالقذف مع عدم البيّنة يجب عليه الحدّ ثمانين جلدة فإذا لاعن درأ عنه الحدّ فيجب ذلك على المرأة إذا إعترفت أو نكلت عن اللّعان فإذا لاعنت درأته عن نفسها فتحرم عليه أبداً و لا توارث بينه و بين الولد و كذا أقارب الأب نعم لو أقّر به بعد ذلك ورثه الولد قطعاً دون العكس و في تعدّي الحكم إلى أقارب الأب إشكال و يقع التّوارث بين الولد و بين أمّه مطلقاً و بينه و بين أخواله إن أقّر به الأب و إلاّ فيورثه قطعاً.

السابع: ظاهر إطلاق الآية أنّه لا حدَّ عليها بعد صدور اللّعان منها و إن أقّرت أربع مرّات و قيل يجب عليها الحدّ لعموم الأدلّة.

الثامن: الملاعنة و إبنها لا يجوز قذفهما و من قذف أحدهما فعليه الحدّ و يدلّ على ذلك النّصوص الواردة عن أهل العصمة عليهم السّلام ثمّ أنّ ما ذكرناه من الأقوال في اللّعان نقلناه عن أيات الأحكام للجزائرى قدس سره(١).

و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الأيات بعد بيان كيفيّة اللّعان و حكمه و ما يتعلّق به فنقول قوله تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ** أي يقذفون أزواجهم بالزّناء **وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ** أي للقاذفين **شُهَدَآءُ**، على القذف، **إِلَّآ أَنْفُسُهُمْ**، الإستثناء متّصلٌ **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ**، أي شهادة أحد القاذفين **أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ**، أي نحسب شهادة أحدهم مكان أربع شهادات الّتي تعتبر في إثبات الزّناء **بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ** أي يجب أن يشهد باللّه لا بغيره و ظاهر الكلام أنّ الشّهادة بغيره من أسماء اللّه لا تجوز مثل الرّحمن و الرّحيم و الغفّار و غيرها فأنّ القسم الشّرعي لا يتحقّق إلاّ بإسم الجلالة و قوله: **لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ**، معناه أُقسم باللّه إنّي صادق في القذف.

١- ص ٣٣٢

وَ ٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ، وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ، وَ ٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ

وَ ٱلْخَامِسَةُ أي الشّهادة الخامسة **أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ** أي على القاذف إن كان، في قذفه، **مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ، وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ** أي يَرفع العذاب عن الزّوجة الملاعنة **أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ** أي القاذف **مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ وَ ٱلْخَامِسَةُ** أي تشهد شهادةً خامسة بعد الأربع **أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ** أي على المرأة المقذوفة **إِنْ كَانَ** القاذف **مِنَ ٱلصَّادِقِينَ** و قد مرَّ الكلام في الأيات بما لا مزيد عليه ثمّ قال تعالى:

وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ

قيل جواب، لولا، محذوف و تقديره لولا فضل اللّه عليكم و رحمته لفضحكم بما ترتكبون من الفاحشة و لعالجكم بالعقوبة و ما يجري مجراه و مثله قولهم لو رأيت فلاناً و في يده السّيف، أي لرأيت شجاعاً هكذا قيل و الأمر سهل إذ لا شكّ أنّ اللّه تعالى دائم الفضل على البّرية و قد ورد في الدُّعاء عاملنا بفضلك و لا تعاملنا بعدلك و من المعلوم المسلّم أنّ اللّه تعالى أرأف و أشفق بعباده من الوالد الشَّفيق بولده و أمّا قوله: **وَ أَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ،** قال الرّاغب في المفردات التّواب العبد الكثير التَّوبة و قد يقال للّه ذلك لكثرة قبوله توبة العباد حالاً بعد حالٍ إنتهى.

و على هذا فمعنى التّواب في حقّه تعالى هو أنّه يقبل التّوبة عن عباده كثيراً و أنّه تعالى حكيمٌ أي يضع كلّ شيئ في موضعه.

تنبية:

قال بعض المحقّقين المراد بقبول التّوبة إسقاط العقاب بها و هذا المعنى ممّا أجمع عليه علماء الإسلام و أنّما الخلاف في أنّه هل يجب على اللّه القبول حتّى

لو عاقب بها بعد التّوبة كان ظلماً أو هو تفَضّلٌ منه و رحمة و كرمٌ لعباده فالمعتزلة على الأوّل و الأشاعرة على الثّاني و هو الّذي إختاره الشّيخ أبو جعفر الطُّوسي في كتاب الإقتصاد و العّلامة في بعض كتبه و توَّقف الطُّوسي في التّجريد إنتهى.

أقول يمكن الإستظهار من الآية أنّ القول الثّاني أقوى و ذلك لأنّه تعالى جمع فيها بين التَّفضل و التَّوبة فأثبت أوّلاً التَّفضل و قال لولا فضل اللّه عليكم.

ثانياً: قبول التّوبة بقوله و أنّ اللّه توّابٌ حكيم فيصير المعنى أنّ قبول التّوبة منه تعالى للتَّفضل و هو المطلوب.

إن قلت قوله: **تَوّٰابٌ**، من صيغ المبالغة أي كثير التَّوبة و هو لا يعقل في حقّ اللّه تعالى بل يليق بشأن العبد المذنب.

قلت لا شكّ في أنّه من صيغ المبالغة و أمّا القول بأنّه لا يجري في اللّه فليس كذلك فأنّه تعالى رجّاعٌ على العباد بالمغفرة فالتّواب من النّاس الرّاجع إلى اللّه و من اللّه الرّاجع إلى المغفرة.

■

إِنَّ ٱلَّـذِينَ جَآءُو بِـالْإِفْكِ عُـصْبَةٌ مِـنْكُمْ لَا
تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُـوَ خَـيْرٌ لَكُـمْ لِكُـلِّ
ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلَّـذِي
تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَآ إِذْ
سَـمِعْتُمُوهُ ظَـنَّ ٱلْـمُؤْمِنُونَ وَ ٱلْـمُؤْمِنَاتُ
بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هٰـذَآ إِفْكٌ مُـبِينٌ ﴿١٢﴾
لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا
بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ هُـمُ ٱلْكَـاذِبُونَ
﴿١٣﴾ وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِي
ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِـيهِ
عَذَابٌ عَـظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَـلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِـنَتِكُمْ وَ
تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَـيْسَ لَكُـمْ بِـهِ عِلْمٌ وَ
تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَـظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَ
لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَآ أَنْ نَتَكَلَّمَ
بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ
ٱللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ
﴿١٧﴾ وَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَ ٱللّٰـهُ عَـلِيمٌ
حَكِـيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّـذِينَ يُـحِبُّونَ أَنْ تَشِـيعَ
ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِـيمٌ
فِي ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْـتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَ لَوْلَا فَـضْلُ ٱللّٰـهِ عَـلَيْكُمْ وَ
رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

الْإِفْكِ: بكسر الهَمَزة و سكون الفاء و الكاف كلّ معروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلة من المهاب مؤتفكة و منه قوله: **قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**(١) أي أنّى يصرفون عن الحقّ في الإعتقاد إلى الباطل.

عُصْبَةٌ: العصبة بضّم العين و سكون الصّاد الجماعة يقال تعَصّب القوم إذا إجتمعوا على هيئة فشّد بعضهم بعضاً و العصبة في النّسب العشيرة المقتدرة.

اَلْاِثْمِ: بكسر الهَمَزة الذّنب.

كِبْرَهُ بكسر الكاف و فتح الباء مصدر من معنى الكبير من الأمور قال أبو عبيدة فرّقوا بينه و بين مصدر الكبر في السّن يقال فلان ذو كبر اى ذو كبرياء.

بُهْتَانٌ: بضّم الباء الكذب الّذي فيه مكابرة تحيّر يقال بهته يبهته بهتاً و بهتاناً إذا حيّره بالكذب عليه.

اَلْفَاحِشَةُ: الفحش القبيح و الباقي واضح.

◀ الإعراب

عُصْبَةٌ مِنْكُمْ هي خبر، إنّ، و منكم نعتٌ لها. لَا تَحْسَبُوهُ مستأنف و الهاء ضمير الإفك أو القذف إِذْ تَلَقَّوْنَهُ العامل في، إذ، مسكم أو أفضتم **أَنْ تَعُودُوا** مفعول له و التّقدير كراهة أن تعودوا.

◀ التّفسير

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ

١- التّوبة = ٣٠

إعلم أنّ هذه الآية و الأيات بعدها في قصّة الإفك و هي مشهورة ذكرها البخاري و مسلم و غيرهما من المؤرخين بتفصيلها و من أراد الوقوف عليها كذلك فعليه بالكتب الموضوعة لهذه الأمور و نحن نشير اليها إجمالاً على ما ذكره القرطبي في تفسيره لهذه الآية قال ما هذا لفظه.

الثّالثة، لمّا خرج رسول اللّه ﷺ بعائشة معه في غزوة بني المطلق و هي غزوة المريسيع و قفل و دنا من المدينة آذن ليلة بالرّحيل قامت حين آذنوا بالرّحيل فمشت حتّى جاوزت الجيش فلمّا فرغت من شأنها أقبلت الى الرّحيل فلمست صدرها فإذا حقدٌ من جزع ظفّار قد إنقطع فرجعت فإلتمسته فحبسها إبتغاءه فوجدته و إنصرفت فلم تجد أحداً و كانت شابّة قليلة اللّحم فرفع الرّجال هودجها و لم يشعروا بزوالها منه فلمّا لم تجد أحداً إضطجعت في مكانها رجاء أن تفتقد فيرجع اليها فنامت في الموضع و لم.

يوقظها إلاّ قول صفوان بن المعطّل، **إِنَّا لِلّٰهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**، و ذلك أنّه كان تخلّف وراء الجيوش (الجيش) لحفظ السّاقة و قيل أنّها إستيقظت لإسترجاعها و نزل عن ناقته و تنحى عنها حتّى ركبت عائشة و أخذ بقودها حتّى بلغ بها الجيش في نحر الظّهيرة فوقع أهل الإفك في مقالتهم و كان الّذي يجتمع اليه فيه و يستويشه و يشعله عبد اللّه بن أبي بن سلول المنافق و هو الّذي رأىٰ صفوان آخذاً بزمام ناقة عائشة فقال و اللّه ما نجت منه و لا نجى منها و قال إمرأة نبيّكم باتت مع رجل و كان من قالته حسّان بن ثابت و مسطح بن أثاثة و حمنة بنت جحش هذا إختصار الحديث و هو بكماله و إتقانه في البخاري و مسلم و هو في مسلم أكمل و لمّا بلغ صفوان قول حسّان في الإفك جاء فضربه بالسّيف ضربةً على رأسه و قال:

تلّق ذباب السّيف عنّي فأنّنى غلامُ إذا هو حبيت ليس بشاعرٍ

و أخذ جماعة حسّان و لببّوه و جاؤوا به الى رسول اللّه ﷺ فأهدر رسول

اللّه صلى الله عليه وآله وسلم جرح حسّان و إستوهبه أيّاه و هذا يدلّ على أنّ حسّان ممّن تولّى الكبر على ما يأتي و اللّه أعلم، إنتهى ما نقله القرطّبي في تفسيره.

و قال الزّمخشري في الكشّاف العصّبة الجماعة من العشرة الى الأربعين و كذلك العصابة، و أعصو صبوا إجتمعوا و هم عبد اللّه بن أبّي رأس النّفاق و زيد بن رفاعة و حسّان بن ثابت و مسطح بن أثاثة و حمنة بنت جحش و من ساعدهم إنتهى.

إذا عرفت قصّة الإفك إجمالاً فلنرجع الى تفسير الآية و نقول قوله: **إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ** هو عبد اللّه أبّي و من كان معه وأنّما عبّر عنهم بالعصبة لكونهم مجتمعين على القول بالإفك.

و قوله: **لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** قيل الخطاب لعائشة و أهلها و صفوان و المعنى لا تحسبوا الإفك شّراً لكم بل هو خيرٌ لكم لرجحان النَّفع و الخير على جانب الشّر و ذلك لأنّ اللّه يبرئ ساحته ببرائتها و ينفعها بصبرها و إحتسابها و يلزم أصحاب الإفك ما إستَّحقوه بالإثم الذّي إرتكبوه كما قال: **لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ** أي لكلّ واحدٍ من أصحاب الإفك عقابه يوم القيامة بسبب العصيان الّذي إرتكبه **وَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ** المراد بالموصول هو إبن أبّي بن سلول فأنّه الّذي توّلى و تحمَّل ذلك أوّلاً و أنّما قال كبره منهم، لأنّه كان كبير قومه و قرأ أبوجعفر المدني كُبِره بضّم الكاف و الباقون بكسرها فالكُبَر بضّم الكاف من كبر السِّن و هو كان كذلك و كيف كان لا خلاف عند المفسّرين في أنّ المراد بالكبر هو إبن أبّي سلول.

و نقل عن عايشة أنّه حسّان و أنّها قالت حين عمي حسّان، لعلَّ العذاب العظيم الّذي أوعده اللّه به هو ذهاب بصره رواه عنها مسروق و المشهور هو القول الأوّل حكى أبو عمرو بن عبد البّر أنّ عائشة برئت حسّان من الفرية و قالت أنّه لم يقل شيئاً وقد أنكر حسّان أيضاً أن يكون قال شيئاً من ذلك في قوله:

حـــصانٌ رزانٌ مـــا تـزَّن بـريبةٍ و تصبح غرقى من لحوم القوافل
حليلة خير النّـاس ديناً و منصباً تبي الهدى و المكرمات الفواضل
عـقيلة حـيٍّ مـن لؤيٍ بن غالبٍ كرام المساعي مجدها غير زائلٍ
مـهذبةٍ قـد طـيَّب اللّـه خـيمها و طـهَّرها مـن كـلّ شينٍ و باطلٍ
فأن كـان مـا بـلغّت أنّـي قـلته فـلا رفـعت سـوطي إلَّـي أناملى
فكيف و ودّي ما حييت و نصرتي لأل رسـول اللّـه زيـن المـحافل
له ربٌّ عـالٍ عـلى النّـاس فضلها تــقاصر عـنها سـورة المـتّطاول

قيل أنّه لمّا أنشدها، قالت له عائشة لست كذلك هذا ما ذكره القرطبي و اللّه أعلم.

وإعلم أنّهم إختلفوا هل حدَّ النّبى أصحاب الإفك على قولين:

أحدها: أنّه لم يحدّ أحداً من أصحاب الإفك لأنّ الحدود أنّما تقام بإقرارٍ أو بيّنةٍ و لم يتعبّده اللّه أن يقيم بإخباره عنها كما لم يتعبّده بقتل المنافقين و قد أخبره بكفرهم.

الثّاني: أنّ النّبي ﷺ حدَّ أهل الإفك عبد اللّه بن أبّي و مسطح بن أثاثة و حسّان بن ثابت و حمنة بنت جحش و في ذلك قال الشّاعر:

لقــد ذاق حسّــان الّــذي كـان أهله و حـمنة إذ قـالوا هـجيراً و مسطحُ
وإبــن ســلولٍ ذاق فــي الحـدّ خـزية كما خاض في إفكٍ من القول لفصح
تـعاطوا بـرجم الغـيب زوج نـبيّهم و سخطة ذي العرش الكريم فأبرحوا
و أذوا رســول اللّــه فــيها فـجّللوا مــخازي تــبقى عـمّوها فـضّحوا
فــصُّب عــليهم مــحصدات كأنّــها شأبيب قطرٍ من ذرى المزن تسفح

قال القرطبي بعد نقله ما نقلناه و الأشعار.

قلت المشهور من الأخبار و المعروف عند العلماء أنّ الّذي حدَّ حسّان و مسطح و حمنة و لم يسمع بحدٍّ لعبد اللّه بن أبّي إنتهى كلامه في المقام.

أنا أقول ما ذكره القرطبي و سمّاه بالمعروف عند العلماء لا دليل عليه و لعلّ المقصود من العلماء في كلامه علماء القرطبة و على فرض صحّة نقله لم لم يحدّ عبد اللّه إبن أبّي و هو رأسهم و رئيسهم بل هو أوّل من قال بالإفك و من المعلوم أنّ تعطيل الحدّ لا يجوز و لا سيّما على رسول اللّه هذا كلّه مضافاً إلىٰ أنّ الحدود لا تقام إلاّ بإقرارٍ من القاذف أو بيّنةٍ و كلاهما مفقودان في المقام اللّهم إلاّ أن يقال في المقام و أمثاله بالتّعزير حسب ما يراه الحاكم وكيف كان لا يهمّنا البحث فيه.

قال الرّازي في المقام أجمع المسلمون على أنّ المراد ما أفك به على عائشة و أنّما وصف اللّه ذلك الكذب بكونه إفكاً لأنّ المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوهٍ:

أحدها: أنّها كانت زوجة للرّسول المعصوم و العصمة تمنع من ذلك لأنّ الأنبياء مبعوثون إلى الكفّار ليدعوهم و يستعطفوهم فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم و كون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنّفرات فأن قيل كيف يجوز أن تكون إمرأة النّبي كافرة كإمرأة نوح ولوط و لم يجز أن تكون فاجرة و أيضاً لو لم يجز ذلك لكان الرّسول أعرف النّاس بإمتناعه و لو عرف ذلك لما ضاق قلبه و لما سأل عائشة عن كيفيّة الواقعة.

قلنا الجواب عن الاوّل، أنّ الكفر ليس من المنفرات أمّا كونها فاجرة فمن المنفرات و عن الثّانى، أنّه عليه السّلام كثيراً ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفّار مع علمه بفساد ذلك الأقوال.

ثانيها: أنّ المعروف من حال عائشة قبل ذلك أنّما هو الصّون و البعد من مقدّمات الفجور و من كان كذلك كان اللاّئق إحسان الظنّ به.

ثالثها: أنّ القاذفين كانوا من المنافقين و أتباعهم و قد عرف أنّ كلام العدو المفتري ضربٌ من الهذيان فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي إنتهى ما أردنا ذكره.

أقول ما ذكره في برائتها غير معتمدٌ فأنّ عائشة لم تكن معصومة و غير المعصوم كائناً من كان يجوز عليه الخطأ و الّذي يعتمد عليه في المقام في براءة ساحتها هو الوحي لا ما ذكره الرّازي و بعد نزول الوحي فصرف الكلام و الإعراض عمّا قيل أو يقال في هذا الباب أولى و قد ذكر الرّازي قصّة الإفك بوجهٍ أبسط و قال في أواخر القصّة نقلاً عن عائشة ما يفضي إلى التّعجب أن شئت فراجع كتابه.

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَ قَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ

قيل معنى الكلام هلاّ حين سمعتم هذا الإفك من القائلين ظنّ المؤمنون بالمؤمنين الذّين هم كأنفسهم خيراً لأن المؤمنين كلّهم كالنّفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور فإذا جرى على أحدهم محنة فكأنّه جرى على جماعتهم فهو كقوله: **فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ**[١].

هذا ما قاله مجاهد و في، لولا، بمعنى، هلاّ، قال الشّاعر:

يعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم — بني ضوطري للوا الكّمي المقنّعا

أي فهّلا تعدون قتل الكمي و قوله تعالى: **وَ قَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ** معناه و هلاّ قالوا هذا القول كذبٌ ظاهرٌ و معنى ظنّ المؤمنون بأنفسهم خيراً، أي كان يقيس فضلاء المؤمنين و المؤمنات هذا الأمر على أنفسهم فإذا كان ذلك يبعد عليهم قضوا بأنّه في حقّ غيرهم أبعد، و قيل معنى بأنفسهم أمّهاتهم و قيل بأهل دينهم و قيل غير ذلك و الحاصل من جميع الأقوال هو أنّ المؤمنين كالنّفس الواحدة فينبغي للمؤمن أن يرضى لغيره ما يرضى لنفسه و إذا كانوا كذلك فلا محالة يقولون هذا إفكٌ مبين، أي كذبٌ ظاهر لا خفاء فيه.

١- النّور = ٦١

لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَـٰئِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ

جعل اللّه تعالى فصلاً بين الرَّمي الكاذب و الرَّمي الصّادق بثبوت أربعة شهداء و إنتفاؤها فإذا لم يأتوا بها فهم في حكم اللّه و شريعته كاذبون و هذا توبيخٌ و تصنيفٌ للّذين سمعوا الإفك و لم يجدوا في دفعه و إنكاره و إحتجاجٌ عليهم بما هو ظاهرٌ مكشوف في الشّرع من وجوب تكذيب القاذف بغير بيّنةٍ و التّنكيل.

وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيا وَ ٱلْأٰخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قيل في معناه لولا فضل اللّه في الدُّنيا بالنِّعم التّي منها الإمهال للتّوبة و رحمته عليكم في الأخرة بالعفو و المغفرة، لمَّسكم العذاب فيما خضتم فيه من حديث الإفك يقال أفاض في الحديث و إندفع و هضب و خاض و قيل في الآية تقديم و تأخير و تقديره و لولا فضل اللّه عليكم و رحمته لمَّسكم فيما أفضتم فيه عذابٌ عظيم في الدّنيا و الأخرة.

و للجبائي في المقام كلام لا بأس بذكره و هو أنّ الآية دالّة على كذب من قذف عائشة و أفك عليها و أمّا في غيرها إذا رماها الإنسان فأنّا لا نقطع على كذبه عند اللّه و أن أقمنا عليه الحدّ و قلنا هو كاذبٌ في الظّاهر لأنّه يجوز أن يكون صادقاً عند اللّه إنتهى كلامه.

و لقائلٍ أن يقول ما الفرق بين عائشة و غيرها في المقام فأنّ هذا الحكم جارٍ في عائشة و غيرها اللّهم الا أن يقول الجبائي بعصمة عائشة و لا يقول بها من أمن باللّه و اليوم الأخر فأنّ مقام العصمة في الإسلام تختّص بالزّهراء سلام اللّه عليها بشهادة أية التّطهير و أمّا غيرها فلا نعم دلّت الآية على عدم قبول قول القاذف بمجرّد الرّمي بالقذف و لا فرق فيه بين عائشة و غيرها و هذا ظاهر و تفصيل الجبائي بينها و بين غيرها لا محلّ له.

إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ

العامل في، إذ، لمَّسكم و تقدير الكلام، لمَّسكم عذابٌ عظيم حين تـلَّقونه بألسنتكم و معناه برواية بعضكم عن بعض لتشييعه في قول مجاهد.

و روي عن عائشة أنّها قرأت، تِلِقُونه، بفتح التّاء و كسر اللاّم و ضمّ القاف من ولق الرّجل إذا كذب حكاه أهل اللّغة و قيل هو الإستمرار على الكذب و منه، ولق، فلان في السَّير إذا إستَّمر به.

أقول قرأ المشهور تَلَقَّونه بفتح الثّلاث و شدّ القاف و على هذا فهو فعل مضارع حذفت أحدى تائيه و هو مرفوع و علامة رفعه ثبوت النّون و الواو فاعل و الهاء مفعول به، و التلقّي، و التلقّف، و التلقّن، معانٍ متقاربة و الجملة في محلّ جرٍّ بإضافة الظّرف إليها و المراد يرويه بعضكم عن بعضٍ.

و أمّا على قراءة كسر اللاّم فهو من ولق يلق إذا كذب أو إستَّمر على الكذب.

و أمّا قوله: **تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** فالمعنىٰ تقولون بأفواهكم و تديرونها من غير علم لأنّ الشّيْ المعلوم يكون في القلب ثمّ يعبّر عنه باللّسان و هذا الإفك ليس محلّه إلاّ الأفواه فهو من قبيل قوله: **يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ**[1] و من المعلوم أنّ العاقل لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه فأنّ لسان العاقل وراء قلبه كما أنّ قلب الأحمق وراء لسانه و هذا هو الفرق بين العاقل و الأحمق.

و قوله: **وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَ هُوَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ** أي تظّنونه حقيراً و هو عند اللّه عظيم لأنّه يوجب هتك المؤمن و هو كما ترى.

وَ لَوْلآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنآ أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذا سُبْحانَكَ هٰذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ

١- آل عمران = ١٦٧

أي هلاّ إذ سمعتم الإفك و الإفتراء من هؤلاء العصبة قلتم، في جوابهم ما يكون لنا أن نتكلّم بهذا أي ليس لنا ذلك بل هو محرّمٌ علينا و قلتم سبحانك يا ربّنا هذا الّذي قالوه بهتانٌ عظيم أي كذبٌ و زورٌ، فالبهتان الكذب الّذي فيه مكابرة تحّير يقال بهته يبهته بهتاً و بهتاناً إذا حيّره بالكذب عليه، و ذلك لأنّه لم يدلّ دليل على صدق القائل و ما كان كذلك فهو بهتانٌ و كذب و توضيحه إجمالاً:

هو أنّ الخبر يحتمل الصّدق و الكذب و إذا كان كذلك فهلاّ حملتموه على الكذب و يستفاد من الآية أنّ الأصل في القذف هو الكذب و أمّا الصّدق فيحتاج إلى دليلٍ و هو أربعة شهود سواء كان القاذف مسلماً أو فاسقاً و كافراً و أمّا في غير القذف فأن كان القائل مؤمناً أو مسلماً فالأصل في كلامه الصّدق حتّى يثبت كذبه و أن كان فاسقاً فبالعكس لقوله تعالى: **إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا**(١)

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

قال في المفردات الوعظ زجرٌ مقترن بتخويف و قال الخليل هو التّذكير بالخير فيما يرّق له القلب و العظة و الموعظة، الإسم إنتهى.

و معنى الآية يعظكم اللّه أيّها المؤمنون أن تعودوا، أي ترجعوا، لمثله، أي لمثل الإفك، أبداً، أي طول أعماركم إن كنتم مؤمنين باللّه و اليوم الأخر، مصدّقين باللّه و نبيّه، قابلين وعظ اللّه و أنّما علّق ذلك على الإيمان لأنّ من لم يؤمن باللّه لا يقبل موعظته لأنّ القبول فرع المعرفة.

وَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأيَاتِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

المراد بالأيات الدّلالات و الحجّج العقليّة و الشّرعية التّي تتّم بها الحجّة على العبد و قوله: **وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**، معناه أنّه تعالى عالم بما يكون منكم حكيمٌ فيما يفعل و لا يضع الشّئ إلاّ في موضعه و قد مرّ الكلام فيه غير مرّة.

١- الحجرات = ٦

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

المراد بالفاحشة الأفعال القبيحة الشّنيعة و معنى الآية أنّ الّذين يحبّون و يؤثّرون أن تظهر الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذابٌ أليم يوم القيامة أي عذابٌ موجع جزاءً على أعمالهم في الدّنيا بإقامة الحدّ عليهم و في الآخرة بعذاب النّار و اللّه يعلم ذلك و أنتم لا تعلمون، و الظّاهر في الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة العموم في كلّ قاذفٍ منافقاً كان أو مؤمناً و تعليق الوعيد على محبّة الشّياع دليل على أنّ إرادة الفسق فسقٌ هكذا قيل و الحقّ أنّ إرادة الفسق ليس بفسقٍ كما ثبت في موضعه نعم حبّ الفسق فسقٌ كما أشار اللّه إليه و الفرق بين الإرادة و الحبّ واضح و الآية صرّحت بالحبّ و الدّليل عليه أنّ من رضي بفعل قومٍ فهو منهم فمن أحبّ شيوع الفاحشة فاسقٌ بلا كلام.

و قوله: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**، معناه أنّه تعالى يعلم قبح ذلك و أنتم لا تعلمون.

وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ

جواب، لولا، محذوف لدلالة الكلام عليه أي و لولا فضل اللّه عليكم و رحمته و أنّ اللّه رؤوفٌ بالبّرية، رحيمٌ بقبول التّوبة ممّن قذف، لعاقبكم و أهلككم و عاجلكم بالعقوبة و لكنّه لم يعاجلكم بها لفضله و رحمته و رأفته و هو كذلك.

■

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواٰتِ ٱلشَّيْطاٰنِ
وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواٰتِ ٱلشَّيْطاٰنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بِالْفَحْشآٰءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكٰى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشآٰءُ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾
وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ ٱلسَّعَةِ أَنْ
يُؤْتُوٓا أُولِى ٱلْقُرْبٰى وَ ٱلْمَساٰكِينَ وَ ٱلْمُهاٰجِرِينَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ
أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَناٰتِ ٱلْغاٰفِلاٰتِ ٱلْمُؤْمِناٰتِ
لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذاٰبٌ عَظِيمٌ
﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ
أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كاٰنُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ
ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ
ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثاٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ ٱلْخَبِيثُونَ
لِلْخَبِيثاٰتِ وَ ٱلطَّيِّباٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ ٱلطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّباٰتِ أُولٰٓئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّٰا يَقُولُونَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا
لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا
وَ تُسَلِّمُوا عَلٰٓى أَهْلِهاٰ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهآ أَحَدًا فَلَا
تَدْخُلُوهاٰ حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكىٰ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا
غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا
تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا
مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكىٰ
لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَ قُلْ
لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ
مِنْهٰا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لاٰ
يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبٰائِهِنَّ أَوْ
آبٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنٰائِهِنَّ أَوْ أَبْنٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ
أَوْ نِسٰائِهِنَّ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ أَوِ التّٰابِعِينَ
غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجٰالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ
ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ ٱلنِّسٰاءِ وَ لاٰ
يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مٰا يُخْفِينَ مِنْ
زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى ٱللّٰهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَ أَنْكِحُوا
ٱلْأَيٰامىٰ مِنْكُمْ وَ ٱلصّٰالِحِينَ مِنْ عِبٰادِكُمْ وَ
إِمٰائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرٰاءَ يُغْنِهِمُ ٱللّٰهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَ ٱللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَ لْيَسْتَعْفِفِ
ٱلَّذِينَ لاٰ يَجِدُونَ نِكٰاحًا حَتّٰى يُغْنِيَهُمُ ٱللّٰهُ

مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱلَّـذِينَ يَـبْتَغُونَ ٱلْكِـتَابَ مِـمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَـلِمْتُمْ فِـيهِمْ
خَيْرًا وَ ءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيٰكُمْ وَ لَا
تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ
فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿۳۳﴾ وَ
لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ مَـثَلًا مِـنَ
ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَـوْعِظَةً لِـلْمُتَّقِينَ
﴿۳۴﴾ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ
كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَـادُ
زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ
نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ وَ يَـضْرِبُ
ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿۳۵﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا
ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْآصَـالِ ﴿۳۶﴾
رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ
وَ إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَ إِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَ ٱلْأَبْصَارُ ﴿۳۷﴾ لِيَجْزِيَهُمُ
ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ
ٱللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴿۳۸﴾

◀ اللّغة

خُطُوٰتِ ٱلشَّيْطٰنِ، الخُطوة: بضّم الخاء و سكون الطّاء و فتح الواو ما بين القدمين و الشّيطان من شطن أي تباعد و منه بئرٌ شطون و على هذا فالنُّون فيه أصليّة و قيل أنّها من شاط يشيط، إحترق غضباً قيل هو مخلوق من النّار بناءً على كونه من الجنّ لقوله تعالىٰ: **وَ خَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**(١)

و قال أبو عبيدة هو إسمٌ لكلّ عارمٍ من الجنّ و الإنس و الحيوانات لقوله تعالى: **شَيَاطِينَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ**(٢).

زَكَىٰ: أي طهر.

وَ لَا يَأْتَلِ: الإيتلاء القسم يقال ألى يؤلي إيلاء إذا حلف على أمرٍ من الأمور، و يأتل، على وزن يفتعل، من الأليّة مثل يقتضي من القضيّة.

لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا: العافي التّارك للعقوبة على من أذنب إليه، و الصَّفح بفتح الصّاد و سكون الفاء و الحاء و الصَّفح عن الشّئ أن يجعله بمنزلة ما مرَّ صفحاً.

ٱلْخَبِيث: الفاسد الذّي يتزايد في الفساد تزايد النّامي في النّبات و نقيضه الطَّيب قيل الحرام كلّه خبيث و الحلال كلّه طيّب.

مُبَرَّؤُنَ: أي منَّزهون يقال برئت ساحته عن الذّنب.

يَغُضُّوا: الغض بفتح الغين و سكون الضّاد المشّددة في الأصل النُّقصان من الطّرف و الصّوت و ما في الأناء يقال غضَّ و أغضَّ، و الغَّض الطّري الّذي لم يطل مكثه.

يُبْدِينَ: من أبدى أي أظهر.

بِخُمُرِهِنَّ: الخمار غطاء رأس المرأة المنسل على جبينها و جمعه، خمر، وقيل هي المقانع جمع مقنعة.

١- الرحمن = ١٥

٢- الانعام = ١١٢

◀ الإعراب

يَوْمَ تَشْهَدُ العامل في الظّرف معنى الإستقرار في قوله، و لهم عذاب لَهُمْ مَغْفِرَةٌ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون خبراً بعد خبر مِنْ أَبْصٰارِهِمْ من للتّبعيض و قيل هي زائدة و قيل لبيان الجنس غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ بالجرّ علىٰ الصّفة و البدل و بالنّصب على الحال أو الإستثناء و مِنَ ٱلرِّجٰالِ نصب على الحال مِنْ زِينَتِهِنَّ حال و الباقي واضح.

◀ التّفسير

يٰٓا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لاٰ تَتَّبِعُوا خُطُواٰتِ ٱلشَّيْطٰانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواٰتِ ٱلشَّيْطٰانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشٰآءِ وَ ٱلْمُنْكَرِ وَ لَوْلاٰ فَضْلُ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يُزَكِّى مَنْ يَشٰآءُ وَ ٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الخطاب عامّ يشمل جميع المؤمنين المعترفين بتوحيد اللّه المصدّقين لرسله ينهاهم فيه عن إتّباع خطوات الشّيطان و المعنى لا تسلكوا مسالكه و لا تذهبوا مذهبه، و الإتّباع الذّهاب فيما كان من الجهات التّي يدعوا الدّاعي إليها بذهابه فيها فمن وافق الشّيطان فيما يدعوا إليه من الضّلال فقد إتّبعه و أنّما نهى اللّه المؤمنين عن إتّباعه لأنّه لا يأمر بالفحشاء و المنكر يعني القبائح من الأفعال و الأقوال و الفحشاء كلّ قبيح عظيم و المنكر الفساد الذّي ينكره العقل و يزجر عنه و قد نهى اللّه تعالى عن متابعة الشّيطان في كثيرٍ من الأيات.

قال بعض المفسّرين المراد بالفاحشة المساحقة و الأكثرون على أنّ المراد بها الزّناء.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَواٰحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ**(١) الآية قيل

١- الاعراف = ٣٣

الفواحش المعاصي و القبائح ما ظهر منها و ما بطن مثل قوله تعالى: **وَ ذَرُوا ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**(١).

و عن الباقر عليه السلام: ما ظهر هو الزّناء و ما بطن هو المحالة و قيل كلّ سوءٍ جاوز حدّه فهو فاحش وفي الخبر أنّ اللّه يبغض الفاحش المتّفحش، فالفاحش ذوي الفحش في كلامه والمتّفحش من يتّكلفه و يتّعمده.

و في بعض الأحاديث هو كلّما يشتّد قبحه من الذّنوب و المعاصي و في قوله: **وَ لَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** إشارة إلى أنّ الإنسان لا يقدر على التّخلص من شّر الشّيطان إلاّ بتوفيقٍ من اللّه فالمعنى لولا فضل اللّه أي لطفه و عنايته ما طهر أحدٌ منكم من وساوسه و خدايعه فهو من قبيل قوله: **وَ مَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ**(٢).

و قال صاحب الكشّاف معناه و لولا فضل اللّه عليكم بالتّوبة الممحصّة لما طهر منكم أحد أخر الدّهر من دنس إثم الإفك و لكنّ اللّه يطّهر التّائبين بقبول توبتهم إذا محصوها إنتهى كلامه.

أقول الظّاهر من الآية هو ما ذكرناه و أمّا تخصيصها بقصّة الإفك كما فعله صاحب الكشّاف لا دليل عليه، أمّا أوّلاً فلأنّ الآية بصدد بيان حكم كلّي و هو أنّ الشّيطان لا يأمر إلاّ بالسُّوء و العقل و الشّرع يحكمان بعدم متابعته.

ثانياً: أنّ قصة الإفك قد تمّت مضافاً الى أنّ عائشة كانت كغيرها من النّساء في حرمة قذفّهن فقوله: ما طهّر منكم أحد آخر الدّهر من دنس إثم الإفك لا معنى له و الحاصل أنّ الحكم عامّ **وَ لٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَآءُ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** قيل معناه من يعلم أنّ له لطفاً يفعله به ليزّكوا عنده، و قيل يزّكي من يشاء

١- الانعام = ١٢٠ ٢- يوسف = ٥٣

بالثّناء عليه، و الّذي ظهر لي في معنى الكلام هو أنّ اللّه يزّكي أي يطهّر من دنس المعاصي من يشاء من عباده بقبول التّوبة منه فأنّها هي المطهّرة للذّنوب و قبولها لطفٌ منه تعالى في حَّق عباده و اللّه سميعٌ عليمٌ، يفعل المصالح و الألطاف على ما يعلمه من المصلحة للمكلّفين لأنّه يسمع أصواتهم و يعلم أحوالهم.

وَ لَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ ٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوٓا أُولِى ٱلْقُرْبٰى وَ ٱلْمَسٰاكِينَ وَ ٱلْمُهٰاجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوٓا أَلٰا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللّٰهُ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

وَ لَا يَأْتَلِ هو مضارع ائتلى من الإلية و هي الحلف قيل أنّ الآية نزلت في أبي بكر و مسّطح إبن أثاثة و كان يجري عليه و يقوم بنفقته فقطعها و حلف أن لا ينفعه أبداً لما كان منه من الدّخول مع أصحاب الإفك في عائشة فلّما نزلت هذه الآية عاد أبو بكر له الى ما كان و قال و اللّه إنّي لأحّب أن يغفر اللّه لي و اللّه لا أنزعها عنه أبداً و كان مسطح إبن خالة أبي بكر و كان مسكيناً و مهاجراً من مكّة الى المدينة و من جملة البدريّين.

و قيل الآية نزلت في يتيم كان في حجر أبي بكر حلف ألاّ ينفق عليه، و قيل نزلت في جماعة من أصحاب رسول اللّه حلفوا أن لا يواسوا أصحاب الإفك.

و قال قوم هذا نهيٌ لجميع أولي الفضل و السّعة أن يحلفوا أن لا يؤتوا أولي القربى و المساكين و الفقراء و هو أولى و أعَّم فائدة و يدخل فيه ما قالوه و كان مسطح أحد من حدَّه النّبي في قذف الإفك إنتهى ما ذكره في التّبيان.

أقول ما إختاره الشّيخ من الأقوال حول نزول الآية هو الحَّق و يؤيده أنّ أبا بكر لم يكن له مالٌ حتّى ينفق على غيره بل كان في زمرة الفقراء و المساكين و إذا كان كذلك فما ذكروه في هذا الباب إنّما هو من مجعولاتهم و ملفّقاتهم حبّاً و كرامةً له و كيف كان لا يهّمنا شأن النزول إذ خصوصيّة المورد لا تنافي عموم الحكم فأنّ اللّه تعالى نهى أولي الفضل و السَّعة عن الحلف على عدم إعطاء أولي

القربى و المساكين و المهاجرين في سبيل اللّه و أمرهم بالعفو عن مذنبهم و الصَّفح عن مسيئهم فأنّ الإنسان محّل النّسيان و الخطأ ففي الآية ترغيبٌ و تحريضٌ على الإعطاء و العفو عن المذنب و هذا حكمٌ عامّ لا يختّص بشخصٍ دون شخصٍ و لا بزمانٍ دون زمان.

عن كتاب المحاسن عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال ثلاثة من مكارم الدّنيا و الآخرة: أن تعفو عمّن ظلمك، و تصل من قطعك، و تحلم إذا جهل عليك إنتهى.

و عن الباقر عليه السلام: ثلاثة لا يزيد اللّه بهّن المرء المسلم إلاّ عزّاً: الصَّفح عمَّن ظلمه و إعطاء من حرمه، وصلة من قطعه إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: عليكم بالعفو فأنّ العفو لا يزيد العبد إلاّ عزّاً فتعافوا يعزّكم اللّه إنتهى.

و عن الباقر عليه السلام قال: النّدامة على العفو أفضل و ايسر من النِّدامة على العقوبة إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه: إقبلوا العذر من كلّ متَّنصلٍ محقّاً كان أو مبطلاً و من لم يقبل العذر منه فلا نالته شفاعتي إنتهى(١).

و محصّل الكلام أنّ ما نهى اللّه عنه و ما أمر به في هذه الآية من مكارم الأخلاق.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْأَخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

المراد بالرّمي القذف و المعنى أنّ الذّين يقذفون العفائف من النّساء الغافلات، عن الفواحش، لعنوا في الدّنيا و الأخرة، و اللّعن الطّرد و المعنى

١- مشكاة الأنوار ص ٢٢٨

طردوا و أبعدوا عن رحمة اللّه في الدّنيا و بإقامة الحدّ عليهم و ردَّ شهادتهم و في الأخرة بأليم العقاب و لهم عذابٌ عظيمٌ عقوبةً لهم على قذفهم المحصنات و هذا وعيدٌ عامّ لجميع المكلّفين و خصّ بعض العامّة هذا الحكم بمن قذف عائشة لما رأوها نزلت الآية فيها و لم يعلموا أنّ الآية إذا نزلت على سبب لم يجب قصرها عليه كأية اللّعان و أية القذف و أية الظّهار و غير ذلك و متى حملت على العموم دخل من قذف عائشة في جملتها و العجب من صاحب الكشّاف فأنّه قد اتعب نفسه في تخصيص الآية بمن قذف عائشة فقال ما هذا لفظه ولو فليت القرآن كلّه و فتَّشت عمّا أوعد به العصاة لم تر اللّه تعالى قد غلظ في شيءٍ تغليظه في إفك عائشة و لا أنزل من الأيات القوارع المشحونة بالوعيد الشّديد و العتاب البليغ و الزّجر العنيف و إستعظام ما ركب من ذلك و إستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفة و أساليب مفتّنة كلّ واحدٍ منها كان في بابه و لو لم ينزل إلاّ هذه الثّلاث لكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدّارين جميعاً و توعَّدهم بالعذاب العظيم في الأخرة.

و بأن ألسنتهم و أيديهم و أرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا و بهتوا و أنّه يوفيّهم جزاءهم الحقّ الواجب الّذي هم أهله حتّى يعلموا عند ذلك، أنّ اللّه هو الحقّ المبين، فأوجز في ذلك و أشبع و فصّل و أجمل و أكدَّ و كرّر و جاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هو دونه في الفظاعة و ما ذلك إلاّ لأمرٍ و عن إبن عبّاس أنّه كان بالبصرة يوم عرفة و كان يسأل عن تفسير القرآن حتّى سأل عن هذه الأية: (الأيات) فقال من أذنب ذنباً ثمّ تاب عنه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة و هذه منه مبالغة و تعظيم لامر الافك ولقد برأ اللّه تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بلسان الشّاهد، و شهد شاهدٌ من أهلها، و برأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الّذي ذهب بثوبه، و برأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها، إنّي عبد اللّه، و برأ عائشة بهذه الأيات العظام في كتابه المعجز المتلّو على وجه الدّهر مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات فأنظر كم بينها و بين تبرأة

أولئك و ما ذاك إلاّ لإظهار علوّ منزلة رسول اللّه و التّنبيه علىٰ أناقة سيّد ولد آدم و من أراد أن يتّحقق عظمة شأنه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تقدّم قدمه و إحرازه لقصب السّبق دون كلّ سابق فليتّلق ذلك من آيات الإفك و ليتّأمل كيف غضب اللّه له في حرمته و كيف بالغ في نفي التُّهمة عن حجابه.

فأن قلت أن كانت عائشة هي المرادة فكيف قيل المحصنات.

قلت فيه وجهان:

أحدهما: أن يراد بالمحصنات أزواج رسول اللّه و أن يخصّصن بأنّ من قذفهّن فهذا الوعيد لاحقٌ به و إذا أردن و عائشة كبراهنّ منزلة و قربة عند رسول اللّه كانت المرادة أوّلاً.

الثّانى: أنّها أمّ المؤمنين فجمعت إرادة لها و لبناتها من نساء الموصوفات بالإحصان و الغفلة و الإيمان إنتهى موضع الحاجة من كلامه و من أراد الوقوف على تفصيل كلامه فعليه بمراجعة كتابه.

و نحن نقول الأيات الواردة في قصّة الإفك دلّت على براءة ساحتها عن الإفك و أنّ ما قالوا فيه كذبٌ محض و هذا ممّا لا كلام فيه و كفانا في ذلك نصّ الكتاب و الأخبار الواردة في الباب و لا نحتاج الى دليلٍ آخر و أمّا ما ذكره الزّمخشري من أنّ الأيات تدلّ على فضل عائشة و أنّها كذا و كذا فهو من مستخرجات ظنّه الفاسد فأن لعن القذفة و توعدهم بالعذاب العظيم في الأخرة و شهادة ألسنتهم وأيديهم و أرجلهم حكمٌ عامّ في حقّ جميع القاذفين و شهادة ألسنتهم و أيديهم أيضاً كذلك فتخصيص الحكم بقذف عائشة لا معنى له و قد مرَّ الكلام في ذلك عند قوله تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ** إلىٰ قوله: **وَ ٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ**(١). و قوله: **وَ ٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ**(٢) و أيّ فرقٍ بين اللَّعنتين و هما في المقامين من اللّه تعالى و

١- النُّور = ۶ و ٧
٢- النور = ٨

أمّا شهادة الألسنة و الأيدي فقد قال اللّه تعالى: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(١).

فقد ظهر ممّا ذكرناه أنّ اللّعن على القاذف و شهادة الأعضاء يوم القيامة حكم عامّ في حقّ جميع الخلق.

و أمّا ما نقله عن إبن عبّاس أنّه سئل عن هذه الآية (الأيات) فقال من أذنب ذنباً ثمّ تاب منه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة فهو كذبٌ محضٌ و إفتراءٌ على إبن عبّاس.

أمّا أوّلاً: فلأنّه مخالف لنص الكتاب حيث قال:

إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ(٢).

و قال: **لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ يَغْفِرُ اَلذُّنُوبَ جَمِيعاً**(٣)

والأيات كثيرة.

فكيف قال إبن عبّاس ما نقله الزّمخشري عنه و هو هو.

ثانياً: كيف يقول هذا من كان عن محاربي عائشة في يوم الجمل في عسكر أميرالمؤمنين عليه السلام أليس هذا دليلٌ على أنّ إبن عبّاس كان يرى قتلها ألم يعلم الزّمخشري ذلك و نقل عنه ما نقل.

و أمّا قوله: لقد برأ اللّه تعالى أربعة بأربعة و جعل عائشة من الأربعة فهو من قلّة الحياء و عدم المبالاة حيث جعل عائشة التّي لا تزن عند اللّه و عند رسوله و عند المؤمنين جناح بعوضة في زمرة المعصومين عليهم السّلام و قاسها بهم و لا يقول بهذه المقالة إلاّ المتّعصب العنيد الّذي لا دين له واقعاً و لا حياء و قس على ما ذكرناه بقيّة كلامه و أن كان الإعراض عن ملفقاته أولى و ليت شعري ما الّذي دعاهم إلى هذه الأباطيل في تفسير الأيات و حمل الأيات عليها أليس هذا من

١- النّور = ٢٤
٢- النّساء = ٤٨
٣- الزّمر = ٥٣

حمل الكلام على ما لا يرضى به صاحبه أليس هذا من التّفسير بالرّأي الّذي قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: **من فَسَّر القرآن برأيه فليَتَبَوء مَقعَده من النّار** أليس حمل المحصنات في الآية على أزواج النّبي و جعل عائشة كبراهنّ منزلة و قربةً عند رسول اللّه أو أنّها أمّ المؤمنين فجمعت إرادةً لها و لبناتها من نساء الأمّة الموضوعات بالإحصان و الغفلة و الإيمان، ممّا لا يقبله العقل السّليم و الذّوق المستقيم أليس لقائلٍ أن يقول للزّمخشري و أتباعه و أمثاله من أين ثبت لكم أنّ عائشة كانت كبراهنّ منزلةً و قربةً عند رسول اللّه و أيّة فضيلةٍ ثبت لها دون غيرها من الأزواج غير أنّها خرجت بعد موت الرّسول لطلب الملك و ركبت على الجمل و أثارت الفتنة التّي قتل فيها خلقٌ كثير من المسلمين و أمرت بقتل المصلّين في مسجد البصرة و غير ذلك من الجنايات التّي يعجز القلم عن بيانها بشهادة التّواريخ، و قد قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: **لعلّي ياعلّي حربك حربي و سلمك سلمي**، و قال في موضع أخر: **محاربوا علّي كفرة**، و أمثال ذلك من الأخبار فلعلَّ هذا أي حرب علّي علیه السلام أوقع الزّمخشري في القول بأفضليّة عائشة على أزواج النبي إذ لم توجد في الإسلام إمرأة فعلت هذا الفعل القبيح و أنّي لا أشكّ بل أقطع أنّ الّذي دعاهم إلى هذه الأقاويل في عائشة هو هذه الفضيلة النّادرة أعني بها قيادة الجيش في حرب الجمل لقتل أميرالمؤمنين عليه السّلام و هذه فضيلة مختصّة بها دُون غيرها فإعتبروا ياأولي الأبصار.

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

و هو يوم القيامة و هذا حكمٌ عامّ حكم اللّه به في حقّ جميع الخلق من أفراد الإنسان:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**(١).

١- يس = ٦٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدآءُ ٱللّٰهِ إِلَى ٱلنّٰارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتّٰىٓ إِذٰا مٰا جٰآءُوهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ، وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوٓا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِيٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**[١].

فهذه الأيات كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ هذا الحكم عامٌّ في حقّ جميع المكلّفين و سيأتي الكلام في تفسيرها فتخصيصها بقصّة الإفك لا معنى له و في المقام بحث لا بأس بالإشارة إليه إجمالاً:

و هو أنّ قوله: **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ** يمكن أن يستفاد منه أنّ الإنسان المكلّف بالتّكاليف ليس هذه البنية و الجسم المرّكب من الأعضاء بل هو شئ أخر وراء هذه البنية و هو الّذي قد يعبّر عنه بالنّفس النّاطقة و قد يعبّر عنه بالرُّوح و ذلك لأنّ الشّاهد غير المشهود له أو عليه فالمشهود عليه في الآية هو الإنسان و الشّاهد هو اللّسان و اليد و الرّجل و غيرها من الأعضاء فاللّسان يشهد على غيره و هكذا اليد و الرّجل، فالغير هو الإنسان و يدلّ على ذلك قوله: **تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ** و بعبارةٍ أخرى لم يقل اللّه تعالى يوم تشهد الألسن على أنفسها بل قال عليهم أي على غيرها فلابدّ أن يكون المشهود عليه غير الشّاهد و هو المطلوب.

فثبت و تحقّق أنّ الإنسان غير الأعضاء و هذ هو المختار في الباب و أمّا كيفيّة شهادتها فقد أشار اللّه تعالى إليها حيث قال حكايةً عنها: **أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِيٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** و هذا ممّا لا إشكال فيه عقلاً فأنّ اللّه على كلّ شيٍ قديرٌ، و أن لم نقدر على تعلّق الانطاق و اللّه أعلم.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و عندنا البنية ليست شرطاً للحياة فيجوز أن يخلق اللّه تعالى في هذا الجوهر الفرد علماً و قدرة و كراماً.

١- فصّلت = ١٩ و ٢٠ و ٢١

و عند المعتزلة لا يجوز ذلك فلا جرم ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين:

الأوّل: أنّه تعالى يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام و عندهم المتكلّم فاعل الكلام فتكون تلك الشّهادة من اللّه في الحقيقة إلاّ أنّه سبحانه أضافها الى الجوارح توّسعاً.

الثّاني: أنّ سبحانه بنى هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه و يلجأها أن تشهد على الإنسان و تخبر عنه بأعماله إنتهى كلام الرّازي و الحقّ ما ذكرناه فأنّ عموم القدرة يكفينا عن هذه التّكلفات الباردة فأنّ من خلق الأعضاء و الجوارح يقدر على إنطاقها و الانطاق ليس بأصعب من الإيجاد و الخالق يتصرّف في خلقه كيف يشاء لعموم قدرته.

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ

قال المفسّرون المراد بالدّين في الآية الجزاء و منه قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: **كما تدين تُدان**، و قيل هو بحذف المضاف و تقديره جزاء دينهم الحقّ فحذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه و معنى الأية، **يَوْمَئِذٍ**، أي يوم القيامة يجزيهم اللّه جزاء الحقّ كاملاً من غير نقصٍ و يعلمون أنّ اللّه تعالى هو الحقّ الّذي أبان لهم الحجّج و الأيات في دار التّكليف.

ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ ٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ ٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ ٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

قال في المفردات الخبيث ما يكره ردائةً و خساسةً محسوساً كان أو معقولاً و أصله لرّديّ و ذلك يتناول الباطل في الإعتقاد و الكذب في المقال و القبيح في الفعال إنتهى.

و قال في الطّيب، يقال طاب الشّئ يطيب طيباً فهو طيب و أصل الطّيب ما تستّلذه الحّواس و ما تستّلذه النّفس و الطعام الطّيب في الشّرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز و بقدر ما يجوز و من المكان الّذي يجوز فأنّه متى كان كذلك كان طيّباً إنتهى.

أقول إتّفق أهل اللّغة على أنّهما ضدّان لا يجتمعان في شئٍ واحد إذا عرفت هذا فنقول الظّاهر من الآية أنّ المراد بالخبيثين، و الخبيثات الرّجال و النّساء، فهو من قبيل قوله: **اَلزّانى لا يَنْكِحُ إِلّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ اَلزّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ**(١) و قد مضى الكلام فيها و قلنا هناك أنّ الآية ناظرة الى قانون السّنخية و أنّ كلّ موجودٍ يميل الى جنسه طبعاً قال إبن عبّاس و الضّحاك و مجاهد و قتادة هي الأقوال و الأفعال ثمّ إختلف هؤلاء فقال بعضهم الكلمات و الفعلات الخبيثة لا يقولها و لا يرضاها إلاّ الخبيثون من النّاس فهي لهم و هم لها بهذا الوجه.

و قال بعضهم الكلمات و الفعلات لا تليق و تلصق عند رمي الرّامي و قذف القاذف إلاّ بالخبيثين من النّاس فهي لهم و هم لها بهذا الوجه.

و قال الجبائي، الخبيثات من النّساء الزّواني، للخبيثين من الرّجال الزّناة، و قيل الخبيثات من الكلم أنما تلزم الخبيثين من الرّجال و تليق بهم و الإحتمالات كثيرة و الجامع بين الأقوال أنّ الآية إشارة الى قانون السّنخية بين أصناف الموجودات فعلاً و قولاً و الحكم بإعتبار الأكثر و الأغلب و ليس معناه أنّ الخبيث لا يقول حقاً و لا ينكح إلاّ زانية بل المعنى أنّ فطرة الخبيث تميل الى الخبيثة و بالعكس في أكثر الأمور ألا ترى أنّ الطّيب قد ينكح غير الطّيب و بالعكس و أمّا قوله: **أُولٰئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ**، فهو إشارة الىٰ الطّيبين أولهم و للطّيبات على سبيل التّغليب إذا عني بهنّ النّساء مبرّؤن ممّا يقولون، أي

١- النّور = ٣

ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلم أو القاذفون الرّامون المحصنات و وعد الطّيبون من الرّجال و النّساء المغفرة عند الحساب و الرّزق الكريم في الجّنة فقال لهم مغفرةٌ و رزقٌ كريم.

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

هذا خطاب للمؤمنين نهاهم اللّه أن يدخلوا بيوتاً لا يملكون لها و هي ملك غيرهم إلاّ بعد أن يستأنسوا أي يستأذنوا و الإستيناس الإستئذان في قول إبن عبّاس و إبن مسعود و قتادة و كان المعنى يستأنسوا بالإذن قيل جاءت إمرأة من الأنصار الى رسول اللّه ﷺ فقالت يا رسول اللّه أنّي أكون في بيتي على حال لا أحبّ أن يراني أحد فلا يزال يدخل علّي رجل من أهلي فنزلت الآية فقال أبوبكر بعد نزولها يا رسول اللّه أرأيت الخانات و المساكن الّتي ليس فيها ساكن فنزل ليس عليكم جناح الآية أقول إختلف أهل اللّغة في معنىٰ الإستيناس على وجهين:

أحدهما: أنّه من الإستيناس خلاف الإستيحاش لأنّ الّذي يطرق باب غيره لا يدري يؤذن له أم لا فهو كالمستوحش لخفاء الحال عليه فإذا أذن له إستأنس فالمعنى حتّى يؤذن لكم فوضع الإستيناس موضع الإذن.

الوجه الثّاني: أنّه إستفعل من إستأنست فلم أر أحداً أي إستعملت و تعرّفت و **في الخبر يا رسول اللّه ﷺ ما الإستيناس قال ﷺ يتكلّم الرّجل بالقبيحة و التّحميد و التكبيرة و يتنحنح و يؤذن أهل البيت** و كيف كان فالمراد بالإستيناس الإذن إذا عرفت هذا فلنرجع الى معنى الآية خاطب اللّه المؤمنين و نهاهم عن الدُّخول في بيوت غيرهم بدون الإذن من صاحب البيت ولعلّ الوجه فيه أنّ الدُّخول في ملك الغير تصرّفٌ فيه و لا يجوز التّصرف في مال الغير بغير إذن صاحبه ثمّ أمرهم اللّه بالتّسليم على أهل البيت فقال و تسلّموا

على أهلها ذالكم أي الإستيناس و التَّسليم خيرٌ لكم، في الدُّنيا و الأخرة و قد وردت الأخبار بمدحه و حسنه.

فعن كتاب المحاسن عن أميرالمؤمنين عليه السلام: قال إذا بلغ أحدكم حجرته فليسّم يرجع قرينه الشّيطان وإذا دخل أحدكم بيته فليسلّم تنزله البركة و تؤنسه الملائكة إنتهى.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام: قال إذا دخلت منزلك فقل بسم اللّه و باللّه، و سلِّم على أهلك و أن لم يكن فيه أحد فقل بسم اللّه و سلام على رسوله و على أهل بيته و السّلام علينا و على عباد اللّه الصّالحين فإذا قلت ذلك فرَّ الشّيطان من منزلك إنتهى.

و عنه عليه السلام قال: يسلّم الرّجل إذا دخل على أهله و إذا دخل يضرب بنعليه و يتنحنح يصنع ذلك حتّى يؤذنهم أنّه قد جاء حتّى لا يرى شيئاً يكرهه و قال عليه السلام: فـيقوله: لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ الإستيناس وقع النّعل و التّسليم إنتهى.

و عنه عليه السلام: قال إذا إستأذن أحدكم فليبدأ بالسّلام فأنّه إسم من أسماء اللّه عزّ وجلّ فليستأذن من وراء الباب قبل أن ينظر الى قعر البيت فأنّما أمرتم بالإستأذان من أجل العين و الإستئذان ثلاث مرّات فأن قيل أدخل فليدخل و أن قيل إرجع فليرجع أولاهنّ يسمع أهل البيت. لثّانية: يأخذ أهل البيت حذرهم، الثّالثة: يختار أهل البيت إن شاؤوا أذنوا و إن شاؤوا لم يأذنوا إنتهى.

و عن جابر بن عبد اللّه قال خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يريد فاطمة عليها السلام و أنا معه فلمّا إنتهينا الى الباب وضع يده عليه و دفعه ثمّ قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم السّلام عليكم قالت فاطمة و عليكم السّلام يا رسول اللّه قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أدخل قالت إدخل يا رسول اللّه قال صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أدخل أنا و

من معي فقالت يا رسول اللّه ليس على رأسي قناع فقال ﷺ يا فاطمة خذي فضل ملحفتك فقنّعي به رأسك ففعلت ثمّ قال ﷺ السّلام عليكم فقالت و عليكم السّلام يا رسول اللّه قال ﷺ أدخل قالت نعم يا رسول اللّه قال ﷺ أنا و من معي قالت و من معك قال جابر فدخل رسول اللّه و دخلت و إذا وجه فاطمة إصفر كأنّه بطن جرادة فقال رسول اللّه ﷺ ما أرى وجهك أصفر فقالت يا رسول اللّه من الجوع فقال رسول اللّه اللّهم مشبع الجوعة و دافع الضّيعة أشبع فاطمة بنت محمّد ﷺ قال جابر فو اللّه لنظرت الى الدَّم ينحدر من قصاصها حتّى عاد وجهها أحمر فما جاعت بعد ذلك اليوم إنتهى و الأخبار في الباب كثيرة جدّاً.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهٰا حَتّٰى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكٰى لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

أي فأن لم تجدوا في البيوت أحداً فلا تدخلوها حتّى يؤذن لكم، و ذلك لأنّ الدّخول فيها تصَّرفٌ في مال الغير بغير إذن مالكه، و في قوله: **وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَارْجِعُوا**، إشارة الى أنّ النّاس مسّلطون على أموالهم مضافاً الى أنّه يمكن أن يكون هناك مانعٌ من الدّخول و أهل البيت أدرى بما فيه و قوله: **هُوَ أَزْكٰى لَكُمْ** معناه الرّجوع مع عدم الإذن أزكى و أطهر لنفوسكم من الدّخول بغير الإذن و اللّه بما تعملون عليمٌ، أي عالمٌ بأعمالكم لا يخفي عليه شيءٌ منها.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهٰا مَتٰاعٌ لَكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَ مٰا تَكْتُمُونَ

أي ليس عليكم حرجٌ و إثم إن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ليس لها أهل، فيها متاع لكم، قيل أي منافع لكم.

قال الزّمخشري في المقام، و أستثنى من البيوت الّتي يجب الإستئذان على أهلها(داخلها) ما ليس بمسكونٍ منها و ذلك نحو الفنادق و هي الخانات و الرُّبط و حوانيت البيّاعين و المتاع المنفعة كالاستكان من الحَّر و البرد و إيواء الرّجال و السَّلع و الشّراء و البيع إنتهى.

أقول يظهر من كلام بعض المفسّرين أنّه ليس في المقام إستثناء من البيوت كما زعمه صاحب الكشّاف و ذلك لأنّ الآية الأولى في البيوت المسكونة و المملوكة و لذلك قال بيوتاً غير بيوتكم، و هذه الآية الثّانية هي في البيوت المباحة كالفنادق الّتي في طرق المسافرين لا يسكنها أحد بل هي موقوفة يأوى إليها كلّ إبن سبيل فالموضوع في هذه الآية غيره في الآية السّابقة فلا يدخل في الإستثناء لعدم دخوله فيه إنتهى.

و يمكن الجواب عنه بأنّ مراده من الإستثناء هو إستثناء هذه البيوت من تلك البيوت فالإستثناء بإعتبار نفس البيوت مع قطع النَّظر عن القيد فالمقَّيد داخل و القيد خارج أو أنّ هذه البيوت أعني بها الفنادق و أمثالها أيضاً مسكونة إلاّ أنّها ليست مسكونة لشخصٍ خاصّ و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى و لا يهّمنا ثبوت الإستثناء و عدمه قال في التّبيان قيل في معنى هذه البيوت أربعة أقوال:

أحدها: قال قتادة هي الخانات فأنّ فيها إستمتاعاً لكم من جهة نزولها لا من جهة الأثاث الّذي لكم فيها.

الثّاني: قال محّمد بن الحنَفية هي الخانات الّتي تكون في الطُّرق مسبلة و معنى غير مسكونة أي لا ساكن لها معروفٌ.

الثّالث: قول عطاءٍ و هي الخرابات للغائط و البول.

الرّابع: قال إبن زيد هي بيوت التُّجار الّتي فيها أمتعة النّاس، و قال قوم هي بيوت مكّة، و قيل هي مناخات النّاس في أسنادهم يرتفعون بها، و قال قوم هي

جميع ذلك حملوه على عمومه لأنّ الإستئذان إنّما جاء لئلا يهجم على ما لا يجوز من العورة و هو الأقوى لأنّه نافذةٌ إنتهى كلامه.

و قوله: **وَ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ** معناه واضح إذ لا يخفي عليه فأنّه عالمٌ بجميع الأشياء ظواهرها و بواطنها لأنّ الجهل نقص و النَّقص لا يليق به و هو ظاهر.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

ثمّ خاطب النّبي و قال له قل يا محّمد للمؤمنين الّذين آمنوا بالله و اليوم الآخر، يغضّوا من أبصارهم، عن عورات النّساء و كلّ ما يحرم النَّظر إليه و يحفظوا فروجهم، عن الحرام و عن إظهارها حيث ترى فأنّهم متى فعلوا ذلك كان أزكى و أطهر لأعمالهم عند الله و أنّ الله خبيرٌ بما يعملون و يصنعون.

قال في المفردات الغَض النُّقصان من الطَّرف أو الصَّوت و ما في الإناء إنتهى.

و قال في المجمع قوله تعالىٰ: **يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** أي ينَّقصوا من نظرهم عمّا حرَّم الله عليهم و قد أطلق لهم ما سوى ذلك يقال غضَّ طرفه غضاضاً بالكسر و غضاضةً بفتحتين خفضه، و تحّمل المكروه و مقول القول أي قل لهم غضوا يغضّوا فيكون يغضُّوا في الآية جواباً للمؤمر المحذوف و كذا يحفظوا و، من، عند الأحفش زائدة و أغضض من صوتك أي نقِّص منه إنتهى.

أقول معنى الآية على مذهب الأحفش، يغِّضوا أبصارهم، لأنّ، من، زائدة.

و قيل أنّها ليست زائدة بل هي للتَّبعيض و ذلك أنّ أوّل نظرة لا يملكها الإنسان و إنّما يغضّ فيما بعد ذلك و يؤيدّه قوله عليه السلام: **لا تتبع النَّظرة النظرة فأنّ الأولىٰ لك والثّاني ليست لك** و قال إبن عطّية يصّح أن يكون، من، لبيان الجنس و يصَّح أن تكون لإبتداء الغاية، و هذا ليس بشيءٍ إذ ليس من موضوعاتها أن تكون لبيان الجنس.

و أمّا قوله: و **يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** قيل يحفظوها من الزّناء و من التّكشف و دخلت، من، في قوله: **مِنْ أَبْصٰارِهِمْ**، دون الفرج حيث لم يقل من فروجهم دلالةً على أمران، أمر النّظر أوسع ألا ترى أنّ الزّوجة ينظر زوجها إلى محاسنها من الشّعر و الصّدر و العضد و السّاق و القدم و ينظر من الأجنبيّة إلى وجهها و كفّيها و أمّا أمر الفرج فمضيّق.

و عن أبي العالية و إبن زيد كلّ ما في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّناء إلاّ هذا فهو من الإستتار إنتهى.

ما قاله لى بشيءٍ بل حفظ الفرج يشمل النّوعين قال بعض المحقّقين الآية دالّة على تحريم النّظر على الإطلاق و على أنّ الذّي يحرم على الرّجل إبدائه هو العورة لا غير و يقتضي جواز النّظر إلى ما عدا العورة من بدنه و تقتضي أنّ بدن المرأة و شعرها كلّه عورة و لا يجوز النّظر إليه فيكون حاصل المعنى أنّه لا يجوز النّظر إلى النّساء مطلقاً و لا إلى عورة الرّجل و قد دًل دليل أخر على إستثناء بعض الأشياء.

منها، أوّل نظرة أي أوّل ما يقع النّظر إلى الأجنبيّة بلا قصدٍ فأنّه غير مكلّفٍ في تلك الحالة لأنّه غافلٌ و يجب عليه صرف نظره عنها على الفور فقد ورد منهم عليهم السّلام:

أوّل نظرة لك والثّانية عليك لا لك و الثّالثة فيها الهلاك.

و في خبرٍ أخر.

لكم أوّل نظرة إلى المرأة فلا تتبعوها بنظرة أخرى و أحذروا الفتنة.

و منها، النّظر إلى الوجه و الكفّين و القدمين من الأجنبيّة ففي الخصال.

عن أبي عبد اللّه قال قلت له ما للرّجل أن يرى من المرأة إذا لم تكن بمحرم، قال عليه السلام: الوجه و الكفّين والقدمين إنتهى.

و في خبر أخر عن الكاظم عليه السلام: أنّه قال الوجه و الكّف و موضع السّوار.

نظر المملوك إلى مولاية ففي موثقة عبد الرّحمن عن أبي عبد اللّه جواز رؤية الشَّعر و أضاف في حسنة معاوية بن عمّار عنه عليه السلام جواز رؤية ساقها.

النَّظر إلى زوجته ظاهراً و باطناً و جواز نظرها إلى عورته.

النَّظر إلى محارمه اللاّتي يحرم لكاحهنّ مؤيّداً بنسب أو رضاع أو مصاهرة فأنّ الأصحاب قد قطعوا بجواز النَّظر إلى أبدانهنّ ما عدا العورة إذا لم يكن هناك ريبة.

النَّظر إلى إمرأة يريد أن يتَّزوجها.

ففي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام عن الرّجل يريد أن يتَّزوج المرأة أينظر إليها قال عليه السلام نعم أنّما يشتريها بأعلى ثمنٍ إنتهى.

و في خبرٍ أخر عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: لا بأس أن ينظر الرّجل إلى وجهها و معاصمها إذا أراد أن يتَّزوجها و في خبرٍ أخر ينظر إلى خلفها و إلى وجهها، و في خبرٍ أخر إلى شعرها و محاسنها إذا لم يكن متَّلذذاً و قد إشترطوا صلاحيّتها للتّزويج كأن تكون خالية من البعل و العدّة و إحتمال إجابتها إلى ذلك و عدم الرَّيبة بالوقوع في الزّناء.

ما يظهر من بعض الأخبار من جواز رؤية الصّغيرة الّتي ليست مظنّة للشَّهوة و العجائز من النّساء.

و منها، النَّظر للشهادة أو لعلاج الطَّبيب ونحوه من الضّرورات فقوله تعالى: **ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** أي النَّقص و الحفظ أطهر من النّجاسات النّفسانية المتَّعقبة للنّظر و قوله يصنعون فيه تهديدٌ على المخالفة.

وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلىٰ جُيُوبِهِنَّ وَ لاٰ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّٰ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبٰائِهِنَّ أَوْ آبٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنٰائِهِنَّ أَوْ أَبْنٰاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوٰانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوٰاتِهِنَّ أَوْ نِسٰائِهِنَّ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُنَّ أَوِ التّٰابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجٰالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلىٰ عَوْرٰاتِ النِّسٰاءِ وَ لاٰ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مٰا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللّٰهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

لمّا أمر اللّه تعالى في الآية السّابقة غضّ أبصارهم عن عورات النّساء و أمرهم بحفظ فروجهم عن إرتكاب الحرام أمر في هذه الآية المؤمنات من النّساء أيضاً بغضّ أبصارهنّ عن عورات الرّجال و ما لا يحلّ النّظر إليه و أمرهنّ أن يحفظن فروجهنّ إلاّ عن أزواجهنّ على ما أباحه اللّه لهم و يحفظن أيضاً إظهارها بحيث ينظر إليها و نهاهنّ عن إبداء زينتهنّ إلاّ ما ظهر منها.

قال إبن عبّاس يعني القرطين و القلادة و السّوار و الخلخال و المعضد و المنحر فأنّه يجوز لها إظهار ذلك لغير الزّوج و أمّا الشّعر فلا يجوز أن تبديه إلاّ لزوجها قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول الأحسن أن يقال أنّ اللّه تعالى أمر المكلّفين من الرّجال و النّساء بشيئين:

أحدهما: غضّ البصر.

ثانيهما: حفظ الفروج و من المعلوم أنّ غضّ البصر عن المحرّمات و في هذين الأمرين لا فرق بين الرّجال و النّساء ثمّ نهي النّساء في الآية المبحوثة عنها عن أمورٍ تختصّ بالنّساء دون الرّجال و هذا هو المحصّل في الأيتين في المقام على ما يأتي تفصيله.

قال بعض المحقّقين عدم ذكر المنظور إليه يدلّ على تحريم نظر هنّ إلى الرّجال مطلقاً، و الإقتصار على حفظ فروجهنّ يقتضي تحريم نظرهنّ إلى فرج المرأة خاصّة.

فقد روي أنّ أمّ سلمة كانت جالسة هي و ميمونة عند النّبي فدخل إبن أمّ مكتوم بعد أية الحجاب فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لنا إحتجبا فقلنا يا رسول اللّه أنّه أعمى فقال صلى الله عليه وآله وسلم أفعميا و ان أنتما ألستما تبصرانه كذا نقله بعض الأصحاب.

و الذّي رواه الكليني عن أحمد بن أبي عبد اللّه قال إستأذن إبن أمّ مكتوم على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و عنده عائشة و حفصة فقال لهما قوما فأدخلا البيت فقالتا أنّه أعمى فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن لم يركما فأنكما تريانه.

و نقل العلاّمة في التّذكرة عن بعض علماؤنا جواز النّظر إلى وجه الرّجل و كفّيه لأنّ الرَّجل في حقّ المرأة كالمرأة في حقّ الرّجل و هو قول أكثر الشّافعية و إستدل برواية أمّ سلمة السّابقة و هو كما ترى إذ لا دلالة فيها على الجواز بل دلالتها على العدم أظهر فقوله تعالى: **وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** يدلّ على غضّ البصر عمّا يحرم النّظر إليه هذا هو القدر المسلّم من الآية إذ لم يذكر المنظور إليه فيها فلا يمكن حمل الآية على العموم للزوم ذلك الحرج المنفي في الشّريعة فأنّ غضّ البصر عن رؤية الرّجال مطلقاً مستلزمٌ للحرج بل ظاهر الآية هو غضّ البصر عن جميع الأشياء في الرّجال و النّساء و هو كما ترى غير معقولٍ وإذا لم يمكن حمل اللّفظ على العموم و لا مخصّص في المقام يجب الأخذ بما هو المسلّم المقطوع به في الشّريعة و هو النّظر إلى ما يحرم على النّاظر النّظر إليه و حيث أنّ القرينة الحاليّة أو المقاليّة قامت على أنّ المراد من الحكم في الأيتين هو أن تنظر المرأة إلى الرّجل و بالعكس.

علمنا أنّ المراد بغضّ البصر في الأيتين هو عدم نظر الرّجل إلى المرأة و بالعكس إذا كان بقصد الرِّيبة فمعنى الكلام قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ في النَّظر إلى الرّجال و حيث أنّ الغَّض معناه النَّقص و التَّقليل في النَّظر علمنا أنّ القليل من النَّظر لا بأس به و ذلك لأنّ اللّه تعالى لم يأمر الرّجال و لا النّساء بالإعراض عن النّظر و لذلك لم يقل قل للمؤمنات لا ينظرن إلى الرّجال كما لم يقل قل للمؤمنين لا ينظروا إلى النّساء فالتَّعبير بالغَّض يدلّ على جواز النّظر في الجملة لا مطلقاً و هو المطلوب.

فمن قال بتحريم النَّظر مطلقاً لا دليل له عليه مضافاً إلى أنّه يوجب الحرج المنّفي في الشّريعة و على هذا فيجوز للرّجال النّظر إلى الوجه و الكفَّين و القدمين من النّساء و لا يجوز لهم النَّظر إلى عورات النّساء و هي ما عدا المذكورات و هكذا يجوز للمرأة أن تنظر إلى ما يبدوا من الرّجال و قال بعضهم أنّها تنظر إلى جميع بدن الرّجل إلاّ ما بين السّرة و الرّكبة و ليس كنظر الرّجل إلى المرأة لأنّ بدنها عورة في نفسه و لذلك يجب ستره في الصّلاة و لأنّهما لو إستويا لأمر الرّجل بالإحتجاب كالنّساء هكذا حقَّقه بعض المحقّقين و الإنصاف أنّ ما ذكره لا يستفاد من ظاهر الآية و ليس في النّصوص أيضاً ما يدلّ عليه و الحقّ أن يقال يجب غضّ البصر على الرّجال و النّساء إلاّ في مواقع الضّرورة بقدر الضّرورة و اللّه أعلم.

و قوله: **يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**، فقد ظهر معناه في الآية السّابقة و لا خلاف فى حفظهما على الرّجال و النّساء إلاّ ما أباحه اللّه لهما على ما فصل في الشّريعة **وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ** الإبداء الإظهار من بدى يبدو إذا ظهر و المراد بالزّينة ما تّزين فيه من الحلّي و غيره كالقرط و القلادة و الخاتم و السّوار و الخلخال و الثّياب و الكحل و نحو ذلك ممّا يتعارف في كلّ أوانٍ و بلادٍ و يحتمل أن يراد موضع هذه الأشياء المذكورة على طريق مجاز الحذف الشّائع في كلام الفصيح

و ذلك لأنّه لا وجه لتحريم النَّظر إلى الحلّي نفسه أو الثّياب كذلك إذا لم يستلزم النَّظر إلى مواضعها و على هذا يدلّ بطريقٍ دلالة التَّنبيه على تحريم النَّظر إلى جميع العضو الّذي عليه الزِّينة لا نفس الموضع وحده، و يحتمل أن يراد نفس الزِّينة أي أنّه يحرم النَّظر إليها ما دامت في مواضعها و ملابسة لها و لعلّ جهة تحريمه أنّه يورث الفتنة و أنّه يستلزم النَّظر إلى مواضعها غالباً و ذلك محرّمٌ فيحرم الملزوم و في التّعبير بتحريم الزّينة الملابسة لتلك المواضع دون المواضع نفسها مبالغة في لزوم التَّستر و تحريم النّظر إليها و ذلك أنّه لا كلام في حلّ النَّظر إلى الزِّينة الغير ملابسة فتحريم النَّظر إليها بإعتبار الملابسة يستلزم تحريم النّظر إلى تلك المواضع بطريقٍ أولىٰ ثمّ إستثنى من ذلك فقال: **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** و ذلك لأنّ تحريمه مطلقاً يستلزم الحرج المنّفي ثمّ أنّهم إختلفوا في تعيين المراد منها على أقوالٍ و الأظهر أنّها الوجه و الكفّان و ما عليهما منها هو ظاهر إختيار أكثر الأصحاب و يشهد له الرّوايات السّابقة الدالّة على جواز رؤية ذلك.

و ما رواه في الكافي عن زرارة عن أبي عبد اللّه في قوله: مَا ظَهَرَ مِنْهَا قال عليه السلام: الزّينة الظّاهرة و الكحل و الخاتم و عن أبي بصير عنه عليه السلام أنّها الخاتم.

و في الصّحيح عن الفضيل عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سألته عن الذّراعين من المرأة هما من الزِّينة التّي قال اللّه تعالى و لا يبدين زينتهنّ إلاّ لبعولتهنّ قال عليه السلام: نعم و ما دون الخمار من الزّينة و ما دون السّوار فما فوق الخمار هو الوجه و ما فوق السّوار هو الكف فهو من الزّينة الظّاهرة المستثناة و ما دونهما كالعنق و الصَّدر و الذّراع فهو من الزّينة الباطنة المحرّمة.

و هو ظاهر الدّلالة على أنّه أراد مواضع الزّينة و قيل أنّهما الكفّان و الأصابع وَ

لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ الخمار المقنعة أكّد الحكم بتحريم إبداء الزّينة بإيجاب ضرب الخمار و هو المقنعة على الجيب ردّاً على ما كان متعارفاً عند الجاهليّة من جعل الخمار إلى خلف وسعة الجيب فيبدو العنق و الصّدر ثمّ أنّه تعالى إستثنى فأباح الزّينة الباطنة للمذكورين في الآية و هم عشرة:

الأوّل: البعل و هو الزّوج و لا خلاف فيه بل يستحبّ للزّوجة ذلك كما دلَّ عليه الأخبار.

الثّاني: أباء المرأة و إن علو كالجدّ و جدَّ الجدّ و إليه الإشارة بقوله: **أَوْ ءَابَآئِهِنَّ**.

الثّالث: أبناء المرأة و أن نزلوا كإبن الإبن و هكذا و إليه الإشارة بقوله: **أَوْ ءَابَآئِهِنَّ**.

الرّابع: أبناء الزّوج و أن كانوا من زوجةٍ أخرى و إليه أشار بقوله: **أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ**.

الخامس: إخوانهنّ أي إخوان المرأة سواء كانوا من الأبوين أي كانوا إخواناً لها من أمّها و أبيها أو من أحدهما.

السّادس: بني إخوانهنّ أي أولاد الأخ.

السّابع: بني أخواتهنّ أي أولاد الأخت و لا فرق فيما ذكر في الآية من المحارم بين ذوي النّسب والرّضاع إذ يحرم بالرّضاع ما يحرم بالنّسب ولم يذكر فى الآية الأعمام و الأحوال إكتفاءً بدلالة التّنبيه على مساواتهما المذكورين في أحكام النّكاح.

الثّامن: نسائهنّ و المراد مطلق النّساء و قيل المراد المؤمنات منهنّ دون الكافرات.

التّاسع: أو ما ملكت أيمانهنّ و المراد هنا الإماء و العبيد خصيّاً كان أو فحلاً حملاً للّفظ على ظاهره.

فقد روي الشّيخ رحمه الله عن محمّد بن إسماعيل قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن متاع النّساء الحرائر من الخصيان فقال عليه السلام: كانوا يدخلون على بنات أبي الحسن و لا يتّعففن، و قيل المراد بالإماء خاصّة دون الذّكران و إن كان خصيّاً و هو مذهب أكثر أصحابنا و مع ذلك هو أوفق بالإحتياط و في هذه المذكورات أبحاث في الكتب الفقهيّة.

العاشر: التّابعين غير أولي الإربة، قيل المراد بالتّابعين من يتبعك لأجل طعامك و شرابك و المراد بغير أولي الإربة من لم يكن له حاجة إلى النّساء كالشّيخ الفاني و الأحمق الأبله الّذي ليس له عقل يصف النّساء و يدخل فيه العنّين.

و روي في الكافي عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ إلى أخره قال عليه السلام: الأحمق الّذي لا يأتي النّساء إنتهى.

و عن عبد الرّحمٰن بن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: هُو الأحمق المُولّي عليه الّذي لا يأتي النّساء إنتهى.

و نقل عن الشّافعي أنّ المراد الخصّي المحبوب و عن أبي حنيفة أنّ المراد العبيد الصّغار، و وجه الجوار في ذلك الحاجة إلى ذلك غالباً و عدم الفتنة و المراد بالطّفل الجنس الشّامل للواحد و الجمع فلهذا وصفه بصيغة الجمع بقوله: **ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ**، أي لم يطّلعوا على ذلك و لم يعرفوا ما العورة و لا يمّيزون بينها و بين غيرها و قيل المراد من لم يبلغوا أوان القدرة على الوطئ.

و أمّا قوله: **وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ**، فالمراد ما يشمل ضربها في الأرض و ضرب أحدى رجليها في الاخرى الموجب لزيادة تقعقع خلخالها حتّى يسمع ذلك

الأجانب فأنّه يورث تحريك الشّهوة و إثارة الفتنة كالنّظر إلى الزّينة الباطنة و من هذه الآية يستنبط أنّ كلّما يجّر إلى الفتنة ينبغي إجتنابه كالطّيب و الصّوت و نحو ذلك.

ففي الكافي عن الوليد بن صبيح عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: **أي إمرأةٍ تطّيبت ثمّ خرجت من بيتها فهي تلعن حتّى ترجع إلى بيتها متى ما رجعت إنتهى.**

و روي أنّه كان أميرالمؤمنين عليه السلام يكره أن يسلّم على الشّابة من النّساء مخافة الفتنة بصوتها فلو تجّرد الصّوت عن الفتنة ففيه خلاف فقيل يحرم اسماعه الأجانب و قيل بالجواز و هو الأظهر و الأقوى.

و قوله: **وَ تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ،** فالوجه فيه أنّ النّظر لمّا كان من المحرّمات و هو عامّ البلوى وكاد أن لا يسلم منه أحد ففتح اللّه تعالى للمؤمنين تفضّلاً منه باب التّوبة، و جعلها مفتاحاً للفلاح و الفوز بالجنّة أو ما يشمل سعادة الدّنيا أيضاً لأنّه باعث لتحريك الشّهوة الملزومة للوقوع بالزّناء الملزوم للفقر و الحاجة.

و في عيون أخبار الرّضا عليه السلام في باب ذكر ما كتب الرّضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان، و حرم النّظر إلى شعور النّساء المحجوبات بالأزواج إلى غيرهنّ من النّساء لما فيه من تهييج الرّجال و ما يدعو التّهيج إليه من الفساد و الدّخول فيما لا يحلّ و كذلك ما أشبه الشّعور إلاّ الّذي قال اللّه تعالى: وَ ٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إلى قوله من الثّياب غير الجلباب فلا بأس بالنّظر إلى شعور مثلهنّ و الأخبار الدالّة على أنّ الزّناء مورث الفقر كثيرة.[1]

هذا تمام الكلام في تفسير الآية على ما إستفدنا و فهمنا منها و اللّه أعلم.

وَ أَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَ ٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَآئِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

۱- أيات الأحكام للجزائري ص ۲۹۵ إلى ص ۲۹۷

ٱلْأَيَٰمَىٰ مثل اليتامى في كونها من المقلوب جمعى ليمّ و يتيم و أصلها أيايم و يتايم فجعلت الياء موضع الميم و بالعكس هكذا قيل و قال بعضهم الأيامى جمع، أيم، و أجاز سيبويه أن يكون غير مقلوب و أنّه جمع على فعالى كما قال الشّاعر:

فأن تنكحي أنكح و أن تتأيّمى وإن كنت أفتىٰ منكم أتأيّم

يقول لمحبوبته أن تتزوّجي أتزوّج و أن لم تَتزوّجي لم أتزوّج، و الأفتى أكثر فتيةً و شباباً و كيف كان فهو في الرّجل من لا مرأة له و في المرأة من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيّباً و الخطاب في قوله: **مِنْكُمْ**، للأولياء و الموالي بأن ينكحوا من لا زوج له من الأحرار و العبيد و الحرائر و الإماء و تخصيص الصّالحين بالذّكر إهتماماً بشأنهم و إعلاءً لقدرهم و لما في ذلك من التّرغيب في الصّلاح حيث يعلمون أنّ له مثل هذه المزيّة و الرغبة في تزويجهم، و قيل المعنى المراد بهم الصّالحون للنّكاح و القيام بحقوقه و قيل هو من باب تسميته الشّئ بما يؤل إليه لأنّ في ذلك إحراز للدّين و إجتناباً للمحرّم.

و قرأ بعضهم، من عبيدكم، و المعنى واحد و قوله: **إِنْ يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**، معناه لا تمنعوا من إنكاح المرأة و الرّجل إذا كانا صالحين لأجل فقرهما فأنّهم و أن كانوا كذلك فأنّ اللّه يغنيهم من فضله فأنّه واسع المقدرة كثير الفضل عليهم عليمٌ بأحوالهم و بما يصلحهم فهو يعطيهم على قدر ذلك و قال قومٌ معناه أن يكونوا فقراء إلى النّكاح يغنيهم اللّه بذلك عن الحرام فعلى الأوّل تكون الآية خاصّة في الأحرار و على الثّاني عامّة في الأحرار و المماليك إنتهى ما قاله الشّيخ في التّبيان.

قال بعض المحقّقين الظّاهر أنّ هذا و عدٌ منه سبحانه و إخبارٌ بأنّ النّكاح يكون سبباً لغناهم، كما يدلّ عليه.

ما رواه في الكافي عن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام جاء رجل إلى النّبي فشكى إليه الحاجة فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: تزّوج فتّزوج فوّسع اللّه عليه إنتهى.

و عن إسحاق بن عمّار قال قلت لأبي عبد اللّه الحديث الذّي يرويه النّاس أنّ رجلاً أتى إلى النّبي فشكى إليه الحاجة فأمره بالتّزويج ففعل ثمّ أتاه فشكى إليه الحاجة فأمره بالتّزويج حتّى أمره ثلاث مرّات فقال أبو عبد اللّه هو حقّ ثمّ قال الرِّزق مع العيال و النّساء إنتهى.

و ما رواه في الفقيه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: من ترك التّزويج مخافة الفقر فقد أساء الظنّ باللّه عزّ وجلّ أنّ اللّه يقول أن يكونوا فقراء يغنيهم اللّه من فضله إنتهى.

و في الكافي أكثر الخير في النّساء و قال عليه‌السلام: إتّخذوا الأهل فأنّه أرزق لكم و الأخبار كثيرة هذا كلّه في قوله: **يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** و بعبارةٍ أخرى هذا كلّه في أنّ النّكاح يوجب إزدياد الرِّزق، و أمّا أنّه يوجب حفظ الدّين فقد وردت الأخبار به أيضاً قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من تزّوج فقد أحرز نصف دينه و عليه بالنِّصف الأخر إنتهى.

و كيف كان ففي الآية فوائد لا بأس بالإشارة إليها.

منها، أنّ القرآن كما دلَّ على النّكاح سبب للغناء كذا دلَّ على كون الطّلاق سببٌ له لقوله تعالى: **وَ إِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ**[1] و سيأتي الكلام فيه.

و منها، أنّ الآية تضّمنت الأمر بالنّكاح كما دلَّت على الأمر بالإنكاح بناءً على أنّ الأمر بالشّيء أمرٌ بذلك الشّيء فدلّت الآية على رجحان النّكاح و يدلّ عليه.

۱- النّساء = ۱۳۰

ما رواه في الكافي في الصّحيح عن صُفوان بن مهران عن أبي عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: تزَّوجوا و زوَّجوا ألا فمن حظّ إمرئٍ مسلمٍ إنفاق قيمةٍ و أيمةٍ و مامن شئٍ يعمر في الإسلام من بيتٍ يعمر في الإسلام بالنّكاح إنتهى.

و روي عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول اللّه ما من بناءٍ في الإسلام أحبَّ إلى اللّه من التَّزويج إنتهى.

و عنه عليه السلام عن أبائه قال: قال النّبي ما إستفاد إمرؤٍ مسلمٍ فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجةٍ مسلمةٍ تسرّه إذا نظر إليها و تطيعه إذا أمرها و تحفظه إذا غاب عنها في نفسه و ماله إنتهى.

أقول و هي أقلّ من الكبريت الأحمر.

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين تزَّوجوا فأنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أحَّب أن يتَّبع سنَّتي فأنّ من سنَّتي التَّزويج إنتهى.

و منها أنّ في النِّكاح أموراً مطلوبة حسنة و فوائد مندوباً إليها مثل تكثير الولد.

فقد روى إبن بابويه في الصّحيح عن علّي بن رباب عن محمّد بن مسلم أنّ أبا عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: تزَّوجوا فإنّي مكاثرٌ بكم الأمم غداً يوم القيامة حتّى أنّ السّقط ليجئ محبنطاً على باب الجَّنة فيقال له أدخل الجَّنة فيقول لا حتّى يدخل أبواي الجّنة قبلي إنتهى.

و في خبر آخر عن الباقر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما يمنع المؤمن أن يتَّخذ أهلاً لعلّ اللّه أن يرزقه نسمة تثقل الأرض بلا إله إلاّ اللّه إنتهى.

و الأخبار في مدح النّكاح كثيرة جدّاً.

و منها دفع الوساوس الشيطانّية و الخلاص من الوحدة المنّهي عنها كما روي أنّ من تزّوج فقد أحرز نصف دينه و لعلّه السِّر في قوله عليه السلام: «**ما أحّب أنّ لي الدّنيا و ما فيها و إنّي بتُّ ليلة و ليس لي زوجة**».

و منها ما ورد في ذَّم العزّاب كما قال صلى الله عليه و آله و سلم: **رذّال موتاكم العزّاب** و في خبر آخر **شرار موتاكم العزّاب** الىٰ غير ذلك من الفوائد المتّرتبة على النِّكاح.

إذا عرفت ذلك ظهر لك إستحباب ذلك للرّجال و النِّساء و من إشتهت نفسه للنّكاح و من لا تشتهيه و بذلك أفتى أكثر الأصحاب و قيل أنّ من لا يشتهيه يستّحب له أن لا يتزّوج نسب ذلك الى الشّيخ قدس سره في المبسوط مستّدلاً لا بقوله تعالى حكاية عن يحيى عليه السلام و كان سيّد و حصوراً، و أنّ فيه تعريضاً لتّحمل حقوق الزّوجية الباعث على الإشتغال عن كثير من المقاصد الآخرويّة و أنت ترى أنّ ذلك لا يدلّ على مرجوحيّة النِّكاح إلاّ أنّه يختلف بحسب الأشخاص و الأمكنة و الأزمنة و غير ذلك من العناوين و للبحث فيه مقام آخر.

و أعلم أنّ النّكاح بالنّسبة الى العوارض ينقسم الى الأحكام الخمسة فيجب عند خوف الوقوع في الزّناء بدونه، و يحريم إذا إستلزم ترك واجب كالحّج و مع الزّيادة على الأربع.

و يكره عند عدم التُّوقان و الطّول على قولٍ و ما زاد على الواحدة عند الشّيخ.

و يستّحب فيما عدا ذلك و أمّا المباح فلا تحّقق له على المشهور و في المقام أبحاث كثيرة لم نتّعرض لها مخافة الأطناب.

جزء ١٨

وَ لْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ ٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَ ءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَاكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الإستعفاف هنا بمعنى العفَّة و يجوز أن يكون بمعنى طلب العفَّة على ما هو حقيقة الإستفعال أي يطلب من نفسه ذلك يزجرها عن إرتكاب المعاصي أو يطلب الأسباب الّتي تقمع الشّهوة و تحول بينه و بين إرتكاب الفاحشة كالصُّوم و نحوه و المراد بالنِّكاح في الآية أسبابه كالمهر و يجوز أن يكون المراد المنكوحة الحُرة الموافقة له و المناسبة لحاله أو الأعّم و حاصل المعنى أنّه تعالى أمر الّذين لم يتَّيسر لهم النّكاح بأن يجهدوا أنفسهم على الصّبر على مقاساة العزوبة و عدم إرتكاب الزّناء الى أن يمكّنهم من التَّزويج بالحرائر المومنات و لا ينكح الإماء فالأمر على هذا يكون الإستحباب.

و قال الشّيخ في التّبيان في قوله: **وَ لْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ** أمرٌ من اللّه تعالى لمن لا يجد السّبيل إلى أن، يتّزوج بأن لا يجد طولاً من المهر ولا يقدر على القيام بما يلزمها من النَّفقة و الكسوة و أن يتَّعفف و لا يدخل في الفاحشة و يصبر حتّى يغنيه اللّه من فضله.

قال بعض المفسّرين و ما أحسن ما رتَّب هذه الأوامر حيث أمر أوّلاً بما يعصم من الفتنة و يبّعد من مواقعة المعصية و هو غَّض البصر، ثمّ بالنِّكاح الّذي يحصن به الدّين و يقع به الإستغناء بالحلال عن الحرام ثمّ بالحمل على النَّفس الأمّارة بالسُّوء و عزمها عن الطّموح إلى الشّهوة عند العجز عن النِّكاح إلى أن يرزق القدرة عليه.

وَ ٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ قال في التّبيان معناه أنّ الإنسان إذا كانت له أمة أو عبداً يطلب المكاتبة و هي أن يقوم على نفسه و ينجم عليه ليؤدّي قيمة نفسه فأنّه يستَّحب للسَّيد أن يجيبه إلى ذلك و يساعده عليه لدلالة قوله: **فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** و هذا أمر ترغيب بلا خلاف عند الفقهاء و قيل هو واجب عليه إذا طلب و صورة المكاتبة أن يقول الإنسان لعبده أو أمته قد كاتبتك على أن تعطيني ألف درهم مثلاً على أنّك إذا

أدَّيت ذلك فأنت حرٌّ فيرضى العبد بذلك و يكاتبه عليه و يشهد بذلك على نفسه فمتى أدّى ذلك و هو حال الكتابة في النّجوم الّتي سمَّاها صار حرّاً و أن عجز عن إداء ذلك كان لمولاه أن يرَّده في الرَّق و عندنا ينعتق عنه بحساب ما أدّى و يبقى مملوكاً بحساب ما بقى عليه إذا كانت الكتابة مطلقة فأن كانت مشروطة بأنّه متى عجز ردَّه في الرِّق فمتى عجز جاز له ردَّه في الرّق و المراد بالخير في قوله: **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** أن يعلم منه القوّة على التكسُّب و تحصيل ما يؤدّي به مال الكتابة و قيل معناه أن علمتم منهم صدقاًو قيل ان علمتم منهم مالاً هكذا قرَّره الشّيخ قدس سره في التّبيان و هو حقّ لا مرية فيه و أمّا أنّ الأمر بالكتابة في قوله: **فَكَاتِبُوهُمْ**، للوجوب أو للإستحباب، مع طلب المملوك لذلك و علم مولاه أنّ فيه خيراً، فقيل هو للفرض، و قال مالك والثّوري و غيرهما هو للندب و هو المختار عندنا و قوله: **وَ آتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِيٓ آتَاكُمْ** قيل في معناه أن يعطي السَّيد مكاتبه من ماله الّذي أنعم اللّه عليه بأن يحطّ شيئاً منه وليس بواجبٍ فمنهم من قال يحطّ عنه ربع مال الكتابة و منهم من قال أقلّ أو أكثر.

وَ لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا قيل كان لحويطب بن عبد العزّي مملوك يقال له الصبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى فنزلت وكان لعبد اللّه بن أبّي رأس النّفاق ستّ جوار معاذة و مسيكة و أميمة و أروى و نتيلة يكرههنّ على البغاء و ضرب عليهن الضّرائب (ضرائب) فشكت أثنتان منهنّ إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية و يكنّى بالفتّى و الفتاة عن العبد و الأمة و البغاء مصدر البغي و التَّحصن التَّعفف و هذا نهيٌ عامّ لكلّ مكّلفٍ من أن يكره أمته على الزّناء طلباً لمهرها و كسبها و قوله أن أردن تحصُّناً، قيل صورته صورة الشّرط وليس بشرطٍ و أنّما ذكر لعظم الأفحاش في الإكراه على ذلك و قيل أنّها نزلت على سبب فوقع النّهي عن الفتى على تلك الصّفة.

و قال الزّمخشري الإكراه لا يتّأتى إلاّ مع إرادة التّحصن و أمر الطّبعة المواتية للبغاء لا يسمّى مكرهاً و لا أمره إكراهاً، إنتهى.

لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا الإبتغاء الطّلب أي لا تكرهوهنّ على البغاء لأجل الأموال التّي لا بقاء لها.

وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ لهنّ و قد قال رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رفع عن أُمّتي تسعة وعدَّ منها ما إستكرهوا عليه فالوزر على المكره لا على المكره و هو ظاهر.

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ اٰيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ مَثَلًا مِنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

أقسم اللّه تعالىٰ أنّه أنزل أيات، يعني دلالات و علامات (مُبيّنات) أي و اصحات ظاهرات، و مثلاً من الّذين خلوا من قبلكم، كقصّة يوسف و مريم و نوح و ابراهيم و غيرها، موعظة للمتّقين أي أنّ في هذه القصص موعظة لمن إتّقى و إتّعظ بها و المقصود من هذا الكلام أنّ ذكر القصص في القرآن لأجل الموعظة لا لغيرها و قد أشار إلى ذلك في كثيرٍ من الأيات و لا نحتاج إلى ذكر الأيات الدالّة عليها كما هو ظاهرٌ.

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَآءُ وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هذه الآية معركة الأراء بين المفسّرين كيف و هي من مشكلات الأيات في القرآن و لذلك تراهم إختلفوا في تفسيرها و تبيين المراد منها و كلّ واحدٍ منهم فسّرها على ما فهم منها و نحن نشير إلى بعض ما قيل فيها.

قال في التّبيان، قوله: ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰوةٍ، قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّ اللّه هادي السّموات و الأرض ذكره إبن عبّاس في روايةٍ و أنس.

الثّاني: أنّه منّور السّموات و الأرض بنجومها و شمسها و قمرها.

في روايةٍ أخرى عن إبن عبّاس، ثمّ قال تعالى: **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** الهاء في قوله: **نُورِهِ** قيل أنّها تعود على المؤمن و تقديره مثل النُّور الذّي في قلبه بهداية اللّه و هو قول أبّي إبن كعب و الضّحاك و قال إبن عبّاس هي عائدة على إسم، اللّه، و معناه مثل نور اللّه الّذي يهدي به المؤمن.

و قال الحسن مثل هذا القرآن في القلب كمشكاةٍ و قيل مثل نوره و هو طاعته و قيل مثل نور محمّدٍ و قال سعيد بن جبير النُّور محمّد كأنّه مثل محمّدٍ رسول اللّه فالهاء كناية عن اللّه و المشكوة الكوّة التّي لا منفذ لها.

و قيل هو مثل ضرب لقلب المؤمن و المشكاة صدره و المصباح القرآن و الزّجاجة قلبه في قول أبّي إبن كعب فهو بين أربع خلال إن أعطي شكر و إن إبتلي صبر و إن حكم عدل و إن قال صدق و قيل المشكاة عمود القنديل الذّي فيه الفتيلة و هو مثل الكوّة.

و قال كعب الأحبار المشكاة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و المصباح قلبه شبّه صدر النّبي بالكوكب الدُّري ثمّ رجع إلى المصباح أي قلبه شبّهه بالمصباح كأنّه في زجاجة و الزّجاجة كأنّها كوكبٌ درّي يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيّةٍ و لا غربيّةٍ يكاد زيتها يضيئ، أي يتّبين للنّاس ولو لم يتكلّم أنّه نبّي و من قال، اللّه نور السّموات يعني منّورها، بالشّمس و القمر و النّجوم ينبغي أن يتّبعه ضرب المثل بالمشكاة على أنّ ذلك مثل ما في مقدوره ثمّ تنبث الأنوار الكثيرة عنه ضرب اللّه تعالى لنوره الذّي هو هدايته في قلوب المؤمنين بالمشكاة و هي الكوّة التّي لا منفذ لها إذا كان فيها مصباح و هو السّراج و يكون المصباح في زجاجة و تكون الزّجاجة مثل الكوكب الدُّري ثمّ عاد إلى وصف المصباح فقال يوقد من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، أي يشتعل من دهن شجرةٍ مباركةٍ و هي الزّيتونة الشّامية قيل لأنّ زيتون الشّام أبرك و قيل وصفه بالبركة لأنّ الزّيتون يورق من أوّله إلى أخره.

و قوله: **لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ** قال إبن عبّاس معناه لا شرقيّة بشروق الشّمس عليها فقط و لا غربيّة بغروبها عليها فقط بل هي شرقيّة غربيّة تأخذ حظّها من الأمرين فهو أجود لزيتها وقيل معناه أنّه وسط البحر.

روي ذلك عنه أيضاً و قال قتادة هي ضاحية للشّمس و قال الحسن ليست من شجر الدُّنيا: **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ** أي زيتها من صفاءه و حسنه يكاد يضئ من غير أن تمسسه نار و تشتعل فيه و قال إبن عمر الشّجرة إبراهيم و الزّجاجة الّتي كأنّها كوكبٌ درّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، و قوله: **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** معناه نور الهدى الى توحيده على نور الهدى بالبيان الّذي أتى من عنده و قال زيد إبن أسلم نورٌ على نورٍ، معناه يضئ بعضه بعضاً، و قيل معناه أنّه يتقلّب في خمسة أنوار فكلامه نور، و علمه نور، و مدخله نور، و مخرجه نور، و مسيره نور الى النُّور يوم القيامة الى الجنّة.

و قال مجاهد ضوء النّار على ضوء النّور الزّيت على ضوء المصباح على ضوء الزّجاجة.

و قوله: **يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَنْ يَشَآءُ** أي يهدي اللّه لدينه و إيمانه من يشاء بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان إذا علم أنّ له لطفاً و قيل معناه يهدي اللّه لنبوّته من يشاء ممّن يعلم أنّه يصلح لها، و قيل يهدي اللّه لنوره، أي يحكم بإيمانه لمن يشاء ممّن آمن به، و قوله: **وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ** معناه يضرب اللّه الأمثال للذين يفكرّون فيها و يعتبرون بها **وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ** لا يخفىٰ عليه خافية.

هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان بألفاظه و عباراته و أنمّا نقلناه بطوله و تفصيله لأنّ ما ذكره قدس سره حاوٍ لأكثر الأقوال في المقام و لا نحتاج بعده الى ما ذهب اليه من تأّخرّ عنه لأنّهم أخذوا ما أخذوا منه بتغيير في الألفاظ و العبارات كصاحب البيان و غيره من مفسّري الشّيعة، و أمّا العامّة فقد أطالوا الكلام في تفسير الآية و ذكروا فيها ما ذكروا من عند أنفسهم و لا سيّما الرّازي في تفسيره الكبير فأنّه نقل عن

الغزالي ما قاله في كتابه الموسوم بمشكاة الأنوار و إعترض عليه بما شاء و أراد كما هو دأبه في جميع منقولاته ثمّ فصَّل الكلام في تفسير الآية بما لا فائدة في ذكره لأنّه لم يفهم ما قال و نحن أيضاً بعد إمعان النّظر لم نفهم منه شيئاً و ذلك لأنّه خرج عن موضوع البحث حول الآية و دخل فيما لا مناسبة له بالآية الشّريفة و هكذا الكلام فيما ذكره غيره من مفسّريهم كالطّبري و الزّمخشري و الألوسي و أمثالهم و من أراد الوقوف على ما ذكروه في تفاسيرهم فعليه بمراجعة كتبهم و لنرجع الى تفسير الآية.

فنقول **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** النُّور الضَّوء المنتشرة الّذي يعين على الإبصار، و ذلك ضربان، دنيّوي و أخروي، و الدنّيوي ضربان معقولٌ و محسوسٌ و المعقول هو الّذي يدرك بعين البصيرة و هو ما إنتشز من الأمور الإلهية كنور العقل و نور القرآن، و المحسوس يدرك بعين البصر و هو ما إنتشر عن الأجسام النيَّرة كالشّمس و القمر و النُّجوم و السّراج و أمثالها من النَّيرات ثمّ أنّ النُّور ظاهرٌ بالذّات و مظهرٌ للغير و معنى كونه ظاهراً بالّذات أنّ النورانيّة ذاتيّةٌ له غير عارضة عليه كالرّطوبة للماء و السُّخونة و الحرارة للنّار و معنى كونه مظهراً لغيره أنّ ظهور الأجسام و المرّئيات به و هذا بعينه خاصيّة الوجود فأنّه ظاهرٌ بالّذات و مظهرٌ للغير و نعني بالوجود حقيقة الوجود لا المفهوم العّام البّديهي فالوجود الحقيقي قائم بنفسه و غيره كائناً ما كان قائم به فهو الظّاهر بالّذات و المظهر للغير و لأجل ذلك ترى حكماء الإشراق يعبّرون عن الواجب بنور الأنوار و حكماء المشائين يعبّرون عنه بواجب الوجود فقوله: **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** على مسلك الإشراقيين معناه أنّ ظهور السَّموات و الأرض بنوره تعالى و على مسلك المشّائين معناه وجود السَّموات و الأرض قائم به لأنّه تعالى هو الحيّ القيّوم قائم بذاته و غيره قائم به و على هذا التّفسير لا نحتاج الى تأويل النُّور بالمنّور كما ذهب اليه بعض المفسّرين و أن أمكن القول بأنّ المراد بالمنّور هو معطي النُّور و هو غير منافٍ لما ذكرناه.

و قال بعض المفسّرين، **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** أي ذو نور السموات و الأرض فحذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه كما يقال رجلٌ عدلٌ، أي ذو عدلٍ.

أقول ما ذكره ليس بشيءٍ لأنّ قولنا رجلٌ عدل، ليس من قبيل حذف المضاف بل هو من قبيل حمل المصدر على الذّات مبالغة أي كأنّه نفس العدل من شدّة عدالته و على هذا فقولنا اللاّه نور السّموات معناه هو نفس النُّور لا ذو نور السّموات، إذ ليس النُّور عارضاً على ذاته كما أنّ العدل عارض على ذات الرّجل، بل الذّات في الواجب عين النُّور و نفسه فأنّ الصّفات عين ذاته و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى هو نور السّموات و الأرض أو معطي النُّور لهما و المأل واحد و المراد بالسّماوات و الأرض جميع الموجودات فيهما و هو ظاهر و حيث أنّ الأنوار الإلٰهيّة لها مصاديق كثيرة فتارةً يطلق على القرآن:

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ آتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ**(٣) و غيرها من الأيات.

قال تعالىٰ: **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** أي أنّ هذه الأنوار في عالم الوجود كلّها يرجع إلى نوره تعالىٰ فأنّه لا مؤثّرٌ في الوجود إلاّ هو.

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ المشكاة بكسر الميم الكُوّة غير النّافذة، و قيل هي الحديد أو الرّصاصة التّي يوضع فيها الزّيت و قيل هي العمود الّذي على رأسه المصباح، و قيل ما يعلّق فيه القنديل من الحديدة و في القاموس و شرحه المشكاة كلّ كوّةٍ غير نافذة و كلّ ما يوضع فيه أو عليه المصباح.

١- المائدة = ١٥
٢- المائدة = ٤٤
٣- المائدة = ٤٦

و قيل المشكاة حبشيّة معرّبة إذا عرفت هذا فنقول الضّمير في نوره، عائد على اللّه تعالى و هذا ممّا لا خلاف فيه، و الكاف في قوله: **كَمِشْكٰوةٍ**، من أداة التّشبيه فقد جاء التّشبيه في المقام بواسطة الأداة و هى الكاف فالمشّبه هو النُّور و المشبّه به المشكاة و حرف التّشبيه الكاف و وجه الشَّبه الإنارة فقد كمل التَّشبيه بأركانها الأربعة و إختلفوا في هذا التّشبيه هل هو تمثيلّيٌ أي مرّكبٌ قصد فيه تشبيه جملةٍ بجملةٍ من غير نظرٍ إلى مقابلة جزء بجزء بل قصد تشبيه نوره بهذه الجملة من النُّور الّذي تتَّخذونه و هو أبلغ صفات النُّور عندكم أعني به السّراج في المشكاة.

أو هو غير تمثيلّيٌ أي غير مرّكبٍ قصد فيه مقابلة جزء بجزء و على التَّقديرين هو من تشبيه المعقول بالمحسوس و حيث أنّ المشبّه به يكون أقوى من المشبّه في التّشبيه شبَّه النُّور بالمشكاة التّي فيها مصباح و هو في زجاجةٍ فأنّ نور المصباح الّذي في زجاجةٍ في المشكاة أقوى حسّاً من غيره و لعلّه لهذا يوضع الزّجاجة التّي فيها مصباح في المشكاة و يمكن أن يكون وجه الشَّبه هو كون النُّور تحت الحجب و اللّه أعلم.

اَلزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ ثمّ وصف اللّه الزّجاجة التّي يكون المصباح فيها بقوله: **كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** الكاف للتّشبيه أي أنّ الزّجاجة كأنّها كذلك، الزَّجاج بفتح الزّاء و ضمّها و كسرها جسمٌ شفاف يصنع من الرّمل، و القلي و الإناء و القطعة منه الزّجاجة بتلىء الزّاي أيضاً، والدُّري بضّم الدّال من غير همزٍ و بالتّشديد منسوبٌ إلى الدُّر شبّه به لصفائه و إضائته و المعنى أنّ الزّجاجة التّي فيها مصباح كأنّها كوكبٌ درّي في صفائها و إضائتها و قوله: **يُوقَدُ**، أصل الوقود يقال للحطب المجعول للوقود و قد يستعار ذلك للتّلألوء فيقال إتَّقد الجوهر و الذَّهب و هذا هو المراد في المقام و على هذا فمعنى الكلام أنّ الكوكب الدُّري يتلالو من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ أي يشتعل من دهن شجرةٍ مباركةٍ وصفها بالبركة لأنّ الزَّيتون يورق من أوَّله إلى أخره.

و قوله: لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ، الظّاهر أنّ قوله: لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ وصفٌ للشَّجرة أي أنّ الشَّجرة كذلك و إختلفوا في معنى الكلام فقال قوم لا شرقيّة بشروق الشّمس عليها فقط و لا غربيّة بغروبها عليه فقط بل هي أي الشَّجرة تأخذ حظّها من الأمرين فهو أجود لزيتها.

و قال صاحب الكشّاف أنّ الشّمس و الظّل يتعاقبان عليها و ذلك أجود لحملها و أصفى لدهنها، و قيل أنّها ليست من شجر الدُّنيا و الأقوال فيها كثيرة.

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ أي زيتها من صفائه و حسنه يكاد يضيئ من غير أنّ تمَّسه نار و تشتعل فيه.

نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

قيل معناه نور الهدىٰ إلىٰ توحيده على نور الهدىٰ بالبيان الذّي أتى به من عنده، و قيل معناه يضيئ بعضه بعضاً، و قيل أنّه يتَّقلب في خمسة أنوار فكلامه نور، و علمه نور، و مدخله نور، و مخرجه نور، و مسيره نور إلى النُّور يوم القيامة إلى الجنَّة.

و عن مجاهد أنّه قال، ضوء النّار على ضوء النُّور على ضوء الزَّيت على ضوء المصباح على ضوء الزّجاجة و قوله: يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ أي لمعرفته و دينه و إيمانه من يشاء من عباده بأن يفعل له لطفاً يختار عنده الإيمان، و قيل يهدي اللّه لنبّوته من يشاء ممّن يعلم أنّه يصلح لها، و قيل يحكم بإيمان من يشاء ممّن أمن به و يضرب اللّه الأمثال لمن يتفكّر فيها و يعتبر بها، وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ، لا يخفى عليه خافية لأنّه قد أحاط بكلّ شيئ علماً و قد مرَّ الكلام في معنى علمه تعالى غير مرّةٍ فيما مضى هذا كلّه تفسير ألفاظ الآية و أمّا المراد منها فاللّه أعلم و الإنصاف أنّ الآية من المتشابهات بل المشكلات التّي لا يعلم تفسيرها إلاّ اللّه و الرّاسخون في العلم و أنّما قلنا ما قلنا في تفسيرها تبعاً للقوم فلابّد لنا من نقل بعض الأخبار الواردة في الآية من طريق أهل البيت فأنّهم أدرى و اعرف بما في البيت.

منها ما رواه في الكافي بأسناده عن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ هي فاطمة عليها السلام ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الحسن، المصباح في زجاجة، الحسين عليه السلام، الزّجاجة كأنّها كوكبٌ درّي، فاطمة كوكبٌ درّي بين نساء أهل الدّنيا ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ﴾، أي لا يهوديّة و لا نصرانيّة، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إمام منها بعد إمام ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، يهدي اللّه للأئمة عليهم السّلام ﴿مَن يَشَآءُ وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الحديث.

و في كتاب التّوحيد بأسناده عن عبّاس بن هلال قال سألتُ الرّضا عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ﴾، قال عليه السلام: هادي لأهل السّموات و الأرض إنتهى.

و قد روي عن الصّادق عليه السلام: أنّه سئل عن قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ﴾ فقال عليه السلام: هو مثل ضربه اللّه لنا فالنّبي و الأئمّة صلوات اللّه عليهم من دلالات اللّه و أياته التّي يهتدي بها إلى التّوحيد و مصالح الدّين و شرائع الإسلام و السُّنن و الفرائض و لا قوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم إنتهى.

و بحديثٍ أخر عن الفضل بن يسار قال قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ﴾ قال عليه السلام: كذلك اللّه عزّ وجلّ قلت ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، قال عليه السلام: محمّد، قلت ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال: صدر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قلت ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، قال: فيه نور العلم يعني النّبوة قلت ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ قال: علم رسول اللّه إلى قلب علّي عليه السلام قلت ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ قال: لأيّ شيءٍ تقرأ كأنّها قلت فكيف جعلت فداك

قال عليه السلام: كأنّه، قلت يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ، قال عليه السلام: ذلك أميرالمؤمنين علّي بن أبي طالب عليه السلام لا يهودّي و لا نصرّانى قلت يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ، قال عليه السلام: يكاد العلم يخرج من فم العالم من أل محمّد من قبل أن ينطق به، قلت نُورٌ عَلٰى نُورٍ، قال عليه السلام: الإمام إثر الإمام إنتهى.

و بأسناده عن عيسى بن راشد عن محمّد بن علّي بن الحسين عليهم السّلام في قول اللّه عزّ وجلّ: كَمِشْكٰوةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ، قال عليه السلام: المشكاة نور العلم في صدر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، اَلْمِصْبٰاحُ فِي زُجٰاجَةٍ اَلزُّجٰاجَةُ صدر علّي عليه السلام صار علم النّبي إلى صدر علّي علَّم النّبي علّياً عليه السلام، اَلزُّجٰاجَةُ كَأَنَّهٰا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبٰارَكَةٍ قال عليه السلام: نور العلم لاٰ شَرْقِيَّةٍ وَ لاٰ غَرْبِيَّةٍ قال: لا يهوديّة و لا نصرانيّة يَكٰادُ زَيْتُهٰا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نٰارٌ قال عليه السلام: يكاد العالم من أل محمّد يتكلّم بالعلم قبل أن يسأل نُورٌ عَلٰى نُورٍ يعني إماماً مؤيّداً بنور العلم و الحكمة في إثر الإمام من أل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك من لدن آدم النبي إلى أن تقوم السّاعة فهؤلاء الأوصياء الّذين جعلهم اللّه عزّ وجلّ خلفاء في أرضه و حججه على خلقه لا تخلو الأرض في كلّ عصرٍ من واحدٍ منهم إنتهى.

و في روضة الكافي بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في حديثٍ طويلٍ ثمّ أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وضع العلم الّذي كان عنده عند الوّصي و هو قول اللّه تعالى: اَللّٰهُ نُورُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يقول أنا هادي السّموات و الأرض مثل العلم الّذي أعطيته و نوري الّذي يهتدى به مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكٰوةٍ فِيهٰا مِصْبٰاحٌ فالمشكاة قلب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و المصباح النُّور الّذي فيه العلم و قوله: اَلْمِصْبٰاحُ فِي زُجٰاجَةٍ إنّي

أريد أن أقبضك فإجعل الذّي عندك عند الوَّصي كما يجعل المصباح في الزّجاجة، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، فأعلمهم فضل الوَّصي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ فأصل الشَّجرة المباركة إبراهيم عليه السلام. رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(١) و هو قول اللّه عزّ وجلّ: رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ(٢) و هو قول اللّه عزّ وجلّ: إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣) لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يقول ألستم بيهود فتّصلوا قبل المغرب و لا نصارى فتّصلوا قبل المشرق و أنتم على ملّة إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم و قد قال اللّه عزّ وجلّ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لَا نَصْرَانِيًّا وَ لَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ(٤).

و قوله: يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ(٥) يقول مثل أولادكم الّذين يولدون مثل الزّيت الّذي يعصر من الزّيتون يكادون أن يتكلّموا بالنّبوة و أن لم ينزل عليهم ملك إنتهى.

أقول الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثّقلين(٦) و الأحاديث كثيرة في الباب و أن كان الفهم قاصراً عنها أيضاً.

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَ ٱلْآصَالِ، رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَ إِيتَاءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَ ٱلْأَبْصَارُ

١- هود = ٧٣
٢- هود = ٧٣
٣- آل عمران = ٣٣/٣٤
٤- آل عمران ٦٧
٥- النور = ٣٥
٦- ج ٣ ص ٦٠٢ إلى ص ٦٠٥

قال صاحب الكشّاف في بيوت، يتعلّق بما قبله أي كمشكاةٍ في بعض بيوت اللّه و هي المساجد كأنّه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التّي من صفتها كيت و كَيت، أو بما بعده و هو يسبّح أي يسبّح له رجال في بيوت و فيها تكرير كقولك زيد في الدّار جالس فيها، أو بمحذوفٍ كقوله في تسع أيات أي يسبّحوا في بيوت و المراد بالإذن الأمر و رفعها بناءها إنتهى.

قال بعض المفسّرين الظّاهر أنّ في بيوت، مطلق فيصدق على المساجد و البيوت التّي تقع فيها الصّلاة و العلم.

و قال مجاهد بيوت الرّسول و قال إبن عبّاس و الحسن و مجاهد هي المساجد التّي من عادتها أن تنَّور بذلك النّوع من المصابيح و قيل، الكعبة و بيت المقدّس و مسجد الرّسول و مسجد قبا.

أقول الحقّ انّ في بيوت، يتعلّق بما بعده و هو يُسبَح بفتح الباء بصيغة المجهول و التّقدير يسبَّح له رجال في بيوتٍ أن قرئ بكسر الباء في يسبّح أو يسبَّح له أن قرئ بفتح الباء بالغدّو و الإصال في بيوتٍ أذن اللّه أن ترفع و يذكر فيها إسمه و أنّما قلنا ذلك لأنّ إبن عامر و إبن شاهي و غيرهما قرأوا، يُسبَّح بفتح الباء و الباقون بكسرها فمن فتح الباء و قرأ على ما لم يسمّ فاعله فقد تمَّ الكلام عند قوله: **وَ ٱلْأٰصَالِ** و من كسر الباء فالفاعل.

قوله: **رِجَالٌ** أي يسبَّح فيها **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ**، و أكثر القُرّاء على الكسر و عليه المصاحف و على هذا فتقدير الكلام يسبّح له فيها بالغدوّ و آلاصال، رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللّٰهِ في بيُوت أذِن اللّه أن تُرفع ويُذكر فيها إسمه.

و أمّا البيوت فالمراد بها بيوت محمّد و أله الطّاهرين و ذلك لأنّ البيت عند الإطلاق لا يراد به المسجد فأنّ لفظ البيت منصرفٌ عنه و قد دلَّت الأخبار على أنّ المراد بها بيوت أل محمّدٍ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ما رواه في البحار بأسناده عن بريدة قال قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ فقام إليه رجل فقال أيّ بيوت هذه يا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال بيوت الأنبياء فقام إليه أبو بكر فقال يا رسول اللّه هذا البيت منها و أشار إلى بيت عليٍّ عليه السلام و فاطمة قال صلى الله عليه وآله وسلم نعم من أفضلها إنتهى.

و بأسناده عن محمّد بن الفضل قال سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ قال عليه السلام: بيُوت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ بيوت عليٍّ منها إنتهى.

مارواه عن إبن عبّاس قال كنت في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و قد قرأ القارئ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ فقلت يا رسول اللّه ما البيوت فقال صلى الله عليه وآله وسلم بيوت الأنبياء و أومى بيده إلى منزل فاطمة عليها السلام إنتهى.

ما رواه بأسناده عن عيسى بن داود قال حدَّثنا الإمام موسى إبن جعفر عليه السلام عن أبيه في قول اللّه عزّ وجلّ: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ قال بيُوت أل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بيت عليٍّ و فاطمة و الحسن و الحسين و جعفر و حمزة قلت بالغُّدو و الإصال، قال الصّلاة في أوقاتها قال ثمّ وصفهم اللّه عزّ وجلّ و قال: رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ قال عليه السلام: هم الرّجال لم يخلط اللّه معهم غيرهم الخبر.

ما رواه بأسناده عن جابر عن أبي جعفر في قوله تعالىٰ: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ قال عليه السلام: هي بيوت الأنبياء و بيت عليٍّ منها إنتهى.

مارواه بأسناده عن أبي الحسن الأوّل قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ اللّه تعالى إختار من البيوت أربعة فقال عزّ وجلّ: إنّ

ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَ نُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ إنتهى.

ما رواه بأسناده عن الثّمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال أتىٰ قتادة أبا جعفر عليه السلام فقال عليه السلام له أنت فقيه أهل البصرة قال: نعم فقال له أبو جعفر ويحك ياقتادة أنّ اللّه عزّ وجلّ خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه فهم أوتاد في أرضه قوّام بأمره نجباء في علمه إصطفاهم قبل خلقه أظلّهم عن يمين عرشه قال فسكت قتادة طويلاً ثمّ قال أصلحك اللّه و اللّه لقد جلست بين يدي الفقهاء و قدّام إبن عبّاس فما إضطرب قلبي قدّام واحدٍ منهم ما إضطرب قدّامك فقال له أبو جعفر أتدري أين أنت بين يدي بيوت أذن اللّه أن ترفع و يذكر فيها إسمه يسبّح له فيها بالغدُّو و الإصال رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللّه و أقام الصّلاة و إيتاء الزّكوة، فأنت ثمّ و نحن أولئك فقال له قتادة صدقت و اللّه جعلني اللّه فداك و اللّه ما هي بيوت حجارة ولا طين و تمام الخبر في كتاب الإحتجاجات إنتهى.

أقول الأحاديث من طرق الشّيعة كثيرة.

و أمّا من طرق العامّة فقد روى الحافظ الحسكاني وهو من أعيان العامّة في كتابه المسّمى بشواهد التّنزيل بأسناده عن أبي داوود عن أبي برزة.

قال قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ قال هي بيوت النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و قيل يا رسول اللّه أبيت علّيٍ و فاطمة منها قال صلى الله عليه وآله وسلم: من أفضلها إنتهى.

و ما رواه بأسناده عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مالك و عن بريدة قالا قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ الىٰ قوله: وَ ٱلْأَبْصَٰرُ فقام رجل و قال أيّ بيوت هذه يا رسول اللّه فقال صلى الله عليه وآله وسلم بيوت الأنبياء فقام إليه أبو بكر فقال يا رسول اللّه هذا البيت منها (لبيت علّي و فاطمة) قال نعم من أفضلها انتهى.

ما رواه بأسناده عن أنس و بريدة قالا قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية في بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ الىٰ قوله: وَ ٱلْأَبْصَارُ فقام إليه رجل فقال يا رسول اللّه أيّ بيوت هذه قال بيوت الأنبياء فقام إليه أبو بكر فقال يا رسول اللّه هذا البيت منها (لبيت علّيٍ وفاطمة) قال صلى الله عليه وآله وسلم نعم من أفاضلها إنتهىٰ.

أقول الأخبار الواردة عن الطّريقين كثيرة جدّاً و فيما ذكرناه كفاية لأولي الأبصار و الدّراية فهذه الأخبار تنادي بأعلى صوتها أنّ المراد بالبيوت في الآية هي بيوت الأنبياء و بيت علّيٍ و فاطمة من أفضلها و هكذا بيوت الأئمّة لعدم القول بالفعل و إلى هذا المعنىٰ أشار الإمام الهادي عليه السلام في الزّيارة الجامعة لجميع الأئمة عليهم السّلام حيث قال:

خَلقَكُم الله اَنواراً فَجَعلكُم بعَرشِه مُحدِقين، حَتّىٰ مَنَّ عَلَينا بِكُم فَجعَلكُم فى بيُوتٍ اَذِنَ الله تُرفَعَ و يُذكَر فيها اسمَهُ ألخ.

و إذا عرفت المراد بحسب الأخبار الواردة في الباب فأعلم.

أنّ البيت كما يطلق على بيت الحجر و الطّين، يطلق على البيت المعنّوي فأنّه شائع بين العرب و العجم التّعبير عن الأنساب الكريمة و الأحساب الشّريفة بالبيوت كما يقال، فلانٌ له بيتٌ شريفٌ، أي شرفٌ و نسبٌ حال و على هذا فالمراد برفعها أي رفع البيوت في قوله (أذن اللّه أن ترفع) ليس رفعها بالطّين و الحجارة كما زعمه صاحب الكشّاف و من تبعه من مفسّري العّامة حيث إستّدلوا بقوله تعالىٰ: **وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ**[١] بل المراد رفعها المعنوي الّذي لا يعقله و لا يفهمه إلاّ المنصف المنزّه عن اللجّاج و العناد و أيّ ربطٍ بين قوله تعالى: **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ** و بين اذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) اليس قوله تعالىٰ: **يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ ٱلْآصَالِ** قرنية علىٰ أنّ

١- البقرة = ١٢٧

المراد بالرَّفع هو الرفع المعنوي الّذي يحصل بالتَّسبيح لا الرَّفع الصُّوري الّذي يحصل بالطِّين و الحجارة و الخشب و من يضلل اللّه فما له ما هادٍ و أمّا قول من قال بأنّ المراد بها مساجد اللّه فهو أيضاً باطل لا محّصل له و ذلك لأنّ البيت إذا لم يضف الى اللّه لا يحمل على المسجد و ما نحن فيه ليس كذلك لأنّه لم يقل في بيوتي رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ و لا بيعٌ عن ذكر اللّه و أقام الصّلاة و إيتاء الزّكوة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب و الأبصار.،

و بما ذكرناه في تفسير الآية السّابقة ظهر معنى هذه الآية أيضاً و ذلك لأنّ اللّه تعالى وصف من في البيوت و قال رجال لا تلهيهم تجارةٌ و لا بيعٌ عن ذكر اللّه و هؤلاء الرّجال هم الّذين يسبّحون اللّه فيها بالغُّدو و الإصال و يخافون يوماً تتّقلب فيه القلوب و الأبصار و هو يوم القيامة و هذه الآية من أدّل الدَّلائل على أنّ المراد بالبيوت بيوت النُّبوة و على هذا فالمراد بالرّجال الأئمّة و عباد اللّه الصّالحين من شيعتهم و المراد بذكر اللّه ليس ذكر اللّه بلسانهم فقط بل المراد به الذّكر اللّساني و الحالي و العملي و أن شئت قلت ذكر اللّه على كلّ حالٍ، و قوله: **وَ إِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ** أي الإتيان بها في أوقاتها مع شرائطها وفي قوله: **يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَ ٱلْأَبْصَارُ**، إشارة إلىٰ هول المطلع.

و من المعلوم أنّه لا يخاف منه إلاّ المؤمن و أمّا الفاسق و الكافر و الّذي لا يعتقد بالقيامة فلا يخاف لجهله و كيف كان فأنّ هذه الأوصاف لا توجد إلاّ في المؤمن الكامل في إيمانه و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَ ٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** و المعنىٰ أنّهم يفعلون ذلك طلباً لمجازات اللّه إيّاهم بأحسن ما عملوا من ثواب الجنّة و يزيدهم علىٰ ذلك من فضله وكرمه ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّه يرزقهم على أعمالهم و طاعاتهم تفضّلاً منه بغير حساب فأنّ الثّواب لا يكون إلاّ بحسابٍ و التّفضل يكون بغير حساب ففي الآية إخبارٌ بالثّواب و التّفضل معاً.

■

وَ ٱلَّـذِينَ كَـفَرُوٓا أَعْـمٰالُهُمْ كَسَـرٰابٍ بِـقِيعَةٍ
يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مٰآءًحَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءَهُ لَمْ يَـجِدْهُ
شَيْئًا وَ وَجَدَ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰيهُ حِسٰابَهُ وَ ٱللّٰهُ
سَرِيعُ ٱلْحِسٰابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِـي بَـحْرٍ
لُجِّيٍّ يَغْشٰيهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَـوْقِهِ
سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰآ أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرٰيهٰا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللّٰهُ لَـهُ
نُورًا فَمٰا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱللّٰـهَ
يُسَبِّحُ لَـهُ مَـنْ فِـى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ
وَٱلطَّيْرُ صٰآفّٰـاتٍ كُـلٌّ قَـدْ عَـلِمَ صَـلٰاتَهُ وَ
تَسْبِيحَهُ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَ لِلّٰهِ
مُـلْكُ ٱلسَّـمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَـى ٱللّٰـهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُزْجِي سَحٰابًا ثُمَّ
يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكٰامًا فَـتَرَى ٱلْـوَدْقَ
يَخْرُجُ مِنْ خِلٰالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّـمٰآءِ مِـنْ
جِبٰالٍ فِيهٰا مِنْ بَرَدٍ فَـيُصِيبُ بِهِ مَـنْ يَشٰآءُ وَ
يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشٰآءُ يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصٰارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللّٰهُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ إِنَّ
فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى ٱلْأَبْصٰارِ ﴿٤٤﴾ وَ ٱللّٰـهُ
خَلَقَ كُلَّ دٰآبَّةٍ مِنْ مٰآءٍ فَمِنْهُمْ مَنْيَمْشِي عَلٰى
بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلٰى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلٰىٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ إِنَّ

ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ
مُّبَيِّنَٰتٍ وَ ٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

◄ اللّغة

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ: السَّراب بفتح السّين شعاع يتَّخيل كالماء يجري على الأرض نصف النّهار حين يشتّد الحرّ، و أنّما قيل سراب لأنّه يتسرّب أي يجري كالماء.

بِقِيعَةٍ: بكسر القاف و سكون الياء و فتح العين جمع قاع، و هو المنبسط من الأرض الواسع و فيه يكون السّراب و يجمع أيضاً على، أقواع، و قيعان و الشّعاع بالقاع يتّكشف فيرى كالماء فإذا قرب منه صاحبه أنفش كالضباب فلم يره شيئاً كما كان و قال إبن عبّاس القيعة الأرض المستوية.

ٱلظَّمْـَٔانُ: الظَّمأ العطش.

لُّجِّيٍّ: بضّم اللاّم و كسر الجيم لجّة البحر معظمه الذّي تراكب فيه أمواجاً لا يرى ساحله.

يَغْشَىٰهُ: أي يستره.

صَٰٓفَّٰتٍ: أي في حال إصطفافها في الهواء.

يُزْجِي: أي يسوق و منه زجا الخراج إذا إستاق إلى أهله و أزجاه فلان أي ساقه.

رُكَامًا: الرُّكام بضّم الرّاء المتراكب بعضه فوق بعضٍ.

ٱلْوَدْقَ: بفتح الواو و سكون الدّال و القاف المطر يقال ودقت السّحابة إذا أمطرت.

خِلَٰلِهِۦ: بكسر الخاء جمع خلل.

سَنَا بَرْقِهِۦ: أي ضياء برقه و قيل ضوء برقه.

◀ الإعراب

بِقِيعَةٍ في موضع جرّ صفة لسراب والياء في، قيعةٍ، بدل من واو لسكونها و إنكسار ما قبلها لأنّهم قالوا في وقاع أقواع يَحْسَبُهُ صفة لسراب شَيْئًافي موضع المصدر أَوْ كَظُلُمٰاتٍ معطوف على، كسراب، في بحرٍ، صفة لظلمات و يَغْشٰيهُ صفة أخرى و مِنْ فَوْقِهِ صفة لموج ظُلُمٰاتٌ بالرّفع خبر مبتدأ محذوف أي هذه ظلمات وَٱلطَّيْرُ معطوف على من و صٰآفّٰاتٍ حال من الطَّير.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمٰالُهُمْ كَسَرٰابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مٰآءً حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ ٱللّٰهَ عِنْدَهُ فَوَفّٰيهُ حِسٰابَهُ وَ ٱللّٰهُ سَرِيعُ ٱلْحِسٰابِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و ما بعدها عن أحوال الكفّار بعد ما أخبر في الآية السّابقة عن أحوال المؤمنين فقال و الّذين كفروا باللّه و رسوله و بما جاء به أعمالهم التّي عملوها و إعتقدوا أنّها طاعات و قربات كسرابٍ بقيعةٍ، شبّه أعمالهم بسرابٍ في مكانٍ منخفضٍ ظنّه العطشان ماءً، فقصده و أتعب نفسه في الوصول إليه حتّى إذا جاءه أي جاء موضعه الّذي تخيّله فيه لم يجده شيئاً أي فقده لأنّه مع الدّنو لا يرى شيئاً كذلك الكافر يظّن أنّ عمله في الدّنيا نافعة حتّى إذا أفضى إلى الأخرة لم ينفعه عمله بل صار و بالاً عليه و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مٰآءً حَتّٰىٓ إِذٰا جٰآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**، و ذلك لعدم الإخلاص في العمل مع أنّ الإخلاص يتّفرع على المعرفة باللّه و رسوله و المفروض أنّه كافر باللّه فكيف يتّمشى منه الإخلاص و إذا كان كذلك فلا قيمة لعمله.

قال صاحب الكشّاف شبّه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان و لا يتّبع الحقّ من الأعمال الصالّحة التّي يحسبها تنفعه عند اللّه و تنجيه من عذابه ثمّ تخيب في العاقبة أمله و يلقى خلاف ما قدر، لسراب يراه الكافر بالسّاهرة و قد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيأتيه فلا يجد ما رجاه و يجد زبانية اللّه عنده يأخذونه فيغلونه إلى جهنّم فيسقونه الحميم و الغساق.

أقول على قول صاحب الكشّاف يكون تشبيه أعمال الكافر بالسّراب في الأخرة و ظاهر الآية أنّ المشّبه به أعني به السّراب في الدّنيا و يؤيّده أنّ اللّه تعالى ضرب مثلاً و شبّه شيئاً بشيءٍ لكفّار في الدّنيا ليعتبروا به و يصلحوا أعمالهم فيها و أمّا الأخرة فهي دار الجزاء لاّ دار الإعتبار و بعبارةٍ أخرى المشبّه به لابدّ أن يكون محسوساً للعامل و هو ليس إلاّ في الدُّنيا لا في الأخرة ثمّ كيف يتّحقق التّشبيه بما لا يحسّ و لا يدرك في دار العمل، قيل أنّ الآية نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة قد كان تعبّد لبس المسوح و إلتمس الدّين في الجاهليّة ثمّ كفر في الإسلام.

أقول خصوصية المورد لا تنافي عموم المعنى و هو ظاهرٌ و أمّا قوله: **وَ وَجَدَ ٱللَّهَ عِنْدَهُۥ فَوَفَّيٰهُ حِسَابَهُۥ وَ ٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ،** فالضّمير في وجد، للكافر الّذي ضرب له مثلاً الظّمأن أي فوجد هذا الكافر وعد اللّه بالجزاء على عمله بالمرصاد فوّفاه حسابه عمله الّذي جازاه عليه و أفرد الضّمير في، وجد، بعد تقدّم الجمع حملاً على كلّ واحدٍ من الكفّار.

أَوْ كَظُلُمٰاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشٰيهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحٰابٌ ظُلُمٰاتٌ بَعْضُهٰا فَوْقَ بَعْضٍ إِذٰآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرٰيهٰا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمٰا لَهُۥ مِنْ نُورٍ

شبّه اللّه تعالى ثانياً أعمال هؤلاء الكفّار بالظّلمات التّي في بحرٍ لجّيٍ و هو أيضاً من تشبيه المعقول بالمحسوس و أنّما وصف البحر باللّجي و هو العميق الكثير الماء منسوبٌ إلى اللّج و هو معظم ماء البحر لأنّ هؤلاء الكفّار يرون

أعمالهم كثيرةً نافعة صالحة، لأنّهم يظّنون أنّهم يحسنون صنعاً ولم يعلموا أنّ أعمالهم لا قيمة لها عند اللّه لأنّها كظلمات في بحرٍ لجّي يغشاه أي يستره موج من فوقه موج من فوقه ظلمات، مبالغة في تشبيه هذه الأفعال بالظُّلمات المتكاثفة على ما وصفه اللّه تعالى و الظُّلمات مثل التَّحير و التَّحير الجهل الّذي يغشى القلب.

قال بعض المفسّرين أنّما أتى بتشبيهين لأنّ التَّشبيه الأوّل بالنّسبة إلى الأخرة و الثّاني بالنّسبة إلى الدّنيا فشَّبه أوّلاً أعمالهم في إضمحلالها و فقدان ثمرتها بسرابٍ في مكانٍ منخفضٍ ظنّه العطشان ماءً.

ثانياً: بالظُّلمات المتكاثفة التّي لا أصل لها و أنّما هي أمواج توجد و تفني و بعبارةٍ أخرى شبَّهها في ظلمتها و سوادها لكونها باطلة و في خلوّها عن نور الحقّ بظلمات متراكمة من لجّ البحر و الأمواج و السّحاب بحيث إذا أخرج يده لم يكد يراها مع أنّه بدون هذه الظُّلمات لا يراها و ذلك لأنّ معنى، لم يكد يراها، لم يقارب أن يراها فهي نفي مقاربة الرّؤية على الحقيقة فضلاً عن أصل الرّؤية و على هذا فوجه الشَّبه في هذا التَّشبيه هو أنّ أعمالهم كالأمواج المتراكمة المتكاثفة التّي لا حقيقة لها و هو من عجائب التَّشبيه.

وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُورٍ الظّاهر أنّ المراد منه نُور الإيمان و هو التّوحيد و النّبوة و المعاد و المراد بالجعل في الآية هو التّوفيق أي من لم يوَّفقه اللّه للإيمان فما له من نور بل هو في ظلمة الكفر و الجهل و قيل معناه من لم يجعل اللّه له نوراً يوم القيامة يهدي إلى الجنَّة فما له من نورٍ يهديه إليها، و الحقّ ما ذكرناه لأنّ من لم يجعل اللّه له نوراً في الدّنيا كيف يجعل له نوراً يوم القيامة و قد ورد أنّ الدّنيا مزرعة الأخرة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ

الإستفهام للإنكار أي ترى فهو من قبيل قوله تعالىٰ: **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**[١] أي تعلم و الرّؤية في الآية قيل هي الرّؤية بالبصر و قيل بـالقلب بدليل قوله كلٌّ قد علم صلاته و تسبيحه و الحقّ الجمع بين البصر و القلب لأنّ الرّؤية بالبصر تؤدّي إلى الرّؤية القلبيّة و قوله: **مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** يشمل جميع المخلوق من المـلائكة و الجـنّ و الإنس و الحيوان و النّبات و الجماد إلاّ أنّ تسبيح كلّ موجودٍ بحسبه و توضيح ذلك أنّ التّسبيح من السَّبح و هو في اللُّغة المر السَّريع في الماء و في الهواء يقال سبح سبحاً و سباحةً و أستعير لمرّ النُّجوم في الفلك كقوله تعالى: **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** و لجري الفرس نحو، فالسّابحات سبحاً، و لسرعة الذّهاب في العمل نحو، **إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا**[٢] و أمّا التَّسبيح فهو تنزيه اللّه تعالى و أصله المرّ السَّريع أيضاً إلاّ أنّه في عبادة اللّه و هو عامّ في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّةً إذا عرفت هذا فأعلم أنّ الأشياء كلّها تسبّح له تعالى بعضها بالتّسخير و بعضها بالإختيار و لا خلاف أنّ السَّموات و الأرض مسبحات بالتَّسخير من حيث أنّ أحوالها تدلّ على حكمة اللّه و أنّما الخلاف هل تسبّح بإختيارٍ أم بالتَّسخير قيل الآية تقتضي الإختيار.

أقول الآية لا تقتضي ذلك و أنّما هي و غيرها من الأيات دالّة على أنّها تسبّح و أمّا أنّه بإختيارٍ فلا دلالة منها عليه مضافاً الى أنّ الإختيار لا يتحقق إلاّ للموجود العامل إذ بسبب العقل يختار التَّسبيح على عدمه و السّموات و الأرض لا عقل لها و لا شعور و أمّا الموجودات فيها فالبعض منها يسبّح بالإختيار و بعضٌ آخر بغيره و لكن أصل التَّسبيح ثابتٌ في الكلّ عند الجميع:

قال اللّه تعالىٰ: **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوٰتُ ٱلسَّبْعُ وَ ٱلْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ**

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**[٣].

١- البقرة = ١٠٦ ٢- المزمل = ٧

٣- الإسراء = ٤٤

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلآئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يُسَبِّحُونَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**(٣) والأيات كثيرة.

و لا شكّ أنّ التّسبيح فرعٌ على المعرفة فكلٌّ مخلوقٍ يعرف ربّه و خالقه بحسب الفطرة إجمالاً و أنّما الخطأ و الإشتباه يقع في المصداق و تطبيق اللّفظ عليه و الأديان و الشّرائع تدلّ على ذلك و ترشد المكلّف الى الخالق الحقيقي الّذي ينبغي أن يعرف و يعبد في ذاته و صفاته و محصّل الكلام أنّ التّسبيح و هو تنزيه الرّب من شؤون المخلوق في كلّ موجودٍ بحسبه و أمّا قوله: **وَٱلطَّيْرُ صَٰٓافَّٰاتٌ**، يقال صففت كذا، جعلته على صفٍّ و أصل الصَّف أن تجعل الشّيء على خطٍّ مستوٍ، كالنّاس و الأشجار يقال صففت اللّحم قددّته و القيته صفّاً صفّاً، و الطّير مصدر طار يطير و الفاعل منه الطّائر و هو كلّ ذي جناحٍ يسبح في الهواء و جمع الطّائر، طيرٌ كراكب و ركب، و أنّما ذكر الطّير في الآيةِ مع أنّ التَّسبيح لا يختّص به لأنّ الكلام في التَّسبيح و هو من السَّبح و الطّير يسبح في الهواء لا غيره من الإنسان و الحيوان وغيرهما.

و قوله صافّات بتشديد الفاء معناه في حال إصطفافها في الهواء لأنّ الطّير في هذه الحالة أي في حالة الإصطفاف كأنّه يسبح في الهواء.

قال بعض المفسّرين لأنّها إذا صفت أجنحتها في الهواء و تمكنّت من ذلك كان في ذلك دلالة و عبرة على أنّ ممّكنها و خالقها لا يشبه شيئاً من المخلوقات و قوله: **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ**، إختلفوا في معناه على أقوالٍ:

أحدها: أنّ جميع ذلك قد علم اللّه تعالى صلاته و تسبيحه يعني دعاءه الى توحيده و تسبيحه و تنزيهه عمّا لا يليق به.

١- الرّعد = ١٣ ٢- الأنبياء = ٢٠

٣- غافر = ٧

ثانيها: أنّ الصّلوة للإنسان و التّسبيح لكلّ شئ.

ثالثها: كلٌّ قد علم صلاته أي صلاة نفسه و تسبيح نفسه فالضمير في، علم، على الأوّل يعود على إسم اللّه و على الثّاني و الثّالث، لكلّ، قال الزّمخشري لا يبعد أن يلهم اللّه الطّير دعاءه و تسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة الّتي لا يكاد العقلاء يهتدون اليها.

أقول قوله: **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ** يعني كلّ موجود في السّموات و الأرض و هو المراد بقوله: **مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ** و المعنى أنّ كلّ موجودٍ قد علم صلاته و تسبيحه و ذلك لأنّ الدُّعاء و التّسبيح فرع العلم فمن لا يعلم معنى التّسبيح كيف يسبّح و فيه إشارة الى أنّ تسبيح الموجودات يكون عن علمٍ أي يعلم كلّ واحدٍ منها أنّه مخلوق لغيره و هذا أصلٌ عقلّي لا إشكال فيه و يدلّ عليه قوله تعالى في موضع آخر: **وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** فالجهل منّا لا منها قال اللّه تعالى: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**[1] نعم، علم الموجودات هو معرفتها خالقهم لا بمعنى إدراك الكلّي الّذي هو من شؤون العقل و قوله: **وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** لا يخفى عليه شئٍ من أعمالكم و أفعالكم و نيّاتكم و هو ظاهر: **وَ لِلّٰهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ إِلَى ٱللّٰهِ ٱلْمَصِيرُ.**

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَآءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ، يُقَلِّبُ ٱللّٰهُ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى ٱلْأَبْصَارِ

اللاّم في قوله: **ولِلّٰهَ**، للإختصاص أو الملك أي أنّ اللّه تعالى هو المالك للسّموات و الأرض و من فيها من الموجودات و هو حقٌّ و قوله: **إِلَى ٱللّٰهِ**

١- الاسراء = ٨٥

ٱلْمَصِيرُ، قيل معناه اليه المرجع يوم القيامة الى ثوابه أو عقابه و عليه جميع المفسّرين و لقائل أن يقول الثّواب و العقاب للمكلّف بالتّكليف و من شرائطه العقل فمن لا عقل له لا تكليف له و من لا تكليف له لا ثواب له و لا عقاب و من المعلوم أنّ الحيوان و الجماد و النّبات لا عقل لها فلا ثواب لها و لا عقاب فكيف ترجع الى يوم القيامة للثّواب و العقاب اللّهم إلاّ أن يقال أنّ تفسيرهم للكلام ناظر الى المكلّفين دون غيرهم و كيف كان فالأمر سهل لوضوح المعنى و الحقّ في المقام أن يقال أنّ المقصود من الآية هو رجوع الكلّ الى اللّه يقال صار اليه إذا رجع فالمصير المرجع و المآب و فيه إشارة الى أنّ كلّ شئ يرجع الى أصله فمنه المبدأ و اليه المرجع **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** و حيث أنّ رجوع الكلّ اليه تعالى فالكلّ يسبّحه و ينزّهه و يعتقد بربوّبيته ثمّ قال تعالى مخاطباً لنبيّه ظاهراً و الى جميع العقلاء واقعاً: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي** أي يسوق، سحاباً الى حيث يريد و منه زجا الخراج إذا إنساق الى أهله، ثمّ يؤلّف بينه أي بين بعضه وبعض، **ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا**، أي مُتركباً بَعضه فوق بعضٍ، **فَتَرَى ٱلْوَدْقَ**، يعني المطر، **يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ** من، الأولى لإبتداء الغاية لأنّ من السّماء إبتداء إنزال المَطَر.

الثّانية: للتّبعيض لأنّ البرد بعض الجبال الّتي في السّماء.

الثّالثة: لتبيين الجنس لأنّ جنس الجبال جنس البرد و قيل في السّماء جبال برد مخلوقة في السّماء و قال البلخي يجوز أن يكون البرد يجتمع في السّحاب كالجبال ثمّ ينزل منها، **فَيُصِيبُ**، يعني ذلك البرد، **مَنْ يَشَآءُ** أن يهلك أو يهلك ماله، **وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَآءُ** على حسب إقتضاء المصلحة، **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ**، أي ضياء البرق أو ضوء البرق يختطف الأبصار و قال قتادك، لمعان برقه هكذا قالوا في تفسير الأية.

أقول أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن كيّفية نزول المطر من السّماء فالهمزة في قوله، ألم تر للإنكار أي أنّك ترى و يحتمل أن لا تكون للإنكار و ذلك لأنّ

الّذي يرى هو المطر و أمّا كيّفية نزوله فلا يرى بل تحتاج الى بيان و لذلك بيَّن اللّه تعالى كيّفية نزوله فقال: **أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي** أي يسوق سحاباً ثمّ يؤلّف بينه، أي بين بعضه و بعضٍ، أي يجمع ذلك لأنّ لفظ سحاب جمع، واحدة سحابة و لفظ بين لا تستعمل إلاّ في شيئين و المقصود أنّ اللّه تعالى بقدرته الكاملة يجمع بين سحابة و سحابة، ثمّ يجعله ركاماً، متراكباً بعضه فوق بعض كما هو المشاهد حين نزول المطر و أمّا السّحاب فهي توجد من بخار الماء المتصاعد من البحور الى السّماء فالماء يصير بخاراً و البخار يصير سحاباً ثمّ يخرج الماء من خلاله كما قال: **فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ** و الودق المطر، و هو دليل قاطع على أنّ مادّة المّائية موجودة باقية في جميع الأحوال و التّغيير و التّبديل في الصّورة فقط و قد ثبت في بحث المّادة و الصُّورة في العلوم العقليّة أنّ المّادة تقبل الصُّور المختلفة على التّناوب و لذلك قالوا أنّ المّادة في قبول الصُّورة تكون لا بشرط و الصُّورة في قبولها المّادة بشرط شئٍ أي أنّ المادّة تقبل كلّ صورةٍ أي تقبل الصُّور المختلفة على التّعاقب و الصُّورة لا تقبل إلاّ مادّةً واحدة إذا عرفت هذا فنقول الماء له مادّةٌ و صورة لأنّه جسم باردٌ سيّال و الجسم لا يوجد بدون المادّة و الصُّورة في الخارج فمادّة المائية لها صورة الماء ثمّ أنّ صورة الماء تتّبدل بالبخار و صورة البخار تتّبدل بالسّحاب ثمّ ينزل من السّحاب المطر فلو لم تكن مادّة المائّية موجودة في السّحاب فمن أين ينزل المطر.

أن قلت أنّ اللّه تعالى قادرٌ على كلّ شئٍ فهو قادرٌ على إيجاد الماء في السّحاب.

قلت هذا الّذي قلناه و قرّرناه هو نَّص الكتاب و فيه إشعار بأنّ اللّه تعالى جعل لكُّل شئٍ سبباً فأنّ العالم، عالم الأسباب و قد ورد في الخبر أبى اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، و هو لا ينافي القدرة، قال اللّه تعالى: **إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ**(١) و خلق اللّه آدم و حوّاء من غير ذكرٍ و أنثى، و خلق عيسى بن مريم من

١- الحجرات = ١٣

غير ذكرٍ، و الحاصل أنّ جعل الأسباب لمصلحةٍ يراها الخالق لا ينافي قدرته بمعنى أنّه لا يقدر على غيره من غير سببٍ، فما ذكره اللّه تعالى في الآية في كيفّية نزول المطر و أنّ مادّة باقية على كلّ حالٍ في جميع الأطوار دليلٌ على مصلحة البعث يوم النّشور فأنّ المادّة التُّرابية موجودة باقية فى بطن الأرض بعد تلاشي الأعضاء كما يأتي البحث فيه في موضعه، و في الآية نكتة دقيقة خفيَّة لمن تأمّل فيها و هي قوله: **فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ** حيث قال يخرج و لم يقل يوجد و ذلك لأنّ الخروج لا يكون إلاّ بعد البقاء كما أنّ الوجود بعد العدم و أن شئت قلت الخروج يقال للموجود و والوجود و الإيجاد للعدم فقوله تعالى يخرج، دليل على بقاء المادّة في السّحاب إلاّ أنّها تنتظر الخروج إذا إقتضت المصلحة.

و أمّا قوله: **وَ يُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ** فهو من المشكلات و ما ذكره المفسّرون لا نفهم معناه و أظُن أنّهم أيضاً لم يفهموا ما قالوا، ونحن نشير إلى شطرٍ من كلماتهم لتعلم صدق ما قلناه.

قال صاحب الكشّاف و هو من أعاظم العامّة في المقام ما هذا لفظه، معناه أنّه ينَّزل البرد من السّماء من جبالٍ فيها، فأن قلت ما معنى من جبالٍ فيها من بردٍ.

قلت فيه معنيان:

أحدهما: أن يخلق اللّه في السّماء جبال برد كما خلق في الأرض جبالٍ حجرٍ.

الثّاني: أن يريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالاً من ذهب إنتهى كلامه و تبعه الرّازي و الألوسي و غيرهما من المتّأخرين.

و قال الطّبري قيل في ذلك قولان:

أحدهما: أنّ معناه أنّ اللّه ينَّزل من السّماء من جبالٍ في السّماء من بردٍ مخلوقة هناك كما يقال جبال من طينٍ.

و القول الأخر أنّ اللّه ينزّل من السّماء قدر جبالٍ و أمثال جبالٍ من بردٍ إلى الأرض إنتهى كلامه.

و أنت ترى أنّ ما ذكروه لا يسمن و لا يغني و محصّل الكلام أنّا بعد الفَحص فيما بأيدينا من التّفاسير لم نجد غير ما نقلناه عنهم.

و قال بعض المحقّقين، من، هنا زائدة و التّقدير، نزّل من السّماء جبالاً منها برد و البرد شيئ ينّزل من السّحاب يشبه الحصى و يسمّى حبّ الغمام و حبَّ المزن قيل و أنّما سمّي برداً لأنّه يبرّد وجه الأرض إنتهى كلامه.

أقول لعلّه أراد ما يقال له بالفارسيّة (تگرگ) و الذّي يخطر بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ اللّه تعالى أشار بقوله: **فَتَرَى ٱلْوَدْقَ** إلىٰ قوله: **مِنْ بَرَدٍ**، إلىٰ أنّ ما يخرج من السّحاب المتراكمة هو الماء إلاّ أنّه قد ينزل بصورة المطر و قد يخرج بصورة الثّلج و قد يخرج بصورة حبِّ الغمام فالصُّور مختلفة و المادّة واحدة إلاّ أنّها بعد الخروج من السّحاب تتّغير صورةً بتّغير الهواء من حيث الحرارة و البرودة.

و أمّا قولهم في السّماء جبال بردٍ مخلوقة في السّماء، فهو مجّرد الإحتمال و التّخيل و لا يساعده العلم بل ينكره الحسّ أيضاً و ذلك لأنّ مسير الطّيارة في سيرها من بلدٍ إلى بلدٍ أو من قارّةٍ إلى قارّةٍ أخرى دائماً يكون فوق السّحاب لا تحتها فأن كان تحت السّحاب جبال من برد كما زعموه لرأوها لا محالة مضافاً إلى أنّ تحت السّحاب قابل للرُّؤية للسّاكن في الأرض مع الايات و بدونها ولم يقل أحد أنّ تحت السّحاب جبال من برد بل نقول فوق السّحاب أيضاً كذلك فأنّ السّفينة الفضّائية في مسيرها من الأرض إلى كرة القمر من أوضح الدّلائل على عدم وجودها تحت القمر فأين هذه الجبال المخلوقة فقد ظهر بذلك أنّه لا جبال هناك من برد لا تحت السّحاب و لا فوقها إلى كرة القمر اللّهم إلاّ أن يراد بالجبال غير معناها المصطلح الّذي نعرفه فالأحسن في المقام و أمثاله ردّ علمه إلى اللّه و الرّاسخين في العلم.

قال اللّه تعالىٰ: **مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**[١].

١- الاسراء = ٨٥

نعم نحن نعلم أنّ البخار المائي إذا وصل إلى الطَّبقة الباردة من الهواء صار سحاباً و نزلت الأجزاء المائيّة فهي علىٰ أحوالٍ أمّا أن يكون بردها قليلاً فيكون مطراً و أمّا أن يكون بردها شديداً فأن جمدت قبل الإجتما فهي ثلج و أن جمدت بعد الاجتماع فهي البرد و لا نعلم أكثر من هذا و أمّا كيف يكون البرد قليلاً أو كثيراً و غير ذلك من الرُّموز و الأسرار المودّعة فعلمه عند اللّه و أوليائه و ما قيل فيه أو يقال مجّرد حدسٍ و خيال لا يفيد العلم.

و أمّا قوله تعالىٰ: **فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰآءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشٰآءُ** الظّاهر إعادة الضّمير في، به، على البرد و يحتمل أن يكون أريد به الودق و البرد و جرى في ذلك مجرى إسم الإشارة فكأنّه قال فيصيب بذلك و المطر هو أعمّ و أغلب في الإصابة و الصَّرف أبلغ في المنفعة و الإمتنان و كيف كان أنّه تعالى يقسم رحمته بين خلقه و يقبضها و يبسطها على ما تقتضيه حكمته.

و قوله: **يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصٰارِ** قيل معناه يريهم البرق في السّحاب الّذي يكاد يخطف أبصارهم ليعتبروا أو يحذروا.

اقول قرأ الجمهور، سَنا مقصوراً برقه، مفرداً، و قريْ سَناء، ممدوداً، و بُرقه، بضّم الباء و فتح الرّاء جمع برقة، بضّم الباء و هي المقدار من البرق و ذلك كالغرفة و اللّقمة، و بعضٌ أخر بضّم الباء و الرّاء أتبع حركة الرّاء لحركة الباء كما أتبعت في ظلمات و أصلها السّكون و السّنا بالمّد إرتفاع الشّأن كأنّه شبّه المحسوس من البرق لإرتفاعه في الهواء بغير المحسوس من الإنسان و قوله: **يَذْهَبُ بِالْأَبْصٰارِ** أي يذهب النُّور من الأبصار فالمفعول محذوف و لمّا كان ذلك محسوساً لكلّ أحدٍ فلا نحتاج إلى إطالة الكلام فيه.

يُقَلِّبُ اللّٰهُ اللَّيْلَ وَ النَّهٰارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ في هذه الآية إشارة إلى ما تقدّم من الدّلائل الدّالة على وحدانيّته من تسبيح من ذكر و تسخير السّحاب و ما يحدثه تعالى فيه من أفعاله حتّى ينزل المطر فيقسم رحمته

بين خلقه و إرائتهم البرق في السّحاب الذّي يكاد يخطف الأبصار و تقليب اللّيل و النّهار أنّ في هذه المحدثات لعبرة لأولي الأبصار و خصّ أولوا الأبصار بالعبرة و الإتّعاظ لأنّ البصر و البصيرة إذا إستعملا وصلا إلى إدراك الحقّ كقوله أنّما يتذكر أولوا الألباب.

وَ ٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دٰآبَّةٍ مِنْ مٰآءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلٰى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلٰى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلٰىٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مٰا يَشٰآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ

الدّابة تطلق على كلّ ما يدُّب على الأرض برجليه ولو في بعض حالاته كالطّير و هي تطلق على الذّكر و الأنثى و بالجملة كلّ ماشٍ على الأرض حتّى الطّير لأنّه يدُّب على رجليه في بعض حالاته يسمّى بها و جمع الدّابة الدَّواب بفتح الدّال و تشديد الباء أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه خالق كلّ شئ يدُّب من الحيوان و هذا ممّا لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في كيفيّة ذلك و أنّ هذا الحكم عامٌّ أو أنّه على سبيل التّغليب و الظّاهر أنّ، من، ماءٍ متعلّق بخلق و كلمة من، الابتداء الغاية أي إبتدأ خلقها من الماء، قيل لمّا كان غالب الحيوان مخلوقاً من الماء لتولّده من النُّطفة ولكونه لا يعيش إلاّ بالماء أطلق لفظ كلّ تنزيلاً للغالب منزلة العامّ و يخرج عمّا خلق من ماء، ما خلق من نور و هم الملائكة و ما خلق من نارٍ و هم الجنّ و من تراب و هو آدم و من الرُّوح و هو عيسى و كثير من الحيوان لا يتَّولد من نطفة، و قيل كلّ دابّةٍ على العموم في هذه الأشياء كلّها و ذلك لأنّ أصل جميع المخلوقات الماء.

فقد روي أنّ ما خلق اللّه جوهرة فنظر إليها بعين الهيته فصارت ماء ثمّ خلق من ذلك الماء النّار و الهواء و النُّور و لمّا كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة و كان الأصل الأوّل هو الماء قال تعالى: **خَلَقَ كُلَّ دٰآبَّةٍ مِنْ مٰآءٍ.**

و قال القفال ليس مِن ماءٍ، متّعلقاً، بخلق، و أنّما هو في موضع الصّفة لكلّ دابّةٍ فالمعنى أنّه تعالى خلق كلّ دابّةٍ متَّولدة من الماء أي متَّولدة من الماء مخلوقة للّه تعالى، و أنّما، نكّر الماء، في الآية لأنّ المعنى خلق كلّ دابّةٍ من نوعٍ من الماء مختصّ بهذه الدّابة ثمّ فصَّله فقال: **وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي** على بطنه و ذلك مثل الحياة و السّمك و الدّودة و غير ذلك و منهم من يمشي على رجلين كالطّير و إبن آدم و غير ذلك و منهم من يمشي على أربع كالبهائم و السّباع و غير ذلك و لم يذكر ما يمشي على أكثر من أربع لندوره و قلّته كالعنكبوت و العقرب و الرُّتيلا و من المعلوم أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير و حكم الأمثال واحد فمن قدر على خلق من يمشي على أربع يقدر على خلق من يمشي على أربعين أو أكثر و لعلّه إلى هذه النكتة أشار بقوله: **يَخْلُقُ ٱللّٰهُ ما يَشٰآءُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ**

لَقَدْ أَنْزَلْنآ اٰياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ ٱللّٰهُ يَهْدي مَنْ يَشٰآءُ إِلٰى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ

أقسم اللّه في هذه الآية أنّه أنزل أيات مبيّنات، أي دلالات واضحات لا خفاء فيها و اللّه يهدي بلطفه و كرمه من يشاء من عباده بما يعلم أنّه يهتدي عنده إلى صراطٍ مستقيم لا عوج فيه من توحيده و عدله و قدرته و صدق أنبيائه و المقصود أنّ جميع النّاس لا يعتبرون بها و لا يتفكّرون فيها لأنّهم بسبب المعاصي حرموا عن معرفة الحقّ و متابعته.

■

وَ يَقُولُونَ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ
يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ مَآ أُولٰٓئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾وَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ وَ رَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَ
إِنْ يَكُنْ لَهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾
أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ
يَحِيفَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ
يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَ مَنْ يُطِعِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ
يَخْشَ ٱللّٰهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾
وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ
ٱللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللّٰهَ وَ
أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا
حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ
تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا
ٱلصّٰلِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا
ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضٰى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا
وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ
﴿۵۵﴾ وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ أَطِيعُوا
ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿۵۶﴾

◀ اللّغة

مُذْعِنِينَ: الإذعان الإنقياد من غير إكراهٍ.

ٱرْتَابُوٓا: الإرتياب الشكّ و الباقي واضح.

◀ الإعراب

إِذَا فَرِيقٌ هي لِلمفاجأة قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ يقرأ بالنَّصب و الرّفع وَ طَاعَةٌ مبتدأ و الخبر محذوف أي أمثل من غيرها و يجوز أن يكون خبراً و المبتدأ محذوف أي أمرنا طاعة كَمَا ٱسْتَخْلَفَ نعتٌ لمصدر محذوف أي إستخلافاً كما إستخلف أو من الضّمير في، وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ، لَا يُشْرِكُونَ يجوز أن يكون حالاً بدلاً من الحال الأولى و أن يكون حالاً من الفاعل في يعبدونني أي يعبدونني موّحدين.

◀ التّفسير

وَ يَقُولُونَ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَ مَآ أُولٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

نزلت الآية في المنافقين لأنّهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فيقولون أمنّا باللّه و بالرَّسول و أطعنا منهما فإذا إنصرفوا إلى أصحابهم من المنافقين قالوا خلاف ذلك و ما أولئك بالمؤمنين، ما، نافية أي ليسوا بمؤمنين واقعاً و أن إعترفوا به ظاهراً.

إعلم أنّ النّفاق هو الدّخول في الشّرع من بابٍ و الخروج عنه من بابٍ أخر و هو من أقبح الصّفات و أخبثها بل هو أضّر و أقبح من الكفر و لذلك ترى الأيات الواردة في ذمّ المنافقين أكثر ممّا ورد في ذمّ الكفّار كمّاً و كيفاً أمّا كمّاً فظاهر لا خفاء فيه و أمّا كيفاً فلأنّ اللّه تعالى لم يقل أنّ الكافرين في الدَّرك الأسفل من النّار بل قال أنّ المنافقين في الدَّرك الأسفل من النّار.

قال المفسّرون نزلت الآية في رجل من المنافقين إسمه بشر، كان بينه و بين رجلٍ من اليهود خصومة فدعاه اليهودي إلى رسول اللّه و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف و قيل أنّها نزلت في علّيٍ عليه السلام و رجلٍ من بني أميّة دعاه إلى رسول اللّه و دعاه الأموي إلى اليهود وكان بينهما منازعة في ماءٍ و أرضٍ و حكى البلخي أنّه كان بين علّيٍ و عثمان منازعة في أرضٍ إشتراها من علّيٍ فخرجت فيها أحجار و أراد ردَّها بالعيب فلم يأخذها فقال عليه السلام بيني و بينك رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال الحكم بن أبي العاص إن حاكمته إلى إبن عمّة حكم له فلا تحاكمه إليه فأنزل اللّه الآية.

أقول الحكم بن أبي العاص هو أبو مروان الخبيث اللّعين المطرود و هو الّذي نفاه رسول اللّه إلى الطّائف مع إبنه مروان الوزغ بن الوزغ فلمّا توّلى الأمر عثمان بعد عمر أرجعه إلى المدينة و قصّته مشهورة في التّواريخ و كيف كان لا شكّ أنّ النّفاق مذمومٌ عقلاً و شرعاً و المنافقون في صدر الإسلام كانوا أكثر من المؤمنين بل نقول أنّ المؤمنين بالنّسبة إلى المنافقين من أصحاب النّبي كانوا من قبيل النّادر كالمعدوم إلاّ أنّهم لم يظهروا ما في قلوبهم في حياة النّبي لمصلحة رأوها و أمّا بعد موت النّبي فقد ظهر ما في قلوبهم و الدّليل على ذلك أنّهم سمعوا من النّبي في غدير خمّ ما سمعوا في علّيٍ في أمر الولاية و الإمارة و الخلافة بعد النّبي و بايعوه على ذلك ثمّ أعرضوا و توّلوا عنه و فعلوا ما فعلوا فمورد الآية و أن كان خاصّاً إلاّ أنّ الحكم فيها عامٌّ يشمل جميع المنافقين إلىٰ يوم القيامة.

إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ

هذه الآية بمنزلة البرهان على وجود النّفاق فيهم و ذلك لأنّ المؤمن باللّه و بالرّسول كيف يعرض عن حكم اللّه و حكم رسوله و حيث أنّهم أعرضوا عن حكم الرّسول في حياته و بعد مماته فليسوا بمؤمنين واقعاً و أن كانوا متّظاهرين بالإيمان ظاهراً ولا نعني بالنّفاق إلاّ هذا.

وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

و هذا دليل أخر علىٰ نفاقهم و ذلك لأنّ الحكم أن كان لهم يقبلونه و يختارونه و أن كان عليهم لا يختارونه و أن كان الحكم الصّادر عن الحاكم كان حقّاً، مع أنّ المؤمن الواقعي مع الحقّ و الحقّ معه سواءٌ كان الحقّ له أم كان عليه و من لم يكن كذلك و أن إدَّعى الإيمان في ظاهر الأمر فهو منافق إذ لا واسطة بين الكفر و الإيمان إلاّ النّفاق فالمنافق كافرٌ باطناً مؤمنٌ ظاهراً فالنّفاق من الأمراض القلبيّة الّتي لا دواء له إلاّ الإيمان و قوله: **يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ** يعني أن كان الحقّ لهم لا عليهم يأتوا الى النّبى مذعنين أي منقادين مطيعين.

أقول هذه سيرة مسمرة في جميع المسلمين إلاّ ما شذَّ و نذر أعاذنا اللّه منها.

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

الهَمزَة في الجميع للإستفهام التَّوبيخي ليقرّوا بأحد هذه الوجوه الّتي عليهم و أم، بمعنى بل لأنّها منقطعة و التّقدير بل إرتابوا و حيث أنّ الإستفهام للتّوقيف و التّوبيخ و التّوقيف يستعمل في الأمور الظّاهرة ممّا يوبَّخ به و يذمّ أو ممّا يمدح به وهو بليغٌ جدّاً في البلاغة أتى بها فمن المبالغة في المدح قول الشّاعر:

ألستم خير من ركب المطايا و أندىٰ العالمين بطون راحٍ

و من المبالغة في الذّم قول الشّاعر:

ألست من القوم الّذين تعاهدوا على اللّوم و الفحشاء فى سالف الدّهر

ثمّ أنّه تعالى قسَّم جهات صدورهم و إعراضهم عن حكومته فقال أفي قلوبهم مرض، أي نفاق و عدم الإخلاص، أم إرتابوا أي عرضت لهم الرَّيبة و الشكّ في نبوّته بعد أن كانوا مخلصين في إدّعاءهم الإيمان أم يخافون، أي يعرض لهم الخوف من الحيف في الحكومة و الحيف بفتح الحاء الجور و الظُّلم ثمّ إستدرك، ببل، و قال: **أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** في نفوسهم و غيرهم و المانعون لهم حقوقهم و أنّما أفرد قوله: **لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم** بعد قوله الى اللّه: **وَ رَسُولُهُ** لأنّ حكم الرّسول حكم اللّه فالحكم واحد.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

لمّا بيّن اللّه تعالى في الأيات السّابقة حكم المنافق بيّن في هذه الآية حكم المؤمن فيما إذا دعي الى اللّه و رسوله فقال أنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا الى اللّه و رسوله ليحكم بينهم، كلمة، أنّما تفيد الحصر أي أنّ المؤمن لا يقول إلاّ هذا، و قوله: **سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا**، أي سمعنا و أطعنا اللّه و رسوله في الحكم سواء كان لنا أم علينا و أولئك هم المفلحون، إذ الفلاح لا يتحقق إلاّ بإطاعة اللّه و إطاعة رسوله كما أنّ الشّقاء لا يحصل إلاّ بمخالفة اللّه و مخالفة الرَّسول و لا نعني بالإيمان الواقعي إلاّ الإنقياد و الطّاعة و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ ٱللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ

أي و من يطع اللّه في فرائضه و نواهيه و رسوله في سننه، و يخش اللّه على ما مضى من ذنوبه و يتّقي اللّه فيما يستقبل من عمره فاولئک هم الفائزون و الحقّ أنّ هذه الآية كافية لمن تدّبر فيها حقّ التّدبر، و ذلك لأنّ إطاعة اللّه في أحكامه توجب الاتيان بالواجبات و ترك المحرّمات، و إطاعة الرّسول في سنّته توجب متابعته قولاً و فعلاً، و الخشية على ما مضى من ذنوبه توجب التّوبة و الإنابة إليه

و التّقوى في المستقبل توجب رعاية أحكام اللّه و سنّة رسوله في بقيّة عمره و من كان كذلك أي أتى بالواجبات و ترك المحرّمات و تاب عن الذّنوب التّي صدرت منه و راعى التّقوى في المستقبل فهو المؤمن حقّاً و أيّ فوزٍ أحسن ممّا ذكر في هذه الآية.

وَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمٰانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لاٰ تُقْسِمُوا طٰاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اَللّٰهَ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ

ثمّ أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن دليل أخر على نفاق المنافقين و هو «أنّهم أقسموا باللّه جهد إيمانهم) أي حلفوا باللّه و أغلظوا في قسمهم على قدر طاقتهم و قالوا لرسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم لئن أمرتنا بالخروج معك في الغزو و الجهاد لنخرجنّ معك و لا نخالفك قل يامحمّد لهم، لا تقسموا و لا تحلفوا، طاعةٌ معروفةٌ، أي هذه طاعة معروفة بالقول دون الإعتقاد أي أنّكم تكذّبون فتقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم و هذا قول مجاهد و قيل معناه، طاعةٌ و قول معروف أمثل من هذا القسم و القول المعروف صحّته فأنّه خيرٌ لكم من هذا الحلف، و قيل طاعةٌ معروفة أي معلومة لاشكّ فيها كطاعة الخُلص من المؤمنين المطابق ظاهرهم لباطنهم، لا إيمانٌ تقسموا بها بأفواهكم و قلوبكم علىٰ خلافها، أو طاعتكم طاعة معروفة بالقول دون الفعل، و الإحتمالات كثيرة.

قُلْ أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْهِ مٰا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مٰا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مٰا عَلَى اَلرَّسُولِ إِلاَّ اَلْبَلاٰغُ اَلْمُبِينُ

أي قل يا محّمد لهؤلاء المنافقين و غيرهم أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول، فأن تولّوا أي تتّولوا، **فَإِنَّمٰا عَلَيْهِ**، أي على الرّسول، ما حمّل، و هو تبليغ الرّسالة و أعمال الجهد في إنذارهم، و عليكم ما حمّلتم، و هو السّمع و الطّاعة و إتّباع الحّق

ثمّ علّق هدايتهم علىٰ طاعة الرّسول، بقوله: **وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** و معنى التّعليق أنّ المعلّق لا يوجد إلاّ بعد وجود المعلّق عليه فالمعلّق عليه هو الأصل و هو طاعة الرّسول و المعلّق هو الفرع و هو الإهتداء و لا يمكن وجود الفرع قبل وجود الأصل فمن زعم أنّ الإهتداء يتحقّق بغير طاعة الرّسول وقع في الخبط و الإشتباه و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مآ آتيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**(١).

و قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلاٰغُ ٱلْمُبِينُ**(٢).

كلمة، ما، للنفي أي ليس على الرّسول إلاّ تبليغ الأحكام من جانب الحقّ الى عباده المكلّفين و قد أدّىٰ وظائفهم جميع الأنبياء على أحسن الوجوه و إنّما التّقصير من جانب الأمم و هكذا في الإسلام فأنّ الرّسول صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بلّغ رسالته بالتّمام و الكمال:

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَ رَضيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلاٰمَ ديناً**(٣) و هو ظاهر.

وَعَدَ ٱللّٰهُ ٱلَّذينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لاٰ يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفٰاسِقُونَ

لا شكّ أنّ اللّه تعالى وعد في هذه الآية ما وعد من إستخلاف المؤمنين في الأرض و تدّينهم بدين اللّه كما هو حقّه و تبديل الخوف بالأمن و عبادة اللّه عن إخلاص من غير شركٍ و هذه المواعيد ممّا لا كلام فيه لظهور الآية فيها و إنّما

١- الحشر = ٧ ٢- النّور = ٥۴
٣- المائدة = ٣

الكلام في حصولها و عدم حصولها و نحن ننقل كلمات المفسّرين حول الآية ثمّ نردفها بما هو الحقّ عندنا بعون اللّه و توفيقه فنقول قال بعض المفسّرين روي أنّ بعض الصّحابة شكى الى رسول اللّه جهد مكافحة العدُو و ما كانوا فيه من الخوف و أنّهم لا يضعون أسلحتهم فنزل **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ**.

و روي انّه عليه السّلام لما قال بعضهم ما أتى علينا يومٌ نأمن فيه و نضع السِّلاح فقال ﷺ: «لا تخبرون إلاّ يسيراً حتّى يجلس الرَّجل منكم في الملاء العظيم محتبساً ليس معه حديدة فأنجز اللّه وعده و أظهرهم على جزيرة العرب، و أفتتحوا بعد بلاد المشرق و المغرب و مزّقوا ملك الأكاسرة و ملكوا خزائنهم و أستّولوا على الدّنيا ثمّ خرج الّذين على خلاف سيرتهم فكفروا بتلك الأنعم و فسقوا و ذلك قول رسول اللّه الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثمّ يملك اللّه من يشاء فتصير ملكاً هذا ما قاله الزّمخشري في الكشّاف و يظهر عن كلامه أنّ وعد اللّه قد حصل ثمّ خرج الّذين على خلاف سيرتهم الى آخر ما قال».

أقول ما ذكره لا يصّح و على فرض صحّته و صحّة الأحاديث الّتي رواها عن الصّحابة.

فقوله فأنجز اللّه وعده و أظهرهم على جزيرة العرب الى آخر ما قال من فتح بلاد المشرق و المغرب و هكذا بقّية كلامه، لا ربط له بتفسير الآية و ذلك لأنّ اللّه وعد المؤمنين الإستخلاف في الأرض و التّسلط عليها لا على جزيرة العرب و ملك الأكاسرة فقط و بعبارةٍ أخرى ما ذكره في المقام في تفسير الآية ليس الوعد بتمامه و كماله بل هو بعض الوعد و لا يقال على من إستولى على جزيرة العرب و ملك الأكاسرة و خزائنهم أنّه إستولى على الأرض كلّها كما هو ظاهر الآية فما وعد غير ما حصل و ما حصل غير ما وعد فقوله أنجز اللّه وعده على سبيل

الإطلاق لا معنى له و أمّا قوله فذلك قول رسول اللّه الخلافة بعدي ثلاثون سنة، فهو خارج عن مورد البحث و لا يناسب تفسير الآية إذ الآية ساكتة عن البحث في الخلافة مع أنّ الحديث الّذي رواه لا أصل له و إنّما هو من محصولاتهم و مخترعات أنفسهم و للبحث فيه مقام آخر و قد أطال الرّازي الكلام حول الآية و أستنبط منها بزعمه التكلّم و العلم و القدرة و نفي الشّريك عنه تعالى و لا كلام لنا معه في هذه المسائل فعلاً لأنّها خارجة عن مورد البحث حول الآية الشّريفة و إنّما البحث فيما حقّقه بعد ذلك بزعمه فنقول:

قال الرّازى، المسئلة السّادسة أنّ الآية دلّت على نبّوة محّمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و صحّتها لأنّه أخبر عن الغيب في قوله: **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ** وقد وجد هذا الخبر موافقاً للمخبر عنه مثل و هذا الخبر معجزٌ و المعجزة دليل الصّدق فدّل على صدق محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنتهى.

و الجواب أنّ نبّوة محّمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثابتة بغير هذه الآية عقلاً و نقلاً و الآية لا تدُّل على ما ذكره الرّازي إذ الخبر و أن كان حقًّا واقعاً إلاّ أنّه لم يوافق المخبر عنه الى زماننا هذا إذ لم يتّحقق المخبر عنه و هو الإستخلاف في الأرض و غيره من الأمور المذكورة فيها للمؤمنين و هو ظاهر.

قال الرّازي المسئلة السّابقة دلّت الآية على أنّ العمل الصّالح خارج عن مسمّى الايمان خلافاً للمعتزلة لانّه عطف العمل الصالح على الإيمان و المعطوف خارج عن المعطوف عليه إنتهى.

و الجواب أنّ الإيمان في الأصل هو الإعتقاد بالقلب إلاّ أنّ هذا الإعتقاد لا يوجد في الخارج الا في قالب العمل الصّالح الكاشف عن الإعتقاد و قد ثبت في العلوم العقلّية أنّ الوجود الذّهني لا أثر له و الأثر يتّرتب على الوجود الخارجي فالعمل الصّالح هو الإيمان في الخارج الّذي يتّرتب عليه الأثار الشّرعية و العقلّية و محّصل الكلام أنّ الإعتقاد القلبي إيمانٌ ذهناً و العمل الصّالح إيمانٌ خارجاً فالعطف في الآية تفسيريٌ و هو لا يقتضي التّغاير واقعاً.

قال الرّازي المسئلة الثّامنة ـ دلّت الآية على إمامة الأئمّة الأربعة و ذلك لأنّه تعالى وعد الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات من الحاضرين في زمانِ محمّد ﷺ و هو المراد بقوله: **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** و أن يمكّن لهم دينهم الّذي إرتضى لهم و أن يبدّلهم بعد خوفهم أمناً و معلوم أنّ المراد بهذا الوعد بعد الرّسول هؤلاء الائمة لأنّ إستخلاف غيره لا يكون إلاّ بعده و معلوم أنّه لا نبّي بعده لأنّه خاتم الأنبياء فأذن المراد بهذا الإستخلاف طريقة الإمامة و معلوم أنّ بعد الرّسول الإستخلاف الذّي هذا وصفه أنّما كان في أيّام أبي بكر و عمر و عثمان لأنّ في أيّامهم كانت الفتوح العظيمة و حصل التّمكين و ظهور الدّين و الأمن ولم يحصل ذلك في أيّام علّيٍ رضي اللّه عنه لأنّه لم يتّفرع لجهاد الكفّار لإشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصّلاة فثبت بهذا دلالة الآية على خلافه هؤلاء إنتهى.

و الجواب أنّ اللّه تعالى وعد المؤمنين باللّه و برسوله بذلك و إختصاص المؤمنين بالحاضرين في زمان محمّد لا دليل عليه بل هو واضح البطلان للزوم ذلك أن تكون الخطابات في القرآن بالحاضرين فقط فقوله تعالى يوصيكم اللّه في أولادكم للذّكر مثل حظّ الأنثيين، خطاب للحاضرين في زمان محمّد و هكذا سائر الخطابات و قد ثبت في الأصول أنّ خطابات القرآن لا تختصّ بشخصٍ دون شخصٍ و لا بزمانٍ دون زمانٍ بل تشمل جميع المكلّفين إلىٰ يوم القيامة بدليل الإشتراك في التّكليف و هذا معنى قوله: **حلال محمّدٍ حلال إلىٰ يوم القيامة و حرامه كذلك** و العجب من الرّازي و إنكاره هذا الأمر الواضح الّذي لم يختلف فيه أحدٌ من عقلاء الأمّة و كيف يقول عاقل أنّ قوله تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ كُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ**(١)، خطابٌ للحاضرين في زمانِ محمّد و هكذا سائر الأيات.

١- التوبة = ١١٩

ألم يعلم الرّازي أنّ إثبات خلافة أبي بكر و عمر و عثمان لا ربط له بهذه الأباطيل التّي لا طائل تحتها أليس اللّه تعالى قال وعد اللّه الذّين أمنوا الأية، فكلّ من إتّصف بالإيمان داخل في العموم إلى يوم القيامة، و قوله هو المراد بقوله: لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ الخ هو أوّل الكلام فيقال له من أين علمت أنّ المراد هذا و أيّ ربطٍ بين الإستخلاف في الأرض و غيره ممّا ذكر في الآية و بين الخلافة المتّولدة من السّقيفة و القدرة الحاصلة منها و أعجب من الكلّ قوله فأذن المراد بهذا الإستخلاف طريقة الإمامة و معلوم أنّ بعد الرّسول الإستخلاف الذّي هذا وصفه أنّما كان في أيّام أبي‌بكر و عمر و عثمان إلى أخر ما قال، ولم يعلم أنّ المراد بالإستخلاف في الآية ليس من سنخ خلافة السّقيفة و غيرها ممّا هو متعارف عند العوام بل المراد به افول الباطل و ظهور الحقّ في صفحة الأرض و هذا الإستخلاف لم يتحقّق إلى الآن قطعاً فكيف يقول أنّه كان في أيّام أبي‌بكر و عمر و عثمان، فأن كان ما ذكره الرّازي حقّاً فما ذكره المؤرّخون والمحدّثون و أرباب السّير ممّا وقع في عهد الخلفاء الثّلاثة باطلٌ.

و أن كان ما ذكروه حقّاً فما ذكره الرّازي باطل و على هذا فالرّازي إمّا جاهل بالتّواريخ و السّير و إمّا معاندٌ منكرٌ للبدّيهيات و إلاّ فكيف يقول حصل التّمكين و ظهور الدّين و الأمن في أيّام الخلفاء الثّلاثة ولم يحصل ذلك في أيّام علّيٍ لأنّه لم يتّفرع لجهاد الكفّار لإشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصّلاة، ولم يعلم الرّازي لجهله بالتّواريخ و السّيّر أو لعناده و لجاجه أنّ إشتغال علّيٍ بمحاربة من خالفه كان معلولاً لخلافة الخلفاء الثّلاثة و لا سيّما عمر بن‌الخطّاب الذّي قسّم أموال المسلمين في بيت المال بين النّاس على التّفاضل بزعمه الفاسد و هكذا المناصب في البلاد جعلها لمن شاء و أراد من اعداء الدّين مثل مغيرة بن شعبة و معاوية بن أبى سفيان و أمثالهما و أمّا في الأموال فجعل للزّبير عشرة ألاف و هكذا لطلحة بن عبيد اللّه و عبد الرّحمٰن بن عوف و أبو عبيدة و من النّساء

عائشة بنت أبي بكر و حفصة ولم يجعل ذلك لسائر الأزواج و جعل في الشّورى هؤلاء الأشرار مع علّي بن أبي طالب و أين الثّرى من الثّريا فلّما وصلت النّوبة إلى علّي قطع عنهم ما جعله عمر من الأموال و عزل من جعله عمر حاكماً على النّاس فخالفوه و حاربوه و ليس الذّنب إلاّ على من أسّس أساس الظّلم و الجور علىٰ الإسلام و المسلمين بعد النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و أوقع علياً في معركة القتال مع هؤلاء المنافقين على خلاف ميله و طبعه مع أنّ محاربته عليه السلام إيّاهم كانت في الحقيقة دفاعاً عن نفسه و نفوس المسلمين و أعراضهم و أموالهم و أنّما قلنا ذلك بشهادة التّاريخ أليس الزّبير و طلحة و عائشة و من تبعهم خرجوا من المدينة إلى مكّة و منها إلى البصرة و قتلوا كثيراً من المسلمين حين إشتغالهم بالصّلاة في مسجد البصرة و نهبوا أموالهم و خرّبوا بيوتهم و فعلوا بهم ما عجر اللّسان عن بيانه و القلم عن تحريره أليس دفع الأشرار و الفسّاق الذّين لا يخافون اللّه واجباً على كلّ مسلم قادرٍ على الدّفع، و هكذا معاوية و هو أخبث النّاس لمّا عزله أميرالمؤمنين عن الإمارة أوقد نار حرب صفّين التّي توّلدت منها حرب الخوارج في النّهروان الّذين سمّاهم رسول اللّه بالمارقين كما سمّى أهل الجمل بالنّاكثين و معاوية و أصحابه بالقاسطين و سمّاهم الرّازي بأهل الصّلاة رغماً لأنف رسول اللّه متّأسفاً و متّعنداً ثمّ أنّه أطال الكلام في المقام بما لا فائدة في ذكره إلاّ تضييع الوقت و الخروج عن موضوع الكتاب و ليت شعري ما الدّاعي له على ذكر هذه الكلمات في تفسير الأيات فأنّ المراد بالآية واضح لا خفاء فيه.

و هو أنّ اللّه وعد المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات كذا وكذا في الدّنيا من العزّ و الشّرف و الدّين و غيرها و هذه الأمور إن حصلت فعلى المدّعي بيانه و إثباته و إن لم تحصل إلى الآن فلا محالة تحصل في المستقبل و من أصدق من اللّه قيلاً هذا محصّل الكلام في الآية و ما قيل أو يقال فيها غير ما ذكرناه فهو خارج عن الموضوع و داخل فيما لا فائدة فيه إلاّ تسويد الأوراق وليس بين

الإستخلاف في الآية و الخلافة المتَّولدة من السّقيفة رابطةٌ و سنخيّة أصلاً فما ذكره الرّازي و غيره ممّن تبعه او سبقه ليس من تفسير الآية بل هو من مستخرجات أنفسهم و ملّفقات إفكارهم و أوهامهم الفاسدة التّي يكشف عن سوء سريرتهم و خبث طينتهم و عداوتهم لأهل البيت الذّين طهَّرهم اللّه عن كلّ رجسٍ و طهَّرهم تطهيراً و قد قال رسول اللّه ﷺ **من فسَّر القرآن برأيه فليُتَّبوء مَقَعده من النّار**، و هذا يكفيهم أن كانوا من المؤمنين و لنرجع إلى تفسير الآية على ما إستفدناه منها.

فنقول وعد اللّه تعالى في هذه الآية المؤمنين العاملين بالأعمال الصّالحة بأمورٍ أربعة:

أحَدها: الإستخلاف في الأرض.

ثانيها: تديّنهم بالدّين الّذي إرتضى لهم.

ثالثها: تبديل خوفهم بالأمن.

رابعها: العبادة الخالصة و أخبر أنّ وصولهم إلى هذه المقامات يتّوقف على أمرين:

أحدهما: الإيمان.

ثانيهما: العمل الصّالح.

ففي الحقيقة الوصول بما وعدهم اللّه مشروط بتّحقق الإيمان و العمل الصّالح و من المعلوم أنّ المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه.

فقوله: **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** إشارة إلىٰ أنّ ما وعدناه موقوفٌ عليه، ثمّ أنّ الإيمان على ما فسّره الرّاغب في المفردات يستعمل تارةً إسماً للشّريعة التّي جاء بها محمّد ﷺ على ذلك:

قوله تعالىٰ: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هَادُوا وَ ٱلصَّابِئُونَ[1].

١- المائدة = ٦٩

و يوصف به كلّ من دخل في شريعته مقرّاً باللّه و نبّوته قيل و على هذا:

قال تعالىٰ: وَ مٰا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلّٰا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ(١).

انتهى الكلام الراغب فى المفردات.

و تارةً يستعمل على سبيل المدح و يراد به إذعان النّفس للحقّ على سبيل التّصديق و ذلك بإجتماع ثلاثة أشياء تحقيقٌ بالقلب، و إقرار باللّسان، و عملٌ بحسب ذلك بالجوارح و على هذا قوله:

وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ رُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ(٢) إنتهىٰ كلام الرّاغب في المفردات.

فقوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ**، المراد به هو الإيمان بالمعنى الثّاني قطعاً أعني به التّحقيق بالقلب و الإقرار باللّسان و العمل بالجوارح و يدلّ على ذلك قوله تعالى بعد ذكر الإيمان، و عملوا الصّالحات، و قوله: **مِنْكُمْ**، أي ممّن أمن باللّه و رسوله و أمّا تخصيصه بالحاضرين من أصحاب النّبي في حياته ﷺ لا دليل عليه و المعنى منكم، أيّها المسلمون و يحتمل أن يكون، من، للتّبعيض أي بعضم، فمن خصّ الخطاب بالحاضرين من أصحاب رسول اللّه في حياته فلابدّ له من القول بعدم تحقّق الوعد لعدم الشّرط بشهادة التّواريخ و ذلك لأنّ الموعود به الإستخلاف في الأرض لا على أرض المشركين من العرب فقط أو عليها و على بلاد أخر كما زعم المفسّرون إذ لم يقل ليستَّخلفنهم في بعض الأرض فأن قالوا بتّحقق الموعود به فهو كلام لا دليل عليه و أن قالوا بعدمه فهو المطلوب و أمّا الأمور الأربعة المتّوقفة على الإيمان و العمل الصّالح.

فمنها، الإستخلاف في الأرض وإليه الاشارة بقوله: **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** أي ليستخلفنّهم اللّه الّذي وعدهم به فالمستخلف هو اللّه و المستخلّف عنه هو الّذين أمنوا و عملوا

١- يوسف = ١٠٦ ٢- الحديد = ١٩

الصّالحات كما إستخلف اللّه الّذين من قبلهم من قوم موسى بعد هلاك فرعون و أعوانه و قيل كما إستخلف الذّين من قبلهم في زمن داود و سليمان، فهو من قبيل قوله: **أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ**(١).

و منها أنّ اللّه يمكّنهم في دينهم الّذي إرتضى لهم، أي يجعلهم متّمكنين قادرين على العمل بأحكام دينهم الّذي إرتضى لهم، و الدّين هو الإسلام قطعاً و في هذا الكلام إشارة إلى خلّو الأرض عن الظّالمين المانعين عن العمل بالأحكام أو قلّتهم و حقارتهم و عدم قدرتهم على المنع و ذلك لظهور دولّة الحقّ و أفول الباطل بالكليّة أو المراد غلبة الحقّ على الباطل و المراد بالدّين الّذي إرتضى اللّه لهم ليس مجّرد الإسلام و هو الإقرار بالشّهادتين بل المراد به الإسلام و الولاية و أنّما قلنا ذلك لأنّ اللّه تعالى قال:

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا(٢).

تقريب الإستدلال بها أنّها نزلت بعد غدير خمّ و ذلك أنّه تعالى أمر رسوله تبليغ ما أنزل عليه و هو ولاية أميرالمؤمنين و الأئمة المعصومين بعده فقال: **يَآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** و قد مرَّ الكلام فيها في سورة المائدة مفصّلاً فلا نعيده فلمّا فرغ ﷺ من خطبته التّي خطبها و نصب عليّاً بالإمامة بعده و أخذ من الحاضرين البيعة أنزل اللّه تعالى: **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** و حيث أنّ الألف و اللاّم في قوله: **ٱلْيَوْمَ** للعهد الحاضر و المعنى هذا اليوم الحاضر الّذي بايعتم عليّاً **أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** يعني بولاية علّي **وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**، أي نعمة الولاية **وَ رَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا**، أي رضيت لكم الإسلام الّذي فيه ولاية علّي ديناً، و مفهوم الآية أنّ الإسلام بدون الولاية ليس مرضيّاً عندي و أنّما قلنا به لأنّ الألف و اللاّم في الإسلام للعهد الذّكري أو العهد الحاضر او للعهد الذّهني و على جميع

١- الأنبياء = ١٠٥ ٢- المائدة = ٣

التّقادير فالمطلوب ثابت إذا عرفت هذا فنقول، الدّين المرّضي عند اللّه ليس إلاّ الإسلام الّذي أساسه الولاية و قد وردت الأخبار الكثيرة به مضافاً إلى ما صرَّح به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في خطبته التّي خطب بها يوم الغدير.

و منها، تبديله الخوف بالأمن كما قال: **وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** أي و ليبدلّن اللّه خوفهم بالأمن، و المراد بالخوف خوفهم من الظّالمين لدين الحقّ فأن المؤمنين يخافون منهم على أموالهم و أنفسهم و أعراضهم كما كانوا في عهد الخلفاء و من حذىٰ حذوهم من الحكّام إلى يومنا هذا فتبديل الخوف بالأمن معناه تسليط الحقّ على الباطل إذ لو كان الباطل مسلّطاً على الحقّ فالخوف موجودٌ قهراً و أنّما نسب اللّه التّبديل إلى نفسه و قال ليبدلّنهم أي ليبدلَّنهم اللّه، لأنّ اللّه تعالى قادرٌ على كلّ شيءٍ و ما سواه مقهورٌ مغلوب تحت قدرته فإذا أراد شيئاً لا رادّ لما أراد و لا مانع لما شاء و هذا ظاهرٌ.

و منها أنّهم يعبدونه و لا يشركون به شيئاً، و هذا ممّا لا شكّ فيه بعد تحقّق الثّلاثة المتقدّمة لأنّ إستخلاف المؤمن في الأرض و تمكّنه في دينه و وجود الأمن يوجب العبادة الخالصة للّه تعالى إذ المقتضى موجود و المانع مفقود و يحتمل أن يكون المراد بقوله لا يشركون شيئاً أنّ الشِّرك في ذلك الزّمان لا وجود له لأنّ المؤمن الحقيقي لا يشرك باللّه شيئاً.

وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ قالوا في معناه و من كَفر بعد الّذي قصصنا عليك و وعدناهم به فأولئك هم الفاسقون، و الحقّ فى معنى الكلام أنّ من كفر بعد ذلك أي بعد تحقّق الوعد فأولئك هم الفاسقون و ذلك لأنّ مقتضى الإيمان موجود و موانعه مفقودة فلا عذر للكافر هذا إذا قلنا المراد بالكفر مقابل الإيمان و هو الكفر باللّه في توحيده و بالنّبي في نبّوته و يحتمل أن يكون المراد به كفر النِّعمة أي و من كفر بهذه النِّعم التّي أعطيناها فهو فاسق و يؤيّد هذا الإحتمال ذكر الفسق بعد الكفر إذ لو كان المراد بالكفر هو الكفر

المصطلح أعني به الكفر بالتّوحيد و النُّبوة فلا يقال أنّه فاسقٌ بل يقال أنّه كافر وهو أفحش من الفسق و العجب من المفسّرين حيث لم يتفطّنوا لهذه النكتة و حملوا الكفر على إنكار التّوحيد و النُّبوة ثمّ قالوا في معنى الكلام أنّه تعالى أراد الخارجين في كفرهم إلى أفحشه لأنّ الفسق في كلّ شيئ هو الخروج إلى أكبره و لم يعلموا أنّ هذا لا معنى له بل هو مجّرد تبديل لفظٍ بلفظٍ أخر و ذلك لأنّ كون الفسق من الكافر أكبر من كفره لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل فأنّ الكفر من أكبر مصاديق الفسق و لا عكس و إنّي بعد الفحص في التّفاسير ظفرت على قول صاحب الكشّاف و رأيت أنّه سبقني إلى هذا المعنى و قال في تفسيره لهذه الأية: **وَ مَنْ كَفَرَ** يريد كفر النِّعمة كقوله: **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ** و قال في قوله: **فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ** أي هم الكاملون في فسقهم حيث كفروا تلك النّعمة العظيمة و جسروا على غمطها إنتهى.

ثمّ قال فإن قلت هل في هذه الآية دليلٌ على أمر الخلفاء الرّاشدين.

قلت أوضح دليلٍ أو بينة لأنّ المستخلفين الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات هم هم إنتهىٰ.

و العجب من صاحب الكشّاف في هذا الكلام و كان عليه أن يبيّن ذلك الدّليل الواضح فأنّ قوله لأنّ المستخلفين إلى أخر كلامه ليس إلاّ مجرّد الدّعوى و لعلّ الرّازي أخذ كلامه الذّي نقلناه عنه من صاحب الكشّاف ثمّ أتعب نفسه في تفصيله و قد مرّ الكلام فيه و المقام لا يستدعي التكلّم في هذا البحث أكثر ممّا أشرنا إليه و لولا مخافة الإطناب و الخروج عن موضوع الكتاب لأوضحنا كلام صاحب الكشّاف.

إذا عرفت ما تلوناه عليك في تفسير ألفاظ الآية و علمت أنّ اللّه تعالى وعد المؤمنين العاملين بما ذكر في الآية من الإستخلاف في الأرض و غيره و علمت أنّ المفسّرين إتّفقوا على أنّه تعالى أنجز ما وعده بعد الرّسول على ما مرّ تفصيل الكلام فيه و أنكرنا ذلك عليهم فلك أن تقول ما المراد بالآية الشّريفة فنقول:

للآية منطوقٌ و مصداق أمّا المنطوق فلا خفاء فيه و هو أنّ اللّه تعالى وعد المؤمنين بما وعد و قد مرَّ الكلام فيه و أمّا المصداق فعلى قول الجمهور فقد وجد بعد الرّسول في زمان الخلفاء و هو الفتوحات العظيمة و تسّلط المسلمين على جزيرة العرب و تمّكنهم في دينهم الّذي إرتضى لهم و عبادتهم اللّه خالصاً لوجهه الكريم و عدم كفرانهم النِّعمة أو عدم كفرهم باللّه و رسوله هذا ما ذهب إليه المفسّرون و أمّا نحن فنقول أنّ وعد اللّه حقّ لا مرية فيه و أمّا إنجازه فلم يحصل إلى الآن و سيوجد في المستقبل و لا نعلم وقته و ذلك لأنّ الأوصاف المذكورة في الآية لا توجد إلاّ بعد وجود المقتضى و رفع الموانع و نعني بالمقتضى وجود المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات و برفع الموانع عدم وجود الظّالمين المانعين عن إجراء أحكام اللّه و هذا لا يمكن إلاّ بظهور الدَّولة الحَّقة في آخر الزّمان و هي لا توجد إلاّ بعد ظهور القائم المنتظر الّذي يملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما ملئت ظلماً و جوراً و ذلك لأنّ إستخلاف المؤمنين في الأرض و تمكنّهم من العمل بدينهم و عدم خوفهم من الأشرار موقوفٌ على تطهير الأرض من الظَّلمة و الفّساق و الكفّار و من يقدر على ذلك من الحكّام و إذا يقدر الحاكم فالموانع موجودة لا محالة و إلى هذا المعنى أشار النّبي ﷺ بقوله:

لو لم يبق من الدّنيا إلاّ يومٌ واحد لطَّول اللّه ذلك اليوم حتّى يخرج من ولدي من إسمه إسمي فيملأ اللّه الأرض به قسطاً و عدلاً بعد ما ملئت ظلماً و جوراً.

و محّصل الكلام هو أنّ المعصوم المأذون من اللّه تعالى يقدر على إنجاز ما وعد اللّه لا غيره و نظيره هذه الآية في عدم إنجاز الوعد الى يوم الوقت المعلوم عند اللّه.

قوله:

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ[1].

و من المعلوم أنّ النّبي لم يظهر الدّين كلّه في حياته و الدّليل على ذلك وجود الكفّار فهذا أيضاً ممّا وعده اللّه و أمّا ظهوره فهو في عصر الحجّة المنتظر كما ورد به الخبر و قوله تعالى: **أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ**[2] ومن المعلوم عدم تحّقق الوعد الى الآن.

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَ أَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَ ٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَ أَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**[3].

و من المعلوم أنّ قيام النّاس بالقسط لم يتحقّق الى زماننا هذا و أمثال ذلك من الآيات كثيرة فالوعد بيد اللّه و الإنجاز أيضاً بيده و قدرته و إرادته و أمّا الفصل بين الوعد و الإنجاز فلا يعلمه إلاّ اللّه نعم خلف الوعد محالٌ في حقّه تعالى و هذا ممّا لا كلام فيه فمن الفصل بين الوعد و الموعود به قصّة نوح النّبي و نزول العقاب على قومه فقد ذكر في كتاب كمال الدّين وتمام النِّعمة. بأسناده الىٰ سدير الصّيرفي عن أبي عبد اللّه عليه السلام حديث طويل، و فيه يقول عليه السلام و أمّا إبطاء نوح فأنّه لمّا إستنزل العقوبة على قومه من السّماء بعث اللّه تعالى جبرئيل و معه سبع نوايات فقال يا نبيّ اللّه أنّ اللّه تعالىٰ يقول لك أنّ هؤلاء خلائقي و عبادي لست أبيدهم بصاعقةٍ من صواعقي إلاّ بعد تأكيد الوعد و إلزام الحجّة فعاود إجتهادك في الدّعوة لقومك فإنّي مثيبك عليه و أغرس هذا النّوى فأنّ لك في

١- الصّف = ٩ ٢- الأنبياء = ١٠٥
٣- الحديد = ٢٥

بيانها و طوعها و إدراكها إذا أثمرت الفرج و الخلاص فبشّر بذلك من إتَّبعك من المؤمنين فلّما نبتت الأشجار و تأزّرت و تسّوقت منه هي الثَّمر على ما كان بعد زمانٍ طويل إستنجز من اللّه العِّدة فأمر اللّه تعالى أن يغرس نوى تلك الأشجار و يعاود الصَّبر و الإجتهاد و يؤكّد الحجّة على قومه و ساق الحديث الى أن قال ثمّ أنّ اللّه تبارك و تعالى لم يزل يأمره عند كلّ مرَّةٍ بأن يغرسها مرَّة بعد أخرى إلى أنّ غرسها سبع مرّاتٍ فما زالت تلك الطّوائف من المؤمنين ترتَّد منهم طائفة بعد طائفة إلى أن عاد إلى نيّف و سبعين رجلاً فأوحى اللّه تعالى إليه و قال يا نوح الآن أسفَّر الصّبح عن اللّيل بعينك عن صرح الحقّ محضه و صفا الكدر بإرتداد كلّ من كانت طينته خبيثة فلو أنّي أهلكت الكفّار و أبقيت من إرتَّد من الطّوائف الّتي كانت أمنت بك لما كنت صدقت وعدي السّابق للمؤمنين الذّين أخلّصوا التّوحيد من قومك و إعتصموا بحبل نبّوتك فأنّي أستخلفهم في الأرض و أمكّن لهم دينهم و أبّدل خوفهم بالأمن لكي تخلّص العبادة لي بذهاب الشّرك من قلوبهم و كيف يكون الإستخلاف و التّمكين و بدل الأمر منّي لهم مع ما كنت أعلم مِن ضعف يقين الّذين إرتّدوا و خبث طينتهم و سوء سرائرهم التّي كانت نتائج النّفاق و شبوح الضّلالة إلى أن قال عليه السلام:

و قال الصّادق عليه السلام: و كذلك القائم فأنّه تمتَّد أيّام غيبته فيصرح الحقّ عن محضه و يصفوا الإيمان من الكدر بإرتداد كلّ من كانت طينته خبيثة من الشّيعة التّي يختّص عليهم النّفاق إذا أحسُّوا بالإستخلاف و التّمكين و الأمر المنتشر في عهد القائم.

قال الفضل فقلت يابن رسول اللّه فأنّ هذه النّواصب تزعم أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر و عمر و عثمان و علّي عليه السلام فقال عليه السلام لا يهدي اللّه قلوب النّاصبة متى كان الّذين إرتضاه اللّـه و رسـوله متَّمكناً بإنتشار الأمر في الأمّة و ذهاب الخوف من قلوبها و إرتفاع الشكّ من صدورها في عهد واحدٍ من هؤلاء و في عهد علّي مع إرتداد المسلمين و الفتن الّتي كانت تثور في أيّامهم و الحروبُ الّتي كانت تنسب إليهم بين الكفّار و بينهم إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم قوله: **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا**، نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السّلام إنتهىٰ.

و عن عبد اللّه بن سنان قال سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قال عليه السلام: هم الأئمة إنتهىٰ.

أقول و قد تكلّم الشّيخ رحمه الله أيضاً في التّبيان و لنختم الكلام حول الآية و الحمد للّه الّذي هدانا إلى ذلك.

وَ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أمر اللّه تعالى المؤمنين بإتيان الصّلوة و إيتاء الزّكوة و إطاعة الرّسول ثمّ قال لعلّكم ترحمون أي لكي ترحمون فأنّ رحمة اللّه قريبٌ من المحسنين و قد مرَّ الكلام في الصّلوة و الزّكاة غير مرّةٍ فيما مضى من الأيات.

و أمّا قوله: **وَ أَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ** ففيه إشارة إلىٰ أنّ إطاعة الرّسول هو الأصل في الباب فمن أقام الصّلاة و اتى الزّكاة و لم يطع الرّسول فيما أمر به و نهى عنه لم ينتفع بها يوم القيامة:

قال اللّـه تـعالىٰ: **وَ مَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُـولُ فَـخُذُوهُ وَ مَـا نَـهَىٰكُمْ عَـنْهُ فَانْتَهُوا**(١).

١- الحشر = ٧

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي
ٱلْأَرْضِ وَ مَأْوِيهُمُ ٱلنَّارُ وَ لَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٥٧﴾ يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ٱلَّذِينَ
مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ
مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرّٰاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلٰوةِ ٱلْفَجْرِ وَ
حِينَ تَضَعُونَ ثِيٰابَكُمْ مِنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ
صَلٰوةِ ٱلْعِشٰآءِ ثَلاثُ عَوْرٰاتٍ لَكُمْ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنٰاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوّٰافُونَ
عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلٰى بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللّٰهُ
لَكُمُ ٱلْاٰيٰاتِ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَ إِذٰا بَلَغَ
ٱلْأَطْفٰالُ مِنْكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ
ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللّٰهُ لَكُمْ اٰيٰاتِهِ
وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَ ٱلْقَوٰاعِدُ مِنَ ٱلنِّسٰآءِ
ٱللّٰاتِي لَا يَرْجُونَ نِكٰاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنٰاحٌ
أَنْ يَضَعْنَ ثِيٰابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجٰاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ
يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ ٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾
لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمٰى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لَا عَلٰى
أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
اٰبٰآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوٰانِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمٰامِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ عَمّٰاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوٰالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

خٰالاٰتِكُمْ أَوْ مٰا مَلَكْتُمْ مَفٰاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنٰاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتٰاتًا
فَإِذٰا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً
مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰارَكَةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ
لَكُمُ الْآيٰاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿۶۱﴾

◀ اللُّغة

أقيموا الصّلٰوة: اقامة الصّلاة الإتيان بها في أوقاتها بجميع شرائطها المقّررة في الشّريعة.

لِيَسْتَأْذِنْكُمُ: الإستئذان طلب الإذن.

الْحُلُمَ: يقال حلم، حلماًو حلماً في منامه هو مصدر جمعه، أحلام، مايراه النّائم في نومه أي زمان البلوغ و سمّي الحُلُم لكون صاحبه جديراً بالحَلم.

عَوْراتٍ: بفتح العَين جمع عورة قيل حكم ما كان على وزن، فعلة، من الأسماء أن تحّرك العين منه نحو صفحة و صفحات و جفنة و جفنات إلاّ أنّ عامّة العرب يكرهون تحريك العين فيما كان عينه واواً أو ياءً لأنّه كان يلزمه الإنقلاب إلى الألف فأسكنوا لذلك و قالوا عورات و جوزات و بيضات و قرأ الأعمش بفتح الواو فيها.

الْقَوٰاعِدُ مِنَ النِّسٰاءِ: أي المسنّات من النّساء اللاّتي قعدت عن التّزويج و قيل هي اللاّتي قعدن عن حيضّهن.

حَرَجٌ: بفتح الحاء و الرّاء الضّيق في الدّين مشتّق من الحرجة و هي الشّجر الملتّف بعضه ببعضٍ لضيق المسالك فيه.

أَشْتٰاتًا: واحدها الشّت و هو التّفرق ضدّ الجمع و الباقي واضح.

◀ الإعراب

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مرَّة في الأصل مصدر وقد أستعملت ظرفاً فعلى هذا ينتصب ثلاث مرّات على الظّرف مِنْ قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ فيه ثلاث أوجه:

أحدها: نصب بدلاً من ثلاث.

الثّاني: جرّ بدلاً من مرّات.

الثّالث: رفع بدلاً على أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هي من قبل و تمام الثّلاث معطوف على هذا مِنَ ٱلظَّهِيرَةِ من، لبيان الجنس و حين، معطوف على موضع من قبل، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ يقرأ بالرّفع أي هي أوقات ثلاث عورات فحذوف المبتدأ و المضاف و بالنّصب على البدل من الأوقات المذكورة، أو على إضمار أعني بَعْدَهُنَّ قيل التّقدير بعد إستئذانهنّ فيهنّ، ثمّ حذف حرف الجرّ و الفاعل فيبقى بعد إستئذانهنّ، ثمّ حذف المصدر وَ ٱلْقَوَاعِدُ مبتدأ و مِنَ ٱلنِّسَآءِ حال و ٱللَّاتِي صفة و الخبر فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ و دخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشّرط غَيْرُ حال تَحِيَّةً مصدر من معنى سلّموا لأن سلّم و حيّاً بمعنى.

◀ التّفسير

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَأْوَيٰهُمُ ٱلنَّارُ وَ لَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ

قرأ الجمهور بالتّاء و قرأ بعضهم بالياء فعلى الأوّل الخطاب للنّبي ظاهراً كغيره من الخطابات في القرآن و على الثّاني معناه لا يظنّن من كفر أنّه يفوتني و يعجزني أيّ مكانٍ في الأرض و المقصود أنّه لا يمكن لأحدٍ الفرار من حكومة اللّه تعالى و مأواهم، أي مكانهم و مستقرهم يوم القيامة النّار و بئس المصير هذه لو كانوا يعلمون.

و قال صاحب الكشّاف معجزين في الأرض هما المفعولان و المعنى لا يحسبنّ الّذين كفروا أحداً يعجز اللّه في الأرض حتّى يطمعوا لهم في مثل ذلك إنتهى.

أقول الحسبان الظنّ و المعنى لا تظنّ أو لا يظُن أنّ الكفّار يقدرون بما عندهم من القوّة و الشّوكة أن يمنعوه من أن ينجز وعده فأنّه تعالى قادرٌ على إنجاز وعده ففي الآية دلالة على أنّ المخلوق لا قدرة له في جنب قدرة الخالق و هذا ممّا لا شكّ فيه عقلاً و نقلاً.

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرّٰاتٍ مِن قَبْلِ صَلٰوةِ ٱلْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيٰابَكُم مِنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَ مِن بَعْدِ صَلٰوةِ ٱلْعِشٰآءِ ثَلاثُ عَوْرٰاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُنٰاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوّٰافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيٰاتِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

الخطاب للمؤمنين أمرهم اللّه أن يأمروهم بذلك فقال: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** إلى قوله: **أَيْمٰانُكُمْ**، الإستئذان طلب الإذن خاطب اللّه المؤمنين أن يأمروا العبيد بالإستئذان أي طلب الإذن من مواليهم في الدُّخول عليهم قبل صلاة الفجر و حين يضعون ثيابهم من الظّهر و من بعد صلاة العشاء و هكذا الأطفال الّذين لم يبلغوا الحلم و ذلك لأنّ الحكم فيهما واحد فقوله الذّين ملكت أيمانكم، المراد به المماليك و قوله: **وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ**، المراد به غيرالبالغ، و هو المميز الّذي لم يبلغ الحلم فأنّه لا حكم له و قوله: **ثَلاثُ عَوْرٰاتٍ لَكُمْ** أي مخصوصة لكم للخلوة فيها و عبَّر عن هذه الأوقات بالعورة لأنّ العورة هي الخلل و منها الأعور سميّت بذلك لأنّهم يضعون ثيابهم فيها و تبدو عوراتهم و تحصيل كشفها و ربّما يواقعون النّساء فيها فهو من قبيل العلّة للحكم المذكور.

و قال بعض المفسّرين ذلك أمرٌ للأباء أن يأخذوا الأولاد بذلك فظاهر الآية يدلّ علىٰ وجوب الإستئذان ثلاث مرّات في ثلاث أوقات من ساعات اللّيل و

النّهار ثمّ فسَّر الأوقات فقال: **مِنْ قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ**، و حين يضعوا ثيابكم من الظّهيرة، و من بعد صلاة العشاء الأخرة لأنّ الغالب على النّاس أن يتعرّوا في خلواتهم في هذه الأوقات قاله مجاهد، و الحقّ أنّ الأمر بالإستئذان عامّ للأولاد و غيرهم فأنّ الآية صرَّحت بذلك و هو قوله: **وَ ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ**.

و أمّا قوله: **لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** أي بعد الأوقات المذكورة أن يدخلوا عليكم من غير إذنٍ يعني في الّذين لم يبلغوا الحلم، دون المماليك و هو المراد بقوله: **طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** قيل قوله: **طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُمْ** الخ علّة لترك الإستئذان مطلقاً حتّى المماليك و ذلك لإحتياج كلّ منهم إلى المخالطة للأخر فالخادم لخدمة مولاه و الطّفل لينال من أبويه ما يحتاج إليه و المولى لطلب عبده للإستخدام إذا غاب عنه و كذا الوالد.

ففي تفسير علّي بن إبراهيم و أمّا قوله: **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** إلىٰ قوله: **ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ** قال عليه السلام:

أنّ اللّه تبارك و تعالى نهى أن يدخل أحد في هذه الثّلاثة الأوقات علىٰ أحد، لا أب ولا أخت و لا أمّ و لا خادم إلاّ بأذن و الأوقات بعد طلوع الفجر و نصف النّهار و بعد العشاء الأخرة ثمّ أطلق بعد هذه الثّلاثة الأوقات فقال ليس عليكم و لا عليهم جناح بعدهنّ، يعني بعد هذه الثّلاثة الأوقات طوّافون بعضكم على بعضٍ إنتهى.

و في الصّحيح عن أبي عبد اللّه في قول اللّه عزّ وجلّ: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ إلىٰ قوله: ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ قيل مَن هُم قال عليه السلام المملوكون من الرّجال و النّساء و الصّبيان الّذين لم يبلغوا الحلم يستأذنون عليكم عند هذه الثّلاث عورات من بعد صلاة العشاء و هي العتمة، و حين تضعون ثيابكم من الظّهيرة و من قبل صلاة الفجر و يدخل مملوككم من بعد هذه الثّلاث عورات بغير إذنٍ إن شاءوا.

و في الآية نكات و فوائد لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأُولىٰ: أنّ اللّه تعالى خاطب المؤمنين بأن يأمروهم بذلك و ظاهر الأمر الوجوب و هو بالنّسبة إلى البالغ لا إشكال فيه و أمّا غير البالغ فقيل أنّه للوجوب أيضاً نقل ذلك عن البلخي و هو لا يصحّ لأنّ ذلك تكليفٌ و غير البالغ لا يكلّف و يمكن أن يقال أنّ الأمر تعلّق بالمؤمنين ليأمروهم بذلك و الأمر بالأمر بالشّئ ليس على حدّ الأمر بالشّئ نفسه أو أنّ المراد هنا مطلق الرُّجحان الشّامل للواجب و غيره فيكون للبالغ للوجوب و لغيره للنّدب أو أنّ القصد هنا الإرشاد إلى تعليم الأداب فيكون إدخال الصّغار قرينة لكون المراد الأمر الإستحبابي و يؤيّده أنّ المحرّم هو النّظر إلى العورة و تلك الأوقات مظنّة لذلك بالاجرّم بحصوله فيها فلا يكون الدّخول بدون الإذن حرام في هذا الحال كما أنّه يحرم بعد الأوقات المذكورة إذا علم بحصوله.

الثّانية: الإستئذان طلب الإذن بأي شئٍ كان و لو بضرب الحائط أو إحدى اليدين على الأخرىٰ أو بضرب الباب فما ورد في الأخبار من كونه بالسّلام فهو من باب التّمثيل بالأفضل.

الثّالثة: قد عرفت أنّ المأمور بالإستئذان هنا هم مماليك المدخول عليهم و من لم يبلغ الحلم و أنّه يجوز لهم الدُّخول بعد هذه الأوقات الثّلاثة بلا إذنٍ فهي خاصّة بهم بخلاف ما سبق من قوله تعالىٰ: **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ** فأنّ المراد هناك الأحرار البالغين فلا منافاة فلا نسخ.

وَ إِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ اٰيَاتِهِ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قوله: **مِنْكُمْ** في موضع نصب على الحال أي كائنين منكم أيّها الأحرار دون المماليك لأنّ حكمهم علم من الآية المتّقدمة حيث أطلق في المماليك و قيّد غيرهم بمن لم يبلغ الحلم فعلم أنّ من بلغ الحلم ليس هذا حكمه و المراد

بالحلم حدّ البلوغ كما مرَّ و حاصل المعنى أنّ الأطفال ما داموا أطفالاً مأذون لهم بالدّخول بغير إذنٍ إلاّ في الأوقات الثّلاثة كما عرفت فإذا بلغوا فلا يجوز لهم الدّخول في الأوقات الثّلاثة و غيرها إلاّ بالإذن كما لا يجوز للّذين بلغوا قبلهم من الرّجال الكبار إلاّ بالإذن وإحتمل بعض المحققين أنّ المراد بالّذين قبلهم الذّين ذكروا قبلهم في الآية السّابقة في قوله: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا**[1] والله عليمٌ حكيمٌ، عليمٌ بعواقب الأمور حكيم بوضعها.

وَ ٱلْقَوٰاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

القواعد جمع قاعد أي ذات قعود و المراد العجوز الّتي قعدت من الحيض و معنى قوله: **لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا** لا يطمعن فيه ولا يرغبن لكبرهنّ و في بعض الأخبار من قعدن عن النّكاح.

و قوله: **غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ** منصوب على الحاليّة من فاعل يضعن و التّبرج بالزّينة تكلّف إظهارها و الباء للملابسة أي يباح طرح الثّياب عند الأجانب في حالٍ لا يكوننّ قاصدات بذلك إظهار الزّينة الّتي أمر الله بإخفائها في قوله: **وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ** بل مجرد التّخفيف و طلب الرّاحة فأنّه مرخّص لهنّ في ذلك و مقتضى ذلك إنهنّ لو قصدن بذلك إظهارها حرم، و قيل التبرُّج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره و لمّا كان وضع الثّياب لها من باب الرُّخصة بيّن سبحانه أنّ تركه خيرٌ لهنّ و ذلك لأنّه أبعد من التُّهمة و أحسن للحفظ من طروّ المفاسد و المراد بالثّياب في الآية الجلباب و قوله: **وَ ٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**، معناه سميعٌ لأقوالكم عليمٌ بقصدكم و نيّاتكم.

١- النور = ٢٧

قال الشّيخ قدس سره في التّبيان و أنّما ذكر القواعد من النّساء لأنّ الشّابة يلزمها من التّستر أكثر ممّا يلزم العجوز و مع ذلك فلا يجوز للعجوز أن تبدي عورة لغير محرم كالسّاق و الشّعر و الذّراع و غيرها ممّا يسمّىٰ عورة.

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ اٰبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْاٰيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

نفىٰ اللّه تعالى الحرج و هو الضّيق في الدّين عن الأعمى و الأعرج و المريض و الأكل من البيوت التّي أشير إليها في الآية و لم يبيّن فيها ما لا حرج فيه و لذلك إختلف المفسّرون فقال بعضهم لا حرج عليهم في التّخلف عن الجهاد و يكون قوله: **و لا أَنْفُسِكُمْ** كلاماً مستأنفاً.

و عن إبن عبّاس ليس من مؤاكلتهم حرج لأنّهم كانوا يتّحرجون من ذلك.

و قال الفرّاء كانت الأنصار يتّحرج و قال مجاهد ليس عليكم في الأكل من بيوت من سمّىٰ على جهة قراباتهم و قال الزّهري ليس عليهم حرج في أكلهم من بيوت الغزاة إذا خلفوهم فيه بإذنهم و ساق الكلام إلىٰ أن قال و الّذي روي عن أهل البيت أنّه لا بأس بالأكل لهؤلاء من بيوت من ذكرهم اللّه بغير إذنهم و قدر حاجتهم من غير إسراف إنتهى ما ذكره الشّيخ في التّبيان و به قال أكثر المفسّرين أو جميعهم.

و هذا هو الظّاهر من الآية في قوله: **وَ لا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ** إلى أخر الآية فكأنّ قوله هذا قرينة على أنّ الحرج المنّفي هو الأكل و على هذا فالواو في قوله: **وَ لا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ** للعطف و الّذي يختلج بالبال في تبيين المراد أنّ الواو للإستئناف بمعنى أنّه أي قوله: **وَ لا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ** إلىٰ أخر ما قال حكمٌ أخر غير ما حكم به أوّلاً مع دخول الحكمين في الحرج المنّفي في الشّريعة عقلاً و نقلاً و توضيح ذلك إجمالاً.

أنّه لا شكّ عقلاً و نقلاً في نفي الحرج في الدّين أمّا عقلاً فواضح لأنّ التّكليف بما لا يطاق غير معقول و يدخل فيه التّكليف المستلزم للحرج و المشّقة.

و أمّا نقلاً فلقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **بُعثت إلىٰ الشّريعة السّمحة السّهلة**، و قوله تعالىٰ: **لا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** و هذا ممّا لا خلاف فيه بَينَ المُسلمين ثمّ أنّ الحرج تارةً يكون في الدّين أعني به الأحكام الشرعيّة من الصّوم و الصّلاة و الجهاد و الحجّ و غيرها و أخرى في غيرها فالأعمى و المريض و الأعرج نفى اللّه عنهم الحرج في العبادات و غيرها مطلقاً و أمّا غيرهم فلا إذا لا عذر لغير هؤلاء مثلاً الجهاد بالنّسبة إلى المريض حرج و ليس كذلك في غيره و هكذا الصّوم و الحجّ و الصّلاة و غيرها و هكذا في الأعرج و الأعمى فأنّهما لا يقدران عقلاً على الجهاد وكثير من الأعمال بخلاف الصّحيح و ليس المراد أنّ جميع العبادات في حقّهم حرج فالأعرج مثلاً لا يقدر على الجهاد و يقدر على الصّلاة و الحجّ و الصّوم و هكذا الأعمى و المريض لا يقدر على الصّوم و الجهاد و يقدر على الصّلاة ولو قاعداً أو جالساً أو مضطجعاً و هكذا و الملاك تحقّق الحرج بالنّسبة إلى المكلّف مريضاً كان أو صحيحاً و أنّما خصّ هؤلاء بالذّكر لكونهم من ذوي الأعذار ظاهراً لا أنّ الحرج المنّفي مختّص بهم و علىٰ هذا فيمكن أن يقال إنّ الحرج المنّفي فيهم أكثر من غيرهم إذا عرفت هذا فإعلم أنّ قوله: **لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَ لا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى ٱلْمَرِيضِ**

حَرَجٌ، و المراد به في بعض الأمور لا أنّ التّكليف ساقط عنهم و ذلك لكونهم من ذوي الأعذار ثمّ بعد ذلك قال و لا على أنفسكم الخ.

و الأعمى و الأعرج و المريض داخل في هذا الحكم أيضاً لدخولهم في قولهم و لا على أنفسكم فغير الأعرج و المريض لا يدخل في حكمهما إذ لا عذر له و المريض و الأعرج لا خلاف في حكم غيرهما من الأكل في البيوت المشار إليها في الآية و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فنقول:

قوله: **لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ** و هو الّذي كفّ بصره، حرج و لا على الأعرج و هو الّذي يعرج من رجليه أو أحدهما، و لا على المريض حرج و هو الّذي يكون عليلاً ضعيفاً، و قلنا معنى الحرج هو الضّيق في الدّين فأنّهم يعملون من العبادات و غيرها على قدر طاقتهم و إستطاعتهم كمّاً و كيفاً فهذا الحكم مختص بهم ثمّ قال: **وَ لَا عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ** و هذا حكمٌ يشمل جميع المكلّفين مريضاً كان المكلّف أو صحيحاً فلا فرق بينهم في هذا الحكم.

أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ التّي تسكنون فيها **أَوْ بُيُوتِ اٰبَآئِكُمْ** و أن علوا كالجدّ و الأجداد **أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ** الأخوان جمع الأخ و الأخوات جمع الأخت و الإخوة (أو بيوت أعمامكم) جمع عمّ **أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ** جمع عمّة **أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ** جمع خال و هو أخ الأمّ **أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ** جمع خالة و هي أخت الأمّ **أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ** و هو الوكيل و ما جرى مجراه و قيل المراد بيوت عبيدكم **أَوْ صَدِيقِكُمْ** أي بيوت صديقكم **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** أي لا بأس عليكم **أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** متّفرقين و المقصود أنّه يجوز الأكل جماعاً و وحداناً، و قيل معناه لا بأس أن يأكل الغني مَع الفقير في بيته، وقيل كانوا إذا نزل بهم ضيف، تحرّجوا أن يأكلوا معه فأباح اللّه الأكل منفرداً و مجتمعاً و قيل غير ذلك و المعنى واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنّ الأكل إذا كان مباحاً فلا فرق بين الجمع و التّفريق.

فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً أمر اللّه تعالى في هذه الآية جميع المكلّفين إذا دخلوا بيوتاً ليس فيها أحد أن يسلّموا على أنفسهم فأنّ السّلام تحيّةً من عند اللّه يعني تحيون به تحيّةً من عند اللّه مباركةً طيّبةً، لما فيها من الأجر و الثّواب.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أي كما بَيَّن اللّه لكم هذه الأحكام و الأداب يبيَّن اللّه لكم الأدلّة على جميعها لتعقلوا ذلك و تعملوا بموجبه.

■

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَ
رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ
يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ
أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا
ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ
مِنْهُمْ وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿۶۲﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ
كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿۶۳﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَ
ٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ﴿۶۴﴾

◀ اللّغة

يَسْتَأْذِنُوهُ: الإستئذان طلب الإذن.

يَتَسَلَّلُونَ: السَّل بفتح السّين و اللاّم المشّددة النَّزع يقال سلَّ الشّئ من الشّئ إذا نزعه عنه كسَّل السَّيف من الغمد.

لِوَاذًا: هو من قولهم لاوذ بكذا إذا إستتر.

فَيُنَبِّئُهُمْ: الإنباء الإخبار و منه النّبي لأنّه يخبر عن اللّه.

◀ الإعراب

لِواذاً هو مصدر في موضع الحال و أنّما صحّت الواو في لواذ مع إنكسار ما قبلها لأنّها تصحّ في الفعل الّذي هو لاوذ، ولو كان مصدر لاذ، لكان، المصدر لياذاً مثل صام صياماً أَنْ تُصِيبَهُمْ مفعول يحذر في قوله فليحذر الذّين الخ.

◀ التفسير

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللّٰهَ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

في هذه الآية بيَّن اللّه أوصاف المؤمنين الحقيقي و عرَّفهم بما لا مزيد عليه و يدلّ عليه الحصر بكلمة، أنّما، فأنّها تفيد الحصر و الآية صدَّرت بها للدّلالة على الحصر فقال: **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ** و هذا هو الأصل في تحقّق الإيمان بحسب الإعتقاد القلبي فأنّ من لم يؤمن باللّه و رسوله فليس بمؤمنٍ قطعاً و فيه إشارة إلى أنّ الإيمان باللّه دون الرّسول و بالعكس لا فائدة فيه بل لا يصدق عليه الإيمان واقعاً و ذلك لكونهما من المتلازمين بمعنى أنّ أحدهما يستلزم الأخر لتحقُّقه و قد مرَّ الكلام في معنى الإيمان لغةً و إصطلاحاً غير مرَّةٍ في تضاعيف الأيات و قلنا أنّ العمل بمقتضى الإيمان شرط في تحقّقه في الخارج و أنّ الوجود الذّهني لا أثر له و إلى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ** أي يستأذنوا الرّسول و هذا هو العمل بمقتضى الإيمان فأنّ الإعتقاد بالرّسالة يستلزم الإطاعة من الرّسول في جميع الشّئون لأنّ إطاعته إطاعة اللّه واقعاً و مخالفته مخالفته والمراد بالأمر الجامع الأمر الّذي يقتضي الإجتماع عليه

و التّعاون فيه من حضور حزبٍ أو مشورة في أمرٍ أو في صلاة جمعة هكذا قيل في معناه.

و قال بعض المفسّرين الأمر الجامع الّذي يجمع له النّاس فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز و يمكن أن يكون المراد بالأمر الجامع الّذي يعمّ بضرره أو بنفعه أي كان ضرره أو نفعه عامّاً لجميع المسلمين وكيف كان فالمراد به ما يرتبط بالإجتماع مثل الحرب مع الكفّار و أنّما حكم اللّه بذلك لأنّ ذهابهم بدون الأذن يوجب الوهن و الضّعف و مع ذلك هو ممّا يشّق على قلب النّبي و لا سيّما إذا كانوا من ذوي رأيٍ و قوّةٍ يظاهرونه عليه و يعاونونه و كيف كان فالإستئذان كاشف عن الإيمان و مظهر للطّاعة و الإنقياد و هو الأصل في المقام ثمّ حكم اللّه بجواز الاذن.

فقال تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ**... أمّا أنّهم المؤمنون واقعاً فظاهرٌ لأنّ الإستئذان يدلّ عليه و أمّا قوله فإذا إستأذنوك فأذن لمن شئت منهم، فهو أمرٌ من اللّه تعالى بالإذن لهم و ليس هذا الأمر للوجوب بدليل قوله: **لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ**، أي أنّك مختار في الإذن لمن شئت منهم، فالإذن معلّقٌ على مشّية النبيّ و هو دليل على عدم الوجوب.

إن قلت لم لم يقل لرسوله فأذن لهم و قال فأذن لمن شئت منهم.

قلت الوجه فيه واضح إذ لو قال فأذن لهم، لزم منه نقض الفرض ثمّ قال تعالى: **وَ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** و من المعلوم أنّ الإستغفار للمستأذنين دليل على عدم حسن الإستئذان إلاّ في موارد الضّرورة و ذلك لأنّ الإستغفار لا يكون إلاّ للخاطئ فلو كان المستأذن مريضاً مثلاً و إستأذن النّبي لا يحتاج إلى الإستغفار لأنّ الضّرورات تبيح المحظورات وكيف كان يستفاد من الآية أنّ الأحسن الأفضل هو عدم الإستئذان حتّى الإمكان قيل نزلت الآية في حفر الخندق، وكان قومٌ يتّسللون بغير إذنٍ و قالوا كذلك ينبغي أن يكون النّاس مع أئمتهم و مقدّميهم في الدّين، و إستغفر لهم اللّه أي أطلب لهم المغفرة من اللّه

و إستغفار النّبي هو دعاءه لهم باللُّطف الذّي تقع منه المغفرة أنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ أي أنّه تعالى ساترٌ لذنوبهم منعمٌ عليهم بالرَّحمة و الشَّفقة ثمّ نهى اللّه تعالى المكلّفين عن أن يجعلوا دعاء النّبي كدعاء بعضهم بعضاً فقال: **لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا** إختلف المفسّرون في المراد بالدُّعاء في الآية على أقوالٍ:

أحدها: إحذروا دعاءه عليكم إذا أسخطتموه فأنّ دعاءه موجب ليس كدعاء غيره قاله إبن عبّاس.

الثّاني: قال مجاهد و قتادة أدعوه بالخضوع و التَّعظيم و قولوا له يا رسول اللّه يا نبّي اللّه و لا تقولوا يا محمّد كما يقول بعضكم لبعضٍ.

الثّالث: ما ذكره الزّمخشري في الكشّاف قال و لا تقيسوا دعاءه إيّاكم على دعاء بعضكم بعضاً و رجوعكم عن المجمع بغير إذن الدّاعى.

الرّابع: ما ذكره أيضاً قال و لا تجعلوا دعاء الرّسول ربّه مثل ما يدعوا صغيركم كبيركم و فقيركم غنيكم يسأله حاجة فربّما أجابه و ربّما ردَّه فأنّ دعوات رسول اللّه مسموعة مستجابة.

أقول ما ذكروه لا بأس به لأنّ جميع الأقوال يرجع إلى قولٍ واحدٍ و هو أنّ دعاء الرَّسول بأيّ معنى كان ليس كدعاء غيره و الفرق بين دعاءه و دعاء غيره كالفرق بين الرّسول و غيره و هو واضح.

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا معناه إذا تسَّلل واحد منكم من عند النّبي فأنّ اللّه عالمٌ به و قال الحسن معنى، لواذاً، أي فراراً من الجهاد.

أقول اللِّواذ الملاوذة و هو أن يلوذ هذا بذاك و ذاك بهذا يعني يتسلّلون عن الجماعة في الخفية على سبيل الملاوذة و إستتار بعضهم ببعض و قيل كان بعضهم يلوذ بالرّجل إذا إستأذن فيأذن له فينطلق الّذي لم يؤذن له معه ذكره صاحب الكشّاف و لا شكّ في أنّ اللّه تعالى عالم بقصد القاصد إذا قصد بل قبل قصده و لا يخفى عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء ثمّ حذَّرهم اللّه و قال:

فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ و الظّاهر أنّ الضّمير في، أمره، عائد على الرّسول و قيل على اللّه و هو بعيد و أن كان المأل فيهما واحد لأنّ مخالفة الرّسول مخالفة اللّه.

و قوله: **فَلْيَحْذَرِ** فيه تهديدٌ و تخويف بالعذاب في الدّنيا و الأخرة قال صاحب الكشّاف و المعنى عن طاعته و دينه (فِتنة) محنةٌ في الدّنيا أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ في الأخرة و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال فتنة قتل، و عن عطاء، زلازل و أهوال، و عن جعفر بن محمّد عليه السلام يسلّط عليهم سلطان جائر إنتهى ماذكره.

أقول لا شكّ أنّ أكثر المسلمين خالفوا نبيَّهم في حياته و بعد وفاته و هذا ممّا لا ينكره إلاّ متعصّبٌ عنيدٌ و لذلك أوقعهم اللّه في الفتنة و هي البليّة و المحنة و القتل و الزّلازل و الأهوال أو ما شئت فسمّه فأنّ الفتنة تشمل الجميع و تصدق عليها و من المعلوم الحاكم الجائر رأس الفتنة إذ منه خرجت الفتنة و إليه تعود فإذا نظرت بعين الإنصاف إلى المسلمين بعد النّبي و الّذين سلّطهم اللّه عليهم من الحكّام لعلمت معنى قوله: **أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ** و سترى عذابهم في الأخرة و هناك تعلم معنى قوله أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ، فأنّ البلّيات و الفتن الحادثة في الإسلام بعد موت النّبي في القتل و النّهب و الغصب و غيرها ممّا أصاب المسلمين عن الخلفاء المتوّلدة عن السّقيفة لا يمكن عدّها و لا حصرها.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

ألا حرف تنبيهٍ كما قال الشّاعر:

ألا كلّ شيءٍ ماخلا اللّه باطلُ　　وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

نبّه اللّه تعالى في هذه الآية جميع المسلمين إلى يوم القيامة فقال: **إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**، و هذا ممّا لا شكّ فيه ثمّ قال: **يَعْلَمُ مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ** في نيّاتكم و أعمالكم و أقوالكم فلا يخفى عليه شئ لا في الأرض و لا في

السّماء وَ **يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ** و هو يوم القيامة **فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا** أي يخبرهم بما عملوا في الدّنيا **وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** سّراً و جهراً هذا تفسير ألفاظ الآية و لا بأس بالإشارة إلى ما يستفاد منها إجمالاً فنقول:

هذه الآية في الحقيقة مرتبطة بقوله: **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ** أي أمَر اللّه أو أمر الرّسول و من المعلوم أنّ التّحذير من اللّه تعالىٰ قد وقع للمسلمين و مخالفة أمر اللّه أو أمر الرّسول لا تختصّ بزمان حياته صلّى الله عليه وآله وسلّم ففي الكلام دلالة أو إشعار بأنّ كثيراً من المسلمين أو أكثرهم كانوا من المنافقين الّذين أظهروا الإيمان و الطّاعة للّه و رسوله و أبطنوا الكفر و الإلحاد في قلوبهم و كانوا ينتهزون الفرصة و يدلّ على ذلك قوله: **قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ،** أي ما أنتم عليه من النّفاق و حيث أنّ اللّه تعالي قد علم بما في قلوبهم حذّرهم بقوله: **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ،** فالتّحذير في الحقيقة أنّما وَقَع على إظهارهم ما في قلوبهم في الخارج و مع ذلك أنّهم وقعوا في الفتنة لأجل المخالفة لأنّ وجود العِّلة يستلزم وجود المعلول.

أن قلت من أين ثبت لك هذا.

قلت من وجود المعلول و هو الفتنة نعلم وجود العلّة و هو المخالفة و يسمّى هذا الإستدلال بالبرهان الآني و حاصله إنّا نرى أنّ المسلمين بعد موت الّرسول وقعوا في البلّية و المحنة الى زماننا هذا و ليس هذا إلاّ أنّ المسلمين في صدر الإسلام خالفوا رسولهم حيّاً و ميّتاَو التّواريخ أيضاً تشهد بذلك و لا نحتاج الى ذكر مواردها لخروجها عن موضوع الكتاب و أصل المخالفة و أساسها هو مسألة الخلافة بعد الرّسول و لذلك لم يجهّزوا جيش أسامة في مرض الرّسول مع تأكيده صلّى الله عليه وآله وسلّم على تجهيزها بقوله: **نفذّوا جيش أسامة ألعن اللّه من تخلّف عن جيش أسامة،** و هذا ممّا نقله الكلّ من الخّاصة و العامّة فلولا في قلوبهم النّفاق لم يفعلوا ذلك أليس هذا من مخالفة النّبي، و هكذا قول القائل دعوه أنّ

الرّجل ليهجر، ألم يعلم عمر أنّ النّبي لا يهجر أو علم و قال ذلك فأن لم يعلم به فهو لم يعرف النّبي و أن علم به فهو منافق و من هنا وجدت الفتنة في الإسلام **يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**(١) وأمّا مسألة الخلافة فهي أظهر من الشّمس و أبين من الأمس و مع ذلك أنكروها و ضيّعوها و لنعم ما قيل:

ولم أر مـثل ذاك اليـوماً — و لم أر مثله حقّاً أضيعا

مراده باليوم يوم الغدير الّذي قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في خطبته المشهورة:

«مَنْ كُنْتُ مَولاهُ فَعَلِيٌ مَولاهُ، اَللّٰهُمَّ وال مَنْ والاهُ وَ عادِ مَنْ عاداهُ وَ انْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَ اخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ».

و قال اللّه تعالىٰ: **لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** أليس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في قوله: وال مَنْ والاهُ وَ عادِ مَنْ عاداهُ وَ انْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ دعا لمن والاه و نصره، و في قوله: وَ عادِ مَنْ عاداهُ وَ اخْذُلْ مَنْ خَذَلَه، دَعا على من عادىٰ عليّاً أو خذله و لا معنى للخذلان إلاّ تضييع حقّه و من المعلوم أنّ دعاء الرّسول مستجاب سواء كان للمسلمين أم عليهم بصريح الآية ثمّ وقع بعد ذلك ما وقع من أنواع المصائب من القتل و السّب و الهتك بالنّسبة الى أولاد رسول اللّه و شيعتهم في حكومة الخلفاء فأنّ جميع هذه المصائب و البلايا من ثمرات السّقيفة الّتي هي الشّجرة الملعونة الى أن إنتهى الأمر الى قتل أولاد الرّسول في الطّف و أسارة أولاده و إنتقالهم من بلدٍ الى بلدٍ و غيرها من الفجائع الّتي إرتكبوها أليس هذا و أمثاله من ثمرات غصب الخلافة الّتي هي من أظهر مصاديق المخالفة، هذا.

■

١- المجادلة = ٧

سُورَةُ ٱلْفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبٰارَكَ ٱلَّذي نَزَّلَ ٱلْفُرْقٰانَ عَلٰى عَبْدِهِ لِيَكُونَ
لِلْعٰالَمينَ نَذيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ
وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ
شَريكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ
تَقْديرًا ﴿٢﴾ وَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لٰا
يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لٰا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لٰا نَفْعًا وَ لٰا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ
لٰا حَيٰوةً وَ لٰا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا
إِنْ هٰذٰا إِلّٰا إِفْكٌ ٱفْتَريٰهُ وَ أَعٰانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ
آخَرُونَ فَقَدْ جٰاءُو ظُلْمًا وَ زُورًا ﴿٤﴾ وَ قٰالُوا
أَسٰاطيرُ ٱلْأَوَّلينَ ٱكْتَتَبَهٰا فَهِيَ تُمْلٰى عَلَيْهِ
بُكْرَةً وَ أَصيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ ٱلَّذي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ غَفُورًا
رَحيمًا ﴿٦﴾ وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ
ٱلطَّعٰامَ وَ يَمْشي فِي ٱلْأَسْوٰاقِ لَوْلٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيرًا ﴿٧﴾ اَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ

أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا وَ قٰالَ ٱلظّٰالِمُونَ
إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاّٰ رَجُلاً مَسْحُوراً ﴿٨﴾ ٱنْظُرْ كَيْفَ
ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثٰالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبٰارَكَ ٱلَّذِيٓ إِنْ شٰآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً
مِنْ ذٰلِكَ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَ
يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسّٰاعَةِ وَ
أَعْتَدْنٰا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّٰاعَةِ سَعِيراً ﴿١١﴾ إِذٰا
رَأَتْهُمْ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهٰا تَغَيُّظاً وَ
زَفِيراً ﴿١٢﴾ وَ إِذٰآ أُلْقُوا مِنْهٰا مَكٰاناً ضَيِّقاً
مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنٰالِكَ ثُبُوراً ﴿١٣﴾ لاٰ تَدْعُوا
ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وٰاحِداً وَ ٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴿١٤﴾
قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَ كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰآءً وَ مَصِيراً ﴿١٥﴾ لَهُمْ
فِيهٰا مٰا يَشٰآؤُنَ خٰالِدِينَ كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ وَعْداً
مَسْؤُلاً ﴿١٦﴾ وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مٰا يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِي
هٰؤُلآٰءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قٰالُوا
سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِي لَنٰآ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ
دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰآءَ وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ اٰبٰآءَهُمْ
حَتّٰى نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَ كٰانُوا قَوْماً بُوراً ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُمْ بِمٰا تَقُولُونَ فَمٰا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ
لاٰ نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذٰاباً كَبِيراً

﴿١٩﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

◀ اللّغة

تَبَارَكَ: من البركة و هي زيادة الخير و كثرته و الزّيادة تكون حسيّة و معنويّة أي تزايد خيره و تكاثر و هو فعل ماضٍ جامد لا يتصرّف فلا يأتي منه مضارع و لا أمر و لا إسم فاعل و ليس له مصدر و لا يستعمل في غير اللّه.

و قال الرّاغب في المفردات البركة ثبوت الخير الإلهي في الشّئ.

ٱلْفُرْقَانَ: بضّم الفاء القرآن لأنّه فرق بين الحقّ و الباطل.

نُشُورًا: النّشور هو البعث بعد الموت.

إِفْكٌ: بكسر الألف الكذب و قيل كذبٌ إفتعله النّبى.

أَسَاطِيرُ: جمع أسطورة.

بُكْرَةً وَ أَصِيلًا: البكرة الغداة و الأصيل العشاء لأنّه أصل اللّيل و أوّله. جَنَّةٌ بفتح الجيم، البستان.

مَسْحُورًا: أي سحر به.

سَعِيرًا: السَّعير بفتح السّين النّار الملتهبة.

تَغَيُّظًا: هو مصدر باب التَّفعل و الماضي منه تغيّظ و معناه إنتفاض الطّبع لشّدة نفور النّفس.

مُقَرَّنِينَ: أي مغلّلين من قرنت أعناقهم إلى أيديهم في الأغلال.

ثُبُورًا: الثّبور بضّم الثّاء الويل.

بُورًا: البور بضّم الباء الفاسد.

◀ الإعراب

لِيَكُونَ إسم كان، الفرقان و قيل العبد، و قيل اللّه تعالى ظُلْمًا مفعول، جاءوا، أي أتو ظلماً، و قيل مصدر في موضع الحال ٱكْتَتَبَهَا في موضع الحال من الأساطير لِيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ في موضع الحال فَيَكُونَ منصوب على جواب الإستفهام جَنَّٰتٍ بدل من خيراً وَ يَجْعَلْ لَكَ بالجزم عطفاً على موضع جعل الّذي هو جواب الشّرط و بالرّفع على الإستئناف إِذَا رَأَتْهُمْ إلى أخر الآية في موضع نصب صفة، لسَعير ثُبُورًا مفعول به خَالِدِينَ حال من الضّمير في، يشاؤون أو من الضّمير في، لهم، و ما يعبدون، الواو يجوز أن تكون عاطفة و أن تكون بمعنى، مع، و باقي اللّغات واضحة.

◀ التّفسير

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا

لما ذكر اللّه تعالى وجوب مبايعة المؤمنين للرّسول و أنّهم إذا كانوا معه في أمرٍ جامعٍ مهمٍ توقّف إنفصال واحدٍ منهم على إذنه و حذّر من خالف أمره و ذكر أنّ اللّه له ملك السّموات و الأرض و أنّه تعالى عالمٌ بما هم عليه و مجازيهم على ذلك فكان ذلك غاية في التّحذير و الإنذار ناسب أن يفتتح هذه السُّورة بأنّه تعالى منزّهٌ في ذاته و صفاته عن النّقائص كثير الخير و من خيره أنّه نزّل الفرقان على رسوله منذراً لهم فكان في ذلك إطماعٌ في خيره و تحذير من عقابه فقال تبارك الّذي نزّل الفرقان على عبده، و تبارك تفاعل مطاوع بارك و هو فعل لا يتّصرف و لا يستعمل في غيره تعالى فلا يجئ منه مضارع و لا إسم فاعل و لا مصدر قال الطّرماح:

تباركت لا معطٍ لشيٍ منفعة ... وليس لما أعطيت ياربّ مانعُ

قال إبن عبّاس معناه لم يزل و لا يزول، و قال الخليل، تمجُّد، و قال الضّحاك تعظم و قال الأصمعي أي تعاليت و إرتفعت و هو من البركة و هو التّزايد في الخير من قبله فالمعنى زاد خيره و عطاءه و كثر و على هذا يكون صفة فعل و الفرقان القرآن سمّي به لأنّه فارقٌ بين الحقّ و الباطل، و قوله: **عَلَىٰ عَبْدِهِۦ**، أي على رسوله عبّر عنه بالعبد لأنّ العبوديّة من أعلى المقامات قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**(١) و أنّما قلنا أنّ العبوديّة أعلى المقامات لما ورد في الخبر عن الصّادق عليه السلام: **أنّ اللّه تبارك و تعالى جعل إبراهيم عبداً قبل أن يجعله نبيّاً و جعله نبيّاً قبل أن يجعله رسولاً و جعله رسولاً قبل أن يجعله إماماً** الحديث قال عليه السلام: ذلك عند قوله تعالىٰ: **إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**(٢). و قد ورد أنّه قال: **عبدي أطِعني حتّىٰ أجعلك مثلي أو مثلي** و الحاصل أنّ العبوديّة هي الأصل في الوصول الى المقامات و النّيل الى الكرامات و التّعبير بالتّنزيل إشارة الى أنّ القرآن كلام اللّه و أنّه نـزّل عن مقام الربوبيّة الى مقام العبوديّة أين التّراب و ربّ الأرباب، لإرشاد الخلق الى الحقّ و ليكون للعالمين نذيراً، أي منذراً و مخوّفاً من عقابه يوم القيامة هذا إذا قلنا أنّ الضّمير في، ليكون، عائد على القرآن و إن قلنا أنّه عائد على عبده فالمعنى أنّ العبد يكون نذيراً أي منذراً و يؤيّده قوله تعالى: **إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**(٣) و يجوز أن يكون، نذيراً، مصدراً بمعنىٰ الإنذار كالنّكير بمعنى الإنكار و منه فكيف كان عذابي و نذر، و قوله للعالمين، عامّ للإنس و الجنّ ممن عاصر النّبي أو جاء بعده.

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا

١- الاسراء = ١
٢- البقرة = ١٢٤
٣- الرعد = ٧

في الآية مسائل:

الأولىٰ: أنّ له مـلك السّـموات و الأرض، و ذلك لأنّـه تـعالى خـلقهما و أوجدهما و الخالق مالك المخلوق حقّاً بمعنى أنّ مالكيّته حقيقيّة ذاتيّة و مالكيّة غيره إعتباريّة و أن شئت قلت مجازيّة فلا مالك في عالم الوجود إلاّ هو تعالى و ما سواه مملوكٌ له كائناً ما كان و المالك يتّصرف في مملوكه كيف يشاء.

الثّانية: قوله وَ **لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**، الظّاهر من قوله: **لَمْ يَتَّخِذْ**، نفي الإتّخاذ أي لم ينزّل أحداً منزلة الولد، و قيل المعنى لم يكن له ولد بمعنى قوله: **لَم يَلِد**، لأنّ التّوالد مستحيلٌ عليه و كيف كان ففيه ردٌّ على مشركي قريش و على النّصارى و اليهود النّاسبين للّه الولد بقولهم عزير إبن اللّه، و المسيح إبن اللّـه، و المـلائكة بنات اللّه و الوجه في ذلك بحسب الإجمال أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عمّا سواه فـلا يحتاج الى الإتّخاذ بأن ينزّل أحداً منزلة الولد، و كذلك ليس له ولد لأنّ التّوالد و التّناسل من شؤون الجسم و هو تعالى منزّهٌ عن الجسم و الجسّمانية فـالإتّخاذ بكلا المعنيين محالٌ عليه و سيأتي تفصيل الكـلام فـي هـذا البـاب فـي سـورة الإخلاص إن شاء اللّه.

الثّالثة: قوله وَ **لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ**، و ذلك لأنّـه لو كـان له شريك في الملك فلا محالة يكون واجب الوجود إذ الممكن لا يكون شريكاً للواجب لكونه مخلوقاً و المخلوق لا يكون شريكاً لخالقه، و الممتنع لا وجود له فهو معدوم و المعدوم لا يكون شريكاً للموجود، و أمّا الواجب فقد مرّ الكلام فيه مراراً و قلنا أنّ تعدُّد الواجب محال عقلاً لأنّ الواجبين إن كانا مختلفين فـي الذّات و الصّفات يلزم أن لا يكونا واجبين لأنّ مفهوم الوجـوب لا يـنتزع عـن المختلفين بالّذات و الصّفات و أن كانا متّحدين فيهما فهما واحد في الحـقيقة مضافاً الى عدم وجوبهما أيضاً لأنّ في صورة إستغناء أحدهما عن الأخر يلزم أن يكون أحدهما لغواً و عيشاً و في صورة الإحتياج يـلزم الإمكـان و هـو يـنافي

الوجوب مضافاً الى أن الولد مخلوق و هو لا يكون واجباً لحدوثه و كلّ حادثٍ مخلوق فكيف يعقل أن يكون شريكاً للواجب و هذا ظاهر.

الرّابعة: قوله وَ **خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ففي قوله: **خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ** إشارة الى خالقيّته و أنّ ما سواه مخلوق له كائناً ما كان و قوله: **فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** إشارة الى أنّه خلق كلّ شيءٍ بقدرٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزآئِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**(٢).

وَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِۦٓ ءالِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعًا وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لا حَيٰوةً وَ لا نُشُورًا

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ المشركين إتّخذوا من دون اللّه آلهة من الأصنام و الأوثان و النّار و الكواكب و غيرهما و في قوله: **لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ** إشارة الى ضعفها و عدم قدرتها على الخلق و الإيجاد وكيف يقدر على ذلك من هو مخلوق و المخلوق لا يكون خالقاً حقّاً و واقعاً لأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فما يخلقه العبد أو يصنعه ظاهراً ففي الواقع يخلقه اللّه فيقال هذا مخلوق للعبد و العبد مخلوق للّه فهذا مخلوقٌ للّه هذا إذا كان الإله و المعبود الّذي إتّخذوه معبوداً من البشر و أمّا إذا كان معبودهم من الأوثان و الأصنام و الكواكب فالأمر أظهر لأنها جمادات لا قدرة لها على الخلق ظاهراً و واقعاً فصّح قوله تعالىٰ: **لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ** بقولٍ مطلق.

أمّا قوله: **وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعًا وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لا حَيٰوةً وَ لا نُشُورًا** فقد ظهر معناه فما ذكرناه، أمّا الأصنام و الأوثان و

١- القَمَر = ٤٩ ٢- الحجر = ٣١

نظائرها فواضح، و أمّا غيرهم من الملائكة و البشر فهو أيضاً واضح لأنّ المخلوق لا يقدر على شئٍ إلاّ بتوفيقٍ من اللّه فلو كان مالكاً لشئٍ من الأمور المذكورة من دفع الضّرر و جرّ المنفعة و إستمرار الحياة لفعل.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَ أَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَ زُورًا

ثمّ أخبر اللّه تعالى عن الكفّار بأنّهم يقولون ليس هذا القرآن الّذي أنزلناه إلاّ، إفك، يعني كذبٌ إفتعله النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و أعانه عليه قومٌ آخرون، من علماء اليهود و النّصارى و قيل عبدٌ حبشّي يعني الحضرمي فأنّهم أعانوا النّبي بزعمهم على جعل الأيات ولم يعلموا أنّ هذا القول منهم ليس إلاّ ظلماً و زوراً، لأنّهم أضافوه إلى غير من صدر عنه و نسبوه إلى المخلوق و هو كلام الخالق و الدّليل على ذلك أنّهم لم يقدروا على أن يأتوا بمثله و لا مثل أيةٍ من أياتها فكيف يكون القران كلام المخلوق:

قال اللّه تعالى: **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَ ٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[1].

و قد مرّ الكلام في هذا الباب مفصّلاً و الحقّ أنّ الكلام منهم دليلٌ على الضّعف و العجز فهو ظلمٌ من حيث أنّه خروج عن حدّ الإعتدال و زورٌ من حيث أنّه لا دليل لهم عليه.

وَ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا

و التّقدير هذا أساطير الأوّلين فالمبتدأ محذوف قال إبن عبّاس الذّي قال ذلك هو النّضر بن الحارث بن كلدة و المعنى أنّ القرآن أخبار قد سطرها الأوّلون من الأمم إكتتبها محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و إنتسخها، فهي أي الأساطير تملى عليه حتّى ينسخها بكرةً و أصيلاً أي غداةً و عشيّاً.

١- الإسراء = ٨٨

أقول ما ذكرناه في المقام من قول إبن عبّاس نقلناه عن التّبيان بألفاظه و عباراته، و أظنّ أنّ الصّحيح إستنسخها بدل قوله و إنتسخها و هكذا قوله حتّى ينسخها، يستنسخها و اللّه أعلم.

قُلْ أَنْزَلَهُ ٱلَّذي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كٰانَ غَفُورًا رَحيمًا

أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم تكذيباً لقولهم، قل أنزله أي أنزل القرآن، الّذي يعلم السّر في السّموات و الأرض، أي يعلم الخفايا فضلاً عن الظّواهر فلا يخفى عليه شئ لا ظاهراً و لا باطناً أنّه كان غفوراً، لا يعاجلهم بالعقوبة بل يستر عليهم، رحيماً، لأنّ رحمته وسعت كلّ شئٍ و من المعلوم أنّ ذلك لا يكون إلاّ اللّه الواحد الأحد، فليس القرآن من الإفتراء و لا هو من أساطير الأوّلين بل هو كلام اللّه.

وَ قٰالُوا مٰا لِهٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعٰامَ وَ يَمْشي فِى ٱلْأَسْواٰقِ لَوْلآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذيرًا

هذا طعنٌ ثالث لهم على الرّسول و هو أنّه ما لهذا الرّسول، أي أيُّ شئٍ له يأكل الطّعام، كغيره من أفراد البشر و يمشي في الأسواق للبيع و الشّراء و طلب المعاش كما يمشي غيره، لولا أنزل عليه، أي هلاّ أنزل عليه ملكٌ لو كان صادقاً فيما يقول و يدّعي من النّبوة فيكون يستغني به و يكون معه نذيراً أي منذراً.

أَوْ يُلْقىٰٓ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهٰا وَ قٰالَ ٱلظّٰالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا

هذا الكلام أيضاً من الطّاعنين على نبوّة النّبي و كلمة (أَوَ) للعطف أي لولا أنزل اليه ملك أو يلقى اليه كنزٌ يستغني به و يكون عوناً له على دنياه أو تكون له جنّة، أي بستانٌ يأكل هو و أصحابه من ثمراتها ثمّ حكى اللّه تعالى عنهم أنّهم

قالوا لأصحاب النّبي إن تتَّبعون، أي لا تتَّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً، قد سحر به و حاصل كلماتهم في هذه الأيات أنّه ليس بنبّيٍ أمّا أوّلاً فلأنّه يأكل و يمشي في الأسواق فلا فرق بينه و بين النّاس.

ثانياً: أنّ النّبي يحتاج الى من يعينه فلم لم ينزل عليه ملك ليعينه على دعواه.

ثالثاً: النّبي يحتاج الى المال فلم لا يلقى اليه كنزٌ أو تكون له جنّة يأكل منها و إذا إنتفى عنه هذه الأمور يعلم أنّه كاذبٌ في دعواه ولم يعلموا أنّ صدق الدّعوى لا ربط له بهذه الأمور المذكورة فأنّ النّبي لا بدّ له من أن يكون من جنس البشر و إذا كان كذلك كما هو مقتضى قانون السّنخية فلا محالة يأكل و يشرب و يمشي في الأسواق كغيره من آحاد البشر:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**[٣].

و غيرها من الأيات مضافاً الى حكم العقل فأنّه يحكم بذلك حكماً قطعيّاً لا شكّ فيه و قد تكلّمنا في ذلك فيما مضى و أقمنا عليه البراهين العقليّة فهذا أمرٌ مفروغ عنه، و أمّا قولهم أنزل عليه ملك، فقد أنزل عليه غير مرّةٍ إلاّ أنّهم لم يروه و ليس كلّ ما لا يرى بعين البصر ممّا ينكر، و أمّا قولهم يلقي اليه كنزٌ أو تكون له جنّة، فهو كلام لا طائل تحته بل هو يدلّ على جهل قائله لأنّ النّبي لم يبعث من عند اللّه لجمع المال و الأكل و التّعيش بل أرسله اللّه تعالى لإرشاد الخلق الى ما ينبغي لهم من الخير و السّعادة في الدّارين و أين هذا من الكنز و البستان، و

١- الفصلت = ٦ ٢- الجمعة = ٢٠
٣- آل عمران = ١٦٤

قولهم إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً، مجرّد كذب و إفتراء إذ لا دليل لهم على مدّعاهم و ما لا دليل على صحّته و صدقه فهو كذبٌ و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا

أي أنظر يا محمّد الى هذه الجهّال كيف ضربوا لك الأمثال، ولم يعلموا أنّ النّبي لا يحتاج الى كنزٍ أو بستان و الحاصل أنّهم لم يعرفوا النّبي و لو عرفوه لم يقولوا ذلك فضّلوا و إنحرفوا عن طريق الهدى فلا يستطيعون أي فلا يقدرون على إتّخاذ طريق الحقّ مع تمسّكهم بطريق الجهل و عدولهم عن الدّاعي الى الرّشد، و قيل معنى الكلام لا يقدرون على إبطال أمرك بأمثال هذه الكلمات.

تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِنْ شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا

أي تقدّس و تعاظّم اللّه الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك، أي ممّا قالوه من الكنز و البستان و غيرهما **جَنَّاتٍ تَجْرِي** و هي خير من البستان الّذي قالوه، **وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا**، و هو خير من الدُّنيا و ما فيها، الظّاهر أنّ المراد بالقصور قصور الجنّة بقرينة جنّات تجري من تحتها الأنهار، كما عليه القوم في تفاسيرهم و لا يبعد أن يكون المراد إعطاءه أيّاه في الدُّنيا و المعنى أن شاء اللّه يعطيك في الدُّنيا و أنّما إحتملنا ذلك لأنّ الكلام ناظرٌ الى الدُّنيا و لا بحث لنا في الأخرة مضافاً الى أنّ القائلين لم يكن لهم إعتقاد بالأخرة، فالمعنى تقدّس اللّه الّذي إن شاء جعل لك خيراً ممّا قالوه في هذه الدُّنيا فأنّه تعالى قادر علىٰ كلّ شيءٍ إلاّ أنّ مقام النُّبوة لا يقتضي ذلك أي لا يقتضي البستان و التمر و التعيّش فيهما فأن هذه الأمور لا مناسبة لها بشأن النّبي بل هي من شؤون الأكاسرة و القياصرة و الفراعنة، و الجاهل لا يفهم ما يقول و لا يفرق بين النّبي و غيره و أظنّ أنّ هذا

الّذي إحتملناه في تفسير الآية أولى و أليق بالمقام ممّا قالوه و حملوا الآية عليه و هو الأخرة، والله أعلم.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا

كلمة، بل، للإستدراك عندهم و على هذا فمعنى الكلام أنّ هؤلاء الكفّار لم يكفروا لأنّك تأكل الطّعام و تمشي في الأسواق بل لأنّهم لم يقرّوا بالبعث و النّشور و الثّواب و العقاب فهذا الإنكار هو الّذي صار باعثاً على تكذيبهم إيّاك ذكره الشّيخ في التّبيان و به قال الكرماني من العامّة و عليه أكثر المفسّرين.

و قيل بل كذّبوا بالسّاعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب و كيف يصدّقون بتعجيل مثل ما وعدك في الأخرة و هم لا يؤمنون بها و قوله: **وَ أَعْتَدْنَا**، أصله أعددنا فقلّبت إحدى الدالين تاءً لقرب مخرجهما و السّعير النّار الملتهبة و الإسعار تهّيج النّار بشدّة الإيقاد ثمّ وصف الله تعالى النّار المستعرة فقال:

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا

إختلف المفسّرون في المراد بقوله: **إِذَا رَأَتْهُمْ** و ذلك لأنّ ظاهر الآية أنّ النّار رأتهم أي رأت النّاظرين و من المعلوم أنّ النّار لا تتّصف بالرّؤية و المتّصف بها هو النّاظر إليها فحقّ الكلام أن يقال و إذا رأوها بدل قوله تعالى: **إِذَا رَأَتْهُمْ** و هذا هو الّذي صار منشأ الإختلاف في تفسير الكلام فقال الشّيخ ﷺ في التّبيان، نسب الرؤيّة إلى النّار، و أنّما هم يرونها، لأنّ ذلك أبلغ كأنّها تراهم رؤية الغضبان الّذي يزفر غيظاً فهم يرونها على تلك الصّفة و يسمعون منها تلك الحال الهائلة إنتهى.

و قال بعض المفسّرين من العامّة هو حقيقة و أنّ لجهنّم نعبيّن و إدّعى أنّ في ذلك أثر، إلاّ أنّه لم يرو الأثر الّذي إدّعاه فأن صحّ ما ذكره كان هو القول و إلاّ كان مجازاً أي صارت منهم بقدر ما يرى الرّائي من البعد كقولهم دورهم تترأى أي تتناظر و تتقابل.

و قال بعضهم النّار إسم لحيوان ناري يتكلّم و يسمع و يرى و يتّغير و يزفر حكاه الكرماني و هو كما ترى بالموهومات أشبه و قيل هو على حذف مضافٍ أي رأتهم خزنتها من مكانٍ بعيدٍ مسيرة خمس مائة عام وكلّ هذه الأقوال لا دليل عليها و لا يقبلها العقل السّليم و لا الطّبع المستقيم إلاّ ما ذكره الشّيخ في التّبيان و هو أنّ الرّؤية نسبت إلى النّار مجازاً.

و أمّا قوله: **تَغَيُّظًا وَ زَفِيرًا** فالتغيّظ في الأصل إنتفاض الطّبع لشدة نفور النّفس و المعنى صوت التغيُّظ من التلهّب و التّوقد و عن الجبائي معناه إذا رأتهم الملائكة الموكّلون بالنّار سمعوا لها، للملائكة، تغيُّظاً و زفيراً، للحرص على عذابهم.

أقول هذا عدول عن ظاهر الكلام مع حسن ظاهره من غير حاجةٍ إليه و الحقّ انّ النّار شبّهت بمن له تلك الحال و ذلك في نهاية البلاغة فلا يحتاج الكلام إلى هذه التّأويلات الباردة و اللّه أعلم بكلامه.

وَ إِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا

الضّمير في، منها، عائد على النّار و قوله: **مَكَانًا**، إنتصب على الظّرف أي في مكانٍ ضيّقٍ و على هذا فمن، في قوله: **مِنْهَا** بمعنى، في، و الضِّيق ضدّ السِّعة و قوله: **مُقَرَّنِينَ**، قيل معناه مغلّلين قد قرنت أعناقهم إلى أيديهم في الأغلال كما قال تعالى: **مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ**(١).

و قيل مقرّنين مع الشّياطين في السّلاسل و الأغلال، و قيل يقرن الإنسان و الشّيطان الّذي كان يدعوه إلى الضّلال، و الثُّبور، بضّم الثّاء الهلاك و قيل هو الويل و أنّما قال: **أُلْقُوا** بصيغة، المجهول و لم يقل إذا دخلوا منها مع أنّ المأل فيهما واحد و هو الدّخول فيها لنكتةٍ و هي أنّ الدُّخول في الشّئ يكون مع الإختيار يقال دخل فلان داره إذا دخل فيها بإختياره و إرادته و السّر فيه أنّ الدّخول فعل

١- إبراهيم = ٤٩

الفاعل و هو مسبوق بالإرادة و الإختيار و إلاّ لا يكون الفعل فعله و هذا بخلاف الإلقاء لأنّه فعل الغير كما يقال ألقيته في النّار معناه أدخلته فيها بغير إختيارٍ و إرادةٍ منه إذا عرفت هذا فنقول الدّخول في النّار ليس بإختيار العصاة و بإرادتهم إذ لا يدخل فيها أحدٌ بإختياره و أنّما يلقون فيها على خلاف ميلهم و إرادتهم فالفاعل في الحقيقة هو اللّه تعالى لا العبد و من المعلوم أنّ الإختيار محقّق في حقّ اللّه تعالى، و معنى الآية أنّ هؤلاء الكفّار و العصاة إذا ألقوا في النّار بأمرٍ من اللّه تعالى مع الأوصاف المذكورة للنّار في الآية من ضِيق المكان و التقرّن بالأغلال و السّلاسل دعوا هنالك ثبوراً أي يقولون و اثبوراه أي يقال يا ثبور فهذا أوَانك و أنّما يقولون ذلك لشّدة عذابهم و ضيق مكانهم فيقال في جوابهم:

لَا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا واٰحِدًا وَ ٱدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا

و في هذا الجواب إشارة إلى أنّه لا مخلص لهم من العذاب و لا يمكن الخروج منها لأحد إلاّ بأذن اللّه تعالى وفي قوله ثبوراً كثيراً إشارة إلىٰ خلودهم أو دوامهم فيها فلا محالة يستّمر الثّبور منهم إلى ما شاء اللّه أعاذنا اللّه منها، و هذا جزاء من كذَّب الرُّسل و ما جاءوا به من الأحكام الشرعيّة و إستهزء بهم و ما ربّك بظلامٍ للعبيد ثمّ أمر اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء المستهزئين المكذّبين فقال تعالىٰ:

قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كٰانَتْ لَهُمْ جَزٰآءً وَ مَصِيرًا، لَهُمْ فِيهٰا مٰا يَشٰآؤُنَ خٰالِدِينَ كٰانَ عَلىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُلًا

الظّاهر أنّ الإشارة، بذلك إلى النّار و أحوالها و أوصافها، و قيل إلى الجنَّة و الكنز في قولهم و قيل إلى الجنّة و القصور المجعولة في الدّنيا على تقدير المشيئةُ و خير هنا ليست على الأفضليّة بل هي على ما جرت عادة العرب في بيان فضل الشّئ و خصوصيّته بالفضل دون تعامله و فيه قال الشّاعر:

فَسَّر كما لخير كما القداء

كقول العرب الشّقاء أحبّ إليك أم السّعادة، و كقوله تعالى حكايةً عن يوسف: **ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ**(١) و الإستفهام في قوله أذلك للتّوبيخ .

قال بعضهم و من حيث كان الكلام إستفهاماً جاز فيه مجئ لفظه للتّفضيل بين الجنّة و النّار في الخير وكيف كان فمعنى الآية قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار المستهزئين يعني ما ذكره من السّعير و أوصافه خيرٌ أم جنّة الخلد، و أنّما قال ذلك على وجه التّنبيه لهم على تفاوت ما بين الحالين و إلاّ فليس في النّار خير حتّى يقال أذلك خيرٌ أم جنّة الخلد، فالمراد بذلك أيُّ المنزلين خيرٌ تبكّتاً لهم و تقريعاً المنزل الّذي أنتم فيه يوم القيامة و هو النّار مع ما فيها من الأوصاف أم جنّة الخلد التّي وعد المتّقون و هم الّذين يتّقون معاصيه في دار الدّنيا **كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَ مَصِيرًا**، أي كانت جنّة الخلد مصيرهم و جزائهم على أعمالهم يوم القيامة لهم، للمتّقين، فيها أي في جنّة الخلد (ما يشاؤن) فأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس و تلتّذ الأعين خالدين فيها، **كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُلاً**، أي هم مقيمون فيها أبداً لا يفنون فيها **كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُلاً**، أي كان الخلود فيها و التّنعم بها على ربّك وعداً مسئولاً.

قال بعضهم أنّ المراد من قوله: **مَسْؤُلاً** أنّ المؤمنين يسألون اللّه الرّحمة في قولهم: **رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ٱرْحَمْنَا**(٢) و قولهم: **مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ**(٣) و قيل معناه، أنّه بمنزلة قولك، لك ما تمّنيت منّي أي متى تمّنيت شيئاً فهو لك فكذلك متى سألوا شيئاً فهو لهم بوعد اللّه عزّ وجلّ إيّاهم ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين المصدر بمعنى المفعول، فقوله: **وَعْدًا**، أي موعوداً مسئولاً سألته الملائكة في قولهم: **رَبَّنَا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ**(٤).

١- يوسف = ٣٣
٢- المؤمنون = ١٠٩
٣- آل عمران = ١٩٤
٤- غافر = ٨

و قال الفرّاء **وَعْدًا مَسْئُولًا** أي واجباً يقال لأعطيّنك ألفاً وعداً مسئولاً، أي واجباً و أن لم يسأل.

و قال الزّمخشري كان ذلك موعوداً واجباً على ربّك إنجازه حقيقاً أن يسأل و يطلب لأنّه جزاء و أجرٌ مستّحق.

أقول ما ذكروه لا بأس به إذ لا شكّ أنّ اللّه تعالى وعد المتّقين في كثير من الأيات بأنّ لهم الجنَّة و أنّهم خالدون فيها و أنّ لهم فيها كذا و كذا من النِّعم و من المعلوم أنّ اللّه تعالى لا يخلف الميعاد و من أصدق من اللّه قيلاً و قد قال اللّه في كتابه:

وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا(١).

و قال تعالىٰ: **وَ أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**(٢).

و قال تعالىٰ: **وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**(٣).

و قال تعالىٰ: **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**(٤).

و الأيات بهذه المضامين كثيرة و على هذا فمعنى الآية أنّ ما وعد اللّه المتّقين من الأجر و الثّواب و الخلود في الجنّة و غيرها من النِّعم حقٌّ لا مرية فيه و من أوفى بعهده منه و هذا ظاهر لا خفاء فيه و معنى كونه مسئولاً، أنّ المتّقين يسألونه ما وعدهم في كتابه بواسطة نبيّه فقوله: **مَسْئُولًا**، حال من الوعد لا من الرَّب في قوله، ربّك، وإنّي أظّن أنّ المفسّرين جعلوا مسئولاً، حالاً من ربّك فقالوا كيف يكون الرّب مسئولاً و لا سيّما على القول بأنّ الثّواب منه تعالى للعبد على أساس التَّفضل لا على الإستحقاق، فوقعوا فيما وقعوا و أمّا على المختار من أنّ مسئولاً، حال من الوعد فالمعنى أنّ الوعد مسئولٌ يوم القيامة و هذا ممّا لا إشكال فيه لقوله تعالى: **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**(٥).

١- الإسراء = ٣۴
٢- البَقرة = ۴٠
٣- التّوبة = ١١١
۴- البقرة = ٨٠
۵- الإسراء = ٣۴

و الحاصل أنّ الوعد يسأل منه سواء كان من اللّه تعالى أم من العبد و اللّه تعالى لا يسأل منه و هذا فيه دقّة و الفرق واضح على المتأمل.

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَآ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ ءَابَآءَهُمْ حَتَّى نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا

قرأ إبن كثير و أبو جعفر و حفص و يعقوب يَحشرهُم بالياء و عليها المصاحف فعلاً و قرأ الباقون بالنّون و هكذا في فيقول، فمنهم من قرأ بالياء و منهم من قرأ بالنّون و قرأ أبوجعفر أَنْ نُتَّخِذَ بضّم النُّون بصيغة المجهول و الباقون بفتح النُّون على المعلوم و لكلّ هذه القراءت وجهٌ وجيه كما لا يخفى على المتأمل فيها، و المراد باليوم في قوله: **وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ** هو يوم القيامة، **وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ**، الواو للعطف أي يحشرهم مع ما كانوا يعبدونه في الدّنيا من الاوثان و الأصنام و الملائكة و هكذا.

قال صاحب الكشّاف يريد المعبودين من الملائكة و المسيح و عزير و عن الكلبي الأصنام ينطقها اللّه و يجوز أن يكون عامّاً لجميعهم.

فأن قلت كيف صحّ إستعمال، ما، في العقلاء.

قلت هو موضوع على العموم للعقلاء و غيرهم إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول لعلّ مراده أنّه لا إشكال في ذكر العامّ و إرادة الخاصّ منه فاللّفظ و أن كان عامّاً، إلاّ أنّ المراد منه خصوص العقلاء إذ ليس لغير العقلاء حشرٌ و لا نشر و لا سؤال و لا جواب هذا ما فهمناه من كلام الزّمخشري و هو و أن كان حقّاً إلاّ أنّه مخالفٌ لظاهر الكلام إذ لو كان المقصود من الكلام ما ذكره لقال يوم يحشرهم ومن يعبدون من دون اللّه، و حيث لم يقل ذلك نستكشف منه عدم إرادة

خصوص العقلاء و أنّ اللّفظ على عمومه لفظاً و معنىً و عليه فالإشكال باقٍ على حاله و هو أنّ ما لا يعقل كيف يحشر و يمكن أن يجاب عنه بوجهين:

أحدهما: أنّ اللّه تعالى قادر على إحياء ما لا يعقل و إنطاقه كما قيل.

الثّاني: و هو الّذي يقوّي في نفسي أنّ الكلام على التّغليب أي تغليب ما لا يعقل على ما يعقل لكونه أكثر و توضيحه إجمالاً:

أنّ المعبود على قسمين، ما يعقل و ما لا يعقل، أمّا الأوّل كالملائكة و المسيح و عزير، و الثّاني كالأصنام و الأوثان و الكواكب و الشّمس و النّار و غيرها من الجمادات و من المعلوم أنّ الثّاني أعني به ما لا يعقل أكثر مصداقاً من الأوّل، فأنّ ما يعقل منحصرٌ في الثّلاثة المذكورة أعني بها الملائكة و المسيح و عزير ظاهراً و أمّا ما لا يعقل من الجمادات و النّباتات فاللّه أعلم بعدده و على هذا فلا يبعد أن يكون الإتيان بما، لأجل ذلك و أمّا أن اللّه يحشرهم يوم القيامة معناه يجمعهم فأنّ الحشر الجمع:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلطَّيْرِ**[١].

أي جمع له ذلك فكان إذا خرج إلى مجلسه عكف عليه الطّير و قام الإنس و الجنّ حتّى يجلس على السّرير و عليه قوله تعالىٰ: **وَ إِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ**[٢] أي جُمعت فقوله تعالى: **وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ** معناه يوم يجمعهم أي يجمع العابد و المعبود و يسأل منهم و هذا أمرٌ معقول.

و أمّا كيفيّة الحشر و الجمع فاللّه أعلم بها و لا يضّرنا الجهل بها.

إن قلت المعبود الجماد كيف يسأل عنه.

قلت يسأل عنه إتماماً للحجّة على العابد كما يسأل عن الأعضاء و الجوارح.

إن قلت كيف يسأل عنه و هو لا يقدر على النّطق.

١- النّمل = ١٧ ٢- التّكوير = ٥

قلت أنّ اللّه تعالى قادر على إنطاقه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللّٰهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذٰا مٰا جٰآءُوهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ، وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوٓا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِىٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَ مٰا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَآ أَبْصٰارُكُمْ وَ لٰا جُلُودُكُمْ وَ لٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمّٰا تَعْمَلُونَ**[١].

فهذه الأيات تنادي بأعلى صوتها بأنّ اللّه قادر على إنطاق كلّ شيءٍ وليس إنطاق الأصنام و الكواكب و الأوثان و غيرها بأصعب من إنطاق الجلود و كما أنّ إنطاق الجلود و غيرها من الأعضاء للشّهادة على كذب صاحبها كذلك إنطاق الأوثان و أمثالها للشهادة على من عبدها ثمّ أنّ اللّه تعالى يقول بعد حشرهم: **ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِي هٰٓؤُلٰآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ، قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِي لَنٰآ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰآءَ وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ اٰبٰآءَهُمْ حَتّٰى نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَ كٰانُوا قَوْمًا بُورًا** أي يقول اللّه لهؤلاء المعبودين **ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبٰادِي**، عن طريق الحقّ **أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ**، من عند أنفسهم و بعبارةٍ أخرى ءأنتم دعوتموهم إلى الشِّرك بي أم لا فيقولون في الجواب ما حكاه اللّه عنهم و هو **قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِي لَنٰآ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ**، أي أنت منزّهٌ عن الشِّرك لا إله إلاّ أنت و في قولهم: لا ينبغي إشارة إلى إقرارهم بعدم إستحقاقهم للمعبوديّة **وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ اٰبٰآءَهُمْ حَتّٰى نَسُوا ٱلذِّكْرَ**، أي متّعت هؤلاء الكفّار و متّعت أبائهم في نعيم الدّنيا حتّى نسوا الذّكر، أي نسوا ذكرك، يحتمل أن يكون المراد بالذّكر المنّسي العهد الذّي أخذه عليهم في عالم الذّر حيث قال ألست بربّكم قالوا بلى، و أن يكون المراد به

١- فصّلت = ١٩ إلىٰ ٢٢

الفطرة الّتي فطر النّاس عليها و هي التَّوحيد، و في قولهم هذا إشارة إلى أنّ اللّه أنطقهم بقدرته فالمدّعى ثابت و أمّا قولهم: **مَتَّعْتَهُمْ** الخ فيستفاد منه أنّ الحطام الدنيويّة و زخارفها و نعمها من الأموال و الأولاد و العشيرة و الرّئاسة و غيرها توجب في حقّ كثيرٍ من النّاس لولا أكثرهم الإعراض عن الحقّ و الإقبال إلى الباطل و نسيانهم عمّا كلّفوا به من الطّاعات و ترك المحرّمات و التَّوجه إلى معبودهم الحقيقي و ليس ذلك إلاّ لغلبة الهوى على العقل.

قال الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: يا هشام من سلَّط ثلاثاً على ثلاثٍ فكأنّما أعان على هدم عقله، من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه و أطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنّما أعان على هدم عقله و من هدم عقله أفسد على نفسه دينه و دنياه إنتهى.

فالمتَّمتع بالدنيّا و زخارفها قد أظلم نور تفكّره بطول أمله و لازم ذلك هدم العقل و تعطيله عن الإرشاد إلى الحقّ و إستيلاء الشّيطان عليه و هذا الحكم و أن لم يكن كليّاً و لكنّه أكثريٌ قطعاً.

و أمّا قوله: **وَ كٰانُوا قَوْمًا بُورًا**، فالبور بضّم الباء الفاسد و هو مصدر كالزُّور، لا يثنى و لا يجمع و لا يؤنّث و قيل هو جمع، بائر، قال الشّاعر:

يا رسول المليك أنّ لسانى ... راتقُ ما فتقت إذا أنا بورُ

و حاصل جوابهم أنّا ما أضللناهم و لكنّهم كانوا قوماً فاسدين.

فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمٰا تَقُولُونَ فَمٰا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَ لاٰ نَصْرًا

قال صاحب الكشّاف قرأ بعضهم تَقُولُون بالتّاء و قرأ بعضهم بالياء فمعنى من قرأ بالتّاء فقد كذّبوكم بقولكم أنّهم ألهة، و معنى من قرأ بالياء فقد كذّبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك أولياء.

فأن قلت هل يختلف حكم التّاء و الياء.

قلت أي و اللّه هي مع التّاء كقوله: **بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ** و الجار و المجرور بدل من الضّمير كأنّه قيل فقد كذّبوا بما تقولون و هي مع الياء كقولك كتبت بالقلم إنتهى كلام صاحب الكشّاف.

و الحقّ أن يقال أن كان المجيب الأصنام فالخطاب للكفّار و المعنى قد كذّبتكم معبوداتكم من الأصنام و الأوثان بقولهم: **مٰا كٰانَ يَنْبَغِي لَنٰآ أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيٰآءَ** و أن كان الخطاب للمعبودين من العقلاء من الملائكة و عيسى و عزير و هو الظّاهر لتناسق الخطاب مع قوله ءأنتم أضللتم فالمعنى كذّبكم المعبودون بما تقولون أي بقولهم أنّكم أضللتم و زعمهم أنّكم أولياؤهم من دون اللّه.

و قيل هو خطاب للمؤمنين في الدّنيا أي قد كذّبكم أيّها المؤمنون الكفّار في الدّنيا فيما تقولونه من التّوحيد و الشّرع.

و قال الفّراء من قرأ بالياء معناه، **كَذَّبُوكُمْ** بقولهم و أمّا قوله: **فَمٰا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَ لاٰ نَصْرًا**، معناه ما تستطيعون أنتم يا كفّار صرف العذاب عنكم و أمّا على قراءة الياء فالمعنى ما تستطيع ألهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو أن يحتالو لكم.

وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذٰابًا كَبِيرًا

قيل الخطاب على العموم للمكلّفين و العذاب الكبير لا حقّ بكلّ من ظلم و الكافر ظالم و الفاسق ظالم قاله صاحب الكشّاف.

و أنا أقول تفسير الآية لا يحتاج إلى هذه التكلّفات و ذلك لوضوح المعنى فيها فأنّ اللّه تعالى يقول، فقد كذّبوكم بما تقولون أيّها الكفّار، من أنّ هؤلاء أضّلونا عن قصد السّبيل، و ذلك لأنّهم **قٰالُوا سُبْحٰانَكَ مٰا كٰانَ يَنْبَغِي** الخ **فَمٰا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَ لاٰ نَصْرًا**، أي ما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم و لا نصر أنفسكم من عذاب اللّه هذا كلّه على قراءة التّاء في، تقولون، و

تستطيعون كما عليها الجمهور و أمّا على قراءة الياء فالمعنى، كذّبوكم بما يقولون هؤلاء المعبودين، بقولهم: **سُبْحٰانَكَ** الخ و من يظلم منكم، أي من العابدين المكلّفين أو من العابد و المعبود، نذقه عذاباً كبيراً.

وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلآّٰ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعٰامَ وَ يَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوٰاقِ وَ جَعَلْنٰا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَ كٰانَ رَبُّكَ بَصِيرًا

هذه الآية في الحقيقة ردٌّ على قول هؤلاء الكفّار حيث قالوا: **مٰا لِهٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعٰامَ وَ يَمْشِي فِى ٱلْأَسْوٰاقِ**(١) فقال اللّه تعالىٰ مُخاطباً لنبيّه: وما أرسلنا قبلك يامحمّد من المرسلين، إلاّ أنّهم ليأكلون الطّعام و يمشون في الأسواق، فليس أكل الطّعام و لا المشي في الأسواق مانعاً من النّبوة بل و لا نقصاً فيها لأنّ الأكل و الشّرب و المشي و النّوم و غيرها من الأوصاف من لوازم البشريّة فلا يمكن لبشرٍ أن لا يأكل و لا يمشي و هكذا و حيث أنّ الأنبياء من جنس البشر و حكم الأمثال واحد فلابدّ لهم من الأكل و المشي و النّوم و غيرها من اللّوازم في إدامة حياتهم و هذا ممّا لا يضُّر برسالتهم و نبوتهم:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّمٰآ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إِلَيَّ أَنَّمٰآ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلّٰا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا قَدَرُوا ٱللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قٰالُوا مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ عَلىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**(٤).

و غير ذلك من الأيات الواردة في الباب و قد مرَّ الكلام في النُّبوة و أنّ النّبي لا يكون إلاّ من جنس البشر كما هو مقتضى قانون السّنخية بما لا مزيد عليه فيما مضىٰ.

١- الأية ٧
٢- الكهف = ١١٠
٣- إبراهيم = ١١
٤- الأنعام = ٩١

و أمّا قوله: وَ **جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً** فقيل في معناه يقول الأعمىٰ لو شاء اللّه لجعلني بصيراً مثل فلان و يقول هذا الفقير لو شاء لجعلني غنيّاً مثل فلان و يقول هذا السّقيم لو شاء لأصحّني مثل فلان نقله الشّيخ في التّبيان عن الحسن.

و قال الأخر هو عامٌّ للمؤمنين و الكفّار فالصّحيح فتنةٌ للمريض و الغنّي فتنة للفقير و الفقير الشّاكر فتنة للغنّي و الرّسول المخصوص بكرامة النّبوة فتنة لأشراف النّاس من الكفّار في عصره و كذلك العلماء و حكّام العدل إنتهى.

و قال الزّمخشري في الكشّاف في هذه الآية ما هذا لفظه (فتنة) أي محنةٌ و إبتلاء و هذا تبصيرٌ لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ ما قالوه و إستبدعوه من أكله الطّعام و مشيه في الأسواق بعد ما إحتّج عليهم بسائر الرُّسل يقول و جرت عادتي و موجب حكمتي على إبتلاء بعضكم أيها النّاس ببعض و المعنى أنّه إبتلى المرسلين بالمرسل إليهم و بمناصبتهم لهم العداوة و أقاويلهم الخارجة عن حدّ الإنصاف و أنواع أذاهم و طلب منهم الصّبر الجميل إنتهى كلامه.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية أجاب تعالى عن قولهم ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق إلى أخر الآية أوّلاً بقوله تبارك الذّي أن شاء جعل لك خيراً من ذلك الخ مع ما يلحقه من قوله: **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ** الخ و هذا جواب ثان محصّله أنّ هذا الرّسول ليس بأوّل رسولٍ أرسل إلى النّاس بل أرسل اللّه قبله جمّاً غفيراً من المرسلين و قد كانوا علىٰ العادة البشريّة بين النّاس يأكلون الطّعام و يمشون في الأسواق و لم يخلق لهم جنّة يأكلون منها و لا ألقي إليهم كنزٌ و لا أنزل معهم ملك و هذا الرّسول أنّما هو كأحدهم ولم يأت بأمرٍ بدع حتّىٰ يتّوقع منه ما لا يتّوقع من غيره فالآية في معنى قوله: **قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ ٱلرُّسُلِ وَ مَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَ لَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ**[1] إنتهى كلامه.

١- الأحقاف = ٩

و قال الرّازي و أمّا قوله تعالى: **وَ جَعَلْنٰا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً** ففيه مسائل:

المسئلة الأُولىٰ: فيها أقوال:

أحدها: أنّ هذا في رؤوساء المشركين و فقراء الصّحابة فإذا رأى الشّريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون لوضيع السّابقة و الفضل عليه و دليله قوله تعالىٰ: **لَوْ كٰانَ خَيْرًا مٰا سَبَقُونٰآ إِلَيْهِ**(١) و هذا قول الكلبي و الفّراء و الزّجاج.

ثانيها: أنّ هذا عامّ في جميع النّاس روى أبو الدّرداء عن النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: **ويلٌ للعالم من الجاهل و ويلٌ للسّلطان من الرّعية و ويلٌ للرّعية من السّلطان و ويلٌ للمالك من المملوك و ويلٌ للشّديد من الضّعيف و للضّعيف من الشّديد بعضهم لبعضٍ فتنة** و قرأ هذه الآية.

ثالثها: أنّ هذا في أصحاب البلاء و العافية هذا يقول لم أجعل مثله في الخلق و الخلق و العقل و في العلم و في الرّزق و في الأجل و هذا قول إبن عبّاس و الحسن.

رابعها: هذا إحتجاج عليهم في تخصيص محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم بالرّسالة مع مساواته إيّاهم في البشريّة و صفاتها فإبتلى المرسلين بالمرسل إليهم و أنواع أذاهم إلىٰ أخر ما قال إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذا ما وصل إلينا من أقوال المفسّرين حول الآية و الّذي يختلج بالبال في تفسيرها أنّ الفتنة في الآية بمعنى الإختبار و الإمتحان و المعنى جعلنا بعضكم لبعضٍ فتنة، فالنّبي يختبر بتبليغه الرّسالة إلى الأمّة و الصّبر على الأذى منها، و الأمّة تختبر بالنّبي بالطّاعة و الإنقياد و الإعتقاد بنبوّته و أنّه ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى، و قوله: **أَتَصْبِرُونَ وَ كٰانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** معناه أتصبرون على هذا الإختبار فموقع، أتصبرون، بعد ذكر الفتنة، موقع، أنّكم بعد

١- الاحقاف = ١١

الإبتلاء في قوله تعالىٰ: **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** و قوله: **بَصِيرًا**، أي عالماً بالصّواب فيما يبتلي به و بغيره ففي هذا الكلام تسلية للنّبي أي فلا يضيقّن صدرك و لا يستخّفنك أقاويلهم فأنّ في صبرك عليهم سعادة و فوزك في الدّارين، و قيل هو تسليةٌ عمّا عيَّروه به من الفقر حين قالوا أو يلقى إليه كنزٌ أو تكون له جنَّة و أنّه جعل الأغنياء فتنة للفقراء لينظر هل تصبرون و أنّها حكمته و مشيّئته يغني من يشاء و يفقر من يشاء، و قيل غير ذلك من الأقوال التّي لا طائل تحتها فأنّ المعنى واضح لا خفاء فيه و الإختبار و الامتحان واقع في الشريعة بلا كلام:

قال اللّه تعالىٰ: (**الٓمٓ، أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ**)[1].

و الأيات و الأخبار الواردة في الباب كثيرة و قد تكلّمنا في ذلك فيما مضى مفصّلاً فلا نحتاج إلى إعادة البحث و إطالة الكلام فيه هذا أخر ما أردنا إيراده في المقام في تفسير الجزء الثّامن عشر و يتلوه الجزء التّاسع عشر.

■

۱- العنكبوت = ۲

وَ قالَ ٱلَّذينَ لا يَرْجُونَ لِقآءَنا لَوْلآ أُنْزِلَ
عَلَيْنَا ٱلْمَلآئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا
فيٓ أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ
ٱلْمَلآئِكَةَ لا بُشْرىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمينَ وَ يَقُولُونَ
حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَ قَدِمْنآ إِلىٰ ما عَمِلُوا مِنْ
عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَبآءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ
يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقيلًا ﴿٢٤﴾ وَ يَوْمَ
تَشَقَّقُ ٱلسَّمآءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ ٱلْمَلآئِكَةُ تَنْزيلًا
﴿٢٥﴾ اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ كانَ يَوْمًا
عَلَى ٱلْكافِرينَ عَسيرًا ﴿٢٦﴾ وَ يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظّالِمُ
عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ
سَبيلًا ﴿٢٧﴾ يا وَيْلَتىٰ لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا
خَليلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَني
وَ كانَ ٱلشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَ قالَ
ٱلرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ
مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا
مِنَ ٱلْمُجْرِمينَ وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ هادِيًا وَ نَصيرًا
﴿٣١﴾ وَ قالَ ٱلَّذينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ

جُمْلَةً واحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ رَتَّلْنٰاهُ
تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّٰا جِئْنٰاكَ
بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ اَلَّذِينَ يُحْشَرُونَ
عَلٰى وُجُوهِهِمْ إِلٰى جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكٰانًا وَ
أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ وَ
جَعَلْنٰا مَعَهُ أَخٰاهُ هٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبٰا
إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَدَمَّرْنٰاهُمْ تَدْمِيرًا
﴿٣٦﴾ وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمّٰا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنٰاهُمْ
وَ جَعَلْنٰاهُمْ لِلنّٰاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنٰا لِلظّٰالِمِينَ عَذٰابًا
أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَ عٰادًا وَ ثَمُودَا وَ أَصْحٰابَ الرَّسِّ وَ
قُرُونًا بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَ كُلًّا ضَرَبْنٰا لَهُ
الْأَمْثٰالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنٰا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَ لَقَدْ أَتَوْا
عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ
يَكُونُوا يَرَوْنَهٰا بَلْ كٰانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

◀ اللغة

عُتُوًّا: العتّو، الخروج الى أفحش الظُّلم.

حِجْراً: الحجر الضَّيق و يقال على الحرام الضِّيقة بالنَّهي عنه.

هَبَآءً: الهباء غباراً كالشّعاع لا يمكن القبض عليه، و قيل هو غبار يدخل الكُّوة في شعاع الشَّمس و قيل هو الماء المهراق و قيل هو رهج الخيل.

مَقِيلًا: بفتح الميم المكان الّذي يأوون إليه في الإسترواح الى الأزواج و التَّمتع و حيث أنّه لا نوم في الجَّنة سمّي مكان إسترواضهم الى الحور مقيلاً.

عَسِيرًا: أي صعباً شديداً.

لِيَعَضُّ: العَّض التَّلهف و التَّأسف.

مَهْجُورًا: الهجر التَّرك.

فُؤَادَكَ: الفؤاد القلب.

تَرْتِيلًا: التَّرتيل التَّبيين في تثَّبتٍ و ترَّسل.

◀ الإعراب

يَوْمَ يَرَوْنَ في العامل فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أذكر يوم يرون.

الثّاني: يعذَّبون يوم.

الثّالث: لا يبَّشرون يوم يرون، و لا يجوز أن تعمل فيه البشرى لأمرين:

أحدهما: أنّ المصدر لا يعمل فيما قبله.

الثّاني: أنّ المنفى لا يعمل فيما قبل لا يَوْمَئِذٍ تكرير ليوم الأوّل، أو هو خبر، بشرى، فيعمل فيه المحذوف و لِلْمُجْرِمِينَ تبيينٌ أو هو خبرٌ ثان حِجْرًا مَحْجُورًا هـو مصدر و التَّقدير حجرنا حجراً، و الفتح و الكسر لغتان فيه و قد قرئ بـهما يَوْمَ تَشَقَّقُ إنتصاب يوم على تقدير، إذكر، و تشقَّق، يقرأ بالتَّخفيف و التَّشديد و الأصل تشقَّق و هذا الفعل يجوز أن يراد به الحال و الإستقبال و الماضي ٱلْمُلْكُ مـبتدأ لِلرَّحْمٰنِ خبر و قيل الخبر، الحَّق، و قيل، يومئذٍ مَهْجُورًا مفعول ثان لقوله، إتَّـخذوا جُمْلَةً حال من القرآن.

◀ التَّفسير

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا

أخبر اللّه تعالى عن الكفّار الّذين لا يرجون ثواب اللّه أنّهم قالوا كذا و كذا و الرّجاء ترَّقب الخير الّذي يقوّي في النّفس وقوعه و حيث أنّ اللّه تعالى لا يرى فالمراد باللّقاء في الآية هو ثواب اللّه أو جزائه و إنّما لا يرجونه لكفرهم باللّه ثمّ أشار اللّه تعالى بما قالوا و هو أمران:

أحدهما: قولهم لولا نزَّل علينا الملائكة.

ثانيهما: رؤية الرَّب و المراد بها الرُّؤية بالبصر، أمّا الأوّل فقد مضى الكلام فيه و قلنا أنّ قانون السّنخية يقتضي أن يكون النَّبي من جنس البشر و أمّا الثّاني و هو رؤية الرَّب فهو محال لأنّ المرَّئي لابُّد له من أن يكون في وضعٍ أو جهةٍ حتّى يرى و اللّه تعالى منَّزهٌ عمّا يليق بالأجسام و بعبارةٍ أخرى المكان و الجهة و الوضع و أمثال ذلك من لوازم الجسم و شؤنه فما ليس بجسم و لا جسماني لا يكون متَّصفاً بأوصاف الجسم فكيف يرى بالبصر و لذلك قال اللّه تعالى: **لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا** قال الزَّمخشري ـ فأن قلت ما معنى (في أَنفسهم) قلت معناه أنّهم أضمروا الإستكبار عن الحقّ و هو الكفر و العناد في قلوبهم و أعتقدوه كما قال تعالى: **إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**(١) و عتوا و تجاوزوا الحَّد في الظُّلم وقد وصف العتّو بالكبير فبالغ في إفراطه يعني أنّهم لم يجبروا على هذا القول العظيم إلاّ أنّهم بلغوا غاية الإستكبار و أقصى العتُّو و اللاّم جواب قسمٌ محذوف إنتهى كلامه.

و قال الشّيخ في التّبيان في قوله: **لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنْفُسِهِمْ**، أي طلبوا الكبر و التَّجبر بغير حقٍّ و عتُّوا بذلك، أي طغوا به إنتهى.

و به قال الرّازي و غيره من المفسّرين و الّذي نفهم من الآية في المقام، أنّ هؤلاء الكفّار إستكبروا عن متابعة النّبي و قبول قوله في النُّبوة لكونه من جنس البشر يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق فزعموا أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم مثلهم في جميع

١- غافر = ٥٦

الشّئون و لا فضل له عليه السلام عليهم و بذلك إستكبروا عن متابعته فقالوا: **لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا**، أي أنّا لا نؤمن لبشرٍ مثلنا بالنُّبوة ولا نعني بالإستكبار إلاّ هذا و عليه فقوله في أنفسهم إشارة إلى أنّ هذا المعنىٰ كان في قلوبهم و ضمائرهم إلاّ أنّهم لم يظهروا به والحاصل أنّ الكفّار أضمروا في أنفسهم أنّهم أشرف و أفضل و أعلى مكاناً من النّبي.

و أمّا قول صاحب الكشّاف و غيره من أنّهم إستكبروا لطلبهم الرّؤية فلا محصّل له لأنّ طلب الرّؤية منشأه الجهل و الحماقة لا الإستكبار ألا ترى أنّ اللّه تعالى جعل الشّيطان من المستكبرين حيث لم يسجد لآدم:

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ[1].

فكذلك هؤلاء الكفّار فكأنّهم قالوا أنتّبع من يأكل الطّعام و يمشي في الأسواق الخ.

و قوله: **وَ عَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا** معناه تكبَّروا و تجبَّروا عن متابعة النّبي لما ذكرناه في وجهه لا أنّهم تكبَّروا بإستدعائهم الرُّؤية كما شرحنا و اللّه أعلم.

يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَآئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا

أي يوم يرون هؤلاء الكفّار، ملائكة اللّه المراد باليوم يوم القيامة و يحتمل أن يكون المراد به قبض الأرواح أي وقت الموت و على التّقديرين يقول الملائكة لهؤلاء الكفّار لا بشرى يومئذٍ للمجرمين و هم الّذين أجرموا و إرتكبوا المعاصي في دار الدّنيا **وَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا** الظّاهر أنّه من قول الملائكة يقولون للكفّار أنّ البشرى عليكم محرّمة و قيل أنّه من قول الكفّار كما كانوا يقولون في الدّنيا إذا لقوا من يخافون منه القتل حجراً محجوراً، أي حراماً

١- الحجر = ٣٣

محرّماً، أي دمائنا و أصل الحجر الضّيق و يطلق على الحرام لضيقه بالنّهي عنه و منه حجر القاضي عليه، و حجر فلان على أهله و منه حجر الكعبة لأنّه لا يدخل إليه في الطّواف و أنّما يطاف من وراءه ليتّضيقه بالنّهي عنه و الحقّ أنّه من قول الملائكة كما هو مقتضى العطف فالمعنى، حراماً محرّماً عليكم الغفران و الجنّة و البشرى أي جعل اللّه ذلك حراماً عليكم.

وَ قَدِمْنٰآ إِلىٰ مٰا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰآءً مَنْثُورًا

قال البلخي معناه قدم أحكامنا بذلك و قال مجاهد معناه عمدنا قيل في الكلام بلاغة حسنة لأنّ التّقدير كان قصدنا إليه قصد القادم على ما يكرهه ما لم يكن رأه قبل فغيّره و قيل هو على حذف مضاف أي قدمت ملائكتنا و أسند ذلك إليه لأنّه عن أمره و حسنت لفظة، قدمنا، لأنّ القادم على شيٍ مكروه لم يقرّره و لا أمر به فمثلّت حال هؤلاء القوم و أعمالهم التّي عملوها في كفرهم من صلة رحمٍ و إغاثة ملهوف و قرئ ضيف و منٍّ على أسير و غير ذلك من مكارمهم بحال قومٍ خالفوا سلطانهم فقصد إلى ما تحت أيديهم فمّزقها بحيث لم يترك لها أثرّ، و قوله: **فَجَعَلْنٰاهُ هَبٰآءً مَنْثُورًا**، فالهباء غبارٌ كالشّعاع لا يمكن القبض عليه و قيل هو غبارٌ يدخل الكوّة في شعاع الشّمس.

و قال عكرمة هو رهج الخيل وقيل هو الماء المهراق، شبّه عملهم بالهباء لقلّته و أنّه لا ينتفع به ثمّ وصف الهباء بمنثور لأنّ الهباء تراه منتظماً مع الضَّوء فإذا حرَّكته الرّيح رأيته قد تناثر و ذهب.

و قال إبن عبّاس الهباء المنثور ما تسفى به الرّياح و تبّثه و محصّل الكلام في الآية أنّ أعمال الكفّار حال كفرهم كالهباء المنثور في قلّة نفعها فلا فائدة فيها حتّى يترّتب عليها الثّواب يوم القيامة.

أَصْحٰابُ اَلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا

المستّقر المكان الذّي يكونون فيه في أكثر أوقاتهم مستّقرين يتجالسون و يتحادثون، و المقيل المكان الّذي يأوون إليه للإسترواح إلى أزواجهم و التّمتع بمغازلتهنّ و ملامستهنّ كما أنّ المترفين في الدّنيا يعيشون هكذا قاله صاحب الكشّاف.

و قال بعض المفسّرين معناه أنّ الّذين يحصلون في الجنّة مثابين منّعمين في ذلك اليوم مستّقرهم خير من مستّقر الكفّار في الدّنيا و الأخرة و أنّما قال ذلك على وجه المظاهرة بمعنى أنّه لو كان الكفّار مستّقر خير و منفعة لكان هذا الّذي للمؤمنين خيراً منه و أحسن مقيلاً أي أحسن موضعاً و أن لم يكن في الجنّة نوم إلاّ أنّه من تمهيده يصلح للنّوم لأنّهم خوطبوا بما يعرفون كما قال تعالى: **وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فيِهَا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا**(١) على ما إعتادوه.

و قال البلخي معناه أنّه خيرٌ في نفسه و حسن في نفسه لا أنّه أفضل من غيره، و قال قومٌ معنى خير مستّقراً و أحسن مقيلاً، أي أنفع من مستّقرهم.

أقول لا شكّ أنّه لا نوم في الجنّة و على هذا فسمّي مكان إسترواحهم في الجنّة إلى الحور مقيلاً على طريق التّشبيه إذا لمكان المتّحيز للقيلولة يكون أطيب المواضع، و أمّا لفظة خير، فقيل أنّها ليست على بابها من إستعمالها دلالة على الأفضليّة فيلزم من ذلك خير في مستّقر أهل النّار و يمكن إبقاؤها على بابها و يكون التّفضيل وقع بين المتّقرين و المقيلين بإعتبار الزّمان الواقع ذلك فيه فالمعنى أنّ المؤمنين خيرٌ مستّقراً في الأخرة من الكفّار المترفين في الدّنيا و أحسن مقيلاً في الأخرة من أولئك في الدّنيا.

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَامِ وَ نُزِّلَ ٱلْمَلَآئِكَةُ تَنْزِيلًا

أخبر اللّه تعالى بذلك من هول يوم القيامة و عظم شدائده.

قال الرّاغب في المفردات الشّق الخرم الواقع في الشّيئ يقال شققته بنصفين و

١- مريم = ٦٤

قال بعض أهل اللّغة الإنشقاق إفتراق إقتدادٍ عن إلتيام فكلّ إنشقاقٍ إفتراق و ليس كلّ إفتراقٍ إنشقاقاً و المعنىٰ إذ السّماء تصّدعت و إنفجرت و هو من علامات القيامة، و قوله: **بِالْغَمَامِ**، أي و عليها الغمام فالباء للحال كما تقول ركب الأمير لسلاحه أي و عليه سلاحه وقيل الباء هنا للمجاوزة بمعنى عن، و قرأ إبن كثير، و نُنَزِّل، بنونين، و الجمهور بنونٍ واحدة و المعنى أنّ نزول الملائكة للمؤمنين بالإكرام و الإعظام و للكافرين بالإستخفاف و الإهانة.

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيرًا

قيل الحقّ صفة للملك و معناه الثّابت لأنّ كلّ ملكٍ يومئذٍ يبطل و لا يبقى إلاّ ملكه تعالى و خبر الملك يومئذٍ و الرّحمن متعلق بالحقّ أو للبيان أعني للرّحمن و قيل الخبر للرّحمن و يومئذٍ مفعول للملك، و قيل الخبر للحقّ و الحقّ و للرّحمن متعلق به أو للبيان و عسر ذلك اليوم على الكافرين بدخولهم النّار.

وَ يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا، يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا

العَضُّ بفتح العين و سكون الضّاد المشدّدة أزمٌّ بالأسنان كما قال اللّه تعالى: **عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ**(١) و ذلك عبارة عن النّدم لما جرى به عادة النّاس يفعلوه عند ذلك و المراد باليوم هو يوم القيامة أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن شدّة ذلك اليوم و هوله بعد قوله في الآية السّابقة: **وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيرًا** و المعنى أنّ الكافر يوم القيامة يعضّ على يديه تلّهفاً و تأسّفاً على ما فرّط في جنب اللّه من المعاصي قيل أنّ الآية نزلت في أبي بن خلف و عقبة بن أبي معيط و كانا خليلين إرتّد أبي لما صرفه عن الإسلام عقبة و قتل عقبة بن أبي معيط يوم بدر صبراً و قتل أبي بن خلف يوم أحد قتله النّبي بيده ذكره قتادة.

١- آل عمران = ١١٩

أقول ما ذكروه في نزول الآية لا بأس به و الحقّ أنّ الآية عامّ و خصوصيّة المورد لا تنافي عموم المعنى فالمراد بالظّالم الجنس و يدلّ عليه اللاّم المفيد للجنس و ليت، للتّمني و المعنى أنّ الظّالم يوم القيامة يتّلهف و يندم عمّا فعله في الدّنيا من المعاصي و يتّمنى المتابعة لرّسول فيها.

و قال بعض المفسّرين كان عقبة خليلاً لأميّة فأسلم عقبة فقال أميّة وجهي من وجهك حرام أن يا ليت محمّداً فكفر و إرتّد لرضا أميّة فنزلت قاله الشّعبي و كيف كان فالمقصود ذكر هول يوم القيامة بتّندم الظّالم و تمّنيه أنّه لم يكن أطاع خليله الّذي كان يأمره بالظّلم و ما من ظالم إلاّ و له في الغالب خليلّ خاصّ يعبّر عنه بفلان و الظّاهر أنّ الظّالم يعضّ على يديه فعل النّادم المتّفجع، لا ما قاله الضّحاك من أنّه يأكل يديه إلى المرفق ثمّ تنبت و لا يزال كذلك كلّما أكلها تنبت، إذ لو كان كذلك لم يعبّر عنه بالعضّ الّذي هو غير الأكل لغةً و عقلاً، فالحقّ أنّه مجاز عبّر به عن التّحير و الغمّ و النّدم و التّفجع و نقل أئمّة اللّغة أنّ المتّأسف المتّحزن المتّندم يعضّ على أبهامه ندماً و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

غيري جنى و أنا المعاقب فيكم — فكأنّني سبّابة المتّندم

و في المثل يأكل يديه ندماً — ويسيل دمعه دماً

قال صاحب الكشّاف عضّ الأنامل و اليدين و أكل البنان و حرق الأسنان و الأزم و فروعها كنايات عن الحسرة و الغيظ لأنّها من روادفها إنتهى.

قال الفيض ﷺ في تفسير الصّافي ما هذا لفظه و يوم يعضّ الظّالم على يديه من فرط الحسرة، القمي قال الأوّل: **يَقُولُ يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا** القمي عن الباقر عليه السلام عليّاً ولّياً. **يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا** قال يعني الثّاني، **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي** يعني الولاية **وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ** و هو الثّاني **لِلْإِنسَانِ خَذُولًا**.

و في الكافي عن أميرالمؤمنين في خطبة الوسيلة قال عليه السلام:

فيّ مَناقب لَو ذَكرتها لَعَظُم بها الإرتفاع وطالَ لها الإستماع ولئِن تَقَّمصها دُوني الأشقان ونازعانِ فيما لَيس لَهما بحقٍّ وَرَكباها ضلالة وإعتقداها جهالة فَلَبئس ما عليه وَرَداً، وَلَبئس ما لأنفسهما مَهدّاً يتلاعنان في دورهما ويتَّبَرأ كلّ منهما من صاحبه يقول لقَرينه إذا إلتَقيا يا لَيتَ بَيني وبَينك بُعد المَشرقَين فبئس القَرين فيُجيبَه الأشقىٰ علىٰ وثوبه يا لَيتني لَم أتَّخذ فلاناً خليلاً لقد أضَلَني عن الذّكر بعد إذ جائني وكان الشّيطان لِلإنسان خَذُولاً فأنا الذّكر الّذي عنه ضَّل، والسَّبيل الّذي عنه مال والإيمان الّذي به كَفَر والقرآن الّذي إيّاه هَجر والدّين الّذي به كَذب والصّراط الّذي عنه نكب إنتهىٰ.

أقول ما ذكره‌ﺗﺘﺉﺭﻩ في تفسير الآية في نقله عن الكافي ممّا لا بأس به إلاّ أنّه من التّأويل لا من التّفسير و قد ثبت أنّ للقرآن تفسير و تأويل فقوله تعالى: **وَ يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ** يشمل كلّ ظالم و لا سيّما الظّالم الّذي أسَّس أساس الظّلم في الأمّة بغصبه الخلافة بعد موت النّبي و لا شكّ أنّ الظُّلم في الإسلام نشأ من غصب الخلافة و أيُّ ظلم أقبح و أفحش من الظّلم على أولاد الرّسول و أهل بيته و خالفة الرّسول في مسألة الخلافة و من المعلوم أنّ المؤسّس للظّلم في هذه الأمّة أليق و أحرى بالتّندم و التّحسر من غيره ممّن تبعه في ظلمه وعدوانه و هو ظاهر.

جزء ١٩ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا

أي يقول أحد الخليلين لقد أضَّلني و أغواني عن الحقّ خليلي الذّي إتَّخذته خليلاً لنفسي بعد إذ جائني الذِّكر و هو القرآن أو الرّسول و كان الشّيطان للإنسان خذولاً، يخذله في وقت حاجته و معاونته سواء كان الشّيطان من الجنّ أم من الإنس.

وَ قَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا

الهجر التّرك و الإعراض عنه أي أنّهم أعرضوا عن القرآن و العمل به فصار القرآن مهجوراً متروكاً بينهم من حيث العمل بأحكامه.

تنبيهٌ:

لا شكّ أنّ هذه الأيات أعني بها قوله تعالى الملك يومئذٍ الحقّ إلى قوله: **هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا**، ناظرة إلى يوم القيامة و ذلك لأنّ قوله يوم يعضّ الظّالم على يديه إلى أخر ماقال على المدّعى فقول الرّسول **يَٰا رَبِّ إِنَّ قَوْمِى** الآية أيضاً يوم القيامة و على هذا فالمراد بالظّالم العاضّ على يديه و أن كان ظاهره العموم إلاّ أنّ المراد به ليس إلاّ من ظلم بعد الرّسول على الإسلام و المسليمن إذ لو كان المراد بالظّالم هو الكافر الّذي لم يؤمن باللّه و سوله لا معنى لقول الرّسول ياربّ أنّ قومي إتّخذوا هذا القرأن مهجوراً، فالمراد بالقوم في قوله: **قَوْمِى**، أمّته لا قومه من النّسب من الكفّار ومن المعلوم أنّ المسلمين اؤتّخذوا القرأن مهجوراً.

فلقائلٍ أن يقول، من الّذي ظلم على الأمّة و الإسلام غير أصحب السّقيفة فلا يبعد أن يكون المراد بالظّالم في الآية أوّل ظالم ظلم و غصب الخلافة إذ لا ظلم أفحش منه بل هو أساس الظُّلم في الإسلام فهو الّذي يعضّ على يديه يوم القيامة و يقول يا ليتني إتّخذت مع الرّسول سبيلاً، و لا معنى لإتّخاذ السّبيل مع الرّسول إلاّ متابعته في جميع أقواله و أفعاله و لا سيّما مسألة الخلافة و الوصاية التّي هي الأصل و الأساس في المقام و حيث أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قال في غدير خمّ من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه إلى أخر ما قال و أخذ من المسلمين الحاضرين في الغدير و هم جميع المهاجر و الأنصار البيعة لعلّي عليه السّلام بالخلافة و للأئمة المعصومين بعده واحداً بعد واحد ثمّ أنّهم نقضوا البيعة و نكثوا العهد بعد موت الرّسول و بايعوا أبا بكر ثمّ أوصى أبو بكر إلى عمر و هكذا إلى أن وصل الأمر إلى أولاد أبي سفيان و مروان إبن الحكم و بني العبّاس فلا محالة صار القرأن مهجوراً

متروكاً قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي ما إن تمَّسكتم بهما لن تضلّوا أبداً**، أي بالقرأن و العترة معاً و السِّر فيه أنّ العمل بالقرأن فرعٌ على العلم به و العلم به عند العترة فمن تمَّسك بالقرأن فقط ضَّل عن سواء السّبيل و لازم ذلك أن يكون القرأن مهجوراً متروكاً في الحقيقة لأنّ المتَّمسك له لم يفهم مراد اللّه من الأيات و لا نعني بالتَّرك إلاّ هذا إذا عرفت هذا فالظّالم العاضّ على يديه يوم القيامة هو الأوّل و قوله: **فُلَانًا**، كناية عن الثّاني و هو المراد بالخليل أيضاً فأنّ عمر كان خليلاً لأبي بكر بشهادة التّواريخ ولذلك أوصى أبو بكر إليه على رغم أنوف المسلمين فكان عمر في الواقع خليفة أبي بكر و إذا كان الأمر على هذا المنوال فحقٌّ لأبي بكر أن يقول، لقد أضّلني عن الذِّكر بعد إذ جائني الخ و قد مرَّت خطبة أميرالمؤمنين في ذلك.

و قد روي في الكافي بأسناده عن أبي الجارود قال قال أبو جعفر عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أنا أوّل وافدٍ على العزيز الجبّار يوم القيام و كتابه و أهل بيتي ثمّ أمّتي ثمّ أسألهم ما فعلوا بكتاب اللّه و بأهل بيتي إنتهى.

و بأسناده قال أبو عبد اللّه لا و اللّه لا يرجع الأمر والخلافة إلى أل أبي بكر و عمر أبداً و لا إلى بني أميّة أبداً و لا في ولد طلحة و الزّبير أبداً و ذلك أنّهم نبذوا القرأن و أبطلوا السُّنن و عطّلوا الأحكام و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: القرأن هدىً من الضّلالة و تبيانٌ من العمى و إستقالة من العثرة و نورٌ من الظّلمة و ضياءٌ من الأحداث و عصمةٌ من الهلكة و رشدٌ من الغواية و بيانٌ من الفتن و بلاغٌ من الدّنيا في الأخرة و فيه كمال دينكم و ما عدل أحدٌ من القرأن إلاّ إلى النّار إنتهى.

و في تفسير علّي بن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: سألتُه عن قول اللّه عزّ وجلّ: يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِالْغَمَامِ قال عليه السلام: الغمام أميرالمؤمنين و قوله: وَ يَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا، يقول: يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا، عليّاً و لّياً، يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا، يعني الثّاني، لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى يعني الولاية وَ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ و هو الثّاني لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا إنتهى[1].

و الأحاديث كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية.

وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا

قال بعض المفسّرين، أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدُّواً لك كذلك جعلنا لكلّ نبّيٍ عدُّواً منهم أي هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء و أممهم فلا يسوءنّك ما تلقى من عداوتهم و لا يشقنّ عليك ذلك ففيه تسلية للنّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و معنى جعل العدُّو من المجرمين أنّ اللّه جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحقّ و أبغضوا الدّاعي اليه و هو النّبي فلعداوتهم نسبةٌ اليهم تعالى فالمجازاة إنتهى كلامه.

و قال الزّمخشري حكى اللّه عنه شكواه قومه اليه و في هذه الحكاية تعظيم للشّكاية وتخويفٌ لقومه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا يرفع الإشكال منها و أنّما الإشكال في كلمة، الجعل، و حاصله أنّ ظاهر الآية مشعر بكون المجرمين الّذين كانوا من أعداء

١- تفسير نور الثّقلين ج ٣ ص ١١ و ١٢ و ١٣

النّبي مجعولين أي مخلوقين من قبل اللّه تعالى و على هذا فما ذنب المجرم و المفروض أنّ اللّه جعله مجرماً و عدّواً للنّبي و أمّا ما ذكره المفسّرون فلا يناسب ظاهر الآية و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ الجعل على قسمين، بسيطٌ و مرّكب.

فالبسيط منه إيجاد الشّئ و المرّكب جعل الشّئ شيئاً فقولنا الإنسان موجود أو وجد الإنسان، من الجعل البسيط و قولنا الإنسان ناطق من المرّكب إذا عرفت هذا.

فقوله تعالىٰ: **لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ** ليس معناه من المجرمين ليكون من قبيل جَعل الشّئ شيئاً آخر كما في الجعل المرّكب بل معناه أوجدناه ثمّ صار مجرماً و عدّواً بسوء سريرته و إختياره.

و الحاصل أنّ اللّه تعالى أوجد الإنسان و خلقه و فوّض إختيار الكفر و الإيمان إليه كما هو شأن المختار فمن زعم أنّ اللّه تعالى جعل الإنسان عدُّوا للحقّ فقد أخطأ للزومه الجبر و هو ينافي الإختيار و العقاب للمجبور ظلمٌ عليه و هو تعالى منّزهٌ عنه قال اللّه تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا** و علىٰ هذا فمعنىٰ الآية إنّ سُنّتنا في خلق الإنسان جرت بذلك فلا محالة يكون بعض أفراد الإنسان مؤمناً محبّاً للنّبي و بعضٌ أخر عدّواً مجرماً فالإيجاد لنا و الإختيار لهم ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيا من حيَّ عنها.

و أمّا قوله: **وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا**، فقيل في معناه، و كفى بربّك يا محمّد هادياً و نصيراً أي حسبك اللّه الهادي إلى الحقّ و النّاصر على العدّو و الحقّ في المعنى أن يقال كفى بربّك هادياً لهؤلاء الكفّار أي أنّ اللّه يكفي لهدايتهم لو شاء و أراد و يكفي لنصرتك كذلك قال اللّه تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ**

- الانسان = ٣

أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ(١) و هذا ممّا لا كلام فيه لأنّه مقلّب القلوب و على كلّ شيءٍ قدير.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً كَـذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلًا

حكى اللّه تعالى في هذه الآية عن الكفّار أنّهم قالوا: **لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ** جملة واحدة، أي هلاّ نزّل القرأن عليه كذلك لو كان صادقاً في نبوته و أنّ القرأن نزل عليه من اللّه، و لم يعلموا أنّ التّوراة أنزلت جملة لأنّها أنزلت على موسى مكتوبة على نبيٍ كان يكتب و يقرأ و هو موسى عليه السلام و أمّا القرأن فأنّه أنزل متّفرقاً لأنّه غير مكتوبٌ على نبيٍ أمّيٍ و هو محمّد صلى الله عليه و آله و سلم.

و قال بعض المفسّرين أنّما لم ينزّل جملة واحدة لأنّ فيه النّاسخ و المنسوخ و فيه ما هو جواب لمن سأل من أمور و فيه ما هو إنكارٌ لما كان و في الجملة المصلحة معتبرةٌ في إنزال القرأن فإذا كانت المصلحة موجودة في إنزاله متفرقاً كيف ينّزل جملة واحدة و قوله: **كَذٰلِكَ**، أي كذلك فرّقناه، فنثّبت به فؤادك، أي قلبك و رتّلناه ترتيلاً، أي رتّلنا القرأن و معنى ترتيله أنّ قدّره أية بعد أية و وقفه عقيب و قيل معناه، أمرنا بترتيل قراءته كما قال في موضع أخر و رتّل القرأن ترتيلاً هكذا فسّروا الآية.

أقول ما ذكروه لا بأس به و الّذي يقتضيه النّظر هو أنّ القرأن لكونه جامعاً لما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة كما قال تعالى: **وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ**(٢) لا يقاس بالتّوراة و غيرها من الكتب المنزلة على الأنبياء في الأمم السّالفة فأنّ الكتب السّماوية غير القرأن كانت مشتملة على المواعظ و النّصائح فقط مضافاً إلى أنّ العمل بما فيها كان محدوداً بزمانٍ معيّن ثمّ نسخ بعد ذلك و هذا بخلاف القرأن فأنّ حلاله حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك مضافاً إلى

١- القَصَص = ٥٦ ٢- الانعام = ٥٩

كونه مشتملاً على جميع الأحكام من النّكاح و الطّلاق و الميراث و الدّيات و الكفّارات و الحجّ و الصّوم و الأداب و الأخلاق و غير ذلك من فنون العلم و بالجملة جميع ما يحتاج إليه البشر إلى يوم القيامة في جميع شئونه و ما كان كذلك لا يكون نزوله جملة واحدة بل ينبغي أن يكون النُّزول فيه تدريجاً ألا ترى أنّ المسائل المشكلة الغامضة التّي يعسر فهمها على المخاطب تلقى إليه تدريجاً و إلى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى في هذه الآية بقوله: **كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤٰادَكَ** أي ليطيب به نفسك و تستعّد لقبلوه فكأنّه أشار بقوله هذا إلى أنّ قلب المخلوق في أوّل الأمر لا يستعّد لقبول كلام اللّه جملة فواد بل يحتاج إلى عناية الرّب و توفيقه و من المعلوم أنّ الإفاضات الغيبيّة تفاض على القلوب على حسب إستعدادها آناً فآناً و إلى ذلك أشار بقوله: **وَ رَتَّلْنٰاهُ تَرْتِيلًا**، أي رتّلنا القرأن نوعاً من التّرتيل و هو التّبيين في تثّبتٍ و ترسُّلٍ.

وَ لٰا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّٰا جِئْنٰاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيرًا

قالوا في تفسير الآية أي لم ننّزل القرأن جملة واحدة لأنّهم لا يأتونك بشئٍ يريدون به إبطال أمرك إلاّ جئناك بالحقّ الّذي يبطله و أحسن تفسيراً أي يجيئوك بأحسن تفسيراً ممّا يأتونك به و أجود معاني، قاله الشّيخ في التّبيان.

و قال صاحب الكشّاف في معناه أي لا يأتونك بسؤالٍ عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنّه مثل في البطلان إلاّ أتيناك نحن بالجواب الحقّ الّذي لا محيد عنه و بما هو أحسن معنىً و مؤدّي من سؤالهم ثمّ أطال الكلام بذكر الإحتمالات في تبيّين المراد من الآية لا خفاء فيه و لا يحتاج إلى ذكر الإحتمالات البعيدة و المقصود منها أنّ كلّ ما ذكره الكافرون من الأمثال مثل قولهم، لولا أنزل عليه القرأن جملة واحدة، و غيره من نظائره لا يعتنى به و ذلك لأنّ ما جئناك هو الحقّ و ما ذكروه هو الباطل و من المعلوم أنّه إذا جاء الحقّ زهق الباطل أنّ الباطل كان زهوقاً.

ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ سَبِيلًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن حال الكفّار يوم القيامة و ما يؤل إليه أمرهم في الأخرة بكونهم شرّ مكاناً و أضَّل سبيلاً، و الظّاهر منها أنّهم يحشرون على وجوههم و هذا قول الجمهور و قيل هو مجاز للذِّلة المفرطة و الهوان و الخزي، و قيل هو من قول العرب مرَّ فلان على وجهه إذا لم يدر أين ذهب، و يقال مضى على وجهه إذا أسرع متَّوجهاً لقصده، و كلمة، شّر، و أضَّل ليسا على بابهما من الدّلالة على التَّفضيل و قوله شّرٌ مكاناً أي مستّقراً و مقاماً و يحتمل أن يراد بالمكان، المكانة و الشَّرف لا المستّقر و لكن هذا الإحتمال ضعيف أمّا أوّلاً فلأنّه خلاف ظاهر الآية و ثانياً خلاف المتبادر إلى الذِّهن من المكان ثالثاً، أنّ المأل في المعنيين إلى شيٍ واحد بل هما متلازمان و هو ظاهرٌ.

وَ لَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا

قالوا، اللاّم، في قوله: **وَ لَقَدْ ءَاتَيْنَا**، لام القسم أي أقسم اللّه تعالى بأنّه أتى موسى الكتاب، يعني التّوراة و جعل معه أي مع موسى هارون وزيراً.

قد مرَّ الكلام في موسى و هارون غير مرّةٍ إجمالاً و سيأتي في سورة القصص تفصيل الكلام في قصّة موسى و هارون إن شاء اللّه تعالى، و قوله: **وَزِيرًا**، هو مشتّق من الوِزر بكسر الواو و هُو في الأصل ما حمله الإنسان فسمّى السّلاح وزراً لأنّه يحمل و الأوزار الأثقال و معه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ**(٢).

أي أثقالاً من حليّهم و وزير الملك هو الّذي يحمل ثقله و يعينه برأيه و كثيراً ما يطلق على الذّنب و الإثم أيضاً و الجمع أوزار و منه الحديث لك المهنّا و عليه

١- الانعام = ١٦٤ ٢- طه = ٨٨

الوزر أي الإثم و لعلّ وجه إطلاقه على الذّنب و الإثم هو حملهما و ثقلهما على المذنب فأن حمل الذّنب ثقيلٌ جدّاً علىٰ الرُّوح كما أنّ حمل السّلاح ثقيلٌ على الحامل ثمّ أنّ في قوله تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا**، إشارة أمرين:

أحدهما: أنّ اللّه تعالى جعل هارون وزيراً لموسى.

الثّاني: أنّ هارون كان شريكاً لموسى في نبّوته و إلاّ كيف يعقل أن يكون حاملاً لوزر أي ثقل النّبوة و هو كذلك فأنّ هارون كان نبيّاً بعد موسى إلاّ أنّه مات قبل موسى ولو كان حيّاً بعد موسى لكان نبيّاً.

قال بعض المفسّرين الوزرة لا تنافي النّبوة فقد كان في الزّمان الواحد أنبياء يوازر بعضهم بعضاً.

أقول يمكن أن يستدلّ في المقام أعني نبُّوة هارون بقول رسول اللّه ﷺ في الحديث المجمع عليه بين الفريقين حيث قال عليه السلام: **لِعلّي أنتَ مِنّي بمنزلة هارُون من مُوسىٰ إلاّ أنّه لا نَبّي بعدي**، و ذلك لأنّ النّبي إستثنى عليّاً عليه السلام من النّبوة و أثبت له في الوزارة جميع ما كان لهارون فلو لم يكن هارون نبيّاً لا وجه للإستثناء و هو ظاهر و يمكن أن يستدلّ بها على نبّوة هارون بقوله تعالى: **مَعَهُۥٓ**، وتقريب الإستدلال أنّ المعيّة تستدعي النُّبوة إذ لو لم يكن كذلك كان حقّ العبارة أن يقال و جعلنا هارون وزيراً بدون كلمة، معه، فالمعيّة تقتضي الإشتراك في جميع الشّئون و لأجل هذا يقال أنّ، هارون، بدل من موسى في الآية أو عطف بيان له و قيل أنّ معه، مفعول ثانٍ، لجعلنا وكيف كان لا شكّ في أنّ هارون كان من الأنبياء و عليه إجماع الأمّة.

فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا

أي أمرنا موسى و هارون بأن يذهبا إلى القوم الّذين كفروا بأيات اللّه يعني فرعون و قومه و أخبر في الآية أنّهم لم يقبلوا منهما و أنكروا نبُّوتهما فأهلكهم اللّه بذنوبهم تدميراً أي نوعاً من الإهلاك فأنّ التّدمير الإهلاك بأمر عجيب و مثله التّنكيل و قد مرّ كيفيّة هلاكه.

وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا

قد مرَّ الكلام في قصّة نوح فيما مضى في سورة الأعراف و يونس، و لا سيّما في سورة هود فأنّا قد فصَّلنا الكلام فيها و بيَّنا كيفيّة العذاب و أنّه تعالىٰ أغرقهم بالطُّوفان و سيأتي الكلام فيها فيما يأتي من الأيات أيضاً و المراد بالرُّسل قيل هو نوح و الأنبياء قبله و قيل هو و الملائكة و قيل هو و من بعده من الرُّسل لأنّ الأنبياء يصدّق بعضهم بعضاً في توحيد اللّه و خلع الأنداد فمن كذَّب بواحدٍ منهم فقد كذَّب بهم جميعهم، وقيل تكذيبهم بنوح تكذيبهم لسائر الرُّسل و قوله: **وَ جَعَلْنَاهُمْ**، أي علامةً ليعتبر النّاس بهم بعدهم و قوله: **وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**، أي في الأخرة مضافاً إلى ما نزل بهم في الدّنيا من العذاب و قوله: **أَلِيمًا** أي موجعاً، و فيه إشارة إلى شدّة العذاب ثمّ أشار اللّه تعالى إلى قصّة عاد و ثمود فقال:

وَ عَادًا وَ ثَمُودَا وَ أَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا

أمّا قصّة عاد و ثمود فقد مرّ الكلام فيهما في سورة الأعراف و أمّا أصحاب الرّس فقد إختلفوا فيهم فقال إبن عبّاس هم قوم ثمود و يبّعده عطفه على ثمود في الآية فأنّ العطف يقتضي التّغاير، وقال قتادة هم أهل قرية من اليمامة يقال لها الرّس و الفلج قيل إنّهم قتلوا نبيّهم فهلكوا و هم بقية ثمود و قوم صالح.

و قال كعب و مقاتل و السّدي بئرٌ بأنطاكية الشّام قتل فيها صاحب ياسين و هو حبيب النَّجار، و قيل قتلوا نبيّهم و رسوه في بئرٍ أي دفنوه فيه.

و قال وهب و الكلبي أصحاب الرَّس و أصحاب الأيكة قومان أرسل إليهما شعيب أرسل إلى أصحاب الرَّس و كانوا قوماً من عبدة الأصنام و أصحاب أبار و مواشٍ فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم و في إيذاءه فبينما هم حول الرَّس و هي البئر غير المطّوية و عن أبي عبيدة إنهارت بهم فخسف بهم و

بدارهم، و قيل هم أصحاب النّبي حنظلة بن صفوان ثمّ أنّهم قتلوا حنظلة فأهلكوا و قيل هم أصحاب الأخدود و الرَّس هو الأخدود و غير ذلك من الأقوال التّي لا مستند لها، و الحقّ في ذلك.

ما رواه المجلسي رحمه الله في البحار بأسناده عن الهَروي عن الرّضا عليه السلام عن أبائه عن الحسين بن علّي عليه السلام قال: أتى علّي بن أبي طالب قبل مقتله بثلاثة أيّام رجلٌ من أشراف بني تميم يقال له عَمر و فقال يا أميرالمؤمنين أخبرني عن أصحاب الرَّس في أيّ عصرٍ كانوا و أين كانت منازلهم و من كان ملكهم و هل بعث اللّه إليهم رسولاً أم لا و بماذا ألكوا فأنّي أجد في كتاب اللّه عزّ وجّل ذكرهم و لا أجد خبرهم فقال له علّيٌ عليه السلام لقد سألت عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك و لا يحَّدثك به أحدٌ بعدي إلاّ عنّي و ما في كتاب اللّه آية إلاّ و أنا أعرف تفسيرها و في أيّ مكانٍ نزلت من سهلٍ أو جبلٍ و في أيّ وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ و أنّ هاهنا لعلّماً جمّاً و أشار الى صدره و لكن طلاّبه يسير و عن قليل يندمون لو فقدوني، كان من قصصهم يا أخا تميم أنّهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاه درخت و كان يافث بن نوح غرسها على شفير عينٍ يقال لها روشناب كانت أنبتت لنوح بعد الطّوفان و إنّما سمّوا أصحاب الرَّس لأنّهم رسُّوا بينهم في الأرض و ذلك بعد سليمان بن داوود و كانت لهم إثنتي عشرة قرية على شاطئ نهرٍ يقال له الرَّس من بلاد المشرق و بهم سمّي ذلك النَّهر و لم يكن يومئذٍ في الأرض نهرٌ أغزر منه و لا أعذب منه و لا قرى أكثر و لا عمر منها تسّمى إحداهن أبان و الثّانية خُرداد و الثّالثة دي و الرّابعة بهمن و الخامسة إسفند و السّادسة فروردين و السّابعة أرديبهشت و الثّامنة آذر والتّاسعة مرداد و

العاشرة تير و الحادي عشر مهر و الثّاني عشر شهريور و كانت أعظم مدائنهم إسفند و هي الّتي ينزلها ملكهم و كان يسّمى تركوذبن غابور بن يارش بن ساذن بن نمرود بن كنعان فرعون إبراهيم و بها العين و الصنوبرة و قد غرسوا في كّل قريةٍ منها حبَّة من طلع تلك الصَّنوبرة و أجروا عليها نهراً من العين الّتي عند الصَّنوبرة فنبتت الحَّبة و صارت شجرةً عظيمة.

أقول الحديث طويل الى أن قال عليه السلام: فلّما حال كفرهم باللّه عزّ وجّل و عبادتهم لتلك الشَّجرة فبعث اللّه تعالى إليهم نبَّياً من بين إسرائيل من ولد يهودا إبن يعقوب فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم الى عبادة اللّه و معرفة ربوبَّيته فلا يتَّبعونه فلّما رآى شدّة تماديهم في الغَّي والضَّلال و تركهم قبول ما دعاهم إليه من الوشاة و حضر عيد قريتهم العظمى.

قال: يا ربّ أنّ عبادك أبوا إلاّ تكذيبي والكفر بك يعبدون شجرةً لا تنفع و لا تضُّر فأيبس شجرهم أجمع وأرهم قدرتك و سلطانك فأصبح القوم و قد يبس شجرهم كلّها فهالهم ذلك و قطع بهم و صاروا فرقتين فرقةٌ قالت سحر آلهتكم هذا الرَّجل الّذي زعم أنّه رسول ربّ السّماء و الأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن آلهتكم الى اللّه و فرقة قالت لا بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرَّجل يعيبها و يقع فيها و يدعوكم الى عبادة غيرها فحجبت حسنها و بهاءها لكي تغيضوا لها فتنتصروا منه فأجمع رأيهم على قتله فأتَّخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه ثمّ أرسلوها في قرار العين الى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرانج و زحوا ما فيها من الماء ثمّ حضروا في قرارها بئراً ضيّقة المدخل عميقة و

أرسلوا فيها نبّيهم و ألقموا فاها صخرةً عظيمة ثمّ أخرجوا الأنابيب من الماء و قالوا نرجوا الآن أن ترضى عنّا آلهتنا إذا رأت ما قد قتلنا من كان يقع فيها و يصّد عن عبادتها و دفّناه تحت كبيرها يتّشفى منه فيعود لنا نورها و نضرتها كما كان فبقوا عامّة يومهم يسمعون أنين نبّيهم و هو يقول سيّدي قد ترى ضيق مكاني و شدّة كربي فأرحم ضعف ركني و قلّة حيلتي و عجّل بقبض روحي و لا تؤخّر إجابة دعوتي حتّى مات فقال اللّه تعالى: (لجبرئيل يا جبرئيل أيّظن عبادي هؤلاء الّذين غرّهم حلمي و آمنوا مكري و عبدوا غيري و قتلوا رسولي أن يقوموا لغضبي أو يخرجوا من سلطاني كيف و أنا المنتقم ممّن عصاني ولم يخش عقابي و إنّي حلفت بعزّتي و جلالي لأجعلّنهم عبرةً و نكالاً للعالمين فلم يرعهم و هم في عيدهم ذلك إلاّ بريحٍ عاصفً شديد الحمرة فيتّحيروا فيها و زعروا منها و تضّام بعضهم الى بعضً ثمّ صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت يتّوقد و أظّلتهم سحابةٌ سوداء فألقت عليهم كالقّبة جمراً يلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرّصاص في النّار فنعوذ باللّه من غضبه و نزول نقمته و لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه العلّي العظيم إنتهى[١].

و قد ذكر المجلسي قدس سره هناك كثيراً من الأقوال التّي ذكروها في المقام و قوله تعالىٰ: **وَ قُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا** أي أهلكنا قروناً بين هؤلاء الّذين ذكرناهم كثيراً و القرن سبعون سنة و قيل أربعون و قيل مائة سنة و المقصود أنّ ممن أهلكناهم بذنوبهم غير منحصرٍ بأصحاب الرّس فأنّ حكم الأمثال واحد.

وَ كُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا

١- بحار الأنوار ج ٥ ص ٣٦٨ ط كمباني

قيل تقدير الكلام دلّلنا كلاً ضربنا له الأمثال فلمّا كفروا بها دمّرناهم تدميراً و كلاً تبّرنا تتبيراً أي أهلكنا كلاً منهم إهلاكاً و التّتبير الإهلاك و التّبر مكسّر الزّجاج و مكسّر الذّهب و قيل تقدير الكلام و أنذرنا كلاً أو حذّرنا كلاً و معنى ضرب الأمثال قيل بيّن لهم القصص العجيبة من قصص الأوّلين و وصفنا لهم ما أدّى إليهم تكذيبهم بأنبيائهم من عذاب اللّه و تدميره إيّاهم ليهتدوا بضرب الأمثال فلم يهتدوا.

و قال بعضهم المعنى كلّ الأمثال ضربنا للرّسول و هذا القول ضعيفٌ وكيف كان فحاصل المعنى إنّا لم نهلكهم قبل إتمام الحجّة عليهم بضرب الأمثال و ذكر القصص و هذا واضح.

وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّهم أتوا إلى القرية التّي كانت ظالمة أهلها فأمطرت بمطر السُّوء و رأوا ما فيها ممّا وقع عليها من العذاب فلم يعتبروا بها، أفلم يكونوا يرونها، الهمزة للإنكار أي بلى أنّهم رأوها بل كانوا لا يرجون نشوراً أي كانوا لا يخافون البعث و قيل أنّهم ركبوا المعاصي لأنّهم لا يرجون ثواب من عمل خيراً بعد البعث و الضّمير في قوله: **أَتَوْا**، قيل عائد على قريش فأنّهم كانوا يمّرون على القرية المذكورة وهي سدوم من قرى قوم لوط في متاجرهم إلى الشّام و كانت قرى خمسة أهلك اللّه منها أربعاً و بقيت واحدة و هي رزغر لم يكن أهلها يعملون ذلك العمل قاله إبن عبّاس و أمّا مطر السُّوء فهو الحجارة التّي أمطرت عليهم من السّماء فهلكوا و أفرد لفظ القرية و أن كانت قرى لأنّ سدوم هي أمّ تلك القرى و أعظمها و قال بعضهم الضّمير في، أتوا، عائد على الّذين إتّخذوا القرأن مهجوراً و هو كما ترى لا يساعده العقل و لا سياق الأية.

■

وَ إِذٰا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلّٰا هُزُوًا أَهٰذَا ٱلَّذِي
بَعَثَ ٱللّٰهُ رَسُولًا ﴿۴۱﴾ إِنْ كٰادَ لَيُضِلُّنٰا عَنْ
آلِهَتِنٰا لَوْلاٰ أَنْ صَبَرْنٰا عَلَيْهٰا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ
حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذٰابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿۴۲﴾
أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿۴۳﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ
يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلّٰا كَالْأَنْعٰامِ بَلْ
هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿۴۴﴾ أَلَمْ تَرَ إِلٰى رَبِّكَ كَيْفَ
مَدَّ ٱلظِّلَّ وَ لَوْ شٰاءَ لَجَعَلَهُ سٰاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿۴۵﴾ ثُمَّ قَبَضْنٰاهُ إِلَيْنٰا
قَبْضًا يَسِيرًا ﴿۴۶﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ
لِبٰاسًا وَ ٱلنَّوْمَ سُبٰاتًا وَ جَعَلَ ٱلنَّهٰارَ نُشُورًا
﴿۴۷﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيٰاحَ بُشْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰاءً طَهُورًا
﴿۴۸﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمّٰا خَلَقْنَآ
أَنْعٰامًا وَ أَنٰاسِيَّ كَثِيرًا ﴿۴۹﴾ وَ لَقَدْ صَرَّفْنٰاهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنّٰاسِ إِلّٰا كُفُورًا
﴿۵۰﴾ وَ لَوْ شِئْنٰا لَبَعَثْنٰا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿۵۱﴾
فَلٰا تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَ جٰاهِدْهُمْ بِهِ جِهٰادًا كَبِيرًا
﴿۵۲﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هٰذٰا عَذْبٌ
فُرٰاتٌ وَ هٰذٰا مِلْحٌ أُجٰاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمٰا بَرْزَخًا
وَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿۵۳﴾ وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ

ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ
رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا
لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ
رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ
نَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا
مَنْ شَآءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَ تَوَكَّلْ
عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ
كَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ
ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ
بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ
قَالُوا وَ مَا ٱلرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَ
زَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

اللّغة

هُزُوًا: بضّم الهاء و الزّاء، الهزو إظهار خلاف الإبطان لإستصغار القدر علىٰ وجه اللّهو.

ٱلظِّلَّ: بكسر الظّاء قيل حدّه من طلوع الفجر إلىٰ طلوع الشّمس و قال أبو عبيدة الظّل بالغداة و الفيئ بالعشي لأنّه يرجع بعد زوال الشّمس.

قَبَضْنَاهُ: القبض في الأصل الأخذ و المراد به في المقام جمع الأجزاء المُنبسطة.

سُبَاتًا: السُّبات بضّم السّين قطع العمل.

نُشُورًا: النّشور الإنبساط في تصّرف الحيّ.

أَنَاسِيَّ: جمع إنسان.

مَرَجَ: أهل المرج الخلط.

عَذْبٌ فُرَاتٌ: أي شديد العذوبة و الملح الأجاج المرّ.

بَرْزَخًا: البرزخ الحاجز.

الاعراب

هُزُوًا أي مهزؤاً به و في الكلام حذف تقديره يقولون، أهذا، و المحذوف حال و العائد إلى، الّذي، محذوف أي بعثه إِن كَادَ قيل هي مخفّفة من الثّقيلة مَنْ أَضَلُّ هو إستفهام مِمَّا خَلَقْنَآ في موضع نصب على الحال من أنعاماً و أناسّي، والتّقدير أنعاماً ممّا خَلقنا و قيل يتعلّق بنسقيه و أناسّي أصله أناسين فأبدلت النّون فيها ياء و أدغمت و قيل هو جمع إنسّي على القياس بَيْنَهُمَا ظرف، لجعل، أو حال من برزخ، عَلَىٰ رَبِّهِۦ خبر كان ظَهِيرًا حال أو حبر ثانٍ إِلَّا مَن شَآءَ هو إستثناء من غير الجنس ٱلَّذِى خَلَقَ مبتدأ و ٱلرَّحْمَٰنُ الخبر والباقي واضح.

التّفسير

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا

كلمة إن بكسر الألف نافية أي لا يتّخذونك و الهَمزة في قوله: **أَهَٰذَا ٱلَّذِى**، للإنكار و المعنى إذا رأوك يا محمّد لا يتّخذونك إلاّ هزواً أي سخريّاًفأنّ الهزو إظهار خلاف الإبطان أي يقولون هؤلاء الكفّار مستّهزئين بك أهذا الّذي بعث اللّه رسولاً، أي ليس هذا مبعوثاً من اللّه كأنّهم تعجّبوا من ذلك و منكرين له و ذلك لأنّهم يعتقدون في الباطن أنّه ما بعثه اللّه.

إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَآ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا

إن، مخفّفة من الثّقيلة و الجملة من تتّمة مقولهم و إسمها محذوف أي أنّه كاد ليضّلنا، و جملة، كاد، خبرها و المعنى إنّه أي إنّ الّذي يدّعي الرّسالة كاد ليضلّنا و يغوينا عن ألهتنا، من الأصنام و الأوثان، **لَوْلَآ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا**، أي علىٰ عبادة الأصنام لصرفنا عنها و تركناها فالجواب محذوف فقال اللّه تعالى في جوابهم: **وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا** أي سوف يعلمون بعد نزول العذاب عليهم في الدّنيا و الأخرة من أضّل سبيلاً عن طريق الحقّ هم أم غيرهم ثمّ أخبر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفّار بأنّهم لا يعبدون في الحقيقة شيئاً غير الهوى و النّفس الأمّارة بالسّوء و من كان كذلك فحاله معلوم.

أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰيهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا

الهَمَزة للإستفهام والخطاب للرّسول و المعنى أرأيت يامحمّد من إتّخذ إلٰهه و معبوده هواه أي يعبد ما يشاء من غير تعّقلٍ و تدّبرٍ، **أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا**، و هذه الهَمَزة للإستفهام الإنكاري أي لست عليه وكيلاً، فلا تقدر على إرشاده و هدايته إلى الحقّ لعدم قابليّته كما قال تعالى:

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ[١].

و ذلك لأنّ القلوب بيد اللّه يقلّبها كيف يشاء و ليس على الرّسول إلاّ البلاغ و إنّما قال تعالى لنّبيه لأنّه كان حريصاً على إيمانهم كما هو شأن النّبي و لا سيّما الإسلام الّذي كان رحمةً للعالمين.

إن قلت كيف يعقل أن يتّخذ الإنسان إلٰهه هواه، قلت إذا عبد الإنسان ما شاء و أراد من غير تعّقل و تدّبر فهو لا محالة عبد هواه إذ عبد معبوداً لا يضُر ولا ينفع و العقل لا يحكم بذلك قطعاً و هو واضح.

١- القَصَص = ٥٦

قيل في الآية تقديم و تأخير و الأصل إتَّخذ الهوى إلهاً، قدَّم المفعول الثّاني و هو الإلٰه على الأوّل و هو، هواه، للعناية به مضافاً الى أنّه يفيد الحصر و ذلك لأنّ المبتدأ في الأصل، هواه، و الخبر، إلٰهه، و تقديم الخبر على المبتدأ في اللّفظ يفيد الحصر كما أنّ قول القائل زيد قائم لا حصر فيه بخلاف القائم زيدٌ فأنّه يفيد الحصر، فكأنّه.

قال تعالىٰ: **(أرأيتَ مَن لَم يَتَّخذ مَعبُوده إلاّ هَواه)** فهو أبلَغ في ذَمّه و تَوبيخه كما قال تعالىٰ:

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

كلمة أَم، منقطعة تتقَّدر، ببل، و الهمزة على المذاهب الصَّحيح كأنّه قال، بل أتحسب كان هذه المذّمة أشّد من الّتي تقَّدمت و لذلك حفَّت بالإضراب عنها إليها و هو كونهم مسلوبي الأسماع و العقول لأنّهم لا يلقون الى إستماع الحَّق أذناً و لا إلى تدَّبره عقلاً و مشَّبهين بالأنعام الّتي هي مثل في الغفلة و الضّلالة و نفي ذلك عن أكثرهم لأنّ فيهم من سبقت له السّعادة و قد قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**(١) قالوا في وجه كونهم أضلّ من الأنعام، لأنّها تَنقاد لأربابها و تعرف من يحسن إليها ممّن يسئ إليها و تطلب منفعتها و تجتنب مضَّرتها و تهتدي الى مراعيها و مشاربها و أمّا هؤلاء الكفّار فلا ينقادون لربّهم و لا يعرفون إحسانه إليهم و لا يرغبون في الثّواب الّذي هو أعظم المنافع و لا يتَّقون العقاب الّذي هو أشَّد المضّار و لا يهتدون للحَّق، هذا ما ذكروه في تفسير الآية في وجه كونهم أضَّل من الأنعام و لا بأس به و أنا أقول في الآية نقاط و لطائف أخرى لا بأس بالإشارة إليها على سبيل الإجمال:

١- سبا = ١٣

الأولىٰ: أنّه تعالى قسّم النّاس الى قسمين، الأقَل و الأكثر، ثمّ حكم بما حكم على الأكثر و سكت عن الأقَل لأنّهم على ضِد الأكثر في الحكم فقال: **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ** الىٰ آخر ما قال.

الثّانية: أنّه تعالى حكم على الأكثر بأنّهم لا يسمعون و لا يعقلون مع أنّهم يسمعون ظاهراً لوجود السَّمع فيهم و يعقلون لوجود العقل فيهم فأنّ الذَّم يتعَلّق بالعقلاء والسّامعين لا بالمجانين و الّذين لا يسمعون، لنقطةٍ خفيف على أكثر النّاس و هي أنّ السّمع و البصر و الذُّوق و الشَّم و اللَّمس كُلّها آلات و أسباب للتَّعقل و الإدراك القلبي فإذا لم يكن للمدركات بالحَّواس الظّاهرة تعقُّل و تدَّبرٌ لا نفع فيها و الدّليل على ذلك هو أنّ هذه القوى موجودة في الحيوان أيضاً فأنّه يدرك بها ما ندركه من غير تفاوت بين الأدركين في الظّاهر الأقوى أنّ الحيوان يسمع بالأذن و يبصر بالعين و يذوق باللّسان و يشَّم بالأنف و هكذا فوجود هذه القوى في الإنسان لا يدلّ على أنّه أفضل من الحيوان بل القوى الخمسة المذكورة في أكثر الحيوانات لولم تكن في جميعها أكمل و أقوى منها في الإنسان و الّذي يمّيز الإنسان عن الحيوان و يفضّله عليه هو العقل لا غيره و شأن العقل في البدن الحكم بالمدركات بعد التَّدبر فيها فالمسموع و المبصر و الملموس و غيرها من الإدراكات بالحوّاس الخمسة الظّاهرة إذا لم تتَّرتب عليها أثارها التّي يحكم العقل بها لا نفع فيها بل هي في حكم العدم فأنّ كلّ موجودٍ يعرف بأثارها و إن شئت قلت:

قيمة الموجود بأثاره المتّرتبة على وجوده و إلاّ فالوجود بما هُو هُو في جميع الموجودات على حدٍّ سواء و لا فضيلة للموجود على موجودٍ أخر بوُجُوده و من المعلوم أنّ ترَّتب الأثار ببركة العقل السّليم الخالي عن شوائب الأوهام فمن سمع و لم يعقل فيه مكأنّه لم يسمع و هكذا في غيره من المدركات بالحوّاس إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ نفي السَّمع و العقل عن الكافر ليس على

سبيل الحقيقة بل هو على سبيل المجاز و الدّليل على ذلك أنّه يقدر على التّعقل في المسموع إذ لو لم يقدر لا يتّوجه إليه الخطاب و لا يتعلّق به التّكليف.

الثّالثة: شبّههم اللّه تعالى بالأنعام لا بغيرها من الموجودات من الجماد و النّبات مثلاً لوجهين:

أحدهما: عدم وجود السّمع و البصر و غيرهما من القوى في الجماد و النّبات فتشبيه الإنسان بهما لا معنى له لعدم وجود وجه التّشبه في الجماد و النّبات و هو السّمع.

ثانيهما: أنّ الحيوان و الإنسان من جنسٍ واحد و هو الحيّوانية و إمتياز أحدهما عن الأخر بالفصل و لذلك يقال في تعريف الإنسان حيوانٌ ناطق، فالحيوانيّة مشتركة بينهما و الفصل و هو النّاطق يميّز الإنسان عن الحيوان إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ اللّه تعالى شبّه الإنسان بما هو شريك له في الحيوانيّة لوجود السّمع و غيرها من القوى الحيّوانية فيهما و حيث أنّهم إعتبروا في التّشبيه كون وجه الشّبه في المشّبه به أقوى منه في المشبّه علمنا أنّ القوّة السّامعة في الحيوان أقوى منها في الإنسان هذا إذا قلنا أنّ وجه الشّبه هو السّمع و أن قلنا أنّ وجه الشّبه هو البلادة و عدم التّعقل فالأمر أوضح لأنّ الحيوان لا عقل له أصلاً بخلاف الإنسان الكافر فأنّ له عقل إلاّ أنّه يعقل أي لا يتّعقل و إلى هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالى بقوله: **يَسْمَعُونَ** أو يعقلون و لم يقل لا سمع لهم و لا عقل و الحاصل أنّ المنّفي في الآية هو عدم التّعقل و هو في الحيوان أقوى بل التّعقل فيه منتفٍ رأساً.

الرّابعة: قوله: **بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**، و الوجه فيه مضافاً إلى ما ذكره المفسّرون في تفاسيرهم و أشرنا إليه في صدر البحث هو أنّ الموجود العاقل إذا لم يعمل بوظيفته المقّررة له من طريق العقل و الشّرع فهو أضّل من الموجود الّذي لا عقل له أصلاً ألا ترى أنّ العالم العاصي أضّل من الجاهل العاصي، و

القادر الّذي يقدر على مقدوره أضّل و أخبث ممّن لا يقدر و هكذا ففي المقام الحيوان لا يقدر على التّعقل و الإنسان يقدر فهو أضّل من الحيوان و هو ظاهر.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَ لَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا

الظِّل ضدّ الضح و هو أعمّ من الفيئ فأنّه يقال ظِّل اللّيل و ظِّل الجنّة و يقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس ظِّل و لا يقال الفيئ إلاّ لما زال عنه الشّمس و قد يعبّر بالظِّل عن العزّة و المنعة عن الرّفاهة قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ**(١) أي في عزّةٍ و مناعٍ قاله الرّاغب في المفردات.

إذا عرفت هذا فمعنى الأية، ألم تر الهَمزة للإنكار و الرُّؤية قيل هي الرّؤية القلبيّة و معناها العلم أي ألم تعلم، ربّك كيف مدَّ الظِّل و المدّ البسط قال إبن عبّاس و إبن جبير الظِّل مدّه من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس.

و قال أبو عبيدة الظِّل بالغداة و الفيئ بالعشّي لأنّه يرجع بعد زوال الشّمس و على هذا فالمعنى ألم تعلم ربّك كيف بسط الظِّل، **وَ لَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا**، أي دائماً لا يَزُول **ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا**، قيل لأنّ الظِّل يتبع الشّمس في طوله فإذا إرتفعت في أعلى إرتفاعها قصر و أن إنحطّت طال بحسب ذلك الإنحطاط ولو شاء اللّه لجعله ساكناً بوقوف الشّمس و الظِّل يتبع الدّليل الّذي هو الشّمس كما يتبع السّائر في المفازة الدّليل، ثمّ قبضناه، يعني الظِّل يقبضه اللّه من طلوع الشّمس و قيل بغروبها فالقبض جمع الأجزاء المنبسطة.

و قال صاحب الكشّاف في معنى ألم تر إلى ربّك، ألم تنظر إلى صنع ربّك و قدرته و معنى مدّ الظِّل أن جعله يمّتد و ينبسط فينتفع به النّاس.

وَ لَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا أي لاحقاً بأصل كلّ مظّلٍ من جبلٍ و بناءٍ و شجرة

١- المرسلات = ٤١

غير منبسطٍ فلم ينتفع به أحد حتّى إنبساط الظّل و إنتداده، و معنى كون الشّمس دليلاً أنّ النّاس يستّدلون بالشّمس و بأحوالها في مسيرها على أحوال الظّل من كونه ثابتاً في مكانٍ زائلاً و متّسعاً و متّقلصاً فيبنون حاجتهم إلى الظّل، و قبضه إليه أنّه تعالى ينسخه بضح الشّمس يسيراً أي على مهلٍ وَنىٰ هذا القبض اليسير شيئاً بعد شيئ من المنافع ما لا يعدّ و لا يحصر ولو قبض دفعةً واحدة لتّعطلت أكثر مرافق النّاس بالظّل و الشّمس جميعاً إنتهى موضع الحاجة من كلامه وبه قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية إلاّ أنّه غيَّر الألفاظ كما هو ظاهر على من تأمّل في كلامه.

و قال بعض الفلاسفة الظّل هو الوجود الإضافي الظّاهر بتعيّنات الأعيان الممكنة و أحكامها التّي هي معدومات ظهرت بإسمه النُّور الّذي هو الوجود الخارجي المنسوب إليها فيستر ظلمة عدميّتها النُّور الظّاهر بصورها صار ظّلاً لظهور الظّل بالنُّور و عدّميته في نفسه فالظّلمة بأزاء هذا النُّور هي العدم و كلّ ظلمته فهي عبارة عن عدم النُّور عمّا من شأنه أن يتّنور به إلى أخر ما قال و أنت ترى أنّ هذه الملّفقات أجنبيّة عن كلام اللّه و لا يمكن تأويل الآية عليها و رفع اليد عن ظاهرها فأنّ اللّه تعالى بصدد بيان النِّعم التّي أنعمها على عباده و لا شكّ أنّ الظّل منها كما أنّ الضَّوء منها فقوله ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً، معناه لو لم تكن الشّمس لم يوجد في العالم ظّل أصلاً بل كان الحاكم على الموجودات الظُّلمة المحضة و هو كما ترى من أعظم المصائب فهو تعالى مقدرته الكاملة و عناياته الشّاملة جعل النُّور و الظُّلمة و الظّل و المظّل و الحركة و السّكون و غيرها ممّا يحتاج إليه الموجود في بقاءه و تعَيّشه.

و قوله: **وَ لَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا**، معناه أنّ من مدَّ الظّل قادرٌ على سكونه أيضاً فأنّ القادر على إيجاد الشّيئ قادرٌ على إعدامه أيضاً إذ لو لم يقدر علىٰ الإعدام لم يقدر على الوضع و قد ثبت أنّه على كلّ شيئٍ قدير.

وَ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَ ٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَ جَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا

و من النِّعم التّي أنعم اللّه بها على عباده هو أنّه جعل اللّيل لباساً قيل معناه أنّ ظلمة اللّيل تلبس كلّ شخصٍ و تغشيه حتّى تمنع من إدراكه و أنّما جعله كذلك ليهتدوا فيه و الرّاحة من كدّ الأعمال مع النوم الّذي فيه صلاح البدن.

أقول قوله: **جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا**، شبّه اللّيل باللّباس الّذي يغطّي البدن و يستره فكما أنّ اللّباس يستر البدن فاللّيل أيضاً يستر الأشياء و هذا أعني السَّتر هو وجه الشَّبه.

و أمّا قوله: **وَ ٱلنَّوْمَ سُبَاتًا**، فالسُّبات ضربٌ من الإغماء يعتري اليقظان مرضاً فشَّبه النّوم به و قيل معناه جعل نومكم ممتّداً طويلاً به راحتكم و هدؤكم و قيل أنّه أراد جعله قاطعاً للأعمال التّي يتّصرف فيها و السُّبات قطع العمل و منه يوم السَّبت و هو يومٌ ينقطع فيه العمل.

و قال المبّرد سباتاً يعني سكوتاً يقال أسبت الرّجل إذا أخذته سكتةٌ.

و قوله: **وَ جَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا**، أي للإنبساط و التّصرف في الحوائج و النّشور الإنبساط في تصّرف الحيّ يقال نشر الميت إذا حيّ و أنشره اللّه فنشر و منه يوم النّشور شبّه اليقظة بالنّشور ليتطابق الإعياء مع الإماتة للّذين يتّضمنهما النّوم و السُّبات.

و قال الزّمخشري السُّبات الموت و هو كقوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ بِالَّيْلِ**[1].

و قال أبو مسلم النّشور بمعنى الإنتشار و الحركة وكيف كان فهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهارٌ لنعمته على خلقه لأنّ الإحتجاب بستر اللّيل فيه فوائد كثيرةٌ دينيّة و دنيّوية و النّوم واليقظة و شبّهما بالموت و الحياة فيه عبرة لمن إعتبر ولذلك قال لقمان لإبنه يابنّي كما تنام فتوقظ فكذلك تموت فتنشر وإلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

١- الانعام = ٦٠

وكم بظلام اللّيل عندي من يدٍ تــخبر أنّ المـانوية تكـذب

روي أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: قال الحمد للّه الّذي أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النّشور ثمّ أخبر اللّه تعالى عن نعمةٍ أخرى و هي إرسال الرّياح. فقال:

وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية نعمتين:

إحدايهما: إرسال الرّياح.

الثّاني: إنزال الماء من السّماء فأشار إلى الأولى بقوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ** وإلى الثّانية بقوله: **وَ أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا** فالبحث يقع في فصلين:

الفَصل الأوّل: في الرّياح و هي بكسر الرّاء جمع ريح و الرّيح معروف و هي فيما قيل الهواء المُتحرك و عامّة المواضع التّي ذكر اللّه تعالى إرسال الرّيح بلفظ الواحد فعبارةٌ عن العذاب و كلّ موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارةٌ عن الرّحمة:

فَمن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ فِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ**(۴).

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**(۵) و الأيات كثيرة.

١- فصّلت = ١۶ ٢- القمر = ١٩
٣- الحّقة = ۶ ۴- الذّاريات = ۴١
۵- الأحّقاف = ٢۴

من الثّانی:

قال اللّه تعالیٰ: **وَ هُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ**[1].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ أَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً**[2].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ مِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ**[3].

قال اللّه تعالیٰ: **ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى ٱلسَّمَآءِ**[4] و غيرها من الأيات.

قال إبن عطيّة إنّ عرف الرّيح متّی وردت في القرآن مفردة فأنما هي للعذاب و متّیٰ كانت للمطر و الرّحمة فأنّما هي رياح و إستدّل على ذلك بأنّ ريح المطر تتّشعب و تتّذأب و تتّفرق و تأتی لنية و من ها هنا و ها هنا و شيئاً إثر شيء، و أمّا ريح العذاب خرجت لا تتّدأب و لا تتّفرق و أنّما تأتي جسداً واحداً ألا ترى أنها تحطم ما تجدونه و تهدمه، و قال الرّماني جمعت رياح الرّحمة لأنّها ثلاثة لواقح، الجنوب و الصّبا، و الشّمال، و أفردت ريح العذاب لأنّها واحدة لا تلقح وهي الدُّبور، قال إبن عطية ما ذكره الرُّماني ليس بشئ و يردّه قول النّبي ﷺ إذا هبّت الرّيح اللّهم إجعلها رياحاً و لا تجعلها ريحاً إنتهی.

و كيف كان لا شكّ أنّ الرّياح في الآية للرّحمة بدليل قوله: **بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ** و أنّما جمعت بإعتبار الجنوب و الشّمال و الصّبا، لا بإعتبار موصوفة للرّحمة و الرّيح للعذاب و ذلك لأنّه ممّا لا دليل عليه و مجرّد إستعمال اللّفظ لا يدلّ على ما ذكروه و مع ذلك يبطله إستعمال الرّيح للرّحمة أيضاً.

قال اللّه تعالیٰ: **حَتَّىٰٓ إِذَا كُنْتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**[5].

قال اللّه تعالیٰ: **وَ لِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوَاحُهَا شَهْرٌ**[6].

١- الأعراف = ٥٧ ٢- الحجر = ٢٢
٣- الرّوم = ٤٦ ٤- الرّوم = ٤٨
٥- يُونس = ٢٢ ٦- سبأ = ١٢

و محصّل الكلام هو أنّ الرّيح و الرّياح تحت قدرته تعالى يصرفها كيف يشاء و فوائدها كثيرة لا يمكن إحصاءها.

الفصل الثاني: قوله: **وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا** أي طاهراً مُطهّراً مزيلاً للأحداث و النّجاسات مع طهارته في نفسه و الطُّهور، فعول، أمّا للمبالغة كنؤوم و أكول و عليه فهو معدولٌ من طاهر، و أمّا أن يكون إسماً لما يتطهر به كالسحور و الفطور، و أمّا مصدر للتطّهير جاء على غير المصدر حكاه سيبويه و الظّاهر في قوله: **مَاءً طَهُورًا** أن يكون للمبالغة في طهارته قيل في وجه المبالغة أنّ الماء المنزّل من السّماء، و هو المطر لا يشوبه شيئ بخلاف ما نبع من الأرض و نحوه فأنّه تشوبه أجزاء أرضيّة من مقرّه أو ممَّره أو ممّا يطرح فيه هكذا قيل و أنت ترى ضعف هذا الوجه لأنّ هذا الوصف أعني به الطهوريّة لا يختصّ بماء المطر بل الوصف ثابت لجميع المياه و أن شئت قلت الوصف ثابت لجنس الماء سواء أنزل من السَّماء أم نبع من الأرض بل الماء كلّه من السّماء في الأصل و على هذا فقوله: **طَهُورًا** وصف لجنس الماء و ذكره في الآية بعد الماء المنزل من السّماء لا يدلّ على إختصاص الوصف به فالماء كلّه طهور أي طاهرٌ بالذّات و مطهّر للغير و هو من أجلّ النِّعم الّتي أنعَم اللّه بها على عباده كيف لا و حياة كلّ موجود حيٍّ به:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**(٤) و غيرها من الأيات و يكفي في إثبات المُدّعىٰ.

١- الأنبياء = ٣٠
٢- البقرة = ٢٢
٣- البقرة = ١٦٤
٤- الكهف = ٤٥

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ**(۱).

هذا كلّه مضافاً الى أنّ المحسوسات لا تحتاج الى دليلٍ و أيّ دليلٍ أعظم من الحسّ هذا كلّه بالنّسبة الى أصل وجود الماء من حيث أنّ بقاء الموجود الحيّ به لأجل الشّرب و أمّا غيره من المنافع المترتبة عليه الّتي منها طهوريّته فلا يمكن لأحدٍ إحصاءها و لأجل ذلك خصّ بالذّكر في الآية الشّريفة ثمّ أشار اللّه تعالى الى بعض فوائد الماء المنزل من السّماء و هو المطر بل أعظم فوائده.

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا

اللاّم للتّعليل أو للغاية أي أنزلنا من السّماء ماءً طهوراً لأجل إحياء الأرض الميتة به فالمراد بالبلدة في الآية أرض البلدة الّتي ماتت بسبب الخدب و قال بعضهم المراد بالميتة و هو الأرض الّتي لا نبات فيه فهو بغيرها، هاء، و إذا كانت حيَّة روحانيّة فهي ميتة، و قال بعضهم أراد بالبلدة المكان فلذلك قال ميتاً بالتّذكير فلو كان المراد بها أرض البلد لقال ميتة بدل ميت.

أقول كأنّ هذا القائل لم يعلم أنّ مكان البلدة ليس إلاّ الأرض وكيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و في التّعبير بالحياة في قوله لنحي، إشارة الى أنّ حياة الأرض بالماء فأنّ حياة كلّ شيءٍ بحسبه ثمّ بعد الحياة بسبب الماء تترّتب عليها آثارها المطلوبة منها فأنّ الأثار مترتبة على الحياة فما لا حياة له لا أثر له فمن الأثار المتّرتبة على حياة الأرض إهتزازها بعد كونها هامدة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ**(۲).

و منها إخضرارها:

۱- المُلك = ۳۰ ۲- الحَج = ۵

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**[۱].

و منها إخراج النّبات و الثّمرات منها:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا**[۲].

و غيرها من الأثار الّتي أشارت بها الآية الشّريفة من سقاية الأنعام و الأناسي كما قال تعالىٰ: **وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَ أَنَاسِيَّ كَثِيرًا** قيل معنىٰ نسقيه نجعله سقياً للأنعام الّتي خلقها اللّه و الأناسيّ و هي جمع إنسان جعلت الياء عوضاً من النّون و قد قالوا في الجمع، أناسين أيضاً، على الأصل نحو بستان و بساتين و يجوز أن يكون جمع أنسي نحو كرسي و كراسي و قد قالوا أناسية كثيرة.

قال بعض المفسّرين قدّم إحياء الأرض و سقى الأنعام على سقي الأناسي في الآية لأنّ حياتهم بحياة أرضهم و حياة أنعامهم فقدّم ما هو السّبب في ذلك و لأنّهم إذا وجدوا ما يسقي أرضهم و مواشيهم وجدوا سقياهم و نكّر الأنعام و الأناسي و وصفا بالكثرة لأنّ كثيراً منهم لا يعبثهم إلاّ ما أنزل اللّه من المطر و كذلك لنحيي به بلدةً ميّتاً يريد به بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظّان الماء بخلاف سكّان المدن فأنّهم قريبون من الأودية و الأنهار و العيون فهم غنّيون غالباً عن سقى ماء المطر و خَّص الأنعام من بين الحيوان الشّارب لأنّ الطُّيور و الوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشُّرب بخلاف الأنعام فأنّها منيَّة الأناسي و منافعهم متّعلقة بها فكأنّ الأنعام عليهم بسقي أنعامهم كالأنعام بسقيهم هكذا قيل و اللّه أعلم بما أراد.

۱- الحّج = ۶۳ ۲- فاطر = ۲۷

وَ لَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

الظّاهر أنّ الضّمير في صرّفناه، عائد على الماء المنزل من السّماء أي جعلنا إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع الى بعضٍ و هو في كُلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدة قاله الجمهور منهم إبن مسعود و إبن عبّاس و مجاهد و على هذا التّأويل، إلاّ كفوراً، هو قولهم بالأنواء و الكواكب قاله عكرمة، و قيل، كفوراً، على الإطلاق لما تركوا التّذكير، و قال إبن عبّاس الضّمير عائد على القرآن و إن لم يتّقدم له ذكرٌ لوضوح الأمر و يعضده قوله تعالى: **وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ** لتوافق الضّمائر و على أن يكون للمطر يكون، به، للقرآن، و قال أبو مسلم راجع الى المطر و الرّياح و السّحاب و سائر ما ذكر فيه من الأدلّة.

و قال الزّمخشري صرّفناه هذا القول بين النّاس في القرآن و في سائر الكتب و الصُّحف الّتي أنزلت على الرّسل و هي ذكر إنشاء السّحاب و إنزال المطر ليتفكّروا و ليعتبروا و يعرفوا حقّ النّعمة و يشكروا فأبى أكثرهم إلاّ كفران النِّعمة و جحودها و قلّة الإكتراث بها، و قيل صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة و الأوقات المتغايرة على الصّفات المتفاوتة و غير ذلك من الأقوال و الكُّل محتملٌ.

وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا

قيل في تفسير الكلام لمّا علم اللّه تعالى ما كابده الرّسول من أذى قومه أعلمه أنّه تعالى لو أراد لبعث في كلّ قريةٍ نذيراً فيّخف عنك الأمر و لكنّه أعظم أجرك و أجلك إذ جعل إنذارك عامّاً للنّاس كلّهم و خصّك بذلك ليكترثوا بك لأنّه على كثرة المجاهدة يكون الثّواب و ليجمع لك حسنات من آمن بك إذ أنت مؤسسّها و قيل في الكلام تخويفٌ يخوفّهم باللّه و يحذّرهم و المعنى لو شئنا لقسمنا النُّذر بينهم كما قسمنا الأمطار بينهم ففي ذلك أخبار عن قدرته على ذلك لكن دبّرنا على إقتضّته مصلحتهم و ما هو أعود عليهم في دينهم و دنياهم، و فيه

إمتنانٌ على النّبي بإنّا لو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيراً فيخفّف عنك كثير من ثقل ما حملته و لكنّا حمّلناك ثقل أوزار جميع القرى لتستوجب بصبرك عليه إذا صبرت، عظيم المنزلة و جزيل الكرامة إنتهى.

أقول لا يبعد أن تكون الآية جواباً للكفّار فكأنّهم قالوا لم لم يبعث اللّه في كلّ قريةٍ رسولاً منذراً فقال تعالى في جوابهم ما قال و يؤيّد هذا الإحتمال أنّ قبائل العرب لتعصّبها و عنادها كانت لا تجتمع على حكمٍ واحدٍ و حيث كان الرّسول من قريش فغيرها من القبائل خالفوه و هذا بخلاف ما إذا كان الرّسول من القبيلة و لأجل ذلك شاء كلّ قبيلةٍ أن يكون الرّسول منها و حيث لم يكن كذلك عصوا و تمرّدوا عن حكمه و أنكروا رسالته فقال تعالى في جوابهم ما حاصله لو شئنا لفعلنا ذلك و لكّن المصلحة إقتضت خلاف ما قالوه فأنّ الدّين الواحد يقتضي رسولاً واحداً و قد قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ**(١) أنّ الدّين عند اللّه الإسلام الآية فلو فرضنا في كلّ قريةٍ رسولاً منذراً فأمّا أن يكونوا جميعاً على دين واحدٍ فلا نفع في الكثرة أو على أديانٍ مختلفة فيلزم أن يكون في زمانٍ واحدٍ أدياناً مختلفة و هو كما ترى يوجب إختلال النّظم وقد قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا**(٢) وإذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال فالعقل يحكم بوحدة الدّين و الرّسول و هذا ينافي كثرة المنذرين في القرى تحت عنوان النُّبوة هذا ما خطر بالبال و لا نعلم أنّه حقٌّ أو ليس بحقٍّ فأقض ما أنت قاض و اللّه تعالى أعلم و أمّا ما ذكره المفسّرون فلا إشكال فيه إلاّ أنّ ما ذكرناه أولى و أوفق بسياق الكلام و هو قوله:

فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَ جَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا

أي فلا تطع الكافرين في قولهم لولا أرسل في كلّ قريةٍ من نذير مثلاً و حيث لم يرسل في قريتنا من نذير و أرسل في غير قريتنا فلا نتّبعه و لا نعتقد به، فأمر

١- آل عمران = ١٩ ٢- آل عمران = ١٠٣

اللّه تعالى نبيّه أن يجاهدهم جهاداً كبيراً، و المعنى لا تطعهم في قولهم هذا بل جاهدهم فقوله تعالى: **فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ** قرينة لولم يكن دليلاً على ما ذكرناه في تفسير الآية إذ لولم يكن لهم قولٌ في المسئلة لا معنى لقوله فلا تطع الكافرين لأنّ الرّسول لا يطيع الكافرين كفره قطعاً.

وَ هُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَحْجُورًا

المَرْج بفتح الميم و سكون الرّاء الخلط و قيل معناه الإفاضة و قيل معناه الإجراء فعلى الأوّل قوله: **مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ** خلطهما و على الثّاني أفاض أحدهما بالآخر و على الثّالث أجراهما و الظّاهر أنّ المراد بالبحرين ماء الكثير لا البحر المصطلح فالمعنى خلط الماء الكثير العذب و الماء الكثير الملح، و قيل المراد بحران معنّيان أعني بهما بحر فارس و بحر الرُّوم، و قيل بحر السّماء و بحر الأرض يلتقيان في كلّ عامٍ قاله إبن عبّاس و قال مجاهد مياه الأنهار الواقعة في البحر الأجاج.

و قال إبن عطيّة و المقصد بالآية التّنبيه على قدرة اللّه و إتّقان خلقه للأشياء في أن بثّ في الأرض مياهاً عذبة كثيرة من الأنهار و العيون و الآبار و جعلها خلال الأجاج و جعل الأجاج خلالها و الحجر ما حجز بينهما من الأرض و السّد و البرزخ البلاد و القفار فلا يختلفان إلاّ بزوال الحاجز يوم القيامة هذا ما قالوه في معنى الآية.

أقول البحر في الأصل الماء الكثير سمّي البحر بحراً لكثرة الماء فيه و هذا ممّا لا خلاف فيه و لا شكّ في أنّ الماء عنه عذبٌ فرات و منه ملحٌ أجاج و هذا أيضاً ممّا لاشكّ فيه لأنّه محسوسٌ بالذّوق إلاّ أنّ البحث في أنّ هذا الإختلاف في الماء من أين وجد و المفروض أنّ حقيقة الماء لا تقتضي ذلك إذ لو كان الإختلاف ناشئاً من طبيعة الماء فهو غير معقول لأنّ صرف الحقيقة لا تكثّر فيه و لا إختلاف

ألا ترى أنّ طبيعة النّارية لا تقتضي إلاّ الحرارة كما أنّ طبيعة المائيّة لا تقتضي إلاّ البرودة و على هذا كيف يعقل أن تكون طبيعة واحدة من حيث هي هي تقتضي شيئين متّضاديّن فلو كان هذا ممكناً معقولاً لصّح أن يقال أنّ طبيعة النّارية في بعض الموارد تقتضي الحرارة و في بعضٍ آخر تقتضي البرودة و لا يقول به عاقل فضلاً عن فاضل و إذا كان كذلك فلا محالة تكون الملوحة و العذوبة من العوارض الطّارية على طبيعة الماء و لازم ذلك أن يقال طبيعة المائيّة من حيث هي لا تقتضي العذوبة و لا الملوحة بل هي عاريةٌ عنهما في حّد ذاتها و إنّهما من العوارض الطاريّة عليها.

فأن قيل طبع الماء يقتضي العذوبة أو الملوحة كما أنّ طبع النّار يقتضي الحرارة مثلاً.

قلنا هذا ممّا لا دليل عليه بل هو مجّرد إحتمالٍ و على فرض التّسليم ثبوت أحد الوصفين للماء يقتضي عروض الآخر له لأنّ العذوبة و الملوحة لا تجتمعان في شئٍ واحد فأن كان الماء بحسب الطّبيعة عذباً فلا يكون ملحاً و أن كان ملحاً لا يكونّ عذباً فلا محالة أحد الوصفين ذاتّي له و الآخر عرضّي.

ان قلت لو كانت طبيعة الماء عارية عن الوصفين أو عن أحدهما في حّد ذاتها كما هو كذلك فما وجه إختلاف المياه من حيث العذوبة و الملوحة أنّهما من المحسوسات الّتي لا يمكن إنكارها.

قلت يمكن أن يكون الوجه في إختلاف المياه على سطح الأرض من حيث الطّعم ناشئاً عن الأرض فأنّ الأجزاء الأرضيّة مختلفة فمنها ما يكون متّصفاً بالحلّو منها ما يكون متّصفاً بالمريّة و منها ما يكون متّصفاً بالملوحة و هذا محسوسٌ في نقاط الأرض و إذا كان كذلك فالماء المستخرج من تحت الأرض يتفاوت طعمه بتفاوت أرضه فلا يبعد أن تكون العذوبة و غيرها من الأوصاف من تبعات الأرض و على هذا فالأوصاف عارضة على المياه و قد أنكر ذلك بعض المحقّقين زعماً منه أنّ طبيعة الأرض واحدة في الكُّل و الطّبيعة الواحدة

لا تقتضي أوصافاً متغايرة، ولم يعلم أنّ الأرض واحدة من حيث كونها أرضاً و بعبارةٍ أخرى من جهة إطلاق الأرض كما يقال طبيعة الإنسان واحدة فأنّ معناه أن طبيعة الإنسان واحدة من حيث أنّ الإنسان حيوان ناطق أو من حيث أنّ الإنسان مادّة خلقته التُّراب و هذا لا ينافي كون أفراد الإنسان متفاوتة من حيث اللّون و الشِّكل و السّواد و البياض و غير ذلك فهكذا حقيقة الأرض واحدة من حيث إستقرار الموجودات عليها و أمّا أجزاء الأرض فلكُلّ واحدٍ منها خصوصيّة ليست لغيرها ألا ترى أنّ بعض نقاط الأرض لا يستَّعد للزّراعة و يعّبر عنه (بالكَوير) و بعض آخر صالح لها و هذا أمرٌ محسوس لا يحتاج الى إقامة البرهان و إذا كان كذلك فالماء الموجود جوف الأرض يتَّغير طعمه لا محالة و يؤيّد هذان الماء كلّه من السّماء وكيف يعقل أن يكون بعضه حلواً و بعضه مرّاً إذا عرفت هذا فلنرجع الى تفسير الآية و نقول قوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ** معناه أجراهما و أرسلهما أي خلّى بينهما يقال مرجت الدّابة إذا خلّيتها ترعى قاله ثعلب **هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** كلمة، هذا، إشارة الى الماء و المعنى أنّ بعضه عذبٌ فرات و بعضه ملحٌ أجاج و قد ذكرنا وجهه و قلنا أنّ إختلاف الطّعم سببه إختلاف الأرض **وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا** أي حاجزاً من قدرته و هو نفس الأرض فأنّها مانعة من إختلاط المياه **وَ حِجْرًا مَحْجُورًا** فهو في الحقيقة توضيح للبرزخ و قد فرّق بعضهم بينهما بأنّ البرزخ هو الحاجز و الحجر المانع و هذا يدلّ على عظيم قدرته تعالى هذا ما أدّى إليه فهمنا القاهر في تفسير آيته و اللّه أعلم بحقيقة كلامه فتأمّل.

وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا

المراد من الماء هنا النّطفة و قيل المراد منه الماء الّذي خلق اللّه منه آدم بشراً أي إنساناً فجعل ذلك الإنسان نسباً و صهراً فالنَّسب ما رجع الى ولادة قريبة و الصِّهر خلطة تشبه القرابة و قيل الصِّهر المتّزوج بنت الرَّجل أو أخته و قال الفرّاء

النَّسب الّذي لا يحَّل نكاحه و الصِّهر النَّسب الّذي يحَّل نكاحه كبنات العَّم و بنات الخال و نحوهما و قيل النَّسب سبعة أصناف ذكرهم اللّه في قوله: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰاتُكُمْ** الىٰ قوله: **وَ بَنٰاتُ ٱلْأُخْتِ** والصِّهر خمسة أصناف ذكرهم في قوله: **أُمَّهٰاتُكُمُ ٱللّٰاتيِ أَرْضَعْنَكُمْ** الىٰ قوله: **وَ حَلاٰئِلُ أَبْنٰائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلاٰبِكُمْ**[1] و قيل المراد بالنسَّب آدم و بالصِّهر حوّاء، و قيل البنون و الصِّهر البنات و قيل النَّسب و الصِّهر يعمّان كلّ قربى بين آدمّيين فالنَّسب أن يجتمع مع آخر في أبٍ و أمٍّ قرب ذلك أو بعد و الصَّهر هو نواشح المناكحة، و قيل النَّسب ما لا يحَّل نكاحه و الصِّهر قرابة الرّضاع قال إبن سيرين نزلت في النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم و علّي لأنّه جمعه معه نسبٌ و صهرٌ و قال الزّمخشري في الكشّاف قسم البشر قسمين، ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان و فلانة بنت فلانة، و ذوات صهرٍ أي إناثاً يصاهر بهنّ و نحوه قوله تعالىٰ: **فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثىٰ**[2]، وكان ربّك قديراً، حيث خلق من النّطفة الواحدة بشراً نوعين ذكراً و أنثى إنتهى كلامه.

هذا ما ذكروه في تفسير الآية.

أقول معنى الآية واضح لا خفاء فيه و ذلك لأنّ المراد بالماء إمّا النّطفة الّتي خلق اللّه الإنسان منها كما أشار إليه بقوله: **خُلِقَ مِنْ مٰاءٍ دٰافِقٍ**، **مِنْ مٰاءٍ مَهِينٍ**، و أمّا الماء الذّي خلق منه أصول الحيوان كما قال تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دٰابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ**[3] و قوله: **وَ جَعَلْنٰا مِنَ ٱلْمٰاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**[4] و علىٰ التَّقديرين لا شكّ أنّ البشر خلق من ماءٍ و أمّا قوله فجعله نسباً و صهراً، فقال الخليل الأصهار أهل بيت المرأة و عن الأزهري الصّهر يشمل قرابات النّساء.

و قال الرّاغب في المفردات الصّهر الختن وأهل بيت المرأة يقال لهم الأصهار كما قال الخليل و قيل النَّسب و الصّهر معنيان يعمّان كلّ قربى تكون بين أدمّيين و قال إبن العربي النَّسب عبارة عن خلق الماء بين الذّكر و الأنثى على وجه الشّرع إنتهى.

١- النّساء = ٢٣
٢- القيامة = ٣٩
٣- النور = ٤٥
٤- الانبياء = ٣٠

وكيف كان لا شكّ أنّ الوصفين قد يجتمعان في بشرٍ واحدٍ و قوله: **وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**، معناه أنّه قادرٌ على كلّ شئٍ.

إن قلت لم قال في الآية خلق من الماء بشراً ولم يقل إنساناً.

قلت لا يبعد أن يكون المراد من البشر هو الجسد العنصري المادّي فأنّه مخلوق من الماء و أمّا الإنسان الّذي هو عبارة عن الرُّوح أو النَّفس النّاطقة فهو غير مخلوقٍ من الماء كما هو ظاهرٌ.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ مٰا لٰا يَنْفَعُهُمْ وَ لٰا يَضُرُّهُمْ وَ كٰانَ ٱلْكٰافِرُ عَلٰى رَبِّهِ ظَهِيرًا

لمّا ذكر اللّه تعالىٰ في الأيات السّابقة شطراً من نعمه الّتي أنعم اللّه بها علىٰ عباده من قوله تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ إِلىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ** إلىٰ قوله: **وَ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمٰاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا** أشار إلىٰ قوله: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ** و فيما ذكروه إيماءٌ إلى أنّ كثيراً من النّاس لا يشكرون مع أنّ الشّكر على النّعمة واجب عقلاً و شرعاً بل يكفرون بربّهم و يعبدون من دون اللّه الأصنام و الأوثان الّتي لا تنفعهم عبادتها و لا تضّرهم ترك عبادتها و الإعراض عنها و كان الكافر على ربّه ظهيراً فأنّ الشّيطان يظاهره على معصية اللّه ففي هذه الآية إشارةٍ إلى قبح كفران النّعمة و أنّ المخلوق ينبغي له أن يعرف خالقه و منعمه و ما أقبح بالرّجل الّذي يدّعي العقل و هو يعبد جماداً أو نباتاً أو خلقاً أخر و لا يعلم أنّ الموجود الأشرف لا يخضع للأخس و الأدون أبداً.

وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا

الخطاب للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أثبت اللّه في هذه الآية لرسوله وصفين:

أحَدهما: كونه مبشراً و الثّاني كونه نذيراً و الحقّ أنّ هذين الوصفين ثابتان لجميع الأنبياء عليهم السّلام:

قال اللّه تعالىٰ: **فَبَعَثَ ٱللّٰهُ ٱلنَّبِيّنَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى ٱللّٰهِ حُجَّةٌ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ**[٣].

و غيرها من الأيات و من المعلوم أنّ التَّبشير للمؤمن المطيع و الإنذار للكافر و الفاسق العاصي ففي البشارة ترغيب و تحريص على صالح الأعمال وفي الإنذار تهديد و تخويفٌ على الكفر و العصيان.

إن قلت قوله: **وَ مٰآ أَرْسَلْنٰاكَ إِلّٰا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا**، يفيد الحصر لتقديم النّفي على الإستثناء نحو قولك ما ضربت إلاّ زيداً، و لازم ذلك أن تكون الرّسالة منحصرة في التَّبشير و الإنذار و هكذا في غيره من الأنبياء مثل قوله: **وَ مٰا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ مَنَّ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيٰاتِهِ وَ يُزَكّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ**[٥].

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جٰآءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمّٰا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتٰابِ**[٦].

و أمثالهما من الأيات التّي يعلم منها عدم حصر وظيفة الرّسول في التَّبشير و الإنذار فقط.

قلت كلّ ما أمر به الرّسول من الأحكام الشّرعية و غيرها فهو داخلٌ في التَّبشير وكلّ ما نهى عنه من المحرّمات فهو داخل في الإنذار و جميع الأحكام بل الدّين لا يخلو منهما فأنّ كلّ ما يصدر من العبد أن كان موافقاً لما أمر به الرّسول فهو من مصاديق البشارة إلى الجنّة و كل ما يصدر منه مخالفاً لما أمر به الرّسول فهو من

١- البقرة = ٢١٣
٢- النّساء = ١٦٥
٣- الأنعام = ٤٨
٤- الأنعام = ٤٨
٥- أل عمران = ١٦٤
٦- المائدة = ١٥

مصاديق الإنذار و الوعيد إلى النّار و بعبارةٍ أخرى كلّ قولٍ أو عملٍ يصدر من المكلّف لا يخلو منهما و هو واضح.

قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَآءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار أنّي لا أسألكم على ما أبشّركم به أو أحذّركم منه، أجراً تعطوني و المقصود هو أجر الرّسالة و الدّليل من العقل على ذلك هو أنّ أجر الرّسول ليس إلاّ على المرسل و هو اللّه تعالى فأنّ أجر المأمور على الآمر لا على غيره و الآمر هو اللّه تعالى، و أمّا قوله: **إِلَّا مَنْ شَآءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا**، فقيل هو إستثناء من غير الجنس و معناه أنّه جعل أجره على دعاءه إتّخاذ المدّعو سبيلاً إلى ربّه و طاعته إيّاه كقول الشّاعر:

و بلدةٍ ليس لها أنيسُ إلاّ اليعافير وإلاّ العيس

و جعلها أنيس ذلك المكان، و قيل معناه إلاّ من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً، بإنفاقه ماله في طاعة اللّه و إبتغاء مرضاته، ذكر الوجهين صاحب التّبيان و قال صاحب الكشّاف في قوله: **إِلَّا مَنْ شَآءَ** المراد إلاّ فعل من شاء و إستثناءه عن الأجر قول ذي شفقةٍ عليك قد سعى لك في تحصيل مال، ما أطلب منك ثواباً على ما سعيت إلاّ أن تحفظ هذا المال و لا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثّواب ولكن صوّره هو بصورة الثّواب و سمّاه بإسمه فأفاد فائدتين.

أحدايهما: قلع شبهة الطّمع في الثّواب من أصله كأنّه يقول لك أن كان حفظك لمالك ثواباً فأنّي أطلب الثّواب.

الثّانية: إظهار الشّفقة البالغة و أنّك إن حفظت مالك إعتّد بحفظك ثواباً و رضى به كما يرضى المثاب بالثّواب و لعمري أنّ رسول اللّه ﷺ كان مع المبعوث إليهم بهذا الصّدد و فوقه و مضى إتّخاذهم الى اللّه سبيلاً تقرّبهم إليه و طلبهم عنده الزّلفى بالإيمان و الطّاعة و قيل المراد التّقرب بالصّدقة و النّفقة في سبيل اللّه إنتهى كلامه.

أقول الإنصاف أنّي بعد التّأمل في كلام صاحب الكشّاف لم أستفد منه شيئاً و هو أعلم بما قال و هو أيضاً بعيد وقد نقل الرّازي في تفسيره ما نقلناه عن صاحب الكشّاف ولم يقل شيئاً فكأنّه أيضاً لم يفهم منه شيئاً.

و محصّل الكلام أنّا بعد الفحص في كلمات المفسّرين لم نر تفسيراً واضحاً للإستثناء و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال هو أنّ الأجر أجران:

أجرٌ من المرسل إليه و هو العبد، أمّا الأوّل فهو ثابت قطعاً أطاع المكلّف عن الرّسول أم خالفه و عصاه فأنّ اللّه تعالى أرسل رسوله إلى خلقه و أمره بتبليغ رسالته و المفروض أنّ الرّسول قد بلّغ ما أمر به و ما على الرّسول إلاّ البلاغ و هو بذلك يستحّق الثّواب و الأجر من اللّه تعالى و لأجل هذه الدّقيقة لم يقل في الآية قل ما أسأله عليه من أجرٍ، بل قال قل ما أسألكم عليه من أجرٍ أيْ ممّن أرسل إليهم.

و أمّا الأجر الثّاني و هو الأجر من المرسل إليهم فهو الّذي نفاه في الآية و هذا ظاهرٌ.

و أمّا قوله: **إِلَّا مَنْ شَآءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا** فمعناه إلاّ من شاء و أراد أن يؤمن باللّه و رسوله و اليوم الأخر و عمل بمقتضاه و بعبارةٍ أخرى لا أسألكم على رسالتي منكم أجراً إلاّ إيمانكم باللّه و العمل بأحكامه فهذا أجري منكم.

و إن شئت قلت ما أريد منكم جزاء إلاّ خروجكم من الكفر و دخولكم في الإيمان هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم.

وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا

أمر اللّه تعالى نبيّه بالتّوكل عليه في جميع شئونه ثمّ وصف نفسه بالحياة الّتي لا موت فيها و أمره ثانياً بالتّسبيح بحمده تعالى و قوله: **وَ كَفَى بِهِ** أي كفى اللّه

بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا، أي عالماً ففي الآية مسائل لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً فنقول:

الأولى، التَّوكل مصدر من باب التَّفعل و الأمر منه، توَّكل، قال الرّاغب في المفردات توّكلت عليه بمعنى إعتمدته و منه التَّوكيل و هو أن تعتمد على غيرك و تجعله نائباً عنك، قال بعض المحققّين من علماء الأخلاق، التَّوكل إعتماد القلب في جميع الأمور على اللّه و بعبارةٍ أخرى حوالة العبد جميع أموره عليه تعالى و بعبارةٍ أخرى هو التَّبريّ من كلّ حولٍ و قوّةٍ و الإعتماد علىٰ حول اللّه و قوّته و هو موقوفٌ على أن يعتقد إعتقاداً جازماً بأنّه لا فاعل إلاّ اللّه و أنّه لا حول و لا قوّة إلاّ به و إن له تمام العلم و القدرة على كفاية العباد ثمّ تمام العطف و العناية و الرَّحمة بجملة العباد و الأحاد و أنّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة و لا وراء منتهى علمه علم و لا وراء منتهى عنايته عناية فمن إعتقد ذلك إتَّكل قلبه لا محالة على اللّه وحده و لم يلتفت إلى غيره و لا إلى نفسه أصلاً و ساق الكلام إلى أن قال فالتَّوكل لايتّم إلاّ بقوّة اليقين و قوّة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب و طمأنينة إلى أن قال و إذا توَّقف التّوكل على اليقين و قوّة القلب و إرتفع بضعف أحدهما يظهر أنّ التّوكل من الفضائل المتعلّقة بقوّتي العاملة و الغضّبية معاً و ضدّه أعني عدم التَّوكل من رذائل أحدهما أو كليهما إنتهى كلامه.

إذا عرفت معنى التَّوكل و حقيقته فاعلم أنّه منزلٌ من منازل السّالكين و مقام من مقامات الموّحدين بل هو أفضل درجات الموقنين ولذا ورد في مدحه و فضله و التّرغيب فيه ما ورد من الكتاب و السُّنة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**(٣).

١- المائدة = ٢٣
٢- آل عمران = ١٢٢
٣- آل عِمران = ١٥٩

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَـزِيزٌ حَكِـيمٌ**[٢] و الآيات كثيرة.

و أمّا الأخبار الواردة في الباب من العّامة و الخّاصة فلا تعُّد و لا تحصى و لا نحتاج الى ذكرها بعد تصريح الآيات بمدحه و فضله و مع ذلك نشير الى شطرٍ منها تيّمناً و تبّركاً به:

قال الصّادق عليه السلام: «من أعطى ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً» من أعطى الدُّعاء أعطى الإجابة و من أعطى الشُّكر أعطى الزِّيادة و من أعطى التَّوكل أعطى الكفاية ثمّ قال عليه السلام: أتلوت كتاب اللّه عزّ وجّل: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ و قال: لَـئِنْ شَكَـرْتُمْ لَأَزِيـدَنَّكُمْ و قال: ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إنتهىٰ.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: من إنقطع الى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع الى الدّنيا وكلّه اللّه إليها.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: من سرَّه أن يكون أغنى النّاس فليكن بما عند اللّه أوثق منه بما في يده إنتهىٰ.

أقول الأحاديث كثيرة و للتَّوكل درجات فمن الوقوف عليها فعليه بمراجعة جامع السّعادات في علم الأخلاق لمولى النّراقي قدس سره و ضاعف أجره.

المسئلة الثّالثة: أنّه تعالى وصف نفسه بالحّي الّذي لا يموت و أمر رسوله بالتَّوكل عليه ولم يقل في هذه الآية و توكَّل على اللّه و أن قاله في غيرها منها لنقطةٍ و هي أنّ المعتمد أعني به المتّوكل عليه على قسمين:

أحدهما: أن يكون قابلاً للفناء و الدّثور.

ثانيهما: أن لا يكون كذلك وإنّما قلنا ذلك لأنّ المعتمد لابّد من أن يكون

١- الطّلاق = ٣ ٢- الأنفال = ٤٩

موجوداً إذ لا يعقل الإعتماد على المعدوم و من المعلوم أنّ الموجود ينقسم على قسمين قابلٌ للعدم و غير قابلٍ له، فالأوّل أعني ما يقبل العدم فهو المخلوق الممكن كائناً ما كان.

الثّانى: و هو الّذي لا يقبل العدم فهو الخالق و يعبّر عنه بواجب الوجود و أنّما لا يقبل العدم لأنّ الوجود فيه عين ذاته لا عارضٌ عليه و هذا بخلاف الممكن فأنّ الوجود عارض على ماهيّته و قد ثبت أنّ كلّ عرَضيٍ معلّل إذا عرفت هذا فنقول:

الموجود الّذي لا يقبل العدم منحصرٌ في الخارج بواجب الوجود و ما سواه يقبل العدم و هو الممكن و من المعلوم المسلّم عند جميع العقلاء أنّ التّوكل و الإعتماد على الموجود الذّي لا سبيل للبطلان إليه أولى من الإعتماد على الباطل الّذي لا دوام و لا بقاء له بل نقول الإعتماد عليه خارج عن طور العقل إذ المتمد الفاني أعتمد على مثله و حكم الأمثال واحد و بعبارةٍ أخرى إعتمد على من لا يقدر على شئٍ لضعفه و فقره فهذا مثل إعتماد الفقير المحتاج إلى الدَّرهم و الدّينار على فقيرٍ أخر مثله و قد ثبت أنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و إذا كان كذلك فينبغي أن يعتمد على الموجود الّذي لا فناء له و لا ضعف فيه و هو قادرٌ على كلّ شئٍ باقٍ بعد فناء كلّ شئ و هذا الموجود ليس إلاّ اللّه تعالى فأنّه الحيّ الّذي لا يموت و هذا ممّا يحكم به العقل السّليم فالتّوكل على غيره كائناً ما كان خارج عن طور العقل بل العقل حاكم ببطلانه قطعاً و هو المطلوب و السِّر في ذلك أنّ الحيّ الّذي لا يموت قدرته كاملة لا زوال فيها و لا نقص كما أنّ جميع صفاته كذلك لأنّ الصّفات في الموجود تتبع الوجود شدّةً و ضعفاً و كمالاً و نقصاً فكما أنّ وجوده لا زوال فيه كذلك قدرته و سائر صفاته فالإعتماد عليه في الحقيقة إعتمادٌ على كمال القدرة و لا نعني بالمعتمد إلاّ هذا.

المسألة الثّالثة: قوله **وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ**، أمر اللّه نبيّه بعد الأمر بالتّوكل

بالتَّسبيح و التّقديس بحمده تعالى و التّسبيح تنزيه اللّه تعالى عن كلّ نقصٍ و عيبٍ و الحمد الثّناء عليه بالفضيلة و هو أخصّ من المدح و أعمّ من الشّكر فالمعنى نزِّهه عن مشابهة المخلوقات و عمّا لا يليق بمقام ربوبيّته وهذا التّسبيح من أعظم المدح و الثّناء عليه و يحتمل أن يكون الباء في، بحمده، للسَّبب أي أنّ الحمد سببٌ و علّة للتّسبيح و كيف كان لا شكّ أنّ تسبيح الحقّ وظيفة العبد العارف بربّه و هو عامّ في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّةً و لذلك لا يكون إلاّ في فعل الخير و قول الخير و نيّة الخير:

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **يُسَبِّحُ لَهُ مٰا فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكٰا**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ ٱلسّٰاجِدِينَ**[٥] والأيات كثيرة.

و الحاصل أنّ الأشياء كلّها تسبّح له بعضها بالتّسخير و بعضها بالإختيار و قد مرَّ الكلام فيه.

المسئلة الرّابعة: قوله **وَ كَفٰى بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيرًا** أي كفى اللّه بذنوب عباده و المقصود أنّه تعالى عالمٌ بأخبار أعمالكم و قيل أي عالمٌ ببواطن أموركم و قيل خبيرٌ بمعنى مخبرٌ كقوله: **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[٦]، و محصّل الكلام هو أنّ تعالى عالم بجميع الأشياء ظاهرها و باطنها و لا يخفىٰ عليه شئ و

١- الإسراء = ٤٤
٢- الرّعد = ١٣
٣- الحَشر = ٢٤
٤- أل عمران = ٤١
٥- الحجر = ٩٨
٦- المائدة = ١٠٥

الدّليل على ذلك أنّ الخالق محيط بجميع شئون مخلوقه و المخلوق محاطٌ له مضافاً إلى أنّ الجهل نقص و اللّه تعالى منزّهٌ عن النّقائص و هذا ممّا لا خلاف فيه عند الموّحدين.

ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا

إعلم أنّ اللّه سبحانه و تعالى لمّا أمر الرّسول بالتّوكل عليه وصف نفسه بأمورٍ:

أوّلها: بأنّه حيٌّ لا يموت و هو قوله و توّكل على الحيّ الّذي لا يموت.

ثانيها: أنّه عالم بجميع المعلومات و هو قوله: **وَ كَفىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبٰادِهِ خَبِيرًا**

ثالثها: أنّه قادرٌ على كلّ الممكنات و هو المراد من قوله: **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا** فثَبَت أنّه هو القادر على جميع وجوه المنافع و دفع المضّار و أنّ النّعم كلّها من جهةٍ فحينئذٍ لا يجوز التّوكل إلاّ عليه و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** فقد مرّ الكلام فيه في سورة الأعراف حيث قال:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ(١).

و هكذا في سورة يونس حيث قال تعالىٰ:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلّٰا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلٰا تَذَكَّرُونَ(٢).

١- الأعراف = ٥۴ ٢- يُونس = ٣

و قال اللّه تعالى: **اَللّٰهُ اَلَّذِي خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ**[١].

و مرجع الكلّ إلى شئٍ واحد و هو إعلام قدرته و أنّه على كلّ شئٍ قدير و من كان كذلك فهو المعبود حقّاً لا غيره و صورة القياس، أنّ اللّه تعالى خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات، و كلّ من كان كذلك فهو المعبود حقّاً ينتج أنّ اللّه تعالى هو المعبود حقّاً و هو المطلوب.

و أمّا الصُّغرى فلا خلاف فيها عند العقلاء لأنّ كلّ حادثٍ لابدّ له من محدثٍ و المحدث إمّا قديم أو حادث لا سبيل إلى الثّاني لأنّه مستلزمٌ للتّسلسل و هو باطل و هذا معنى قولهم كلّ ما وجد بالغير لابدّ من أن ينتهي إلى الموجود بالذّات دفعًا للدَّور والتَّسلسل فثبت أنّ الموجد لا يكون حادثاً فهو قديم و لا قديم سوى اللّه تعالى فهو الّذي خلق السّموات و الأرض و ما بينهما و هو المطلوب.

و إذا ثبت كونه خالقاً ثبت أنّه المعبود لا غيره و أمّا قوله: **فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ** فالمراد بالأيّام الأوقات و في الإحتجاج عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال ولو شاء أن يخلقها في أقّل من لمح البصر لخلق ولكنّه جعل الأناة و المداراة مثالاً و إيجاباً للحجّة على خلقه و في العيون عن الرّضا عليه السلام و كان قادراً على أن يخلقها في طرفة عينٍ و لكنّه عزّ وجلّ خلقها في ستّة أيّامٍ ليظهر على الملائكة ما يخلقه منها شيئاً بعد شئٍ فيستدّل بحدوث ما يحدث على اللّه تعالى مرّةً بعد مرّةً.

قال الفيض قدس سره في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

إن قيل أنّ الأيّام تتّقدر و تتّميز بحركة الفلك فكيف خلقت السّموات في الأيّام المتمايزة قبل تمايزها.

قلنا مناط تمايز الأيّام و تقّدرها أنّما هو حركة الفلك الأعلى دون السّموات السَّبع و المخلوق في الأيّام المتمايزة أنّما هو السّموات السَّبع و الأرض و ما

١- السّجدة = ٤

بينهما دون ما فوقهما و لا يلزم من ذلك خلاء لتَّقدم الماء الّذي خلق منه الجميع على الجميع و ليعلم أنّ هذه الآية و أمثال هذه الأخبار من المتشابهات التّي تأويلها عند الرّاسخين في العلم إنتهى كلامه.

و أمّا قوله: **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** فعن أميرالمؤمنين عليه السلام: **إستوىٰ تَدبيره و عَلا أمَره**. عن الكاظم عليه السلام: **إستولىٰ علىٰ ما دَّق و جَل**. عن الصّادق عليه السلام: **إستولى على كلّ شيءٍ فليس شيءٌ أقرب إليه من شيءٍ إنتهى**.

و أمّا العرش في الآية فقد يراد به الجسم المحيط بجميع الأجسام و قد يراد به ذلك الجسسم مع جميع ما فيه من الأجسام أعني العالم الجسماني بتمامه و قد يراد به ذلك المجموع مع جميع ما يتّوسط بينه و بين اللّه سبحانه من الأرواح التّي لا تتَّقوم الأجسام إلاّ بها أعني العوالم كلّها بملكها و ملكوتها و جبروتها و بالجملة ما سوى اللّه تعالى و قد يراد به علم اللّه سبحانه المتعلّق بما سواه و قد يراد به علم اللّه الّذي إطَّلع عليه أنبيائه و رسله و حججه و قد وقعت الإشارة إلى كلّ منها في كلامهم و ربّما يفسّر العرش بالملك و الإستواء بالإحتواء إنتهى ما حقّقه بعض المفسّرين.

و قوله: **ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا** فهو خبرٌ للّذي إن جعلته مبتدأ فكأنّه سأل سائل عن الرّحمن فقال تعالىٰ: **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** هو الرّحمن لا غيره فإسئل به خبيراً أي فإسئل عمّا ذكر من الخلق و الإستواء و غير ذلك أو عن أنّه هو الرّحمن خبيراً، و هو اللّه سبحانه أو جبرئيل أو من وجده في الكتب المتَّقدمة ليصَّدقك فيه و يحتمل أن يكون المراد به الرُّسل المتّقدمة فيكون السّؤال في عالم الأرواح كقوله تعالى: **سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا**(١) والمعنىٰ أن أنكروا إطلاقه على اللّه فإسئل عنه من يخبرك من أهل الكتاب لتعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبه.

١- الاسراء = ٧٧

أقول قال الزّجاج المعنىٰ فإسئل عنه وقد حكىٰ هذا جماعة من أهل اللّغة أنّ الباء تكون بمعنى، عن، كما قال تعالى: **سَأَلَ سَآئِلُ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**[١] و عليه قول الشّاعر:

إن تسألوني بالنّساء فإنّني خبيرٌ بأدواء النّساء طبيبُ

أي عن النّساء، و أنكره علي بن سليمان و قال أهل النّظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى، عن، لأنّ في هذا إفساد لمعاني قول العرب فالمعنى فإسئل بسؤالك إيّاه خبيراً، و به قال إبن جبير و اللّه أعلم.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَ مَا ٱلرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَ زَادَهُمْ نُفُورًا

أي و إذا قيل لهؤلاء الكفّار إسجدوا للرّحمن، الّذي خلق السّموات و الأرض و ما بينهما، قالوا و ما الرّحمن، على جهة الإنكار و التّعجب أي ما نعرف الرّحمن إلاّ رحمن اليمامة و هو مسيلمة الكذّاب قاله القرطبي.

ثمّ نقل عن أبىبكر بن العربي أنّه قال أنّما جهلوا الصِّفة لا الموصوف و إستدلّ على ذلك بقوله: **وَ مَا ٱلرَّحْمٰنُ**، ولم يقولوا و من الرَّحمن.

أقول ما نقله من إبن العربي ليس بشئ و ذلك لأنّ السّؤال بما الإستفهاميّة سؤال عن حقيقة الشّيء و ماهيّته بخلاف السّؤال، بمن، الإستفهاميّة فأنّه سؤال عن مشّخصات الموجود و عوارضه و صفاته فإذا قيل ما الإنسان يقال في الجواب حيوان ناطق و لذلك يقال أنّه حدٌّ تامّ للإنسان أي يبيّنه و يعرّفه بماهيّته و حقيقته، و أمّا إذا قيل من الإنسان أو قيل من هو، لا يقال في الجواب حيوان ناطق لأنّ السّائل لم يسأل عن ماهيّته و حقيقته بل سأل عن صفاته و عوارضه فيقال أنّه موجود مستقيم القامّة و له أوصاف كذا وكذا إذا عرفت الفرق بين المقامين فقد علمت أنّ قول الكفّار، و ما الرّحمٰن، معناه ما حقيقته و ذاته فإنّا لا

١- المعارج = ١

نعرفه و يحتمل أن يكون اللاّم للعهد الذّكري الّذي تقدّم ذكره في قوله: **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** الخ **ٱلرَّحْمٰنُ** فقال الكفّار و ما هو أي ما حقيقته و ذاته و لذلك قالوا، أنسجد لما تأمرنا بعبادته و سجوده و الحال إنّا لا نعرفه حتّى نسجد له و زادهم نفوراً، أي زاد الأمر بالسّجود نفوراً عن قبول قول النّبي و الرّجوع إلى طاعة اللّه و فيه إشارة إلى أنّ السّجود فرعٌ على المعرفة و هو كذلك فأنّ العبادة فرعٌ على المعرفة و حاصل الكلام أنّا لا نعبد ما لا نعرفه.

إن قلت فعلى هذا لا ذمٌّ عليهم لأنّ العقل يحكم بذلك.

قلت نعم العقل يحكم به إلاّ أنّهم كذبوا في قولهم هذا فأنّهم عرفوه بقلوبهم و أنكروا بألسنتهم و لذلك إستّحقوا للذّم و أنّما قلنا أنّهم عرفوه لأنّ الحجّة قد تمّت عليهم بقوله تعالى: **ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ** الخ **هُوَ ٱلرَّحْمٰنُ** فلا معنى لقولهم: **وَ مَا ٱلرَّحْمٰنُ**، لأنّه يقال لهم **هو ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا** الخ و هذا القدر من المعرفة كافٍ في المدّعى و هذا واضح لا خفاء فيه.

■

تَبارَكَ ٱلَّذي جَعَلَ فِى ٱلسَّمٰآءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ
فيهٰا سِراٰجًا وَ قَمَرًا مُنيرًا ﴿٦١﴾ وَ هُوَ ٱلَّذى
جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَ ٱلنَّهٰارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَراٰدَ أَنْ يَذَّكَّرَ
أَوْ أَراٰدَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَ عِباٰدُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذينَ
يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَ إِذاٰ خاٰطَبَهُمُ
ٱلْجاٰهِلُونَ قاٰلُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَ ٱلَّذينَ يَبيتُونَ
لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَ قِياٰمًا ﴿٦٤﴾ وَ ٱلَّذينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنّٰا عَذاٰبَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذاٰبَهاٰ كاٰنَ
غَراٰمًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهاٰ سٰآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاٰمًا ﴿٦٦﴾ وَ
ٱلَّذينَ إِذآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ
كاٰنَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواٰمًا ﴿٦٧﴾ وَ ٱلَّذينَ لاٰ يَدْعُونَ
مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ وَ لاٰ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتى
حَرَّمَ ٱللّٰهُ إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لاٰ يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ
ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاٰمًا ﴿٦٨﴾ يُضاٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذاٰبُ يَوْمَ
ٱلْقِيٰمَةِ وَ يَخْلُدْ فيهِ مُهاٰنًا ﴿٦٩﴾ إِلاّٰ مَنْ تاٰبَ وَ
اٰمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صاٰلِحًا فَأُولٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللّٰهُ
سَيِّئاٰتِهِمْ حَسَناٰتٍ وَ كاٰنَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحيمًا
﴿٧٠﴾ وَ مَنْ تاٰبَ وَ عَمِلَ صاٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ
إِلَى ٱللّٰهِ مَتاٰبًا ﴿٧١﴾ وَ ٱلَّذينَ لاٰ يَشْهَدُونَ
ٱلزُّورَ وَ إِذاٰ مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراٰمًا ﴿٧٢﴾ وَ
ٱلَّذينَ إِذاٰ ذُكِّرُوا بِاٰياٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهاٰ
صُمًّا وَ عُمْياٰنًا ﴿٧٣﴾ وَ ٱلَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ

لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ ٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَامًا ﴿٧٥﴾
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ
مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

◀ اللّغة

تَبَارَكَ: أي علا و قيل تبارك أي تعظّم و إتّسعت رحمته و كثرت نعمته و هو تفاعل من البركة و هو فعل ماضٍ و لا يجئ منه خاصّة الفعل المضارع و قيل تبارك اللّه أي بارك اللّه مثل قابل و تقابل إلاّ فاعل يتّعدي و تفاعل لا يتّعدى و قيل تبارك، تقدّس و القدس الطّهارة و كيف ففيه تنبيهٌ على ما يفيض اللّه على عباده من نعمه بواسطة الأسباب من البروج و غيرها ففيه تنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالخيرات مع ذكر تبارك.

بُرُوجًا: البروج القصور واحدها بُرج بضمّ الباء و به سمّي بروج النجوم لمنازلها المختّصة بها.

خِلْفَةً: بكسر الخاء و سكون اللاّم و فتح الفاء الإختلاف أي هما مختلفان في السّواد و البّياض و قيل معناه يخلف كلّ واحدٍ منهما صاحبه.

هَوْنًا: الهون بفتح الهاء السّكينة و الوقار و قيل المراد به التّواضع.

سَلَامًا: أي سداداً من القول هو من السِّلم أي يسلمون به من المعصية.

سُجَّدًا: جمع ساجد و السّجود في اللّغة الخضوع و في الشّرع وضع الجبهة على الأرض متّعبداً.

غَرَامًا: بفتح الغين أي لازماً و ملحاً دائماً و منه الغريم لملازمته و إلحاصه.

يُسْرِفُوا: الإسراف معناه واضح و قد يفسّر بالخروج عن العدل في الإنفاق و قيل في جمع الأعمال.

وَلَمْ يَقْتُرُوا: هو مأخوذٌ من القترة و هي الدّخان و هو التّضيق في الإنفاق فهو ضدّ الإسراف.

قَوامًا: القوام بفتح القاف العدل و بكسرها السّداد.

أَثامًا: الأثام العقاب و قيل هو إسم وادٍ في جهنّم.

مُهانًا: بضمّ الميم أي مشخصاً به.

◄ الإعراب

سِراجًا بكسر السّين على الإفراد و المراد به الشّمس و قد يقرأ بضمّتين أي بضمّ السّين و الرّاء على الجمع و المراد الشّمس و الكواكب أي يكون كلّ جزءٍ من الشّمس سراجاً خِلْفَةً بكسر الخاء مفعول ثانٍ أو حال و أفرد لأنّ المعنى يخلف أحدهما الأخر شُكُورًا بضمّ الشّين مصدر مثل الشّكر عِبادُ الرَّحْمٰنِ مبتدأ و في الخبر وجهان: **أحدهما**: **اَلَّذِينَ يَمْشُونَ**.

الثّانی: **أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ** و الذّين يمشون صفة.

قالُوا سَلامًا سلاماً هنا مصدر مُسْتَقَرًّا تمييز يَقْتُرُوا بفتح الياء و في التّاء وجهان: الكسرة و الضّم و قد قُرِئ بهما و الماضي ثلاثي يقال قتر يقتر، و يقرأ بضمّ الياء و كسر التّاء، و الماضي، أقتر، و هي لغة و عليها جاء و على المقتر قدره. قَوامًا الخبر و يجوز أن يكون، بين، الخبر و قواماً حالاً إِلّا بِالْحَقِّ في موضع الحال يُضاعَفْ بالجزم على البدل من، يلق، و قرأ بالرّفع على الإستئناف مُهانًا حال و الأثام إسم للمصدر مثل السّلام و الكلام إِمامًا فيه وجوه:

أحدها: أنّه مصدر مثل قيام و صيام فلم يجمع لذلك و التّقدير ذوي إمامٍ.

الثّانی: أنّه جمع إمامة مثل قلادة و قلاد.

الثّالث: هو جمع أم يؤم مثل حال و حلال.

الرّابع: أنّه واحد إكتفى به عن أئمّة كما قال تعالى نخرجكم طفلاً، لزاماً أي ذا لزام، أو ملازماً فأوقع المصدر موضع إسم الفاعل.

◀ التّفسير

تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا

قرأ حمزة و الكسائي سرجاً على الجمع و الباقون، سراجاً، على التّوحيد فمن وحّد أراد الشّمس وحدها و من جمع أراد الكواكب المضيئة كلّها قيل في نزولها لمّا جعلت قريش سؤالها عن إسمه الّذي هو الرّحمٰن و هو سؤال عن مجهول نزلت هذه الآية مصّرحة بصفاته التّي تعرف به و توجب الإقرار بألوهيّته و مناسبتها لما قبلها أنّه تعالى لمّا ذكر أنّه خلق السّموات و الأرض و ما بينهما و وصف نفسه بالرّحمٰن و سألوهم فيه عمّا وضع في السّماء من النّيران و ما صرف من حال اللّيل و النّهار لبادروا بالسّجود و العبادة للرّحمٰن ثمّ نبّههم على مالهم به إعتناء تام من رصد الكواكب و أحوالها و وضع أسماء لها و الظّاهر أنّ المراد بالبروج المعروفة عند العرب و هي منازل الكواكب السّيارة و هي الحمل، والثّور و الجوزاء و السّرطان و الأسد و السُّنبلة و الميزان و العقرب و القوس و الجدي و الدَّلو و الحوت سمّيت بذلك لشبهها بما شبّهت به و سمّيت بالبروج و هي القصور العالية لأنّها لهذه الكواكب كالمنازل لسكّانها و إشتقاق البرج من التَّبرج لظهوره إنتهى.

أقول ما ذكره في نزول الآية لا دليل عليه و الّذي يقوّي في النّفس هو أنّ اللّه بصدد بيان نعمه التّي أنعم بها على عباده و لمّا ذكر في الأيات السّابقة أنّه خلق السّموات و الأرض و ما بينهما أشار في هذه الآية إلى ما بينهما من البركات و الخيرات الواصلة إلى الموجودات و أنّما قال، جعل في السّماء، ولم يقل، خلق،

لأنّ السّماء وجدت كذلك من أوّل الخلق لا أنّها خلقت ثمّ جعل اللّه البروج فيها و بعبارةٍ أخرى جعل اللّه السّماء كذلك أي أوجدها كذلك فلو قال خلق في السّماء بروجاً كان المستفاد منه تقدّم خلق السّماء على ما فيها و ليس كذلك و هكذا قوله: **وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا** و أنّما قلنا ذلك لأنّ السّراج و القمر نفس السّماء و حاصل الكلام هو أنّ اللّه تعالى جعل فوق رؤوسنا سراجاً و قمراً منيراً و يعبّر عن جهة العلو بالسَّماء و أمّا تفصيل الكلام في هذا الباب فهو موكولٌ إلى محلّه.

وَ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا

أي جعل اللّيل و النّهار يخلف كلّ واحدٍ منهما صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فاته عمل اللّيل إستدركه بالنّهار و من فاته عمل النّهار إستدركه باللّيل فيخلف أحدهما الأخر في العمل و قيل معناه أحدهما أسود و الأخر أبيض فهما مختلفتان و قال أبو زيد معناه أحدهما يذهب و يجئ الأخر.

و قال الرّاغب في المفردات الخلفة يقال في أن يخلف كلّ واحدٍ الأخر و قيل أمره خلفة أي يأتي بعضهم خلف بعض قال تعالى: **ٱلَّذِي جَعَلَ ٱللَّيْلَ وَ ٱلنَّهَارَ خِلْفَةً** إنتهى.

و قوله: **لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** أي جعلنا اللّيل و النّهار كذلك لمن أراد أن يتفكّر و يستدل بها على أنّ لها مدّبراً و مصرّفاً أو أراد شكوراً، أي أراد أن يشكر اللّه على ما أنعم به عليه فأنّ الشّكر على النِّعمة واجبٌ عقلاً ففي هذا الكلام إشارة إلى أنّ العبد العاقل ينبغي أن يتفكّر في خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من عجائب الخلقة و قد حثَّ اللّه تعالى على ذلك في كثيرٍ من الأيات ثمّ أنّ اللّه تعالى بعد ذلك أشار إلى أوصاف عباده الصّالحين فقال:

وَ عِبادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَ إِذا خاطَبَهُمُ ٱلْجاهِلُونَ قالُوا سَلامًا

العبد يقال على أربعة أضرب:

الأوّل: عبدٌ بحكم الشّرع و هو الإنسان الّذي يصّح بيعه و إبتياعه و منه:

قال اللّه تعالى: **ٱلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ**.

قال اللّه تعالى: **عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ**(١).

و منه قوله عليه السلام: العبد و ما في يده كان لمولاه.

الثّاني: عبدٌ بالإيجاد و ذلك ليس إلاّ للّه تعالى و إيّاه قصد:

قال اللّه تعالى: **إِنْ كُلُّ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِلَّآ اٰتِى ٱلرَّحْمٰنِ عَبْدًا**(٢).

الثّالث: عبدٌ بالعبادة و الخدمة والنّاس فيه ضربان، عبدٌ للّه مخلصاً و هو المقصود:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ انّه كان عَبداً شكُوراً.**

قال اللّه تعالى: **نَزَّلَ ٱلْفُرْقانَ عَلىٰ عَبْدِهِ**(٣).

قال اللّه تعالى: **إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ**(٤).

قال اللّه تعالى: **كُونُوا عِبادًا لي.**

قال اللّه تعالى: **إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**(٥).

و أمثال ذلك من الأيات.

القسم الثّاني: عبدٌ للدّنيا و أعراضها و هو المعتكف على خدمتها و مراعاتها و إليه أشار النّبي بقوله: **تَعس عبد الدِّرهم**، تعس عبد الدّينار، و قوله عليه السلام: **النّاس عَبيد الدّنيا والدِّين لَعقٌ علىٰ ألسنَتهم** الخ و على هذا يصّح أن يقال ليس

١- النحل = ٧٥
٢- مريم = ٩٣
٣- الفرقان = ١
٤- الحجر = ٤٢
٥- الحجر = ٤٠

كلّ إنسانٍ عبداً للّه فأنّ العبد على هذا بمعنى العابد لكنّ العبد أبلغ من العابد و النّاس كلّهم عباد اللّه بل الأشياء كلّها كذلك لكن بعضها بالتّسخير و بعضها بالإختيار و جمع العبد الّذي هو مسترّقٌ عبيد و قيل عبداً، و جمع العبد الّذي هو العابد، عباد فالعبد إذا أضيف إلى اللّه أعمّ من العباد و لهذا قال تعالىٰ: **وَ مَآ أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**(١) فنَبَّه علىٰ أنّه تعالىٰ لا يظلم مَن يختّص بعبادته و من إنتسب إلى غيره من الّذين تسمّوا بعبد الشّمس و عبد اللاّت و نحو ذلك و العبوديّة في الأصل إظهار التّذلل يقال عبَّدت فلاناً إذا أذللته و إذا إتّخذته عبداً و منه قوله تعالى أن عبَّدت بني إسرائيل إذا عرفت معنى العبد و أقسامه و موارد إستعمالاته فإعلم أنّ قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ** المراد به العبد بمعنى العابد فأنّه يجمع على عِباد، بكسر العين و هو الّذي يمشي على الأرض هوناً أي على سكينةٍ و وقارٍ و هو الّذي إذا خاطبه الجاهل يقول سلاماً فأثبت اللّه تعالى له وصفين:

أحدهما: المشي على الأرض موّقراً و هو كناية عن التّواضع.

ثانيهما: قول السَّديد في جواب الجاهل الّذي خاطبه بما يكرهه و هو كناية عن حسن الخلق و مراعاة الأدب فأنّ العبوديّة الحقيقية تقتضي ذلك و الإنصاف أنّ هاتين الصِّفّتين من أحسن الصّفات و قد حَّث اللّه تعالى بالإتّصاف بهما جميع عباده و في رأسهم الأنبياء و الأوصياء قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه:

وَ لا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا(٢).

و المرح شدّة الفرح و التّوسع فيه و هو كناية عن التّكبر الّذي هو ضدّ التّواضع و أمّا في المقام فقال: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا** يعني على سكينةٍ و وقار و هو كناية عن التّواضع قيل الهون على وجهين:

١- ق = ٢٩
٢- الإسراء = ٣٧

أحدهما: تذّلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضةٌ فيمدح به و الى هذا المعنى أشار النّبي بقوله المؤمن هيّنٌ ليّنٌ.

الثّاني: أن يكون من جهة متسلّطٍ به فيذّم به و اليه الإشارة بقوله تعالى:

ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ ٱلْهُونِ(١).

و قال: **فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ ٱلْعَذابِ ٱلْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**(٢).

و ما نحن فيه من قبيل الأوّل فالمعنى أنّ عباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض متذّللاً خاضعاً و لا نعني بالتّواضع إلاّ هذا و قد مرّ الكلام في التّواضع في سورة الإسراء عند قوله تعالىٰ: **وَ لا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا**(٣) و قد وَرد في الأخبار أنّ من تواضع للّه رفعه اللّه و من تكبّر وضعه اللّه و الأخبار في مدحه كثيرة قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة لا يزيد اللّه بهنّ إلاِ خيراً، التّواضع لا يزيد اللّه به إلاّ إرتفاعاً، و ذلّ النّفس لا يزيد اللّه به إلاّ عزاً و التّعفف لا يزيد اللّه به إلاّ غنىً إنتهى.

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال أتى رسول اللّه ملك ليس له بالأرض عهد على البراق و معه قطيفة من إستبرق فقال أنّ اللّه عزّ وجلّ يخيّرك بين أن يجعلك عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً قال عليه السلام فنظر الى جبرئيل فأومأ اليه بيده أن يتواضع فقال عبداً رسولاً فقال الرّسول مع أنّه لا ينقصك ممّا عند ربّك شيئاً قال و معه مفاتيح خزائن الأرض إنتهى(٤).

و عن الصّادق عليه السلام أنّه قال لا عزّ إلاّ لمن تذّلل للّه و لا رفعة إلاّ لمن تواضع إنتهى.(٥)

و أمّا قوله: **وَ إِذا خاطَبَهُمُ ٱلْجاهِلُونَ قالُوا سَلامًا** فهو إشارة الىٰ حسن الخلق و مداراة النّاس و مراعاة الأدب نقل القرطبي عن النحاس أنّه قال ليس

١- الأنعام = ٩٣
٢- فصّلت = ١٧
٣- الاسراء = ٣٧
٤- مشكاة الأنوار ص ٢٢٥
٥- ص ٢٢٦

سلاماً من التَّسليم أنّما هو من التَّسلم تقول العرب، سلاماً، أي تسّلماً منك و قال مجاهد معنى، سلاماً، سداداً أي يقول في جواب الجاهل كلاماً يدفعه به برفقٍ و لينٍ، و قالت فرقة ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل، سلاماً بهذا اللّفظ، نقل إبن شهور آشوب في مناقبه و القرطبي في تفسيره أنّ إبراهيم بن المهدي العباسي كان شديد الإنحراف عن أميرالمؤمنين فحدَّث المأمون يوماً فقال رأيت علياًعليه السلام في النَّوم فمشيت معه حتّى جئنا قنطرة فذهب يتقدّمني لعبورها فأمسكته و قلت له أنّما أنت رجلٌ يدّعي هذا الأمر بإمرأةٍ و نحن أحقّ به منك فما رأيته بليغاً في الجواب قال المأمون و أيُّ شيءٍ قال لك قال ما زادني على أن قال سلاماً سلاماً فقال المأمون قد و اللّه أجابك أبلغ جواب قال كيف، قال المأمون عرَّفك أنّك جاهلٌ لا تجاب. قال اللّه تعالى: **وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا.**

أقول العقل أيضاً يحكم بذلك فأنّ الجاهل لا يعتنى بكلامه و من إعتنى بكلامه فهو مثله و لذلك قيل جواب الأحمق ليس إلاّ السُّكوت أو سداداً من الكلام.

وَ ٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَ قِيَامًا

قال صاحب الكشّاف البيتوتة خلاف الظُّلول و هو أن يدركك اللّيل نمت أو لم تنم و قال الفّراء بات الرّجل يبيت إذا أدركه اللّيل نام أو لم ينم و منه قول زهير:

فبتنا قياماً عند رأس جوادنا ... يزاولنا عن نفسه و نزاوله

و قوله: **سُجَّدًا**، جمع ساجد و هذه الآية عطف على ما سبق و هو قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ** و المعنى أنّ عباد الرّحمن من أوصافهم المشي على الأرض هوناً وإذاخاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً و يبيّتون لربّهم سجدّاً و قياماً و هو كناية عن عبادتهم باللّيل بدليل قوله: **سُجَّدًا وَ قِيَامًا** و أنّما أشار بالسّجود و القيام لأنّ البيتوتة أعمّ من أن تكون للعبادة أو للمعصية و بداعٍ أخر فليس مجرد البيتوتة في اللّيل ممدوحاً و أنّما الممدوح منها ما كان بقصد العبادة من الصّلاة و الدُّعاء و تلاوة القرأن و غيرها من الإذكار و الأوراد الشرعيّة و قد ورد أنأً من قرأ شيئاً من

القرأن في صلاته و أن قلّ بات ساجداً و قائماً و قيل هما الرّكعتان بعد المغرب و الرّكعتان بعد العشاء ذكره الزّمخشري في الكشّاف.

و أنّما قال لربّهم للإشارة إلى مقام الإخلاص في الذّكر و العمل و كيف كان لا شكّ أنّ القيام باللّيل للعبادة مرّغبٌ فيه شرعاً و عقلاً و الأيات و الأخبار الواردة فيه كثيرة:

قال اللّه تعالىٰ: **يَتْلُونَ ءايٰاتِ ٱللَّهِ ءانَآءَ ٱلَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ**(١).

و قال تعالى مخاطباً نبيّه: **وَ مِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْاٰخِرَةَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا**(٥) و غيرها من الأيات.

و أمّا الأخبار الواردة فى فضيلة صلاة اللّيل و تلاوة القرأن من العامّة و الخاصّة فهي كثيرة جدّاً و بعد نصّ الكتاب على المدّعى لا نحتاج إلى نقل الأخبار و لنعم ما قيل:

إمنع جفونك أن تذوق مناماً … و أذر الدّموع على الخدود سجاعاً
و إعلم بأنّك ميّتٌ و محاسبٌ … يامن على سخط الجليل أقاما
للّه قومٌ أخلصوا في حبّه … فرضى بهم و أخصّهم خدّاماً
قوم إذا جنّ الظّلام عليهم … باتوا هنالك سجّداً و قياماً
خمص اليطون من التّعفف ضمّراً … لا يعرفون سوى الحلال طعاماً

١- أل عمران = ١١٣
٢- الإسراء = ٧٩
٣- الزّمر = ٩
٤- الطّور = ٤٩
٥- الإنسان = ٢٦

و عن نوف البكالي قال رأيت أميرالمؤمنين عليه السلام ذات ليلة و قد خرج عن فراشه فنظر في النّجوم فقال لي يا نوف أراقدٌ أنت أم رامقٌ فقلت بل رامقٌ فقال عليه السلام:

قال عليه السلام: يانَوْفُ طُوبىٰ لِلزّاهِدينَ في الدّنْيا الرّاغِبين في الآخِرَة. أُولـئِكَ قَوْمٌ اتَّخذوا الأَرْضِ بسَاطاً وتُرابَها فِراشاً وَماءَها طَيِّباً والْقُرآنَ شِعَاراً والدُّعـاءَ دِثاراً ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيا قَرْضاً علىٰ مِنْهاجِ المَسيحِ يانَوْفُ إنّ داوُدَ عليه السلام قامَ في مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ منَ اللَّيْلِ فَقالَ إنّها ساعَةٌ لا يَدْعُو فِيها عَبْدٌ إلّا اسْتجِيبَ لَهُ إلّا أنْ يَكُون عَشّاراً أوْ عَرِيفاً أوْ شُرْطِياً أوْ صاحِبَ عَرْطَبَةٍ وهِـيَ الطُّـنْبُورُ أوْ صاحِبَ كُوبَةٍ وهيَ الطَّبْلُ وقدْ قِيلَ أيْضاً إنّ المَرْطَبَةَ الطَّبْلُ والكُوبَةُ الطُّنْبُورُ...

و قال عليه السلام في أوصاف المتّقين:

أَمَّا اللَّيْلَ فَصافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ دَوَاءَ دَائِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا اِلَيْهَا طَمَعاً وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ اِلَيْهَا شَوْقاً وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَاِذَا مَـرُّوا بِآيَـةٍ فِـيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا اِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِى أُصُولِ آذَانِهِمْ فَهُمْ حَانُونَ عَلَىٰ أَوْسَاطِهِمْ مُـفْتَرِشُونَ لِـجِبَاهِهِمْ وَأَكُـفِّهِمْ وَرُكَـبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ اِلَى اللّٰهِ تَعَالىٰ فِى فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْىَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ اِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَىٰ وَمَا بِالْقَومِ مِنْ مَرَضٍ وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا! قَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَـظِيمٌ لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُـتَّهِمُونَ وَمَنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إلىٰ أخر الكلام[۱].

و محصّل الكلام في تفسير الآية هو أنّ لكلّ شيءٍ علامة و عـلامة العـبوديّة الحقيقيّة هو القيام بوظائف المقررة في الشّرع و من أهمّها بعد الواجبات التّهجد

۱- نهج البلاغة خطبة المُتّقين ۹۲

باللّيل و مناجات الرّب و غيرها من الأذكار الواردة في الأخبار و لتفصيل الكلام فيه مقام أخر.

وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا

و هذا هو الوصف الرّابع من الأوصاف المذكورة في هذه الأيات أي من جملة عباد الرّحمن **وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ** و فيه إشارة إلى أنّهم مع طاعتهم و عبادتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب اللّه قال إبن عبّاس يقولون ذلك في سجودهم و قيامهم.

و قوله: **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا**، أي لازماً دائماً غير مفارق و منه سمّي الغريم لملازمته و قال الزّجاج الغرام أشّد العذاب و قال إبن زيد الغرام الشّر.

و قال أبو عبيدة الهلاك و المعنى واحد و في هذه الآية إشارة إلى خوفهم من عذاب اللّه و الخوف من أعلى المقامات في طريق السّلوك لأنّ الخائف يترك المحرّمات و يفعل الواجبات بقدر الإستطاعة فالخوف ممدوحٌ لأنّه مقدمة للطّاعة و الإنقياد و ترك العصيان ففي الحقيقة هو من قبيل ذكر الملزوم و إرادة اللاّزم و ستأتي الإشارة إلى جهنّم و كيفيّة العذاب فيها في موضعه.

قال الحسن كلّ غريم يفارق غريمه إلاّ غريم جهنّم و في قوله هذا إشارة إلى اللّزوم و منه قول الشّاعر:

و يوم اليسار و يوم الجفار ... كانا عذاباً و كانا غراماً

و قال الأعشى:

إن يعاقب يكن غراماً ... و إن يعط جزيلاً فأنّه لا يبالي

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا

أي أنّ جهنّم كذلك و قوله سائت يحتمل أن يكون بمعنى بئست و المخصوص بالذّم محذوف و في سائت ضميرٌ مبهم و يتّعين أن يكون مستّقراً و

مقاماً بتمييز و التّقدير سائت مستّقراً و مقاماً هي و هذا المخصوص بالذّم هو رابط الجملة الواقعة خبراً، لأنّ، في قوله: **إِنَّهٰا**، و يجوز أن يكون سائت بمعنى أحزنت فيكون المفعول محذوفاً أي سائتهم و الفاعل ضمير جهنّم و جاز في مستّقراً و مقاماً، أن يكونا تمييزين و أن يكونا حالين قد عطف أحدهما على الأخر و يظهر من الكلام أنّ قوله: **وَ مُقٰامًا**، معطوفٌ على سبيل التّوكيد لأنّ الإستقرار و الإقامة كأنّهما مترادفان و قيل المستّقر للعصاة من أهل الإيمان فأنّهم يستّقرون فيها و لا يقيمون و الإقامة للكفّار و قرأت فرقةٌ و مقاماً بفتح الميم أي مكان قيام و الجمهور بالضَّم أي مكان إقامة.

وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كٰانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰامًا

هذه الآية أيضاً معطوفة علىٰ قوله: **وَ عِبٰادُ ٱلرَّحْمٰنِ** أي و من جملة أوصافهم أنّهم لم يسرفوا في أموالهم و لم يقتروا، لاشكّ أنّ الإسراف و الإقتار مذمومان عقلاً و شرعاً، أمّا عقلاً فلخروجهما عن حدِّ الإعتدال و هو ظلمٌ و الظُّلم محكومٌ عقلاً أمّا خروجهما عن الإعتدال فهو واضح و أمّا أنّه ظلمٌ لأنّه من قبيل وضع الشّئ في غير محلّه و لا نعني بالظّلم إلاّ هذا سواء كان في الأموال أم كان في غيرها و لا شكّ أنّ قبح الظُّلم من المستّقلات العقليّة، و أمّا شرعاً فلدلالة الأيات و الأخبار على ذمهما.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اٰتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصٰادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِاٰيٰاتِ رَبِّهِ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَأْكُلُوهٰآ إِسْرافًا وَ بِدارًا**(٤).

١- الأنعام = ١٤١ ٢- الأعراف = ٣١
٣- طه = ١٢٧ ٤- النّساء = ۶

قال اللّه تعالىٰ: **كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**[١] و غيرها من الأيات.

و لا نحتاج إلى نقل الأخبار مع وجود الأيات و تصريحها به و مع ذلك نشير إلى شطرٍ منها تكميلاً للبحث قريباً في موضعه.

و أمّا الإقتار، قال الرّاغب في المفردات القتر تقليل النّفقة و هو بأزاء الإسراف و كلاهما مذمومان يقال رجلٌ قتور و مقتر و يقال قترت الشّئ و أقترته و قتّرته أي قلّلته و أصل ذلك من القتار و القتر و هو الدّخان السّاطع من الشّواء و العود و نحوهما فكأنّ المقتر و المقتر يتناول من الشّئ قتاره إذا عرفت معناه في اللّغة فتقول هو مذمومٌ عقلاً و شرعاً كالإسارف فما يدلّ على قبح الإسراف عقلاً و شرعاً يدلّ على قبح الإقتار أيضاً من غير فرقٍ بينهما من هذه الجهة و ذلك لأنّ الإقتار مقابل الإسراف و كلاهما خارجان عن حدّ الإعتدال و حيث أنّ الملاك في ذمّ الإسراف هو خروجه عن حدّ الإعتدال و هذا الملاك بعينه وجود في الإقتار لأنّه أيضاً خارج عن الإعتدال فهو أيضاً مذمومٌ لوحدة الملاك فيهما إلاّ أنّ الخروج عن حدّ الإعتدال في جانب الإسراف بالزّيادة عليه و في جانب الإقتار بسبب النّقص عن حدّ الإعتدال و من المعلوم أنّ الزّيادة و النقص كلاهما مذمومان.

و أمّا شرعاً فنقول إذا كان القتر معناها تقليل النّفقة كما عرفت فهو يرجع إلى البخل و لا شكّ في قبحه فالأخبار الدّالة على ذمّ البخل دالّة على ذمّ الإقتار أيضاً.

ما رواه في البحار بأسناده عم محمّد بن عمرو بن سعيد عن بعض أصحابه قال سمعت العبّاسي يقول إستأذنت الرّضا عليه السلام في النّفقة على العيال فقال عليه السلام: بين المكروهين قال قلت جعلت فداك لا واللّه ما أعرف المكروهين فقال عليه السلام لي يرحمك اللّه أما تعرف أنّ

١- غافر = ٣٤

اللّه عزّ وجلّ كره الإسراف وكره الإقتار فقال: وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوامًا إنتهىٰ.

و عن دعوات الرّاوندي قال الصّادق عليه السلام: أربعة لا يستجاب لهم دعاء رجل جالسٌ في بيته يقول يا ربّ أرزقني فيقول اللّه ألم أمرك بالطّلب، و رجلٌ كانت له إمرأة فدعا عليها فيقول ألم أجعل أمرها بيدك و رجلٌ كان له مال فأفسده فيقول يا ربّ أرزقني فيقول له ألم أمرك بالإقتصاد ألم أمرك بالإصلاح ثمّ قرأ: وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوامًا و رجلٌ كان له مال فأدانه بغير بيّنةٍ فيقول ألم أمرك بالشّهادة إنتهى.

و بأسناده عن إبراهيم بن ميمون قال سمعت أبا عبد اللّه يقول: ضمنت لمن إقتصد أن لا يفتقر إنتهى.

و بأسناده عن داود الرّقي عن أبي عبد اللّه قال عليه السلام: أنّ القصد إمروٌ يحبّه اللّه عزّ و جلّ و أنّ السّرف يبغضه حتّى طرحك النّواة فأنّها تصلح لشيءٍ و حتّى حبّك فضل شرابك إنتهى.

و بأسناده عن أيّوب بن الحرّ قال سمعت رجلاً يقول لأبي عبد اللّه عليه السلام: بلغني أنّ الإقتصاد و التّدبير في المعيشة نصف الكسب فقال أبو عبد اللّه عليه السلام لا بل هو الكسب كلّه و من الدّين التّدبير في المعيشة إنتهى(١).

و الأخبار في الباب كثيرة جدّاً و الأصل في المقام هو أنّ الإسلام دين العدل و الإقتصاد في جميع الشّئون فأنّ قوله تعالى و كان بين ذلك قواماً إشارة إلى ما ذكرناه و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**

١- بحار الأنوار باب الإقتصاد والإسراف والتّبذير والتّقتير الجزء الثّاني من كتاب الإيمان والكُفر ومكارم الأخلاق ص ١٩٩ ط كمباني قديم ج ١٥

لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ[١] و لا يختّص الإقتصاد بالأموال فقط بل هو مطلوبٌ في العبادات و حتّى في الأكل و الشُّرب و بالجملة في جميع الشّئون.

فقد روي في البحار عن الحلبي بأسناده قال أبو جعفر عليه السلام لأبي عبد اللّه يابنّي عليك بالحسنة بين السَّيئتين تمحوها قال و كيف ذلك ياأبه قال عليه السلام: مثل قول اللّه وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاٰتِكَ وَ لا تُخَافِتْ بِهَا وَ ٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا[٢] **و مثل قوله: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَ لا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ**[٣] **و مثل قوله: وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا فأسرفوا سيّئة و أقتروا سيّئة و كان بين ذلك قواماً حسنة فعليك بالحسنة بين السَّيئتين إنتهى**[٤].

أقول و هذا الحديث يكفينا في المقام لأنّ الإمام عليه السلام جعل الإسراف سيّئة و الإقتار سيّئة وكان بين ذلك قواماً حسنة و لتفصيل الكلام فيه مقام أخر و فيما ذكرناه كفاية لمن كان له طلبٌ.

وَ ٱلَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللّٰهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا

هذه الآية أيضاً معطوفة على ما سبق أي و من أوصافهم أنّهم لا يدعون مع اللّه إلٰهاً أخر أي يوّحدونه ولا يشركون به شيئاً و هذا هو الأصل في مقام العبوديّة فأنّ المشرك لا يكون من عباد الرّحمن بل هو من عباد الأوثان و الأصنام و السّر في ذلك أنّ العبادة فرعٌ على المعرفة فمن لم يعرف اللّه بالوحدانيّة و أنّه لا شريك له في الملك كيف يعدّ من عباد الرّحمن.

و أمّا قوله: **وَ لا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللّٰهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ** ففيه إشارة إلى أنّ قتل النّفس بغير حقٍّ ينافي العبوديّة و القاتل كذلك يعدّ من الفسّاق و أنّما

١- البقرة = ١١٣
٢- الاسراء = ١١٠
٣- الاسراء = ٢٩
٤- ص ١٧٣

قال إلاّ بالحقّ لأنّ القتل كذلك أي بالحقّ، ممدوحٌ مرّغبٌ فيه لقوله: **وَ لَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ**(١) بل تركه ينافي الإيمان و العبوديّة و هذا أيضاً ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: **وَ لَا يَزْنُونَ**، فهو أيضاً ثابت في الشّريعة فأنّ الزّناء من المحرّمات التّي لا خلاف فيها و قوله: **أَثَامًا**، أي عذاباً فسمّاه إثاماً لما كان منه و قيل معنى يلق إثاماً أي يجعله ذلك على إرتكاب الآثام و ذلك لإستدعاء الأمور الصّغيرة إلى الكبيرة و المشهور عند أهل اللّغة أنّ الإثام العقاب قال الشّاعر:

جزى اللّه إبن عروة حيث أمسىٰ عقوقاً و العقوق له أثامٌ.

و قيل إثام وادٍ في جهنّم جعله اللّه عقاباً للكفرة و قال أبو مسلم الأثام الإثم و معناه يلق جزاء الأثام فأطلق إسم الشّئ على جزاءه إنتهى.

أقول و في ذكر قتل النّفس و الزّناء بعد الشّرك باللّه إشارة إلى أنّهما بعد الشّرك باللّه من أعظم الذّنوب و هو كذلك ألا ترىٰ إلى قوله تعالى حيث قال:

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَ غَضِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا(٢).

و قال: **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**(٣).

و قد تكلّمنا في قتل النّفس و ما يترّتب عليه من الأثار في الدّنيا و الأخرة عند قوله تعالىٰ:

وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ(٤).

و أمّا الزّناء فهو بعد الشّرك والقتل بغير حقٍّ من أعظم الذّنوب و معناه وطئ المرأة بغير عقدٍ شرّعي قال اللّه تعالىٰ:

وَ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَآءَ سَبِيلًا(٥).

١- البقرة = ١٧٩
٢- النّساء = ٩٣
٣- المائدة = ٣٢
٤- الأنعام = ١٥١
٥- الإسراء = ٣٢

و قد مرّ الكلام فيه بما لا مزيد عليه.

يُضٰاعَفْ لَهُ ٱلْعَذٰابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ يَخْلُدْ فيهِ مُهٰانًا

أي و من يفعل كلّ واحدٍ من الشّرك و القتل و الزّناء يضاعف له العذاب يوم القيامة قيل في كثرة الأجزاء و قيل يضاعف عذابه على عذاب الدّنيا، لا أنّه يتضاعف إستحقاقه لأنّه تعالى لا يعاقب بأكثر من الإستحقاق لأنّ ذلك ظلمٌ يتعالى اللّه عن ذلك، و يخلّد فيها مهاناً، أي يخلّد في العذاب مهاناً أي مستّخفاً به أعاذنا اللّه منه بمحمّدٍ و أله.

إِلّٰا مَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صٰالِحًا فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللّٰهُ سَيِّئٰاتِهِمْ حَسَنٰاتٍ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحيمًا

لمّا حكم اللّه في الآية السّابقة بتضاعيف العذاب يوم القيامة و الخلود في النّار مع الإستخفاف لهؤلاء العصاة إستثنى من ذلك من تاب أي رجع عمّا فعل من الذّنب و أمن باللّه و عمل صالحاً بعد ذلك ثمّ فرّع عليه تبديل السّيئات بالحسنات.

فنقول إختلفوا في الإستثناء فقال بعضهم أنّه متّصلٌ من الجنس لأنّ التّائبين هم العصاة و قيل أنّه منقطعٌ لأنّ المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب فيصير التّقدير إلاّ من تاب و أمن و عمل صالحاً فلا يضاعف له العذاب و لا يلزم من إنتفاء التّضعيف إنتفاء العذاب غير المضّعف و على هذا فالأولى أن يكون الإستثناء منقطعاً أي لكن من تاب و أمن و عمل صالحاً فأولئك يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات و إذا كان كذلك فلا يلقى عذباً ألبتّة.

أقول التّحقيق أنّ الإستثناء متّصل و ذلك لأنّ المحكوم عليه جنس العذاب إلاّ أنّ العذاب له مراتب متفاوتة و شدّةً و ضعفاً فالعذاب من حيث هو واحد و إذا حكمنا برفع العذاب بدليل الإستثناء حكمنا برفعه بالكلّية و أن شئت قلت رفعنا

جنس العذاب و هو أعمّ من المضاعف و غيره أي لا عذاب للتّائب أصلاً هذا كلّه في معنى الإستثناء و أمّا التّوبة فهي الرّجوع عن الذّنب يقال تاب إذا رجع و قد حثَّ اللّه تعالى عباده العاصين إلى التّوبة في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوٓءًا بِجَهٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِۦ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**(١).

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **التّائب مِن الذّنب كَمَن لا ذَنب له** و قد تكلّمنا فيها فيما مضىٰ من الأيات ونزيدك هنا ما قاله بعض المحقّقين فيها.

قال التّوب ترك الذّنب على أجمل الوجوه و هو أبلغ وجوه الإعتذار فأنّ الإعتذار على ثلاثة أوجه:

إمّا أن يقول المعتذر لم أفعل أو يقول فعلت لأجل كذا أو فعلت و أسأت و قد أقلعت و لا رابع لذلك و هذا الأخير هو التّوبة.

و التّوبة في الشّرع ترك الذّنب لقبحه و النّدم على ما فرَّط منه و العزيمة على ترك المعاودة و تدارك ما أمكنه أن يتّدارك من الأعمال بالإعادة فمتى إجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التّوبة إنتهى.

و المراد بقبول التّوبة إسقاط العقاب بها و هو ممّا أجمع عليه علماء الإسلام و أنّما الخلاف في أنّه هل يجب على اللّه القبول حتّى لو عاقب بها بعد التّوبة كان ظالماً، أو هو تفضّلٌ منه و كرمٌ لعباده و رحمة لهم، فالمعتزلة على الأوّل و الأشاعرة على الثّاني و إليه ذهب الشّيخ أبو جعفر الطّوسي قدّس سرّه في كتاب الإقتصاد و العلاّمة قدّس سرّه في بعض كتبه الكلاميّة و توّقف الطّوسي قدّس سرّه في التّجريد و هل يجوز التّوبة من بعضٍ دون بعضٍ فالأكثر على الجواز، و التّاء في التّوبة قيل، لتأنيث المصدر و قيل للوحدة، كضربة ثمّ أنّ التّوبة قو يكون للّه تعالى و قد يكون بداعٍ آخر كما إذا تاب شارب الخمر بداعي الصّحة كما إذا أمره الطّبيب

١- الأنعام = ٥٤

بتركه و ما إذا ترك السّرقة و غيرها من المعاصي لأجل الخوف من السُّلطان أو لغيره من الأغراض فأنّ هذا لا يسمّى تائباً في الشّريعة و أنّما التّائب من تاب و رجع عمّا فعل قربة الى اللّه و بداعي أمره و لذلك يكون الإيمان باللّه مأخوذاً في مفهوم التّوبة بحسب الشّرع و لأجل هذه الدّقيقة ذكر الإيمان بعد التّوبة و قال: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ** مشعراً بأن المكلّف لو تاب بدون الإيمان لا فائدة في توبته و حيث أنّ الإيمان لا يتّحقق في الخارج إلاّ بصورة العمل الصّالح قال: **وَ عَمِلَ صَالِحًا**، إذ لو لم يعمل الصّالحات بعد التّوبة كان المستهزء باللّه فالتّائب الحقيقي من تاب و آمن و عمل صالحاً و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ** فالفاء للتّضريع أي تبديل السيّئات بالحسنات موقوف على تحقّق التّوبة و الإيمان و العمل الصّالح:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰٓ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ ءَامَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ**[٤] و غيرها من الأيات.

و محصّل الكلام أنّ تبديل السيّئات بالحسنات يتوقف على التّوبة و الإيمان والعمل الصّالح.

و قوله: **وَ كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** إشارة الى أنّ اللّه تعالى هو الّذي يغفر الذُّنوب جميعاً و هو واضح لا خفاء فيه و الى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بعد هذه

١- الفرقان = ٧١
٢- القصص = ٦٧
٣- طه = ٨٢
٤- مريم = ٦٠

الآية بقوله: **وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا** أي من تاب من معاصيه و أقلع عنها و ندم عليها و أضاف الى ذلك الأعمال الصّالحة فأنّه يتوب الى اللّه متاباً أي يرجع الى اللّه مرجعاً عظيماً جميلاً.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه لا يقال من قام فأنّه يقوم، فكيف قال من تاب فأنّه يتوب، فقال إبن عبّاس المعنى من آمن من أهل مكّة و هاجر و لم يكن قتل و زنى بل عمل صالحاً و أدّىٰ الفرائض **فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا**، أي فأنّي قدمّتهم و فضّلتهم على من قاتل النّبي و إستّحل المحارم.

و قال القفال يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ولهذا قال: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ**، ثمّ عطف عليه من تاب من المسلمين و أتبع توبته عملاً صالحاً فله حكم التّائبين أيضاً، و قيل أي من تاب بلسانه ولم يحقّق ذلك بفعله فليست تلك التّوبة نافعة بل من تاب و عمل صالحاً فحقّق توبته بالأعمال الصّالحة فهو الّذي تاب إلى اللّه متاباً أي تاب حقّ التّوبة و هي النّصوح و لذا أكدّ بالمصدر فمتاباً، مصدر معناه التّأكيد كقوله: **وَ كَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**[1] أي فأنّه يتوب إلىٰ اللّه حقّاً فيقبل اللّه توبته حقّاً إنتهى كلامه.

أقول أمّا ما ذكره من أنّه لا يقال من قام فأنّه يقوم فكيف قال من تاب فأنّه يتوب.

ثمّ نقل عن إبن عبّاس المعنى من أمن من أهل مكّة إلى أخر ما نقله عنه، ففيه:

أمّا أوّلاً: أنّ اللّه تعالى لم يقل من تاب فأنّه يتوب، بل قال: **مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا**، و الفرق واضح و هذا كما تقول من قام للّه تعالى للصّلاة و الجهاد مثلاً فأنّه يقوم حقّاً أي أنّ القيام إذا كان للّه تعالى فهو القيام حقّاً و هذا من أفصح الكلام و بعبارةٍ أخرى ليس كلّ قيام ممدوحاً بل الممدوح هو القيام للّه و في المقام أيضاً نقول معنى الكلام أنّ التّوبة مع قطه النّظر

١- النّساء = ١٦٤

عن العمل الصّالح لا خير فيها بل الخير كلّه في التّوبة مع العمل و أمّا ما نقله عن إبن عبّاس فهو بمعزلٍ عن الآية فأنّ الآية بصدد بيان التّوبة و كيفيّتها في حقّ جميع النّاس فتخصيصها بما ذكر يحتاج إلى دليلٍ و حاصل الكلام أنّ اللّه تعالى قسَّم التَّوبة إلى قسمين:

صوّري، و حقيقّي، ففي هذه الآية أشار إلى الثّاني و أنّ القسم الأوّل لا خير فيه فلا ينفع صاحبه هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم.

وَ ٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا

ثمّ عاد تعالى إلى وصف المؤمنين من عباده **فالواو** للعطف و المعنى أنّ عباد الرّحمن لا يشهدون الزُّور و هو تمويه الباطل بما يوهم أنّه حقّ.

و قال مجاهد الزُّور هاهنا الكذب و قيل هو الشِّرك و قى هو الغناء وقيل هو أعياد أهل الذّمة و الشّهود الحضور و المعنى أنّ عباد الرّحمن الّذين لا يحضرون الزّور.

قال في المفردات قيل للكذب زورٌ لكونه مائلاً عن جهته.

و قال في المجمع في قوله: **وَ ٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ** قيل يعني الشّرك و قيل أعياد اليهود و النّصارىٰ.

و في قوله: **وَ ٱجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ** الزُّور الكذب و الباطل و الشّبهة و روي أنّه يدخل في الزُّور الغناء و سائر الأقوال الملهية لأنّ صدق القول من أعظم الحرمات إذا عرفت هذا فقوله تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ** معناه لا يحضرونه و لا يكون بحيث يذّركونه بشئٍ من حواسّهم الخمس، البصر و السّمع و الأنف و الفم و البشرة و من لا يشهد الزُّور فهو الّذي لا يشهد به ولا يحضره لأنّه لو شهده لكان قد حضره فهو أعمّ في الفائدة من أن لا يشهد به و الزُّور تمويه الباطل بما يوهم أنّه حقّ.

و أمّا قوله: **وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً** قيل في معناه مرُّوا من جملة الكرماء الّذين لا يرضون باللّغو لأنّهم يجلُّون عن الإختلاط بأهله و الدّخول فيه فهذه صفة الكرام و قيل مرورهم كراماً كمرورهم بمن يسبّهم فيصفحون عنه و كمرروهم بمن يستعين بهم على حقّ فيعينونه، وقيل هم الّذين إذا أرادوا ذكر الفرج كنّوا عنه و اللّغو الفعل الّذي لا فائدة فيه و ليس معناه أنّه قبيح لأنّ فعل السّاهي لغوٌ و هو ليس بحسنٍ و لا قبيح عند قومٍ ولهذا يقال الكلمة الّتي لا تفيد لغو، هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قد ذكر المفسّرون هذه الأقوال في تفاسيرهم و الجامع بين الأقوال أن نقول كلّ المعاصي لغوٌ و قوله: **كِراماً**، معناه معرضين منكرين لا يرضونه و لا يمالئون عليه و لا يجالسون أهله أي مرُّوا مرَّ الكرام الّذين لا يدخلون في الباطل يقال تكَّرم فلان عمّا يشينه أي تنَّزه و أكرم نفسه عنه.

و نقل القرطبي في تفسيره أنّ عبد اللّه بن مسعود سمع غناءً فأسرع و ذهب فبلغ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال لقد أصبح إبن أمّ عبد كريماً، و قيل من المرور باللّغو كريماً أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر.

وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً

أقول هذا وصفٌ أخر لعباد الرّحمن و هو من أحسن الأوصاف و أنفعها يوم القيامة قال أكثر المفسّرين المراد بالأيات الأيات النّازلة في القرأن أي إذا قرئ عليهم القرأن ذكّروا أخرتهم و معادهم ولم يتغافلوا حتّى يكونوا بمنزلة من لا يسمع قاله القرطبي.

و قال الزّمخشري معناه أنّهم إذا ذكّروا بها أكبُّوا عليها حرصاً على إستماعها و أقبلوا على المذّكر بها و هم في إكبابهم عليها سامعون بأذانٍ واعيةٍ مبصرون بعيون راعية لا كالّذين يذّكرون بها فتراهم مكبّين عليها مقبلين على من يذّكر بها مظهرين الحرص الشّديد على إستماعها و هم كالصّم العميان حيث لا يعونها و لا يتّبصرون ما فيها كالمنافقين و أشباههم إنتهى كلامه.

و قال القرطبي في قوله: **لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمًّا وَ عُمْيٰانًا** ليس ثمّ خروا كما يقال قعد يبكي و أن كان غير قاعدٍ، قاله الطّبري و إختاره و قال إبن عطيّة و هو أن يخرُّوا صمّاً و عمياناً هي صفة الكفّار و هي عبارة عن إعراضهم.

أقول الحقّ أنّ الأيات لا تنحصر بالأيات القرأنيّة بل هي أعمّ من التّكوينات و التّشريعيات و المعنى أنّهم إذا ذكّروا بأدلّة اللّه التّي نصبها لهم نظروا فيها و فكروا في مقتضاها و لم يكونوا كالكفّار في ترك التّدبر لها حتّى كأنّهم صمّ و عميان عنها و أنّما قلنا ذلك لأنّ الآية هي العلامة فكلّ موجودٍ يستدّل به على خالقه يسمّى بها سواء كان من مظهرٌ كامل لخالقه ذاتاً وصفةً.

و أمّا قوله: **لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهٰا صُمًّا وَ عُمْيٰانًا** فمعنى، خرَّ، سقط سقوطاً يسمّع منه خرير و الخرير يقال لصوت الماء و الرّيح و غير ذلك ممّا يسقط من علّوٍ فإستعمال الخَّر تنبيهٌ على إجتماع أمرين: السّقوط، و حصول الصّوت منهم بالتّسبيح:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسٰى صَعِقًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَكَأَنَّمٰا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِذٰا تُتْلٰى عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُ ٱلرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكِيًّا**(٣) و الأيات كثيرة.

إن قلت بالمراد بالسُّقوط في المقام.

قلت سقوط البشر عن الإنسانيّة إلى الحيوانيّة في عدم التَّعقل فأنّ الّذي يسمع الأيات و لا يتّدبر فيها سقط عن مقامه اللاّئق به فهو من مصاديق:

١- الأعراف = ١٤٣ ٢- الحجّ = ٣١

٣- مريم = ٥٨

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهآ أُولٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**[1].

و محصّل الكلام في الآية أنّ من أوصاف المؤمنين المتّقين أنّه إذا ذكّروا بأيات اللّه لم يخرّوا عليها أي لم يسقطوا صمّاً و عمياناً فأنّ الصّم و العمي أعني به عدم التّنبه و التفكّر في أيات اللّه عين السّقوط عن مقام الإنسانيّة.

وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ ٱجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً

هذا وصفٌ أخر لهم و هو أنّهم يقولون في مقام الدُّعاء ربّنا هب لنا من أزواجنا و ذريّاتنا قرّة أعين بأن نراهم مطيعين للّه و إجعلنا للمتّقين ممَّن يقتدىٰ بأفعاله في الطّاعات و العبادات و الأقوال و في قراءة أهل البيت و إجعل لنا من المتّقين إماماً.

أقول البحث حول الآية في مقامين:

المقام الأول: في قوله **رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ** و الأمر فيه واضح فأنّه دعاءٌ للولد و قد أمرنا بذلك لأنّ الولد الصّالح مطلوبٌ لكلّ عاقل فضلاٍعن المؤمن و قد ورد في الأخبار أنّه إذا مات إبن أدم إنقطع عمله إلاّ من ثلاث إلى أن قال عليه السلام أو ولدٌ صالح يدعو له و قوله قرّة أعين فهو كناية عن السُّرور و الفرح و هو مأخوذٌ من القرّ و هو البرد يقال دمع السُّرور و دوع الحزن سخنٌ و يقال أقرَّ اللّه عينيك و أسخن اللّه عين العدّو إلى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله:

فأمّا عيون العاشقين فأسخنت   و أمّا عيون الشّاحتين فقرّت

و قيل هو مأخوذٌ من القرار أي يقرّ النّظر به و لا ينظر إلىٰ غيره و قال أبو عمرو و قرّة العين النّوم أي أمناً لأنّ الأمن لا يأتي مع الخوف حكاه القفال و قرّة العين

١- الاعراف = ١٧٩

فيمن ذكروا رؤيتهم مطيعين للّه قاله إبن عبّاس قيل كانوا في أوّل الإسلام يهتدي الأب و الإبن كافر و الزّوج و الزّوجة كافرة و كانت قرّة عيونهم في إيمان أجنابهم و قيل قرّة عين الولد أن تراه يكتب الفقه، و الظّاهر أنّهم دعوا بذلك ليحابُّوا في الدّنيا فيَسروا بهم.

أقول و من الظّاهر أنّها لإبتداء الغاية و المعنى هب لنا من جهة الأولاد بل تقُّربه عيوننا من طاعةٍ و صلاح و يجوز أن تكون، من، للبيان كأنّه قيل هب لنا قرّة أعين ثمّ بنيت القُّرة و فسّرت بقوله: **مِنْ أَزْوٰاجِنٰا وَ ذُرِّيّٰاتِنٰا**، و هذا ليس بشئٍ لأنّ، من، الّتي لبيان، الجنس لابّد أن تكون بعد المبيَّن ثمّ أتى، بمن، البيّانية و ليس كذلك في المقام لأنّ المبيَّن تأخُّر، عن المبيِّن و محصّل الكلام أنّهم أي عباد الرّحمن يدعون اللّه و يطلبون منه أولاداً كذلك و من المعلوم أنّ الولد الصّالح من أحسن المواهب.

المقام الثّانى: في قوله **وَ ٱجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰامًا**.

و قال الطّبرسي في المجمع، أي إجعلنا ممّن يقتدي بنا المتّقون طلبوا العزّ بالتّقوى لا بالدُّنيا، و قيل معناه إجعلنا نأتّم بمن قبلنا حتّى يأتّم أي يقتدي بنا من بعدنا عن مجاهد و على هذا فيجوز أن يكون اللاّم في اللّفظ في المتّقين و في المعنى في، نا، و التّقدير و إجعل المتّقين لنا إماماً و مثله قول الشّاعر:

كأنّنا رعن قف يرفع الألاء، أي يرفعه الأل إنتهى.

و قال الشّيخ في التّبيان أي يسألون اللّه تعالى أن يجعلهم ممّن يقتدى بأفعالهم الطّاعات و في قراءة أهل البيت، و إجعل لنا من المتّقين إماماً إنتهىٰ.

و قال الزّمخشري في الكشّاف بعد أن حمل الآية على ظاهرها، ما هذا لفظه و عن بعضهم في الآية ما يدلّ على أنّ الرّئاسة في الدّين يجب أن تطلب و يرغب فيها و قيل نزلت هذه الآية في العشرة المبشّرين بالجنّة إنتهى كلامه.

و قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية بأسناده عن إبن عبّاس أنّه قال: **وَ ٱجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰامًا** أئمّة التّقوى و لأهله يقتدي بنا.

و قال أخرون بل معناه و إجعلنا للمتّقين إماماً فأتّم بهم و يأتّم بنا من بعدنا و ساق الكلام إلى أن قال و أولى القولين في ذلك بالصّواب قول من قال معناه و إجعلنا للمتّقين الّذين يتّقون معاصيك و يخافون عقابك إماماً يأتّمون بنا في الخيرات لأنّهم أنّما سألوا ربّهم أن يجعلهم للمتّقين أئمّة و لم يسألوه أن يجعل المتّقين لهم إماماً إنتهى.

أقول ما ذكروه في تفسير الكلام لا يستقيم و ذلك لأنّ الكلام في هذه الأيات في أوصاف المؤمنين المتّقين الّذين عبّر عنهم بعباد الرّحمن و على هذا فقوله: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**، هو كلام هؤلاء الأخيار الّذين وصفه اللّه تعالى في هذه الأيات من قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا** إلى قوله: **إِمَامًا**، فأن قلنا أنّ قوله: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**، هو قول هؤلاء العباد يلزم منه كون المتّقين إماماً لأمثالهم من المتّقين و لازم ذلك هو إقتداء المتّقين بالمتّقين.

إبن عبّاس أنّه قال: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** أئّمة التّقوى و لأهله يقتدي بنا و قال آخرون بل معناه و أجعلنا للمتّقين إماماً فأتّم بهم و يأتم بنا من بعدنا و ساق الكلام الى أن قال و أولى القولين في ذلك بالصّواب قول من قال معناه و أجعلنا للمتّقين الّذين يتّقون معاصيك و يخافون عقابك إماماً يأتّمون بنا في الخيرات لأنّهم أنّما سألوا ربّهم أن يجعلهم للمتّقين أئّمة و لم يسألوه أن يجعل المتّقين لهم إماماً إنتهى.

أقول ما ذكروه في تفسير الكلام لا يستقيم و ذلك لأنّ الكلام في هذه الأيات في أوصاف المؤمنين المتّقين الّذين عبّر عنهم بعباد الرّحمن و على هذا فقوله: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**، هو كلام هؤلاء الأخيار الّذين وصفهم اللّه تعالى في هذه الأيات من قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا** إلى قوله: **إِمَامًا** فأن قلنا أنّ قوله: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**، هو قول هؤلاء العباد يلزم منه كون المتّقين إماماً لأمثالهم من المتّقين و لازم ذلك هو

إقتداء المتّقين بالمتّقين كما هو معنى الإمام و بعبارةٍ أخرى يلزم تساوي الإمام و المأموم في التّقوى و قد ثبت أنّ التّرجح بلا مرّجح غير معقول فكيف يكون أحدهما إماماً و الأخر مأموماً فقول الطّبري لا معنى له اللّهم إلاّ يقول قائل أنّ السّائلين لمقام الإمامة درجاتهم في التَّقوى أفضل و أعلى ممّن يأتّهم بهم فالإمام أفضل من المأموم و هذا الإحتمال و أن كان حقّاً إلاّ أنّ ظاهر الآية لا يساعده لأنّ المفروض أنّ السّائلين هم عباد الرّحمن الموصوفين بالأوصاف المذكورة في غيرهم منهم هذا إذا قلنا أنّ السّائلين بعض عباد الرّحمن لا جميعهم و أنت ترى أنّ الآية لا تدلّ على ذلك بل تدلّ على أنّ عباد الرّحمن جميعاً سألوا ذلك و محصّل الإشكال أنّه كيف يعقّل أن يكون عباد الرّحمن إماماً لأنفسهم فكأنّه قيل و أجعلنا على أنفسنا إماماً، و أمّا ما حكاه الزّمخشري من أنّ الآية تدلّ على أنّ الرّئاسة في الدّين يجب أن تطلب أو أنّ الآية نزلت في العشرة المبشّرة فهو شططٌ من الكلام إذ لم يدلّ دليل من العقل و الشّرع على وجوب طلب الرّئاسة في الدّين كما لم يدلّ دليل على نزولها في العشرة المبشّرة بل الدّليل ثابتٌ على خلافه أمّا الأوّل فواضح و أمّا الثّاني و هو نزولها في العشرة المبشّرة فأوّل الكلام فيه أنّ أصل الحديث مجعولٌ و ثانياً على فرض صحّته كما هو كذلك على مذهب الزّمخشري و أمثاله يلزم منه أن تكون الأيات المذكورة من قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ** الىٰ قوله: **إِمَامًا**، كلّها في العشرة المبشّرة و لا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم لأنّ الأوصاف المذكورة في الأيات بل و لا واحد منها لم توجد في العشرة و هل يقول عاقل أنّ سعداً و طلحة و إبن عوف و الزّبير بل و عثمان من عباد الرّحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً الى آخر الأوصاف إذا عرفت هذا و علمت أنّ الإشكال باقٍ بحاله و أنّه لا يعقل أن يقول عباد الرّحمن إماماً فلا بدّ لنا في حلّ الإشكال من أحد أمرين على سبيل منع الخلّو.

أحدهما: الأخذ بظاهر الآية من غير تصرّفٍ فيها و على هذا فنقول لا شكّ أنّ الأوصاف المذكورة في الأيات الىٰ قوله: **وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ثَبتت لعباد

الرّحمن و مقام العبوديّة الكاملة فوق التّقوى و أن شئت قلت العبوديّة أعلى مراتب التّقوى فصّح أن يقول العبد الكامل و أجعلنا للمتّقين إماماً كما كان الرّسول إماماً لغيره من المتّقين و على هذا فالآية نزلت مشعرةً بأنّ العبد الموصوف بما ذكر في الأيات إمامٌ لأهل التّقوى و الإيمان.

ثانيهما: أن نقول بأنّ قوله: وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، من المقلوب، و الأصل في و أجعلنا للمتّقين إماماً، و أجعل لنا إماماً و به قال مجاهد و يؤيّده من أهل البيت عليهم السّلام.

ففي تفسير علّي بن إبراهيم قال و قريَ عند أبي عبد اللّه الّذين يقولون ربّنا هب لنا الىٰ قوله: إِمَامًا، فقال عليه السلام قد سألوا اللّه عظيماً أن يجعلهم للمتّقين أئمة فقيل له كيف هذا يا بن رسول اللّه قال عليه السلام: أنّما أنزل اللّه: وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا إنتهىٰ.

و عن أبي بصير قال: وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، فقال سألتَ ربّك عظيماً أنّما هي وأجعَل لنا من المُتّقين إماماً، إنتهىٰ.

و في بعض الأخبار أنّ الآية خاصّة في أميرالمؤمنين عليه السلام ففي المناقب عن سعيد بن جبير قال هذه الآية و اللّه خاصّة في أميرالمؤمنين كان أكثر دعاءه يقول ربّنا هب لنا من أزواجنا يعني فاطمة و ذرياتنا يعني الحسن و الحسين قرّة أعين قال أميرالمؤمنين و اللّه ما سألت ربّي ولداً أحسن القامة و لكن سألت ربّي ولداً مطيعين للّه خائفين وجلين منه حتّى إذا نظرت اليه و هو مطيع للّه قرّت به عيني قال عليه السلام و أجعلنا للمتّقين إماماً نقتدي بمن قبلنا من المتقين فيقتدي المتّقون بنا من بعدنا إنتهى.

و في تفسير نور الثّقلين عن أبان بن تغلب قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْواٰجِنا الى قوله: وَ ٱجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰامًا قال عليه السلام: نحنُ هُم أهل البيت إنتهى.

و روى غيره أنّ أزواجنا خديجة و ذرياتنا فاطمة و قرّة أعين الحسن و الحسين و أجعلنا للمتّقين إماماً علّي بن أبي طالب و الأئمّة عليهم السّلام إنتهى.

و في جوامع الجامع عن الصّادق عليه السلام: في قوله: وَ ٱجْعَلْنٰا لِلْمُتَّقِينَ إِمٰامًا، قال عليه السلام: أيّانا عني إنتهىٰ.

أقول هذه الأحاديث كما ترى تنادي بأعلى صوتها أنّ اللّه تعالى أنزل الآية في أهل البيت إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: وَ عِبٰادُ ٱلرَّحْمٰنِ الى قوله: إِمٰامًا و الأوصاف المذكورة في الأيات لا مصداق لها في العالم سوى أهل البيت عليهم السّلام و توضيح ذلك إجمالاً، أنّ قوله: وَ عِبٰادُ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا هو المعصوم قطعاً لأنّ غير المعصوم لا يخلو من التّكبر ولو قليلاً، و هكذا قوله: وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ ٱلْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰمًا فينحصر في المعصوم و قوله: وَ ٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَ قِيٰامًا على نحو الكمال لا يصدق إلاّ على المعصوم و هكذا باقي الأوصاف.

و محصّل الكلام هو أنّ عباد الرّحمن هم الموصوفون بتلك الصّفات المذكورة في الأيات و لا يوجد في عالم الوجود من كان متّصفاً بها غير المعصوم في أولاد آدم أوّلهم في الأسلام رسول اللّه و آخرهم الإمام المنتظر عليهم السّلام فحقٌّ لهم أن يقول كلّ واحدٍ منهم و أجعلنا للمتّقين إماماً و لذلك يقال بعد رسول اللّه لأمير المؤمنين إمام المتّقين نصّ على ذلك رسول اللّه في خطبة الغدير و غيرها من الأخبار و على هذا فالآية على ظاهرها و لا نحتاج الى التّأويل و قد أعطاهم اللّه فاسألوا و طلبوا منه و جعلهم إماماً للمتّقين و هو المطلوب.

هذا ما إستفدناه من الآية من غير تصّرفٍ في ظاهرها و اللّه أعلم.

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلاَمًا

الغرفة في الجنّة المنازل العالية يعطيهم اللّه ثواباً على ما صبروا على طاعاتهم الّتي ذكرها في جنب اللّه و أنّهم يلقون فيها تحيّةً و سلاماً، من الملائكة بشارةً لهم بعظيم الثّواب قيل الغرفة بضمّ العين إسمٌ معرّفٌ بأل فيعمّ أي الغرف كما جاء و هم في الغرفات آمنون، قال إبن عبّاس و هي بيوت من زبرجد و درّ و ياقوت، و قيل الغرفة من أسماء الجنّة و قيل، السّماء السّابعة غرفة، وقيل هي أعلى منازل الجنّة و قيل المراد العلّو في الدّرجات، و الباء في بما صبروا، للسّبب أي يعطون ذلك بسبب صبرهم على مشّاق الدّنيا و صعوبة التّكليف و قيل للبدل أي بدل صبرهم، و قوله: **يُلَقَّوْنَ** بضمّ الياء و فتح اللاّم و القاف مشددةً و قد قريَ بفتح الياء و سكون اللاّم و تخفيف القاف من باب لقي يلقى فعلى القول بتشديد القاف معناه يلقى اليهم التحيّة و السّلام من جانب الملائكة و على القول بالتّخفيف معناه أنّهم يلقون التّحية و السّلام من عند أنفسهم ثمّ وصفهم اللّه بالخلود فيها.

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا

أي أنّهم خالدون في الغرفة لا يخرجون منها أبداً ثمّ قال: **حَسُنَتْ**، أي الغرفة مستّقراً و مقاماً، فقوله: **مُسْتَقَرًّا وَ مُقَامًا**، نصب على التّمييز أي حسنت الغرفة من حيث القرار و الإقامة فيها.

قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا

أي قل لهم يا محمّد، **مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ**، أي ما يصنع بكم ربّي و أصله تهيئة الشّئ يقال عبأت الجيش بالتّخفيف و التّشديد إذ هيأته و العبأ الثقل و قال قوم ما لا يعبأ به أي لا يعتني به فوجوده و عدمه سواء و قوله: **لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ**، قيل معناه لولا دعاءه أيّاكم الى طاعته و لم يكن في فعلكم ما تطالبون به و هو مصدر، أضيف الى المفعول.

و قال الزّجاج معناه لولا توحيدكم و إيمانكم، و قال البلخي لولا كفركم و شركم ما يعبأ بكم بعذابكم و حذف العذاب و أقيم المضاف اليه مقامه.

قال صاحب الكشّاف لمّا وصف عبادة العباد و عدَّد صالحاتهم و حسناتهم و أثنى عليهم من أجلها و وعدهم الرّفع من درجاتهم في الجنّة إتّبع ذلك بيان أنّه أنّما أكثرت لأولئك و عباء بهم و أعلى ذكرهم و وعدهم فأوعدهم لأجل عبادتهم فأمر رسوله أن يصرّح للنّاس يجزم لهم القول بأنّ الإكتراث لهم عند ربّهم أنّما هو للعبادة وحدها لا لمعنىً أخر و لولا عبادتهم لم يكترث لهم البتّة و لم يعتّد بهم ولم يكونوا عنده شيئاً يبالي به و الدُّعاء العبادة و، ما، متّضمنة لمعنى الإستفهام و هي في محلّ النّصب و هي عبارة عن المصدر كأنّه قيل و أيُّ عبأٍ يعبأ بكم لولا دعاؤكم يعني أنّكم لا تستأهلون شيئاً من العبئ بكم لولا عبادتكم إنتهى كلامه.

أقول الحقّ أنّ الآية من المشكلات لا من جهة صدرها و هو قوله: **قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ** فأنّ ذلك واضح لا خفاء فيه فأنّ الإنسان إذا لم يعرف اللّه لا قيمة له عند اللّه و أنّما قدره و منزلته عنده بحسب معرفته و عبادته و هذا ممّا لا خفاء فيه و أنّما الكلام في قوله: **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** من حيث أنّ المخاطب بقوله كذّبتم، من هو، و المفروض أنّ الأيات من قوله: **وَ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ** إلى أخر السُورة في أوصاف الصُلحاء و العبّاد فظاهر الآية أنّ الخطاب في، كذَّبتم، متوّجهٌ إليهم و قوله: **فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** معناه فسوف يكون تكذيبكم لزاماً، أي عذاباً و على قول من قرأ بفتح اللاّم، أي ثابتاً و يظهر من هذا الكلام أنّهم أي عباد الرّحمن كانوا قبل ذلك من المكذّبين و أنّهم يعذّبون يوم القيامة على تكذيبهم، و هذا كما ترى لا يستقيم لأنّهم بعد التّكذيب أسلموا و عبدوا اللّه و صاروا من عباد اللّه الصّالحين فكيف يكون العقاب لازماً لهم يوم القيامة هذا وجه الإشكال فيها.

قال صاحب الكشّاف فأن قلت-إلى من يتّوجه هذا الخطاب.

قلت إلى النّاس على الإطلاق و منهم مؤمنون عابدون، و مكذّبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة و التّكذيب، و قرئ فقد كذّب الكافرون و قيل يكون العذاب لزاماً إنتهى.

و أنت ترى أنّ ما ذكره لا يرفع الإشكال و ذلك لأنّ قوله فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً، من تتمّة الأيات الّتي بيّنت أوصاف عباد الرّحمن و الفاء في قوله: **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** للتّفريع فيكف يمكن الجمع بين الأوصاف المذكورة و التّكذيب و الّذي يختلج بالبال و اللّه أعلم بالصّواب إحتمالان:

أحدهما: أن نقول أنّ عباد الرّحمن قبل الوصول إلى مقام العبوديّة كانوا من المكذّبين ثمّ صاروا بعد ذلك من المصّدقين ببركة الإسلام و الإيمان فقوله تعالى: **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ** إشارة إلى ما قبل قبولهم الإسلام و المعنى أنّكم كنتم كذلك و لولا دعاؤكم أي معرفتكم و عبادتكم باللّه لكان التّكذيب لازماً لكم و كنتم من الخاسرين.

ثانيهما: ضمّ الكاف فى كُذّبتم، على صيغة المجهول و المعنى أنّكم كذّبتم من جانب الكفّار في إيمانكم و صلاحكم فسوف يكون، تكذيبهم لكم، لزاماً، لهم يوم القيامة أي عذاباً و هذا الإحتمال أقوى عندي و أن كانت قراءة المشهور فتح الكاف بصيغة المعلوم و ذلك لأنّ ردّ القراءة ليس ردّ القرأن و لا سيّما عند إقتضاء المعنى ذلك نعم إحتمال الأوّل و هو فتح الكاف لا بأس به على تفسير القوم من أنّ عباد الرّحمن هم المؤمنون بعد مفرهن و تكذيبهم و أمّا على ما فسّرنا الآية و قلنا أنّ عباد الرّحمٰن مع الأوصاف المذكورة لا مصداق لهم إلاّ المعصوم على ما مرَّ شرحه و بيانه فالإحتمال الثّاني هو المتّبع لأنّ الكفّار كذّبوهم و أنكروهم فالعذاب ثابت لهم يوم القيامة و أنت إذا أمعنت النّظر فيما قلنا في الأيات المذكورة لعلمت أنّه لا مخلص للإشكال إلاّ بقراءة المجهول في قوله، كذّبتم، و اللّه أعلم بكلامه.

■

سُورَةُ ٱلشُّعَرَآءِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طٰسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْكِتٰابِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ
بٰاخِعٌ نَفْسَكَ أَلّٰا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ
نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ اٰيَةً فَظَلَّتْ أَعْنٰاقُهُمْ
لَهٰا خٰاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ
ٱلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلّٰا كٰانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبٰٓؤُا مٰا كٰانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ اَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ
أَنْبَتْنٰا فِيهٰا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذٰلِكَ
لَاٰيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَ إِذْ نٰادٰى رَبُّكَ
مُوسىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ أَلٰا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قٰالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخٰافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لٰا يَنْطَلِقُ
لِسٰانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَ لَهُمْ عَلَيَّ
ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قٰالَ كَلّٰا فَاذْهَبٰا
بِاٰيٰاتِنٰآ إِنّٰا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيٰا فِرْعَوْنَ

فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۱۶﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنٰا بَنِيَ إِسْرٰآئِيلَ ﴿۱۷﴾ قٰالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا
وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِينٰا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿۱۸﴾ وَ
فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ ٱلْكٰافِرِينَ
﴿۱۹﴾ قٰالَ فَعَلْتُهٰآ إِذًا وَ أَنَا مِنَ ٱلضّٰآلِّينَ ﴿۲۰﴾
فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمّٰا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿۲۱﴾ وَ تِلْكَ
نِعْمَةٌ تَمُنُّهٰا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِيَ إِسْرٰآئِيلَ ﴿۲۲﴾
قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۲۳﴾ قٰالَ رَبُّ
ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِنْ كُنْتُمْ
مُوقِنِينَ ﴿۲۴﴾ قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلاٰ تَسْتَمِعُونَ
﴿۲۵﴾ قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ اٰبٰآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿۲۶﴾
قٰالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
﴿۲۷﴾ قٰالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ وَ مٰا
بَيْنَهُمٰآ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿۲۸﴾ قٰالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ
إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿۲۹﴾
قٰالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴿۳۰﴾

◀ اللّغة

بٰاخِعٌ: قال في المفردات البخع قتل النّفس غمّاً، و قال في المجمع هو من قولهم بخع نفسه بخعاً أي قتلها غمّاً و وجداً و بخع بالحقّ بخوعاً كمنع أقرَّ به و خضع له إنتهى.

فَظَلَّتْ: الظَّل ضدّ الضَّح و هو أعمّ من الفيئ.

نَبَأ: النَّبأ الخبر و منه النَّبي لأنّه يخبر عن اللّه تعالى.

يَضِيقُ: الضِّيق ضدّ السِّعة.

عَبَّدْتَ: بالباء مشدّدةً أي جعلتهم كالعبيد.

◀ الإعراب

أَلَّا يَكُونُوا مفعول له أي لئلا أو مخافة أن لا يكونوا فَظَلَّتْ أي فتَّظل، و موضعه جزم عطفاً على جواب الشّرط و يجوز أن يكون رفعاً على الإستئناف كَم في موضع نصب و أَنۢبَتۡنَا و مِن كُلِّ تمييز و يجوز أن يكون حالاً أن ائتِ أن مصدريّة أو بمعنى، أي، وَيَضِيقُ صَدْرِي بالرّفع على الإستئناف و بالنّصب عطفاً على المنصوب قبله. مِنْ عُمُرِكَ في موضع الحال من، سنين، قيل ألف الإستفهام محذوف أي أو تلك تَمُنُّهَا في موضع رفع صفة لنعمة و حرف الجرّ محذوف أي بها، أَنْ عَبَّدْتَ بدل من نعمة أو على إضمار، هى.

◀ التّفسير

طسٓمٓ

قد مرَّ الكلام في الحروف المقطّعة و لا سيّما في أوّل سورة البقرة و قلنا فيها أنّ معانيها لايعلمها إلاّ اللّه، و قال بعضهم أنّها أسماء السُّور و قيل طسٓمٓ، من أسماء القرأن و الأقوال كثيرة و لا فائدة في نقلها فأنّها رموز القرأن و علمها عند اللّه تعالىٰ.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

تقديره تلك الأيات أيات الكتاب المبين و حيث أنّ، تلك، إنّما يشار بها إلى الحاضر و ما نحن فيه ليس بحاضرٍ قالوا كلّ متوقعٍ في حكم الحاضر فهو

كالحاضر بحضور المعنى في النّفس و قيل أنّ، تلك، بمعنى هذا و معنى الكتاب القرأن و وصفه بأنّه المبين لأنّ به تبيّن الأحكام لأنّ البيان إظهار المعنى للنّفس بما يتّميز به عن غيره و هو مأخوذ من البينونة و هي التّفرقة بين الشّئ و غيره فالمبين الذّي يبين الحقّ من الباطل و سمّي أيضاً فرقاناً لأنّه يفرق بينهما.

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

قال البخع القتل و المعنى لعلّك قاتل نفسك و قال إبن زيد مخرج نفسك عن جسدك قال ذو الرّمة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه لشئٍ نحته عن يديه المقادر

و قال إبن عبّاس أن لا يكونوا مؤمنين، فيه أي في القرأن و كيف كان ففيه مبالغة على حرص النّبي صلى الله عليه و آله و سلم لإيمان الكفّار.

قال الزّمخشري، لعلّ، للإشفاق يعني أشفق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك و أنما قال ذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلم كان حريصاً على إيمان الكفّار ثمّ قال تعالى تسليةً له صلى الله عليه و آله و سلم: «**إن نشاء ننّزل عليهم من السّماء أيةٍ فظّلت أعناقهم لها خاضعين**» لمّا بيّن اللّه تعالى حرص النّبي على إيمانهم بحيث كان أن يقتل نفسه تأسّفاً على تركهم الإيمان أخبره بأنّه قادرٌ على أن ينّزل عليهم أيةً و دلالةً من السّماء تظّل أعناقهم لها خاضعة بأن تلجأهم إلى الإيمان لكن ذلك نقيض الفرض بالتّكليف لأنّه تعالى لو فعل ذلك لما إستّحقوا ترباً و لا مدحاً لأنّ الملجأ لا يستّحق الثّواب و المدح على فعله لأنّه بحكم المفعول فيه قاله في التّبيان.

إن قلت كيف صحّ مجئ خاضعين خبراً عن الأعناق و الخضوع من خصائص العقلاء و قد كان أصل الكلام، فظّلوا لها خاضعين، و بعبارةٍ أخرى حقّ الكلام أن يقال أعناقهم خاضعة لا خاضعين.

قلت قد أجابوا عنه بوجوهٍ:

أحدها: أنّ المراد بالأعناق الرّؤساء منهم.

ثانيها: أنّه على حذف المضاف أي فكلّ أصحاب الأعناق.

ثالثها: أنّ الأعناق جمع عنق من النّاس و هم الجماعة يقال جاءنا عنق من النّاس أي فوجٌ منهم وليس المراد الجارحة المعلومة.

رابعها: إقحام الأعناق لبيان موضع الخضوع و ترك الكلام على أصله.

خامسها: أنّ الأعناق لما أسندت إلى العقلاء عوملت معها معاملة العقلاء على طريق المجاز العقلى.

سادسها: لما أضاف الأعناق إلى المذّكر وكانت متصلّة بهم في الخلقة و التّكوين أجرى عليها حكمهم.

قال صاحب الكشّاف ما هذا لفظه و عن إبن عبّاس نزلت هذه الآية فينا و في بني أميّة قال ستكون لنا عليهم الدولّة فتّذل لنا أعناقهم بعد صعوبة و يلحقهم هوان بعد عزّةٍ إنتهى.

أقول الحقّ أنّ الأعناق لمّ أضيفت إلى ضمير، هم، أعني به العقلاء إكتسبت منهم التّذكير كما يكتسب التّأنيث بسبب الإضافة ثمّ أنّ المراد بالآية هو أنّ مدار التكليف في الدّنيا على الإختيار لا على الجبر فلو أنزل اللّه تعالى ما أجبرهم على الإيمان و الطّاعة يلزم نقض الفرض من التّكليف فأنّ إيمان المجبور و عبادته لا قيمة لها و بعبارةٍ أخرى لو شئنا لأجبرناهم على العبادة فأنّ اللّه الّذي خلق الخلق قادرٌ على سلب الإختيار منهم و إلى هذا المعنى أشار بقول:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**(٢).

وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

١- الإنسان = ٣ ٢- الأنفال = ٤٢

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية من عناد الكفّار و لجاجهم أنّه ما يأتيهم من ذكرٍ و هو القرأن إلاّ أنّهم كانوا معرضين عنه و لا ينظرون فيه و من كان كذلك لا ينبغي التّأسف على بقاءه في الكفر بل يقال ذرهم في خوضهم يلعبون، قال اللّه مخاطباً لنبيّه: **فَلاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ**(١).

فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

أنباء جمع نبأ و هو الخبر و منه النَّبي لأنّه يخبر عن اللّه تعالى و قوله: **فَسَيَأْتِيهِمْ**، أي فيما بعد و هو يوم القيامة أي سيرون جزاء عنادهم و إستهزاؤهم يوم القيامة.

اَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

أي أو لم يروا هؤلاء الكفّار المعاندين إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كلّ زوجٍ كريم من أنواع النّباتات فيستدلّوا على توحيده و أنّه لا يقدر عليه غيره، وصف الزَّوج و هو الصِّنف من النّباتات بالكرم، لأنّ الكريم صفة لكلّ ما يرضى و يحمد في بابه يقال وجهٌ كريم إذا رضى في حسنه و جماله و بالجملة الكريم المرّضي فيما يتعلّق به من المنافع و قيل يعني ممّا يأكل النّاس و الأنعام و في الآية إشارة أو دلالة على أنّ هؤلاء الكفّار كما لم يستضيئوا بنور العقل لم يستضيئوا بنور الحّس أيضاً و الى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: **اَوَ لَمْ يَرَوْا** أي أو لم ينظروا الى الأرض و ما فيها من أنواع النّبات و أنّ اللّه هو الّذي أنبت فيها ما أنبت و لذلك قال:

إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

١- فاطر = ٨

أي أنّ في ذلك الإنبات لآية و دلالة على وجود الصّانع الحكيم و مع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين و أنّ ربّك لهو العزيز، أي الغّني القادر الّذي لا يعجز ولا يغلب، الرّحيم، أي المنعم على عباده بأنواع النّعم الّتي لا يمكن إحصائها و حاصل الكلام أنّ المعاند في الحقيقة منكرٌ لعقله و حسّه و من كان كذلك فهو كالأنعام بل أضّل منها و المقصود من هذه الآيات هو أنّ هٰؤلاء الكفّار في كلّ عصرٍ و زمانٍ معرضون عن الحّق فلا تنفعهم الموعظة و الإرشاد.

وَ إِذْ نَادٰى رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظّٰلِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ

موسى من أنبياء بني إسرائيل وهو من أولى العزم من الرُّسل و أبوه عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم و كان بينه و بين إبراهيم خمس مائة سنة و كان أخوه هارون أكبر منه و توفّىٰ قبل موسى و عاش موسى في الدّنيا مائتين و أربعين سنة و هو أوّل رسولٍ أرسل من بني إسرائيل و من تقدّمه كانوا أنبياء غير رسل و آخر رسل بني إسرائيل عيسى بن مريم و بينهما ستّمائة نبّي و كان في لسان موسى عقدة و ثقل و كان أخوه هارون أفصح منه لساناً و كان لهارون و لدان أحدهما شبّير و الآخر شبَّر، و أمّ موسى إسمها بوخائيد أو ناحية أو نخيب على إختلاف الرّوايات و هي بنت إشموئيل من ولد إبراهيم و لم يكن لموسى ولد و إنّما الخلافة كانت لولد هارون كما أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن له ولد و الخلافة كانت في ولد أخيه علّي بن أبي طالب قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**يا علّي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبّي بعدي**» و كان الوحى من اللّه ينزل على موسى لكونه أفضل من أخيه و هو يخبر أخاه بما يوحى إليه و إذا غاب موسى عن قومه كان هارون خليفته فيهم و هو أخوه من أمّه و أبيه.

و أمّا فرعون فهو إسمٌ أعجَمي يقال تفرعن فلان إذا تعاطى فعل فرعون كما يقال أبلس و تبَّلس و منه قيل للطّغاة الفراعنة و الأ بالسة إذا عرفت هذا فنقول قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ نَادٰى رَبُّكَ** الخطاب للنّبي و تقدير الكلام و أذكر يا محمّد إذ قال ربّك الّذي خلقك و ربّاك و قوله موسى معناه قال له يا موسى، أئت القوم الظّالمين، على أنفسهم بإرتكاب المعاصي و إنكار الخالق ثمّ بيّن القوم الظّالمين و قال، قوم فرعون و هو عطف بيان، ألا يتّقون، أتى بالياء على سبيل الحكاية و تقديره فقل لهم ألا تتّقون و مثله:

قوله تعالىٰ: **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ اِلىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ**[1].

قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاٰ يَتَّقُونَ

يَتَّقُونَ بالياء و التّاء و ما نحن فيه أيضاً كذلك فلو قرئ بالتّاء كان جائزاً أمر اللّه موسى أن يقول لفرعون و قومه ألا تتّقون و التّقوى مجانبة القبائح بفعل المحاسن و أصله حرف الأمر بحاجزٍ بين الصّارف و بينه.

قٰالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخٰافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

يُكَذِّبُونِ بكسر الباء و النّون و الأصل ربّي و يكذّبوني فحذفت الياء في الأوّل لكونه منادى و الأصل قال ياربّي و في الثّاني، بأنّ و المعنى أنّ موسى قال في جواب ربّه أنّي أخاف أن يكذّبون، أي أخاف تكذيب فرعون رسالتي كما هو دأب الكفّار في جميع الأزمان و في صورة التّكذيب لا ينفع ظاهراً ثمّ أضاف موسى الى الخوف ضيق الصّدر و عدم إنطلاق اللّسان كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله:

وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لاٰ يَنْطَلِقُ لِسٰانِي فَأَرْسِلْ إِلىٰ هٰرُونَ

۱- أل عمران = ۱۲

حكى اللّه تعالى عن موسى، قال و يضيق صدري الصّدر غَمٌّ يمنع سلوك المعاني في النَّفس و ضدّه سعة الصَّدر فكما أنّ ضيق الطّريق يمنع من السّلوك فيه كذلك ضيق الصَّدر يمنع من سلوك المعاني في النَّفس و قوله: **وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي** معناه لا ينبعث الكلام و قد يتّعذر ذلك لآفةٍ في اللّسان و قد يتعذّر لضيق الصَّدر و غروب المعاني الى تطّلب الكلام و لا يبعد أن يكون ضيق الصَّدر إنطلاق اللّسان لأجل الخوف.

و قوله: **فَأَرْسِلْ إِلَى هٰرُونَ** معناه إجعله نبيّاً كما جعلتني نبيّاً لمعاونتي فليس في هذا الكلام إستعفاء لموسى عن مقامه و إحالته الى غيره بل طلب منه تعالى أن يجعل هارون نبيّاً كما جعل موسى نبيّاً و إنّما قال ذلك حرصاً على القيام بالطّاعة و من المعلوم أنّ موسى لم يسئل ذلك إلاّ بعد أن أذن اللّه تعالى له فأنّ الأنبياء لا يسألون اللّه إلاّ ما يؤذن لهم في مسألته و يؤيّده قوله تعالى حكايةً عن موسى قال:

> **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَ يَسِّرْ لِيَ أَمْرِي، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَ اجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هٰرُونَ أَخِي، اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَ أَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا.** و قال اللّه تعالىٰ في جوابه: **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى.**

فهذه الأيات مفّسرة لقوله تعالى حكايةً عن موسى: **فَأَرْسِلْ إِلَى هٰرُونَ** و قوله: هناك **وَ أَشْرِكْهُ فِيَ أَمْرِي**، أي أشركه في رسالتي أي أجعله رسولاً كما جعلتني رسولاً فأن الإشتراك في الرّسالة لا معنى له إلاّ ذلك فلو كان أحدهما رسولاً دون الآخر لا يشتركان فيها و من المعلوم أنّ هارون كان نبيّاً و لا خلاف فيه إلاّ أنّه مات قبل موسى.

وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

قال في المفردات ذنب الدّابة و غيرها معروف و يعَّبر به عن المتَّأخر و الرَّذل يقال هم أذناب القوم و عنه استعير مذانب التّلاع لمايل مياهها الى أن قال و الذَّنب في الأصل الأخذ بذنب الشّيء و يستعمل في كلّ فعلٍ يستوخم عقباه إعتباراً بذنب الشّيء و لهذا سمَّي الذَّنب تبعةً إعتباراً لما يحصل من عاقبة إنتهى.

قال موسى و لهم أي لفرعون و قومه علَّي ذنبٌ فأخاف أن يقتلوني به، و الذَّنب الّذي صدر عن موسى و أشير به في الآية هو قتلة القبطي قيل أنّ فرعون ركب ذات يوم و خرج فخرج موسى بعده على أثره و سار وحده الى أن دخل المدينة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهٰا فَوَجَدَ فِيهٰا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاٰنِ هٰذٰا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هٰذٰا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغٰاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسىٰ فَقَضىٰ عَلَيْهِ قٰالَ هٰذٰا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطٰانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**[١].

و لّما قتل القبطي و هو من أعوان فرعون و قيل من أقربائه و عشيرته خاف موسى على نفسه و أنتشر الخبر بقتله إيّاه فهاجت النّاس و أخبروا فرعون فأمرهم بطلب القاتل و هم لا يعرفونه و توارى موسى و دار الطّلاب له و سمع ذلك رجل إسمه حزقيل كان آمن سّراً و كان من خوّاص فرعون فوثب من ساعته يفتّش حتّى وجد موسى و أخبره بأمر الطّلب له و قصدهم قتله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جٰاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا مُوسىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ**[٢].

فخرج موسى من المدينة و هو خائف و سيأتي الكلام فيه.

فقوله: **وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ** إشارة الى ما ذكرناه من قتله القبطي و أخاف أن يقتلوني، إشارة الى أنّهم لو ظفروا بي تقتلوني لا محالة ففي قوله: **وَ يَضِيقُ**

١- القَصص = ١٥ ٢- القَصَص = ٢٠

صَدْرِي، و لا ينطلق لساني، و لهم علّي ذنبٌ، إشارة الى أعذار موسى و لا سيّما عذره الأخير في قوله: وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ، و لذلك قال فأرسل إلّي هارون، شريكاً في رسالتي كما مرَّ.

قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِاٰيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ

أي قال اللّه تعالى في جواب موسى، كلاّ، أي لا يقتلونك و معنى، كلاّ، زجر أي لا يكون ذلك، فأذهبا، الخطاب لموسى و هارون على ما أقترحه موسى فأجيب إليه و جعل هارون شريكاً في رسالته فأمرهما اللّه بالذّهاب الى فرعون بالآيات و المعجزات الّتي خصَّهما اللّه بها و قوله: **إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ** أي نحن نحفظكم و نحن سامعون ما يجري بينكم، و قوله: **مُسْتَمِعُونَ**، معناه سامعون فهو مستمع في موضع، سامع، و ذلك لأنّ الإستماع طلب السّمع الإصغاء إليه و ذلك لا يجوز على اللّه تعالى و إنّما قال بهذا اللّفظ لأنّه أبلغ في الصِّفة و أشّد في التَّعظيم هكذا قيل.

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أمرهما بأن يأتيا فرعون و أن يقولا له، **إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**، أرسلنا اللّه إليك لندعوك الى عبادته و ترك الإشراك به و المعنى أنّ كلّ واحدٍ منّا رسول ربّ العالمين و لهذا جاء الرّسول على التّوحيد و لم يقل إنّا رسولا ربّ العالمين أو رسل ربّ العالمين و في هذا دلالة على إشتراكهما في الرّسالة كما لا يخفى على المتّأمل البصير.

و قال بعضهم أنّ الرّسول مصدر بمعنى الرَّسالة فجاز أن يقع مفرداً خبراً لمفرد فما فوقه و قيل الوجه فيه إنّهما كانا ذوي شريعةٍ واحدة فكأنّهما رسول واحد و كيف كان فالأمر سهل و في قوله (رسول ربّ العالمين) في الحقيقة ردٌّ على فرعون و إشعارٌ بأنّه مربوبٌ للّه تعالى كغيره و ذلك لأنّ فرعون كان يدَّعي الألوهيّة و لذلك أنكر عليها و قال و ما ربّ العالمين.

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنيٓ إِسْرٰٓئيلَ

أي أطلقهم من قيد العبوديّة، و كان موسى مبعوثاً الى فرعون في أمرين:

أحدهما: إرسال بني إسرائيل ليزول عنهم العبوديّة.

ثانيهما: الإيمان بربّ العالمين، و المراد بإرسال بني إسرائيل هو إرسالهم معهماالى فلسطين و كانت مسكن موسى و هارون.

قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليدًا وَ لَبِثْتَ فينا مِنْ عُمُرِكَ سِنينَ

قال في المفردات، الرَّب في الأصل التَّربية و هو إنشاء الشّئ حالاً فحالاً الى حِّد التَّمام فالرَّب مصدر مستعار للفاعل و لا يقال الرَّب مطلقاً إلاّ للّه تعالى، المتَّكفل بمصلحة الموجودات و بالإضافة يقال له و لغيره نحو ربُّ الدّار و رَّب الفرس و على هذا قوله، في قصّة يوسف، **اذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ** و الوليد الصَّبي القريب عهده بالولادة و الوليدة الصَّبية و قوله: **وَ لَبِثْتَ**، فاللّبث و اللُّباث المكث و معنى الآية أنّ فرعون قال في جواب موسى ألم نرَّبك فينا وليداً، الهَمزة للإستفهام على سبيل الإنكار أي نرَّبك، وليداً، أي طفلاً، أشار بذلك ايل أخذه موسى من الماء و قول آسية: **لا تَقْتُلُوهُ عَسىٰٓ أَنْ يَنْفَعَنآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**[١] قيل أنّ موسى بعد ما ألقته أمّه بإلهام من اللّه في الماء و هو في الصَّندوق بقى في البحر ثلاثة أيّام تضربه الأمواج حتّى إنتهت به إلى أشجار عند دار فرعون ثمّ سار في نهرٍ جارٍ إلى داخل الدّار و صادف أنّ فرعون جالس مع جاريته أسيّة على شفير النّهار و أقبلت إبنته في جواريها و كان في إبنته برصٌ شديد عجز الأطّباء عن معالجته فأخبرته السَّحرة أنّها لا تبرأ من البرص إلاّ من قبل النّيل حيث يخرج منه شبه إنسانٍ فيؤخذ من ريقه و يلطخ به برصها فتبرأ فوراً و ذلك عند شروق الشّمس فنصبت أمة اللّه الصّالحة أسية قبّةً لها على شاطئ النّيل تترقب العلاة

١- القصص = ٩

المنتظر و هم على تلك الحال إذا أقبلت االصّندوق تضربه الأمواج و لمحته أسية أوّلاً فقالت لجواريها أما ترين ما أرى على الماء قلن بلى فلّما دنى الصّندوق أسرعت بنفسها لتأخذه و كادت تغمرها الماء فلمّا أخرجته من الماء فتحته فإذا فيه غلام من أجمل النّاس و أحسنهم و هو يمصّ إبهامه فوضعته في حجرها و أحبَّه حبّاً شديداً و هي تقول هذا إبني و عمدت بنت فرعون إلى فمه و أخذت من ريقه و لطّخت به برصها فشفيت منه و حملت أسية موسى و أرته لفرعون و كان بعيداً عنهنّ و قد رأى ما جرى لهنّ فقال فرعون هذا إسرائيلّي و همّ بقتله فتّوسلت أسية به و هي تقول كما حكى اللّه عنها **لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَنْ يَنْفَعَنَآ**، و لكن فرعون لم يزل تستوهبه و هو يقول أخاف أن يكون هذا هو الّذي على يده هلاكنا و زوال ملكنا و هي تقول لا تخف أنّما هو إبنك ينشأ في حجرك إلى أن قلّبته عن رأيه و وهبه لها ثمّ أنّ فرعون أحبَّه حبّاً شديداً و تبّناه و طلب له مرضعة تربيه فأقبلت المراضع إلاّ أنّه لم يقبل ثدي إمرأةٍ أبداً إلى أن عجزت أسية و حارت في أمره و بلغ الخبر أمّ موسى أيضاً فقالت لأخته إتّبعي أثره و أنظريه لعلّه أخوك موسى لقد ردَّه اللّه إلينا سالماً حيّاً فجائت أخته إلى دار فرعون فعرفته كما:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ**(١).

فتّقدمت حينئذٍ إليهم و هم في حيرةٍ شديدةٍ:

قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**(٢).

فرجعت إلى أمّها و بشّرتها بحياة أخيها موسى ثمّ أتت بها إليهم فلمّا وقع نظر الأم على إبنها كادت أن تصرخ فرحاً و سروراً فألقته ثديها فإلتقمه و أخذ يمّتصه و فرحت بذلك أسيه و فرعون و أكرموها و وعدوها بجزاء حسن، كما قال اللّه

١- القصص = ١١

٢- القصص = ١٢

تعالى في كتابه: **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا**[١] و نشأ موسىٰ علىٰ يَد عَدّوه فرعون و كتمت الخبر أمّه و أخته ولم يعلم بنو إسرائيل ولم يزالوا في طلبه و موعد ظهوره و ربّى موسى في حجر فرعون دون أن يعلم فرعون أنّ هلاكه سيكون على يده و قد عاش في قصر الملك كإبنٍ له و لقى كثيراً من العزّ و الكرامة حتّى بلغ مبلغ الرّجال و كان يدعى موسى بن فرعون كما أنّه كان يركب مراكب فرعون و يلبس ملابسه و إلى ما ذكرناه أشار فرعون بقوله: **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا**.

وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ

قوله: **وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ**، إشارة إلى القتل الّذي وقع على يَد موسىٰ من القبط و قوله: **وَ أَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ**، أي من الكافرين للنِّعمة أي كفرت بالنِّعم التّي أنعمنا بها عليك و قتلت القبطي و ليس هذا جزاء الإحسان.

و قال السّدي أراد كنت على دِيننا فكفرت به و قال الحسن أنت من الكافرين بأنّي إلٰهٌ لك أي أنكرت ألوهيّتي، و قيل من الكافرين حقّ تربيتي، فقال موسىٰ في الجواب:

قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَ أَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ

أي من الجاهلين بأنّها تبلغ القتل و قال الجبائي من الضالّين، عن العلم بأنّ ذلك يؤدّي إلى قتله، و قيل أنا من الضالّين، عن طريق الصّواب لأنّي ما تعمّدته و أنّما وقع منّي خطأ.

و قال بعضهم معناه و أنا من الضالّين، عن النُّبوة ولم يأتني عن اللّه فيه شئ فليس علّي فيما فعلته في تلك الحالة توبيخٌ.

و قال الزّمخشري أي من الفاعلين فعل أولى الجهل و السَّفه و الأقوال كثيرة

١- القصص = ١٣

و أردء الأقوال قول الزّمخشري الّذي نسب إلى موسى و هو من أولى العظم فعل الجهل والسّفاهة ولم يعلم أنّ الأنبياء مبّرؤن عنه و لا سيّما أولي العظم منهم.

أقول ما ذكروه في معنى الضّلال في الآية لا يناسب شأن النّبي فضلاً عن أولي العظم من الأنبياء و كيف يعقل أن ينسب إليهم الخطأ و الجهل و السّهو و النّسيان و أمثال ذلك نعم هذا على مسلك العامّة الّذين يقولون بعدم عصمة الأنبياء مطلقاً أو قبل النّبوة لا بأس به.

و أمّا على مذهب أهل البيت الّذين طهّرهم اللّه تطهيراً، فلا يمكن القول به فإذاً لابدّ لنا من التكلّم في معنى الضّلال بحسب اللّغة أوّلاً ثمّ بيان ما هو الحقّ في المقام فنقول:

قال الرّاغب في المفردات الضّلال العدول عن الطّريق المستقيم و يضادّه الهداية و يقال الضّلال لكلّ عدولٍ عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً فأنّ الطّريق المستقيم الّذي هو المرتضى صعبٌ جدّاً.

و قال بعض الحكماء كوننا مصيبين من وجهٍ و كوننا ضالّين من وجوهٍ كثيرة فأنّ الإستقامة و الصّواب يجري مجرى المقرطين من المرمى و ما عداه من الجوانب كلّها ضلال و ساق الكلام إلى أن قال و إذا كان الضّلال ترك الطّريق المستقيم عمداً كان أو سهواً قليلاً كان أو كثيراً صحّ أن يستعمل لفظ الضّلال ممّن يكون منه خطأ و لذلك نسب الضّلال إلى الأنبياء و إلى الكفّار و أن كان بين الضّالين بونٌ بعيد إنتهى موضع الحاجة منه.

و قال في النّهاية الضّالة هي الضّائعة من كلّ ما يقتني من الحيوان و غيره و هي في الأصل فاعلة، ثمّ إتّسع منها فصارت من الصّفات الغالبة و تقع على الذّكر و الأنثى و الأثنين و الجمع و يجمع على ضّوال إنتهى.

إذا عرفت معنى الضّلال و أنّه العدول عن الطّريق المستقيم سواء كان عن طرق الأرض أم كان العدول عن طريق الدّين فقول موسى: **فَعَلْتُهَآ إِذًا وَ أَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ**، معناه من الضّالين عن طريق الأرض لا عن طريق الدّين و ذلك

لما ورد أنّ فرعون ركب ذات يوم و خرج فخرج موسى بعده على أثره و سار وحده إلى أن **دَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ** ثمّ خاف على نفسه بسبب قتل القبطي و هذا الّذي ذكرناه يستفاد من الآية حيث قال على حين غفلةٍ من أهلها، أي على حين غفلةٍ من أنّ المدينة من مدائن فرعون و أهلها من شيعته فقوله فعلتها و أنا من الضالّين، معناه من الضّالين عن الطّريق في سفري هذا لا عن طريق الدّين حتّى عدَّ من العصيان الّذي ينافي مقام النّبوة و أن كان هذا الفعل منه عليه السلام قبل وصوله إلى مقام النّبوة و يؤيّد هذا المعنى.

ما رواه في العيون في باب ذكر مجلس الرّضا عليه السلام عند المأمون في عصمة الأنبياء عليهم السّلام بأسناده إلى علّي بن محمّد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون و عنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون يابن رسول اللّه أليس من قولك أنّ الأنبياء معصومون قال عليه السلام: بلى، قال: فما معنى قول اللّه عزّ وجلّ إلى أن قال فما معنى قول موسى لفرعون لمّا أتاه و قال وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ قال موسى فعلتها و أنا من الضالّين قال عليه السلام قال موسى فعلتها و أنا من الضالّين عن الطّريق لوقوعي الى مدينةٍ من مدائنك ففررت لمّا خفتكم الآية و قد قال اللّه تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ أي ألم يجدك وحيداً فأوى إليك النّاس، و وجدك ضّالاً، يعني عند قومك، فهدى، أي فهداهم إلى معرفتك، و وجدك عائلاً فأغنى، يعني أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً قال المأمون بارك اللّه فيك يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى.

أقول و هذا الحديث يكفي لنا في مقام الإستشهاد فأنّه يكشف القناع عن وجه اللّفظ و يستفاد منه وجه أخر في حلّ الإشكال و هو أنّ الإمام عليه السلام فسّر

قوله: و وجدك ضّالاً فهدى، أي وجدك عند قومك ضّالاً، فهداهم إلى معرفتك و على هذا فمعنى قوله: وَ أَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ أي من الضالّين عندكم لا عند اللّه و لا شكّ أنّ موسى كان من الضّالين عند فرعون و قومه و على هذا فالضّلالة في الآية أمّا أن يحتمل على الضّلالة في الطّريق أو يحتمل على الضّلالة عند فرعون و قومه و على الإحتمال الثّاني فتقدير الآية و أنا من الضالّين عندكم و اللّه أعلم.

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّى حُكْمًا وَ جَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

أي ففررت منكم بعد قتل القبطي لمّا خفتكم أن تقتلوني بقتله فوهب، أي أعطى، لي ربّي حكماً و هو حكم النّبوة و لذلك فسّره بقوله: **وَ جَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** فالبحث يقع في مقامين:

أحدهما: فرار موسى من المدينة.

ثانيهما: إعطاء النّبوة له.

أمّا المقام الأوّل فهو إشارة إلى قوله تعالى:

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ(١)

و قال: **فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ**(٢).

روي أنّ موسى بعد خروجه من المدينة بإعلام حزقيل إيّاه كان يسير ليله و نهاره و هو لا يعرف الطّريق و قد خرج بغير زادٍ فوجّهه اللّه تعالى نحو مدين كما سيأتي تفصيل الكلام فيه في سورة القصص.

المقام الثّاني: بعثته و عودته إلى مصر، فقيل فيه أنّ موسى لمّا قضى الأجل و أكمل خدمته لشعيب النّبي عليه‌السلام و قد صار له غنماً كثيراً إشتاق إلى أمّه و أخوانه فقال له شعيب و أوضعت أغنامي في هذه السّنة من غنم بلق فهو لك فبقى موسى

١- القصص = ٢١ ٢- القصص = ١٨

فلم تضع تلك الأغنام إلاّ حملاً بلقاناً فإستكملها موسى و همَّ بالرّجوع إلى مصر ليخرج منها أخاه هارون فزوَّده شعيب عصاً من بين عدّة عصي كانت عنده ثمّ خرج موسى و سار بأهله و كانت زوجته حبلى فجعل يسير في البراري فقاده السّير إلى جانب الطّور الأيمن في عشيّة معطرة فبينما هو حائر في أمره إذا أخذَ إمرأته الطّلق فإزداد إضطراباً و ظهر له نور فجأةً فحسبه ناراً:

فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النّارِ هُدىً، فَلَمّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً، وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى(۱).

الأيات و سيأتي الكلام فيها في المستقبل إن شاء اللّه ثمّ أمره اللّه تعالى بالذّهاب إلى فرعون لدعوته إلى عبادة اللّه و توحيده فحار موسى في أمره و فكر في قتله القبطي ثمّ جاء الوحي مؤكّداً بإنفاذ أمر ربّه فعزم موسى على إطاعة أمر ربّه و المضّي إلى فرعون و لكنّه رجع إلى زوجته فوجدها قد ولدت إبناً و إنتظر إلى أن طلع النّهار و إذا برجلٍ من أهل مدين أميناً فأرجع زوجته إلى أهلها ليتّفرغ إلى أمر ربّه و تبليغ رسالته و هذا معنى قوله فوهب لي ربّي حكماً و جعلني من المرسلين.

وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ

إختلف المفسّرون في معنى هذا الكلام على أقوالٍ:

فقال السّدي و الطّبري و الفرّاء هذا الكلام من موسىٰ عليه السلام على جهة الإقرار بالنّعمة كأنّه يقول نعم، و تربيتك نعمةٌ علّي من حيث عبّدت غيري و تركتني و لكن لا يدفع ذلك رسالتي.

و قيل هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإنكار أي، أتّمن علّي بأن ربّيتني

۱- طه = ۱۰ الى ۱۳

وليداً و أنت قد إستعبدت بني إسرائيل و قتلتهم أي ليست بنعمةٍ لأنّ الواجب كان أن لا تقتلهم و لا تستعبدهم فأنّهم قومي فكيف تذكر إحسانك علَّي على الخصوص قاله قتادة و غيره.

و قيل فيه تقدير إستفهام أي أو تلك نعمة، قاله الأخفش و الفّراء، و فيه بحث و لذا أنكره النّحاس و قال ألف الإستفهام لا يحذف إلاّ أن يكون في الكلام، أم، و قال الفّراء يجوز حذف ألف الإستفهام في أفعال الشكّ و هو الحقّ كما تقول تريد قتلي أي أتريد قتلي و للبحث فيه مقام أخر.

و قيل أنّ الكلام في الآية خرج مخرج التّكبيت و هو يكون بإستفهام و بغير إستفهام و المعنى لو لم تقتل بني إسرائيل لرَّباني أبواي فأيّ نعمةٍ لك علَّي، فأنت تمُّن علَّي بما لا يجب أن تمُّن به.

و قيل معناه كيف تمنّ بالتّربية و قد أهنت قومي و من أهين قومه ذلَّ، أقول الأقوال المذكورة لا بأس بها فأنّ لكلّ واحدٍ منها وجهٌ و الّذي يختلج بالبال في معنى الكلام هو أنّ فرعون لمّا قال لموسى، ألم نربّك فينا وليداً و لبثت فينا من عمرك سنين، و مَّن بذلك على موسى، قال موسى له و تلك نعمة تمُّنها علَّي الآية أي أنّ تربيتك إيّاي التّي تعدُّها نعمة ليست بنعمةٍ حقّاً لأنّها كانت ناشئة من ظلمك على بني إسرائيل و إستعبادك إيّاهم إذ لولا ذلك لما ألقتني أمّي في البَحر فما تعدّه نعمة ليس بنعمةٍ بل هو نقمةٌ نشأت من ظلمك و إذا كان منشأ الإحسان الظُّلم فلا إحسان في الحقيقة ألا ترى أنّك لو حبست شخصاً ظلماً ثمّ أحسنت إليه أيّام حبسه فلا يعدّ هذا الإحسان نعمة بل هو نقمةٌ في صورة النِّعمة و ما نحن فيه كذلك فأنّ فرعون صار باعثاً بسبب ظلمه أن يلقى موسى في البحر و يلتقطه فرعون و يحسن إليه بزعم أنّه ولده فأيُّ إحسانٍ هذا مضافاً إلى أنّه لو عرفه لم يحسن إليه قطعاً بل قتله فهو في الحقيقة لم يحسن إلاّ بمن لم يعرفه و هو واضح.

قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ ٱلْعٰالَمِينَ، قٰالَ رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

لمّا سأل فرعون عن الرّب الّذي قال موسى: **فَوَهَبَ لِي رَبِّى حُكْمًا**، و قال و ما ربّ العالمين قال في جوابه ربَّ السّموات و الأرض و ما بينهما من الموجودات إن كنتم مؤمنين به، علّق الحكم على اليقين بالرّب و الإعتقاد به لأنّ من لم يعتقد به لا ينفعه الجواب و كان فرعون منكراً للّه و لذلك قال لمن حوّله من أصحابه و أعوانه ما حكاه اللّه عنه.

قٰالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ

أي ألا تستمعون قول موسى حيث قال ربّ السّموات و الأرض الآية أنّما قال فرعون ذلك على معنى الإغراء و التّعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أنّ فرعون ربّهم و معبودهم و الفراعنة قبله كذلك فكيف قال موسى ما قال من أنّ ربّ العالمين هو ربّ السّموات و الأرض فزاد موسى بقوله:

قٰالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ اٰبٰآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ

من الفراعنة و غيرهم و أنّما قال ذلك لأنّهم كانوا عالمين بأنّه قد كان لهم آباء و أنّهم قد ماتوا و أنّه لا يدلّهم من مغيّرٍ و أنّهم كانوا بعد أن لم يكونوا و أنّهم لا بدّ لهم من مكوّنٍ فقال فرعون على جهة الإستخفاف.

قٰالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ

أي ليس يجيبني عمّا أسأل فأني قلت له و ما ربّ العالمين، أي أيُّ شئٍ هو و ما حقيقته و ذاته و هو يجيبني بقوله: **رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ، رَبُّكُمْ وَ رَبُّ اٰبٰآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ** وهذا ليس بيان ماهيّته و ذاته فالجواب لا ينطبق على السؤال و إذا كان كذلك فهو مجنونٌ فأنّ العاقل يجيب عن السؤال و لتوضيح ذلك نقول، كلمة، (ما) في إصطلاح الفلاسفة و المنطّقيين على ضربين، حقيقية، و شارحة،

أي تارةً يسأل بها عن حقيقة الشيء و ماهيّته كما يقال، الإنسان ما هو، يقال حيوان ناطق، فحيوانٌ ناطق ماهيّة الإنسان و قد يعبّر عنه بالحدّ التّام لأنّه تامّ في بيان حقيقة الإنسان و ماهيّته و يمّى هذا بماء الحقيقّة، و تارةً يسأل بها لا كذلك بل السّؤال عن شرح اللّفظ كما إذا قال القائل الرّائي للشّجر ماهذا، فتقول هذا شجر أو نبات فأنّ هذا لا يبيّن ماهيّة الشّجر و أنّما عرَّف لفظٌ بلفظٍ أخر و يعبّر عنه بالتّعريف اللّفظي إذا عرفت هذا فتقول قول فرعون و ما ربّ العالمين، سؤال عن ماهيّة ربّ العالمين و ذاته و حقيقته كأنّه أراد بسؤاله هذا معرفة الرّب بكنهه و ذاته، و قال موسى في جوابه بقوله: **رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**، لا ينطبق على سؤال لأنّه أجاب عن السؤال بأوصافه تعالى و هو أنّه ربّ السّموات و الأرض الخ.

و بعبارةٍ أخرى لم يقل فرعون، من ربّ العالمين، بل قال **مَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**، و الفرق واضح فأنّ السؤال عن ذات الشّيء و حقيقته غير السّؤال عن أوصافه و مشّخصاته.

أن قلت فعلى هذا يكون كلام فرعون أنّ رسولكم الّذي أرسل اليكم لمجنون، حقٌّ لأنّ موسى لم يجبه على سؤاله و من كان كذلك فليس بعاقل.

قلت كلاّ لأنّ اللّه تعالى لا يعرف بكنهه و ذاته و أنّما يعرف بآثاره و أوصافه فالسّؤال عن كنه ذاته لا معنى له و على هذا فأن أراد فرعون بقوله: **وَ مَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**، السؤال بما الحقّيقة فهو يدلّ على جهله و سفاهته و حماقته و إن كان السّؤال، بما، ما الشّارحة فقد أتى موسى بالجواب و هو منطبقٌ على السّؤال يدلّ، فالسّؤال يدلّ على حماقة السّائل و جنونه و الجواب يدلّ على عقل المجيب و فراسته حيث أجاب بالوصف فثبت و تحقّق أنّ المرسل و هو موسى كان عاقلاً حيث أجاب على طبق الموازين العقليّة و هو شرح لفظ الرَّب، بالأوصاف و أمّا المرسل اليه و هو فرعون كان مجنوناً حيث سأل عن ماهيّة الرَّب و حقيقة ذاته و لم يعلم أنّ المخلوق عاجز عن معرفة الرَّب بكنهه و لذلك أشار موسى في الجواب بوصفٍ آخر للرَّب تعالىٰ.

قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَآ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

و المعنى أنّ ربّ العالمين هو ربّ المشرق و المغرب وليس هو إلاّ اللّه تعالى الّذي خلق السّموات و الأرض و ما بينهما من الشّمس و القمر و الكواكب و غيرها و في قوله: إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ إشارة الى أنّ فهم هذا المعنى و دركه موقوفٌ على العقل السّليم و التّجنب عن العناد كما هو مقتضى التّعليق علىٰ الشّرط و قد ثبت أنّ المشروط ينتفي بإنتفاء شرطه و لذلك أي لعدم وجود العقل السّليم في فرعون لم يقبل هذا ولم يعتقد و رجع الى الإستعلاء و التغلّب فتوّعد موسى بالسّجن كما حكى اللّه تعالى عنه بقوله:

قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ

و من المعلوم أنّ في توّعده بالسّجن ضعفٌ و عجزٌ و أنّه لم يقدر على إثبات دعواه من الرُّبوبية و لا على ردّ موسى على ما إدّعاه من ربوبيّة اللّه و لذلك قال لموسى لأن إتّخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين، و ليس هذا جواب من أتى بالدّلائل القاطعة و البراهين السّاطعة.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ

يعني بمعجزةٍ تدلّ على صحّة ما إدعيّته ظاهراً محسوساً و في هذا الكلام إشارة الى أنّ ما أقمته من البراهين على صدق المدّعى حيث كان موقوفاً على التّعقل و الإدراك الصّحيح و لست أنت من أهله ولذلك كان خفيّاً عليك فالآن أجئ بشئٍ مبين أي ظاهر محسوس.

■

قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾
فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَ نَزَعَ
يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ
حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ
يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿٣٥﴾ قَالُوٓا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾
فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَ
قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا
نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنْتُمْ
مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قَالُوا
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى
مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا اٰمَنَّا بِرَبِّ
ٱلْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَ هٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ
اٰمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ اٰذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا

مُنْقَلِبُونَ ﴿۵۰﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿۵۱﴾

◀ اللّغة

ثُعْبانٌ: بضمّ الثاء قيل الثُّعبان الحيّة الذّكر.

نَزَعَ: النَّزع الخروج.

لِلْمَلَإِ: الملاء الجماعة.

أَرْجِهْ: الإرجاء التّأخير أي أخرّهما.

أَلْقُوا: الإلقاء الإطراح أي إطرحوا و الباقي واضح.

◀ الإعراب

لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ حال من الملاء و قال الكّوفيون الموصوف محذوف و التّقدير، الّذين حوله.

◀ التّفسير

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

لمّا رأى موسى أنّ الوعظ لم يؤّثر في فرعون و أتباعه و أنّ الحجّة العقليّة لا تنفع رأى أن يأتي بمعجزةٍ ظاهرة محسوسة و هي الشئ المبين في الآية لعلّ فرعون يرضخ لقوّة اللّه الخارقة الغالبة فقال فرعون فائت به أي بما تقول و تدّعى **فَأَلْقَى عَصَاهُ** أي أطرحه على الأرض **فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** أي صارن ثعباناً، و فتحت الحَّية فاها كغارٍ عظيم يسع كلّ ما بين سماطي فرعون واضعةً لحيها الأسفل على الأرض و رافعة لحيها الأعلى في جوّ الغرفة الكبرى و يخرج من جوفها لهيب نارٍ عظيمة ثمّ إتجّهت نحو فرعون ففوجئ اللّعين فرعون فإذا هو لم يتّمكن أن

يقوم بشيئٍ ممّا قام به موسى و تزعزع ذعراً و خوفاً و هو يصرخ و يستغيث بموسى قائلاً ناشدتك ربّك ياموسى و حرمة الرّضاع إلاّ ما كففت عنّي و إنّني أؤمن بك و أرسل معك بني إسرائيل فمّد موسى يده و تناول الحيّة العظيمة فإذا هي عصا من خشب أصبحت فى يد موسى و دهش القوم من ذلك و رأى موسى فرحته لزيادة الأثر بالمعجزة الثّانية فأدخل يده في جيبه ثمّ أخرجها فإذا هي بيضاء فوق بياض الثّلج كأنّها شمسٌ تضيئ و إلى ذلك أشار اللّه تعالى في كتابه حيث قال:

وَ نَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ

و لمّا سأل فرعون عن ذلك أرجعها موسى إلى جيبه ثمّ أخرجها ثانية فإذا هي يده العادية نفسها فغلب على المكان صمتٌ و سكوت وخيم على الغرفة جوٌّ من التّأمل و التفكّر و أو شكّ فرعون أن يعلن إيمانه بموسى و لكنّ الخبيث هامان وزيره منعه من ذلك و أفسد رأيه و كان يحاول إقناعه بأن ما أتى به موسى هو نوعٌ من السّحر و كان هامان عزيزاً عنده في قصره فرأى أنّه إن أمن بموسى تسقط سطوته و هيبته التّي أحرزها بواسطة ربوبيّة فرعون فإستعمل جميع الحيل لردع فرعون من الإيمان بموسى إبقاءً لرئاسته.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ

الظّاهر أنّ القائل هو فرعون و قيل القائل هامان و هو خلاف ظاهر الآية إذ ليس منه في الآية عينٌ و لا أثر و كيف كان لمّا رأى فرعون معجزة موسى ولم يقدر على إبطاله قال لحواريه إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ، و هذا هو العجز الظّاهر.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

و هذا كذبٌ ظاهر و لا غرو فيه فأنّ الغريق يتّشبث بكلّ حشيش و ذلك لأنّ موسىٰ عليه السلام لم يرد إخراجهم من أرضهم بل أراد إيمانهم و إعراضهم عن الشّرك و لمّا شاور فرعون معهم.

قَالُوٓا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ

الإرجاء التّأخير أي أخرّهما و أنّما أشاروا بتأخيره و لم يشيروا بقتله لأنّهم رأوا أنّ النّاس يفتنون به إن قتل و أنّ السَّحرة إذا قاومته زال ذلك الإفتنان و قوله و أبعث في المدائن حاشرين، أي أرسل حاشرين يحشرون النّاس من جميع البلدان فأنّ الحشر السَّوق من جهات مختلفة إلى مكانٍ واحد و إنحشر النّاس إلى مكان إجتمعوا إليه و لذلك سمّي يوم الحشر به و حاصل المعنى أنّهم قالوا لفرعون أخِّرهما و أمر بحشر النّاس و إجتماعهم في مكانٍ معيّن.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ

أي يجيئوك بكلّ سحّارٍ عليم و السَّحار مبالغة فيمن يعمل بالسّحر.

فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

أي لوقت يومٍ بعينه إختاروه و عيَّنوه.

وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ

على موسى و الغلبة الإستعلاء بالقوّة و المراد هنا الغلبة بقوّة السِّحر و أنّما علّق متابعة السَّحرة على الغلبة لأنّ متابعة المغلوب لا يساعدها العقل السّليم فالحقّ لمن غلب بالحجّة.

فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ

أي قال فرعون نعم إنّكم إذاً، أي في صورة الغلبة على موسى، لمن المقرّبين، عندنا و أيُّ أجرٍ أحسن من التَّقرب إلى السّلطان و فيه ما تشتهيه الأنفس و تلّذ الأعين في دار الدّنيا و أن كان فيه العذاب في الأخرة فأنّ النّاس عبيد الدّنيا لا عبيد الأخرة و قليلٌ من عبادي الشّكور.

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنْتُمْ مُلْقُونَ

أي قال موسى للسّحرة إعملوا ما شئتم من السِّحر و الإلقاء الإطراح.

فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ

حبال بكسر الحاء جمع حبل و هو الرّسن و جمعه حبال كسهم و سهام، و عصّي واحدها عصا، و هو معروف و المعنى أنّهم أي السَّحرة ألقوا حبالهم و عصيّهم، و هو كناية عن الأسباب و الألات الّتي كانوا يعملون بها السَّحر و السِّحر لطف الحيلة حتّى يتّوهم المموّه عليه أنّ حقيقة فلمّا ألقوا ما ألقوا قالوا بعزّة فرعون أنّا لنحن الغالبون، فالباء في قوله: **بِعِزَّةِ**، للقسم و أنّما قالوا ذلك أي أقسموا به لأنّهم كانوا معتقدين بربّوبيته و ألوهيّته و قولهم: **إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ**، كان منهم من التّعجيل في الحكم فأنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون، و لم يعلموا أنّهم مغلوبون لا غالبون.

فَأَلْقَى مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

التّلقف تناول الشّيئ بالفم بسرعةٍ و الإفك الوهم و المعنى أنّ موسى لمّا ألقى عصاه فهي أكلت ما يوهمون الإنقلاب زوراً و بهتاناً و قيل كان عدد السَّحرة أثنى عشر ألفاً و كلّهم أقّر بالحقّ عند أية موسى و اللّه أعلم بعددهم.

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ

أنّ السَّحرة لمّا بهرهم ما أظهره موسى من قلب العصا حيّة و تلّقفها جميع ما أتعبوا نفوسهم فيه من السِّحر علموا أنّ ذلك من فعل اللّه و أنّ البشر لا يقدر عليه فأمنوا عند ذلك و أذعنوا للحقّ و ذلك لأنّ أهل البيت أدرى بما فيه فخّروا ساجدين للّه شكراً على ما أنعم اللّه به عليهم و وّفقهم للإيمان و إنّهم قالوا عند ذلك أمنّا و صدّقنا بربّ العالمين الّذي خلق الخلق كلّهم و ربّاهم على ما تقتضي مصالحهم كما حكى اللّه عنهم بقوله:

قَالُوۤا اٰمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَ هٰرُونَ

و أنّما أضافوا ذلك بعد قولهم أمنّا بربّ العالمين و قالوا ربّ موسى و هارون للإشارة إلى أنّ مرادهم ربّ موسى و هارون، لا فرعون إذ كلمة الرَّب تطلق عليه أيضاً، كما قال أنا ربّكم الأعلى و بعبارةٍ أخرى أنّ الجهّار كانوا يعتقدون ربوبيّة فرعون و في قوله: **سَاجِدِينَ**، قولان:

أحَدهما: أنّ الحقّ الّذي عرفوه ألقاهم ساجدين.

ثانيهما: أنّهم ألقوا نفوسهم ساجدين لما عرفوا من صحّة الدّعاء إلى الدّين و عند ذلك قال لهم فرعون مهدّداً.

قَالَ اٰمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ اٰذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

أي قال فرعون للسَّحرة بعد إيمانهم بربّ موسى و هارون، أمنتم له أي صدَّقتم موسى فما يدعوكم إليه من الإيمان باللّه و أنّما قال ذلك على سبيل الإنكار عليهم قبل أن أذن لكم، في تصديقكم إيّاه ثمّ قال لهم أنّه لكبيركم الّذي علَّمكم السِّحر، أي أستاذكم و عالمكم، **فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**، فيما بعد ما أفعله بكم جزاءً على تصديقكم إيّاه قبل أن أذن لم ثمّ أشار بما سيفعله بهم و قال.

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

و المراد بقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف هو قطع اليد من جانبٍ و الرِّجل من الجانب الأخر كقطع الرِّجل اليسرى و اليد اليمنى ثمّ أنّه لم يقنع بذلك فقال: **وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**، على الجذوع و لا أترك واحداً منكم حيّاً.

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ

أي قال السَّحرة في جواب فرعون لا ضير، أي لا ضرر علينا بما تفعله أنّا إلى ربّنا منقلبون، صائرون أي مصيرنا إلى ثواب اللّه قيل لم يصل فرعون إلى قتل

أحدٍ منهم و قال قوم أوَّل من قطع الأيدي و الأرجل فرعون ثمّ قال السَّحرة بعد قولهم لا ضير.

إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَنْ كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

مرادهم بالخطايا هو ما فعلوا من السِّحر قبل إيمانهم و يحتمل أن يكون المراد إعتقادهم بألوهيّة فرعون و قولهم أن كنّا أوّل المؤمنين معناه لأنّا كنّا أوّل من صدَّق بموسى و أمن باللّه و الخطايا جمع خطيئة و هي الزّوال عن الإستقامة و طريق الحقّ.

■

وَ أَوْحَيْنآ إِلٰى مُوسٰىٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبادىٓ إِنَّكُمْ
مُتَّبَعُونَ ﴿۵۲﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدٰآئِنِ
حٰاشِرِينَ ﴿۵۳﴾ إِنَّ هٰٓؤُلآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿۵۴﴾
وَ إِنَّهُمْ لَنٰا لَغٰآئِظُونَ ﴿۵۵﴾ وَ إِنّٰا لَجَمِيعٌ
حٰاذِرُونَ ﴿۵۶﴾ فَأَخْرَجْنٰاهُمْ مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ
﴿۵۷﴾ وَ كُنُوزٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ ﴿۵۸﴾ كَذٰلِكَ وَ
أَوْرَثْنٰاهٰا بَنِىٓ إِسْرٰآئِيلَ ﴿۵۹﴾ فَأَتْبَعُوهُمْ
مُشْرِقِينَ ﴿۶۰﴾ فَلَمّٰا تَرٰاءَا ٱلْجَمْعٰانِ قٰالَ
أَصْحٰابُ مُوسىٰٓ إِنّٰا لَمُدْرَكُونَ ﴿۶۱﴾ قٰالَ كَلّآ
إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴿۶۲﴾ فَأَوْحَيْنآ إِلٰى
مُوسىٰٓ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصٰاكَ ٱلْبَحْرَ فَانْفَلَقَ
فَكٰانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿۶۳﴾ وَ أَزْلَفْنٰا
ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿۶۴﴾ وَ أَنْجَيْنٰا مُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُٓ
أَجْمَعِينَ ﴿۶۵﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿۶۶﴾ إِنَّ فى
ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۶۷﴾ وَ إِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿۶۸﴾ وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرٰاهِيمَ ﴿۶۹﴾ إِذْ قٰالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا
تَعْبُدُونَ ﴿۷۰﴾ قٰالُوا نَعْبُدُ أَصْنٰامًا فَنَظَلُّ لَهٰا
عٰاكِفِينَ ﴿۷۱﴾ قٰالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ
﴿۷۲﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿۷۳﴾ قٰالُوا بَلْ
وَجَدْنآ آبٰآءَنٰا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿۷۴﴾ قٰالَ أَفَرَأَيْتُمْ
مٰا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿۷۵﴾ أَنْتُمْ وَ آبٰآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ

﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾
ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَ ٱلَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَ ٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَ
ٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَ ٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَ ٱجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَ ٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٨٦﴾ وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا
يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ
بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

◀ اللّغة

حَاشِرِينَ: الحشر الجمع.

لَشِرْذِمَةٌ: الشّر ذمة العصبة الباقية من عصب كثيرة و شرذمة كلّ شيءٍ بقيّة القليلة

لَغَآئِظُونَ: الغائظ فاعل من الغيظ و هو الغضب.

حَاذِرُونَ: قد قرئ، حذرون، أيضاً قال أبو عبيدة هما بمعنى واحد أي متيقّظون و قيل بينهما فرق، فالحذر المتّيقظ، و الحاذر الخائف و عن المصباح حذرٌ حذراً من باب تعب و إحتذر و إحترز كلّها بمعنى و إستّعد و تأهب فهو حاذر و الإسم منه الحذر، و حذر الشّئ إذا خافه و الشّئ محذور أي مخوف.

فَانْفَلَقَ: الفلق الشّق.

الطَّوْدِ الجبل.

أَزْلَفْنا: أي قرّبنا و ادينا و قيل معنى أزلفنا جمعنا و ليلة مزدلفة ليلة جمع و المعنى قرَّبنا قوم فرعون الى البحر.

عاكِفِينَ: أي مقيمين مداوبين على عبادتنا.

◀ الإعراب

قَلِيلُونَ جمع على المعنى لأنّ الشّر ذمة جماعة مُشْرِقِينَ حال هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ أي يسمعون دعاءكم فحذف المضاف لدلالة تَدْعُونَ عليه إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ هو إستثناء من غير الجنس لأنّه لم يدخل تحت الأعداء و قيل من الجنس لأنّ آباءهم كان منهم فَهُوَ مبتدأ و يَهْدِينِ خبره و الجملة خبر، الّذي وَ ٱجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ، من، متعلّقة بمحذوف أي وارثاً من ورثة يَوْمَ لا يَنْفَعُ، بدل من يوم الأوّل إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللّٰهَ فيه وجهان:

أحدهما: هو إستثناء من غير الجنس أي لكن من أتى اللّه بسليم أو ينتفع.

الثّاني: أنّه متصلّ، و في إعرابه وجهان:

أحدهما: هو في موضع نصب بدلاً من المحذوف أو إستثناء منه.

الثّاني: هو في موضع رفع على البدل من فاعل ينفع.

◀ التّفسير

جزء ۱۹

وَ أَوْحَيْنآ إِلَى مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبادِيٓ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ

قيل، سرى و أسرى لغتان فمن قطع الهمزة قال هو من أسرى يسري و من وصلها فمن سرى يسري و العباد جمع عبد و قد مرّ الكلام فيه و المراد بهم هو عباد اللّه الّذين آمنوا أوحى اللّه تبارك و تعالى الى موسى أن يسري بعباد اللّه ليخرجوا من بلد فرعون و أعلمهم أنّ فرعون و جنوده يتّبعونهم و يخرجون في طلبهم و تبع و إتبع لغتان.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ

يحشرون النّاس اليه الّذين هم جنوده و أعوانه و بعبارةٍ أخرى أمر فرعون بتجهيز العسكر.

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

أي فلمّا حضروا عنده قال لهم أنّ هؤلاء يعني أصحاب موسى، لشر ذمةٌ قليلون و الشّر ذمة العصبة الباقية من عصبٍ كثيرة و شرذمة كلّ شيءٍ بقيّته القليلة و أنّما قال لهم ذلك تسليةً لهم و جهلاً منه بأنّه كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةٍ كثيرة و أنّ اللّه تعالى على كلّ شيءٍ قدير.

و عن عبد اللّه بن مسعود أنّه قال الشّر ذمة الّذين قلّلهم فرعون من بني إسرائيل كانوا ست مائة ألف و سبعين ألفاً ألفاً و أنّما إستقلّهم لأنّه كان على مقدّمة سبعة آلاف ألف على ما قال بعض المفسّرين.

وَ إِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ

هذا أيضاً كلام فرعون لأصحابه يقول أنّهم مع قلّتهم، **لَغَآئِظُونَ**، أي أنّهم يغيظوننا بمخالفتهم أيّانا.

وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ

هذا أيضاً من كلام فرعون فأنّه لمّا حكم بقلّة أصحاب موسى مدح أصحابه و قال: **إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**، قرأ بعضهم حاذرون بألف و الباقون بغير ألف فمن قرأ بالألف قال هو مثل شرب فهو شارب و حذر فهو حاذر و قرأ عبد اللّه بن سائب، حادرون، با لدّال المهملة بمعنى نحن أقوياء غلاظ الأجسام يقال حادرٌ أي سمين، و تميل الفرق بين الحادر و الحذر أنّ الحاذر الفاعل للحذر أن يناله مكروه و الحذر المطبوع على الحذر و قيل، حاذرون، مؤوّن في السّلاح أي ذوو أداةٍ من السّلاح المتّعدون للحروب من عدّوٍ و الحذر إجتناب الشّئ خوفاً منه،

فمن قرأ، حذرون، أي إستعددنا لقتالهم ثمّ أشار اللّه تعالى إلى كيفيّة عذاب قوم فرعون و هلاكهم.

فَأَخْرَجْنٰاهُمْ مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ، وَ كُنُوزٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ

أي أخرجنا قوم فرعون من جنّات، و هي البساتين الّتي تحتها الأشجار، و عيون جارية فيها، **وَ كُنُوزٍ**، يعني أموالهم التّي دفنوها تحت الأرض، **وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ**، أي الموضع الّذي كانوا يقيمون فيه من القصور، و الحاصل أنّ فرعون و قومه كانوا في عيشٍ و نعمةٍ و لكنّهم كفروا بربّهم الّذي خلقهم و أنعم عليهم ولم يشكروا على ما أتاهم اللّه فأخذهم اللّه بذنوبهم و أخرجهم عمّا كانوا فيه و أزال عنهم النّعم و بدّل عيشهم و رفاهيّتهم بالنّقمة و العذاب في الدّنيا و الأخرة و ذلك جزاء الّذين كفروا و عتوا عن أمر ربّهم فأنّ ربّك لبالمرصاد و حيث أشار اللّه تعالى في الآية بقوله: **مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ** الخ لا بأس بالإشارة إلى ما كتبه عمر بن العاص إلى عمر إبن الخطّاب في وصف مصر:

قالوا لمّا إستقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه عمر إبن الخطّاب أن صف لي مصر فكتب إليه إعلم أنّ مصر قرية غبراء و شجرة خضراء طولها شهر و عرضها عشر يكنفها جبلٌ أغبرٌ و رملٌ أعفر يخطر وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الرّوحات تجري فيه الزّيادة و النّقصان كجري الشّمس و القمر له أو انٌ يدُّر حلابه و يكثر فيه ذبابه تمُّده عيون الأرض و ينابيعها حتّى إذا ما أصلّتخم عجّاجه و تغمّطت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التّخلص من القرى بعضها إلى بعض إلاّ في صغار المراكب و خفاف القوارب، و زوارق كأنّهن في المخايل و رقق الأصائل فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأوّل ما بدأ في جريته وطما في درّته، فعند ذلك تخرج أهل ملّةٍ محقورةٍ و ذمّةٍ محفورةٍ يحرثون الأرض و يبذرون بها الحبّ يرجون بذلك النّماء من الرّب لغيرهم ما سعوا من كدّهم فناله منهم بغير جدّهم فإذا أحدق الزّرع و أشرق سقاه

النّدى و غذاه من تحته الثّرى فبينما مصر لؤلؤةٌ بيضاء إذا هي عنبرة سوداء فإذا هي زمرّدةٍ خضراء فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك اللّه الخالق لما يشاء إلى أخر تلك الرّسالة بطولها.

أقول و جاء في خطط المقريني ما يجلو غوامض هذه الرّسالة، و وصف بعضهم مصر فقال، ثلاثة أشهر لؤلؤوةٌ بيضاء و ثلاثة أشهر مسكةٌ سوداء، و ثلاثة أشهر زمّردة خضراء و ثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء فأمّا اللّؤلؤة البيضاء فأنّ مصر في أشهر أبيب و مسري و توت يركبها الماء فترى الدّنيا بيضاء و ضياعها على روابي و قلال مثل الكواكب قد أحيطت بالمياه من كلّ وجهٍ فلا سبيل إلى قريةٍ من قراها إلاّ بالزّوارق، و أمّا المسكة السّوداء فأنّ في أشهر بابه، و هاتور، و كهيك، ينكسف الماء عن الأرض فتصير أرضاً سوداء و في هذه الأشهر تقع الزّراعات.

و أمّا الزمّردة الخضراء فأنّ في أشهر طوبة و أمشير و برمهات يكثر نبات الأرض و ربيعها فتصير خضراء كأنّها الزُّمردة، و أمّا السَّبيكة الحمراء فأنّ في أشهر برمودة و بشنس و بثوئة يتَّورد العشب و يبلغ الزَّرع الحصاد فيكون كالسَّبيكة التّي من الذّهب فنظراً و منفعةً إنتهى.

أقول و إلى ما ذكرناه من أوصاف مصر أشار اللّه تعالى بقوله: **فَأَخْرَجْنٰاهُمْ مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُيُونٍ، وَ كُنُوزٍ وَ مَقٰامٍ كَرِيمٍ** و أنّما قال فأخرجناهم ولم يقل فخرجوا منها مثلاً فنسب اللّه تعالى إخراجهم عن مصر إلى نفسه لنقطةٍ و هي أنّهم لم يخرجوا منها من عند أنفسهم على سبيل الإختيار و أنّما خرجوا منها لمحاربة موسى بزعمهم إلاّ أنّهم لم يرجعوا إليها أبداً فالباعث على خروجهم في ظاهر الأمر هو موسى عليه السلام وفي الواقع هو اللّه الّذي أرسل موسى إليهم و لولا ذلك لما خرجوا منها و لذلك قال تعالى فأخرجناهم.

كَذٰلِكَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ

أي كذلك أخرجناهم عن بلادهم و أورثناها بني إسرائيل، أي جعلنا بلاد مصر إرثاً لهم.

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ

أي تبع فرعون و قومه أثر موسى مشرقين أي وقت إشراق الشّمس و ظهور ضوءها و صفاءه و قيل معناه مصبحين يقال أتبع فلان و تبعه إذا إقتضى أثره لغتان و معناه واحد.

فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ

تراء الجمعان أي لمّا رأى أحدهما الأخر و الجمعان عبارة عن جند فرعون، و قوم بنى إسرائيل أي رأى أحد الفريقين الفريق الأخر و قيل معناه تقابلا الجمعان بحيث يرى كلّ فريقٍ صاحبه و هو تفاعل من الرّؤية و هو فعل ماضٍ موّحد و ليس مثنى لأنّه فعلٌ متّقدمٌ على الإسم ولو كان مثنى لقال تراءا قال أصحاب موسى إنّا لَمُدركُون بفتح الرّاء من أدرك إدراكاً و الفاعل منه مُدرِك بكسر اللاّم و المفعول بفتحها و أنما قالوا ذلك لأنّ فرعون كان يتبعهم و يقتفي أثرهم فالمعنى أنّا لملحقون فالإدارك الإلحاق و أنما جاز تثنية الجمه لأنّه يقع عليه صفة التّوحيد فتقول هذا جمعٌ واحد و لا يجوز تثنية مسلمين لانّه لا يقع عليه صفة التّوحيد لأنّه على خلاف صفة التّوحيد و لمّا قال قوم موسى إنّا لمدركون و هو دليل خوفهم من قوم فرعون قال موسى في جوابهم، كلاّ، و هو حرف ردعٍ أي ليس الأمر كما تظّنون، أي **مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ** و الأصل سيهديني فحذفت الياء لدلالة الكسرة على حذفها و المعنى أنّ ربّي بنصره إيّاي سيدُّلني على طريق النّجاة من فرعون و قومه فلا تخافوا و لا تحزنوا أنّ اللّه معنا و إلى هذا المعنى أشار اللّه بقوله:

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ

و المعنى فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر، أمّا عصا موسى فهي التّي صارت ثعباناً في مجلس فرعون و أمّا البحر فقيل هو بحر قلزم فلمّا ضرب عصاه إنفلق البحر قيل أنّه صار أثنا عشر طريقاً لكلّ سبطٍ طريق فكان كلّ فرقٍ كالطَّود العظيم، و الطَّود الجبل و أنّما شبّه الماء بالجبل لتراكم الماء قيل لمّا نظر قوم موسى إلى البحر أمامهم و نظروا إلى جيوش فرعون في طلبهم و قد قربوا منهم فغلب عليهم الجزع و الفزع و ثاروا بموسى يقولون له **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** إنّا لمدركون، و سيطر عليهم الخوف حتّى قال بعضهم لموسى فليتك تركتنا بمصر يستعبدنا أل فرعون فهداهم موسى **قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّى** و عند ذلك صار مأموراً بأن يضرب عصاه البحر ففعل موسى ما أمره اللّه به و تمّت لبني إسرائيل أثنتى عشرة طريقاً على عدد أسباطهم و كلّها جافّة صلدة بفضل اللّه فقالوا لموسى إذا دخلت قبيلة منّا سكّة من هذه السّكك فأنّها لا تدري ما يجري على سواها فشكى موسى أمرهم إلى ربّه جلّ جلاله فأوحى اللّه إليه أن أضرب تلك الجدران المرتفعة بين السّكك كالأطواد بعصاك فضربها موسى فإذا الجدران تنقلب شفّافة كالشّبك يكشف كلّ منها على ما في جوانبه.

وَ أَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ

أي جمعناهم أو قرّبناهم.

قال إبن عبّاس معناه قرّبنا إلى البحر فرعون و منه قوله تعالى: **وَ أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**(١).

و قال أبو عبيدة معنى أزلفنا جمعنا، وليلة مزدلفة ليلة جمع، و قيل معناه قرّبناهم إلى المنيّة لمجيئ وقت هلاكهم.

١- الشّعراء = ٩٠

وَ أَنْجَيْنٰا مُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا اَلْآخَرِينَ

أشار اللّه تعالى إلى نجاة موسى و من معه و هلاك فرعون و من معه و كيفيّة الواقعة أنّ فرعون و جنده الّذين تخوَّفهم بنو إسرائيل لمّا بان سوادهم قد قربوا فبادر بنو إسرائيل يقتحمون سبلهم التّي فتحها اللّه لهم فساروا و الماء على جوانبهم كالجبال و هم ينظر بعضهم إلى بعضٍ و يسمع بعضهم بعضاً و خرج بنو إسرائيل من البحر من الطَّرف الأخر و لمّا إنتهى فرعون بقومه إلى البحر و شاهدوا إنفلاقه و قيام المياه جدراناً مانعة دون سائد و الأرض جافّة يابسة فقال فرعون لمن حوله أنظروا إلى البحر قد إنفلق لهيبتي حتّى أدرك أعدائي و عبيدي ألا ترون أنّي ربّكم الأعلى قد فرج إلى البحر ثمّ أمرهم بدخول السّكك و ملاحقة بني إسرائيل فلم يجسر أحد منهم على ذلك و إمتنعت الخيل عن التَّقدم لهول الماء فتَّقدم فرعون بنفسه نحو الماء ليشجع أصحابه و يحثّهم و لّما همَّ بدخول الطّريق المفتوحة نهاه هامان و قال له أنّي قد أتيت هذا الموضع مراراً يافرعون، و مالي بهذا الطّريق هنا عهدٌ من قبل و أنّي لا أمن أن يكون هذا سحراً من موسى و يكون فيه هلاكنا فتظاهر فرعون بعدم المبالاة و كان فرعون يستبطئ حصاناً قوياً فلمّا بلغ الماء لامس أرض البحر تمّنع و أبى فنزل اللّه جبرئيل بصورة بشر على فرس هيفاء رشيقة و سار بها نحو الطّريق البحريّة المهولة و لمح الحصان تلك الفرس فطلبها سريعاً و لمّا رأى أتباع فرعون تقدّمه سالماً تشّجعوا و تبعوه بأجمعهم و لمّا صار القوم كلّهم في البحر و أمامهم فرعون فنظر فإذا الماء قد إلتحمت ولم يبق أمامهم طرق أبداً فصاح بأصحابه و أخبرهم بأنّ الطّريق قد إنتهت فأرجعوا و أنّها الحيلة المهلكة فصاح بعضهم إلى بعض فنظروا إلى ورائهم فإذا الماء قد إلتحم و لم يبق ورائهم طريق أبداً فأيقن فرعون و هامان و أصحابهما أنّ الهلاك وقع لا خلاص منه أبداً و جعل الماء يزم و يقرب إلتحامه منهم إلى أن إلتصق بمؤخّرهم و مقدّمتهم و هو مرتفعٌ كالجبال

الّشاهقة فصاح فرعون بدون شعور و علم أنّ الّذي فعل بهم ذلك ربّ موسى و هارون و ربّ العالمين جميعاً كما حكى اللّه عنه:

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓ إِسْرَآئِيلَ وَ أَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ[١].

و أطبق البحر في ثوان على الطّغاة و أتباعهم ليصبحوا طعاماً لأسماك البحر و ما هي إلاّ لحظات حتّى همد و أطبق البر و غرق الكفرة الفجرة و دوي على السّاحل صوت أشدّ من أصوات الرُّعود القاصفة فدهش بنو إسرائيل و إرتاعوا و سألوا موسى عن سِّر ذلك الصَّوت فأخبرهم بهلاك فرعون و جنوده أجمعين فما صدَّقوه بل قالوا أنّ فرعون لأنّه ليس كباقي الخلائق فأمر اللّه تعالى أمواج البحر أن تلقيه بجسده سالماً على الشّاطئ أمام بني إسرائيل اليَّؤس ليكون لهم و لغيرهم عبرة وعظة فألقته الأمواج على نجوةٍ من الأرض و عليه درعه و ثيابه التّي كان يتّفرد بها فنظر إليه بنو إسرائيل فعرفوه و أيقنوا بموته و إلى هذا أشار اللّه بقوله:

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ كما عرفت من بني إسرائيل.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

أي هو القادر الّذي لا يمكن معارضته في أمره و هو مع ذلك رحيمٌ بخلقه و في ذلك غاية الحثّ على طلب الخير من جهة الموصوف بهما فهو تعالى أرحم الرّاحمين في موضع العفو و الرَّحمة و أشدّ المعاقبين في موضع النّكال و النَّقمة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيا من حيّ عنها.

وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ

١- يُونس = ٩٠

لمّا ذكر اللّه تعالى قصّة موسى و فرعون لتكون عظة للمتّقين المعتبرين بها أشار إلى قصّة إبراهيم الخليل فقال: **وَ ٱتْلُ عَلَيْهِمْ** يامحمّد نبأ إبراهيم النّبأ الخبر و إبراهيم بكسر الألف إسمٌ أعجّمي قال الجوهري و فيه لغات، إبراهام و إبراهم بحذف الياء و في معاني الأخبار معنى إبراهيم أنّه همَّ و برَّ، و كان إبراهيم إبناً لتارخ و كان تارخ مؤمناً موّحداً للّه تعالى لم يسجد لصنم قطّ و يشهد بذلك قوله تعالىٰ: **اَلَّذي يَريٰكَ حيٖنَ تَقُومُ، وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسّٰاجِديٖنَ**[١] و قد ذكروا في تفسيرها بأنّ روحه ونطفته صلّى الله عليه وآله وسلّم كانا ينتقلان من صلب ساجدٍ إلى صلب ساجد و أنّ جميع أباءه إلى أدم كانوا موّحدين ساجدين للّه تعالى وحده دون غيره و منهم إبراهيم الخليل و أبوه تارخ و قد ورد عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال لم أزل أنتقل من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام الطّاهرات أنا و أخي علّي بن أبي طالب حتّى إفترقنا في أبي عبد اللّه و عمّي أبي طالب و لم يكن أحداً من أبائي مشركاً بخساً، و أمّا آزر الّذي ذكره اللّه تعالى في كتابه و سمّاه أباً له فهو عمُّه و كان إبراهيم في كفالته و أنّ إطلاق الأب على العمّ شائع عند العرب و خاصة إذا كان العمّ قائماً بكفالة إبن أخيه و تربيّته ألا ترى أنّ إسماعيل بن إبراهيم كان عمّاً ليعقوب بن إسحاق و قد ذكر في أباءه في قوله تعالى:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قٰالَ لِبَنيٖهِ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدي قٰالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ اٰبٰآئِكَ إِبْراٰهيٖمَ وَ إِسْمٰاعيٖلَ وَ إِسْحٰاقَ إِلٰهًا واٰحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[٢].

فعدَّ إسماعيل في أباء يعقوب و هو عمّه و هكذا في المقام:

إِذْ قٰالَ لِأَبيهِ وَ قَوْمِهِ مٰا تَعْبُدُونَ

أي إذ قال لعمّه أزر و قومه ما تعبدون أي أيُّ شئٍ تعبدون، و قيل الإستفهام و هو أيُّ للإنكار يعني أيُّ شئٍ معبودكم على وجه الإنكار لأنّهم كانوا يعبدون الأصنام.

١- الشّعراء = ٢١٩ / ٢١٨ ٢- البقرة = ١٣٣

قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ

أي قالوا في جواب إبراهيم نعبد أصناماً فنظلّ لها عاكفين، يقال ظلَّ بفعل كذا من باب تعب إذا فعله نهاراً و بات بفعل كذا إذا فعله ليلاً و العاكف المقيم المداوم على الإقامة و المعنى نعبدها نهاراً مقيمين عاكفين مداومين على العبادة.

قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ

أي قال لهم إبراهيم بعد إعترافهم و إقرارهم بعبادة الأصنام هل يسمعونكم هذه الأصنام التّي تعبدونها إذا دعوتموها، أي هل يسمعون أصواتكم و دعاءكم إيّاها لأنّ أجسامهم لا تسمع أو ينفعونكم بشيءٍ من المنافع، أو يضّرون بشيءٍ من المضّار و أنّما قال إبراهيم لهم ذلك لأنّ من لاّ يملك النّفع و الضَّر فهو جماد لا تحسن عبادته لأنّ العبادة ضربٌ من الشّكر و لا يستّحق الشّكر إلاّ بالنِّعم فمن لا يصحّ منه الإنعام يقبح شكره و من قبح شكره قبحت عبادته و أنتم تدعون العقل فكيف تعبدون ما يحكم العقل ببطلانه فلمّا لم يجدوا لهذا الكلام جواباً قالوا ما حكى اللّه عنهم.

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ

أحالوا الجواب على مجّرد التّقليد عن آبائهم و أن كانوا في ضلالٍ مبين و ليس هذا إلاّ لجهلهم و حماقتهم فأنّ العاقل لا يقّلد في الأمور العقليّة و إنّما هو الفروع و هذا الحكم متّفق عليه بين العقلاء فمن قال أو يقول بخلافه فقد كابر عقله و سقط عن مقام الإنسانيّة و دخل في زمرة الحيوانات بل الجمادات و مع الأسف هذه الرُّؤية الخبيثة الرَّديئة بقيت في أولاد آدم و تبقى الى يوم الوقت المعلوم فإنّا نرى في زماننا هذا كثيراً من النّاس يتّبعون أسلافهم و آبائهم فيما كانوا معتقدين به و أن كان باطلاً عقلاً و لا تختّص الأصنام بالأحجار و الأخشاب بل تطلق على كلّ معبودٍ و متبوعٍ لا يضّر و لا ينفع و أن كان من جنس البشر فمن

إتّبع شخصاً بواسطة آبائه و أسلافه أو من عند نفسه من غير تأمُّل و تعَّقل فيه فقد عبده من حيث لا يحتسب و قد يعّبر عنهم بهمج الرّعاء إتّباع كلّ ناعقٍ يميلون مع كلّ ريح و لا يستضيئون بنور الهدى و منه تقديم المفضول على الفاضل في الدّين و الدّنيا و للبحث فيه مقامٌ آخر.

قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، اَنْتُمْ وَ اٰبَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ

لمّا أجابوا إبراهيم عليه السلام بقولهم بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون.

قال لهم إبراهيم عليه السلام أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم و آبائكم من عبادة الأصنام.

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ

و ذلك لأنّ التّقدم و الأوليّة، لا يكون برهاناً على الصِّحة و الباطل لا ينقلب حقّاً بالقدم و ما عبادة هذه الأصنام إلاّ عبادة أعداء له لأنّ المعزى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان و هو الشّيطان قاله صاحب الكشّاف.

قال الرّازى، و هذا من أقوى الدّلائل على فساد التّقليد و وجوب التّمسك بالإستدلال و ساق الكلام الى أن قال أراد به أنّ الباطل لا يتّغير بأن يكون قديماً أو حديثاً و لا بأن يكون في فاعليّه كثرةً أو قلّةً إنتهى.

قال بعض المفسِّرين وصف الآباء بالأقدمين في عبادتهم الأصنام دلالةً على تقديم عبادة الأصنام فيهم إذ كانوا قد عبدوها و في زمان نوح الى زمان إبراهيم عليه السّلام.

إن قلت فأنّهم عدُّو لي، و لم يقل فأنّها و مرجع الضّمير هو الأصنام بالإتّفاق.

قلت جمعها جمع العقلاء لما وصفها بالعداوة الّتي تكون من العقلاء فأنّ الصَّنم وكلّ ما لا يعقل لا يتَّصف بالعداوة و إنّما قال، عدُّو لي، و لم يقل عدُّو لكم قيل لأنّه تصَّور المسئلة في نفسه على معنى، أي فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدُّو فأجتنبتها و آثرت عبادة من الخير كلّه منه و أراهم بذلك نصيحةً

نصح بها نفسه و ما أراد لنا إلاّ ما أراد لروحه ليكون أوعى لهم الى القبول و البعث على الإستماع منه ولو قال فأنّه عدوٌّ لكم لم يكن بتلك المثابة و لأنّه دخل في باب من التَّعريض و قد يبلغ التَّعريض للمنصوح ما لا يبلغه التَّصريح لأنّه يتأمل فيه فربّما قاده التَّأمل الى التَّقبل إنتهى، ما قاله صاحب الكشّاف.

و إنّما قال: **عَدُوٌّ لِيٓ**، ولم يقل أعداء لي، لأنّ عدوّ، يكون للمفرد و الجمع، كما قال هم العدّو فأحذرهم، و قيل شبّه بالمصدر كالقبول و الولوع. و أمّا قوله: **إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ** فقال صاحب الكشّاف أنّه منقطع كأنّه قال و لكّن قال ربّ العالمين.

ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَ ٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ، وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَ ٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَ ٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ

ذكر إبراهيم في هذه الآيات أوصافاً لرّب العالمين لا يتّصف بها أحد غيره و في هذا الكلام إشارة الى أنّ المعبود هو لا غيره.

قوله: **ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** و الأصل يهدين و هكذا قوله يسقين و يشفين، و يحيين فأنّ التَّقدير يسقين و يشفين و يحيين، أشار عليه السلام في أوّل الأوصاف الى أمرين: الإيجاد و الهداية أي أنّه خلقني و أوجدني فهو يهديني الى الحَّق و لا نقمة بعد نعمة الإيجاد أفضل من نعمة الهداية الى طريق الحَّق المعَّبر عنها بالدَّين أمّا أنّه الخالق لا غيره فلا يخاف فيه لأنّ كلّ ما سواه فهو مخلوقٌ له و أمّا أنّه الهادي الى الحَّق فهو أيضاً ممّا ذكره لا ينكره عاقل و قد أشار اللّه بذلك في كثير من الآيات.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ نَصِيرًا**[1].

١- الفُرقان = ٣١

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ**[۱].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلِ ٱللّٰهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱللّٰهُ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[۴].

و الآيات كثيرة و الموضوع لا يحتاج الى الإثبات لظهوره و أنّ الهداية في الحقيقة منحصرةٌ به تعالى و إذا كان كذلك فالعبادة أيضاً منحصرة له فلا معبود سواه و محّصل الكلام هو إثبات التّوحيد كما ترى و منها.

قوله: **وَ ٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ** هو معطوف على سابقه أي ربّ العالمين هو الّذي يطعمني و يسقين، فيه إشارة الى أنّه الرّازق لعباده و من كان كذلك فهو المعبود لا غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ**[۵].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ ءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ**[۶].

هذا في الطّعام و أمّا السّقي فهو لا يحصل إلاّ بسبب الماء و لا شكّ أنّ اللّه هو خالق الماء.

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ**[۷].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ**[۸].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ**[۹].

۱- القَصَص = ۵۶
۲- الإنسان = ۳
۳- يُونس = ۳۵
۴- النُّور = ۴۶
۵- الأنعام = ۱۴
۶- قُريش = ۴
۷- النَّحل = ۱۰
۸- الواقعة = ۶۸
۹- المُلك = ۳۰

هذا في الدّنيا و أمّا في الآخرة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سَقٰيهُمْ رَبُّهُمْ شَرابًا طَهُورًا**[۱].

قوله: **وَ إِذاٰ مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** فيه إشارة الى أنّ الصِّحة و السُّقم بيده فلا يقدر على شفاء المريض إلاّ هو و هذا أيضاً ظاهر لا كلام فيه.

قوله: **وَ ٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** فيه إشارة الى أنّ الموت و الحياة بيده فهو الّذي خلق الإنسان و قدَّر له أجل فإذا جاء أجله فالموت له حتمٌ ثمّ بعد الموت الحياة ثانياً في يوم البعث فقوله: **ثُمَّ يُحْيِينِ**) إشارة الى يوم البعث و النّشور و من المعلوم أنّ الّذي قادرٌ على الإيجاد قادرٌ على الإماتة و الأحياء في جميع الأحوال و ذلك لأنّ عدم القدرة ضعف و هو العجز و الفقر و الواجب تعالى منَّزه عن النَّقائص.

قوله: **وَ ٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيٓئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ** و هو يوم القيامة و هذا أيضاً لا خلاف فيه لأنّ اللّه تعالى هو غافر الخطيئات لا غيره:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّى لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صالِحًا ثُمَّ اَهْتَدٰى**[۲].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفّارِ**[۳].

قال اللّه تعالىٰ: **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ**[۴].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**[۵].

و الأيات كثيرة و حاصل الكلام في جميع هذه الأيات أنّ الإنسان فقيرٌمحتاجٌ في ذاته و صفاته و أنّه لا يملك لنفسه ضَراً و لا نفعاً فكما أنّه في وجوده محتاج إلى خالقه يوجده كذلك في جميع أموره:

۱- الإنسان = ۲۱ ۲- طٰه = ۸۲

۳- غافِر = ۴۲ ۴- سَبأ = ۱۵

۵- الشُّورىٰ = ۵

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**(١).

و إذا ثبت الفقر ثبت الإحتياج بل الفقر هو الإحتياج بعينه و إذا ثبت الإحتياج إلى خالقه ثبت العبادة له لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و من أعظم الشّكر معرفة الخالق و عبادته إذا عرفت هذا فنقول:

العقل يحكم بأنّ المعبود الّذي يجب أن يعبد هو الّذي يقدر على رفع الحوائج و دفع المضّار و حيث أنّ المخلوق كائناً ما كان لا يقدر على شئٍ منهما فلا يكون معبوداً فأنّ حكم الأمثال واحد فلا محالة يكون المعبود هو القادر على كلّ شئٍ و هو منحصّر باللّه تعالى و إن شئت قلت المعبود يجب أن يكون خالقاً، و هادياً و رازقاً شافياً و غافراً، و هذه الأوصاف لا توجد إلاّ في ربّ العالمين.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

قيل المراد بالحكم هو بيان الشّئ على ما تقتضيه الحكمة فسأل ذلك إبراهيم من حيث كان طريقاً للعلم بالأمور و عن إبن عبّاس المراد به المعرفة باللّه و بأحكامه.

و قال مقاتل فهماً و علماً و قال الكلبي نبوةً و رسالةً إلى الخلق و قال صاحب الشكّاف الحكم الحكمة أو الحكم بين النّاس بالحقّ و المراد بالصّالحين الأنبياء الّذين كانوا من قبل و هو في الأخرة ففي الحقيقة طلب الخليل عليه‌السلام من ربّه سعادة الدّارين و قد أجابه اللّه تعالى بقوله: **وَ إِنَّهُ فِى ٱلْأٰخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ**(٢).

وَ ٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأٰخِرِينَ

قال إبن عبّاس هو إجتماع الأمم عليه و قيل هو الثّناء الحسن، و قيل معناه إجعل من ولدي من يقوم بالحقّ و يدعوا إلى اللّه و هو محمّد صلّى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلّم.

١- فاطر = ١٥ ٢- البقرة = ١٣٠

أقول ظاهر الآية أنّه عليه السلام طلب من ربّه في مقام الدُّعاء أن يجعل لسانه صادقاً أي لا يقول إلاّ حقّاً و أمنّه من الكذب في دعوته و ذلك من شئون العصمة أي إجعلني معصوماً عن الخطأ في اللّسان فأنّ المعصوم معصوم من جميع الجهات.

وَ ٱجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ

أنّما قال عليه السلام من ورثة جنّة النَّعيم و لم يقل و إجعلني من أهلها لنقطةٍ خفيّة و هي أنّ الوارث يرث ما يرثه بالإستحقاق و لذلك يقال له هذا وارث فلان و أمّا غيره فلا إستحقاق له في حدّ نفسه، فلو مات شخصٌ و أوصى من ماله لشخصٍ أخر للموصّى له حقّ في مال الميّت لسبب الوَّصية فلولا الوصَّية لا حقّ له و هذا بخلاف الوارث فأنّه يأخذ المال بالإستحقاق و لا يحتاج إلى الوصَّية و المراد بالإستحقاق هو كونه ولده إذا عرفت هذا فنقول:

دخول الجنَّة تارةً يكون بالإستحقاق و تارةً بغير الإستحقاق كما في صورة العفو عن المذنب فأنّ كثيراً من النّاس من المذنبين يوم القيامة يدخلون الجنّة بغير إستحقاقٍ منهم لها بل يدخلونها من أجل العفو و شمول الرّحمة لهم فهؤلاء لا يكونون من ورثة جنّة النّعيم و أن شئت قلت أنّهم من قبيل الأضياف و أمّا من دخلها بالعمل الصّالح في دار الدُّنيا فهو من ورثة جنّة النّعيم بالإستحقاق:

قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، ٱلَّذينَ هُمْ في صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ، وَ ٱلَّذينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَ ٱلَّذينَ هُمْ لِلزَّكوٰةِ فاعِلُونَ، وَ ٱلَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ، إِلَّا عَلىٰ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومينَ، فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرآءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْعادُونَ، وَ ٱلَّذينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ، وَ ٱلَّذينَ هُمْ عَلىٰ صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ، أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْوارِثُونَ**(٢).

١- مريم = ٦٣
٢- المؤمنون = ١ إلىٰ ١٠

ترى في هذه الأيات أنّ اللّه تعالى علّق التّوريث على العمل في دار الدُّنيا فقوله عليه السلام و إجعلني من ورثة جنّة النّعيم، في الحقيقة طلب التّوفيق للعمل الذّي يكون سبب الوراثة فذكر المسُّبب و أراد السَّبب و أن شئت قلت معناه و إجعلني ممَّن يدخل الجنّة بالإستحقاق بسبب العمل في الدُّنيا و هذا دعاء حسن بل من أحسن الدّعوات.

وَ ٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ

قلنا سابقاً أنّ المراد بالأب في الآية هو العمّ لإطلاقه عليه في لسان العرب هذا على مذهبنا من أنّ أباء الأنبياء كانوا من الموّحدين و أمّا على مسلك العامّة فاللّفظ يحمل على معناه اللّغوي و أنّ أزر كان أباً له حقّاً و أن كان من الكافرين و كيف كان فقد طلب إبراهيم من ربّه المغفرة و أن كان ضّالاً و وصفه بأنّه ضّال يدلّ على أنّه كافر، كفر جهلٍ لا كفر عنادٍ، و قيل أنّه أنّما دعا لأبيه لموعدةٍ وعده بها لا أنّه كان يطمعه سّراً في الإيمان فوعده بالإستغفار فلمّا تبيّن أنّه كان من نفاقٍ تبّرأ منه قاله الشّيخ في التّبيان.

أقول و يحتمل أن يكون المعنى و إن كان من الضالّين قبل دعائي و أنّه مات على الإيمان لا على الكفر نعم كان ضّالاً في أوّل الأمر ثمّ إهتدى و اللّه أعلم.

و قال الشّيخ في التّبيان و عند أصحابنا أنّ أباه الّذي إستغفر له كان جدّه لأمّه هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الضّال أعمّ من الكافر فطلب المغفرة للضّال لا إشكال فيه خصوصاً إذا كان من المستضعفين.

وَ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ

الخزي الفضيحة و التّعيير بالذّنب بما يردع النّفس و هذا الدّعاء إنقطاعٌ منه إلى اللّه لأنّ الأنبياء لا تقع القبائح منهم على حالٍ.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

و هو يوم القيامة و المراد أن يكون القلب سليماً عن الفساد و المعاصي و أنأ أما خصّ القلب بالسّلامة لأنّه إذا يسلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد كما أنّ فساد الجوارح أيضاً بفساد القلب ثمّ أنّ صلاح القلب يحصل بسبب المعرفة و الإجتناب عن القبائح قولاً و فعلاً و تخلية القلب عن الجسد و الكبر و البخل و غيرها.

■

وَ أُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿۹۰﴾ وَ بُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿۹۱﴾ وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿۹۲﴾ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ
يَنْتَصِرُونَ ﴿۹۳﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ ٱلْغَاوُونَ
﴿۹۴﴾ وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿۹۵﴾ قَالُوا وَ هُمْ
فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿۹۶﴾ تَاللّٰهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿۹۷﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿۹۸﴾ وَ
مَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿۹۹﴾ فَمَا لَنَا مِنْ
شَافِعِينَ ﴿۱۰۰﴾ وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿۱۰۱﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۰۲﴾ إِنَّ فِي
ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۰۳﴾ وَ
إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿۱۰۴﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ
نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿۱۰۵﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿۱۰۶﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿۱۰۷﴾
فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿۱۰۸﴾ وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَالَمِينَ ﴿۱۰۹﴾ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿۱۱۰﴾
قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَ ٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿۱۱۱﴾
قَالَ وَ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿۱۱۲﴾ إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿۱۱۳﴾ وَ
مَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۱۱۴﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ ﴿۱۱۵﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْـمَرْجُومِينَ ﴿۱۱۶﴾ قَـالَ رَبِّ إِنَّ قَـوْمِي
كَذَّبُونِ ﴿۱۱۷﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَـيْنَهُمْ فَـتْحًا وَ
نَــجِّنِي وَ مَـنْ مَـعِيَ مِـنَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ ﴿۱۱۸﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي ٱلْـفُلْكِ ٱلْـمَشْحُونِ
﴿۱۱۹﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿۱۲۰﴾ إِنَّ فِي ذٰلِكَ
لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُـؤْمِنِينَ ﴿۱۲۱﴾ وَ إِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴿۱۲۲﴾

◀ اللّغة

أُزْلِفَتِ: أي قربت.

بُرِّزَتِ: من البروز و هو الظُّهور.

لِلْغَاوِينَ: الغاوي العامل بما يوجب الخيبة من الثّواب.

فَكُبْكِبُوا: معناه كبوا إلاّ أنّه ضوعف و قيل معناه جمعوا بطرح بعضهم على بعضٍ، و قيل معناه هووا و قال أبو عبيدة معناه طرحوا فيها بعضهم على بعضٍ جماعة جماعة.

و قال المبّرد معناه، نكسوا من قولهم كبَّه اللّه على وجهه.

كَرَّةً: أي رجعةً.

ٱلْأَرْذَلُونَ: أي السَّفلة و أوضاع النّاس و الرَّذل الوضيع.

بِطَارِدِ: الطَّرد المنع.

فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ الفُلك: بضّم الفاء و سكون اللاّم السَّفن و المشحون المملؤ يقال شحنه شحناً فهو شاحن إذا ملأه بما يسّد خلأه و الفلك يقع على الواحد و الجمع.

◀ الإعراب

إِذْ نُسَوِّيكُمْ العامل فيه، مبين، أو فعل محذوف دلّ عليه ضلال فَنَكُونَ معطوفٌ على، كرَّة، و التّقدير فأن نكون وَاتَّبَعَكَ الواو للحال فقيل هو مبتدأ و ما بعده الخبر و الجملة حال، و قيل هو معطوف على ضمير الفاعل في، نؤمن. وَالْأَرْذَلُونَ صفة أي أنستوي نحن و هم فَتْحًا مصدرٌ مؤكّدٌ، وقيل هو مفعول به و يكون الفتح بمعنى المفتوح.

◀ التّفسير

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ

قيل معناه قربت و أدنيت الجنّة من أهلها بما فيها من النّعيم و منه المزدلفة ليلة الإزدلاف أي الإجتماع و قوله تعالى: **أَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ** أي قرّبناهم من البحر حتّى أغرقناهم فيه و قوله: **وَ زُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ**[1] أي ساعة بعد ساعة واحدتها زلفة كظلمة و ظلم و المعنى ساعات متقاربة من اللّيل و الزّلفة و الزّلفى القربى، و المنزلة و في حديث الباقر عليه السلام، مالكَ من عيشكَ إلاّ لذّةٌ تزدلف بها (يك) إلى حمامك أي تقرّبك إلى موتك، و قيل الإزدلاف التّقدم تقول إزدلف القوم إذا تقدّموا.

أقول و هذا أيضاً يرجع إلى الأوّل لأنّ التّقدم يوجب التّقرب و كيف كان إتّفق المفسّرون على أنّ المعنى في قوله: **وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ** قربت للمتّقين بسبب أعمالهم لأنّ التّقوى حفظ النّفس في الإتيان بالواجبات و ترك المحرّمات قربةً إلى اللّه تعالى و في الآية دلالة على أنّ التّقوى مقرّبٌ للجنّة و قد ورد كثير من الأيات في الباب:

قال اللّه تعالى: **وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ**[2].

١- هود = ۱۱۴ ٢- البقرة = ۸۲

فِي أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً إلىٰ أخر الخطبة.

بطولها و الإنصاف أنّ هذه الخطبة في أوصاف المتّقين ليس لها مثل و لا نظير في الإسلام ولم يعرّف المتّقين مثل ما عرَّف فيها و قد شرحناها تفصيلاً في شرحنا على نهج البلاغة و من أراد الوقوف على رموز كلماته عليه السلام فعليه بمراجعة هذا الكتاب و الحمد للّه على كلّ حال.

و أمّا قوله تعالى: وَ بُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ فالبروز الظُّهور، و الغوين جمع غاو و في الدُّعاء، و أعوذ بك من كلّ نصٍّ غاوٍ، أي مضلٍّ غير مرشد و منه، اللّهم لا تجعلنا من الغاوين، و الغواية الضّلالة، قال الرّاغب في المفردات، الغّي جهلٌ من إعتقاد فاسدٍ و ذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقدٍ إعتقاداً لا صالحاً و لا فاسداً، و قد يكون من إعتقاد شيءٍ فاسدٍ و هذا النّحو الثّاني يقال له، غيّ.

و قال في المجمع، فسّروا بقوم وصفوا عدلاً يعني حلالاً و حراماً بألسنتهم ثمّ خالفوا إلى غيره و الجامع بين الأقوال أنّ الغواية خلاف الرُّشد إذا عرفت هذا فقد ظهر لك معنى الآية و علمت أنّ الغاوين خلاف المتّقين، و الجَحيم بفتح الجيم و كسر الحاء المهملة إسمٌ من أسماء النّار و أصله ما إشتَّد لهبه من النّار و كلّ نارٍ عظيمة في مهواة فهي جحيم، و الجاحم المكان الشّديد الحرارة أعاذنا اللّه منها و أظّن أنّ التّعبير بالبروز و هو الظّهور إشارة إلى أنّ النّار تنشأ و تظهر من نفس العمل و بعبارةٍ أخرى أنّ العمل هو الّذي يظهر النّار و ما بّك بظّلامٍ للعبيد:

الواو للحال و المعنى قالوا و الحال أنّهم في النّار يختصمون و الضّمير في قالوا، عائد على الجميع أي العابد و المعبود و أنّما أتى بالماضي في قوله فكبكبوا و قوله: **قَالُوا** لتَّحقق وقوع ذلك في المستقبل و قد إتّفقوا على أنّ المستقبل المحقّق الوقوع في حكم الماضي و منه قوله: **اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ**(١) و قوله: **يَخْتَصِمُونَ** الإختصام منازعة كلٍّ واحدٍ منهم صاحبه بما فيه إنكارٌ عليه و إغلاظٌ له.

يقول بعضهم لبعضٍ تاللّه أن كنّا لفي ضلالٍ مبين.

قال الزّجاج معناه ما كنّا إلاّ في ضلالٍ مبين، و قال غيره اللاّم لام الإبتداء الّتي تدخل في خبر، إن، و إن، هذه في الحقيقة هي الخفيفة من الثّقيلة و يلزمها اللاّم في خبرها فرقاً بينها و بين، إن، الّتي للجحد.

إن قلت كيف يكون الإختصام و الأصنام جمادات.

قلت قال صاحب الكشّاف يجوز أن ينطق اللّه الأصنام حتّى يصحّ التّقاول و التَّخاصم و يجوز أن يجري ذلك بين العصاة و الشّياطين إنتهى.

إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ

حكاية عنهم في وجه ضلالهم أي أنّهم قالوا على وجه القسم إنّا كنّا في الدُّنيا، على طريق الضّلال إذ نسوّيكم، أي الأصنام بربّ العالمين و عبدناها.

و قال بعض المفسّرين في قوله: **قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ** يعني الإنس و الشّياطين و الغاوين و المعبودين إختصموا حينئذٍ و قالوا، تاللّه، حلفوا باللّه **إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** أي في خسارٍ و تبارٍ و حيرةٍ عن الحقّ إذا إتّخذنا مع اللّه آلهة فعبدناها كما يعبد اللّه و الى هذا أشاروا بقولهم، إذ نسوّيكم بربّ العالمين، و أيُّ ضلالٍ أكبر منه حيث نسوّيكم بربّ العالمين في العبادة و أنتم لا تستطيعون الآن نصرنا و لا نصر أنفسكم إنتهى.

١- القمر = ١

أقول هذا كلّه على أن تكون، إن، في قوله: **إِنْ كُنَّا**، هي المخفّفة من الثّقيلة كما هو مذهب النصّريين و أنّ اللاّم في قوله: **لَفِي ضَلَٰلٍ**، هي الدّاخلة للفرق بين، أن، النافيّة و أن، الّتي هي لتأكيد مضمون الجملة كما عليه أكثر المفسّرين في تفاسيرهم للأية الشّريفة و في المقام إحتمال آخر و هو أن تكون، إن، في قوله: **إِنْ كُنَّا**، نافية و اللاّم في قوله: **لَفِي**، بمعنى إلاّ، و المعنى ما كنّا إلاّ، في ضلالٍ مبين إذ نسويّكم، أيّتها الأصنام بربّ العالمين، في العبادة فعبدناكم كما يعبد ربّ العالمين، و هذا ممّا لا إشكال فيه و هو مذهب الكوّفيين و إختاره بعض المحقّقين و الحقّ أنّ المآل فيهما واحد و هو أنّهم بيّنوا في المقام وجه ضلالتهم و الأمر سهل بعد وضوح المعنى.

وَ مَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِنْ شَٰفِعِينَ، وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ

لمّا بيّنوا في الآية السّابقة إنّ ضلالتهم كانت في أنّهم سوّوا بين الأصنام و ربّ العالمين في العبادة، بيّنوا في هذه الآية سبب الضّلال فقالوا: **وَ مَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ**، أي الشّياطين أو من دعاهم الى عبادة الأصنام من شياطين الإنس.

و الحقّ أنّ المراد بالمجرمين الّذين أضلّوهم رؤوساءهم و كبراءهم كما حكى اللّه عنهم في موضع آخر بقوله:

إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا(١).

و قال: **رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ ٱلنَّارِ**(٢).

و يحتمل أن يراد بالمجرمين معناه العامّ الشّامل لشياطين الإنس و الجنّ و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ**(٣).

و كيف كان لا شكّ أنّ المجرمين دعوهم الى عبادة الأصنام إلاّ أنّ الإعتذار لا يقبل منهم يوم القيامة لأنّ الحجّة قد تمّت عليهم في الدُّنيا ظاهرة و باطنة كما قال

١- الأحزاب = ٦٧ ٢- الأعراف = ٣٨
٣- فصّلت = ٢٩

موسى إبن جعفر عليه السلام أنّ للّه على النّاس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة أمّا الحجّة الظّاهرة فهي الأنبياء و الرّسل و الأئمة و أمّا الباطنة فهي العقل إنتهى.

و كذلك قالوا: **فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِينَ** و ذلك لأنّ الشّفيع لا يشفع يوم القيامة إلاّ بإذن اللّه تعالى و الكافر لا يكون شافعاً و لا مشفوعاً و قوله: **وَ لاٰ صَدِيقٍ حَمِيمٍ** قيل الشّفيع من الملائكة و الصّديق من النّاس قاله إبن جريح و هو كما ترى فأنّ الشّفاعة لا تخّتص بالملائكة على ما ورد في الأيات و الأخبار أقول الصّديق من أبنية المبالغة و هو فعيل من صدق الوُّد و الحميم، القريب المشفق و هو في أصل اللّغة الماء الشّديد الحرارة و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيمًا**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرٰابٌ مِنْ حَمِيمٍ**[2].

و أنّما أطلق على القريب لأنّه يحمي بغضب صاحبه و هذا مراد من فسّره بالحامي و الحاصل أنّهم ينفون يوم القيامة عن نفوسهم.

الشّافع و الصّديق الّذي يحمي عنهم و أنّما يقولون ذلك إذا رأوا جماعة من فسّاق أهل الملّة يشفع فيهم و يسقط عنهم العذاب و يخرجون من النّار، يتلهفون على مثل ذلك و يتّحسرون عليه و لا تنفع لهم النّدامة و الحسرة و لذلك يتّمنون الكرة كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله:

جزء ١٩ **فَلَوْ أَنَّ لَنٰا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ**

الكرّة الرّجعة و المعنى لو أنّ لنا الرّجوع الى الدّنيا فنكون من المؤمنين قيل أنّهم بقولهم هذا يخبرون عن حزمهم لأنّ اللّه تعالى قد أخبر عنهم **وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ**[3] و لا يجوز أن يكونوا مع رفع التّكليف و كمال عقولهم و

١- محمد = ١٥
٢- يونس = ٤
٣- الأنعام = ٢٨

حصول المعارف الضروريّة أن يكذّبوا لأنّهم ملجؤن الى ترك القبيح بأن يخلق اللّه فيهم العلم الضّروري أنّهم لو راموا القبيح لمنعوا من ذلك.

الثّاني: أن يكون ذلك القول منهم قبل دخولهم النّار و قبل أن يصيروا ملجئين.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ

أخبر اللّه تعالىٰ عن قوم نوح أنّهم كذّبوا رسل اللّه و أنّما كذّبوهم جميعهم لأنّهم كذّبوا كلّ من دعاهم الى توحيد اللّه و خلع عبادة الأصنام ممّن مضى من الرُّسل و غيرهم ممّن يأتي.

إعلم أنّ نوح أوّل نبّي بعد جدّه إدريس و كان إسمه عبد الغفّار و أنّما سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكاءه مدّة خمس مائة سنة خوفاً من اللّه تعالى ثمّ تحسُّره على ضلال أمتّه و هو أوّل الأنبياء الخمسة أولي العزم المبعوثين الى الجنّ و الإنس كافّةً و هم أفضل الأنبياء و الأربعة بعد نوح، إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و هو سيّدهم و أفضلهم و كان نبيّ اللّه نوح جسيماً عظيم القدر و المشهور أنّه عاش (٢٥٠٠ سَنَة) ألفين و خمس مائة، قيل بعث الى قومه و كان عمره ثمان مائة و خمسين سنة و أقام في قومه يدعوهم الى اللّه تعالى تسع مائة و خمسون سنة و أقام مشتغلاً بعمل له (٢٠٠ سنة) و عاش بعد هلاك قومه بالطّوفان خمس مائة سنة (٥٠٠ سنة) ولم يسقط منه سنّ ولم يظهر عليه أثر شيّب و هو أوّل من أحدث المدن الكبيرة و أسكن فيها ولده و ذراريه بعد نزوله من السّفينة و لذا قيل له أبو البشر الثّاني و لمّا بعث نوح الى قومه أخذ يدعوهم الى اللّه تعالى ليله و نهاره و يعظمهم و يحذرّهم العذاب سرّاً و جهاراً كما أخبر اللّه تعالى في كتابه حيث قال:

قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَ نَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا[1].

١- نُوح = ۶

ثمّ أنّ تكذيبهم لم يكن منحصراً بنوح بل كذّبوا الأنبياء قبله و بعده و الى هذا المعنى أشار اللّه بقوله: **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ** قيل سمّاه بأنّه أخوهم لأنّه كان منهم في النّسب و ذكر ذلك لأنّهم به آنس و الى إجابته أقرب و قوله: **أَلَا تَتَّقُونَ** أنّما جاء الإستفهام على سبيل الإنكار لأنّهم لا جواب لهم عن ذلك و المعنى ألا تتّقون اللّه بإجتناب معاصيه و في رأسها الشِّرك به.

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

أي إنّي رسول اللّه إليكم و أنّما قال أمين لأنّه كان مشهوراً في قومه بذلك أو لأنّه كان مؤتمناً على إداء رسالته و هذا هو الحقّ في جميع الأنبياء و المرسلين ثمّ قال لهم.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

أي فأتّقوا اللّه بترك معاصيه و أطيعوني، فيما أقول لكم فأنّي لا أقول من عند نفسي بل أقول ما أقول من اللّه تعالى:

وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

الضّمير في، عليه، عائد الى الدّعاء الى اللّه و الأمر بتقواه و قيل يعود على النُّصح و قيل على التّبليغ و المعنى لا أسألكم عليه شيئاً من أموالكم و أنّما أجري على اللّه ربّ العالمين الّذي أرسلني اليكم فكلمة، إن، نافية أي ليس أجري إلاّ على ربّ العالمين، و كلمة، ما، أيضاً نافية.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

قيل في وجه التّكرار في قوله فأتّقوا اللّه و أطيعون، إنّ التّقدير فأتّقوا اللّه و أطيعوني لأنّي رسولٌ أمين فأتّقوا اللّه و أطيعوني، لأنّي لا أسألكم أجراً عليه.

قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَ ٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ

الظّاهر أنّ الإستفهام للإنكار أي لا نؤمن لك و الحال إتّبعك الأرذلون، من النّاس يعني السَّفلة و أوضاع النّاس و الرّذل الوضيع فقوله و أتّبعك الأرذلون جملة حاليّة أي كيف نؤمن بك و قد أتّبعك أراذلنا فنتساوى معهم في أتّباعك و كذا فعلت قريش في شأن عمّار و صهيب و أمثالهما من الضُّعفاء في أصحاب النّبي ﷺ ولم يعلموا أنّ أذهان الفقراء و الضُّعفاء أكثر إستجابةً من الرُّؤساء و الأشراف لأنّها ليست ملّوثة بزخارف الدّنيا من المال و الجاه و المقام فهم أي الضُّعفاء أدرك للحّق و أقبل له من الرُّؤساء ثمّ أنّ قراءة الجمهور، و أتّبعك، و عليها المصاحف و قرأ إبن عبّاس و الأعمش و الضّحاك و كثير من القَّراء، و أتباعك، جمع تابع كصاحب و أصحاب.

قَالَ وَ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

قال إبن عطّية، يظهر من الآية السّابقة أنّ مراد قوم نوح نسبته الرّذيلة الىٰ المؤمنين بتهجين أفعالهم لا النّظر الى صناعهم و يدلّ على ذلك قول نوح **قَالَ وَ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** لأنّ معنى كلامه ليس في نظري و علمي بأعمالهم و معتقداتهم فائدة و إنّما إقتنع بظاهرهم و أجتزئ به حسابهم على اللّه تعالى و هذا نحو ما قال رسول اللّه ﷺ: « **أُمِرتُ أَن أُقاتِلَ النـاّس حتّىٰ يَقولُوا لا إلٰه إلاّ اللّه**» الحديث.

و قال الكرمانى، معناه لا أطلب العلم بما عملوا إنّما علّي أن أدعوهم و قال صاحب الكشّاف معناه أيّ شئ علمي و المراد إنتفاء علمه بإخلاص أعمالهم و أطّلاعه على سرائرهم و إنّما قال هذا لأنّهم قد طعنوا في إسترذالهم في إيمانهم و أنّهم لم يؤمنوا عن نظر و بصيرة و إنّما آمنوا هوىً و بديهةً من غير نظرٍ و فكرٍ.

أقول الظّاهر أنّ المراد من قوله: **وَ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** إنّي مأمور بالدّعوة دون التّفتيش على أسرار النّاس قال اللّه تعالى: **وَ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا**

اَلْبَلَاغُ دون التَّفتيش في العقائد هذا و لنا في المقام إحتمالٌ آخر لم ينَّبه عليه أحد من المفسّرين و هو أنّ نوح لم يقل و ما علمي بعملهم أو فعلهم أو عقيدتهم بل قال و ما علمي بما كانوا يعملون، يعني في الماضي قبل الإيمان و هذا المعنى مستفادٌ من، كانوا، و على هذا فمعنى الآية أنّهم و أن كانوا بزعمكم من السَّفلة و الأراذل في زمن الماضي قبل أن آمنوا إلاّ أنّهم، بعد الإيمان باللّه صاروا من الصُّلحاء فالحكم عليهم بالرَّذالة بعد الإكمان بإعتبار ما مضى منهم قبله لا معنى له و بعبارةٍ أخرى إنّما تحكمون عليهم بما تحكمون بإعتبار الماضي لا بإعتبار الحال و المناط في صحَّة الحكم هو حال التكلُّم لا الماضي و على هذا فقوله، و ما علمي، يدلّ على أنّ العالم بأفعال العباد و أسرارهم هو اللّه تعالى و هو خارجٌ عن وظيفة الرَّسول هذا ما خطر ببالي و اللّه أعلم.

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ

إن نافية أي ليس حسابهم إلاّ على ربّي و قوله لا تشعرون يدلّ على جهل المنتقدين المستهزئين الّذين نسبوا الرَّذالة الى المؤمنين بنوح النَّبي و ذلك لأنّهم لم يعلموا أنّ حساب العباد على اللّه لا على الأنبياء و إنّما وظيفة النَّبي الدَّعوة فقط و أنّهم أي المؤمنين لو كان لهم شئ كما يزعمون فاللّه محاسبهم و مجازيهم و ما أنا إلاّ منذرٌ لا محاسب و لكّنكم تجهلون به.

وَ مَآ أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

الطَّرد المنع و هذا مشعرٌ بأنّهم أي الكفّار طلبوا منه ذلك أي من نوح طردهم فأجابهم بذلك و قال: **وَ مَآ أَنَا بِطَارِدِ** أي لا أفعل ذلك أبداً و ذلك كما طلب رؤوساء قريش من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن يطرد من آمن به من الضُّعفاء فنزلت: **وَ لا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**[1].

۱- الانعام = ۵۲

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

أي لا أطردهم عنّي لإتّباع شهواتكم و الطّمع في إيمانكم، **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** أي لست إلاّ منذراً لا طارداً.

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ

أي لئن لم ترجع عمّا تقوله و تدعوا إليه من التّوحيد و الإيمان باللّه لتكُونن من المرجومين، بالحجارة أو بالشّتم و أصل الرّجم الرّمي بالحجارة و لا يقال للرّمي بالقوس رجمٌ، و سمّي المشتوم مرجوماً لأنّه يرمى بما يذّم به، و الإنتهاء بلوغ الحّد من غير مجاوزة الى ما وقع عنه النّهي و لّما قالوا ذلك على سبيل التّهديد و آيس نوح من فلاحهم و إيمانهم فنادى كما حكى اللّه عنه.

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ

فدعائي ليس لأجل أنّهم أذوني ولكن لأجل دينك.

فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحًا وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

قيل الفتح الحكم أي أحكم بيني و بينهم حكماً ثمّ دعا لنفسه و لمن أمن معه بالنّجاة و في ذلك إشعار بحلول العذاب بقومه هكذا قيل و الحقّ أنّ لا إشعار فيه بحلول العذاب بقولمه و أنّما دعا نوح لنفسه و لمن أمن معه بالنّجاة عن قومه من حيث أنّ معاشرة المؤمن مع الكافر أيضاً عذاب و أم شئت توضيحه فنقول العذاب تارةً يكون للجسم و تارةً للرّوح و الثّاني أشّد و أصعب من الأوّل بالنّسبة إلى الإنسان الكامل و من المعلوم أنّ المجالسة و المعاشرة مع السُّفهاء من أصعب العذاب للرُّوح و حيث أنّ الأنبياء في أعلى مراتب الإنسانيّة طلب نوح من ربّه النّجاة منهم أي من كونه معهم مجالساً و معاشراً و كيف كان أجاب اللّه دعوته و نجّاه و من معه من قومه بالموت و الهلاك بسبب الطّوفان كما قال:

فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِی ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ، ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ ٱلْباقِینَ

الفُلك بضّم الفاء و سكون اللاّم و الكاف السُّفُن يَقع علىٰ الواحد و الجمع و المشحون قيل المملّؤ يقال شحنه شحناً فهو شاحن إذا ملأه بما يسُّد خلأه.

و قال إبن عبّاس المشحون الموفي و قال عطا المثّقل و معنى الآية فأنجينا نوحاً و من معه في السّفينة المملُّوة من الموجودات ثمّ أغرقنا بعد نجاة نوح و المؤمنين المخالفين المستهزئين الذّين لم يؤمنوا به ولم يركبوا السّفينة على ما مرّ تفصيل الكلام فيه في سورة هود و العنكبوت و غيرهما.

إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَ ما كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

الآية العلامة و ذلك إشارة إلى ما ذكره في قصّة نوح من عدم إيمان قومه به و تكذيبهم إيّاه و هلاكهم بالطُّوفان على ما مرَّ شرحه و كيفيّته سابقاً و وجه كونه أية هو أنّه يدلّ على أنّ اللّه خالق كلّ شيءٍ قادرٌ على كلّ شيءٍ و أنّ ثمرة الإيمان السّعادة و الفلاح كما أنَ ثمرة التّكذيب خسران الدّنيا و الأخرة و قوله: **وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ،** أي معتبرين أو مؤمنين بالأيات الإلهيّة قال أميرالمؤمنين عليه السلام ما أكثر العبر و أقلَّ الإعتبار، و أنّ ربّك لهو العزيز، في الإنتقام من فرعون و قومه و الرّحيم في نجاة موسى و من معه من بني إسرائيل و أمّا في المقام فهو العزيز المنتقم في إهلاك قوم نوح بالغرق بسبب تكذيبهم، و الرّحيم في إنجائه نوحاً و من معه في الفلك و إعلم أنّه لا يوصف بالعزيز إلاّ اللّه تعالى بقولٍ مطلق لأنّ العزيز القادر الّذي لا يمكن ممانعته لعظم مقدوراته فصفة (عزيز) و أن رجعت إلى معنى قادر إلاّ أنّ العزيز بقول مطلق هو اللّه لأنّه قادر أن يمنع كلّ قادرٍ سواه و لا عكس ثمّ أنّه لمّا سكن نوح الأرض بمن معه من أهله و أولاده و من أمن معه و تفرّقوا في الأرض و تناسلوا و بنوا مدائن و بلاداً بمرور الأيّام و إنقضت مدّته وحان أجله هبط عليه جبرئيل و قال له يانوح قد إنقضت

نبوّتك و إستكملت أيّامك فأنظر الإسم الأعظم الأكبر و ميراث العلم و أثار النّبوة التّي معك فأدفعها إلى إبنك سام، روي أنّ ملك الموت نزل على نوح لقبض روحه و هو حينئذٍ جالس في الشّمس فسّلم ملك الموت عليه فردّ نوح عليه السّلام و سأله ما حاجتك بملك الموت قال جئت لقبض روحك فإستمهله نوح إلى أن يتّحول إلى الظّل فلمّا أمهله و تحّول قال يا ملك الموت كان ما مرَّ بي من الدّنيا مثل تحّول من الشّمس إلى الظّل فأمض إلى أمر ربّك فتّقدم عزرائيل و قبض روحه الشّريفة و دفن في أرض نجف، في مقام أميرالمؤمنين عليه السلام مع أدم أبو البشر سلام اللّه عليهم أجمعين فلمّا توّفى نوح بقي قومه و ذريّته المؤمنون دهراً طويلاً يتّرقبون هود و ينتظرون ظهوره حتّى طال عليهم الأمد و قست قلوب كثيرة منهم و إرتّدوا عن الدّين و أقبلوا على عبادة الأصنام و كان أشدَّهم بأساً و أكثرهم كفراً و طغياناً قوماً منهم سكنوا أرض اليمن و بنوا فيها الأبنية و مدنوا فيها المدن و كان يقال لهم قوم عاد إلى أن كثروا و صاروا ثلاث عشرة قبيلة يبلغ عددهم ما شاء اللّه و كلّهم يسنبون إلى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح ثمّ انّهم لمّا طغوا على اللّه و تجّبروا و إزدادوا كفراً ولد فيهم نبّي اللّه هود وهو إبن عبد اللّه بن رباح بن حلوث بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح و نشأ بينهم تقيّاً أميناً و كان من أوسطهم نسباً و أفضلهم حسباً و كان أشبه ولد أدم بأدم إذ لَم يوجد أحد في ذريّة أدم أشبه به منه و لمّا أتّم له من العمر أربعون سنة أوحى اللّه إليه بالنّبوة و بعثه بالرّسالة إلى قومه و قال له أئت قومك و أدعهم إلى عبادتي و توحيدي فأن أجابوك زدتهم قوّةً و أموالاً و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى في كتابه حيث قال: **كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ** كما سيأتي الكلام فيه.

■

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَ مَآ
أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ
﴿١٢٨﴾ وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ
﴿١٢٩﴾ وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَ ٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ
أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَٰمٍ وَ
بَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَ جَنَّٰتٍ وَ عُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ٱلْوَٰعِظِينَ
﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَ مَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ
ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَ مَآ
أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ
﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَ عُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَ زُرُوعٍ وَ

نَخْلٍ طَـلْعُهٰا هَـضِيمٌ ﴿۱۴۸﴾ وَ تَـنْحِتُونَ مِـنَ
ٱلْجِبٰالِ بُيُوتًا فٰـارِهِينَ ﴿۱۴۹﴾ فَـاتَّقُوا ٱللّٰـهَ وَ
أَطِيعُونِ ﴿۱۵۰﴾ وَ لاٰ تُطِيعُوٓا أَمْـرَ ٱلْـمُسْرِفِينَ
﴿۱۵۱﴾ ٱلَّـذِينَ يُـفْسِدُونَ فِـى ٱلْأَرْضِ وَ لاٰ
يُـصْلِحُونَ ﴿۱۵۲﴾ قٰـالُوٓا إِنَّـمٰآ أَنْتَ مِـنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿۱۵۳﴾ مٰآ أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا فَأْتِ
بِاٰيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصّٰادِقِينَ ﴿۱۵۴﴾ قٰالَ هٰـذِهِ
نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿۱۵۵﴾
وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَـذٰابُ يَـوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿۱۵۶﴾ فَعَقَرُوهٰا فَأَصْبَحُوا نٰادِمِينَ ﴿۱۵۷﴾
فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذٰابُ إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَ مٰا كٰانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۵۸﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿۱۵۹﴾ كَذَّبَتْ قَـوْمُ لُـوطٍ ٱلْـمُرْسَلِينَ
﴿۱۶۰﴾ إِذْ قٰالَ لَهُمْ أَخُـوهُمْ لُـوطٌ أَلاٰ تَـتَّقُونَ
﴿۱۶۱﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿۱۶۲﴾ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ
وَ أَطِيعُونِ ﴿۱۶۳﴾ وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْـرِيَ إِلاّٰ عَـلٰى رَبِّ ٱلْـعٰالَمِينَ ﴿۱۶۴﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرٰانَ مِنَ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿۱۶۵﴾ وَ تَذَرُونَ
مٰا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوٰاجِكُمْ بَـلْ أَنْـتُمْ
قَوْمٌ عٰادُونَ ﴿۱۶۶﴾ قٰالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يٰا لُوطُ
لَـتَكُونَنَّ مِـنَ ٱلْـمُخْرَجِينَ ﴿۱۶۷﴾ قٰـالَ إِنِّـى
لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقٰالِينَ ﴿۱۶۸﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي

مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿۱۶۹﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ
﴿۱۷۰﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿۱۷۱﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا
الْآخَرِينَ ﴿۱۷۲﴾ وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿۱۷۳﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَ مَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۷۴﴾ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿۱۷۵﴾

◄ اللّغة

عَادٌ: إسم قبيلة و هم مسنوبون إلى عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح.

رِيعٍ: قال في المفردات الرّيع المكان المرتفع الّذي يبدوا من بعيد الواحدة ريعة و قال في المجمع الرِّيع بالكسر ما إرتفع من الأرض و الطّريق و قيل هو الجبل واحده، ريعة و الجمع رياع و الرّيع بالفتح أيضاً النّماء و الزّيادة.

مَصَانِعَ: هو جمع مصنع و يقال مصنعة لكلّ بناء و قال الزّجاج المصانع المبانى

بَطَشْتُ: البطش العسف قتلاً بالسّيف و ضرباً بالسّوط.

أَمَدَّكُمْ: الإمداد أتباع الثّاني ما قبله شيئاً بعد شيءٍ على إنتظامٍ.

بِأَنْعَامٍ: الأنعام من الإبل و البقر و الغنم.

ثَمُودُ: قوم صالح النّبى.

طَلْعُهَا هَضِيمٌ: الهضيم اللّطيف في حسنه و منه هضيم الحشا أي لطيف الحشا و قال إبن عبّاس، هضيم، أي قد بلغ و أينع و قال عكرمة هو الرّطب اللّين.

فَارِهِينَ: قال إبن عبّاس معناه حاذقين و قال أيضاً، فرهين، أشرين بطرين و قيل معناه علّيين و قيل هو الفرح و المرح.

فَعَقَرُوهَا: العقر قطع الشّئ من بدن الحيّ.

◀ الإعراب

اتَعْبَثُونَ هو حال من الضّمير في، تبنون تَخْلُدُونَ على تسمية الفاعل و التّخفيف التّخفيف و على ترك التّسمية و التّشديد و التّخفيف أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ هذه الجملة مفّسرة لما قبلها و لا موضع لها من الإعراب فِي جَنَّاتٍ هو بدل من قوله، فيما هاهنا، بإعادة الجارّ فَارِهِينَ هو حال و يقرأ، فارهين، و هما لغتان من القالين، أي لقال من القالين، فمن صفة للخبر متعلّقة بمحدوث و اللاّم متعلّقة بالخبر المحذوف و بهذا تخلص من تقديم الصلّة على الموصول إذ لو جعلت من القائلين الخبر لأعمليّة في لعملكم.

◀ التّفسير

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و ما بعدها عن قوم عاد و قيل هم قبيلة و التّقدير كذَّب قبيلة عاد المرسلين كما كذَّبت قوم نوحٌ، أي أنّهم كذّبوا الذّين أرسلهم اللّه إليهم بالنّبوة و أنّما كذّبوهم جميعهم لأنّهم كذّبوا كلّ من دعا إلى توحيد اللّه و خلع عبادة الأصنام ممَّن مضى من الرُّسل و يحتمل أن يكون المراد بتكذيب الجميع أنّ تكذيب واحد منهم في حكم تكذيب الجميع و هو ظاهرٌ لا خلاف فيه بين علماء الأمّة.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ

الهَمَزة للتّوبيخ و التّعيير و أنّما قال أخوهم، لأنّه عليه السلام كان من قبيلة عاد، و قد ذكرنا في أخر قصّة نوح تفصيل ذلك و قلنا هناك أنّه لمّا تمّ له من العمر أربعون سنة أوحى اللّه إليه بالنّبوة و بعثه بالرّسالة و قال له، أئت قومك و أدعهم إلى عبادتي و توحيدي فأن أجابوك زدتهم قوّةً و أموالاً فإنطلق هود عليه السلام إلى

مجمعهم و بينما هم مجتمعون إذ دخل عليهم هود و أخذ يدعوهم إلى توحيد اللّه و رفض الأصنام و ترك عبادتها فغضبوا عليه و أعرضوا عنه و هم يقولون له يا هود لقد كنت عندنا تقيّاً أميناً، قال عليه السلام إنّي رسول اللّه إليكم دعوا عبادة الأصنام فلمّا سمعوا منه ذلك إزدادوا عليه غيظاً و غضباً و أقبلوا عليه يبطشون به و يشتمونه إلى أن نزل عليه جبرئيل يسليّه و يأمره بإعادة الدَّعوة و قال له أنّ اللّه يأمرك أن لا تفتر عن دعوتهم و قد وعدك أن يلقي في قلوبهم الرُّعب فلا يقدرون على ضربك بعد هذا فرجع هود إلى مجمع قومه ثانياً يعظهم و يبلّغهم رسالات ربّه و ينصح لهم و يهددهم و هو يقول لهم، قد تجَّبرتم في الأرض و أكثرتم الفساد، دعوا ذلك و أرجعوا إلى اللّه و توبوا إليه فإزدادوا عليه غضباً و همّوا أن ينقضوا عليه و قالوا يا هود أترك هذا القول فأنّا إن بطشنا بك الثّانية نسيت الأولى إلى أن إجتمعوا أو همّوا بقوتهم و عددهم فصاح هود صيحة كادت قلوبهم أن تتَّصدع منها حتّى سقطوا على وجوههم على الأرض صرعى كالأموات و ألقى اللّه في قلوبهم رعباً شديداً من هود عليه السلام إلى أن قاموا و أنصرفوا عنه.

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

أي إنّي رسول من اللّه تعالى إليكم و أنا أمين في تبليغ رسالات ربّى.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

أي فإتّقوا اللّه بإجتناب معاصيه و أطيعوني فيما أدعوكم إليه من التّوحيد و ترك عبادة الأصنام.

قال بعض المفسّرين ليس هذا القول تكراراً من هود، لأنّه متعلّق بغير ما تعلّق به الأوّل لأنّ الأوّل معناه فإتّقوا اللّه في تكذيب الرُّسل و أطيعوني فيما أدعوكم إليه من إخلاص عبادته.

الثّانى: فإتّقوا اللّه في ترك معاصيه في بطش الجبّارين و عمل اللاّهين و أطيعوني في ذلك الّذي دعوتكم إليه إنتهى.

وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

كلمة، إن، نافية أي ليس أجر رسالتي إلاّ على ربّ العالمين الّذي أرسلني إليكم و هذا في الحقيقة صادق في حقّ جميع الأنبياء و كما عرفت في قصّة نوح و كما قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيّنا ﷺ حيث قال: **قُلْ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**(١) و هكذا الأمر في جميع الأنبياء.

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ

قال أبو عبيدة الرِّيع بكسر الرّاء و سكون الياء و العَين هو الطّريق بين الجبلين في إرتفاع، و قيل هو الفج الواسع و قال قتادة معناه بكلّ أيةٍ طريق أي علامة و قيل فيه لغتان فتح الرّاء و كسرها و هو المكان المرتفع و هو الأشهر بين أهل اللّغة و قوله: **تَعْبَثُونَ**، معناه تلعبون و معنى الأية، **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ** و هو المكان المرتفع أيةً أي علامة تلعبون، أي أنّ عملكم هذا لهوٌ و لعبٌ، و الإستفهام للتّوبيخ و التّقريع.

وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ

الواو للعطف أي أتتّخذون مصانع، قيل المراد بالمصانع الحصون المشيّدة، و قوله: **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** أي كأنّكم تخلدون بلغة قريش و قال الفرّاء معناه كيما تخلدون.

أقول حمل الآية على ظاهرها ممّا لا بأس به أي تتّخذون المصانع برجاء الخلود فيها و المصانع جمع مصنع و يقال مصنعة لكلّ بناءٍ و بعبارةٍ أخرى

١- الشّورىٰ = ٢٣

تفعلون ذلك لكي تبقوا فيها مؤبّدين، و في هذا الكلام إشارة إلى أنّ الدّنيا و ما فيها في معرض الدّثور و الزّوال كما قال الشّاعر:

له ملك ينادي كلّ يوم   لدوا للموت و أبنوا للخراب

و إذا كان كذلك فالعاقل يقنع من الدّنيا بقدر الضّرورة في جميع شئونه.

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّارِينَ

البطش العسف قتلاً بالسّيف و ضرباً بالسّوط، و الجبّار العالي على غيره بعظم سلطانه و هو في صفة اللّه تعالى مدح، و في صفة غيره ذمّ، فإذا قيل للعبد جبّار فمعناه أنّه يتّكلف الجبريّة و قال الرّاغب في المفردات، البطش تناول الشّئ بصولةٍ إنتهى.

قال صاحب الكشّاف في معنى الأية، و إذا بطشتم بسوطٍ أو سيفٍ كان ذلك ظلماً و علّواً، و قيل الجبّار الّذي يقتل و يضرب على الغضب و عن الحسن يبادرون تعجل العذاب

الأولاد و البساتين و غير ذلك إلاّ أنّهم لم يشكروا خالقهم مع أنّ شكر المنعم واجب عقلاً و شرعاً بل كفروا به و بها و عبدوا الأصنام و لم يقبلوا دعوة النّبي و من كان كذلك فقد حقّ عليه العذاب كما أشار بذلك هود عليه السلام حيث قال: **إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ** بسبب كفران النِّعمة قال اللّه تعالى: **وَ لَئِنۡ كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**[١].

قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُنۡ مِنَ ٱلۡوَاعِظِينَ

أي أنّا لسنا نقبل منك ما تقوله سواءٌ علينا وعظك و إرتفاعه و معنى سواء، أي كلّ واحدٍ من الأمرين مثل الأخر حصول الوعظ و إرتفاعه و الوعظ تليين القلب للإنقياد إلى الحقّ، و الوعظ زجرٌ عمّا لا يجوز فعله.

إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ، وَ مَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ

إن، نافية بمعنى، ليس، و خلق، بضّم الخاء و اللاّم على المشهور بين القرّاء و عليه المصاحف قال في المجمع، الخلق، بضّمتين السَّجية و الجمع أخلاق يقال: **خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ** أي إختلافهم و كذبهم، و منهم من قرأ بفتح الخاء و سكون اللاّم و هو مصدر من قولك خلق اللّه العباد خلقاً و الخلق المخلوق إذا عرفت هذا فعلى الأوّل يكون معنى الآية ليس هذا إلاّ عادة الأوّلين و سجيّتهم و على الثّاني ليس هذا إلاّ كذبهم و المراد بالأوّلين الأمم السّالفة أو الأنبياء قبل هود، **وَ مَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ**، على خلاف ما تدعونا إليه على ما تدعيّه.

و قال بعض المفسّرين من قرأ بفتح الخاء فمعناه أنّ ما جئت به إختلاف الأوّلين و تخرّصهم ما قالوا أساطير الأوّلين، أو ما خلقنا هذا إلاّ خلق القرون الخالية نحيا كما حيّوا و نموت كما ماتوا و لا بعث و لا حساب، و من قرأ خلق بضّمتين و بواحدة فمعناه ما هذا الّذي نحن عليه من الدّين إلاّ خلق الأوّلين و

١- إبراهيم = ٧

عادتهم كانوا يدينونه و يعتقدونه و نحن بهم مقتدون، أو ما هذا الّذي نحن عليه من الحياة و الموت إلاّ عادة لم يزل عليها النّاس في قديم الدّهر، أو ما هذا الّذي جدت من الكذب إلاّ عادة الأوّلين كانوا يلفقون مثله و يسطرونه إنتهى كلامه.

و الإحتمالات كثيرة و لكلٍّ منها وجهٌ.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ مٰا كٰانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ

أي فكذّبوا هود النّبي فأهلكناهم بتكذيبهم إيّاه أنّ في ذلك التّكذيب و نزول العذاب بعده لأيةً و علامة لمن نظر إليها بعين الإعتبار و علم أنّ حكم الأمثال واحد و لم يكن هذا مختّصاً بقوم نوح و هود و غيرهما بل تجري هذه السّيرة للجميع إلى يوم القيامة إلاّ أنّ أنواع العذاب مختلفة بحسب إختلاف الأزمنة و المصالح الّتي فيها.

روي أنّ هود النّبي لم يزل يأتي مجامع القوم و محلفلهم و لم يأل جهداً في تكذيبهم و وعظهم و مكث على ذلك سبع مائة و ستّين سنة و هم لا يزدادون إلاّ طغياناً و كفراً و إعراضاً منه إلى أن يأس هود من إيمانهم و قال لهم يا قوم قد تماديتم في الكفر كما تمادى قوم نوح و خليقٌ أن أدعو عليكم كما دعا نوح على قومه قالوا يا هود أنّ ألهة قوم نوح كانت ضعفاء و أنّ ألهتنا أقوياء و قد رأيت شدّة أجسامنا فإغتّم هود غمّاً شديداً و أخيراً لجأ إلى الدُّعاء فقال ياربّ قد بلّغت رسالاتك فلم يزدادوا إلاّ كفراً و عتّواً فأوحى اللّه إليه أن أمسك عنهم المطر ثمّ أمر البراري و الصّحاري أن تجتمع فإجتمعت حتّى صارت أعظم من الجبال و هي المسمّاة بالأحقاف:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اذْكُرْ أَخٰا عٰادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقٰافِ وَ قَدْ خَلَتِ اَلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاّٰ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّٰهَ إِنِّي أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**[1].

١- الأحقاف = ٢١

و سمع هود صوتاً يقول له يا هود قرّعيناً فأنّ لعاد منّا يوم سوءٍ فرجع هود إلى قومه يكرّر عليهم الإنذار و يتّم عليهم الحجّة و قال لهم ألا ترون هذه الرّمال كيف تجّمعت إنّي أخاف أن تكون مأمورة بإلقاء العذاب عليكم و أنّ ربّي قد وعدني أن يهلككم فأخذوا يستهزؤن به و أقبلوا بجموعهم على نقل تلك الرّمال إلى البراري فلم يزد الرّمال إلاّ تجّمعاً، ثمّ كفّ اللّه السّماء عنهم فلم تقطر عليهم سبع سنين حتّى أصابهم القحط الشّديد و ضجُّوا و أشرفوا على الهلاك و هو يناديهم بقوله سبحانه:

وَ يا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا[١].

و هم لا يعبأون و لا يتّعظون بكلامه وال يبالون بتهديده لهم العذاب فلمّا إستكبروا على خالقهم و تمادوا في الغّي و الضّلال و إشتّد بهم القحط و ضاق عليهم الأمر إجتمعوا يتشاورون و كانت عادتهم إذا نزلت بهم لجأوا إلى بيت اللّه الحرام بمكّة فيصرف عنهم ما نزل بهم فإتّفقت كلمتهم على بعث وفدٍ إلى مكّة يدعوا هناك للخصب فذهب الوفد فنزل على رجلٍ من خيار مكّة من بني بكر و أقاموا عنده إلى أن دخلوا بيت الحرام و أخذوا في الدُّعاء إلى أن إرتفع فوق رؤوسهم ثلاث قطع من السّحاب بيضاء، حمراء، سوداء فإستبشروا زعماً منهم أن تسقيهم الأمطار فسمعوا قائلاً يقول يا قوم إختاروا واحدة من هذه السُّحب فإختاروا السّحابة السّواداء و كان فيها العذاب و سيأتي الكلام في هذا الباب في سورة الأحقاف بوجهٍ أبسط **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ

ثمود قيل هو أعجّمي و قيل هو عرّبي و ترك صرفه لكونه إسم قبيلة و هو، فعول، من الثمّد و هو الماء القليل الّذي لا فائدة له و منه قيل فلان مثمود ثمدته

١- هُود = ٥٢

النّساء أي قطعت مادّة ماءه لكثرة غشيانه لهنّ، و مثمود إذا كثر عليه السّؤال حتّى فقد مادّة ماله قاله الرّاغب في المفردات قيل كان بنو ثمود بوادي القرى بين المدينة و الشّام و قد أرسل اللّه تعالى إليهم صالحاً و هو إبن ستّة عشر سنة يدعوهم إلى التّوحيد و رفض الأصنام كما قال اللّه تعالى **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ** و أنّما قال أخوهم لأنّه كان من قبيلة ثمود كما مرَّ في نوح و هود و كان قوم ثمود في العدد كالذَّر و الحصى و في الغنى و الثَّروة و طول أعمارهم أكثر ما يكون، و كانوا يبنون في السّهول قصوراً عالية مزخرفة و ينحتون الجبال بيوتاً الأيّام شتائهم لأنّ السّقوف و الأبنية كانت قبل فناء أعمارهم.

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

أي بعد أن حذَّرهم صالح و أمرهم بالتّقوى قال لهم إنّي لكم رسول أمين.

فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

أي فأجتنبوا معاصيه و أتركوا عبادة الأصنام و أطيعوني فيما آمركم به من التوّحيد و رفض الأصنام.

وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

و هذه الآيات قد مرَّ تفسيرها في قصّة نوح و هود، قالوا لقد قام صالح بين أظهرهم يدعوهم الى اللّه و ترك عبادة الأصنام و أظهر لهم بقدرة اللّه كرامات و آيات بيِّنات تستدلّ على نبُّوته الى أن بلغ عمره مائة و عشرين سنة و هم لم يألوا جهداً في تكذيبه و طرده و إيذائه و نسبته الجنون و السّحر إليه و كانوا يقولون كنّا نرجوا منك الخير و قد يئسنا منك ببدعتك ديناً جديداً فخابت منك ظنوننا و أنت تأكل و تشرب مثلنا فكيف صرت أولى منّا بالنُّبوة.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هٰهُنَآ ءَامِنِينَ

أي زعمتم أنّكم آمنون في هذه البيوت.

فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

و في هذه البساتين و العيون الجارية تحتها.

وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ

زروع جمع زرع و هو نبات من الحب الّذي يبذر في الأرض، و نخلٍ طلعها هضيم، فالهضيم اللّطيف في جسمه و منه هضيم الحشا أي لطيف الحشا و منه هضم الطّعام إذا لطف و إستحال الى مشاكلة البدن قال إبن عبّاس معنى هضيم، أي قد بلغ و أينع و قال عكرمة هو الرّطب اللّين، و هو عطف على قوله: **وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ**

وَ تَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ

أي حاذقين و قيل معناه، عليّين و قال إبن زيد، الفره القوّي و قيل (فرهين) أي أشرّين بطرين و قيل غير ذلك و محصل الكلام في هذه الأيات هو أنّكم لا تبقون على هذه الحالة الّتي أنتم فيها من النّعم و سترحلون منها الى القبور فأنّ الدّنيا و ما فيها من النّعم زائلة داثرة فلا تغتّروا بها و لذّاتها الفانية.

فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ

أي فأجتنبوا معاصيه و أطيعوني فيما أمركم بـه فأنّ فـيه سـعادة الدّاريـن و حلاوة النشأتين .

وَ لَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ

و هم الّذين تجاوزا الحدّ بسبب البعد عن الحقّ و قيل عني بالمسرفين تسعة رهطٍ من قوم ثمود كانوا يفسدون في الأرض و لا يصلحون فنهاهم اللّـه عـلى لسان صالح عن إتّباعهم كما قال تعالى:

اَلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي اَلْأَرْضِ وَ لاٰ يُصْلِحُونَ

أي يفسدون في الأرض بالمعاصي و لا يصلحون، أي لا يفعلون شيئاً من أفعال الحسنة فقالوا في جواب صالح كما حكى اللّه عنهم.

قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مِنَ اَلْمُسَحَّرِينَ

أي من المسحورين، و السِّحر حيلة توهم قلب الحقيقة و قيل معنى الكلام أنّك ممّن له سحرٌ.

مٰا أَنْتَ إِلاّٰ بَشَرٌ مِثْلُنٰا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ

أي فأت بآيةٍ و علامةٍ تدلّ على صحّة مدّعاك إن كنت من الصّادقين، في إدّعائك النبوّة.

قٰالَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

أي قال لهم صالح هذه ناقة و هي الآية الّتي تطلبون منّي و هي من أكبر الأيات لو كنتم تعلمون، قيل أصاب القوم قحطٌ و إحتبس عليهم المطر فكانوا يقولون لصالح ما أصابنا هذا القحط و الجوع إلاّ من شؤمك و لمّا طالت المشاجرات و المخاصمات بينه و بينهم ولم يؤمن به أحد منهم إتفقّت كلمتهم على أن يهجموا عليه في داره بياتاً و يقتلوه ثمّ ينكروا ذلك فلمّا أن كان اللّيل قام جماعة منهم و دخلوا على صالح في ظلمة اللّيل ليقتلوه فأنزل اللّه عليه ملائكة من السّماء رموا كلّ واحدٍ من أولئك الكفرة بحجر فمات بساعة حتّى قتلوهم على آخرهم و عند ذلك أقبل صالح الى مجمعهم و قال لهم يا قوم أنّي قد بعثت اليكم و أنا إبن ستة عشرة سنة و قد بلغت مائة و عشرين سنة و أنا أدعوكم الى اللّه و عبادته و رفض الأصنام و ترك عبادتها فلم تجيبوني و ها أنا اليوم أعرض عليكم أمرين أجيبوني الى واحدٍ منها، قالوا هاتها يا صالح قال إن شئتم فاسألوني ما تشاؤون حتّى أسأل إلهي فيجيبكم الى ما سألتموني فأن أجابكم آمنتم به، و إن شئتم

سألت آلهتكم فأن أجابتني بالّذي أسألها خرجت عنكم فقد سأمتكم و سئمتموني فأجاب القوم الى ذلك و قالوا قد أنصفت يا صالح و تواعدوا معه لذلك على يومٍ مخصوص يجتمعون فيه معه خارج البلد و لمّا كان اليوم الموعود خرجوا بأجمعهم من البلد الى الميعاد بقرب جبلٍ كان هناك و كانوا قد حملوا آلهتهم و أصنامهم على ظهورهم و ذلك بعد أن أقبلوا على عبادتها و السُّجود لها ثلاثة أيّام يجدّون في ذلك و يمسحون أبدانهم و يذبحون لها ذبائحهم و يتَّضرعون إليها في إجابتها لصالح عليه السلام و لمّا إنتهيوا إلى الموضع المعهود نصبوا الأصنام و جلسوا حولها ثمّ أخرجوا ما كان معهم من طعامٍ و شرابٍ فأكلوا و شربوا و لمّا فرغوا من ذلك دعوا صالحاً و قالوا له سل أصنامنا ما شئت فتَّقدم صالح إلى كبير الأصنام و سأله عن إسمه و لمّا سمّوه ناداه صالح فلم تجبه الصَّنم فقال لهم ما به لا يجيب قالوا أدع غيره فأقبل على سائر الأصنام يدعوا كلاًّ منها بإسمه حتّى دعاها عن أخرها بأسمائها فلم تجبه فأقبل على القون و قال لهم ترون أنّي دعوت أصنامكم كلّها فلم يجبني أحد منها فهلّموا الأن و إسئلوني ما شئتم حتّى أدعو إلهي فيجيبكم السّاعة فوراً فأقبل القوم على أصنامهم يعاتبونها و يقولون لها ما بالكم لا تجيبون صالحاً فلم تجيبهم الأصنام بشئٍ إلى أن قالوا تنّح عنّا و دعنا و إيّاها فجعلوا يتّمرغون في التّراب بين أيدي الأصنام و يقولون لهم لئن لم تجيبوا اليوم صالحاً لنفتَّضحن ثمّ قالوا يا صالح فإسألها فرجع صالح و أخذ ينادي بإسمه فلم يجبه أحد منها فقالوا لقد إفتضحنا فقال لهم صالح يا قوم هلمّوا إسئلوني شيئاً حتّى أدعو إلهي فيجيبكم فوراً فعند ذلك إنتدب له سبعون رجلاً من أكابرهم و قالوا ياصالح نحن نسألك قال صالح سلوني ما شئتم قالوا إنطلق بنا إلى هذا الجبل حتّى نسألك عنده فإنطلق بهم صالح نحو الجبل و لمّا إنتهى الليلة قالوا ياصالح سل ربّك أن يخرج لنا السّاعة من هذا الجبل ناقة شقراء، عشراء قد أتى على حملها عشرة أشهر و يكون بين جنبيها ميل تضرب بمنكبيها طرفي الجبل فقال صالح ياقوم سألتموني شيئاً

عظيماً و لكن يعظم على المخلوقين و لا يعظم على الخالق القدير ثمّ توَّجه صالح إلى اللّه و سأله ذلك فلم يتّم دعاءه حتّى إضطرب الجبل كما تضطرب المرأة عند المخاض و القوم ينظرون إليه و قد بهتوا عجباً و حيرةً ثمّ إنصدع الجبل صدعاً كادت تطير منه عقولهم و سمعوا صوتاً مهولاً عجيباً ثمّ ظهر رأس النّاقة من صدع الجبل ثمّ خرجت رقبتها ثمّ سائر جسدها حتّى إستوَّت على الأرض قائمة على صفة ما سألوا في الطّول و العرض و هي حامل في شهرها العاشر فدهش القوم و قالوا ياصالح ما أسرع ما أجابك ربّك فإسأله أن يخرج لنا فصيلها فعاد صالح إلى الصّلاة و السّجود لربّه و الدُّعاء له و لم يرفع رأسه حتّى رمت النّاقة فصيلها ودرَّ لبنها و قام الفصيل يدُّب حول أمّه ما إزداد القوم بهتاً و حيرةً، فقالوا يا صالح قد علمنا أنّ ربّك أعزَّ و أقدر من ألهتنا التّي نعبدها، قال صالح ياقوم هل بقى شئ تريدون إظهاره لكم قالوا، إنطلق بنا إلى قومنا نخبرهم بما رأيناه و شاهدناه فإنطّلق صالح بالسَّبعين و كانوا قد أمنوا به و صدّقوه و لكنّهم لم ينتهوا إلى قومهم حتّى إرتَّد منهم أربع و ستّون رجلاً و كفروا به و قالوا أنّ ذلك سحرٌ عظيم و أمّا السّتة الأخرون فثبتوا على الإيمان أنّ ما رأيناه هو الحقّ و لمّا إنتهوا إلى قولهم كثر الجدل بينهم و بن المكذّبين حتّى إرتَّد واحداً من السّتة و لحق بقومه ولم يثبت منهم على الإيمان إلاّ الخمسة ثمّ أنّهم لمّا خرجت النّاقة من الجبل أتوا بها و بفصيلها حتّى رأتها الأقوام كلّهم و كان لقريتهم ماءٌ يقال له الحجر و هو الّذي يقال عنه في القرأن الكريم: **وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ**[1] فأوحى اللّه تعالى إلى صالح أن قل لهم أنّ اللّه قد جعل لهذه النّاقة شربٌ يومٍ و لكم شربٌ يوم فكانت النّاقة يوم شربها تشرب الماء كلّه ثمّ يدُّر لبنها حتّى يستسقي من لبنها جميعهم و إذا أصبحوا غدوا إلى ماءهم يشربون ولا تشرب منه النّاقة ذلك اليوم و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله: **الَ هٰذِهِ نٰاقَةٌ لَهٰا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ** ثمّ قال تعالى:

١- الحجر = ٨٠

وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ

أي قال صالح لقومه لا تمَسوها أي لا تمَسوا النّاقة بسوءٍ، أي بضُرٍ تشعر به فالسُّوء هو الضّرر الّذي يشعر به صاحبه و أن شئت قلت معناه لا تؤذّوها و ذلك لأنّ المسّ إذا كان شفقةً و ملاطفة لا إشكال فيه ثمّ قال تعالى فيأخذكم عذابٌ عظيمٌ، الفاء للتّفريع أي أنّ العذاب متَفرعٌ على المَس بسوء.

فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ، فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

قال في المجمع عقره أي جرحه، فهو عقير، و عقرت البعير بالسَّيف فالعقر إذا ضربت به قوائمه إنتهى.

فقوله تعالىٰ: **فَعَقَرُوهَا**، أي ضربوا و قطعوا قوائم النّاقة و بالجملة قتلوها قتلاً فظيعاً فأصبحوا نادمين عن فعلهم القبيح بقتلهم النّاقة فأخذهم العذاب ولم يبق منهم عينٌ و لا أثر، و كيفيّة القصّة على سبيل الإجمال أنّه لمّا طالت المدّة على القوم كذلك و هم في سعةٍ ودعةٍ عتوا على ربّهم و جاروا و إستكبروا على اللّه تعالى و قالوا لا نرضى أن تعاد لنا النّاقة بأن يكون لنا شرب يوم و لها شرب يوم فهمُّوا بقتلها فأخذوا يجتمعون و يتَّشاورون فيما بينهم بعقر النّاقة و قتلها ليستريحوا منها إلى أن إتَّفقت كلمتهم على ذلك فأوحى اللّه تعالى إلى صالح و أعلمه بعزمهم على عقر النّاقة و لمّا أخذوا يخرصون النّاس على عقرها وافقهم القوم على ذلك إستشاروا فيمن يكون المباشر له و كان في المدينة إمرأتان تعاديان صالحاً تسمّىٰ إحداهما صدوف و هي أشدُّهما عداوة له و كانت جميلة و غنيّة و كانت الأخرى تسمّى عنيزة فدعت صدوف أحد التّسعة المفسدين الّذين ذكرهم اللّه عزّ وجلّ بقوله: **وَ كَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ**[1] و جَعلت له

١- النمل = ٤٨

نفسها علىٰ أن يعقر النّاقة و دعت عنيزة الّذي ولد على فراش غير أبيه فأجابها إلى عقر النّاقة ثمّ إجتمع مع صاحبه و تذكرا في ذلك ثمّ إستَّغويا السَّبعة الأخرين أصحابهما فوافقوهما على أن يباشر التّسعة الأنفار بأجمعهم عقر النّاقة فتواعدوا على ذلك عند صدور النّاقة لشرب الماء و لمّا كان اليوم الموعود خرج التِّسعة جميعاً و رصدوا النّاقة فكمن صاحب صدوف في أصل صخرة على طريقها و كمن صاحب عنيزة في أصل صخرة أخرى و لمّا رجعت النّاقة من شرب الماء مرَّت على، مصدع، صاحب صدوف فرماها بسهمٍ أصاب عنقها ثمّ شهر السّيف و شدَّ به عليها حتّى ضرب به قوائمها و كشف عرقوبها فخَّرت النّاقة و سقطت على الأرض على جنبيها كأنّها الجبل فبادر إليها، قدار، صاحب عنيزة و طعن لبانها و نحرها و أقبل السَّبعة الأخرون فجعلوا يضربونها بسيوفهم حتّى قطعوها و كان فصيلها معها فلمّا رأى ما فعل بأمّه هرب حتّى صعد الجبل و رفع رأسه إلى السّماء ورغا ثلاث مرّات ثمّ خرج أهل القرية بأجمعهم فإقتسموا لحمها و أكلوه و كان ذلك ليلة أربعاء فأوحى اللّه تعالى إلى صالح أنّ قومك قد طغوا و بغوا و قتلوا النّاقة التّي جعلتها حجّة عليهم ولم يكن عليهم فيها ضرر بل كان لهم فيها أعظم النَّفع فقل لهم أنّي ممهلهم ثلاثة أيّام فأن تابوا و رجعوا قبلت توبتهم و أن لم يتوبوا و لم يرجعوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثّالث، فأقبل صالح علىٰ قومه مغضباً و قال ياقوم ما دعاكم إلى ما صنعتم أعصيتم ربّكم ثمّ قال لهم ياقوم أنّي رسول ربّكم إليكم و هو يقول لكم إن أنتم تبتم و رجعتم و إستغفرت غفرت لكم و ثبت عليكم و إلاّ بعثت عليكم عذابي في اليوم الثّالث فلم يزدد القوم في جوابه إلاّ خبثاً و عقداً بل قالوا ياصالح أئتنا بما تعدنا الآية فقال صالح لهم أنّكم تصبحون غداً و وجوهكم مصّفرة و تصحبون في اليوم الثّاني و وجوهكم محمّرة و تصبحون في اليوم الثّالث و وجوهكم مسّودة:

قال اللّه تعالىٰ: **فَعَقَرُوهٰا فَقٰالَ تَمَتَّعُوا فِي دٰارِكُمْ ثَلاٰثَةَ أَيّٰامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**[1].

فلمّا كان اليوم الأوّل أصبحوا و إذا وجوههم مصفّرة و لمّا كان اليوم الثّاني أصبحوا و قد إحمّرت وجوههم و لمّا كان اليوم الثّالث أصبحوا و وجوههم مسوّدة ثمّ لمّا كان موعد العذاب من اللّيلة الرّابعة و كان صالح قد خرج بمن معه من المؤمنين من بين أظهرهم نزل على القوم جبرئيل بأمر الملك الجليل و صرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم و فلقت قلوبهم و صدعت أكبادهم و هلكوا بأجمعهم بأقل من طرفة عينٍ و لم يبق منهم متّنفسٌ و أصبحوا في ديارهم موتى هالكين ثمّ أرسل اللّه تعالى عليهم بعد الهلاك ناراً من السّماء فأحرقتهم أجمعين و لم يترك لهم أثر:

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ**[2].

و لنعم ما قيل:

كأن لم يكن بين الحجُون إلىٰ الصّفا
أنيسٌ ولَم يَسمُر بمكّة سامرُ

و هذا جزاء من كذّب و كفر و ما ربّك بظّلام للعبيد.

أقول و نظير ذلك وقع في الإسلام أيضاً في قتل أميرالمؤمنين على أيدي الأشرار وما أشبه عبد الرّحمن بن ملجم بقاتل النّاقة، و صدوف بقطامه فكما أنّ صدوف، كانت سبب عقر النّاقة، كانت قطامة سبب قتل أميرالمؤمنين و كما أنّ النّاقة كانت من آيات اللّه كان أميرالمؤمنين آية من آيات اللّه و بينهما بونٌ بعيد و لذلك عبّر رسول اللّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن عاقر النّاقة بالشّقي الأوّلين و عن قاتل علّيٍ بأشقى الآخرين.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ

١- هُود = ۶۵

٢- الأعراف = ٧٨ و ٩١

لوط النّبي هو إبن هاران أخو سارة زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام و هما إبنا خالته كما إنّهما أوّل من آمن به و قد كان لوط رجلاً سخيّاً كريماً يقري الضّيوف إذا نزلوا به يحذّرهم قومه لأنّهم كانوا بخلاء يكرهون نزول الضّيف بهم و كانوا في قريةٍ على طريق السّيارة من الشّام الى مصر و كان إبراهيم عليه السلام أقام لوطاً عندهم يدعوهم الى اللّه تعالى و يعظهم و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحذّرهم عذاب اللّه و أمّا قومه فكانوا قوماً لا يتّنظفون من الغائط و لا يتّطهرون من الجنابة و كانت مجالسهم في أندية تشتمل على أنواع المنكرات كالشّتم و السّخف و القمار و ضرب المعازف و كشف المعورات كما قال تعالى في إنكار لوط عليهم: **وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ** لبث لوط في قومه ثلاثين سنة يدعوهم الى اللّه و يحذّرهم عذابه و نقمته و تزّوج منهم و صار قومه من أفضل الأقوام فحسدهم إبليس اللّعين و طلبهم طلباً شديداً و كان من عاداتهم أن يخرج الرّجال بأجمعهم الى العمل في ظاهر البلد و خارجها و لا يبقى إلاّ النّساء و كانت بلادهم عامرة كثيرة الشّجر و النّبات و الخير و كانت طريق القوافل الى اليمن و الشّام و غيرهما عليها و كان فيها أربع مدن، هي: ـ سدوم، و صدام، و واند، و عميرا، أو عمورة و كان أعظمها سدوم الّتي يسكنها لوط و كانت تلك البلدان قريباً من مسكن إبراهيم في الأردن.

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ

إنّما قال أخوهم لأنّ لوط كان من القوم كما مرَّ في نوح و هود و صالح **قَالَ لَهُمْ** أي لقومه **أَلَا تَتَّقُونَ** أي ألاّ تتّقون اللّه بإجتناب المعاصي و فعل القبائح.

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

في رسالتي من اللّه إليكم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

أي أطيعوني فيما آمركم به فأنّ فيه صلاحكم و سدادكم.

وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

الّذي خلق الخلق و أرسلني إليكم بالدّعوة الى التّوحيد و الرّسالة و إرشادكم الى طريق الهدى و لا أطلب منكم الأجر و إنّما أجري على اللّه.

أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ

ذُكران، بضّم الذّال جمع ذكر و جمعه الآخر، ذكوراً، و ذكارة، و الذّكر بفتح الذّال والكاف خلاف الأنثى و قيل ضِّد الأنثى، و الهمزة للإستفهام التّوبيخي الإنكاري و قوله من العالمين أي من الخلائق و قوله: **أَتَأْتُونَ** كناية عن عملهم القبيح، و معنى الآية واضح.

وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ

أي أنّكم تأتون الرّجال و تتركون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم، من النّساء بل أنتم قومٌ عادون أي خارجون عن الحّق و الإعتدال، و العادي و الظّالم و الجائر نظائر، و العادي من العدوان و قد يكون من العدُّو و هو الإسراع في السّعي، قيل في وجه ذلك أنّ القوافل كانت تمرّ ببلاد قوم لوط و تناول من زروعهم و ثمارهم فجزعوا من ذلك لبخلهم و ضاقت صدورهم فأتاهم إبليس في صورة شيخ و قال لهم هل أدّلكم على ما فعلتموه لم يمُّر بكم أحد فقالوا نعم فقال إاذ مرَّ بكم أحد فأنكحوه في دبره و أسلبوا ثيابه ثمّ إنصرف و جاءهم ثانية بصورة شاب أمرد حسن الوجه و مكّنهم من نفسه حتّى و ثبوا عليه و فجروا به فطاب لهم ذلك و مارَسُوه مع كلّ من كان يمُّر بأرضهم و لو من دون رغبةٍ ليتَّحذر النّاس منهم فشاع أمرهم في القرى و حذَّرهم القوافل فأبتلاهم اللّه بداء الأبنة حتّى صاروا يعرضون أن فسهم على الرّجال في البلاد و يسألونهم النّكاح في أدبارهم و يبذلون المال على ذلك و كانت زوجة لوط عليه‌السلام كافرة باللّه وب

زوجها مثل زوجة نوح النّبي و كانت إذا نزل ضيفٌ بزوجها لوط تخبر القوم بذلك حتّى يهجموا على الضّيف و ينكحوه و كانت علامة ذلك بينها و بين قومها أنّها في النّهار تدخن فيعرفون ذلك من رؤية الدُّخان و في اللّيل توقد النّار على السَّطح ولم يبق أحد منهم على الإيمان و زال عنهم بعد ثبوته و لمّا تمادى القوم في الكفر و الطّغيان و طالت المدَّة بهم ضاق لوط بهم ذرعاً و غمّاً فعند ذلك دعا عليهم بالهلاك و نزول العذاب و أجابه اللّه تعالى الى ذلك.

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَ، يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ

أي من بلادنا.

قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقَالِينَ

أي من المبغضين.

يقال قلاه يقليه إذا أبغضه.

رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ، فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَابِرِينَ

يعني قال في مقام الدُّعاء ربّ نجّني و أهلي منهم فأجابه اللّه بقوله: **فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ** و أستثنى منهم عجوزاً، قيل أنّها كانت إمرأة لوط و الّتي كانت تدلّ قومه على أضيافه و قوله في **ٱلْغَابِرِينَ** يعني الباقين فيمن هلك من قوم لوط، قيل نزل جبرئيل بأمر اللّه مع ثلاثة آخرين و ساروا حتّى إنتهوا الى قرية لوط و وقفوا عليه في زّي غلمان بهيئةٍ حسنة و هو أي لوط حينئذٍ بقرب القرية يحرث زرعاً فسألهم لوط من أنتم قالوا نحن أبناء السّبيل أضفنا اللّيلة قال يا قوم أنّ أهل هذه القرية قوم سوء لعنهم اللّه و أهلكهم ينكحون الرّجال و يسلبون الأموال فقالوا أضفنا اللّيلة فقال نعم و تقَّدمهم يمشى و هم خلفه و كان اللّه تعالى قد أمر جبرئيل أن لا يعَّذب القوم حتّى يشهد لوط عليهم ثلاث شهادات و لمّا كان لوط

في بعض الطّريق ندم على ضيافتهم خوفاً من سوء عمل قومه فأخذ يخاطبهم قائلاًلهم أين تريدون فما رأيت أجمل منكم قطّ قالوا أرسلنا سيّدنا الى ربّ هذه البلدة قال لوط أو لم يبلغ سيّدكم ما يفعل هذه البلدة ثمّ جعل يحذّرهم و قال عليه السلام يأخذون الرّجال فيفعلون بهم و أنّكم تأتون أشرار خلق اللّه فألتفت جبرائيل الى أصحابه و قال هذه واحدة ثمّ توجّه إليهم لوط ثانياً بعد فترة و قال لهم أنّكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرائيل هذه ثانية ثمّ مشوا حتّى إنتهوا الىٰ باب المدينة و قال لهم أنّكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرائيل هذه ثالثة ثمّ قال لهم لوط أنّ لي إليكم حاجة قالوا و ما هي قال تصبرون هاهنا حتّى يختلط الظّلام فلا يراكم القوم فأجابوه الى ذلك و جلسوا على باب المدينة و بعث لوط بإبنه الى بيته ليأتي بخبزٍ و ماء لعشاء ضيوفه و بعباءةٍ و غطاءٍ يتّقون بهما البرد و المطر لأنّ المطر كان قد هطل فلّما ذهب شطر من اللّيل قال لضيوفه قوموا نمضي فقاموا و دخلوا المدينة و أخذ لوط يمشي بحذاء الحائط مستخفياً و أمرهم كذلك فقالوا أنّ سيّدنا أمرنا أن نمُر في وسط الطّريق و لمّا قربوا من بيته سبقهم لوط الى زوجته و قال لها قد أتاني أضياف في هذه اللّيلة فأكتمي على ذلك حتّى أعفو عنك جميع ما كان منك فأجابته الملعونة ظاهراً و لكنّها أبطنت النّفاق و لمّا دخل الرُّسل البيت قامت المرأة على سطح البيت و أوقدت النّار كعادتها لتعلم قومها فلّما رأوا النّار أقبلوا الى بيت لوط من كلّ ناحية كما قال تعالىٰ: **وَ جَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ**(١) فقام لوط في وجههم و وضع يده على باب الدّار يناشدهم اللّه أن يرجعوا عن ضيوفه و لكنّهم لم يزالوا يتهاجمون على دخول دار لوط و هو يدافعهم و أبى القوم إلاّ طغياناً و كفراً إلى أن تكاثروا و كسروا باب داره و دخلوها فوقف لوط جانباً متّحسراً على ضيوفه خجلاً منهم و هو يقول كما حكى اللّه تعالى:

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ(٢).

١- هود = ٧٨ ٢- هود = ٨٠

فتَّوجه جبرائيل إلى أصحابه من الملائكة و قال لو علم ما له من القوّة ثمّ قال يالوط دعهم يدخلوا و لمّا توَّسطوا الدّار و همُّوا بالتَّعرض للرُّسل هوى جبرئيل بإشارةٍ من إصبعه نحوهم فعميت أبصارهم و ذهبت عيونهم من وقتهم كما قال تعالى:

وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ[١].

و لمّا رأى لوط ذلك دهش عجباً و توَّجه نحو الرُّسل و سألهم من أنتم:

قالُوا يا لُوطُ إِنّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا[٢].

و قال جبرئيل أنا جبرئيل قال لوط بماذا أمرتم فال بهلاك القوم فوعده بإنزال العذاب و أمروه بالخروج ببناته من البلدة كما قال تعالى: **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اَللَّيْلِ**[٣] ثمّ أخذ جبرئيل كفّاً منتراب و ضرب به وجوه أهل المدينة فعميت عيونهم كلّهم و كانت اللّيلة الأربعاء الأخيرة من الشّهر فلمّا إنتصف اللّيل سار لوط ببناته ولم يرهم أحد من لا قوم ولم يعلم بهم إلاّ إمرأته و لمّا خان الفجر نزل جبرئيل بأمر ربّه و ضرب بجناحه الأيمن ما حوى شرقيها و بجناحه الأيسر على ما حوى غربيها فإقتلعها من الأرض و عرج بها حاملاًلها بين جناحيه و رفعها في الجوّ ثمّ قلَّبها فجعل عاليها سافلها و أمطر اللّه عليهم من حجارةٍ سجّيل و هلك القوم عن أخرهم أجمعين كما قال تعالى:

ثُمَّ دَمَّرْنَا اَلْآخَرِينَ، وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ اَلْمُنْذَرِينَ، إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ

و إنتقل لوط ببناته إلى الشّام و أقام بها إلى أن رجع إلى ربّه و توّفى سعيداً مشكوراً، إنتهى مختصراً و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً أيضاً.

١- القمر = ٣٧
٢- هود = ٨١
٣- هود = ٨١

كَذَّبَ أَصْحٰبُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا ٱللّٰهَ وَ أَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَ مَآ
أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلٰى رَبِّ
ٱلْعٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ
ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَ لَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَ لَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَ
ٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾
قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَ مَآ
أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكٰذِبِينَ
﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِنْ كُنْتَ
مِنَ ٱلصّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ
ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
ذٰلِكَ لَاٰيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَ
إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَ إِنَّهُ
لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَ
إِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
اٰيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَ لَوْ

نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿۱۹۸﴾ فَقَرَأَهُ
عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿۱۹۹﴾ كَذَٰلِكَ
سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿۲۰۰﴾ لَا
يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿۲۰۱﴾
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿۲۰۲﴾ فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿۲۰۳﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
﴿۲۰۴﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿۲۰۵﴾ ثُمَّ
جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿۲۰۶﴾ مَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿۲۰۷﴾ وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ
قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿۲۰۸﴾ ذِكْرَىٰ وَ مَا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿۲۰۹﴾ وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿۲۱۰﴾
وَ مَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿۲۱۱﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿۲۱۲﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ
إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿۲۱۳﴾ وَ أَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿۲۱۴﴾ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ
لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿۲۱۵﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ
فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿۲۱۶﴾ وَ تَوَكَّلْ
عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿۲۱۷﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿۲۱۸﴾ وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿۲۱۹﴾ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿۲۲۰﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ
تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿۲۲۱﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ ﴿۲۲۲﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ

﴿۲۲۳﴾ وَ ٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ ﴿۲۲۴﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ ﴿۲۲۵﴾ وَ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿۲۲۶﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ
عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَ
ٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿۲۲۷﴾

◀ اللّغة

الْأَيْكَةِ: في اللّغة الشّجرة الكثيفة و جمعها، أيك قال في القاموس، أيك يأيك أيكاً من باب تعب و إستأيك الشّجر إلتّف و صار أيكة، و الأيك الشَّجر الكثير الملتَّف، الواحدة أيكة، فتطلق الأيكة على الواحدة من الإيك و على فيضة شجرٍ ملتّفة قرب، مدين، قالوا و كان شجرهم، الدّوم، و هي قرية شعيب سمّيت بإسم بانيها، مدين، بن إبراهيم بينها و بين مصر مسير ثمانية أيّام و سأتي الكلام في قراءتها.

شُعَيْبٌ: بضّم الشّين و فتح عَين إسم نبيّ من الأنبياء.

بِالْقِسْطَاسِ: قيل هو العدل في التّقويم على المقدار و جمعه قساطيس و قال الحسن هو القبّان، و قيل هو الميزان و قال قومٌ هو العدل و السّواء ذكره أبو عبيدة.

وَ لَا تَبْخَسُوا: البخس النّقص.

وَ لَا تَعْثَوْا: قال أبو عبيدة، عثا يعثا عثواً و هو أشّد الفساد بالخراب و قيل هو من عاث يعيث عيثاً.

وَ ٱلْجِبِلَّةَ: بكسر الجيم و الباء و فتح اللاّم الشمّددة الخليقة التّي طبع عليها الشّي.

كِسَفًا: هو جمع كسفة و مثله ثمرة و تمر و الكسفة القطعة على قول إبن عبّاس و غيره من علماء اللُّغة.

يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ: بضّم الظّاء المظلّة الضَّيقة و ما يستّظل به من الحرّ أو البرد و الجمه ظلل و ظلال و يوم الظُّلة إشتهر بعذابهم فقد رنقت فوقهم سحابة أظَّلتهم بعد حرّ شديد أصابهم.

زُبُرِ: بضّم الزّاء و الباء الكتب واحدها زبور.

ٱلْأَعْجَمِينَ: الاعجم الّذي لا يفصح و في لسانه عجمة و إستعجام و الأعجمّي مثله إلاّ أنّ فيه زيادة ياء النّسبة و هي للتّأكيد.

سَلَكْنَٰهُ: السّلوك الدّخول يقال أسلكته فيه أي أدخلته.

بَغْتَةً: البغتة حصول الأمر العظيم الشّأن من غير توَّقعٍ بتقديم الأسباب، و قيل البغتة الفجأة.

أَفَّاكٍ: الإفك و الأفّاك مبالغة فيه.

أَثِيمٍ: الإثم الفاعل للقبيح يقال أثم إثماً إذا إرتكب القبيح.

◀ الإعراب

أَصْحَٰبُ لْئَيْكَةِ يقرأ بكسر التّاء مع تحقيق الهَمَزة و قرئ ليكة، بياء بعد اللاّم و فتح التّاء إِنَّهُ الهاء ضمير القرأن بِلِسَانٍ الباء تتعلّق بالمنذرين (لو لم تكن) يقرأ بالتّاء و فيه وجهان:

أحدهما: هي التّامة و الفاعل ءَايَةً و أَنْ يَعْلَمَهُ بدل أو خبر مبتدأ محذوف.

الثّاني: هي ناقصة و في إسمها وجهان:

أحدهما: ضمير القصّة و، أن يعلمه، مبتدأ و أية، خبر مقّدم و الجملة خبر كان.

الثّاني: إسمها أية و في الخبر أيضاً وجهان:

أحدهما: لَهُمْ و أن يعلمه بدل أو خبر مبتدأ محذوف.

الثّانی: أن یعلمه ٱلْأَعْجَمِينَ أي الأعجّميين فحذفت ياء النّسبة مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ يجوز أن يكون إستفهاماً فيكون، ما، في موضع نصب، و يجوز أن يكون نفياً أي ما أغنى عنهم شيئاً ذِكْرَىٰ مفعول له أو خبر مبتدأ محذوف أي الإنذار ذكرى يُلْقُونَ حال من الفاعل في تنزل أَىَّ مُنْقَلَبٍ هو صفة لمصدرٍ محذوف و العامل ينقلبون، أي ينقلبون إنقلاباً.

◀ التّفسير

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ

قالوا أصحاب الأيكة أي أصحاب قرية كثيرة الأشجار و كان لأهل مدين و هي قرية في طريق الشّام ملك جبّار لا يطيقه ملك من الملوك و كانوا في سعةٍ من العيش فأمرهم ملكهم بإحتكار الطّعام و نقص المكيال و الميزان فأطاعوه و يبخس النّاس أشياءهم و أفسدوا في الأرض و عتوا على اللّه فأرسل اللّه إليهم شعيباً و كان ينسب إلى إبراهيم الخليل بعد أربعة أباء و كانت أمّه بنت لوط النّبي و كان في قومه منذ صغره موّعداً يخفي دينه عن قومه و هم مشركون و قد أرسله اللّه تعالى مرّتين مرّة إلى أصحاب الأيكة و مرّة إلى أهل مدين هكذا قيل و على هذا فأصحاب الأيكة غير أهل مدين و قال بعضهم هما واحد و اللّه أعلم.

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ

و أنّما قال شعيب ولم يقل أخوهم كما قال في نوح و هود و صالح لأنّهم كانوا من القوم بخلاف شعيب فأنّه لم يكن من أصحاب الأيكة و أنّما كان رسولاً إليهم، و قال لهم أي لأصحاب الأيكة ألا تتّقون اللّه.

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَ أَطِيعُونِ، وَ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

و قد مضى تفسير هذه الأيات.

أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ

قلنا أنّهم كانوا من المحتّكرين أمرهم بذلك أي بالإحتكار و نقص المكيال و الميزان ملكهم الجبّار، أقام شعيب بينهم مدّة يدعوهم إلى اللّه فلم يؤمن به إلاّ شرذمة قليلة و بلغ خبره إلى الملك فبعث ينهاه و يحذّره فأجابه شعيب أنّ اللّه أوصى إلّي أنّ الّذي يصنع ما تصنعه أيّها الملك فغضب الملك و أمر بإخراجه من القرية و أمّا أهل الأيكة فأنّهم فعلوا ما فعل أهل مدين فأرسل اللّه إليهم حرّاً شديداً أخذ بأنفاسهم و صارت فياههم حميماً لا يستطيعون شربها و خرجوا إلى البريّة فبعث اللّه سبحانه سحابة فإستّظلوا تحتها بأجمعهم فأرسل اللّه تعالى عليهم ناراً فأحرقتهم عن أخرهم و هو معنى قوله تعالى: **فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ** و كانت مدّة عمر شعيب مائتين و أثنتين و أربعين سنة و أقام مشتّغلاً بالعبادة و البكاء فأوحى اللّه تعالى إليه أنّي موّفيك على حبّك لي و بكائك لي أن أخدمك كليمي موسى بن عمران فيكون ذلك دليلاً على كرامتك عندي و سأتي تفصيله.

وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ

القسطاس الميزان و المعنى زنوا الأشياء بالميزان العدل.

وَ لَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

أي لا تنقصوا الأشياء و لا تعثوا في الأرض بالمعاصي، و قيل معناه لا تفسدوا فيها بعد إصلاحها و قال أبو عبيدة معناه أشدّ الفساد بالخراب.

وَ ٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ

و هو ليس إلاّ اللّه تعالى فأنّه خلق الخلق و أوجدهم بعد العدم و هو الّذي خلق الخليقة و الطّبائع و بالجملة كلّ الموجودات إذ لا خالق إلاّ هو.

قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ

أي من المسحورين و هذا جوابهم له بعد دعوتهم إلى التّوحيد و ترك المعاصي كما قالوا في جواب صالح النّبى.

وَ مَآ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ

إن، هي المخفّفة من الثّقيلة و لذلك دخل اللاّم في الخبر أي لست أنت يا شعيب إلاّ بشرٌ مثلنا تأكل و تشرب و مع ذلك تدّعي النّبوة.

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ

في إدّعائك النّبوة و قوله: **كِسَفًا**، بكسر الكاف و فتح السّين معناه قطعاً، و قرئ، كسفاً، بسكون السّين و كلاهما جمع كسفة نحو قطع جمع قطعة و قال أبو عبيدة الكسف جمع كسفة مثل سدر و سدرة و قرأ حفص، كسفاً جمع كسفة و هي القطعة و هو الحقّ و المقصود أنّك تدّعي النّبوة فأن كنت صادقاً فيما تدَّعيه فإفعل ذلك.

قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

أي قال شعيب لهم ربّي أعلم بما تعملون من الشّرك و المعاصي و النّقص في المكيال و الميزان فإذا شاء و أراد أن يعذّبكم لا رادّ له فأنّه على كلّ شيٍ قدير.

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

أي فكذّبوا شعيباً فيما كان يدعوهم إليه فأخذهم عذاب يوم الظُّلة، و هو خروجهم إلى البّرية و تجّمعهم تحت السّحابة و إرسال اللّه عليهم ناراً كما مرّ القول فيه.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

قد مضى تفسيرها فلا نعيد الكلام فيها.

أعلم أنّ هذه القصص السّبع التّي مرَّت ذكرها قد كرّر في أوّل كلّ قصّة و في أخرها ما كرّر من الأيات و الوجه فيه، أنّ في التّكرير تقريراً للمعاني في الأنفُس و ترسيخاً لها في الصُّدور مع تعليق كلّ واحدةٍ بعلّةٍ و فنَّ التّكرير فنٌّ دقيق المأخذ و ربّما إشتبه على أكثر النّاس بالإطناب مرّة و بالتَّطويل مرةً أخرى و هو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: التّكرير في اللّفظ و المعنى كقولك لمن تستدعيه أسرع و معه قول أبي الطّيب:

ولم أر مثل جيراني و مثلي لمــثلي عــند مــثلهم مقامُ

القسم الثّاني: من التَّكرير ما يوجد في المعنى دون اللّفظ كقولك أطعني و لا تعص أوامري فأنّ الأمر بالطّاعة نهيٌ عن المعصية و على كلّ حال ليس في القرآن مكرّرٌ لا فائدة في تكريره و أمّا إذا كان التَّكرير غير مفيد فهو العَّي الفاحش و للبحث فيه مقام آخر.

وَ إِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

الواو للإستئناف و الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حقيقة تلك القصص و تأكيد نبّوة محّمد صلى الله عليه و آله و سلم فأنّ أخباره عن الأمم المتّقدمة و هو الأمّي الّذي لا يقرأ و لا يكتب ظاهراً لا يكون إلاّ عن طريق الوحي و الضّمير في، أنّه، يعود على القرآن لأنّ هذه القصص جزءٌ منه و المعنى أنّ القرآن أنزله ربّ العالمين و فيه إيماء الىٰ أنّه ليس كلام البشر و هو ظاهرٌ.

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ

و هو جبرئيل عليه السّلام (وبه) في موضع الحال أي متلّبساً به فالباء للمُلابسة قرأ أبو عمرو و حفص نزل مخّففاً و باقي السَّبعة بالتَّشديد.

عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ

خَّص القلب بالذَّكر لأنّه محّل الوحي، أو لأنّه بقلبه يحفظه فكأنّه المنزل عليه و المعنى (أنزل هذا القرآن على قلبك) لتُّخوف به النّاس و تنذرهم لأنّك منذرٌ و لكّل قومٍ هاد و من المعلوم أنّ الإنذار لا يتحّقق إلاّ بكلام اللّه تعالى لمن آمن به ثمّ عاد الى وصف القرآن بقوله:

وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ

معناه أنّ ذكر القرآن كان في كتب الأولّين على وجه البشارة به لا من جهة أنّ اللّه أنزله على غير محّمد، و واحد الزَّبور زبور و منه زبور داوود يقال زبرت الكتاب إذا كتبته و أصله الجمع و منه الزّبرة الكتبة لأنّها مجتمعة و قد مرَّ الكلام فيها عند شرح اللّغات.

أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا بَنِيٓ إِسْرَٰٓئِيلَ

قرأ إبن عامر، أَو لَم تكُن بالتّاء، و رفع الآية و الباقون بالياء و النَّصب فيها فعلى القراءة الأولى تكون (آية) إسم كان و **أَنْ يَعْلَمَهُ** خبره لأنَ (أَن) مع الفعل بمنزلة المصدر و تقديره أو لم تكن لهم آية معجزة و دلالة ظاهرة على بني إسرائيل بمحمّد في الكتب السّموية يعني كتب الأنبياء قبله أنّه نبّي و حيث أنّ الإستفهام إنكارّي فالمعنى كانت لهم آية و لكنّهم أنكروها و أمّا على القراءة الثّانية و هي قراءة الياء في يَكُن و نصب آية فية (أي) آية خبر كان و **أَنْ يَعْلَمَهُ** إسمه و هو الأقوى في العربيّة لأنّ، آية، نكرة و، أن يعلمه، معرفة وإذا إجتمعت معرفة و نكرة، أختير أن تكون المعرفة إسم كان و النَّكرة خبرها و على التَّقديرين فالإستفهام إنكارّي لا خلاف فيه و على هذا فمعنى الآية أنّه كان لهم ذلك إلاّ أنّهم أنكروه و قيل من علماء بني إسرائيل عبد اللّه بن سلام في قول إبن مسعود و إبن عبّاس و مجاهد.

وَ لَوْ نَزَّلْنٰاهُ عَلىٰ بَعْضِ اَلْأَعْجَمِينَ

قال الزّمخشري، الأعجم الّذي لا يفصح و في لسانه عجمة و الأعجمي مثله إلاّ أنّ فيه لزيادة ياء النّسبة زيادة تأكيدٍ و هاهنا إشكال و هو أنّه كيف يجمع الأعجم جمع المذّكر السّالم و هو وصفٌ على وزن، أفعل في المذّكر و على وزن، فعلاء في المؤنّث و شرط الجمع بالياء و النُّون أو بالواو و النُّون أن لا يكون الوصف كذلك، و أجيبت عنه بأنّه جمع أعجمي بياء النَّسبة و حذفت للتَّخفيف كأشعرين في أشعري و الكوفيون يجيزون جمع أفعل فعلاء جمع المذّكر السّالم.

و قال صاحب التّحرير قوله تعالىٰ: **عَلىٰ بَعْضِ اَلْأَعْجَمِينَ**، جمع أعجمي و لو لا هذا التّقدير لم يخير أن يجمع جمع سلامة إنتهى.

و قال في القاموس العُجم بضّم العين و يا لتحريك خلاف العرب و رجلٌ و قومٌ أعجم، من لا يفصح إنتهى و ممّا يعجبني في المقام ما قاله بعض المفسّرين من العامّة في معنى الآية قال ماهذا لفظه قيل و المعنى و لو نزّلناه بلغة العجم على رجل أعجمي فقرأه على العرب لم يؤمنوا به حيث لم يفهموه و إستنكفوا من إتّباعه إنتهى.

أقول الآية لا تدُّل على ما ذكره أصلاً بل المعنى و لو نزَّلناه على بعض الأعجمين، أي على غير العرب لم يؤمنوا به لتَّعصبهم و عنادهم و إلى هذا المعنى أشار بقوله:

فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مٰا كٰانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

ففيه ذمٌّ للعرب و إشارة إلى تعَّصبهم و تكّبرهم و في ذلك تسلية للنّبي حين لم يؤمنوا به و لم يقبلوا منه و قيل معناه و لو نزل على بعض البهائم فقرأه محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم عليهم لم تؤمن البهائم كذلك هؤلاء لأنّهم كالأنعام بل هم أضّل.

و قال الرّازي أنّ اللّه تعالى بيّن في الآية أنّ هؤلاء الكفّار لا تنفعهم الدّلائل و لا البراهين فقال و لو نزّلناه على الأعجمين، يعني أنّا أنزلنا هذا القرأن على رجلٍ عربّيٍ مبين فسمعوه و فهموه و عرفوا فصاحته و أنّه معجز لا يعارض بكلامٍ مثله، و إنضّم إلى ذلك بشارة كتب اللّه السّالفة فلم يؤمنوا به و جحدوه و سمّوه شعراً تارةً و سحراً تارةً أخرى، فلو نزّلناه على بعض الأعجمين الّذي لا يحسن العربيّة لكفروا به أيضاً و لتّمحلوا لجحودهم عذراً إنتهى كلامه.

أقول الظّاهر أنّ الآية تدُّل على فضيلة العجم و يدلّ على ذلك ما رواه علّي بن إبراهيم في تفسيره لهذه الآية عن الصّادق عليه السلام حيث قال، قال الصّادق لو نزّلنا القرأن على العجم ما أمنت به العرب و قد نزل على العرب فأمنت به العجم فهذه فضيلة العجم إنتهى.

و أنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ في قوم العرب تعَّصب الجاهليّة دون العجم و هذا ظاهر مشهود.

كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ

الهاء كناية عن القرأن أي كذلك سلكنا القرأن في قلوب المجرمين، و معناه أقررناه في قلوبهم بإخطاره ببالهم لتقوم به الحجّة عليهم قال الرّازي تدّل الآية على أنّ الكلّ بقضاء اللّه و خلقه.

و قال صاحب الكشّاف أراد به أنّه صار ذلك التّكذيب متّمكناً في قلوبهم أشدَّ التّمكن فصار ذلك كالشّئ الجبّلي و قد أجاب عنه الرّازي بما حاصله أنّ ما فعل اللّه بهم أما يقتضي رجحان التّكذيب على التّصديق أو لا يقتضي فأن كان الأوّل فقد دلَّلنا التّرجيح لا يتحقق ما لم ينته إلى حدّ الوجوب و حينئذٍ يحصل المقصود و أن لم يفعل فيهم ما يقتضي التّرجيح البتّة إقتنع قوله: **كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ**، كما أنّ طيران الطّائر لمّا لم يكن له تعلّق بكفرهم إمتنع إستناد الكفر إلى ذلك الطّيران إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره الرّازي في جوابه لا يصّح إلاّ على مذهبه و هو الجبر لأنّه من الأشاعرة القائلين به و أمّا على مذهب الزّمخشري الّذي هو من المعتّزلة فهو باطل و الحقّ مع صاحب الكشّاف كما مرَّ مراراً تحقيق ذلك و قول الرّازي أما أن فعل بهم ما يقتضي رجحان التّكذيب أو ما فعل ذلك، كلام عاطل لا محصّل له فأنّ اللّه تعالى لم يفعل بهم هذا و لا ذاك و أنّما إختاروا التّكذيب بسوء سريرتهم و خبث طينتهم بسبب العصيان الّذي صدر منهم بإختيارهم و قد ثبت أنّ الإقتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار فالإنسان مختار في فعله فأن إختار الطّاعة و الإنقياد يصير مؤمناً صالحاً و أن إختار التّمرد و العصيان يصير شقيّاً خبيثاً ثمّ أنّ الشّقاوة و خبث الباطن تمنعه عن قبول الحقّ إلاّ أنّه بإختياره أوجد المانع عن قبل له لا أنّ اللّه تعالى فعل فيه شيئاً كذا وكذا إذ لو كان الأمر كما ذكره الرّازي فالإنسان مجبورٌ في فعله من جانب اللّه تعالى و هو خلاف العقل و العدل.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ

أي أنّ هؤلاء الكفّار لا يؤمنون بالقرأن و أنّه منزّل من عند اللّه حتّى يروا العذاب الأليم و ذلك لعنادهم و لجاجهم.

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ

أي فيأتيهم العذاب فجأةً و غفلةً و هم لا يشعرون به أعاذنا اللّه منه.

جزء ١٩

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ

أي مؤخّرون فأنّ الإنتظار الإمهال و هو التّأخير و منه قوله تعالى حكايةٌ عن إبليس حيث قال: **قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ**[١] أي إمهلني و أخّرني، و معنى الآية أنّهم أي كلّ أمّةٍ معذّبةٍ يقولون هل نحن

١- الحجر = ٣٦/٣٧

منظرون أي مؤخّرون و هذا على جهة التّمني و الرَّغبة حيث لا تنفع الرَّغبة فهو نظير قوله تعالى: **رَبِّ ٱرْجِعُونِ، لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صٰالِحًا فِيمٰا تَرَكْتُ**[١].

ثمّ رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على إستعجالهم عذاب اللّه في طلبهم سقوط السّماء كسفاً.

أَفَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ

تبكيتٌ لهم بإنكار و تهَكم و معناه كيف يستعجل العذاب من هو معرضٌ لعذاب يسأل فيه من جنس ما هو اليوم من النَّظرة و الإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها و وجهٌ أخر متّصل بما بعده و ذلك أنّ إستظارهم يومئذٍ و يستعجلون على هذا الوجه حكاية حالٍ ماضية و على هذا فهو حكاية توبيخ يوَبخون به عند إستنظارهم يومئذٍ و في المقام وجهٌ أخر و هو أنّ إستعجالهم بالعذاب أنّما كان لإعتقادهم أنّه غير كائنٍ و لا لاحق بهم و أنّهم ممتّعون بأعمارٍ طوال في سلامةٍ و أمنٍ فقال تعالى: **أَفَبِعَذٰابِنٰا يَسْتَعْجِلُونَ**، أشراً و بطراً و إستهزاءً وإتّكالاً على الأمل الطّويل.

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنٰاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جٰآءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ، مٰآ أَغْنىٰ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يُمَتَّعُونَ

معنى الكلام، أفرأيت، يامحمّد، إن متّعناهم سنين **ثُمَّ جٰآءَهُمْ مٰا كٰانُوا يُوعَدُونَ** من العذاب ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون به في دار الدّنيا لإزديادهم من الأثام و إكتسابهم من الإجرام و بعبارةٍ أخرى، أيُّ شئٍ يغني عنهم ما يمتّعون به من النِّعم في الدّنيا فأنّ كلّه فانٍ فلم يبق منه عينٌ و لا أثر، و الباقي ليس إلاّ العمل و المفروض أنّه قبيح.

وَ مٰآ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّٰا لَهٰا مُنْذِرُونَ، ذِكْرىٰ وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ

١- المؤمنون = ١٠٠ / ٩٩

ما، نافية، و التّقدير من أهل قريةٍ فحذف المضاف و معنى الآية و ما أهلكنا من أهل قريةٍ ظالمين الاّ بعد ما ألزمناهم الحجّة بإسال المنذرين إليهم و المقصود أنّ العذاب بعد إتمام الحجّة لا قبله و هو مقتضى العدل و قوله: **ذِكْرٰى وَ مٰا كُنّٰا ظٰالِمِينَ**، فهو متعلّق، بأهلكنا، و ذكرى، مفعول أي أهلكناهم ليكون إهلاكهم تذكرةً و عبرةً لغيرهم و على هذا فيكون الإنذار لأجل الموعظة و التّذكرة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيا من حيَّ عنها و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد قبل إتمام الحجّة عليهم.

وَ مٰا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيٰاطِينُ

الضّمير في، به، عائد على القرأن قيل أنّ الكفّار كانوا يقولون أنّ محمّداً صلى الله عليه و آله و سلم كاهن و ما يتّنزل عليه هو من جنس ما يتّنزل به الشّياطين على الكهنة فردَّ اللّه عليهم بقوله:

وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُمْ وَ مٰا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ

نفى أوّلاً تنزيل الشّياطين به و حيث أنّ النّفي في الغالب يكون في الممكن و أن كان هنا لا يمكن من الشّياطين التّنزل بالقرأن ثمّ نفى إبتغاء ذلك و الصلاحيّة أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاًله ثمّ نفى قدرتهم على ذلك و أنّه مستحيلٌ في حقّهم التّنزل به فإرتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحيّة و منه إلى نفي القدرة و الإستطاعة و ذلك مبالغة متّرتبة في نفي تنزيلهم به ثمّ علّل إنتفاء ذلك بأنّهم عن إستماع كلام أهل السّماء مرجوحون بالشُّهب و حاصل الكلام أنّ ما قاله الكفّار في حقّ القرأن لا يساعده العقل و النّقل.

فَلاٰ تَدْعُ مَعَ ٱللّٰهِ إِلٰهًا اٰخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ

قيل الخطاب في الحقيقة للسّامع أي قل يامحمّد لمن كفر لا تدع مع اللّه إلهاً أخر فتكون من المعذّبين يوم القيامة و قيل نهى اللّه تعالى نبيّه عن الشّراك به و المراد به المكلّفين و نظائره في القرأن كثيرة و أنذر عشيرتك الأقربين.

قال بعض المفسّرين من العامّة نبّه على العشيرة و أن كان مأموراً بأنذار النّاس كافّة كما قال أن أنذر النّاس لأنّ في إنذارهم و هم عشيرته عدم محاباة و لطف بهم و أنّهم و النّاس في ذلك شرعٌ واحد في التّخويف و الإنذار فإذا كانت الأقرباء قد خوّفوا و أنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقّهم من الرّأفة كان غيرهم في ذلك أوكد و أدخل أو لأنّ البدأة تكون لمن يليه ثمّ من بعده و قال عليه‌السلام حين دخل مكّة كلّ رباً في الجاهليّة موضوع تحت قدَّمي هاتين إلى أخر ما قال إنتهى.

و قال الرّازي قوله: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ و ذلك لأنّه تعالىٰ بدأ بالرّسول فتّوعده إن دعا مع اللّه إلهاً أخر ثمّ أمره بدعوة الأقرب فالأقرب و ذلك لأنّه إذا تشدّد على نفسه أوّلاً ثمّ الأقرب فالأقرب ثانياً لم يكن لأحدٍ فيه طعنٌ البتّة و كان قوله أنفع و كلامه أنجع و روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية صعد الصّفا و نادى الأقرب فالأقرب و قال يا بني عبد المطّلب يابني هاشم يابني عبد مناف ياعبّاس عمّ محمّد ياصفيّة عمّة محمّد أنّي لا أملك من اللّه شيئاً لكم سلوني من المال ما شئتم.

و روي أنّه جمع بني عبد المطّلب و هم يومئذٍ أربعون رجلاً على رجل شاة و قعبٍ من لبن و كان الرّجل منهم يأكل الجذعة و يشرب العسّ فأكلوا و شربوا ثمّ قال يابني عبد المطّلب لو أخبرتكم أن يسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدّقي قالوا نعم فقال أنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد إنتهى ما ذكره الرّازي في تفسير الآية.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية نظير ما ذكره الرّازي و الأصل في ذلك كلّه هو ما ذكره الطّبري في تفسيره و كلّهم أخذوا ما أخذوا منه كما هو دأبهم في تفاسيرهم.

قال الطّبري بأسناده عن عائشة قالت لمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللّه ياصفيّة بنت عبد المطلب و يا فاطمة بنت محمّد يابني عبد المطّلب أنّي لا أملك لكم من اللّه شيئاً سلوني من مالي ما شئتم إنتهى.

ثمّ أنّ الطبري أطال الكلام في المقام بنقله الرّوايات المختلفة عن أبي هريرة و غيره من المكذّبين بما لا فائدة في نقلها في المقام فأن شئت الوقوف عليها فعليك بكتابه و ليت شعري أين كانت عائشة يوم الدّار و هكذا أين كانت فاطمة بنت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و هي ولدت بعد يوم الدّار بسنتين أو أكثر و قد أجمع المورّخون و أرباب السير على أنّ يوم الدّار كان بعد مبعثه صلى الله عليه وآله وسلم بثلاث سنين.

قال إبن الأثير في كامله و هو من أعيان العامّة و تاريخه من أشهر التّواريخ في الإسلام في تاريخه ماهذا لفظه ثمّ أنّ اللّه تعالى أمر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر و كان قبل ذلك في السّنين الثّلاث مستتراً بدعوته لا يظهرها إلاّ لمن يثق به فكان أصحابه إذا أرادوا الصّلاة ذهبوا إلى الشّعاب فإستخفوا، ثمّ نقل ما نقله الطّبري و غيره كما هو شأن المؤرّخ الأمين و ساق الكلام إلى أن قال ما هذا لفظه:

قال علّي بن أبي طالب عليه السلام لمّا نزلت **وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** دعاني النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ياعلّي أنّ اللّه أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت ذرعاً و علمت أنّي متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليه حتّى جائني جبرئيل و قال يا محمّد أن لا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك فأصنع لنا صاعاً من طعامٍ و أجعل عليه رجل شاة و إملأ لنا عسّاً من لبنٍ و إجمع لي بني عبد المطّلب حتّىٰ أكلّمهم و أبلّغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم و هم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب و حمزة و العبّاس و أبو لهب فلمّا إجتمعوا إليه دعاني بالطّعام الّذي صنعته لهم فلمّا وضعته تناول رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حزّة من اللّحم فنتقها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصّحفة ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم خذوا بإسم اللّه فأكل القوم حتّى مالهم بشئٍ من حاجة و ما أرى إلاّ مواضع أيديهم و أيم اللّه الّذي نفس علّي بيده أن كان الرّجل الواحد منهم ليأكل ما قدّمت لجميعهم ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم إسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا منه

حتّى رووا جميعاً و أيم اللّه أن كان الرّجل الواحد ليشرب مثله فلمّا أراد رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أن يكلّمهم بدره أبو لهب الى الكلام فقال لعلمنا سحركم به صاحبكم فتّفرق القوم و لم يكلّمهم رسول اللّه فلمّا كان الغد قال صلّى الله عليه و آله و سلّم يا عليّ إنّ هذا الرّجل سبقني الى ما سمعت من القول فتّفرقوا قبل أن أكلّمهم فعدِّلنا من الطّعام بمثل ما صنعت ثمّ أجمعهم ففعل مثل ما فعل بالأمس فأكلوا و سقيّتهم ذلك العسّ فشربوا حتّى روّوا جميعاً و شبعوا ثمّ تكلّم رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم فقال يا بني عبد المطلب أنّي و اللّه ما أعلم شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به و قد جئتكم بخير الدُّنيا و الأخرة و قد أمرني اللّه أن أدعوكم اليه فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي و وصيّي و خليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً قلت و أنّي لأحدثهم سنّاً و أرقصهم عيناً و أعظمهم بطناً و أحمشهم ساقاً أنا يا نبيّ اللّه أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثمّ قال أنّ هذا أخي و وصّيي و خليفتي فيكم فأسمعوا له و أطيعوه قال فقام القوم يضحكون فيقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لأبنك و تطيع رسول اللّه أن يصدع بما جاء من عند اللّه و أن يباديْ النّاس بأمره و يدعوهم الى اللّه فكان يدعوا في أوّل ما نَزَلت عليه النبوّة ثلاث سنين مستخفيّاً الى أن أمر بالظّهور الى آخر ما ذكره في تاريخه بطوله إنتهى موضع الحاجة منه.

و قال في المراجعات بعد نقله ما نقلناه الى قول عليٍّ عليه السلام أنا يا نبيّ اللّه أكون وزيرك عليه كما نقلناه عن إبن الأثير، ما هذا لفظه و قيلَ أنّه صلّى الله عليه و آله و سلّم قد كرّر ذلك ثلاث مرّات و في كلّ مرّةٍ لا يقوم إلاّ عليّ عليه السلام و يقول أنا يا رسول اللّه و ساق الكلام الى أن قال، أخرجه بهذه الألفاظ كثيرٌ من حفظة الأثار النبويّة، كإبن إسحاق، و الطّبري و إبن الأثير و أرسله إرسال المسلمان في جزءه الثّاني و أبو الفداء و أبو جعفر الإسكافي و غيرهم و حسبك ما أخرجه أحمد بن حنبل من الجزء الأوّل ص ٣٣١ من مسنده إنتهى كلامه رفع مقامه.

أقول، فهذه قصّة يوم الدّار بالنظّر الى أقوال المؤرّخين و أنباء السيّر و قال الحافظ الحسكاني و هو من كبار علماءهم في كتابه المسمّى بشواهد التنّزيل في قوله تعالى: **وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** بأسناده عن البراء قال لمّا نزلت الآية جمع رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم بني عبد المطّلب و هم يومئذٍ أربعون رجلاً، الرّجل منهم يأكل المسّنة و يشرب العسّ فأمر علياً برجلٍ شاةٍ فآدمها ثمّ قال أدنوا بسم اللّه فدعا القوم فأكلوا حتّى صدروا ثمّ دعا بقعب من لبنٍ فخرج منه جرعة ثمّ قال لهم إشربوا بأسم اللّه فشرب القوم حتّى رووا فبدرهم أبو لهب فقال هذا ما أسحركم به الرّجل فسكت النّبي يومئذٍ فلم يتكلّم ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطّعام و الشّراب ثمّ أنذرهم رسول اللّه فقال يا بني عبد المطّلب أنّي أنا النذّير اليكم من اللّه و البشير لما يجيئ أحدكم جئتكم بالدُّنيا و الأخرة فأسلموا و أطيعوني تهتدوا و من يؤاخيني منكم و يوازرني و يكون وليّي و وصيّي بعدي و خليفتي في أهلي و يقضي ديني فسكت القوم و أعاد ذلك ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم و يقول عليّ عليه السلام أنا فقال صلى الله عليه و آله و سلم أنت فقام القوم و هم يقومون لأبي طالب أطع إبنك فقد أمّره عليكم إنتهى [1].

أقول لولا مخافة الأطناب و خروجنا عن موضعهم الكتاب لأشبعنا الكلام فيه و لكن فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب و أمّا ما ذكره الرّازي من كلام رسول اللّه فهو ممّا قال به صلى الله عليه و آله و سلم بعد فتح مكّة و لا ربط له بيوم الدّار إلاّ أنّ الرّازي أراد أن يخرج الآية عمّا نزلت الآية فيه و هو خلافة أميرالمؤمنين و وصايته و اللّه أعلم و بعد اللّتيا و الّتي نقول في تفسير الآية أنّها نزلت في إنذار النّبي لقومه و عشيرته الأقربين من مخالفتهم لأمير المؤمنين بعد موت النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و إعلامه بأنّ علياً عليه السلام هو وصيّه و خليفته كما عرفته من كيّفية الدّعوة إلاّ أنّ مخالفينا في هذه المسألة قالوا في تفاسيرهم بما شاؤوا و أرادوا و أسقطوا من قصّة يوم الدّار ما يثبت ذلك كما هو دأبهم في جميع الأيات النّازلة في فضائل أهل البيت.

۱- شواهد التنّزيل ص ۴۲۰

وَ ٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

لمّا أمر اللّه تعالى نبيّه بالإنذار على ما مرَّ بيانه أمره ثانياً بخفض الجناح للمؤمنين و معناه، ألن جانبك و توضع لهم و حسِّن أخلاقك معهم ذكره إبن زيد قال الرّاغب في المفردات الخفض ضدّ الرّفع و الخفض الدَّعة و السيّر اللَّين فهو حثٌّ على تليين الجانب إنتهى.

أقول فعلى هذا هو كناية عن التَّواضع الّذي هو ضدّ التَّكبر و أنّما أمره اللّه تعالى به لأنّ التَّواضع من أحسن الطُّرق الى جذب النّاس كما أنّ التَّكبر بخلافه و أنّما خصّ الحكم فيمن تبعه من المؤمنين دون جميع النّاس و بعبارةٍ أخرى لم يقل و أخفض جناحك للنّاس مثلاً لأنّ التّواضع للمتّكبر و الكافر و المعاند لا يحسن عقلاً و شرعاً و السِّر في هذا الحكم أنّ التّواضع للمؤمن في الحقيقة يرجع الى التَّواضع للإيمان و هذا بخلاف التّواضع لغير المؤمن من الكفّار، و الفسّاق و المتكبرين فأنّه يوجب حقارة المؤمن و ذلّة النّفس و هو مذموم عقلاً و شرعاً و أن شئت قلت التَّواضع للمؤمن هو التَّواضع للّه و التَّواضع لغير المؤمن ليس كذلك، ثمّ أنّ التَّواضع و هو إنكسار النّفس يمنعها من أن يرى لذاتها مزيّةً على الغير و المواظبة عليها أقوى معالجة لإزالة الكبر.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما تواضع أحد للّه إلاّ رفعه اللّه إنتهىٰ.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: طوبى لمن تواضع في غير مسكنةٍ، و أنفق مالاً جمعه من غير معصيةٍ، و رحم أهل الذِّلة و المسكنة، و خالط أهل الفقه والحكمة إنتهى.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا و ما حلاوة العبادة قال صلى الله عليه وآله وسلم ، التَّواضع إنتهى.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: أربعٌ لا يعطيهنّ اللّه إلاّ من يحبّه، الصّمت و هو أوّل العبادة، و التّوكل على اللّه، و التّواضع و الزُّهد في الدُّنيا إنتهى.

و قال صلى الله عليه و آله و سلم: من تواضع للّه رفعه اللّه، و من تكبّر للّه خفضه اللّه و من إقتصد في معيشةٍ رزقه اللّه و من بذّر حرمه اللّه و من أكثر ذكر الموت أحبّه اللّه، و من أكثر ذكر اللّه أظلّه اللّه في جنتّه إنتهى و الأخبار في مدحه كثيرة جدّاً.(١)

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

لمّا أمر اللّه تعالىٰ نبيّه بخفض الجناح لمن إتّبعه من المؤمنين، قال فأن عصوك في أوامرك و نواهيك فقل لهم، إنّي بريءٌ ممّا تعملون من الأعمال و الأقوال القبيحة و عبادتكم للأصنام هكذا قيل في تفسير الآية و البراءة المباعدة من النُّصرة عند الحاجة فإذا بريئ من عملهم فقد تباعد من النصّرة لهم.

أقول معنى الآية لا خفاء فيه و لا يحتاج الى هذه التّكلفات و ذلك لأنّ اللّه تعالى أمر رسوله أن يخفض جناحه لمن تبعه من المؤمنين باللّه و رسوله فعلّق الحكم على المتابعة و أمّا في صورة عدم المتابعة فلا ينبغي له أن يتواضع لمن خالفه و هذا معنى قوله: **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**، لأنّهم في صورة العصيان لا قيمة لهم عند اللّه و رسوله و لذلك قال تعالى:

وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ

أي أن عصوك فأعرض عنهم و توّكل في جميع أمورك على اللّه القادر الّذي لا يغالب و لا يعاذ، و هو الواسع النّعمة على خلقه، و في الآية دلالة على أنّ التّوكل على اللّه يكفي للعبد في الوصول الى مطلوبه في جميع الأحوال و حيث أنّ التّوكل من أحسن الصّفات للعبد ينبغي أن نتكلّم فيه إجمالاً.

فنقول قال في المفردات أن تعتمد على غيرك و تجعله نائباً عنك إنتهى.

هذ بحسب اللّغة و أمّا بحسب الإصطلاح عند علماء الأخلاق، هو إعتماد القلب في جميع الأمور على اللّه و بعبارةٍ أخرى حوالة العبد جميع أموره على

١- جامع السّعادات ج ١ ص ٣٦١

اللّه و قيل هو التّبري من كلّ حولٍ و قوّةٍ و الإعتماد على حول اللّه و قوّته، و هو موقوفٌ على أن يعتقد الإنسان إعتقاداً جازماً بأنّه لا فاعل في الوجود إلاّ اللّه و لا حول و لا قوّة إلاّ به و أنّ له تمام العلم و القدرة على كفاية العباد و أنّه ليس وراء منتهى قدرته و لا وراء منتهى علمه و لا وراء منتهى عنايته عناية فمن إعتقد ذلك إتكلّ قلبه لا محالة على اللّه وحده و لم يلتفت الى غيره و لا الى نفسه أصلاً فالتّوكل لا يتمّ إلاّ بقُوة اليقين و قوّة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب و طمأنّينته فالسّكون في القلب شيءٌ و اليقين شيء آخر و إذ توقّف التّوكل على اليقين و قوّة القلب معاً و أرتفع بضعف أحدهما يظهر أنّه من الفضائل المتعلّقة بقّوتي العاقلة و الغبطّية معاً إذا عرفت هذا فأعلم أنّه منزل من منازل السّالكين و مقام من مقامات الموحّدين بل هو أفضل درجات المؤمنين و لذا ورد في مدحه و فضله و التّرغيب فيه ما ورد من الكتاب و السُّنة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ عَلَى ٱللّٰهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**(۲).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**(۳).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**(۴) و الآيات كثيرة.

و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: من إنقطع الى اللّه كفاه اللّه كلّ مؤنة و رزقه من حيث لا يحتسب و من إنقطع الى الدّنيا و كلّه اللّه إليها إنتهى.

و قال الصّادق عليه السلام: من أعطي ثلاثاً لم يمنع ثلاثاً، من أعطى الدُّعاء أعطي الإجابة، ومن أعطى الشُّكر أعطى الزّيادة، ومن أعطى التَّوكل أعطى الكفاية إنتهى.

۱- المائدة = ۲۳
۲- آل عُمران = ۱۵۹
۳- الطّلاق = ۳
۴- الأنفال = ۴۹

و الأخبار في الباب أيضاً كثيرة فمن أراد الوقوف عليها فعليه بمراجعة الكتب الموضوعة لها، و الّذي ينبغي أن يشار إليه في المقام هو أنّ التّوكل علىٰ اللّه لا ينافي التّمسك بالأسباب فمن ظَّن أنّ التّوكل على اللّه بعد قطع الأسباب لا قبله فقد أخطأ و ذلك لأنّ اللّه تعالى هو مسّبب الأسباب و مع ذلك أبى أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها فالمؤمن يتّوكل على اللّه في جميع أحواله و أطواره و يفّوض أمره إليه و مع ذلك يتّمسك بالأسباب أيضاً فالمريض مثلاً لابّد له من الرّجوع الى الطّبيب و مع ذلك لا يعتمد عليه بل يعتمد على اللّه تعالى فأنّ الشّفاء بيده، و قد ظهر ممّا ذكرناه أنّ التّوكل من فروع المعرفة باللّه و ثمراتها فكّلما كانت المعرفة أكثر و أشّد كان التّوكل أكثر و أشّد و بالعكس و حيث أنّ الأنبياء في أعلى درجات المعرفة فهم في أعلى درجات التّوكل أيضاً و ذلك لأنّ التّوكل على اللّه له ثلاث درجات:

الأولىٰ: أن يكون حال المتّوكل في حقّ اللّه و الثّقة بعنايته و كفالته كحاله في الثّقة بالوكيل و هذه أضعف الدّرجات.

الثّانية: أن تكون حاله مع اللّه كحال الطّفل مع أمّه فأنّه لا يعرف غيرها و لا يفزع إلاّ إليها و لا يعتمد إلاّ عليها.

الثّالثة: و هي أعلى الدّرجات أن يكون بين يدي اللّه في حركاته و سكناته مثل المّيت بين يدي الغاسل بأن يرى نفسه ميّتاً، و تحّركها القدرة الأزلّية كما يحّرك الغاسل الميّت و هو الّذي قويت نفسه و نال الدّرجة الثّالثة من التّوحيد و هذا مقام الأنبياء و الأوصياء و أنت إذا تأملّت في سيرة النّبي صلى الله عليه و آله و سلم لعلمت أنّه صلى الله عليه و آله و سلم لم يصل الى مطلوبه إلاّ بالتّوكل على اللّه و الإعتماد عليه ولم يكن له صلى الله عليه و آله و سلم معين و لا ناصرٌ إلاّ اللّه تعالى فهو صلى الله عليه و آله و سلم توكّل على ربّه في إنجاز دعوته كما أمره ربّه و من يتّوكل على اللّه فهو حسبه.

ٱلَّذِي يَرىٰكَ حِينَ تَقُومُ

الواو للعطف أي توكّل على العزيز الرّحيم و الّذي يراك، يا محّمد حين تقوم للصّلوة وحدك.

وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ

أي و حين تصلّي في جماعة، و قيل معناه تصّرفك في المصّلين بالرّكوع و السُّجود و القيام و القعود، و قيل معناه أخرجك من نبّي الى نبّي حين أخرجك نبّياً، و قال قوم كم أصحابنا أنّه تعالى أراد تقّلبه صلّى الله عليه وآله وسلّم من آدم الى أبيه عبد اللّه في ظهور الموحّدين لم يكن فيهم من يسجد لغير اللّه.

أقول هذا المعنى الأخير هو الحّق الحقيق بالإتّباع لأنّ قوله: **وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ** معناه إنتقالك من صلب ساجدٍ الى صلب ساجدٍ آخر و هذا دليل على أنّ أباء النّبي كانوا ساجدين موّحدين و يؤيّد هذا المعنى ما ورد في الزّيارة:

«اَشهد اَنَّكَ كُنتَ نُوراً فى الاَصْلابِ الشّامِخَة وَ الأرحامِ المُطَهَّرَة لَم تُنَجّسكَ الْجاهِلِيّة بِأنْجاسِها وَ لَم تُلَبسِك مِن مُدلهِمّات ثيابها».

قال الرّازي و فيه وجوهٌ:

أحدها: المراد ما كان صلّى الله عليه وآله وسلّم يفعله في جوف اللّيل من قيامه للتّهجد و تقلّبه في تصّفح أحوال المجتهدين ليطّلع على أسرارهم كما يحكى أنّه حين نسخ فرض قيام اللّيل طاف تلك اللّيلة بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطّاعات فوجدها كبيوت الّزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر اللّه و المراد بالسّاجدين المصلّون.

ثانيها: المعنى حين تقوم للصّلاة بالنّاس جماعة و تقلّبه في السّاجدين من تصّرفه فيما بينهم بقيامه و ركوعه و سجوده و قعوده إذ كان إماماً لهم.

ثالثها: أنّه لا يخفى عليه حالك فكلّما قمت و تقّلبت مع السّاجدين في كفاية أمور الدّين.

رابعها: المراد تقَّلب بصره فيمن يصلّي خلفه من قوله ﷺ أتّموا الرّكوع و السّجود فواللّه أنّي أراكم من خلفي ثمّ قال أنّه هو السّميع العليم ثمّ قال و إعلم أنّ الرّافضة ذهبوا إلى أنّ أباء النّبي كانوا مؤمنين و تمَّسكوا في ذلك بهذه الآية و بالخبر.

أمّا هذه الآية فقالوا قوله: وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ يحتمل الوجوه الذّي ذكرتم و يحتمل أن يكون المراد أنّ اللّه تعالى نقل روحه من ساجدٍ إلى ساجدٍ كما نقوله نحنُ و إذا إحتمل كلّ هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكلّ ضرورة أنّه لا منافاة و لا رجحان، و أمّا الخبر فقوله ﷺ لم أزل أنقل من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام الطّاهرات وكلّ من كان كافراً فهو نجس لقوله أنّما المشركون نجس و ساق الكلام إلى أن قال و أمّا حمل قوله و تقلّبك في السّاجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بيَّنا أنّ حمل المشترك على كلّ معانيه غير جائز و أمّا الخبر فهو خبرٌ واحد فلا يعارض القرأن إنتهى كلامه.

و نحن نقول أمّا الوجوه التّي ذكرها في معنى الآية فهي من مخترعات نفسه و لا يدلّ اللّفظ عيها أصلاً فأنّ تقلّب بصره ﷺ فيمن خلفه أو أنّ المراد بالسّاجدين المصلّون و أمثال ذلك ممّا ذكره لا تدلّ الآية عليه مع أنّه ينافي حضور القلب في الصّلاة و كيف يقلّب بصره فيمن خلفه و هو ﷺ في أعلى مراتب القرب و أمّا ما نسبه إلى الرّافضة من أنّهم قالوا أنّ الآية يحتمل ما ذكرتم إلى أخر ما قال فهو إفتراء محضٌ و لم يقل بصّحة الموهومات أحد.

و أمّا قوله أنّ حمل المشترك على كلّ معانيه غير جائز، فيقال في جوابه ليس في المقام لفظٌ مشترك بين المعاني، فأنّ اللّفظ واحد و المعنى أيضاً واحد و الّذي ذكره ليس من معاني اللّفظ أصلاً بل هو من مستخرجات و همه لا ربط له بمعنى الآية و أمّا قوله أنّ الخبر واحد فلا يعارض القرأن فالجواب عنه أنّ الرّازي لَم يعلم معنى التّعارض ولو علم معناه لم يتّفوه بهذا الكلام نعم الخبر معارض لما ذكره و فهمه من الآية فالآية لا تدلّ على أنّ أباء النّبي كانوا كافرين مشركين حتّى

ثبت التّعارض بينهما و بين الخبر و العجب من هذا الرّجل و أمثاله كيف يفسّرون كلام اللّه بما شاؤا و أرادوا بل يتّصرفون في معنى الألفاظ من عند أنفسهم و حاصل الكلام أنّ قوله: **وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ**، لا ربط له بما ذكره الرّازي و للأية نفسير أخر على رغم أنف الرّازي و أمثاله و هو أنّها تدُل على أمرين:

أحدهما: طهارة أباء النّبي.

ثانيهما: عصمة النّبي ﷺ من حين ولادته إلى أخر عمره في جميع شئونه سواء فيها الأحكام و غيرها.

أمّا المقام الأوّل: و هو طهارة أبائه فقد دلّت عليه الآية و الخبر، أمّا الآية فلأنّ التّقلب مأخوذ من القلب و قلب الشّيئ تصريفه و صرفه عن وجهٍ إلى وجهٍ كقلب الثّوب و قلّب الإنسان أي صرفه عن طريقته و سمّي القلب قلباً لكثرة تقلّبه و تقليب الشّيئ تغييره من حالٍ إلى حالٍ، و التّقلب التّصرف قاله الرّاغب في المفردات.

إذا عرفت هذا فنقول، قوله: **وَ تَقَلُّبَكَ**، أي تصّرفك و تغّيرك من حالٍ إلى حالٍ أي من صلبٍ إلى صلبٍ و الإنتقال يدلّ على الحدوث أوّلاً و عدم قراره في صلب واحدٍ ثانياً ثمّ أنّ هذا التّقلب في الأصلاب يقتضي أن يكون الصُّلب ظاهراً عن الأرجاس و الأخباث بدليل قوله: **فِى ٱلسَّٰجِدِينَ**، فقد شهد اللّه بأنّ الأصلاب كانت للسّاجدين للّه تعالى و صلب السّاجد لا يكون نجساً فأباء النّبي كانوا طاهرين و هو المطلوب.

أمّا المقام الثّاني: و هو أنّه ﷺ معصوم فقد ظهر وجهه ممّا ذكرناه إذ لا نعني بالطّهارة إلاّ العصمة.

و أمّا الخبر فهو ليس بواحدٍ كما زعمه الرّازي بل الأخبار الواردة في الباب كثيرة متظافرة لو لم تكن متواترة إلاّ أنّ الرّازي لم يطّلع إلاّ على خبرٍ واحدٍ فنّظن أنّ الخبر منحصرٌ به و قد وردت به أخبار كثيرة من العامّة و الخاصّة و ليس كتابنا

موضوعاً لنقل الأخبار الواردة في الباب و حسبك في ذلك ما ذكره الشّيخ سليمان الحنفي في كتابه ينابيع المودّة فأنأه ذكر هناك أخبارٌ كثيرة من طرق العامّة و هو من أعيان العامّة و فضلائهم و لم ينكر عليه أحد فيما ذكره بل تلّقوه بالقبول و نحن نشير إلى شطرٍ منها تيّمناً و تّبركاً و إتماماً للحجّة و من أراد الوقوف على تفصيلها فعليه بمراجعة كتابه.

ما نقله عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري قال سألت رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: أوّل شئ خلقه اللّه قال هو نور نبيّك و ساق الحديث إلى أن قال ثمّ خلق اللّه تعالى أدم و أودع نوري في صلبه فتلألأ في جبينه و سبابته فسأل اللّه عن هذا النُّور فقال تعالى هو نور محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولدك ثمّ إنتقل النُّور منه إلى صلب شيث عليه السلام و هكذا ينقل اللّه نوري من طيّب إلى طيّبٍ و من طاهرٍ إلى طاهرٍ إلى أن أوصله إلى صلب أبي عبد اللّه بن عبد المطّلب و منه أوصله اللّه إلى رحم أمّي أمنة ثمّ أخرجني إلى الدّنيا فجعلني سيّد المرسلين و خاتم النّبيين و مبعوثاً إلى كافّة النّاس أجمعين هذا كان بدأ خلقة نبيّك ياجابر إنتهىٰ[١].

و عن الشّفا للقاضي عياض عن علّي عليه السلام في قوله تعالىٰ: لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ[٢] قال نسباً و صهراً و حسباً ليس في أبائي من لدن أدم، سفاح كلّنا بنكاحٍ قال الكلبي كتبت للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم خمس مائة أمّ فما وجدت فيهنّ سفاحاً و لا شيئاً ممّا كان عليه أهل الجاهليّة.

و عن إبن عبّاس في قوله: وَ **تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّاجِدِينَ** قال: عن نبّي إلىٰ نبّي حتّى أخرجتك نبيّاً إنتهى.

١- ص ١٢ ٢- التوبة = ١٢٨

و في مجمع الفوائد رفعه، خرجت من نكاحٍ ولم أخرج من سفاح من لدن أدم إلى أن ولدنّي أبي و أمّي [١].

و قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام:

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِى اَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَ أَقَرَّهُمْ فِى خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاَبِ اِلىٰ مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ. حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ اِلىٰ مُحَمَّدٍ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأُرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِى حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِى كَرَمٍ، إلىٰ أخر كلامه [٢].

و مع ذلك يقول الرّازي هو خبرٌ واحد و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و لولا مخافة الإطناب و خروج البحث عن موضوع الكتاب لأشبعنا الكلام فيه و الحمد للّه على كلّ حالٍ.

إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

أي أنّ اللّه تعالى يسمع و يعلم ما يقولون و لا يخفى عليه شيئ و هو ظاهر.

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كٰاذِبُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى أنّ القرأن ليس ممّا تنّزل به الشّياطين فيما مضى من الأيات (٢١٠) نبّه في هذه الآية على من تنّزل الشّياطين عليه بقوله: **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** أي هل أخبركم على **مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ**، تنّزل على **كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**، أي كذّابٍ عاصٍ **يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ**، أي يلقون ما يسمعون بإستراق السّمع إلى كلّ

١- ينابيع المودّة ص ١٣
٢- الخطبة = ٩٣

أفاكٍ أثيم و المقصود أنّ القرأن وحيٌ من اللّه و ليس ممّا نزلت به الشّياطين فأنّ ما نزلت به الشّياطين كذب و إفتراء و القرأن حقّ و صدق و أعلم أنّ الإستفهام في قوله: **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** للتّوقيف و التّقرير لأنّ الإستفهام إذا علق عنه العامل لا يبقى على حقيقته أعني الإستعلام بل يرجع معناه إلى الخبر ألا ترى أنّك إذا قلت، علمت أزيدٌ في الدّار أم عمروٌ كان المعنى علمت أحدهما في الدّار فليس المعنى أنّه صدر عنه العلم ثمّ إستعلم المخاطب عن يقين من في الدّار من زيدٍ و عمروٍ و على هذا فالمعنى هل أعلمكم من تنّزل الشّياطين لا أنّه أستعلم المحاطب عن الشّخص الّذي تنزل الشّياطين عليه و لمّا كان المعنى هذا جاء الأخبار بعده بقوله: **تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** و هو كثير الإفك و الكذب كما أنّ الأثيم كثير الإثم فهما صيغتا مبالغة و المرادٌ بهما الكهنة و الضّمير في يلقون، إلى الشّياطين أي ينصتون و يصغون بأسماعهم ليسترّقوا شيئاً ممّا يتكلّم به الملائكة حتّى ينزلوا بها إلى الكهنة أو يلقون السّمع أي المسموع إلى من يتّنزلون عليه.

وَ ٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ

قيل المراد بالشُّعراء في الآية أميّة و أبى الصّلت و أبى عزّة و مسانع و جبيرة بن أبي وهب و أبى سفيان بن الحرث و إبن الزّبعري و أمثالهم و الحقّ أنّ الآية عامّ و لا دليل على التّخصيص و المعنى أنّ الشُّعراء لا يتّبعهم على كذبهم و باطلهم و فضول كلامهم و ما هم عليه من الهجاء و تمزيق الأعراض و مدح من لا يستّحق المدح إلاّ الغاون من السّفهاء فهذا هو المعيار في عدم متابعتهم و أمّا من كان من الشُّعراء بخلافه فهو ممدوح و لا إشكال في متابعته عقلاً و شرعاً بل نقول كلّ شارع أن كان شعره باطلاً فلا يتّبع و أن قال حقّاً فيتّبع.

و حاصل الكلام هو أنّ الحقّ يتّبع و الباطل لا يتّبع فأنّ كلّ شاعرٍ قد يقول حقّاً و قد يقول باطلاً قال الرّاغب في المفردات سمّي الشّاعر شاعراً لفطنته و دقة معرفته فالشّعر في الأصل إسمٌ للعلم الدّقيق في قولهم ليت شعري، ثمّ صار في

التّعارف إسماً للموزون و المقّفى من الكلام، و الشّاعر للمختّص بصناعته و قوله تعالى حكايةً عن الكفّار، بل إفتراء بل هو شاعر، و قوله شارعٌ مجنون، شاعرٌ نتّربص به، حمله المفسّرون على أنّهم رموه أي النّبي بكونه أتيا بشعٍ منظوم مقّفى حتّى تأولوا ما جاء في القرأن من كلّ لفظ يشبّه الموزون من نحو، و جفان، كالجواب و قدور راسيات و قوله: **تَبَّتْ يَدٰآ أَبي لَهَبٍ**، إنتهى كلام الرّاغب.

و أمّا **ٱلْغٰاوُونَ**، فقال إبن عبّاس المراد بهم الرُّواة لأشعارهم و قال أيضاً هم المستحسنون لأشعارهم المصاحبون لهم و قال عكرمة هم الرُّعاء الّذين يتّبعون الشّاعر، و قال مجاهد و قتادة الشّياطين، و قال عطيّة هم السُّفهاء من المشركين و غيرهم و لمّا كان في المقام فطنة سؤال و هو أنّه كيف ذمَّ متابعتهم وعدَّ من إتّبعهم من الغاوين فأجاب اللّه تعالى عنه بقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِّ وادٍ يَهيمُونَ، وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ

و المعنى ألم تر أنّهم، أي الشُّعراء في كلّ وادٍ يهيمون، هذا تمثيلٌ لذهابهم كلّ شعب من القول و إعتسافهم و قلّة مبالاتهم بالغلّو في المنطق و مجاوزة الحدّ و قال إبن عبّاس هو تقبيحهم الحسن و تحسينهم القبيح و أنّهم يقولون ما لا يفعلون، و ذلك لغلّوهم في أفانين الكلام و تكلّمهم بالفصاحة و المعاني اللّطيفة و قد يسنبون لأنفسهم ما لا يقع منهم أصلاً.

قال الوطواط و هو يمدح الأمير:

ما نوال الغمام فصل ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة عينٍ و نوال الغمام قطرة ماءٍ

أنظر إلى مبالغته في المدح و قال الشّاعر و هو يمدح الرّشيد العبّاسي و يهنّئه بالخلافة:

ألم تر أنّ الشّمس كانت مريضةُ فلمّا أتى هارون أشرق نورها
تلّبست الدّنيا جمالاً بملكه فهارون و اليها و يحيى وزيرها

و قال الأخر في مدح عبد الملك:

ألستم خير من ركب المطايا و أندى العالمين بطون راحٍ

و قال الأخر في مدح الخمر:

إذا مت فأدفنّني إلى جنب كرمةٍ تروّي عظامي بعد موتي عروقها
و لا تدفنني في الفلاة فأنّني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

و أمثال ذلك من الأباطيل كثيرة وليس هذا إلاّ أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون و يقولون ما لا يفعلون، بل يقولون ما لا يعلمون فمتابعتهم في أقاويلهم و أشعارهم توجب خسران الدّنيا و الأخرة و هو ظاهر و على ما ذ كرناه فالحكم بغواية متابعيهم في الآية الشّريفة إمّا المراد بهم شعراء الجاهليّة أمثال أميّة إبن أبي الصّلت و هبيرة إبن أبي وهب و أبي سفيان بن الحرث و إبن الزّبعري كما هو قول كثيرٍ من المفسّرين.

و إمّا المراد أكثرهم و أغلبهم و الحكم ناظرٌ بإعتبار الأغلب و هو الأقوى في النّظر إذ ليس كلّ شعرٍ مذموم و لا كلّ شاعرٍ مطرود كما هو كذلك في كلّ صنفٌ من الأصناف و كلّ قولٍ من الأقوال و أنّما قلنا ذلك لأنّ من الأشعار التّي قيل أو يقال حقيقٌ بأن يكتب بالذّهب و ليس هذا إلاّ أنّ قائله ممدوح إعتقاداً و إيماناً ألا ترى أنّ لبيد الشّاعر قال في محضر النّبي صلّى الله عليه و آله وسلّم:

ألا كلّ شيٍ ما خلا اللّه باطلُ وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلُ

فقال رسول اللّه هذا أصدق شعرٌ قالته العرب و من هذا القبيل قول الشّاعر:

تفكّر في نبات الأرض و أنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و قول الأخر:

لعمرك ما الأيّام إلاّ معارةً فما إستطعت من معروفها فتّزود

و قال الأخر:

وما ثمَّ إلاّ اللّه في كلّ حالةٍ فلا تتّكل يوماً علىٰ غير لطفه
وكم حالة تأتي و يكرهها الفتى و خيرته فيها على رغم أنفه

و قال الأخر:

تَوَّكل على الرَّحمن في الأمر كلّه | فما خاب حقّاً من عليه تَوَّكلا

و لبعضهم:

ولا تـجزع إذا عسرت يوماً | فقد أيسرت في الزّمن الطّويل
ولا تـظّنن بـربّك ظـنَّ سوءٍ | فأنّ اللّـه أولى بـالجميل
و أنّ العسـر يـتبعه يسـارٌ | و قـول اللّـه أصدق كـلّ قيلٍ
فـلو أنّ العـقول تسـوق رزقـاً | لكـان المـال عـند ذوي العـقول

و الأشعار من هذا القبيل كثيرة بـالعربيّة و الفـارسيّة و غـيرهما مـن اللّغات فليس لكّ شعرٍ مذمومٌ و هذا ظاهرٌ و لا سيّما الأشعار التّي في التّوحيد و النّبوة و كتب الأخلاق و الفضائل النّفسانية و بيان فضائل المعصومين عليهم السّلام كقصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين عليه السلام و هي من أحسن القصائد في الباب مطلعها:

هذا الّذي تعرف البطحاء وطأته | و البيت يعرفه و الحّل و الحـرم

الى أنّ قال:

هـذا إبـن خير عـباد اللّـه كـلّهم | هذا التّـقي النّـقي الطّاهر العلم
مـا قـال لا قـطُّ إلاّ فـي تشّـهده | لو لا التّشـهد كـانت لاقـه نـعم

الى آخر القصيدة، و هكذا غيرها من القصائد و الأشعار الّتي ينبغي أن تكتب بماء الذّهب على الأحداق لا بالحبر على الأوراق و لو مخافة الأطناب و الخروج عن موضوع الكتاب نقلنا منها ما قرَّت به العيون و أطمأنّت به القلوب و لعَّله الى هذا أشار اللّه تعالى بعد هذه الآية بقوله:

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَ ٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

إستثنىٰ من جملة الشّعراء الّذين آمنوا منهم و عملوا الصّالحات و ذكروا اللّه كثيراً في أشعارهم و أجتنبوا معاصيه و أنتصروا لنفوسهم في الدّين من الّـذين

ظلموهم، قيل ـ أراد الشّعراء الّذين ردّوا على المشركين هجائهم للمؤمنين فأنتصروا بذلك للنّبي و المؤمنين ثمّ هدُّوا اللّه الظّالمين فقال: **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**، أي أيّ منصرفٍ ينصرفون إليه لأنّ منصرفهم الى النّار و قيل أراد الّذين ظلموا نفوسهم بقول الشِّعر الباطل من هجو النّبي و المؤمنين و من يكذب في شعره، قيل لمّا نزلت **وَ ٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ** جاء حسّان بن ثابت وكعب إبن مالك و إبن رواحة يبكون الى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا نبي اللّه أنزل اللّه تعالى هذه الآية و هو تعالى يعلم إنّا شعراء فقال الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم إقرأوا ما بعدها **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** أنتم، و أنتصروا من بعد ما ظلموا، أنتم، أي بالرَّد على المشركين قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إنتصروا و لا تقولوا إلاّ حقّاً و لا تذكروا الآباء و الأمّهات فقال حسّان لأبي سفيان:

هجوت محمّداً فأجبت عنه — و عند اللّه في ذاك الجزاء
و أنّ أبي و والدتي و عرضى — لعرض محمّدٍ منكم وفاءُ
أتشتمه ولست له بكفٍ — فشركما لغيركما الفداء
لساني صارمُ لا عيب فيه — و يجري لا تكدّره الدّلاء

فقال كعب، يا رسول اللّه، أنّ اللّه أنزل في الشِّعر ما قد علمت فكيف ترى فيه فقال النّبي أنّ المؤمن يجاهد بنفسه و سيفه و لسانه و الّذي نفسي بيده لكان ما ترونهم به نقع النّبل و محّصل الكلام أنّ الملاك في جميع الأفعال و الأقوال هو الايمان لا غيره فكُّل فعلٍ أو قولٍ صدر من فاعله على أساس الإيمان فهو ممدوح و ألاّ فهو مذموم سواء فيه الشِّعر و هذا هو الملاك و اللّه أعلم.

■

سُورَةُ ٱلنَّمْلِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طٰسٓ، تِلْكَ اٰيٰاتُ ٱلْقُرْاٰنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾
هُدًى وَ بُشْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لٰا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ
زَيَّنّٰا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولٰئِكَ
ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذٰابِ وَ هُمْ فِى ٱلْاٰخِرَةِ هُمُ
ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْاٰنَ مِنْ لَدُنْ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قٰالَ مُوسٰى لِأَهْلِهِٓ إِنِّىٓ
اٰنَسْتُ نٰارًا سَاٰتِيكُمْ مِنْهٰا بِخَبَرٍ أَوْ اٰتِيكُمْ
بِشِهٰابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمّٰا
جٰآءَهٰا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى ٱلنّٰارِ وَ مَنْ
حَوْلَهٰا وَ سُبْحٰانَ ٱللّٰهِ رَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ ﴿٨﴾ يٰا
مُوسٰىٓ إِنَّهُٓ أَنَا ٱللّٰهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَ أَلْقِ
عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَاٰهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جٰآنٌّ وَلّٰى مُدْبِرًا
وَ لَمْ يُعَقِّبْ يٰا مُوسٰى لٰا تَخَفْ إِنِّى لٰا يَخٰافُ
لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلّٰا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ

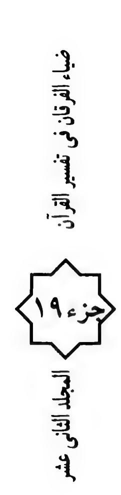

حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَـإِنِّى غَـفُورٌ رَحِـيمٌ ﴿١١﴾ وَ
أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ
سُوٓءٍ فِي تِسْعِ اٰيَاتٍ إِلٰى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ اٰيَاتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَ جَحَدُوا
بِهَا وَ ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

◀ اللّغة

طسٓ: قد بيّنا معنى الحروف المقطّعة في أوائل السُّور فيما تقدّم و قلنا أنّها رموزٌ و إشارات لا يعلم معناها إلاّ اللّه و المشهور أنّها أسماء للسُّور و قال قومٌ، طس، إسم للقرأن.

يَعْمَهُونَ: يقال، عمه إذا تحيَّر.

لَتُلَقَّى: هو من الإلقاء و أهو الإعطاء و المعنى أنّك لتعطى لأنّ الملك يلقيه إليه من قبل اللّه تعالى.

اٰنَسْتُ: الإيناس الإحساس بالشّيء من جهة ما يونس.

شِهَابٍ: نور كالعمود و جمعه شهب و قيل للكوكب الّذي يمتّد و ينقص شهاب.

قَبَسٍ: بفتح القاف و الباء القطعة من النّار و منه قيل إقتبس النّار إقتباساً أي أخذ منها شعلة.

تَصْطَلُونَ: الإصطلاء التّدفي بالنّار و أصله اللّزوم.

جَآنٌّ: بتشديد النُّون الحيّة الصّغيرة مشتّق من الإجتنان و هو الإستتار.

جَحَدُوا: الجحد الإنكار و الباقي واضح.

◀ الإعراب

كِتَابٍ بالجر عطف على المجرور و بالرّفع عطفاً على الأيات فأن قيل ما وجه الرّفع على، أيات.

قلت فيه وجوه:

أحدها: أنّ الكتاب مجموع أيات، فكأنّ التّأنيث على المعنى.

الثّاني: أنّ التّقدير، و أيات كتاب، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف.

الثّالث: أنّه حسن لما صحّت الإشارة إلى أيات.

هُدًى وَبُشْرَىٰ هما في موضع الحال من، أيات و من كتاب، إذا رفعت و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في، مبين، و يجوز أن يكون في موضع رفع خبرٌ بعد خبر أو على حذف مبتدأ بِشِهَابٍ قَبَسٍ الإضافة من باب، ثوب خزٍّ، لأنّ الشّهاب من القبس تَصْطَلُونَ الطّاء بدل من تاء، أفتعل من أجل الصّاد نُودِىَ في ضمير الفاعل وجوه:

أحدها: هو ضمير موسى عليه‌السلام فعلى هذا في، أن، ثلاثة أوجه، هي بمعنى أي، لأنّ في النّداء معنى القول أو هي مصدريّة و الفعل صلة لها.

الثّاني: هي مخفّفة من الثّقيلة.

الوجه الثّاني: في الضّمير أنّه لا ضمير في نودي و المرفوع به أن بورك و التّقدير نودي بأن بورك.

الثّالث: المصدر مضمر أي نودي النّداء.

إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ الهاء ضمير الشّأن و، أنا اللّه مبتدأ و خبر تَهْتَزُّ حال من الهاء في رأها كَأَنَّهَا جَآنٌّ حال من الضّمير في تهتّر إِلَّا مَنْ ظَلَمَ هو إستثناء منقطع في موضع نصب و يجوز أن يكون في موضع رفع بدلاً من الفاعل بَيْضَآءَ حال مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ حال أخرى و فِى تِسْعِ حال ثالثة و التّقدير أية في تسع أيات مُبْصِرَةً حال و ظُلْمًا حال من الضّمير في، جحدوا و يجوز أن يكون مفعولاً من أجله كَيْفَ خبر كان و عَٰقِبَةُ إسمها.

◄ التّفسير

تِلْكَ اٰيٰاتُ الْقُرْاٰنِ وَ كِتٰابٍ مُبِينٍ

قيل أنّ، تلك، إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرأن و قيل أنّ، تلك، بمعنىٰ هذا و أيات القرأن هي القرأن و قيل تلك، بمعنى هذه أي، هذه السُّورة أيات القرأن و أيات كتابٍ مبين و الكتاب هو القرأن فجمع له بين الصّفتين بأنّه قرأن و أنّه كتاب هحذا قيل و الحقّ أنّ الفرق بين القرأن و الكتاب أنّما هو بالإعتبار و توضيحه أنّ القرأن إسمٌ لكتاب اللّه خاصّة لا يسمّى به غيره و أنّما سمّي قرأناً لأنّه يجمع السُّور و يضّمها و قيل لأنّه جمع القصص و الأمر و النّهي و الوعد و الوعيد و الأيات و السُّور بعضها إلى بعضٍ و هو مصدر كالغفران و الكفران و في الحديث القرأن جملة الكتاب و الفرقان المحكم الواجب العمل به إذا عرفت هذا فنقول، مابين الدَّفتين، يقال له، قرأن، بإعتبار جمعه للسُّور و الأيات، و كتابٌ بإعتبار ضمّ الحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطّ فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ فأنّ الكتب في الأصل ضمّ أديم إلى أديم بالخياطة و أنّما وصف الكتاب بقوله: **مُبِينٍ،** لأنّ الإبانة الظّهور و من المعلوم أنّ ظهور المعاني بسبب الكتابة فالمعنى أنّه كتاب مظهرٌ لما فيه من المعاني و يظهر هذا بالقراءة ثمّ وصف القرأن بقوله:

هُدًى وَ بُشْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ

أي أنّ أيات الكتاب هادية و مبّشرة لمن أمن باللّه و رسوله فقوله: **هُدًى** إشارة إلى أنّه يهدي إلى الحقّ و قوله، بشرى، إشارة إلى أنّه يبشّر المؤمنين إلى الثّواب الجزيل و دخول الجنّة و أنّما خصّت البشارة و الهداية بالمؤمنين لأنّ تأثير العلّة في المعلول مشروطٌ بوجود المقتضي في المعلول و عدم المانع و المقتضي موجود في المؤمن لإيمانه و أمّا غيره فلالعدم إيمانه و إعتقاده.

و أمّا المانع فهو أيضاً مفقودٌ بالنّسبة إلى المؤمن و موجود بالنّسبة إلى غيره و المانع هو الكفر و عدم الإعتقاد ثمّ أنّه تعالى أشار إلى أوصاف المؤمنين الّذين يكون القرأن عادياً و مبشّراً لهم فقال:

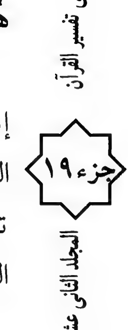

ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

الأوصاف المذكورة في الآية ثلاثة، إقامة الصّلاة، إيتاء الزّكوة، اليقين بالأخرة وقد مضى الكلام في هذه الأوصاف في أوّل البقرة لما لا مزيد عليه و قلنا هناك أنّ إقامة الصّلاة عبارة عن الإتيان بها بجميع شرائطها و ليس المراد مجّرد فعلها كيف إتّفق و المراد باليقين بالنّسبة إلى الأخرة هو اليقين بالبعث و النّشور و الحساب و الكتاب و الثّواب و العقاب و غير ذلك ممّا هو مربوط بها و ليس المراد اليقين بالموت فقط لأنّ كلّ إنسانٍ يعلم بأنّه يموت وليس هذا من أوصاف المؤمن فقط فأنّ اليقين بالموت شيئ و اليقين بتبعاته شيئٍ أخر لأنّ الأوّل لا يتّوقف على الإيمان بخلاف الثّاني و هو ظاهر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ

أنّما خصّ الأخرة بالذّكر دون الصّلاة و الزّكاة لأنّ من لا يؤمن بالأخرة لا يصلّي و لا يزّكي و لا يصوم و لا غيرها من الأحكام فالإيمان بالأخرة و الإعتقاد بها هو الأصل في العمل بالأحكام في دار الدّنيا.

و أمّا قوله: **زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ**، فقيل معناه زيّنا أعمالهم السّيئة في أعينهم حتّى رأوها حسنة، و قيل زيّنا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها، و قيل جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيّنا لهم ما هم فيه، **فَهُمْ يَعْمَهُونَ**، أي يتّرددون و يتّحيرون في أعمالهم الخبيثة و في صلاتهم قاله إبن عبّاس، و قيل يعمهون، أي يتمادون، و قيل يلعبون:

قال اللّه تعالىٰ: **كَذٰلِكَ زَيَّنّٰا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**[1].

و قال في موضع أخر: **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا وَ يَسْخَرُونَ**

١- الأنعام = ١٠٨

مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ ٱللّٰهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشٰآءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ[١].

قال اللّه تعالىٰ: زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوٰاتِ مِنَ ٱلنِّسٰآءِ وَ ٱلْبَنِينَ[٢].

قال اللّه تعالىٰ: كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكٰافِرِينَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ[٣].

قال اللّه تعالىٰ: أَفَمَنْ كٰانَ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ[۴] و غيرها من الأيات.

و المقصود أنّ الكافر يغترّ بعمله و لا يتّوجه إلى قبحه لأنّه يرى عمله حسناً بخلاف المؤمن فأنّه لا يغترّ به لعدم علمه بقبول عمله عند اللّه و بعبارةٍ الكافر يرى صورة العمل و المؤمن يرىٰ قبول العمل و كيف كان فقد أوعد اللّه الكافر بالعذاب فقال:

أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذٰابِ وَ هُمْ فِي ٱلْاٰخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ

يعني أولئك الّذين زيّنا أعمالهم في الحياة الدُّنيا لهم سوء العذاب يوم القيامة فلا جرم هم الأحسرون في الأخرة من غيرهم.

إن قلت كيف أسند اللّه تزيَّن أعمالهم في الآية إلى ذاته، أو أسند إلى الشّيطان في قوله:

زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ[۵].

قال اللّه تعالىٰ: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنّٰاسِ[۶].

قال اللّه تعالىٰ: قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ[٧] و غيرها من الأيات.

١- البَقَرة =٢١٣
٢- أل عمران = ١۴
٣- الأنعام = ١٢٢
۴- محمّد = ١۴
۵- النّمل = ٢۴
۶- الأنفال = ۴٨
٧- الأنعام = ۴٣

قُلت بين الإسنادين فرقٌ و ذلك أنّ إسناده إلى الشّيطان حقيقة و إسناده إلى اللّه تعالى مجاز و له طريقان في علم البيان:

أحدهما: أن يكون من المجاز الذّي يسمّى الإستعارة.

الثّاني: أن يكون من المجاز المحكّي فالطّريق الأوّل أنّه لمّا متّعهم اللّه بطول العمر و سعة الرّزق و جعلوا أنعام اللّه عليهم بذلك و إحسانه إليهم ذريعة و وسيلة إلى إتّباع شهواتهم و بطرهم و إيثارهم التّرفه و نفارهم عمّا يلزمهم فيه التّكاليف الصّعبة و المشّاق المتعبة فكأنّه زيَّن لهم بذلك أعمالهم و إليه إشارة الملائكة بقولهم: **وَ لٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ اٰبَآءَهُمْ حَتّٰى نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْمًا بُورًا**(١).

و الطّريق الثّانى: أنّ إمهاله الشّيطان و تخليته حتّى يزّين لهم ملابسته ظاهرة للتّزين فأسند إليه لأنّه المختار المحكي ببعض الملابسات هكذا قرّره صاحب الكشّاف و هو من المعتزلة.

و أمّا الأشاعرة فأنّهم حملوا الآية على ظاهرها و أسندوا التّزيين إلى اللّه حقيقة و به قال الرّازي و هو من الأشاعرة قال في تفسيره فأمّا أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها و ذلك لأنّ الإنسان لا يفعل البتّة إلاّ إذا دعى الدّاعي إلى الفعل و المعقول من الدّاعي هو العلم و الإعتقاد و الظنّ بكون الفعل مشتملاً على منفعة و هذا الدّاعي لابدّ و أن يكون من فعل اللّه ثمّ أطال الكلام في تقرير مسلكه إلى أن قال فثبت أنّ اللّه هو الّذي زيَّن لكلّ عاملٍ عمله و المراد من التّزيين هو أنّه يخلق في قلبه بما فيه من المنافع و اللّذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضّار و الأفات فقد ثبت بهذه الدّلائل القاطعة العقليّة وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها إنتهى.

أقول مذهب الأشاعرة في أفعال العباد هو أنّ الفعل مسبوق بالدّاعي و الدّاعي ممّا خلقه اللّه في قلب العبد فكلّ ما يفعله العبد من خيرٍ و شّرٍ أنّما هو لأجل الدّاعي إليه و حيث أنّ الدّاعي من أفعال اللّه فالفعل يسند إليه حقيقةً.

١– الفُرقان = ١٨

و أنت ترى أنّ هذا المرام بالسّفسطة أشبه إذ لو كان الدّاعي إلى الفعل من فعل اللّه فالعبد مجبورٌ في فعله فكيف يعاقب عليه و بعبارةٍ أخرى العقل يحكم بأنّ الوزر و الوبال على من إضطرّ العبد على فعله و هو اللّه و العقل لا يقول به لأنّه من أفحش الظّلم و أقبحه و للبحث فيه مقام أخر فما قاله صاحب الكشّاف أقرب إلى العقل و النّقل فأنّ ربّك ليس بظلّامٍ للعبيد.

وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

و المعنى أنّ الملك يلّقي القرأن إليك من قبل اللّه تعالى و هذا ظاهر و فيه إشارة إلى أنّ الملك واسطة بين المرسل و المرسل:

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ**(۱).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ**(۲).

و حيث أنّ الملك واسطة في إنزال القرأن و هو لا يقول إلاّ من اللّه تعالىٰ فصّح إسناد الإنزال إلى الملك و إلى اللّه إلاّ أنّ الأوّل مجاز و الثّاني حقيقة و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

قد مرَّ الكلام في موسى سابقاً غير مرّةٍ و قلنا أنّ أباه عمران فهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن عقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام و كان بينه و بين إبراهيم خمس مائة سنة و أربعين سنة و قد مرّت قصّته مع فرعون من حين ولادته إلى خروجه من مصر و دخوله مدين و تزّوجه صفوراء (صفراء) بنت شعيب و المراد بأهله في الآية هو زوجته صفوراء.

۱- البقرة = ۹۷ ۲- النّحل = ۱۰۲

فنقول لمّا قضى موسى الأجل و أكمل خدمته لشعيب و قد صار له غنماً كثيراً إشتاق إلى أمّه و أخواله فخرج موسى من مدين، و سار بأهله و كانت زوجته حبلى فجعل يسير في البراري فقاده السّير إلى جانب الطُّور الأيمن في عشّيةٍ ممطرةٍ فبينما هو حائر في أمره إذ أخذ إمرأته الطّلق فإزداد إضطراباً و فجاة ظهر له نور فحسبه ناراً فقال لأهله أمكثي إنّي أنست ناراً أي أحسست بها فأنّ الإيناس الإحساس، لعلّي أتيك منها، أي من النّار بخبرٍ أي بمن يدُلّنا على الطّريق و يهدينا إليه أو أتيكم بشهابٍ قبسٍ، قيل لأنّهم كانوا قد أصابهم البرد و كان فصل الشّتاء فلذلك طلب ناراً، و الشّهاب نور كالعمود من النّار و جمعه شهب و قيل للكوكب الّذي يمتّد و ينقص شهابٌ و القبس القطعة من النّار و قوله لعلّكم تصطلون أي لكي تصطلوا و تدفئوا و الإصطلاء التّدفي بالنّار و الحقّ ما رأه موسى و تخّيل أنّه نار لم يكن بنارٍ بل كان نوراً لا يعلم حقيقتها و الدّليل عليه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَتَيٰهَا نُودِىَ يٰا مُوسَىٰ، إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمَّآ أَتَيٰهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِى ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يٰا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ**[٢].

و أمّا حقيقة النُّور فاللّه أعلم بها و إلى ما ذكرناه أشار اللّه تعالى بقوله:

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى ٱلنَّارِ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أي فلمّا جاء موسى النّار نودي موسى أن بورك من في النّار و من حولها، أي بورك نور اللّه الّذي في النّار و حسن ذلك لأنّه ظهر لموسى بأياته و كلامه في النّار، و قيل المراد بالملائكة الّذين و كلّهم اللّه بها على ما يقتضيه، و من حولها و لا خلاف أنّ الّذين حولها هم الملائكة الّذين وكّلوات بها قيل و قوله: **أَنْ بُورِكَ**

١- طه = ١١ ٢- القصص = ٣٠

يحتمل أن يكون نصباً على نودي موسى بأن بورك و يحتمل الرّفع علىٰ نودي بالبركة و هي ثبوت الخير النّامي باشّئ.

قال الفرّاء العرب تقول بارك اللّه و بورك فيك، و قوله و أنا اللّه العزيز الحكيم معناه أنّ اللّه قال لموسى أنّ الّذي يكلّمك هو اللّه العزيز القادر الّذي لا يغالب الحكيم في أفعاله المنّزه من القبائح و الهاء في أنّه، علىٰ قول الفرّاء عماد و يسمّيها البصرّيون إضمار الشّأن و القصّة.

وَ أَلْقِ عَصٰاكَ فَلَمّٰا رَآهٰا تَهْتَزُّ كَأَنَّهٰا جَآنٌّ وَلّٰى مُدْبِرًا وَ لَمْ يُعَقِّبْ يٰا مُوسٰى لاٰ تَخَفْ إِنِّى لاٰ يَخٰافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ

روي أنّه لمّا همَّ موسى بالرّجوع من مدين إلى مصر ليخرج منها أخاه هارون فزّوده شعيب عليه‌السلام عصا من بين عدّة عصّي كانت عنده فلمّا أمره اللّه تعالى بإلقائها و ألقاها من يده صارت حيَّة تهتَّز كأنّها جانّ و الإهتزاز سرعة الحركة أي كأنّها تتَّحرك بسرعة كأنّها جانّ، و هي الحيَّة الصَّغيرة مشتّق من الإجتنان و هو الإستتار و قيل هي حيَّة بين الصَّغيرة و الكبيرة و قال الكلبي لا صغيرة و لا كبيرة و قيل أنّها قلبت له أوّلاً حيَّة صغيرة فلمّا أنس منها قلبت حيَّة كبيرة و قيل إنقلبت مرَّةً صغيرة و مرَّةً حيّة تسعى و هي الأنثى و مرّةً ثعباناً و هو الذّكر الكبير من الحيّات.

قال وهب بن منبّه ظنّ موسى أنّ اللّه أمره أن يرفضها، و قيل أنّما قال له ذلك ليعلم موسى أنّ المتكلّم له هو اللّه و أنّ موسى رسوله وكلّ نبيٍ لابدّ له من أيةٍ في نفسه يعلم بها نبّوته و قوله تعالى: **وَلّٰى مُدْبِرًا**، أي توَّلى موسى خائفاً علىٰ عادة البشر، ولم يعقب أي لم يرجع و قيل لم يلتفت و قوله: **يٰا مُوسٰى لاٰ تَخَفْ** نداءٌ من اللّه تعالى لموسى و تسكينٌ منه و نهيٌ له عن الخوف (لا تخف) من الحيّة و ضررها فأنّك مرسلٌ و لا يخاف لدَّي المرسلون، لأنّهم لا يفعلون قبيحاً و لا يخلّون بواجب بل هم منّزهون من جميع ذلك و هاهنا تمّ الكلام ثمّ إستثنى إستثناءً منقطعاً فقال:

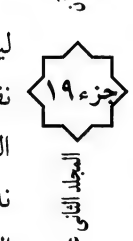

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ

قيل أنّه إستثناءٌ من محذوف و التّقدير أنّي لا يخاف لدّي المرسلون و أنّما يخاف غيرهم ممّن ظلم ثمّ بدّل حسناً بعد سوء فأنّه لا يخاف قاله الفرّاء و أنكره النُّحاسي و قال أنّ الإستثناء من محذوف محال، و قيل، إلاّ، بمعنى الواو أي و لا من ظلم كما قال الشّاعر:

وكـلّ أخ مـفارقة أخـوة لعـمر أبـيك إلاّ الفـرقدان

أقول و هذا أيضاً لا وجه له لأنّ معنى، إلاّ خلاف **الواو** فأنّك إذا قلت جاءني إخوتك إلاّ زيداً أخرجت زيداً ممّا دخل فيه الأخوة بالإستثناء فلا نسبة بينهما و لا تقارب، هذا و في الآية قولٌ أخر و هو أن يكون الإستثناء متّصلاً و المعنى إلاّ من ظلم من المرسلين بإتيان الصّغائر التّي لا يسلم منها أحد سوى ما روي عن يحيى بن زكرّيا و ما ذكره اللّه في نبيّنا في قوله ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر.

و قال صاحب الكشّاف، إلاّ، بمعنى، لكن، لأنّه لمّا أطلق نفي الخوف عن الرُّسل كان ذلك مظنّة لطّرد الشّبهة فإستدرك ذلك و المعنى و لكن من ظلم منهم أي فرطت عنه صغيرة ممّا يجوز على الأنبياء كالّذي فرط من أدم و يونس و داود و سليمان و إخوة يوسف و من موسى بوكزة القبطي و يوشك أن يقصد بها التّعريض بما وجد من موسى و هو من التّعريضات التّي يلطف مأخذها و سمّاه ظلماً كما قال موسى ربّ إنّي ظلمت نفسي فإغفر لي و الحسن و السُّوء حسن التّوبة و قبح الذّنب و قرئ إلاّ من ظلم، بحرف التّنبيه إنتهى كلامه.

و قال الثّعلبي و القشيري و الماوردي و غيرهم فالإستثناء على هذا صحيحٌ أي إلاّ من ظلم نفسه من النّبيين و المرسلين فيما فعل من صغيرةٍ قبل لانبوة و كان موسى خاف من قتل القبطي و تاب منه و قد قيل أنّهم معصومون من الصّغائر و الكبائر بعد النّبوة هذا ما قالوه في تفسير الآية.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

قوله تعالىٰ: **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ** الّذي ينبغي أن يقال و اللّه أعلم أنّ الآية السّابقة لمّا أخبرت عن أنّ المرسلين أمنون لا يخافون فهم منه أنّ غيرهم من أهل الظّلم غير أمنين لهم أن يخافوا إستدرك في هذه الآية حال أهل التّوبة من جملة أهل الظّلم فبيّن أنّهم لتوبتهم و تبديلهم ظلمهم و هو النّبوة حسناً بعد سوء مغفورٌ لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً فالإستثناء من المرسلين و هو إستثناء منقطع و المراد بالظُّلم مطلق المعصية و بالحسن بعد السُّوء التّوبة بعد المعصية أو العمل الصّالح بعد السّئ و المعنى لكن من ظلم بإقتراف المعصية ثمّ بدَّل ذلك حسناً بعد سوء و توبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سئ فأنّي غفورٌ رحيمٌ أغفر ظلمه و أرحمه فلا يخافنّ بعد ذلك شيئاً إنتهى كلامهقدّس سرّه.

أقول ما ذكرهقدّس سرّه من أنّ الإستثناء منقطعٌ فهو خلاف ظاهر الآية إذ لازم ذلك حمل قوله: **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ** على غير الأنبياء من أحاد النّاس و أنّهم لو ظلموا ثمّ بدَّلوا حسناً بعد سوء فأنّ اللّه يغفر ذنوبهم، و هذا ممّا لا كلام فيه بصريح الأيات و الأخبار إلاّ أنّ بيان الحكم في المقام غير مناسب لأنّ البحث في الأنبياء لا في غيرهم من العصاة ألا ترى أنّ اللّه يقول: **إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ** فالقول بأنّ اللّه يقول إنّي لا يخاف لدّي المرسلون إلاّ من ظلم من غيرهم من النّاس فأنّي بعد توبتهم أغفر لهم، بعيدٌ عن سياق الكلام و الّذي يستفاد من كلامه أنّ حمله الإستثناء على الإنقطاع متّفرعٌ على قوله في تفسير الآية أنّ المرسلين أمنون لا يخافون و أمّا غيرهم فلا فأنّهم غير أمنين فلهم أن يخافوا، و لم يعلم أنّ هذا أوّل الكلام إذ لم يدلّ دليل من العقل و لا نّقل على أنّ الخوف على الظُّلم مختّصٌ بغير الأنبياء و أنّ الأمن من الخوف مختّصٌ بهم و ذلك لأنّ الحكم أعني به الخوف من الظُّلم كلّي في حقّ العباد من الأنبياء و غيرهم بل نقول أنّه من الأحكام العقليّة إذ العقل يحكم بأنّ الظُّلم له تبعات في

الدّنيا و الأخرة فينبغي أن يخاف منها كائناً من كان و قد ثبت أنّ الأحكام العقليّة غير قابل للتّخصيص.

و حاصل الكلام أنّ الظّالم يخاف من ظلمه نبيّاً كان أو غيره إلاّ أنّ النّبي مكان عصمته مطلقاً على ما نقول به أو بعد البعثة على قول العامّة لا يعصي اللّـه و لا يظلم فعدم خوفه لعدم ظلمه بسبب العصمة لا ينافي خوفه بقولٍ مطلق لولا العصمة و الآية بصدد بيان أصل الحكم بمقتضى الفطرة البشريّة و إذا كان الأمر على هذا المنوال فلا وجه لعمل الإستثناء على الإنقطاع إذا عرفت هذا فنقول:

الإستثناء متّصل و الأنبياء أيضاً داخل في عموم الحكم لأنّهم من البشر إلاّ أنّهم لمكان عصمتهم خرجوا من العموم ولم يخافوا لعدم وجود السّبب و هو الظُّلم من جهة العصمة بخلاف غيرهم هذا كلّه إذا قلنا بأنّ المراد بالظّلم في قوله: **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ**، هو الظُّلم على الغير كما هو عليه المفسّرون ظاهراً.

و لنا في المقام تحقيق أخر غير ما ذكرناه و هو أنّ المراد بالظُّلم في الآية هو الظُّلم على النَّفس فأنّه أحد أقسام الظُّلم و هو عامٌ يشمل جميع البشر إلاّ أنّه في غير الأنبياء لأجل التّقصير و فيهم لأةل القصور و توضيحه إجمالاً:

هو أنّ العبوديّة الكاملة متوقفة على المعرفة الكاملة و معرفة العبد ربّه كما هو حقّه لا يتّيسر له أصلاً قال رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما عرفناك حقّ معرفتك و الوجه فيه أنّ المخلوق متناه الذّات و الصّفات و الخالق غير متناهٍ ذاتاً و صفةً و كمال المعرفة لا يحصل للعبد المخلوق إلاّ بعد إحاطته بذات الخالق و صفاته و إحاطة المتناهي بغير المتناهي محال عقلاً للزومه خروج المتناهي عن تناهيه و خروج غير المتناهي عن عدم تناهيه و هذا خلاف الفرض مضافاً إلىٰ أنّه يلزم منه أن يكون الموجود متناهياً و غير متناهٍ و هو محال لإستحالة إجتماع النَّقيضين و إذا كان كذلك فالمخلوق لا يعرف خالقه كما هو حقّه فمعرفته به ناقصة و إذا كانت المعرفة ناقصة فالعبادة ناقصة لأنّها فرعٌ عليها و نقص الأصل مستلزم لنقص الفرع و العبوديّة النّاقصة ذنبٌ من المخلوق في جنب خالقه كما قال عليه‌السلام ما

عبدناك حقّ عبادتك إلاّ أنّ هذا الذّنب قصورٌ لا تقصير و إن شئت قلت أنّه من شئون المخلوق و لوازم الإمكان و ليس منشأه التّقصير في العبوديّة و هذا الذّنب مختّص بالأنبياء و الأوصياء و كلّ ذنبٍ فهو ظلم على نفس المذنب لا على غيره و الظُّلم على النَّفس بهذا المعنى ثابت في حقّ الأنبياء أيضاً و منه: قوله تعالىٰ:

حكايةً عن أدم و حوّاء حيث قال: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ**[١].

و قوله تعالىٰ حكايةً عن موسى عليه السلام: **قَالَ رَبِّ إِنّى ظَلَمْتُ نَفْسى فَاغْفِرْ لى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**[٢].

و قوله تعالىٰ في أدم وحوّاء: **وَ لَا تَقْرَبَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ**[٣].

و قوله تعالىٰ في يونس: **فَنَادىٰ فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّى كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ**[٤].

و قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّي لأستغفر اللّه في كلّ مرّةٍ سبعين مرّة و من المعلوم أنّه لم يعص اللّه طرفة عينٍ و الإستغفار لا يكون إلاّ من الذَّنب و هو الذَّنب الإمكاني الّذي لا محيص عنه فهذه الأيات كما ترى تنادي بوجود الذّنب في الأنبياء و إقرارهم بالظُّلم و حيث أنّهم ما كانوا معصومين فنقول فيهم بالذّنب الإمكاني و هو الظُّلم على النّفس عن قصورٍ لا عن تقصير و هو لا ينافي العصمة فأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقّربين إذا عرفت هذا فقوله تعالى: **إِلَّا مَنْ ظَلَمَ** علىٰ نفسه بترك الأولى على المشهور أو ترك العبوديّة الكاملة على ما ذكرناه، ثمّ بدَّل حسناً بعد سوء بالإقرار بالذّنب و الإستغفار فأنّي غفورٌ رحيم هذا ما خطر ببالي في تفسير الآية و اللّه أعلم.

١- الأعراف = ٢٣
٢- القصص = ١٦
٣- الأعراف = ١٩
٤- الأنبياء = ٨٧

وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضٰآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ اٰيٰاتٍ إِلٰى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْمًا فٰاسِقِينَ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بأنّه أمر موسى بإلقائه عصاه و صارت حيّة على ما مرّ بيانه و كانت عصاه من معجزاته أشار في هذه الآية إلى معجزة أخرى تسمّى باليد البيضاء فقال تعالى لموسى: **وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ**، أمره أن يدخل يده في جيبه، أي في كمّه و قيل في ثيابه، **تَخْرُجْ بَيْضٰآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ**، أي من غير برصٍ، في تسع أياتٍ إلى فرعون، كأنّ هاتين مع بقية الأيات تسع أيات فالتّقدير أدخل يدك في جيبك فأنّ ذلك مع إلقائك للعصا و ما بعد ذلك من الأيات تسع أيات و قوله: **إِلٰى فِرْعَوْنَ** تقديره مرسلاً إلى فرعون و قومه في تسع أيات ثمّ أخبر عن فرعون و قومه أنّهم كانوا قوماً فاسقين، و الأيات التسّع التّي كانت لموسى، قلب العصا حيّة، و اليد البيضاء و الجراد و القمّل و الضّفادع و الدَّم و البحر و إنفلاقه و رفع الطُّور فوق رؤوسهم و إنفجار الحجر أثنتا عشرة عيناً و قيل بدل البحر و الجبل، الطُّوفان، و الطَّمس.

فَلَمّٰا جٰاءَتْهُمْ اٰيٰاتُنٰا مُبْصِرَةً قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ

ثمّ أخبر اللّه تعالى عن فرعون و قومه أنّه لمّا جائتهم أيات اللّه و دلائله مبصرة للحقّ من الباطل و قيل أنّها تبصر الصّواب عن الخطأ قالوا، أي فرعون و قومه، هذا سحرٌ مبين، أي ظاهر.

وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ ٱسْتَيْقَنَتْهٰآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ

الجحد الإنكار باللّفظ، أخبر اللّه تعالى عن فرعون و قومه أنّهم لمّا رأوا الأيات لم يؤمنوا بها بل حملوها على السّحر و هذا الإنكار منهم كان باللّفظ لا بالقلب بل إستيقنتها أنفسهم أي أنّهم أيقنوا بها في قلوبهم و علموا بحقّانيتها و

أنّما أنكروها ظلماً و علّواً فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين و بعبارةٍ أخرى أنّهم تيَقّنوا أنّها من عند اللّه و أنّها ليست سحراً و لكنّهم كفروا بها و تكّبروا أن يؤمنوا بموسى و هذا يدلّ على أنّهم كانوا معاندين فقوله: **ظُلْمًا وَ عُلُوًّا**، منصوبان على نعت مصدرٍ محذوف أي و جحدوا بها جحوداً ظلماً و علّواً و الباء زائدة أي و جحدوها.

أقول ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام فأنّ كثيراً من النّاس في كلّ عهدٍ و زمانٍ لولا أكثرهم حتّى في زماننا هذا ينكرون الحقائق التّي لا شكّ فيها لأجل الوصول إلى مقاصدهم في الدّنيا ألا ترى أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام يقول في الخطبة الشّقشقيّة أما و اللّه لقد تقمّصها إبن أبي قحافة (فلان) و أنّه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرّحى ينحدر عنّي السّيل و لا يرقى إلّي الطّير الخ.

و كما قال عليه السلام مخاطباً لزبير بن العوام و هو إبن عمّته، في حرب الجمل عرفتني بالحجاز و أنكرتني بالعراق الخ و أمثال ذلك كثيرة في صدر الإسلام و بعده إلى يومنا هذا و هكذا بالنّسبة إلى سائر الأئمّة عليهم السّلام و هل يظنّ عاقل أنّ الغاصبين لحقوق أهل البيت لم يعرفوهم واقعاً كلاّ عرفوهم بقلوبهم و أنكروهم بألسنتهم كما قال تعالى حكايةً عن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ولكن شأن المعائد أنّه يقول بلسانه ما تيّقن به قلبه فهو أخبث من المنافق لأنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه و المعاند يقول بلسانه على ضدّ ما في قلبه و حاصل الكلام أنّ إنكار الحقّ بعد معرفته بالقلب من أقبح الأمور.

وَ لَقَدْ اٰتَيْنَا داوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ عِلْمًا وَ قَالاَ
اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي فَضَّلَنَا عَلٰى كَثِيرٍ مِنْ عِبٰادِهِ
اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿١۵﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمٰانُ داوُودَ وَ قَالَ
يٰآ أَيُّهَا اَلنّٰاسُ عُلِّمْنٰا مَنْطِقَ اَلطَّيْرِ وَ أُوتِينٰا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هٰذا لَهُوَ اَلْفَضْلُ اَلْمُبِينُ ﴿١۶﴾
وَ حُشِرَ لِسُلَيْمٰانَ جُنُودُهُ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلاْنْسِ
وَ اَلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتّٰىٓ إِذآ أَتَوْا
عَلٰى وادِ اَلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يٰآ أَيُّهَا اَلنَّمْلُ
اَدْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ لاٰ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰانُ وَ
جُنُودُهُ وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضٰاحِكًا
مِنْ قَوْلِهٰا وَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ اَلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلٰى والِدَيَّ وَ
أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحًا تَرْضٰيهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبٰادِكَ اَلصّٰالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَ تَفَقَّدَ اَلطَّيْرَ فَقَالَ
مٰا لِيَ لآَ أَرَى اَلْهُدْهُدَ أَمْ كٰانَ مِنَ اَلْغٰآئِبِينَ
﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذٰابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهٓ أَوْ
لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ
فَقَالَ أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ
بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ اَمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ
أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهٰا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
دُونِ اَللّٰهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ

فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا
يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي
ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا
تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قٰالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
ٱلْكٰاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَبْ بِكِتٰابِي هٰذٰا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مٰاذٰا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قٰالَتْ
يٰآ أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتٰابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ
﴿٣١﴾ قٰالَتْ يٰآ أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي
مٰا كُنْتُ قٰاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قٰالُوا
نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ ٱلْأَمْرُ
إِلَيْكِ فَانْظُرِي مٰاذٰا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قٰالَتْ إِنَّ
ٱلْمُلُوكَ إِذٰا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهٰا وَ جَعَلُوٓا
أَعِزَّةَ أَهْلِهٰآ أَذِلَّةً وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَ إِنِّي
مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنٰاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جٰآءَ سُلَيْمٰانَ قٰالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمٰالٍ فَمٰآ آتٰىنِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِمَّآ
آتٰيكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لٰا قِبَلَ لَهُمْ بِهٰا وَ
لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهٰآ أَذِلَّةً وَ هُمْ صٰاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ
أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ
ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَ
إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ
عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَن
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَ مَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى
غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ
أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾
فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ وَ أُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَ صَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا
ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ
كَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَ
أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

◄ اللّغة

يُوزَعُونَ: الإيزاع المنع من الذّهاب.

لَا يَحْطِمَنَّكُمْ: الحطم كسر الشّيئ ثمّ أستعمل لكلّ كسرٍ متناهٍ.

أَوْزِعْنِي: قلنا الإيزاع المنع أي ألهمني ما يمنع من ذهاب الشّكر.

سَبَإٍ: بفتح السّين حيٌّ من أحياء اليمن و قيل هو إسم أمّهم و قال الزّجاج، سبأ، مدينة تعرف بمأرب من اليمن و بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام.

ٱلْخَبْءَ: بفتح الخاء و سكون الباء و الهَمَزة السّاكنة هو المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتّى منع من إدراكه وضع المصدر موضع الصّفة فخبأ السّماء الإمطار و الرّياح و خبأ الأرض الأشجار و النّبات.

◄ الإعراب

مِنَ ٱلْجِنِّ حال من جنوده نَمْلَةٌ بسكون الميم و ضمّها لغتان ولَا يَحْطِمَنَّكُمْ نـهيٌ مستأنف ضَاحِكًا حال مؤكّدة و سَبَإٍ بالتّنوين على أنّه إسم رجل أو بلد و بغير تنوين على أنّها بقعة أو قبيلة وَ أُوتِيَتْ يجوز أن يكون حالاً و قد مقدّرة و أن يكون معطوفاً أَلَّا يَسْجُدُوا في، لا، وجهان:

أحدهما: أنّها ليست زائدة و موضع الكلام نصب بدلاً من أعمالهم أو رفع على تقدير هي ألاّ يسجدوا.

الثّاني: أنّها زائدة و موضعه نصب بيهتدون أي لا يـهتدون لأنّ يسجدوا، و يجوز أن يكون بدلاً من السّبيل أي و صدّهم عن أن يسجدوا أو جرّ على إرادة الجارّ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ بالكسر على الإستئناف و بالفتح بدلاً من كتاب أو مرفوع بكريم أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ موضعه رفع بدلاً من كتاب.

◄ التّفسير

وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَ سُلَيْمَانَ عِلْمًا وَ قَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

أناًّ نبّي اللّه داوود من ولد لاوي بن يعقوب عليه السلام و هـو مـن الأنبياء الّـذين حاربّوا في سبيل اللّه بالسّيف كما أنّ مـنهم مـوسى بـن عـمران و نـبّينا محمّد

صلوات اللّه عليهم أجمعين و سليمان عليه السلام إبنه و هو الّذي أفاء اللّه عليه بنعم الدّنيا و الأخرة معاً و جعل له ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فقد أكرمه اللّه سبحانه بالنّبوة و جمع له معها الملك و زاده عليها بالحكمة حتّى لقب بالحكيم ثمّ جعل ملكه شاملاً للبشر و الجنّ و الشّياطين و الحيوانات و الطّيور و الحشرات فكان يفهم لغتها جميعاً و كان كلّها يأتمر بأمره و زاده سطلةً على الرّياح و السّحاب و مع هذا كلّه فأنّه لم يخرج عن تواضعه و لم يغادر خوف اللّه قلبه و لم يتعالى على المساكين و كان يعمل بيده لقوت نفسه إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا داٰوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ عِلْمًا** قيل معناه فهماً و قيل هو علم الأحكام و قيل هو بمنطق الطّير وكلام البهائم و قوله: **عِلْمًا**، يفيد النّوعية أي نوعاً أو أنواعاً من العلم الّذي كان مختّصاً بهما في زمانهما.

روي أنّ داود لما أراد أن يستخلف سليمان بأمر اللّه تعالى و يجعل الخلافة له من بعده و كان عمر سليمان ثلاث عشرة سنة أنكر ذلك بنو إسرائيل عليه و قالوا أنّ داود يستخلف فينا حدثاً لأنّه إبنه و فينا من هو أولى منه و أقدر على إدارة الحكم، فدعا داود أكابرهم و أسباطهم و قال لهم قد بلغني ما قلتم من أنّ سليمان صبّي لا يليق للخلافة و لكن هذا أمر اللّه و إن شئتم أن تختبروا مقدرة سليمان و جدارته فوَّجهوا إليه ما يقتضي به الإمتحان من الأسئلة ثمّ دعاه داود و أراد إمتحانه بحضرتهم ليبيَّن لهم فضله و حكمته فوَّجه إليه أسئلة كثيرة و قد أجاب سليمان عليه السلام عنها بأجمعها ممّا أخضع شوكة المعارضين لإستخلافه فمن جملة تلك الأسئلة أنّه قال لسليمان يابنّي أيُّ شئ أبرد فقال سليمان عفو اللّه على عبده و عفو النّاس بعضهم عن بعضٍ، فقال داود أيُّ شئ أعلى فقال سليمان المحبّة من اللّه في عباده فقال بعض كبار بني إسرائيل له، ما الشّئ الّذي إذا صلح صلح مَعه كلّ شئ في الإنسان و إذا فسد فسد كلّ شئ فيه فقال سليمان ذلك هو القلب و ممّا نقل عن الثّعلبي أنّ كتاباً نزل من السّماء على داود عليه السلام و فيه ثلاث عشرة

مسئلة أمر اللّه تعالى داود أن يسأل عنها إبنه سليمان فتكون له برهاناً على تعيينه خليفة من اللّه تعالى فدعا داود سبعين قسّاً و سبعين حبراً منهم و أجلس سليمان بينهم ثمّ وجّه إليه الأسئلة فقال داود يابنّي أخبرني ما أقرب الأشياء و ما أبعد الأشياء و ما أنس الأشياء و ما أوحشها و ما أحسن الأشياء و ما أقبحها، و ما أقلّ الأشياء و ما أكثرها، و ما القائمان و ما المختلفان و المتباغضان، و ما الأمر الّذي إذا ركبه الرّجل حمد أخره و ما الأمر الّذي إذا ركبه ذمّ أخره فقال سليمان عليه السلام أمّا أقرب الأشياء فالأخرة و أبعد الأشياء ما فاتك من الدُّنيا، و أمّا أنس الأشياء فجسدٌ فيه روحٌ ناطق و أوحشها جسدٌ بال روحٌ، و أمّا أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر و أقبحها الكفر بعد الإيمان، و أمّا أقلّ الأشياء فاليقين و أكثرها الشكّ و أمّا القائمان فالسّماء و الأرض و المختلفان فاللّيل و النّهار و أمّا المتباغضان فالموت و الحياة، و أمّا الّذي إذا ركبه الرّجل حمد أخره فالحلم عند الغضب و أمّا الّذي إذا ركبه ذمّ أخره فالحدّة عند الغضب و لمّا أجاب سليمان عن جميع تلك الأسئلة فكّ داود خاتم الكتاب بحضرة القوم فإذاً المسائل مكتوبة فيه مع أجوبتها كما ذكرها سليمان فسلم بنو إسرائيل لسليمان بالحكمة و الخلافة و ظهر له أهليّته لها و أنّ ما خصّه اللّه تعالى به هو الحقّ، و من جملة دلائل حكمة سليمان و إستحقاقه للخلافة بعد أبيه مسئلة الغنم التّي أكلت الكرم على ما مرَّ تفصيله في سورة الأنبياء عند قوله: **وَ داوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِى اَلْحَرْثِ**[1].

و هذا معنى قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ آتَيْنٰا داوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ عِلْمًا** و يستفاد من ذلك أنّ سليمان بن داود إستّحق الخلافة لأبيه داود ببركة العلم الّذي أعطاه اللّه تعالى و في هذا الكلام إشارة بل دلالة على أنّ خليفة النّبي ينبغي أن يكون أعلم النّاس بعده و ذلك لأنّ اللّه تعالى جعل في الآية ملاك خلافة سليمان لأبيه داود علمه الّذي أعطاه اللّه و السّر في ذلك هو أنّ الخليفة لو لم يكن أعلم النّاس بالأحكام لزم تقديم المفضول على الفاضل و هو قبيح عقلاً و اللّه تعالى منّزهٌ عن

۱- الأنبياء = ۷۷

فعل القبيح و إذا كان كذلك فكيف يعقل أن يكون أبو بكر خليفة رسول اللّه مع وجود علّي بن أبي طالب الّذي قال رسول اللّه ﷺ فيه أنا مدينة العلم و عليٌّ بابها فإذا كان سليمان يختبر بالعلم في إستحقاقه للخلافة فليكن الأمر هكذا في جميع الأوصياء و الخلفاء فأنّ حكم الأمثال واحد فتأمل.

و أمّا قوله: **وَ قَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ففيه إشارة إلى وجوب شكر المنعم و أنّ العلم من أفضل النِّعم و لذلك قالا فضّلنا و أنّما قالا على كثيرٍ من عباده المؤمنين، ولم يقولا على جميعهم لأنّ اللّه تعالى يقول: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**[1] و من المعلوم أنّ في الأنبياء كان أعلم منهما و أفضل فأنّ فيهم رسول اللّه ﷺ و هو أعلمهم و أفضلهم و هو ممّا لا خلاف فيه بل نقول أنّ أولي العزم منهم كانوا أفضلهم و أعلمهم و الرّسول كان أفضل أولي العزم، هذا بل نقول أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السّلام كانوا أعلم و أفضل من جميع الأنبياء من الأوّلين و الأخرين سوى جدّهم خاتم الرُّسل فأنّه ﷺ كان أفضل من الجميع أدم و من دونه إلى يوم القيامة و حتّى الملائكة المقّربين و هذا ممّا ثبت في محلّه.

وَ وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَ قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ وَ أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ

في الآية بحثان:

البحث الأوّل: في تفسير قوله: **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**.

الثّاني: في قوله: **يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ ٱلطَّيْرِ** إلىٰ أخر الآية.

أمّا البحث الأوّل: فاعلم أنّ الوراثة و الإرث على ما قاله الرّاغب في المفردات، إنتقال قنيةٍ إليك عن غيرك من غير عقدٍ و لا ما يجري مجرى العقد فيقال للقنية الموروثة ميراث و إرث إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

١- البقرة = ٢٥٣

قال بعض المفَسرين الموروث الملك و النّبوة بمعنى صار ذلك إليه بعد موت أبيه فسمّي ميراثاً تجّوزاً كما قيل العلماء ورثة الأنبياء و حقيقة الميراث في المال.

أقول و يؤيّده قول الرّاغب حيث قال في معنى الإرث هو إنتقال قنيةٍ إليك عن غيرك و القنية المال لأنّ الصّفة غير قابلة للإنتقال حقيقةً إلاّ على سبيل التّجوز قيل كان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً فنبَّئ سليمان من بيهم و ملك و قيل وّلاه على بني إسرائيل في حياته من بين سائر أولاده فكانت الولاية في معنى الوراثة و قال الحسن ورث المال لأنّ النّبوة عطيّة مبتدأة لا تورث و قيل الملك و السّياسة و قيل النّبوة فقط و قيل غير ذلك من الأقوال و الحقّ أنّ المراد بالإرث في الآية هو المال حقيقةً لأنّه قالبل للإنتقال من شخصٍ إلى شخصٍ أخر بالموت و أمّا إطلاق الإرث على النّبوة و الملك فليس على سبيل الحقيقة و أنّما هو بطريق المجاز عرفاً ألا ترى أنّه يقال فلان وارث علم أبيه أو وارث فصاحته و شجاعته و جوده إلى غير ذلك من الأوصاف و من المعلوم أنّ العلم أغير قابلٍ للإنتقال كغيره من الصّفات و هذا بخلاف الأموال فأنّها تنتقل إلى الغير بالموت و البيع و الهبة و أمثال ذلك من الأعيان الخارجيّة وكيف كان فالآية دالّة على ثبوت الإرث في بني أدم نبيّاً كان أو غير نبّي و الأصل في ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**[٢].

و قال تعالى في خصوص الأنبياء حكايةً عن زكريّا: **وَ إِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِنْ وَرَآءِى وَ كَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ ٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**[٣].

١- النّساء = ١١
٢- الأنفال = ٧٥
٣- مريم = ٥ و ٦

و الّذي ظهر لنا من الأيات و الأخبار هو أنّ الإرث كان ثابتاً في أولاد أدم و منهم الأنبياء عليهم السّلام بنصّ الكتاب و على هذا فخروج شخصٍ أو صنفٍ منهم عن القاعدة الكلّية الثّابتة في جميع الشّرائع و الأديان بل في الكفّار و المشركين يحتاج إلى دليلٍ قاطعٍ إذا عرفت هذا فالرّواية التّي رواها أبو بكر و نسبها إلى رسول اللّه و هي قوله نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً و لا فضّةً و لا داراً و لا عقاراً و أنّما نورث الكتاب و الحكمة و العلم و لا نبوّة و ما لنا طعمة فلوّلي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه.

و من المعلوم المسلّم عند المؤرّخين و نقله الأثار أنّ أبا بكر كان متّفرداً في نقلها ولم يسمع أحدٌ من الرّسول ذلك فهو خبر واحد مخالف لنَص الكتاب و قد ثبت في الأصول أنّ الخبر إذا خالف الكتاب يضرب على الجدار و لا سيّما الخبر الواحد الّذي تشهد ألفاظه بكذبه و نحن نشير إلى وجوه بطلانه عقلاً و شرعاً.

أمّا شرعاً فلأنّه مخالف لنَص الكتاب و أية الإرث محكمة لا متشابهة و ما خالف الكتاب فهو مردودٌ مطرودٌ فالخبر مردودٌ و هو المطلوب هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ فاطمة الزّهراء سلام اللّه عليها حكمت ببطلانه في خطبتها التّي خطبتها في المسجد و قد ثبتت عصمة الزّهراء بأية التّطهير فلا سبيل إلى تكذيبها قالت فيها مخاطبةً لأبى‌بكر و أعوانه ما هذا لفظه:

وَ أَنْتُمْ تَزْعُمُونَ ألاّ إرْثَ لَنا، **(أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ تَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُونَ)**[1] أفَلا تَعْلَمُونَ؟ بَلىٰ قَدْ تَجَلّىٰ لَكُمْ كَالشَّمْسِ الضّاحِيَةِ أنّى إبْنَتُهُ.

أيُهَا المُسْلِمُونَ أَأُغْلَبُ عَلى إرْثِى، ياابْنَ اَبى قُحافَةَ! أَفِى كِتابِ اللّٰهِ أنْ تَرِثَ أباكَ، وَلاأرِثَ أبِى؟ **(لَقَدْ جِئتَ شَيئاً فَرِيّاً)**[11] أفَعَلى عَمْدً تَرَكْتُمْ كِتابَ اللّٰهِ، وَ

١- مائده = ٥٠

١١- مريم = ٢٧

نَبَذْتُمُوهُ وَراءَ ظُهُورِكُمْ، إذْ يَقُولُ: (وَ وَرِثَ سُلَيمانُ داوُد)[۱]، وَ قالَ فِيما اقْتَصَّ مِنَ خَبَرِ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيّا إذْ قالَ رَبِّ (هَبْلِى مِنْ لَدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِى وَ يَرِثُ مِنَ آلِ يَعْقُوبَ)[۱۱] وَ قالَ: (وَ اوُلُوا الأرْحامِ بَعْضُهُم أوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللّهِ)[۱۱۱] وَ قالَ: (يُوصِيْكُمُ اللّهُ فِى أولادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيينِ)[۱۱۱۱] وَ قالَ: (إنْ تَرَكَ خَيراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَينِ وَ الأقْرَبِينَ بِالْمَعرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِينَ)[(۱)] وَ زَعَمْتُمْ ألاّ حِظْوَةَ لِی، وَلاارْثَ مِنْ أبِی لارَحِمَ[(۲)] بَيْنَنا! أفَخَصَّكُمُ اللّهُ بِآيَةٍ أخْرَجَ مِنْها أبِی؟ أمْ هَلْ تَقُولُونَ أهْلُ مِلَّتَينِ لايَتَوارَثانِ، وَلَسْتُ أنَا وَ أبِی مِنْ أهْلِ مِلَّةٍ واحِدَةٍ؟! أمْ أنْتُمْ أعْلَمُ بِخُصُوصِ القُرآنِ وَ عُمُومِهِ مِنْ أبِی وَ أبْنِ عَمِّی؟ الىٰ أخر كلامها[(۳)].

و هذا الكلام منها ردّاً على أبي بكر و من تبعه أدّل دليلٌ على كذب أبي بكر فيما رواه في المقام و أن شئت قلت لا خلاف في أنّ أبا بكر روى الخبر عن رسول اللّه و لا شكّ أنّ الزّهراء عليها السلام أنكرتها و ردّت على أبي بكر في نقله كما عرفت و حينئذٍ فنقول الشّقوق المحتملة أربعة.

الأوّل: كذبهما معاً.

الثّانى: صدقهما كذلك.

الثّالث: أن يكون أبو بكر صادقاً فقط

الرّابع: عكسه و هو أنّ الزّهراء صادقه دون أبي بكر.

أمّا الإحتمال الأوّل فلا سبيل إليه للزومه إرتفاع النّقيضين و هو محال.

و هكذا الثّاني للزومه إجتماع النّقيضين و هو أيضاً محال.

۱- نمل = ۱۶

۱۱- مريم = ۵ و ۶

۱۱۱- انفال = ۷۵

۱۱۱۱- نساء = ۱۱.

۱- بقره = ۱۸۰

۲- فى بلاغات، وَلارَحْم.

۳- فدک

و الإحتمال الثّالث أيضاً باطل إذ يلزم منه تكذيب الزّهراء و هو مناف لأية التّطهير بقي في المقام أن تكون الزّهراء صادقة و أبو بكر كاذباً و هو المطلوب.

هذا كلّه بحسب الشّرع و أمّا الدّليل من العقل على بطلان الخبر فلوجوهٍ:

أحدها: أنّ العقل يحكم بأنّ الرّسول لا يحكم بخلاف القرأن و إلاّ يلزم من رسالته عدمها و ذلك لأنّ الرّسول مأمور بتبليغ الأحكام لقوله تعالى: **وَ مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ** و ما على الرّسول إلاّ البلاغ، فلو فرضنا أنّ الرّسول خالف الكتاب فهو ليس برسولٍ من عند اللّه و لا مأمور بتبليغ أحكامه تعالى و هو كما ترى.

ثانيها: أنّ الرّسول لا يجوز له أن يحكم بشيءٍ عند شخصٍ أو أشخاص معدودين لأنّ اللّه تعالى أرسله إلى جميع النّاس فإذا فرضنا أنّه كان مأموراً من عند اللّه بتبليغ حكمٍ من الأحكام و لا سيّما إذا كان الحكم مخالفاً لظاهر الكتاب فالعقل يحكم بإعلامه إلى جميع الأمّة بدليل الإشتراك في التّكليف و حيث أنّه ﷺ لم يفعل ذلك فنكتشف منه أنّ الخبر مجعولٌ و هو المطلوب.

ثالثها: أنّه ﷺ قال بزعم الجاهل، نحن معاشر الأنبياء لا نورث بصيغة الجمع و هو يشمل جميع الأنبياء من أدم إلى خاتم الرّسل فأن كان الحكم على عمومه فهو مخالف للكتاب كما عرفت و أن كان الحكم مخصوصاً به من بين الأنبياء فحقّ العبارة أن يقال، أنا من الأنبياء لا أورث، لا نحن، و حيث لم يقل ذلك فهو كذبٌ.

رابعها: و هو العمدة في الباب عقلاً، و هو أنّه لا شكّ أنّ اللّه تعالى عادلٌ لقوله تعالى: **وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** و غيره من الأدلّة العقليّة و النّقلية و إذا ثبت عدله فنقول ما ذنب أولاد الأنبياء في حرمانهم من الإرث عن أبائهم أليس هذا من الظّلم على أولاد الأنبياء و أيّ ظلمٍ أقبح و أفحش من منعهم عن ميراثهم من غير سببٍ و أن قال قائل أنّ الحكم لا يشمل جميع أولاد الأنبياء بل هو مختصّ بأولاد الرّسول الخاتم فقط، فهو مع أنّه خلاف ظاهر الحديث الشّامل للجميع، قبحه أشنع و أفظع إذ كيف يعقل ثبوت الإرث لأولاد الأنبياء جميعاً سوى فاطمة

الزّهراء و ما ذنب الزّهراء من بين أولاد الأنبياء حتّى تمنع من إرثه إلاّ أنّها بنت الرّسول الخاتم و لا أظنّ أن يحكم بذلك إلاّ الشّيطان اللّعين.

قال الألوسي في تفسيره المسمّى بروح المعاني في هذه الآية ما هذا لفظه **وَوَرِثَ سُلَيْمٰانُ داٰوُودَ** أي قام مقامه في النبوّة و الملك و صار نبيّاً ملكاً بعد موت أبيه داوود عليه السلام فوراثته أيّاه مجازٌ عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته و قيل المراد وراثة النبوّة فقط و قيل وراثة الملك فقط و عن الحسن ونسبه الطّبرسي الى أئمّة أهل البيت أنّها وراثة المال و تّعقب بأنّه قد صحّ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) و قد ذكره الصّديق و الفاروق بحضرة جمع من الصّحابة و هم الّذين لا يخافون في اللّه لومة لائم ولم ينكره أحد منهم عيلهما إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول ما نسبه الى الطّبرسي بقوله أنّها وراثة المال كما هو مذهب أهل البيت لا كلام فيه و أمّا قوله و تّعقب بأنّه قد صحّ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) كذب محض و إفتراء على الطّبرسي فأنّه قدس سره لم يقل ذلك أصلاً و نحن ننقل عين عبارته عن تفسيره مجمع البيان لتعلم صدق ما قلناه قال قدس سره: **وَوَرِثَ سُلَيْمٰانُ داٰوُودَ** في هذا دلالة على أنّ الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم و هو قول الحسن و قيل معناه أنّه ورثه علمه و نبوّته و ملكه دون سائر أولاده و معنى الميراث هنا أنّه قام مقامه في ذلك فأطلق عليه إسم الإرث كما أطلق على الجنّة إسم الإرث.

عن الجبائي و هو خلاف الظّاهر و الصحيح عند أهل البيت هو الأوّل إنتهى كلامه.

فأين تعقّب بأنّه قد صحّ (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) ألا لعنة اللّه على الكافرين.

و أمّا قوله ذكره فلان و فلان و لم ينكره أحد عليهما، فنقول في جوابه أن كان مراده بالصّحابة عبد الرّحمن بن عوف و عثمان و مغيرة، و قنفذ و أمثالهم ممّن بايعوا أبا بكر و بعده عمر و بعده عثمان فالحقّ مع القائل فأنّهم لم ينكروا عليهما و أن كان مراده من الصّحابة أميرالمؤمنين و سلمان و أباذر و مقداد و عمّار و بنت

النّبي فاطمة الزّهراء فأنّهم أنكروا عليها حقّ الإنكار و الخطبة الّتي أوردتها الزّهراء في المسجد كافية لإثبات المدّعى و هذا الإنكار من أهل البيت صار سبباً لإحراقهم بيت فاطمة و ضربها و تعذيبها حتّى صار الأمر الى أنّها سلام اللّه عليها أوصت بغسلها و كفنها و دفنهاليلاً لئلا يحضروا جنازتها و لا يعلموا موضع دفنها كلّ ذلك لإنكارها و إنكارهم عليهما **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟**.

البحث الثّاني: في قوله تعالى **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَ أُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ** أي قال سليمان عليه السلام أيّها النّاس علمنا منطق الطّير، و المعلّم هو اللّه تعالى أي علّمنا اللّه منطق الطّير، قيل المراد بمنطق الطّير صوت يتفاهم به معانيها علىٰ صيغةٍ واحدة بخلاف منطق النّاس إذ هو صوتٌ يتفاهمون به معانيهم على صيغ مختلفة لذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها ولم تفهم هي هنا لأنّ إفهامها مقصورة على تلك الأمور المخصوصة و لمّا جعل سليمان يفهم عنها كان قد علم منطقها إنتهى.

و قيل منطق الطّير إستعارة لما يسمع منها من الأصوات و هي حقيقة في بني آدم لما كان سليمان يفهم منه ما يفهم من كلام بني آدم كما يفهم بعضهم الطّير من بعضٍ أطلق عليه منطق، و قيل كانت الطّير تكلّمه معجزةً له كقصّة الهدهد و الظّاهر أنّه علم منطق الطّير و عموم الطّير، وقيل علم منطق الحيوان و النبات حتّى كان يمرّ على الشّجرة فتذكر له منافعها و مضّارها و أنّما نصّ على الطير لأنّه كان جنداً من جنوده يحتاج اليه في التّظليل من الشّمس و في البعث في الأمور وقد أورد المفسّرون في تفاسيرهم أنّ سليمان عليه السلام أخبر عن كثيرٍ من الطّير بأنواع من الكلام و اللّه أعلم بحقائق الأمور.

و أمّا قوله: **وَ أُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ** فظاهره العموم و المراد الخصوص أي من كلّ شيئٍ يصلح لنا و أريد به كثرة ما أوتي فكأنّه مستغرقٌ جميع الأشياء كما تقول فلانٌ يقصده كلّ أحدٍ و قوله عليه السلام: و أنّه لهو الفضل المبين فيه إقرارٌ بالنّعمة و شكرٌ لها و محمدة و قد بالغ المفسّرون في المقام فقالوا أنّ معسكره كان مائة

فرسخ في خمس و عشرون للجن و مثلها للإنس و مثلها للطّير و مثلها للوحش و ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاث مائة منكوحة و سبع مائة سريّة و قد نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب و إبريسم فرسخاً في فرسخٍ و منبره في وسطه من ذهب فيصعد عليه و حوله ست مائة ألف كرسيّ من ذهب و فضّة تقعد الأنبياء على كراسي الفضّة و حولهم النّاس و حول النّاس الجنّ و الشّياطين و تظّله الطّير بأجنحتها حتّى لا تقع عليه الشّمس و ترفع ريح الصّبا البساط فتسير به مسيرة شهر إلى غير ذلك ممّا ذكروه و أنت ترى أنّ ما ذكروه لا دليل على صحتّه من النّقل و العقل و أنّما هو من مستخرجات ظنّونهم و أوهامهم نعم لا شكّ انّ ملكه عظيماً جدّاً و إنقاد له الجنّ و الإنس و الطّير و الوحش و محصّل الكلام أنّ ما أثبته القرأن و الأخبار الصّحيحة قبلناه و أمّا غير ذلك فلا إعتبار به.

قيل أنّه ملك الأرض بأسرها أربعة، أثنان منها مؤمنان و هما سليمان و ذو القرنين، و أثنان كافران و هما بخت نصر و نمرود و اللّه أعلم.

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمٰانَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنْسِ وَ ٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

الحشر الجمع و قوله: **يُوزَعُونَ**، أي يمنع أولّهم على أخرهم و قال إبن زيد معناه، يساقون، و قال الحسن، يتّقدمون قيل قول إبن عبّاس أقوى لأنّه من قولهم وزعه من الظُّلم إذا منعه منه و كفّه و منه قولهم لابدّ للسّلطان من وازعةٍ أي يمنع النّاس عنه و معنى الآية جمع لسليمان من كلّ جهةٍ جنوده من الجنّ و الإنس و الطَّير، **فَهُمْ يُوزَعُونَ** أي يمنع أوَّلهم على أخرهم ليتّلاحقوا و لا يتّفرقوا و بعبارةٍ أخرى أنّما منع أوّل الجنود عن السّير ليتلاحق الأخر بالأوّل كما فعل ذلك رسول اللّه صلّى الله عليه و آله وسلّم في غدير خم.

حَتّٰى إِذٰا أَتَوْا عَلىٰ وٰادِ ٱلنَّمْلِ قٰالَتْ نَمْلَةٌ يٰا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسٰاكِنَكُمْ لاٰ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ

النَّمل بفتح النّون و سكون الميم و اللاّم معروف و الواحدة النَّملة.

قال الرّاغب في المفردات النَّملة قرحة تخرج بالجنب تشبيهاً بالنَّمل في الهيئة و شقٌّ في الحافر و منه فرسٌ نمل القوائم خفيفها إنتهى.

و المعنى إذا أتوا أي سليمان و جنوده، على واد النّمل قيل هو الشّام و قيل بأقصى اليمن و هو معروف عند العرب مذكورٌ في أشعارها.

روي أنّ سليمان كان على ساحل البحر ينتظر بعض جنوده فرأى نملة تحمل حبَّة حنطة و هي تسعى نحو الماء فتَّعجب سليمان من قصدها الماء مع أنّها تهرب منه إن وقعت فيه قهراً فلمّا وصلت إلى شاطئ البحر خرجت ضفدع فدنت من النَّملة ثمّ فتحت فاها فدخلت النَّملة في فيها بإختيارها فأطبقت الضَّفدع فيها عليها و غاصت في البحر فما لبثت إلاّ برهة يسيرة حتّى رجعت الضَّفدع فقفزت إلى البّر ثمّ فتحت فاها فخرجت النَّملة من فيها و ليس معها حبَّة الحنطة فلمّا نظر سليمان النّملة تقدّم إليها و سألها عن شأنها مع الضَّفدع و أين ذهبت معها و كيف أرجعتها و أين وضعت حبّة الحنطة فقالت له النَّملة أعلم يانبّي اللّه أنّه يوجد في قعر هذا البحر صخرة مجّوفة في وسطها دودة عمياء لا تستطيع الخروج منها لطلب معاشها و قد وكّلني اللّه تعالى برزقها و سخّرني مع هذا الضَّفدع لتأمين معاشها فأنا أحمل طعامها من البّر و هذا الحيوان ينقلني في فيه إليها فإذا وصل بي إلى الصَّخرة وضع فمه على ثقبها ثمّ قذفت بي إلى داخلها فأوصل الحبَّة إلى الدّودة فأضعها في فمها ثمّ أعود إلى هذا الحيوان فيحملني إلى البّر ثانية و هذه قصّتي يانبّي اللّه فدهش نبّي اللّه سليمان من تلك القصّة فزاد في تمجيد اللّه سبحانه ثمّ سألها هل سمعت لها تسبيحاً فقالت نعم سمعتها ترّدد هذا الدُّعاء يامن لا ينساني في جوف هذه الصَّخرة تحت هذه اللُّجة من رزقه لا تنسى عبادك المؤمنين من رحمتك الواسعة إنتهى.

أقول لا يظهر من الآية أنّ النّملة التّي قالت: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ**، هي تلك النّملة التّي رأها سليمان بشاطئ البحر بل كانت نملةً

أخرى و الدّليل عليه قوله: **قٰالَتْ نَمْلَةٌ**، منكرةٌ و كيف كان أمرت النّمل أن يدخلوا مساكنهم و أنّما جاء الخطاب كخطاب من يعقل في قوله: **اُدْخُلُوا** و ما بعده لأنّها أمرت النّمل كأمر من يعقل و صدر من النّمل الإمتثال لأمرها و قوله: **لاٰ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰانُ وَ جُنُودُهُ**، أي لا يكسّرنكم بأن يطأكم عسكره **وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ** أي لا يعلمون بوطئكم فلمّا سمع سليمان ذلك من النّملة تعجّب و تبسّم ضاحكاً من قولها كما حكى اللّه تعالى عنه حيث قال:

فَتَبَسَّمَ ضٰاحِكاً مِنْ قَوْلِهٰا وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلىٰ وٰالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبٰادِكَ اَلصّٰالِحِينَ

و المعنى فتّبسم سليمان حال كونه ضاحكاً مستبشّراً من قول النّملة **وَ قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي** أي أجعلني أشكر و قال إبن زيد حرضّني، و قال الزّجاج أمنعني عن الكفران أن أشكر نعمتك التّي أنعمت علّي من النّبوة و الملك و على والدّي و أن أعمل صالحاً ترضاه و أدخلني برحمتك في عبادك الصّالحين دعا سليمان لنفسه أوّلاً و لوالديه اللّذين ربيّاه ثانياً فأنّ الوالدين ينتفعان بدعاء الولد ثمّ بعد ذلك سأل ربّه أن يدخله برحمته الواسعة في عباده الصّالحين و هذا من أحسن الدُّعاء كما قال يوسف عليه السلام: **تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصّٰالِحِينَ** و قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام **وَ إِنَّهُ فِي اَلْآخِرَةِ لَمِنَ اَلصّٰالِحِينَ**(۱) لأنّ كمال الصّلاح أن لا يعصي العبد ربّه بل و لا يّهم بمعصيةٍ و هذه درجة عالية لا درجة فوقها.

وَ تَفَقَّدَ اَلطَّيْرَ فَقٰالَ مٰا لِيَ لاٰ أَرَى اَلْهُدْهُدَ أَمْ كٰانَ مِنَ اَلْغٰائِبِينَ

الفقد عدم الشّيء بعد وجوده فهو أخصّ من العدم لأنّ العدم يقال فيه و فيما لم يوجد بعد، و التّفقد تعرّف فقدان الشّيء كما أنّ التّعهد تعرّف العهد المتّقدم

۱- البقرة = ۱۳۰

ظاهر الكلام أنّ سليمان عليه السلام تفقّد جميع الطّير لا الهدهد فقط و لذلك قال: **تَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ** أي جنسه ولم يقل و تفقّد الهدهد، روي أنّ نبّي اللّه سليمان سافر إلىٰ بلاد اليمن في بعض رحلاته و كانت الطّير تظلّله من حرارة الشّمس فلمّا حان وقت الصّلاة نزل عن بساطه و إنصرفت الطّيور لسبيلها في تلك البرهة و كان من جملتها الهدهد فتوّغل في طيرانه فصادف هدهداً مثله فتقارنا و جعل كلّ منهما يسأل رفيقه عن حاله و حال بلاده فأخبره هدهد سليمان عن عظمة سليمان و كثرة جنوده و بطشه و ما أتاه اللّه من الملك و النّبوة و تسخير الجنّ و الإنس والوحش و الطّير له في كلّ ما أراد و جعل هدهد بلاد سبأ يشرح لرفيقه عظمة ملكة سبأ و كثرة جنودها و سعة بلادها و دعاه للذّهاب معه ليشاهد ذلك بعينه فرغب هدهد سليمان بذلك و أحبَّ أن ينقل أخبار ذلك لسليمان خصوصاً حينما سمع من رفيقه أنّ ملكة سبأ، و قومها يعبدون الشّمس دون الخالق القهّار و طالت غيبة الهدهد و إنتهى سليمان من صلاته و جلس على بساطه فظّللته الطّير و بقي مكان الهدهد فارغاً فسأل سليمان عنه و تهّدده إن لم يأت بسببٍ صحيح يدلّ على تغيُّبه ثمّ أرسل العقاب وراءه فصادفه راجعاً فأتى به إلى سليمان عليه السلام فسأله سليمان عن غيابه بدون إذنه فشرح له قصّة ملكة سبأ، و عظمة ملكها و أنّها وقومها يعبدون الشّمس و يسجدون لها دون الخالق القهّار فأراد سليمان أن يتّحقق صحّة كلام الهدهد فكتب كتاباً و أرسله معه إلى ملكة سبأ، و أمره أن يعرفه بحالها بعد قراءتها الكتاب فأخذ الهدهد الكتاب و دخل على بلقيس و هي في قصرها من كوّةٍ كانت في أعلى القصر فما شعرت و الكتاب قد سقط على صدرها و هي مستلقاة فدهشت من ذلك و قد شاهدت الهدهد حينما دخل من الكوّة و كيف ألقاه و خرج من حيث أتى فأخذت بلقيس الكتاب و إذا فيه.

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ، أَلاّٰ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ

إذا عرفت هذا فقوله عليه السلام: **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذٰاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطٰانٍ مُبِينٍ**

فمكث غير بعيدٍ، أي مكث سليمان مدّة قليلة إذ جاء هدهد على ما مرَّ تفصيله فقال، أي فقال هدهد لسليمان، **أَحَطْتُ بِمٰا لَمْ تُحِطْ بِهِ**، أي علمت ما لم تعلم و علم الإحاطة هو أن يعلمه من جميع جهاته الّتي يمكن أن يعلم عليها، تشبيهاً بالسُّور المحيط بما فيه ثمّ قال: **وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** أي قال هدهد لسليمان جئتك يانبيّ اللّه من سبأ أي من قوم سبأ و هو قوم بلقس بنبأ أي بخبرٍ يقينٍ، لا شكّ فيه و هو قوله تعالى:

إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَهٰا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لاٰ يَهْتَدُونَ

و المعنى وجدت بلقيس و قومها يسجدون للشّمس من دون اللّه و زيَّن لهم الشّيطان أعمالهم فصَّدهم عن السَّبيل، أي منعهم عن متابعة الحقّ فهم لا يهتدون، إلى عبادة اللّه و توحيده و كان سليمان عليه السلام له بساط قد صنع له و كان عظيماً جدّاً ولذلك لم يتّأثر سليمان من قول هدهد حيث قال، و لها عرشٌ عظيمٌ لأنّه أمرٌ دنّياوي لا عبرة به عند الأنبياء و الأوصياء و الصُّلحاء و لذلك أشار هدهد إلى أمرٍ أخر و هو الإيمان باللّه الّذي هو قرّة عين النّبي فقال هدهد: **وَجَدْتُهٰا وَ قَوْمَهٰا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ** و هذا هو الّذي صار سبباً لقبول عذره في غيبته.

أَلاّٰ يَسْجُدُوا لِلّٰهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمٰاوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ مٰا تُخْفُونَ وَ مٰا تُعْلِنُونَ

قيل هذا ما قاله هدهد بعد قوله أنّهم يسجدون للشّمس فقال على وجه التّوبيخ و التّقبيح لفعلهم، ألاّ يسجدوا للّه الّذي يخرج الخبْ في السّموات و الأرض و الخبأ هو المخبوء و هو ما أحاط به غيره حتّى منع من إدراكه وضع المصدر موضع الصّفة فكلّ ما يوجده اللّه و يخرجه من العدم إلى الوجود فهو بهذه المنزلة و على هذا فخبأ كلّ شيْ‌ء بحسبه فخبْ السّماء الأمطار و الرّياح و خبْ الأرض الأشجار و النّبات و الغرض من هذا الكلام أنّ المعبود الّذي يستّحق أن يعبد ينبغي أن يون عالماً قادراً حكيماً و ما سوى اللّه كائناً ما كان فقير محتاج إلى خالقه و لا علم له إلاّ ما علّمه اللّه و حيث أنّ الشّمس لا علم لها و لا قدرة فكيف تكون معبوداً و بعبارةٍ أخرى العالم بكلّ شيْ‌ء و القادر على كلّ شيْ‌ء ليس إلاّ اللّه الّذي لا إله إلاّ هو فهو المتسّحق للمعبوديّة لا غيره و إلىٰ هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ

نقل الشّيخ‌ﷺ في التّبيان عن الجبائي أنّه قال لم يكن الهدهد عارفاً باللّه و أنّما أخبر بذلك كما يخبر مراهقوا صبياننا لأنّه لا تكليف عليه و أنّما التّكليف على الملائكة و الجنّ و الإنس إنتهى.

قال الشّيخ و هذا الّذي ذكره خلاف الظّاهر لأنّ الإحتجاج الّذي حكاه اللّه عن الهدهد إحتجاج عارفٌ باللّه و بما يجوز عليه و ما لا يجوز لأنّه قال وجدتها و قومها يسجدون للشّمس من دون اللّه و لا يجوز أن يفرق بين الحقّ في السّجود للّه و بين الباطل الّذي هو السّجود للشّمس و أنّ أحدهما حسن و الأخر قبيح إلاّ من كان عارفاً باللّه و بما يجوز عليه و ما لا يجوز و ذلك ينافي حال الصّبيان إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره‌ﷺ في الجواب متينٌ جدّاً و نحن نجيب عنه بطريقٍ أخر و هو أنّ الطّيور و الحيوانات بل جميع الأشياء قد ثبت لهم عقلاً و نقلاً التّقديس و التّسبيح للّه تعالى كما:

قال اللّه تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُودَ ٱلْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ ٱلطَّيْرَ**(٢).

قال اللّه تعالى: **إِنّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِشْراقِ**(٣) و غيرها من الأيات.

و إذا كان التّسبيح و التّقديس ثابتاً لها شرعاً فلا محالة تكون المعرفة أيضاً ثابتة لأنّ التّسبيح منها نوعٌ من العبادة و هي فرعٌ على المعرفة فكيف لا يكون الهدهد و غيره من الطّيور و الحيوانات عارفاً باللّه بل نقول أنّ معرفة الحيوانات بل الجمادات و النباتات و غيرها أكثر من معرفة كثير من بني أدم لولا أكثرهم و هذا ممّا لا خفاء فيه عند التّأمل و التّدبر.

و أمّا قوله: **رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ**، فقد تكلّمنا في معنى العرش فيما مضى مفصّلاً.

قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْكاذِبِينَ

لمّا قال الهدهد لسليمان ما قال، قال سليمان عليه السلام سننظر فيما قلت أصدقت فيما أخبرتنا به من قصّة بلقيس أم كنت من الكاذبين.

اِذْهَبْ بِكِتابِي هٰذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ماذا يَرْجِعُونَ

أمر سليمان الهدهد بأن يذهب بكتابه الّذي كتبه له و أشار إليه بقوله: **هٰذا** أي هذا الّذي كتبته ثمّ توّل أي أعرض عنهم فأنظر ماذا يرجعون، قال بعضهم في الكلام تقديم و تأخير و تقديره فألقه إليهم فأنظر ماذا يرجعون ثمّ توّل عنهم و الإنصاف أنّ الكلام لا يحتاج إلى التّقدير بل الكلام صحيحٌ على ما هو عليه من

١- الإسراء = ۴۴ ٢- الأنبياء = ٧٩
٣- ص = ١٨

التّرتيب فالمعنى فألقه إليهم ثمّ توّل عنهم قريباً منهم فأنظر ماذا يرجعون و التّولي الإعراض و قيل المراد به الإستتار و المعنى فألق الكتاب إليهم ثمّ إستتر عنهم فلمّا مضى الهدهد بالكتاب و ألقاه إليهم إستتر عنهم فلمّا رأته بلقيس.

قَالَتْ يَآ أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَ أْتُونِى مُسْلِمِينَ

أي قالت بلقيس بعد قراءة الكتاب يا أيّها الملاء و هم أشراف قومها و أصحابها أنّي ألقي إلّي كتابٌ كريم، و أنّما قالت ألقي بصيغة المجهول لعدم علمها بالملقي و وصف الكتاب بالكرامة إشعاراً بأنّه حقيقٌ بأن يوصل الخبر العظيم من جهته أو أنّها فهمت من مطاوي الكتاب أنّه صدر من شخصٍ كريم و ذلك لأنّ الكتاب كان من سليمان و أنّه بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، ألاّ تعلوا علّيّ، العُلو علىٰ الشّئ طلب القهر له بما يكون به بحسب سلطانه أي لا تطلبوا تلك الحال فأنّكم لا تنالونها منّي هكذا قيل في معنى الكلام.

قال في المفردات العلُو الإرتفاع و منه قوله تعالىٰ: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ**[1] و الّذي يفهم من الكلام هو أنّ سليمان عليه‌السلام نهاهم عن العلُو و أمرهم بالتّسليم في قوله: **وَ أْتُونِى مُسْلِمِينَ** و قرأ بعضهم، ألاّ تغلُوا، بالغين المعجمة من غلا يغلو إذا تجاوز و تكّبر و هي راجعة إلى قراءة الجماعة و معنى قوله: و **أْتُونِى مُسْلِمِينَ**، أي منقادين طائعين مؤمنين فأنّي لا أدعوا إلاّ إلى الحقّ.

قَالَتْ يَآ أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ

أي لمّا وصل الكتاب إلى بلقيس قالت مخاطبةً لأشراف قومها و زعماء أصحابها أفتوني في أمري هذا، أخذت في حسن الأدب مع قومها و مشاورتهم

١- القصص = ٤

في أمرها و أعلمتهم أنّ ذلك أي المشاورة معهم مطرّدٌ عندها في كلّ أمرٍ يعرض بقولها: **مٰا كُنْتُ قٰاطِعَةً أَمْرًا حَتّٰى تَشْهَدُونِ** فكيف في هذه النّازلة الكبرى فأجابها الملاء بما يقُّر عينها من إعلامهم أيّاها بالقوّة و البأس.

قٰالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ اَلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مٰاذٰا تَأْمُرِينَ

و من محاسن هذه المحاورة أنّهم بعد إعلامهم إيّاها بالقوّة و البأس سلّموا الأمر إلى نظرها و قالوا فأنظري ماذا تأمرين أي نحن قلنا ذلك و لكنّ الأمر إليك و أمرك متّبعٌ قيل أنّ الملاء الّذين شاورتهم في الأمر كانوا ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلاً و كلّ رجلٍ منهم على عشرة ألاف.

قٰالَتْ إِنَّ اَلْمُلُوكَ إِذٰا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهٰا وَ جَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهٰآ أَذِلَّةً وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ

لمّا أرجعوا الأمر إليها بقولهم فأنظري ماذا تأمرين، قالت بلقيس أنّ الملوك إذا دخلوا قريةً الأية.

و حاصل المعنى أنّ دخول الملوك في القرى إذا كان بالقهر و الغلبة على أهلها فلازم ذلك ليس إلاّ الفساد بسبب القتل و الغارة و جعل أعزة أهلها أذلّة بإهانتهم شرفائها و عظمائها ليستقيم لهم الأمور.

و أمّا قوله: **كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ**، فقيل أنّه من قول اللّه تعالى تصديقاً لقولها قال إبن الأنبارى **وَ جَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهٰآ أَذِلَّةً** هذا وقفٌ تامّ فقال اللّه عزّ وجلّ تحقيقاً لقولها: **وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ**، و قال إبن شجرة هو قول بلقيس فالوقف و كذلك يفعلون، أي و كذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

أقول ما قاله إبن شجرة من أنه قول بلقيس هو الحقّ فأنّ قوله: **وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ** من تتّمة كلام بلقيس و الدّليل على هذا أنّ الإفساد في القرى من شأن

الملوك الجبابرة أمثال فرعون و نمرود و بخت نصّر و غيرهم و أمّا سليمان بن داود عليه السلام لمكان نبّوته فهو بمعزلٍ عن الإفساد و القتل و الغارة أمثال ذلك و إذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف يصدّقها اللّه في قوله: **وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ** هذا مضافاً إلى أنّ قوله: **وَ كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ**، وقع بين قولها أنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها و قولها: **إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ**، وكيف يعقل أن يكون كلام اللّه.

و محصّل الكلام أنّ سياق الكلام يقتضي أن يكون من كلام بلقيس و اللّه أعلم.

وَ إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ

قيل هذا من حسن أدبها و تدبيرها أي و إنّي أجّرب هذا الرّجل بهديّة و أعطيه فيها نفائس من الأموال و أغرب عليه بأمور المملكة فأن كان ملكاً دنياويّاً أرضاه المال و عملنا معه بحسب ذلك و أن كان نبيّاً لم يرضه المال و لازمناً في أمر الدّين فينبغي لنا أم نؤمن به و نتّبعه على دينه فبعث إليه بهَّدية عظيمة أكثر النّاس في تفصيلها و لا فائدة في نقلها لعدم وجود دليلٍ على صحّته مضافاً الى أنّ العقل أيضاً لا يساعد عليه فقد نقلوا عن سعيد بن جبير عن إبن عبّاس أنّها أرسلت الى سليمان بلبنةٍ من ذهب فرأت الرّسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به و قال مجاهد أرسلت إليه بمائتي غلام و مائتي جارية و روي عن إبن عبّاس أرسلت بإثنتي عشرة و صيفة مذّكرين قد ألبستهم زيّ الغلمان و إثني عشر غلاماً مؤنّثين قد ألبستهم زيّ النّساء و على يد الوصائف أطباق مسكٍ و عنبر و بإثنتي عشرة نجيته تحمل لبن الذّهب و هكذا و من المعلوم أنّ ما ذكروه غير معقولٍ و غير منقولٍ و لا يهّمنا البحث فيه فأنّ القدر المسلّم من الآية أنّها أرسلت إليه بهديّة و لا شكّ أنّ هديّة الملوك عظيمة و أمّا كيفَّيتها و كميَّتها فلم يصّرح بها الكتاب و قد قيل لنا إسكتوا ممّا سكت اللّه عنه ثمّ أنّ الرّسول على ما قيل كان واحداً و لكنّ كان في صحبته أتباع و خدم و قيل أرسلت رجلاً من أشراف قومها

يقال له المنذر بن عمرو و ضَّمت إليه رجالاً ذوي رأيٍ و عقلٍ و قالت للغلمان إذا كلَّمكم سليمان فكَّلموه بكلامٍ فيه تأنيث يشبه كلام النّساء و قالت للجواري كلمّنه بكلامٍ فيه غلظ يشبه كلام الرّجال فيقال أنّ الهدهد جاء و أخبر سليمان بذلك كلّه و قيل أنّ اللّه أخبر سليمان به و قد أطالوا الكلام في هذا المقام أيضاً بما لا دليل على صحته و لا فائدة في نقله و من أراد الوقوف على ما ذكروه فعليه بتفسير القرطبي.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ

أي فلّما جاء الرّسول سليمان بالهديّة قال سليمان عليه السلام: **أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ**، قرأ حمزة و يعقوب و الأعمش بنُونٍ واحدة مشّددة و ياء ثابتة بعدها، و الباقون بنونين و هو إختيار أبي عبيد لأنّها في كلّ المصاحف بنونين.

و قد روى إسحاق عن نافع أنّه كان يقرأ، أَتَمّدُون، بِنُونٍ واحدة مخفّفة بعدها ياء في اللّفظ و قيل في تفسيرها أي، أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي، و قيل الإمداد إلحاق الثّاني بالأوّل و الثّالث بالثّاني إلى حيث ينتهي و المعنى لست أرغب في المال الّذي تمّدونني به و أنّما أرغب في الإيمان الّذي دعوتكم إليه و الإذعان بالطّاعة للّه و رسوله ثمّ قال سليمان عليه السلام فما أتاني اللّه من أنواع النّعم خير ممّا أتاكم اللّه بالتّمكين من المال الّذي لي أضعافه و أضعاف أضاعفه إلى ما شئت منه ثمّ قال عليه السلام لهم، بل أنتم بهديّتكم تفرحون، أي بهديّتكم التّي أهديتموها إلَّي تفرحون و الهديّة العطيّة على جهة الملاطفة.

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَآ أَذِلَّةً وَ هُمْ صَاغِرُونَ

أي قال سليمان للرَّسول أرجع إليهم بهديّتهم، فنأتيَّنهم بجنودٍ لا قبل لهم بها، لا طاقة لهم بها و لا يقدرون على مقابلتهم و مقاومتهم، و لنخرجّنهم منها أي من

أرضهم أو من بلادهم و قيل من قرية سبأ، أذلّة و هم صاغرون، و ذلك لأنّ عزّة السّلطان و من تابعه في بقاء الملك فإذا سلب الملك فلا عزّة له و قوله: **صٰاغِرُونَ** أي مهانون أذلاء من الصِّغر.

قٰالَ يٰٓا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهٰا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

لمّا لم يقبل سليمان هديّتهم و أمر الرّسول بالرّجوع و هدَّدهم بزوال ملكهم و صيرورتهم أذلّة خاطب أصحابه من الأعيان و الأشراف و قال لهم أيّكم يأتيني بعرشها ملكة سبأ قبل **أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** أي مطيعين منقادين، قيل كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لمّا قال عليه‌السلام هذا الكلام و كانت خلفت عرشها بسبأ و وَّكلت به حفظة.

قال إبن عبّاس كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها ولم يكتب إليها حتّى جاء العرش و قال بعض المفسّرين ظاهر الأيات أنّ هذه المقالة من سليمان بعد مجئ هديّتها و ردَّه إيّاها و بعثه الهدهد بالكتاب، و إختلفوا في فائدة إستدعاء عرشها فقال قتادة ذكر له بعظم وجودة، فأراد أخذه قبل أن يعصمها و قومها الإسلام و يحمي أموالهم و الإسلاَم في قوله: **مُسْلِمِينَ**، على هذا الدّين.

و قال إبن زيد إستدعاه ليريها القدرة التّي هي من عند اللّه و يجعل نيلاً على نبوّته لأخذه من بيوتها دون جيش و لا حرب و مسلمين على هذا التّأويل بمعنى مستسلمين و هو قول إبن عبّاس و قيل أراد أن يختبر عقلها و قيل غير ذلك من الأقوال و العلم عند اللّه.

قٰالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ

عِفريت بكسر العَين أي رئيس و هو من الشّياطين القوي المارد، قال وهب بن منّبه إسم هذا العفريت، كردن، و قيل، ذكوان، و قيل دعوان، و عن إبن عبّاس أنّه صخر الجنّي و من هذا الإسم قول ذي الرَّمة:

كأنّــه كـوكبُ فـي أثـر عـفريتٍ مصّوبُ في سواد اللّـيل مـنقضبُ

و أنشد الكسائي:

إذ قــال شـيطانهم العــفريت ليس لكــم مـلكُ و لا تـثبيتُ

و قوله: **قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقٰامِكَ** أي عن مجلسه الّذي كان يحكم فيه و قوله: **وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**، أي قوّيٌ على حمله أمينٌ على ما فيه و قال إبن عبّاس أمينٌ على فرج المرأة.

قٰالَ اَلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ اَلْكِتٰابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّٰا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قٰالَ هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ

إتّفق المفسّرون على أنّ القائل بهذا الكلام الّذي كان عنده علمٌ من الكتاب هو أصف بن برحينا، قيل أنّه إبن خالة سليمان و وصيّه و كان عنده إسم اللّه الأعظم من أسماء اللّه و قال مجاهد إسمه إسطوع.

و قال قتادة مليخا، و قيل هو الخضر و المشهور عندهم هو القـول الأوّل و قوله: **أَنَا آتِيكَ بِهِ**، أي بالعرش، قبل أن يرتّد إليك طرفك، أي قبل أن يرجع إليك ما يراه طرفك، و قيل قبل أن يرجع طرفك خاسئاً إذا فتحتها و أدمت فتحها، و قيل قبل أن تفتحها و تطبقها، فلمّا رأه سليمان مستّقراً، ثابتاً عنده قال هذا من فضل ربّي ليبلوني أي يختبرني و يمتحنني ءأشكر أم أكفر، أي ءأشكر على نعمه أم أجحدها، ومن شكر، علىٰ نعمه فأنّما يشكر لنفسه، لأنّ ثواب الشّكـر يـعود عليه و من كفر به أي جحد نعم اللّه فأنّما يضّر نفسه لأنّ عقاب ذلك يحلّ به فأنّ اللّه تعالى غنّيٌ عن كلّ شيٍ كريمٌ في أنعامه على خلقه و في الآية لطائف و نقاط.

الأولىٰ: في قوله **هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّي** و فيه إشارة الى أنّ ما أعطاه اللّه من النّصر و التّمكين و الملك و النبوّة و غير ذلك من النِّعم أنّما هو من فضل الرَّب

على العبد و إلاّ فالعبد لا يستحقّ ذلك بحسب نفسه و توضيح ذلك إجمالاً هو أنّ العبد مخلوق له تعالى أخرجه اللّه من العدم الى الوجود و أعطاه من النِّعم الظّاهرة و الباطنة ما لا يقدر على إحصاءها غيره قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لا تُحْصُوهٰا**[١] و قد ثبت عقلاً أنّ شكر المنعم واجب على المنعم عليه فكلّ ما يأتي به العبد في مقام العبوديّة من فعل الواجبات و ترك المحرّمات فهو من باب الشّكر عملاً و أن شئت قلت هو العمل لوظائفه المقهّرة له من باب الشّكر العملي فلا يستحقّ به شيئاً فكلّ ما يعطيه اللّه تعالى في الدُّنيا و الأخرة أنّما هو من رشحات فضله وجوده و لمّا أعطى اللّه تعالى سليمان الملك و النبوّة الّتي ليس فوقها مقام فحقّ له أن يقول: **هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبِّى** فقوله عليه السلام هذا إشارة الى أنّي لم أستحقّ ذلك بحسب العبوديّة بل هو من فضل اللّه و كرمه و لطفه و عنايته.

الثّانية: قوله **لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ،** قال الأخفش أي لينظرني، و ليس بشئٍ لأنّ الأصل في الإبتلاء الإختبار و الامتحان و المعنى ليختبرني و في هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ العبد دائماً في معرض الإختبار في الدُّنيا قال اللّه تعالى: **الٓمٓ، أَحَسِبَ اَلنّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا اٰمَنّٰا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ**[٢] و غاية الإختبار هي ما ذكره بقوله: **ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** أي أنّ اللّه إختبرني لذلك.

أن قلت أنّ اللّه تعالى لا يخفى عليه شيءٍ من ظاهر العبد و باطنه فما وجه إختباره و إمتحانه.

قلت نعم أنّ اللّه تعالى عالم بالسِّر و الخفيّات و لا يخفى عليه شئ أصلاً فنفع الإختبار لا يرجع اليه تعالى بل يرجع الى العبد نفسه فهو في غير الأنبياء معرفتهم أنفسهم و في الأنبياء معرفة النّاس أيّاهم و هذه الفائدة لا تحصل إلاّ به.

الثّالثة: قوله **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** الىٰ آخر الآية وفي هذا الكلام إشارة الى أصلين أصيلين:

١- ابراهيم = ٣٤ ٢- العنكبوت = ١/٢

أحدهما: أنّ فائدة الشّكر ترجع الى الشّاكر لا الى غيره و هو معنى قوله: **وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ** و هو واضح لا خفاء فيه و إذا كان كذلك فينبغي للعبد أن يشكر لينتفع به فأنّ جلب المنفعة واجب عقلاً كما أنّ دفع المضّرة أيضاً كذلك.

ثانيهما: أنّ اللّه تعالى غنيّ مطلقاً لا يحتاج الى عبادة العبد و شكره على النِّعم لأنّ الإحتياج ينشأ من الفقر و الفقر مساوق للإمكان و هو تعالى واحب الوجود بيان ذلك أنّ اللّه تعالى لو كان محتاجاً الى غيره فهو ناقص في حدّ ذاته لأنّ الإحتياج عيم النّقص وكلّ ناقص فهو ممكن الوجود و المفروض أنّه واجب الوجود فيلزم من إحتياجه إمكانه و هو كما ترىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا اَلنّٰاسُ أَنْتُمُ اَلْفُقَرٰآءُ إِلَى اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ هُوَ اَلْغَنِيُّ اَلْحَمِيدُ**(١).

و الى هذه الدّقيقة أشار بقوله: **فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ**.

و أمّا قوله: **كَرِيمٌ** فهو إشارة الى أنّ اللّه تعالى يعطي العبد على أساس جوده و كرمه لا على أساس الإستحقاق فهو يعطي الشّاكر و الكافر إلاّ أنّ الشّاكر على نعمه يزداد في حقّه بسبب شكره بخلاف الكافر بالنِّعم:

كما قال تعالىٰ: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ**(٢).

و قد مضى الكلام في الشُّكر و آثاره المترّتب عليه في الدُّنيا و الأخرة سابقاً فلا نعيد الكلام بذكره ثانياً.

قٰالَ نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ اَلَّذِينَ لاٰ يَهْتَدُونَ

أي قال سليمان عليه السلام **نَكِّرُوا لَهٰا عَرْشَهٰا**، أي غيّروه قيل جعل أعلاه أسفله

١- فاطر = ۱۵ ٢- ابراهيم = ٧

و أسفله أعلاه، و قيل غيّر بزيادةٍ أو نقصان و قال بعض المفسّرين أمر سليمان عليه السلام أن ينكّروا لها عرشها و هو أن يغيّروه الى حالٍ.

تنكره إذا رأته قيل أراد بذلك إختبارها من جهة عقلها فأنّ التّنكير تغيير الشئ الى حالٍ ينكرها صاحبها رآها و قوله: **نَنْظُرْ أَتَهْتَدِيٓ**، أي أتهتدي بلقيس الىٰ طريق الرُّشدّ أم تكون من الّذين لا يهتدون، لقلّة عقولهم.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ

أي فلمّا جاءت بلقيس، قيل لها، أي قال لها سليمان، **أَهٰكَذَا عَرْشُكِ** فقالت بلقيس في الجواب **كَأَنَّهُ هُوَ** و لم نقطع عليه لمّا رأت من تغيُّر أحواله فقال سليمان عليه السلام **وَ أُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا** و قيل هو من قول بلقيس أي أوتينا العلم بصحّة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش، و كنّا مسلمين، أي منقادين لأمره.

و قال الجبائي هو من كلام سليمان و اللّه أعلم بحقيقة الأمر و الظّاهر أنّه من كلام سليمان.

وَ صَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ

الصدّ المنع و المعنى منعها سليمان أي منع بلقيس عمّا كانت تعبد من دون اللّه من الشّمس و القمر و أن شئت قلت حال سليمان بينها و بين عبادتها للشّمس و قيل صدَّها اللّه عن عبادتها، أنّها، أي بلقيس كانت من قومٍ كافرين، بنعم اللّه عليهم عابدين مع اللّه غيره.

قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

إختلفوا في معنى الصّرح على أقوالٍ:

أحدها: أنّ الصَّرح كان صحناً من زجاجٍ تحته ماء و فيه الحيتان، عمله سليمان ليريها ملكاً أعظم من ملكها قال مجاهد.

الثّاني: منها قول قتادة قال كان الصَّرح من قوارير خلفه ماء.

ثالثها: قول أبي عبيدة و هو أنّ الصَّرح القفر.

رابعها: قول بعضهم أنّ الصَّرح الصَّحن كما يقال هذه صرّحة الدّار و قاعتها.

خامسها: أنّ الصَّرح كلّ بناءٍ عالٍ مرتفع من الأرض نقل هذه الأقوال القرطبي في تفسيره و قال الشّيخ في التّبيان، الصَّرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقفٍ و منه قولهم صرّح بالأمر إذا أفصح به ولم يكُن فيه و التَّصريح خلاف التّعريض، و فلان يكذب صراحاً من هذا.

أمّا قوله: **فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً** يعني أنّ بلقيس لمّا رأت الصَّرح ظنّته لجّة و اللُّجة فقطم الماء و منه لجج البحر خلاف السّاحل و منه لجّ في الأمر إذا بالغ بالدُّخول فيه.

و قوله: **وَ كَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا** أي كشفت المرأة عن ساقيها ظنّاً منها أنّها تريد أن تخوض الماء و قيل أنّ سليمان أجرى الماء تحت الصَّرح الّذي هو كهيئة السَّطح، و قيل أنّها لمّا كشفت عن ساقيها، فإذا هي أحسن النّاس ساقاً سليمةً ممّا قالت الجنّ و ذلك لأنّ الجنّ قالت أنّها أي بلقيس من طائفة الجنّ و رجلها رجل حمار، قيل لمّا رأت اللُّجة فزعت و ظنّت أنّه قصد بها الغرق و تعجّبت من كون كرسيّه على الماء و رأت ما هالها و لم يكن لها بدٌّ من إمتثال الأمر: **قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ** و القائل سليمان و ذلك لأنّها لمّا كشفت عن ساقيها كانت كثيرة الشَّعر فلمّا بلغت هذا الحدّ قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها، أنّه صرحٌ ممَّردٌ من قوارير، الممَّرد المملَّس و منه الأمرد، و شجرة مرداء، ملساء لا ورق عليها و المارد الخارج عن الحقّ المملَّس منه قيل لمّا رأىٰ سليمان قدميها قال لبعض الشّياطين كيف لي أن أقلع هذا الشَّعر من غير مضرّةٍ بالجسد فدلَّه على عمل النورة فكانت النورة و الحمّامات من يومئذٍ و يروي أن سليمان

تزَّوجها عند ذلك و أسكنها الشّام قاله الضّحاك، و قيل تزّوجها و ردَّها الىٰ ملكها باليمن و كان يأتيها على الرِّيح كلّ شهرٍ مرّةٍ فولدت له غلاماً سمّاه داوود مات في زمانه، و قيل لم يتزّوجها سليمان و قيل غير ذلك من الأقوال الّتي لا دليل على صحتّها و قد أشبع القرطّبي كتابه من هذه الأقوال الرّكيكة مثل ما نقله عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين من حيث السّاقين و هي من أزواج سليمان في الجنّة، فقالت عائشة هي أحسن ساقين منّي فقال ﷺ أنت أحسن ساقين منها في الجنّة، نقله القيثري إنتهىٰ.

أقول أنظروا يا أهل الإنصاف الى ما ذكروه في تفسير كلام اللّه فأقضوا ما أنتم قاضون به، ثمّ أنّ القرطّبي قد أطال الكلام في المقام بما لا فائدة في نقله بل لا يجوز نقله و أن شئت الإطّلاع على ما ذكره فعليك بكتابه الّذي سمّاه الجامع لأحكام القرآن وليت شعري ما الّذي دعاه الى نقل هذه الموضوعات مع أنّ الّذي صرَّح به القرآن و وردت به الأثار هو أنّها أسلمت على يد سليمان و صارت مسلمة مؤمنة بعد كفرها و تابت الى اللّه من عبادة الأوثان توبةً نصوحاً و أمّا أن سليمان تزَّوجها أو لم يتزَّوجها فلا دليل عليه و اللّه أعلم.

تنبيهٌ:

نذكر فيه إجمالاً من أحوال سليمان في حياته و هو أنّه كان من أنبياء بني إسرائيل و كان يعتكف غالباً في مسجد بيت المقدس فلمّا بلغ من العمر ثلاثاً و خمسين سنة أي بعد أربعين سنة من توّليه الملك و ذلك لأنّه توّلاه و هو إبن ثلاثة عشر سنة، أحبَّ يوماً أن يصعد الى أعلى قصره و يتأمّل وحده بناء مسجده من عل فأمر أن يمنع دخول أيّ شخصٍ وراءه حتّى و لو كان من خوّاصه و جنوده ثمّ صعد وحده حتّى بلغ أعلى مطل تحت القبّة المصنوعة من قوارير و أطل على العمّال و هم يشيّدون المسجد و كان قد بقى من مدّة كمال بناءه ما يقرب من سنةٍ و فجأة نظر فلمح شجرة خرنوب من ناحيةٍ من نواحي البلدة و كان متّكأً على عصاه فأضطربت جوارحه لأنّ اللّه تعالى كان قد عرَّفه أنّ آية موته خروج شجرة

خرنوب من بيت المقدّس و بعد هذا الإضطراب الّذي أصابه إلتفت فرأى شابّاً جميل الوجه في زيٍّ حسن يخرج اليه فغضب و قال من أدخلك هذا القصر و من الّذي سمح لك في دخوله و من أنت فقال أمّا الّذي أمرني بالدُّخول فهو صاحب القصر و أمّا الإستئذان عليك فلم يكن لي عادة أن أستأذن في الدُّخول على السّلاطين و الملوك فعلم سليمان أنّه ملك الموت فسأله سليمان فيم جئت قال جئت لأقبض روحك و عند ذلك سأل ربّه أن يخفي على الجنّ موته لجهتين:

الأُولىٰ: ليداوموا أعمالهم في عمارة بيت المقدّس.

الثّانية: ليعلم هم و الإنس أنّهم لا يعلمون الغيب و أنّ علمه عند اللّه فأجابه اللّه تعالى و قبض عزرائيل روحه و قومه ينظرون إليه و هو متّكئٌ على عصاه و هم يحسبونه حيّاً مدّة سنةٍ كاملةٍ و كان وزيره أصف بن برحنا خلال تلك المدّة يدّبر أمر المملكة و ينظّم أعمال الجنّ و الإنس فلمّا كمل بناء المسجد بعد سنة أرسل اللّه تعالى دودة الأرض فأكلت العصا فسقط و في هذه القصّة عبرة لأولي الأبصار إن إعتبروا بها ولكن ما أكثر العبر و أقلُّ الإعتبار فإذا كان سليمان بن داود مع نبوّته و عظم ملكه و تسّلطه على الجنّ و الإنس و الطّير و الوحش و السّحاب و الرّياح و غير ذلك ممّا لم يوجد لأحدٍ قبله و لا بعده عاقبته الموت فما ظّنك بغيره قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

وَلَوْ اَنَّ اَحَداً يَجِدُ اِلَىٰ الْبَقَاءِ سُلَّماً اَوْ لِدَفْعِالْمَوْتِ سَبِيلاً لَكَانَ ذٰلِكَ سُلَيْمَانُ ابْنُ دَاوُودَ عليه السلام الَّذي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْـفَةِ. فَلَمَّا اسْتَوْفَىٰ طُعْمَتَهُ وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ رَمَتْهُ قِسَىُّ الْفَنَاءِ بِنبَالِ الْمَوْتِ وَاصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً وَالْمَسَاكِنُ مُعطَلَّةً وَوَرِثَها قَوْمٌ آخَرُونَ. وَاِنَّ لَكُمْ فِى الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعبرةً الخ[١].

١- خطبة ١٨٢

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ
ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ
ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
﴿٤٦﴾ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قَالَ
طَآئِرُكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَ
كَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي
ٱلْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا
بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَ مَكَرُوا
مَكْرًا وَ مَكَرْنَا مَكْرًا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَ
قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا
ظَلَمُوٓا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَ
أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَ
لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِنْ دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

◀ اللّغة

ثَمُودَ: بفتح الثّاء و ضَمّ الميم قيل هو عجَمي و قيل هو عرَبي و ترك صرفه لكونه إسم قبيلةٍ و هو مفعولٌ من الثَّمد و هو الماء القليل الّذي لا مادّة له و منه

قيل فلان مثمود ثمّدته النّساء أي قطعت مادّة ماءه لكثرة غشيانه لهنّ، و ثمودٌ إذا كثر عليه السّؤال حتّى فقد مادّة ماله قاله الرّاغب في المفردات.

ٱطَّيَّرْنَا: التَّطير التَّشأم و هو نسبة الشّوم إلى الشّئ على ما يأتي به الطّير من ناحية اليد اليسرى و الأصل في، أطيّرنا، تطَّيرنا، دخلت فيه ألف الوصل لمّا سكنت الطّاء للإدغام.

لَنُبَيِّتَنَّهُ: قرئ بالنُّون و التّاء.

خَاوِيَةً: أي خالية فارغة.

◄ الإعراب

فَإِذَا هُمْ إذا هنا للمفاجأة فهي مكان، و هُم مبتدأ و فَرِيقَانِ الخبر و يَخْتَصِمُونَ صفة و هي العاملة في، و رَهْطٍ إسم للجمع و لذلك أضيف تسعة إليه و يُفْسِدُونَ صفة لتسعة أو لرهطٍ تَقَاسَمُوا أمرٌ أي أمر بعضهم بعضاً و قيل هو فعل ماضٍ خَاوِيَةً حال من البيوت و بما يتّعلق بخاوية.

◄ التّفسير

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّه أرسل إلى قوم ثمود أخاهم صالحاً، يعني في النّسب لأنّه كان منهم **أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ** موضع أن، نصب و تقديره أرسلناه أن أعبدوا اللّه، **فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ**، منهم مؤمن بصالح و منهم كافر به و قيل معنى الكلام أنّ كلّ فرقةٍ قالت نحن على الحقّ دونكم و قد مرَّ الكلام في قصّة صالح مفصّلاً فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً.

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أي قال صالح لقومه لم تستعجلون بالعذاب قبل الرّحمة قاله مجاهد و على هذا فالسّيئة هاهنا المراد بها العقاب سمّاها سيّئة لما فيها من الألام و لأنّها جزاء على الأفعال السّيئة و قيل السّيئة العمل القبيح الّذي لا يجوز لفاعلها فعلها و نقيضها الحسنة هكذا قيل و يحتمل أن يكون المراد بالسّيئة الإنكار و الكفر بالتّوحيد و النّبوة و بالحسنة الإيمان باللّه و بما جاء النّبي و عليه فالمعنى لِمَ تؤخّرون الإيمان الّذي يجلب إليكم الثّواب و تقدّمون الكفر الّذي يوجب العذاب و قيل معنى الكلام لم تفعلون ما تستحّقون به العذاب لا أنّهم إلتمسوا تعجيل العذاب و قوله: **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ**، أي هلاّ تتوبون إلى اللّه من الشّرك لعلّكم ترحمون، أي لكي ترحمون لأنّ التّرجي لا معنى له في حقّ اللّه، و أنّما خرجت، لولا، إلى معنى، هلاّ، لأنّها كانت لإمتناع الشّيء لكون غيره كقولك لولا زيدٌ لأتيتك فخرجت إلى الإنكار لإمتناع الشّيء لفساد سببه فقال لولا تستغفرون منه.

قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَآئِرُكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

لمّا دعاهم صالح إلى عبادة اللّه و عدم الإستعجال بالسّيئة قبل الحسنة و أمرهم بالإستغفار أي طلب الغفران من اللّه، قالوا في جواب صالح النّبي، **ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ**، الهمزة للإستفهام و الأصل فيه تطيّرنا، كما مرَّ في شرح اللّغات، قيل أنّهم كانوا قد قحطوا و لمّا لاطفهم صالح في الخطاب أغلظوا له و قالوا: **ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ**، أي تشائمنا بك و بالّذين أمنوا معك و دَّل هذا العطف أنّ الفريقين كانوا مؤمنين و كافرين لقوله: **وَ بِمَنْ مَعَكَ**ك و جعلوا سبب قحطهم هو ذات صالح و من أمن معه فرَّد صالح عليهم بقوله: **طَآئِرُكُمْ**

عِنْدَ ٱللَّهِ أي حظّكم و نصيبكم في الحقيقة من خيرٍ أو شّرٍ هو عند اللّه و بقضاءه إن شاء رزقكم و إن شاء حرمكم.

و قال الزّمخشري و يجوز أن يريد و عملكم مكتوبٌ عند اللّه نزل بكم ما نزل عقوبةً لكم و فتنةً، و منه قوله: طائركم معكم، **وَ كُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طآئِرَهُ في عُنُقِهِ**(١) و قريئ تطّيرنا بكم على الأصل.

قال بعض المفسّرين الشّؤم النّحس و لا شئ أضّر بالرّأي و لا أفسد للتّدبير من إعتقاد الطَّيرة و من ظنَّ أنّ خوار بقرة أو نعيق غراب يرّد قضاءً أو يدفع مقدوراً فقد جهل و إلى هذا أشار الشّاعر بقوله:

طيرة الدّهر لا ترُّد قضاً فأعذر الدّهر لا تشبه بلومٍ
أيُّ يومٍ يخصّه بسعودٍ و المنايا ينزلن في كلّ يومٍ
ليس يومٌ إلاّ فيه سعودُ و نحوسُ تجري لقومٍ فقومٍ

و قد كانت العرب أكثر النّاس طيرة و كانت إذا أرادت سفراً نفّرت طائراً فإذا طار يمنةً، سارت و تيَّمنت و إذا طار شمالاً رجعت و تشأمَّت فنهى النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و قال أقّروا الطّير على و كناتها.

و قوله: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ**، كلمة، بل، للإضراب و الإفتنان الإمتحان و المعنى بل أنتم تمتحنون، و قيل الفتنة هاهنا قولهم: ما زيّن لهم من الباطل، وقيل معناه تعذّبون بذنوبكم.

وَ كانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ

و كان في المدينة أي مدينة صالح و هي الحجر تسعة رهطٍ أي تسعة رجالٍ من أبناء أشرافهم و كان هؤلاء التّسعة عظماء أهل المدينة و كانوا يفسدون في

١- الاسراء = ١٣

الأرض و يأمرون بالفساد فجلسوا عند صخرةٍ عظيمة فقلّبها اللّه عليهم، وقيل أنّهم كانوا يقرضون الدّراهم والدّنانير و ذلك من الفساد في الأرض، و قيل فسادهم أنّهم كانوا يتّبعون عورات النّاس و لا يسترون عليهم و هكذا و الحقّ على ما يفهم من الآية أنّهم كانوا من أوجه القوم و أقناهم و أغناهم و كانوا أهل كفرٍ و معاصٍ جمّة و جملة أمرهم أنّهم كانوا يفسدون و لا يصلحون و الرَّهط إسم للجماعة فكأنّهم كانوا رؤوساء يتبع كلّ واحدٍ منهم رهط و هؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عاقر النّاقة و إختلف في أسمائهم فقال الغزنوي، أسمائهم، قدار بن سالف، و مصدع، و أسلم و دسما، و ذهيم، و ذعماء و ذعميم، و قتال، و صداق بن إسحاق، رأسهم قدار بن سالف و مصدع بن مهرع فأتبعهم سبعة و قد ذكروا في أسمائهم غير ذلك و الكلّ لا دليل على صحتّه و لذلك أعرضنا عن نقل الأقوال و لا يهمّنا معرفة أسمائهم و أنّما المهّم معرفة أوصافهم و قد جمع اللّه أوصافهم المذمومة في جملةٍ واحدةٍ و هي قوله: **يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ**، و الفساد في الأرض يشمل الكلّ.

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ

قيل يجوز أن يكون، تقاسموا، فعلاً مستقبلاً و هو أمرٌ أي قال بعضهم لبعضٍ أطغوا، و يجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال كأنّهم قالوا متقاسمين باللّه، و دليل هذا التّأويل قراءة عبد اللّه تقاسموا باللّه و ليس فيها، قالوا.

و أمّا قوله: **لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ**، فقراءة العامّة فيها بالنّون و إختاره أبو حاتم و على هذا فقوله: **لَنُبَيِّتَنَّهُ**، و قرأ حمزة و الكسائي بالتّاء فيها و ضمّ اللاّم و التّاء على الخطاب أي أنّهم تخاطبوا بذلك و إختاره أبو عبيد، و قرأ مجاهد و حميد بالياء فيهما و ضّم الياء و اللاّم على الخبر و البيان مباغتة العدّو ليلاً و معنى، لوّليه، أي لرهط صالح الّذي له ولاية الدَّم.

قيل لمّا طالت المشاجرات و المخاطبات بينه عليه السلام و بين القوم و لم يؤمنوا به إتّفقت كلمتهم على أن يهجموا عليه في داره بياتاً و يقتلوه ثمّ ينكروا ذلك فلمّا أن ان اللّيل قام جماعة منهم و دخلوا على صالح في ظلمة اللّيل ليقتلوه فأنزل اللّه تعالى عليه ملائكة من السّماء رموا كلّ واحدٍ من أولئك الكفرة بحجرٍ فمات بساعته حتّى قتلوهم على أخرهم و إليه أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنٰا مَكْرًا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ** كماسيأتي الكلام فيه.

و أمّا قوله: **مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِكَ أَهْلِهِ** بفتح الميم و اللاّم على قراءة عاصم و في رواية حفص بفتح الميم و كسر اللاّم، و قرأ الباقون بضّم الميم و فتح اللاّم و لكلٍّ وجهٌ وجيه و حاصل معنى الآية أنّهم تقاسموا أي تحالفوا على قتل صالح بياتاً أي ليلاً كما ذكرناه و أن يقولوا، لوَّليه، أي لوَّلي الدَّم، **مٰا شَهِدْنٰا مَهْلِكَ أَهْلِهِ**، أي موضع هلاكه و إنّا لصادقون في قولنا و لمّا كان هذا من المكر قال اللّه تعالى: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا وَ مَكَرْنٰا مَكْرًا وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ** المَكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ و ذلك ضربان، مكرٌ محمودٌ و ذلك أن يتّحرى بذلك فعلٌ جميل و على ذلك قوله: **وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ**.

و مذمومٌ و هو أن يتّحرى به فعل قبيح.

و قال بعضهم المكر من اللّه إمهال العبد و تمكينه من أعراض الدّنيا و لذلك قال أميرالمؤمنين عليه السلام من وسَّع عليه دنياه ولم يعلم أنّه مكر به فهو مخدوعٌ عن عقله إذا عرفت هذا فقد جمع اللّه المكرين أعني بهما الممدوح و المذموم في هذه الآية التّي نحن بصدد تفسيرها، فقوله: **وَ مَكَرُوا مَكْرًا**، من المذموم لأنّهم أراد به قتل صالح و الإنكار بعده و لا نعني بالمكر المذموم إلاّ هذا، و أمّا قوله: **وَ مَكَرْنٰا مَكْرًا** فهو من الممدوح لأنّ اللّه تعالى قتلهم و لولا ذلك لقتلوا صالحاً فقتله إيّاهم صار سبباً لحياة صالح النّبي و بقائه و هو ممدوحٌ و إلى هذا أشار بقوله:

فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنّٰا دَمَّرْنٰاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

أي كان عاقبة مكرهم أن قتلوا جميعاً ففي الحقيقة مكرهم رجع إلى أنفسهم و فيه إشارة إلى أنّ من حفر بئراً لأخيه وقع فيه و من مكر في حَّق غيره فقد مكر به من حيث لا يحتسب.

و قال بعض المفسّرين، المكر من اللّه هو الجزاء على المكر فقوله: **وَ مَكَرْنٰا مَكْرًا** أي جازيناهم على مكرهم و جعلنا وباله عليهم و قال بعضهم يحتمل أن يكون المعنى في، مكرنا، أنجينا المؤمنين بالمكر بالكّفار بكلّ ما يقدرون عليه من الأضرار بهم و إلجائهم الى الإيمان و إنّما نسبه إلى نفسه لما كان بأمره.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خٰاوِيَةً بِمٰا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

أي فتلك بيوتهم خالية فارغة عنهم بما ظلموا، أي بسبب ظلمهم و فيه إيماءٌ إلى أنّ الظُّلم يوجب محو الظّالم و آثاره عن صفحة الوجود و لذلك قال: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** سوء عاقبته في الدّنيا و الآخرة **وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**.

وَ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ كٰانُوا يَتَّقُونَ

أي أنجينا المؤمنين المتّقين عن العذاب الّذي نزل بالكفّار في الدّنيا كما هو مقتضى العدل و قد تقدّم كيفيّة العذاب الّذي نزل بقوم صالح عند عقرهم النّاقة في سورة الشّعراء.

وَ لُوطًا إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفٰاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

أي تعلمون أنّها فاحشة ثمّ بيّن الفاحشة بقوله:

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسٰآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

أي تفعلون أفعال الجهّال لجهلكم بمواقع نعم اللّه عليكم و قد مرَّ تفصيل ذلك أيضاً في سورة الشّعراء عند قوله: **أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ**[۱].

هذا تمام الكلام في الجزء التّاسع عشر و يتلوه الجزء العشرون.

■

۱- الشّعراء = ۱۶۵

سُورَةُ اَلْمُؤْمِنُونَ ٩

■